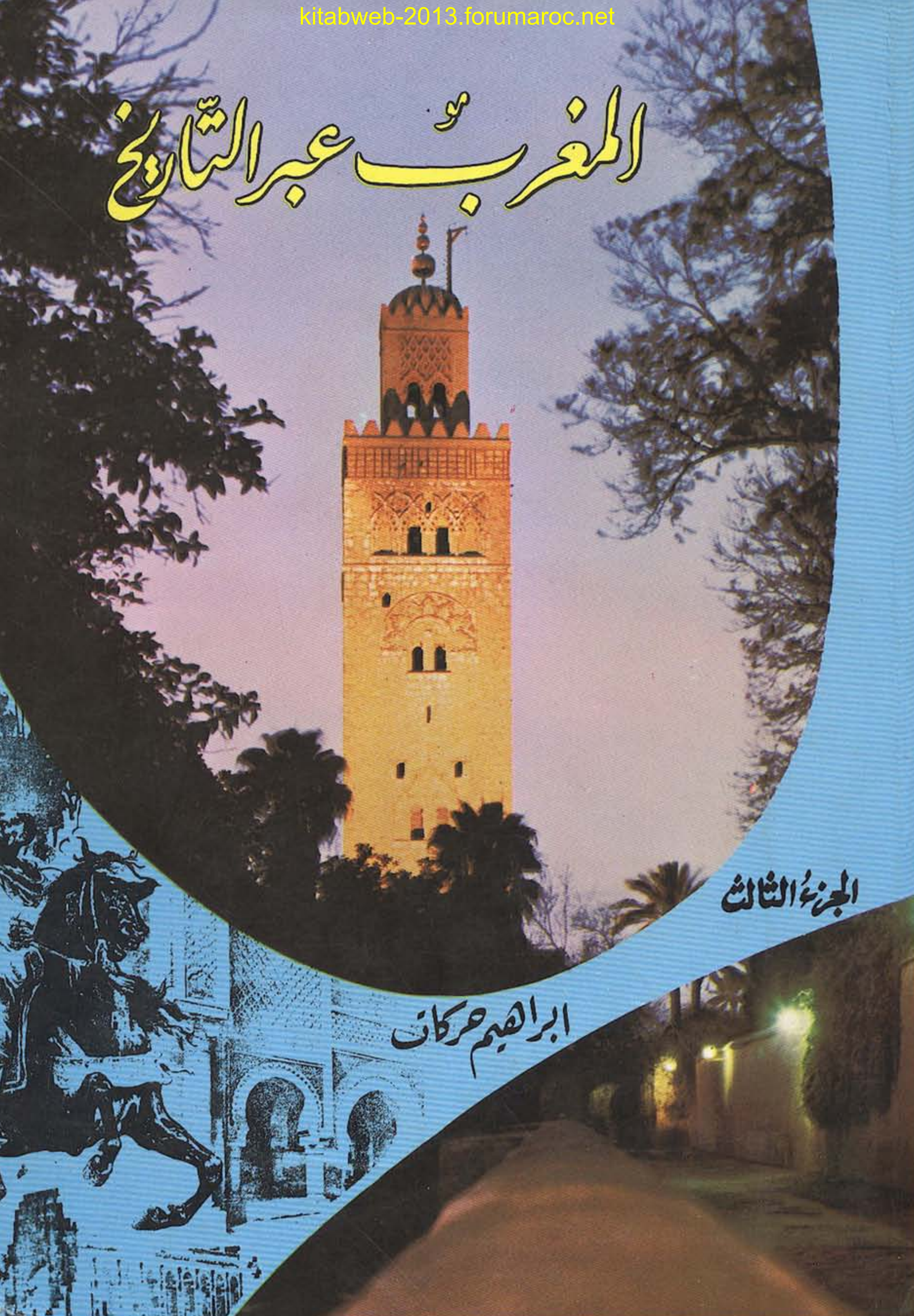
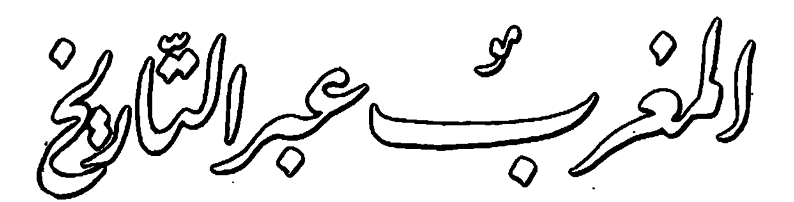


kitabweb-2013.forumaroc.net
المغرب عبر التاريخ
الجزء الثالث
ابراهيم حركات

ابراهيم حركات



عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر

من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية

الجزء الثالث

نشر وتوزيع
دار الرشاد الحديثة
98 شارع فيكتور هيجو
الهاتف : 27.48.17 — 27.32.56
الدار البيضاء



الطبعة الثانية 1415 ـــ 1994

الإيداع القانوني رقم 1984/614

القسم الأول

○ ○

التطورات السياسية

مدخل عن
الأوضاع الدولية في القرن 11 / 17م

العالم الغَرْبي

ارتبط ظهور الدولة العلوية بالمغرب ، بجملة من الأوضاع الدولية فضلا عن الأوضاع الداخلية . ذلك أن عصر الاكتشافات الذي بدأ في منتصف القرن 15م وأدَّى إلى تعرف المغامرين من إسبان وبرتغال وإنجليز وغيرهم من الأوروبيين على القارة الأمريكية وما حولها من جزر ، وكذا إلى احتلال أو إنشاء مراكز استعمارية بإفريقيا الغربية جعل من المغرب ممراً ستراتيجياً ما انفكت أهميته البالغة بالنسبة للسفن الأوروبية تتقوَّى مع الأيام والسنين ، مع أن سبتة كانت أول مركز مغربي يقع في قبضة الاحتلال البرتغالي . وهكذا فبالإضافة إلى عوامل صليبية قادت الإسبان والبرتغال إلى احتلال الموانئ المغربية منذ هذه الفترة وبالتدريج خلال فترة طويلة ، هناك الأهمية الاقتصادية التي يمثلها المغرب من حيث منتجاته المتنوعة ، وبصفة خاصة كمستهلك كبير لمنتجات أوروبا التي ما انفكت تغزو أسواق المغرب خصوصا منذ النصف الثاني من القرن 16م ، وتحتل الأسلحة والمنسوجات بينها مقاما رئيسيا . فحينما تتسابق المؤسسات التجارية والحكومية الأوروبية إلى عقد معاهدات واتفاقات تجارية وسياسية مع المغرب في العهد السعدي ، تتنافس في الحصول على أكثر ما يمكن من الامتيازات خصوصا بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي ، حيث تنعدم سلطة مركزية قوية ، وتتقطع أوصال الوحدة الوطنية .

كانت الأحوال الداخلية في جل الأقطار الأوروبية ، وفيما بينها على غير ما يرام بسبب نزاعاتها السياسية وانعدام الحريات الأساسية لدى شعوبها وتفاقم الصراعات الدينية ، وقد انعكست خلافاتها الثنائية على الوضع الاقتصادي الدولي والسياسة الدولية بوجه عام ولكن الأطراف الاستعمارية منها وجهت سياستها الخارجية حسب ظروفها قوة أو ضعفا .

في انجلترا أقيمت الجمهورية لفترة وجيزة استعادت الملكية بعدها قوتها لتذكي نار الصراع الديني ، وشهدت فرنسا عهدا من أمجادها بفضل وزيرها القوي ريشولبو على الرغم من الانتقادات التي وجهها إليه خصومه ، وخاضت فرنسا حربا ضروسا من أجل منطقتي اللورين والسافوا ضد الايطاليين . كذلك تميز هذا العصر بظهور لويس الرابع عشر الذي تدخل بصرامة في شؤون الدولة ولكنه استعان غالبا بشخصيات عالية الكفاءة ككولبير الذي نظم مالية الدولة وأدخل إصلاحات جذرية على الصناعة المدنية والعسكرية لكنه بالمقابل ، دخل في نزاع مع البابا على موارد الكنيسة ، واستولَى على مراكز في الجهة الشرقية كستراسبورغ ولوكسمبورغ ، وقامت بسبب ذلك حرب طويلة مع ألمانيا .

وكانت إيطاليا تعيش عهدا يواصل فترة تمزقها السياسي العريق الجذور ، وترابها موطئ أقدام الجيران والطامعين . أما إسبانيا فقد ضمنت وحدتها السياسية الداخلية بعد أن تخلصت من المسلمين ولم تستفد من خبرتهم الدقيقة في الزراعة والصناعة والفن المعماري. وبالرغم من الكشوفات التي درت على الإسبان والبرتغال أموالاً لا تحصَى فإن الانحطاط الاجتماعي والفكري استمر لأمد طويل بعد هجرة السكان المسلمين واليهود .

أما هولندا فقد اندمجت أقاليمها في وحدة سياسية منذ أوائل القرن الذي هو موضوع هذا العرض . وهولندا ليست إلا إقليماً غنياً من بين أقاليم البلاد الواطئة التي دعيت بالأقاليم المتحدة بعد اندماجها في إطار دولة موحدة ثم اشتهرت باسم هولندا . وقد تأرجحت هذه البلاد بين عداء للإسبان والإنجليز ثم عودة إلى التقارب مع الإسبان على إثر اجتياح الجيش الفرنسي للمنطقة في عهد لويس الرابع عشر[1] . وبالرغم من هذه الأحداث الخطيرة في تاريخ الشعب الهولندي ، نتيجة للصراعات الداخلية نفسها والتي ترجع لعوامل دينية على الأخص ، فإن هولندا

(1) كان اجتياح الفرنسيين لهولندا ابتداء من 1672 لأسباب سياسية ودينية ، وفي نفس الوقت عمدوا إلى احتلال جزء من بلجيكا التابعة آنذاك للعرش الإسباني . وقد أثار الموقف الفرنسي غضب سائر أوروبا الغربية ، إلا أن الأحوال الداخلية بهذه البلاد ، بما فيها انجلترا سمحت لفرنسا بفرض شروط مهينة على خصومها سنة 1678 بما في ذلك تزكية ضمها لأجزاء من بلجيكا

أنشأت قوة بحرية كان يحسب لها حسابها على الصعيد الدولي ، وأسهمت في حركة الاستعمار الدولية التي أتاحت لها منافسة الأساطيل التجارية البريطانية بكفاءة .

وأضعفت الحروب الطاحنة التي خاضتها الأمبراطورية الألمانية ضد جيرانها من أوضاعها السياسية والاقتصادية ، حتّى صارت هذه الأمبراطورية أشبه بمملكة الطوائف في أواسط القرن السابع عشر ، فتكونت أزيد من ثلاثمائة وخمسين منطقة أو دويلة لا تدين جلها بولاء للعاهل . ولا ريب أن أهم هذه الرقعة الفسيفسائية هي منطقة النمسا التي تعرضت عاصمتها فينا لحصار تركي خطير سنة 1683 ، وأمام عجز ليوبولد الأول عن رد المهاجمين ، فقد استنجد بالقوات البولونية التي بقيادة عاهل بولونيا صوبيسكي تمكنت من إنقاذ العاصمة النمساوية .

كذلك قامت الحرب بين السويد وجيرانها السكندينافيين ؛ وللسويد دائما طموحات واسعة داخل المنطقة . أما بولونيا فقد واجهت التوغل التركي في أوروبا بتحد ، وتعرضت هي نفسها لغزو سويدي كاسح لعدة سنوات قبل أن تستعيد استقلالها . غير أن مغامرة عسكرية في روسيا بقيادة العاهل جان كازيمير كان مآلها خسرانٌ مبين في صفوف الجيش البولوني الذي اكتسح الأراضي الروسية غير ما مرة .. وفي الربع الأخير من القرن 17م ، وبعد أن شهدت روسيا فترة طويلة من الاضطرابات والصراعات من أجل العرش وضد الدول الطامحة الأخرى من أتراك وبولونيين وغيرهم ؛ تولى الامبراطور بطرس الأكبر الذي يعد من أبرز عواهل روسيا عبر تاريخها . وقد أعاد تنظيم هياكل الحكم المركزي والوطني وأنشأ جيشا قوياً واسطولا بحرياً ، كما عمل على تطوير الصناعة والايرادات المالية ؛ ونشط في الحرب ضد العثمانيين . على أن سواد الشعب الذي يتكون من الفلاحين لم يمسه الإصلاح بشيء يذكر . وفي صرامته وبطشه وروحه الدكتاتورية ، يذكرنا بطرس الأكبر بآخرين من عصره ، لاسيما لويس الرابع عشر ، وقد أسس هذا العاهل الروسي عاصمة جديدة حملت اسم بطرسبرج منذ 1703م .

والحق أن القرن السابع عشر يفتح عهد الملكيات المطلقة في أوروبا بعد عهد طويل وحافل من الأنظمة الإقطاعية . ومع ذلك فقد تميزت بلاد أقرب إلى النظام الديمقراطي لاسيما انكلترا ، بينما توجد جمهوريات صغيرة جلها كان قائما من قبل

كالجمهوريات الإيطالية . على أن الكنيسة قد احتفظت بنفوذها الروحي وثرائها المادي على الرغم من انحدار نفوذها السياسي. وتقلدت انكلترا وهولندا وفرنسا مكان الصدارة في حركة التجارة الدولية بفضل أساطيلها النشيطة . لكن ظهور حركة غزاة البحر على نطاق المغرب الكبير عرقلت نعمة السلام على هذه الأساطيل في عرض البحر المتوسط وكثيرا ما استولت على سفنها وبضائعها ، ومهما يكن من أمر ، فإن حركة التصدير والاستيراد أخذت بعدا دولياً حقيقيا ، وظهر أن الدول الأوروبية تعمل تدريجياً وبسرعة على احتكار الاقتصاد الدولي بشتَّى الوسائل . وهذه الرغبة التي يعززها حنين الأوساط الكنسية والمتعاطفة معها إلى وقف الامتداد العثماني وإعلان حرب صليبية ولو مقنعة ضد الإسلام انعكست على الأحداث التي وجهت مصير الشمال الإفريقي بعد القرن السابع عشر .

لقد عرف الغرب الآن قيمة المال واستغلاله على أوسع نطاق بفضل حركة التصنيع التي بدأت تنمو تدريجياً ، وعن طريق الشركات والمؤسسات التجارية وإنشاء شبكة كبرَى من المصارف . ومنذ هذا العصر بالذات أصبح الشرق كله أو جله مستهلكاً لمصنوعات تأتي من الغرب أو عن طريقه .

وتقدمت المعارف في مجموعها دون أن تفقد الفنون والآداب ارتباطها بالماضي القديم الذي مثله الإنتاج الإغريقي واللاتيني . وهكذا تبوأت الكلاسيكيات في الأدب والمسرح مكانا رفيعاً ظل أثره عميق الجذور حتَّى يومنا هذا على الرغم من التطورات الموازية والمتعاقبة .

ونشأت حركة تعليمية أوسع نطاقاً أخذت فيها اللغات الوطنية والعلوم الحديثة مكانا لم تحظ به من قبل . وكان التقدم بارزاً في الهيئة والرياضيات حيث ظهر نيوتن الإنجليزي وكليبير الألماني ، والأول صاحب نظرية الجاذبية والثاني الذي أدلَى بنظريات حول المجموعة الشمسية ، كما ظهر غاليليو الإيطالي الذي بحث موضوع الكلف الشمسي وبراكين القمر وغير ذلك ، وديكارت الفرنسي الذي حققت دراساته مزيداً من التقدم في الهندسة التحليلية ، وآخرون كثيرون في هذه العلوم وغيرها كالعلوم الطبيعية والطب والجراحة والعلوم البصرية .

العالم الإسلامي

ظل العالم الإسلامي في معظمه خاضعاً للسلطة العثمانية التي أدارت شؤون هذه الرقعة الشاسعة من أسطمبول التي كانت فيما مضى مقر الحكام البيزنطيين ، وفي هذا القرن كما يقول مؤرخ معاصر انتهى الامتداد الجغرافي للامبراطورية العثمانية إلى أوسع مداه ، وتعين على الأتراك أن يدافعوا عما استولو عليه ، ولكن الواقع أن هذه الامبراطورية لم تنعم بالسلم في أغلب جهاتها وعلى طول امتدادها الزمني ، بالنظر لمساحة الامبراطورية ، وللمطامح الوطنية والقومية وتآزرها ضد الحكم العثماني وتدخل الدول الأوروبية القوية والتي تتحالف ضد التوسع العثماني ، وهناك أيضا ، دور القيادة السيئة على الصعيدين المركزي والمحلي ، وأزمات العرش التي شغلت الحكام عن مصالح المحكومين .

والواقع أن العثمانيين لم يكونوا وحدهم أولي بأس شديد في القسم الشرقي من العالم الإسلامي ، فقد شاطرهم الفرس الظهور في فترة طويلة من القرن 11 / 17م بزعامة الصفويين الذين أظهروا تفتحا فكريا واسعا خلال هذا القرن ، وقبل أن تسقط دولتهم على يد الأفغان سنة 1722م . بل إن أحدهم وهو الشاه عباس غزا بغداد سنة 1032 / 1622 . ولم يسترجعها الأتراك إلا سنة 1048 / 1638 كما استولى على هرمز من يد البرتغال . وبالمقابل فإن حفيده سام ميرزا والذي خلفه على العرش ، أضاع بغداد التي استعادها الأتراك ، وقندهار التي دخلت في التراب الأفغاني. غير أن هذه الأحداث لم تعرقل توسعات الأتراك وتحقيق أحلامهم البعيدة في الهيمنة ، فقد عملوا على تجريد البنادقة من أمجادهم العسكرية الماضية وزحزحوهم عن عدد من المواقع التي تبقّت بأيديهم حتّى قرب منتصف القرن 17 لاسيما اقريطش (كريت) ذات الأهمية الستراتيجية في شرق البحر المتوسط والتي تكلف فتحها حشد مائة ألف مقاتل . والواقع أن الحكومة العثمانية قد شهدت الكثير من مفاخرها السياسية والعسكرية في هذا العصر على يد الصدر الأعظم محمد باشا كوبريلي ذي الأصل الألباني والذي وفق أيضا إلى إعادة التنظيم المالي والاقتصادي للأمبراطورية الشاسعة .

وقام الأتراك بمهاجمة المملكة البولونية التي كانت تمتد بعمق داخل التراب الروسي الحالي ، إلا أن تدخلات النمسا والبابا اضطرت الأتراك إلى الرضى بعقد

صلح مع بولونيا ، خصوصا وقد تهيأ الروس لحرب طاحنة لاسترداد جملة من الأراضي التي تنازعها الروس والبولونيون حتّى كانت معاهدة سنة 1681 فاستردت روسيا بموجبها قسما من هذه الأراضي ، ثم هاجم الأتراك النمسا والأراضي التابعة لها غير ما مرة ووقفوا على أبواب فيينا سنة 1683 في عهد الصدر الأعظم مصطفَى باشا . وبالرغم من فشلهم في اقتحامها ، فقد وفقوا إلى الاستيلاء على أزوف وبلغراد وأجزاء كبيرة من المجر . وحينئذ تحركت الدول الأوروبية الرئيسية : أنكلترا وفرنسا والنمسا وروسيا وبولندا والبندقية وهولندا لعقد صلح بين الأتراك والدولة النمساوية سنة 1110 / 1698 وقد تخلت الدولة العثمانية بموجب هذا الصلح عن حرب النمسا ملتزمة بذلك لمدة ربع قرن ، ولكن في داخل القيادة التركية وبين المتحمسين لمد النفوذ الإسلامي ظهرت معارضة شديدة انتهت باستئناف الحرب على جبهات متعددة قبل انصرام مدة الصلح المذكور . والحق أن الصراع الطويل الذي خاضه العثمانيون على نطاق دولي طيلة القرن السابع عشر لم تكن تحدوه الهيمنة السياسية وحدها ، إنه صراع ستراتيجي يرتبط بمصير منطقة الأناضول الذي أدّى إلى الاحتكاك طردا وعكساً بمجموعة من الشعوب والدول المجاورة . ومن ثمَّ فإن المؤثرات الدينية تلعب أيضا دوراً بالغا في هذا الصراع بالرغم من التسامح الديني الذي طبع التاريخ العثماني في أغلب الظروف ، تجاه المجموعات التي سادها الحكم التركي .

الشمال الإفريقي

تكوّن هذه المنطقة الجزء الغربي من العالم الإسلامي . وبحكم كونها امتداداً جغرافياً لهذا العالم فقد ترددت فيها أصداء الأحداث العالمية التي كان الأتراك طرفاً رئيسياً فيها خلال القرن السابع عشر ، ولكن هذا الجزء من العالم الإسلامي حتّى وإن امتد إليه النفوذ التركي منذ القرن 10 / 16م قد تميز بروحه الاستقلالية عن السلطة المركزية مع ارتباطات ولائية وعسكرية محدودة ، في الوقت الذي لا يسري حتّى هذا الارتباط المحدود على المغرب ، ومع ذلك فتفاعل الأحداث بين المغرب وجيرانه شرقاً لا يتوقف قط . وارتبط الوجود التركي بنشاط حركة اعتراض السفن الأوروبية ، تلك الحركة التي تحدوها طوراً روح المغامرة ، وطوراً روح نضالية ضد الأوروبي الذي زعزع اقتصاد العالم الإسلامي باستيلائه على الطرق التجارية البحرية وكشوفه الجشعة .

على أن القرصنة المسيحية قد شغلت الأوروبيين فيما بينهم في عرض البحر المتوسط أحياناً ، مثلما انضمت مجموعات من الأعلاج إلى الأتراك والوطنيين في بعض مراكز الشمال الإفريقي[2] طمعا في الغنائم والرواتب المغربية . وقد استولى خير الدين بربروس على جربة سنة 919 / 1513 ثم على الجزائر بعد أربع سنوات . وفيما بين 1668 — 1678م استولى غزاة طرابلس على 104 سفينة بينها 33 سفينة فرنسية[3] ، كما أن سفن بريطانيا وفرنسا قنبلت طرابلس فيما بين 1654 — 1671 [4] وكان الأوروبيون من فرنسا وبريطانيا وهولندا والبرتغال قد أسسوا عدة مراكز تجارية بالهند خلال هذه الفترة وقبلها بقليل ، ولكن ما وجدوه من مضايقة في عرض البحر المتوسط لم يجدوا له مثيلا في عرض المحيط الهندي . وهكذا فإن سلسلة المراكز الساحلية التي اتخذها الأتراك والعناصر المحلية أو الموريسكية على طول سواحل الشمال الإفريقي من ليبيا حتّى المحيط الأطلسي لم تقم بعمليات النهب حباً في النهب لذاته ، بل للجهاد ضد المسيحيين الذين نجحوا في الاستيلاء على مجموعة من موانئ هذه البلاد ابتداء من سبتة سنة 1415م ، وبالنسبة للقطرين الجزائري والتونسي فإن استقلالها الفعلي عن السلطة العثمانية خلال القرن 11 / 17م سمح لحركة الجهاد البحري في الموانئ أن تنمو وتنشط بعيداً عن التدخل المركزي وبتواطؤ مع السلطة المحلية المستقلة ، والتي مثّلها في الجزائر الأغوات ابتداء من 1659م ثم الدايات ابتداء من 1671 ، وفي تونس ، الدايات من سنة 1590 ، والبايات انطلاقا من 1705م . غير أن الجزائر شهدت فترة طويلة من الصراع على السلطة بين الديوان من جهة ، والأغوات ثم الدايات من جهة أخرى[5] . وهذا الصراع الداخلي الذي كثيرا ما أثار تمرد القبائل على الحكام هو الذي جعل القسم الغربي يولي وجهه غير ما مرة شطر المغرب لإنقاذه من الفوضى والمظالم ، حيث تدخل الجيش المغربي مراراً ولكن دون نتائج طويلة الأمد .

كذلك نشأ الصراع بتونس بين المتناحرين على السلطة العليا (الدايات) طوراً وبين هؤلاء والديوان تارة أخرى . ولم يكن بين الدايات أتراك فحسب ، بل

---

(2) Hervé Gueneron, La Libye, que sais-je, n°1634, p.29
(3) Op. Cit, p.31
(4) A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, pp.274-277
(5) A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, pp.274-277

وأعلاج من أصول مختلفة أيضا ، مثلما حدث في ليبيا . فقد استظل بمظلة الدولة العثمانية عدد غير قليل من الطموحين الذين تمكنوا من الوصول إلى تنصيب أنفسهم حكاما في جهات مختلفة وهم عناصر ألبانية أو إيطالية أو انجليزية أو غيرها ، والحق أن القرن السابع عشر يمثل بالنسبة للمغرب الكبير عصر انحسار دور العناصر الوطنية في حماية الأمن الداخلي حيث يبرز دور الأعلاج والأتراك والمرتزقة الأجانب والعناصر الزنجية التي ستوجه أحداث المغرب الأقصى لفترة طويلة .

ولقد كانت وضعية المغرب قُبَيْل قيام الدولة العلوية أشبه ما تكون بها قُبيل قيام النظام السعدي : انشطار البلاد إلى رقع نفوذ عديدة تخضع للمد والجزر ، وتدهور اقتصادي يذكيه انعدام الأمن والاستقرار ، وقلق اجتماعي يسود المدن والأرياف ويعرقل نشاط السكان في مختلف مجالات الحياة :

1 ــ كان إقليم سوس والصحراء الغربية ومنطقة درعة كلها تابعة للسوسي أبي حسون السملالي المعروف ببودميعة ، ومن ثم كانت حكومة أبي حسون تراقب الممر التجاري المتجه من درعة وتارودانت نحو إفريقيا الغربية ، وهذا يجعل جزءا هاما من موارد التجارة الداخلية تحت رحمة أبي حسون ونظامه الذي كان مقره إيليغ السوسية .

2 ــ الخضر غيْلان الذي خلف المجاهد العياشي في النضال ضد الاحتلال الأجنبي كان يراقب منطقة الهبط (الغرب) متخذا من قصر كتامة (القصر الكبير) مقرا له حتَّى يكون قريبا من طنجة التي كانت تحت الاحتلال الإنجليزي الذي قاومه الخضر باستماتة .

3 ــ فاس والجهات القريبة منها حتَّى أعماق الأطلس المتوسط كانت بيد الدلائيين ومقرهم زاوية آيت إسحق (الزاوية الدلائية) بقرب خنيفرة . وقد نهكتهم الحرب ضد المنافسين خصوصاً أبا حسون السملالي .

4 ــ الشيخ أعراس بالريف ، وتمثل ثورته رفضاً لسائر النزعات المتصارعة .

5 ــ أسرة الشبانات بمراكش ، وقد أقصوا بقايا السعديين عن الحكم .

6 ــ سبتة ومليلية والجزر الجعفرية والمعمورة (المهدية) والعرائش وأصيلا تحت

الاحتلال الإسباني . والبريجة (الجديدة) تحت الاحتلال البرتغالي.

وخارج هذه الجهات، توجد قبائل ومراكز تنتقل تبعيتها حسب موازين القوى، وقبائل تهاجم المراكز الحضرية القريبة كلما واتتها الفرصة.

وبالرغم من الجهود المتواصلة التي أبداها العلويون حتى عهد مولاي اسماعيل، من أجل إقرار وحدة شاملة للبلاد، فإن الحنين إلى الانعتاق من سلطة مركزية لا تضمن استقلالا ذاتياً ولا انفصالا حقيقياً عن إطار الوحدة السياسية ظل يعاود جل الجهات التي تم إخضاعها بالقوة لتقبل هذه الوحدة. وهكذا فإن سوس ظلت تبحث عن زعامات من الدولة العلوية، على أن تتحرك باسمها ومن أرضها، وظهر في منطقة الشمال الغربي إقطاعيون من الباشوات والقواد انتهوا إلى إعلان الحرب ضد الدولة الجديدة، وقبلت فاس بصعوبة متناهية وفي ظل اضطرابات دامية الولاة الذين عينهم سلاطين الدولة العلوية. وأدى إقصاء الدلائيين وتخريب زاويتهم إلى حركة تمرد عارمة في الأطلس المتوسط غذتها في جل الأحوال زعامات إقطاعية ينقصها الحس الوطني، دون أن تتوفر السلطة المركزية على وعي عميق بما كان يجري في المنطقة ولا بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر في تحركات هذه الجهة مثلما تؤثر في جهات أخرى.

وفي الظروف التي قامت فيها الدولة العلوية، لم يكن هناك مفاوض واحد فقط للأطراف الأجنبية، بل مفاوضون عديدون، كل منهم يعمل لحسابه، وباسم منطقة نفوذه. وليس هناك نظام ضرائبي واحد، بل إن التاجر الذي يتحرك ببضاعته من فاس باتجاه إفريقيا الغربية، عليه أن يؤدي المكس على باب فاس، ثم للحكام الدلائيين ثم لمخزن أبي حسون، ثم للقبائل والجهات التي يمر بها تباعا حتى هدفه النهائي، وعليه أن يكرر العملية في رجوعه، وكل هذا إذا سلمت بضاعته من النهب وحياته من الخطر. وبالطبع لم تكن هناك عملة واحدة بل عدة عملات، وهذا يزيد من مشكلات التعامل النقدي ويضعف الثقة في أدنى ضماناته.

والأمن غير مضمون على النفس والمال إذ لا توجد شرطة وطنية أو ما يقوم مقامها، باستثناء الحماية النسبية التي تقدمها الحكومات المحلية داخل مناطقها التي لا

تستقر أبداً ، ولا يوجد جيش وطني نظامي ولا شعبي على النطاق الوطني لمقاومة الاحتلال الأجنبي .

فكل هذه القضايا وغيرها مما يهم وحدة الوطن وحياة المواطنين كانت بحاجة إلى بناء جديد وشامل ، ثم لابد أن نتصور ما يقتضيه جوار الأتراك بالجزائر حيث يأوي إلى كنفهم الظالم والمظلوم من جهة المغرب ، فضلا عن قضايا الحدود التي أثارت نزاعات خطيرة ، وأخيرا تطويق الاحتلال الإسباني للمغرب ، يتممه الاحتلال الإنجليزي لطنجة ، والبرتغالي للجديدة ، ثم التهديدات المتفاقمة من أساطيل الدول الأوروبية القوية بحجة القضاء على القراصنة .

تلك نظرة موجزة عن الوضع الدولي والجهوي والوطني عند قيام الدولة العلوية ، وهي تظهر مدَى خطورة الظروف والأوضاع التي كان على الحركة الجديدة أن تجابهها أو تعايشها في الوقت الذي تعمل فيه على إقرار الوحدة الوطنية وإعادة بناء الهياكل السياسية والإدارية والاقتصادية ، وإقامة علاقات دبلوماسية في مستوَى تطلعات البلاد وحرمة سيادتها . فإلى أي حد وفقت الحركة العلوية في تحمل مسؤولياتها حتَّى إقرار الحماية الفرنسية ؟ هذا ما تعالجه الفصول اللاحقة .

❋

الفصل الاول
نشأة الدولـة

1047 – 1082 (1637 – 1672)

مولاي الشريف – مولاي مَحمد بن الشريف – مولاي رشيد

هجرة جد العلويين

اقترن قدوم الحسن الداخل ، الذي هاجر من الحجاز إلى المغرب ، والذي تنتمي إليه الأسرة العلوية التي تولت الحكم بالمغرب منذ 1059 / 1649 بحركة واسعة لرد الاعتبار إلى الأشراف تبناها المرينيون أنفسهم ، مصححين بذلك أخطاء أسلافهم الزناتيين الذين اضطهدوا الأدارسة خاصة في عهد موسَى بن أبي العافية[1]. وفي الواقع خفتت ظاهرة تكريم الأشراف طيلة العهدين المرابطي والموحدي على الرغم من استناد المهدي بن تومرت إلى النسب العلوي واهتمام الموحدين بالدراسات الحديثية . وما أن قر عزم أهل فاس على تصفية بني مرين حتّى أحلّوا مكانهم شخصاً من سلالة إدريس الثاني ، ففتح بذلك باب واسع لتكريم الشرفاء والاعتقاد ببركتهم وبقدرتهم على تحقيق إصلاح ديني وسياسي واقتصادي لا يستطيعه غيرهم . لكن الحركة الإدريسية الجديدة فشلت في أداء مهمتها وجاء بعدها الوطاسيون الذين واصلوا إلى حين ، سياسة إخوانهم من بني مرين ، ثم التجأ المغاربة مرة أخرى إلى الأشراف بمبادرة من الزاوية الجزولية ، ولصالح السعديين الذين يرتبطون في عمود نسبهم بالعلويين ، وحينما أصيبت الوحدة المغربية بالقطيعة والتمزق خلال النصف الأول من القرن 11/ 17م بادر أهل سجلماسة إلى مناصرة أسرة الأشراف العلويين بها في الظروف التي سيأتي التذكير بها والتي أدت إلى قيام دولة جديدة .

---

(1) الأفرني ، نزهة الحادي ، (نص فرنسي ، ترجمة هوداس) ، ص 481

أما عن استقرار الحسن الداخل بسجلماسة فحسب الافرني[2] كان بطلب من جماعة من الحجاج الذين وردوا على الحجاز قادمين من سجلماسة التي خلت من الأشراف خلال القرن السابع الهجري حسب نفس الرواية . ولما كان الاعتقاد ببركة الشرفاء من التقاليد الاجتماعية التي عمل الأدارسة على ترسيخها بصفة خاصة ، فقد رغب أهل سجلماسة في استقدام بعض الأشراف من وطنهم الأصلي تيمناً بمعايشتهم واستدراراً للخير بفضلهم ، فاتصلوا في ينبع ، وهي واحة وميناء صغير على البحر الأحمر بالقاسم والد الحسن ، الذي وافق على ارسال نجله هذا للاستقرار بسجلماسة ، مثلما وافق الحسن أيضاً . وتضيف مختلف الروايات أن المنطقة عاد إليها ازدهارها بفضل بركته . وقد حل الحسن الداخل في أواسط القرن السابع أي الثالث عشر الميلادي . وأغلب الظن أنه رافق موكب الحج الذي كان يقوده الشيخ أبو إبراهيم من سجلماسة . وكان المغاربة يقصدون الاشراف في ينبع حيث كانوا هناك كثيرين . ويفصل بين الحسن الداخل وجده محمد النفس الزكية خمسة عشر جيلاً . وقد عرف بالفضل والتقوَى وسعة المعارف خصوصا علم البيان . ثم تزوج من إحدَى بنات الشيخ أبي إبراهيم وسكن مكانا يدعَى المصلح (بفتح الميم واللام) ، ثم توفي سنة 706 أو 707 (1306 أو 1307) ودفن وسط مدينة سجلماسة باتفاق بين أهلها . ومن أعقابه مولاي علي الشريف (الأول) الذي عاصر احتضار ملك بني الأحمر بغرناطة ، ودعاه الأندلسيون إلى الجهاد ، فتردد عليها مرارا لهذا الغرض في أواسط القرن التاسع / الخامس عشر م . كما عرضوا عليه إنشاء نظام ملكي بها يحل محل الحكم القائم ، فرفض رفضاً باتا هذا العرض . وقام مولاي علي هذا بغزو الوثنيين في بعض جهات السودان حيث بلغ أكدج . كما استقر مدة بفاس بحومة جزاء ابن عامر من عدوة القرويين ، وأقام فترة بصفرو حيث خلف هناك عقارات . وكانت له مراسلات مع أهل الأندلس بشأن الجهاد ، وقد عرف بصلاحه وتقواه[3] . ومن أولاده مولاي علي (الثاني) الذي من أحفاده المباشرين مولاي علي الشريف دفين مراكش وجد ملوك الدولة العلوية . وكان مولده سنة 997 / 1587 .

---

(2) ن . م . ص 480 . أكنسوس ، الجيش العرمرم ، ص 47 ، وانظر أيضا ، المشرفي ، حلل بهية ، ص 58 ، 62 والناصري ، استقصا ، 4 ، 7 .

(3) نزهة الحادي ، ص 486 ، 493 . الجيش العرمرم ، ص 50 — 54 . المشرفي ، حلل ، ص 62 . الناصري ، استقصا ، 7 ، 7— 12 .

تنصيب الشريف بن علي

ترك مولاي علي الشريف (الثالث) جماعة من الأولاد أحدهم الشريف ، وكان هذا اسمه ، وقد تناقل سكان سجلماسة من طريقه رواية عن أحد صلحاء سجلماسة وفقهائها عبد الله بن علي بن طاهر بشأن تكهنه بظهور الملك في أسرته . وقد عرف مولاي الشريف بتقواه وصلاحه كسائر أسلافه . وكانت سجلماسة في عهده تابعة لأبي حسون أمير سوس وسائر الجنوب المغربي ، ويؤكد الأفرني أن سكان سجلماسة كانوا يعانون من القهر الضرائبي على يد ولاة أبي حسون . ومن جهة أخرى كان بين الشريف وأهل تبوعصامت من حصون سجلماسة عداوة من إذايتهم[4] أدت إلى مواجهة مسلحة ، واستصرخ الشريف بأهل سوس ، واستصرخ أهل تبوعصامت بالدلائيين ، ولكن تدخل العقلاء أدّى إلى انسحاب النجدتين من غير قتال ، وسويت الأمور لصالح مولاي الشريف ، وكان ذلك سنة 1043 / 1633 وعندئذ عمل أهل تبوعصامت على إفساد الجو بين أبي حسون والشريف فتقربوا من الأول وأفسدوا ما بين الرجلين «إلى أن أظلم الجو بينهم واستحكمت القطيعة» كما يقول أكنسوس . وعندئذ ، هاجمهم الشريف على غرة بمائتين من الخيل واستولَى على قلعتهم وأموالهم ، ثم عاد إلى مقره ، فضربت عليه الطبول وبويع في الحين على مشهد من ولاة أبي حسون الذي أمرهم باعتقاله وتوجيهه إلى سوس ، فاحتالوا في القبض عليه ، وذلك سنة 1047 / 1637 حيث نقل إلى بعض حصون سوس بالساحل ثم عمل ولده مولاي محمد (بفتح الأولى) على افتدائه بمال عظيم ، ولكن أبا حسون احتفظ به على الرغم من تهديدات الدلائيين . وبقيت ظروف نجاته من الاعتقال غامضة حيث تختلف روايات المؤرخين بشأنها[5] . وحسب الضعيف[6] فقد احتال في الفرار سنة 1051 ، وكيفما كان الأمر ، فقد زهد الشريف في الملك بعد عودته ، ورد بيعة أهل الصحراء مفضلا التفرغ للعبادة حتّى أدركته الوفاة سنة 1069 . ويظهر أن هناك حافزا سياسياً كذلك جعله يزهد في الملك ، وهو أن نجله مولاي محمد قد تصدّى بشكل حازم لقوات أبي حسون داخل سجلماسة وما حولها حتّى سحق مقاومتها بفضل تعاون السكان واستبسالهم إلى جانبه ، وطرد جميع

---

(4) الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، ص 2 ـ 4

(5) قارن بين : نزهة ، ص 497 ، والجيش العرمرم ص 55 ، والضعيف ، ص 4

(6) الضعيف ، م . س ، ص 4

أنصار أبي حسون سنة 1050 / 1640م . ومن ثم فإن انسحاب مولاي الشريف من المسرح السياسي تدبير حكيم لسببين رئيسيين : أولاً ، لتجنب صدام محتمل بين الوالد ونجله ، وثانياً ، للمقدرة الفائقة التي أظهرها مولاي محمد في مجابهة أبي حسون ثم في مجابهة الدلائيين وغيرهم .

إقرار الوحدة الوطنية

مَحمد بن الشريف (1050 – 1069 / 1640 – 1658)

بدأ مولاي محمد بن الشريف يمارس سلطته على سجلماسة بمجرد طرد أنصار وولاة أبي حسون منها سنة 1050 / 1640 حيث تلقى بيعة السكان في عين المكان[7] . وهو أحد إخوة ثلاثة من مولاي علي الشريف تعاقبوا على الملك ، وهم مَحمد هذا والرشيد وإسمعيل . ووصف مولاي محمد بأنه كان قوي البدن «شجاعا مقداما لا يبالي بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال»[8] . وبفضل التأييد السياسي والعسكري الذي لقيه من أهل سجلماسة ، تشوف لمطاردة قوات أبي حسون من درعة والصحاري المجاورة حيث تكثر العناصر العربية والمختلطة التي تنصهر فيها أصول إفريقية وبربرية وعربية (الحراطين) . وفي الواقع تلعب الصحراء دورا في منتهى الأهمية بالنسبة لبنيات الدولة الناشئة مثلما حصل من قبل في تكوين أنظمة حكم صحراوية المنبت (المرابطون ، المرينيون ، السعديون) وقد خاض أنصار العلويين حربا ضروسا ضد أنصار أبي حسون في درعة ، إلى أن تمكنوا من إجلائهم عنها . ومن ثَم ، أصبح النظام الجديد يتحكم كليا في محور سجلماسة ودرعة ، اللتين تؤديان إلى إفريقيا الغربية ، كما يتصل محور سجلماسة بصحراء الجزائر ، وسيكون لذلك أثر بعيد المدَى في سير الأحداث جنوب المغرب وشرقه ، وقد انقبعت إمارة أبي حسون بسوس والصحراء الغربية بعد أن فقدت درعة وسجلماسة والمناطق المجاورة لها ، غير أن الأمور لم تَصْفُ لمولاي محمد بقدر ما كان يتصوره ، فإن الدلائيين الذين يسري نفوذهم على فاس وما حولها غربا حتَّى أبي رقراق قد خشوا من هجوم مولاي محمد على فاس ، فانطلقوا بجحافلهم عبر وادي ملوية ، بعد أن بثوا سراياهم

---

(7) نزهة ، ص 498

(8) استقصا ، 7 ، 31 . اكنسوس ، ص 57 . أفرني ، نزهة ، ص 500 .

في غارات متعددة ضد سجلماسة وضواحيها ، ثم هزموا قوات مولاي محمد في معركة القاعة سنة 1056 / 1646 ، فتحصن بتزمي ، ثم اقتحم الدلائيون بزعامة محمد الحاج مدينة سجلماسة ، وعاملوا أهلها أسوأ معاملة(9) ، وأخيرا تم الصلح بين الفريقين على تنازلات ترابية أكره عليها الأمير العلوي حيث أضيف إلى الدلائيين المناطق المجاورة لجبل بني عياش غربا ، كما وضعوا أيديهم على قصور متفرقة تمتد فيما بين قصر السوق وغريس .

ومرت زهاء ثلاث سنوات قبل أن يحدث حادث بأحد هذه القصور التي تركها الدلائيون تحت نفوذهم كمسمار جحا ، واستوجب هذا الحادث قتل بعض شيوخها فثارت ثائرة الدلائيين وهددوا السلطان العلوي بالانتقام ، فأجابهم أغلظ جواب(10) ، ولم تسفر الحرب الكلامية عن مجابهة مباشرة .

وفي نفس السنة (1059 / 1649) تلقى السلطان مولاي محمد بيعة أهل فاس بصفة تلقائية ، وكان قد ضاقوا ذرعا بحكم الدلائيين ، فاستعانوا بعرب الغرب الذين لم ينسوا هزائم العياشي على يد الدلائيين ، وتمكن مولاي محمد من القبض على العامل الدلائي وتلقى بيعة السكان في عين المكان ، غير أن جيش الدلائيين تصدّى للجيش المناصر لمولاي محمد ، فهزمه في أعقاب يوم واحد ، واضطر مولاي محمد إلى الانسحاب إلى سجلماسة بينما بدأت مقاومة داخلية ضارية في فاس ضد الحكم الدلائي الذي جابهها بشدة لمدة سنة ونصف(11) حتّى 1061 / 1650 .

ويظهر أن الدلائيين فضلوا الاحتفاظ بمراكزهم بعد أن بدأت بوادر الانهيار في حكمهم تنطلق من فاس ومنطقة الغرب ، ومن ثم فقد فضل مولاي محمد أن يغير من ستراتيجيته قليلا في انتظار ما يمكن أن يطرأ من تحولات . فبعد أن هدد زعماء إيليغ (إمارة أبي حسون) بسوء العواقب في حال تعرضهم لمناطق حكمه كما تدل على ذلك مراسلاته معهم(12) سنة 1061هـ قرر أن يوطد حكمه بالصحراء الشرقية نحو

(9) الضعيف ، ص 7 ـ 9 . الاستقصا ، 7 ، 16 ـ 17 . أما الأفرني وأكنسوس فقد تعمد كل منهما إغفال حتّى مجرد الإشارة إلى هجوم الدلائيين على سجلماسة أو إلى وقعة القاعة .
(10) ناصري ، استقصا ، 7 ، 17
(11) ن . م . ص 19 .
(12) مجموعة الوثائق ، 1 ، 402 ـ 410

أعالي غير ، والشمال الشرقي ، وراسل الدلائيين والأتراك يذكرهم بفضل العرب وأمجادهم ، حيث ظهر أن مغرب القرن 10 / 17 هو قبل كل شيء مغرب بربر ، تحكمه زعامات بربرية في جله ، من غير أن تعمل على إقامة وحدة شاملة[13] ، وإن كان لبعضها دور إيجابي في الميادين الفكرية ، وإلى حد في الميدان الاقتصادي . وفي النهاية استولى مولاي محمد على مجموع المراكز التي تقع في الطريق الصحراوي شرقاً إلى أنكاد ثم اقتحم وجدة وكانت موزعة في غياب أية سلطة وطنية بين الولاء لأتراك الجزائر ومناهضة حكمهم ، ثم توغل في المغرب الأوسط ، وأوقع بالأتراك حول تلمسان سنة 1064 / 1653 أيام الباشا عصمان ثم تقدم يتلقّى بيعة القبائل حتَّى وصل إلى الأغوات وعين ماضي[14] وزعزع كيان الحكم التركي ثم تراجع بعد أن سمع باستعدادات الأتراك لمقاومته ، حيث اضطربت الأحوال عليهم ولكن الباشا المذكور بادر بتوجيه خطاب إلى السلطان المغربي يسأله توضيح نواياه،وبعث بفقيهين يناقشانه حكم الشريعة في تدخله بالمغرب الأوسط[15] . وإذا كان مولاي محمد قد تأثر لكلام الوفد التركي والتزم بعدم معاودة الهجوم على المغرب الأوسط ، فإن الضعيف يتحدث عن هجوم آخر قام به مولاي محمد على تلمسان[16] سنة 1068 / 1657 .

وفي أواخر 1073 وأوائل 1074 حدثت مجاعة خطيرة بفاس وحدثت اضطرابات داخلية جعلت أهلها يستنجدون بمحمد بن الحاج الدلائي ، فهاجم مولاي محمد ضواحيها وخرب مزارع الحياينة انتقاما ثم انسحب شرقا ، واقتحم الدلائيون فاسا وكانت قد خضعت فترة لأبي عبد الله الدريدي وهو موظف سابق في حكومة الدلائيين ، فنهبوها وأثخنوا فيها قتلا كما قال الضعيف . وأثناء ذلك كانت تجري أحداث دامية بين مولاي محمد وأخيه الرشيد . فقد التزم مولاي رشيد ببيعة أخيه طيلة السنوات التي تخلَّى فيها والدهما عن كل طموح للحكم حتَّى وفاته . ثم بعدها بسنوات قلائل ، وفي ظروف غامضة حدثت الجفوة بينهما حيث ظل مولاي

---

(13) انظر بعض مراسلات مولاي محمد مع الأتراك والدلائيين عند الضعيف ، ص 10 و19 — 22 :

(14) استقصا ، 7 ، 20 — 21

(15) ضعيف ، ص 15 — 18 . استقصا ، 7 ، 22 — 26

(16) ضعيف ، ص 23

رشيد يغير مقامه من جهة لأخرى فأقام بتدغة ثم بدمنات ثم عند الدلائيين ، وأخيرا عند الدريدي المستبد بفاس[17] ، ثم قصد تازا في محرم 1074 / 1663 ، وهناك فيما يظهر أعلن ثورة مسلحة ضد أخيه ، ثم انضم إليه عرب أنكاد بالشرق[18] . وأقرب أسباب هذه الثورة إلى الحقيقة أن مولاي رشيد وضع يده على ثروة اليهودي ابن مشعل الذي كان يخبئها في حصن يملكه على نحو ستين كلم شرقي تازا . ووصف هذا اليهودي الثري بالجاه والسلطة ، وأنه في ظل الفوضى الضاربة أطنابها كان يضم إليه عن طريق تجار الأعراض بنات الأسر الإسلامية فيعتدي على عفافهن ، فاحتال مولاي رشيد مع جماعة من طلبة فاس في قتله والاستيلاء على أمواله الطائلة ، فلما طالبه بها أخوه مولاي محمد رفض تسليمها إليه وأعلن الثورة عندئذ ، لأن هذه الأموال ساعدته على تجهيز جيش لمواجهة أخيه[19] .

وهكذا قصد مولاي محمد تازا ثم تعقب مولاي رشيد في محرم 1074 إلى نواحي تمسامان حيث اصطدم الجيشان في معركة انهزم فيها مولاي رشيد ، فلجأ إلى حوز بني يزناسن قرب دار ابن مشعل . ولم يجازف مولاي محمد بجيشه في هذه المنطقة التي كان ميلها أكثر إلى مولاي رشيد حيث نرى مجموع القبائل الشرقية بما فيها التي اشتهرت بالشراكة تبادر إلى مناصرة مولاي رشيد ، لأن جيوش مولاي محمد كانت عاثت في هذه المناطق وأساءت التصرف حيال سكانها ، فضلا عما لاقوه من الأتراك وهو أسوأ . وهكذا سنجد «الشراكة» يحتلون منذ الآن حيزا مهما في التطورات السياسية لفترة طويلة من الحكم العلوي . ومن ثم فقد انسحب مولاي محمد إلى سجلماسة قبل أن يعود لمهاجمة أخيه ببسيط آنجاد بالرغم من خطورة المجازفة ، لأن أنصار مولاي رشيد تكاثروا حتى أصبح المغرب الشرقي كله بما فيه وجدة إلى جانبه . ولما التقى الجيشان كانت أول طلقة رصاص وجهت إلى مولاي محمد الذي لقي حتفه في محرم 1075 / 1664 . وقد دفن في البداية بدار ابن مشعل ثم نقل جثمانه إلى بني يزناسن بأمر مولاي رشيد[20] .

---

(17) استقصا ، 7 ، 29

(18) حسب الزياني ، البستان ، ص 22 بدأت ثورة م. رشيد سنة 1075 ، وهو خطأ

(19) نزهة ص 499 . الجيش العرمرم ، ص 57 . استقصا ، 7 ، 30 . الضعيف ، ص 37 ، 38 ، 41

(20) نزهة ، ن . ص . أكنسوس . ن . ص ، ناصري ، ص 31 ، ويلاحظ أن قصة ابن=

مولاي رشيد 1075 – 1082
(1664 – 1672)

ثورة محمد بن محمد الشريف

لم تقبل سجلماسة بيعة مولاي رشيد ، بل نصبت ابن أخيه محمد الصغير بن مولاي محمد . إن انطلاقة الدولة الناشئة بدت شاقة وغير محكمة التنظيم بسبب انعدام مسطرة لولاية العرش وعدم اعتماد الشورَى في الاختيار داخل الأسرة نفسها . وهكذا كان على كل مرشح ساندته قوة اجتماعية أو سياسية أن يقاوم الآخرين من الأمراء والأطراف الشعبية المعارضة إلى أن يفرض نفسه . وترفض مراكز القوَى أن يكون العاهل بعيدا عنها حتَّى تحظَى بشرف تفوقها كمركز حكم . ومن الواضح أن كبار التجار والملاكين وحتَّى عددا من الفقهاء المحليين يفضلون الاحتماء بسلطة شرعية موجودة في عين المكان على الاعتراف بسلطة بعيدة لا يستفيدون منها في توسيع نفوذهم وضمان مصالحهم ولابد أن نفهم موقف سجلماسة على هذا الأساس ، وهو موقف يتكرر غير ما مرة في تاريخ الدولة العلوية ، وتحتاج السلطة العليا بفاس أو مراكش أو مكناس إلى جهود كبرَى لاخضاع المنطقة والأمراء الثائرين بها وهم يتكاثرون مع السنين لأن سجلماسة أو تافيلالت هي منطقة الأسرة العلوية .

واستمرت ثورة مَحمد (فتحاً) الصغير إلى نهاية عهد مولاي رشيد ، غير أنها كانت تتغير من حيث المكان وتظل محددة من حيث الزمان ، فقد امتدت تسعة أشهر بسجلماسة إلى أن افتتحها مولاي رشيد ثم عاد إليها مولاي محمد في ظروف غامضة وغادرها سنة 1079 . وثار بمراكش سنة 1082 فقبض عليه ووجه رهن الاعتقال إلى تافيلالت[21] وهو الاسم الذي حل محل سجلماسة بشكل أوسع في بداية العصر العلوي .

= مشعل ومؤازرة طلبة فاس لمولاي رشيد كان من نتائجها إقامة حفلة سلطان الطلبة كما سيأتي الحديث عنها ، انظر : *J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 1.*

(21) ناصري ، 7 ، 31 ، 33 ، 38 ، 42

على أن مولاي رشيد تلقى بيعة المغرب الشرقي كله تقريبا بكيفية تلقائية واتخذ جيشا نظاميا قوامه عناصر الشراقة وهم يشملون مجموعات عربية كبني عامر والشجع ، وبربرية كبني سنوس ومديونة وهوارة[22] ، وتعاون معه أيضا بنو يزناسن ، وكل العناصر المذكورة كانت فيما مضى تابعة للنفوذ التركي الذي كانت لا تعترف به وإن كان بنو يزناسن قد قبلوا هذا النفوذ لفترة في ظل الفوضى الضاربة أطنابها .

افتتاح القسم الشمالي من المغرب

كان أول ما اهتم مولاي رشيد بفتحه ، مدينة تازا حتى يؤمن طريق المغرب الشرقي إلى فاس وقد دخلها بعد ممانعة شديدة ، ففتك بأبطالها وأمن ضعفاءها كما يقول اكنسوس[23] . وكان ذلك خلال 1075 / 1664 ، وانضمت إليه غياثة والتسول وهما من أقوى القبائل شكيمة بالمنطقة ، وبدل أن يتوغل في الريف لسحق ثورة زعيمها أعراس اتجه بعد تازا إلى فاس التي تهيأت لحربه مع مختلف الضواحي كالحياينة والبهاليل وصفرو ، لأنهم خشوا أن تنهب ممتلكاتهم على غرار ما فعله جيش مولاي محمد بن الشريف من قبل . وكانت فاس نفسها قد دخلت مرحلة سيئة من الفوضى والفرقة : 1 — ابن صالح في عدوة الأندلس ، 2 — ابن الصغير في حي اللمطيين ، 3 — الدريدي في فاس الجديد ، غير أن الجميع اتفقوا على تعبئة عامة وتعاهدوا على مقاومة مولاي رشيد وقام المسلحون بعرض حقيقي أمام رؤسائهم بظاهر فاس[24] خارج باب الفتوح . غير أن مولاي رشيد فضل الانسحاب هذه المرة ، واتجه نحو سجلماسة لحصارها كما سبق ذكره . وبعد تسعة أشهر تمكن من فتحها بينما انجلى عنها مولاي محمد الصغير وأنصاره ، وتولى مولاي رشيد الإشراف على تنصيب حاميتها ثم عاد إلى تازا التي اتخذها مقرا مؤقتا لحكمه ، فقرر الفاسيون وأحلافهم مهاجمة تازا في شوال 1076[25] / 1065 غير أن قوات مولاي رشيد تصدت لهم عند وادي سبو فاسنحبوا من غير قتال وعرضوا عليه الصلح فلم

---

(22) الكردودي ، الدر المنضد ، و 138 . أكنسوس ، ص 57 .
(23) الجيش العرمرم ، ص 58 . ناصري ، 7 ، 33 . أفرني ، نزهة ، ص 501 .
(24) ناصري ، ن . م . وص . أكنسوس ، ص 58
(25) أكنسوس ، ص 59 ، وحسب الناصري ، 7 ، 34 سنة 1075

يتحقق . وعاد مولاي رشيد لمهاجمة فاس على التو فأصابته رصاصة في أذنه ، وعندئذ انسحب ليعود في صفر 1076 واكتفى بمناوشات ذهب ضحيتها بعض المدافعين عن فاس ، ثم اتجه إلى الريف لاستنزال عبد الله أعراس[26] الذي قاوم بشجاعة قبل أن يستسلم لمولاي رشيد ، وقد عفا عنه السلطان وأكرم مقامه . وإذا كانت ثورة أعراس سياسية في مظهرها فهي ذات طابع مادي في مخبرها. ذلك أن أعراس سمح لبعض التجار الإنجليز بإقامة مركز تجاري في خليج الحسيمة . وكان الإنجليز قد حصلوا على ميناء طنجة الذي قدمته البرتغال في مهر كاترين إلى شارل الثاني منذ 1661 وكان للفرنسيين أيضا ، رغبة في إقامة مركز تجاري بالريف ، منذ عهد الوزير مازاران ، غير أن إسبانيا كانت تعد نفسها رقيباً على الساحل الريفي بحكم احتلالها لمليلية ، فحصل التاجران المرسيليان ميشيل ورولان فريجوس ، وهما أخوان على إذن من السلطة الإسبانيه المركزية ، بإقامة شركة في الحسيمة (!) وذلك في 1664 ، ولكن ، ما أن همت الشركة باستغلال مشروعها سنة 1666 ، حتّى كانت ثورة اعراس قد تم سحقها على يد مولاي رشيد الذي عاد بعد انتصاره إلى تازا ، وهناك استقبل التاجرين الكبيرين ، استقبالا وديا ، ورحب بهما ، وقد كتبا تقريرا مفصلا عن رحلتهما ، حيث يتحدثان عن المزارع الخصبة التي صادفاها ، وحسن الاستقبال والضيافة حيثما حلا ، وقد أذن لهما السلطان بإقامة الشركة ، وعرض عليهما تزويد المغرب بالسلاح ، على أن الشركة لم تستمر في نشاطها إلا بضع سنوات ، حيث أفلست سنة 1670 وعوضت بشركة فرنسية أخرى ، غير أن الإسبان استولوا على الحسيمة عقب وفاة مولاي رشيد ، وهكذا انتهت الامتيازات التي تمتعت بها الشركة في عهده .

وبعد انهيار مقاومة أعراس في رمضان 1076 / 1665 استقر السلطان بتازا قبل أن يعاود هجومه على فاس ، وهو الهجوم الرابع والأخير والذي تم في أواخر 1076 / 1666[27] .

---

(26) *J. Caillé, La petite histoire du Maroc, pp. 180-182. Julien. Histoire de l'Afrique du Nord, pp.225-226*

(27) تختلف التواريخ بين المصادر ، والاعتماد هنا على نزهة الحادي ص 501 ، وسياق تقرير الأخوين فريجوس وهما شاهدا عيان

وبعد حصار دام ثلاثة أيام تمكن مولاي رشيد من الاستيلاء على فاس الجديد التي فر حاكمها الدريدي وكان من عادته أن يقوم بغارات على البربر بضواحي مكناس وغيرها ثم يرجع مثقلا بالنهب ، والطبل يقرع عليه ![28] ثم القى القبض على متزعمي حركة الثورة غيره خصوصا ابن الصغير وابن صالح الذي أعدم إحراقاً وصودرت أمواله وأموال أسرته كما أعدم ابن الصغير ، وشمل التعذيب مجموعة من الثوار[29] الذين قتل سائر رؤسائهم . ثم تلقى السلطان بيعة الفقهاء وسائر السكان وأفاض المال على العلماء وأظهر إحياء السنة كما يقول الأفرني والكردودي[30] وعين قاضيا جديدا هو حمدون المزوار .

وبعد إتمام فتح فاس سار على رأس جيش قوي من أربعين ألف مقاتل باتجاه قصر كتامة (القصر الكبير) بمنطقة الغرب ، حيث كان الخضر غيلان يمارس سلطة حقيقية ويوجه حملاته بحراً وبراً ضد السفن الأوروبية ، إذ كان من أعمدة حركة الجهاد البحري التي يحسبها الأوروبيون قرصنة[31] بالنسبة لهذه الظروف ، وسرعان ما غادر غيلان قصر كتامة إلى أصيلا ، ومنها توجه إلى الجزائر بطريق البحر لاجئا ثم عاد مولاي رشيد إلى فاس في ربيع الأول من 1077 . وأثناء ذلك وردت عليه بيعة سلا[32] وتوالت البيعات بعدها من جهات مختلفة حيث كتب نص موحد بشأنها وقرئت بفاس ، وخلال هذه السنة وشطر من السنة الموالية انشغل مولاي رشيد بمهاجمة قبائل البربر باحواز مكناس خصوصا آيت والال شيعة الدلائيين ، ثم قام الدلائيون ورئيسهم محمد الحاج بالزحف على فاس ، فتصدت لهم قوات مولاي رشيد بمزورة حول وادي فاس خارج المدينة ، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام ثم انسحب الدلائيون وعاد مولاي رشيد إلى فاس وأخضع بني زروال بنواحيها واعتقل زعيمهم ، ثم قصد تطوان فافتتحها وألقى القبض على أسرة النقسيس وهي عائلة محلية تولت الحكم بهذه المدينة وساهمت في عمليات الجهاد البحري ، فبعث بهم

---

(28) استقصا ، 7 ، 35 ، أكنسوس ، ص 59

(29) انظر المصدرين المذكورين ، والكردودي و. 139 . والأفرني ، نزهة ، ص 501

(30) الكردودي و ، 140 ، نزهة ، ن . ص

(31) *Julien Op. Cit,*

(32) *Hœfer, Empire du Maroc, pp.357-358* وانظر باقي المصادر المذكورة

إلى سُجون فاس التي ظلوا بها إلى حين اعدامهم جميعا في عهد مولاي إسمعيل[33].

وقام مولاي رشيد بعد هذا بإعادة إخضاع بني يزناسن وفيكيك[34]، وأخيراً وجه اهتمامه لتصفية الحركة الدلائية فقصد زاويتهم، لكن الدلائيين تصدوا له في بطن الرمان بالأطلس المتوسط، وبحضور أولاد زعيم الحركة محمد الحاج الذين قاوموا ببسالة لمدة تناهز شهرا[35]، وإن أظهروا مقدماً، يأسهم من الانتصار، بالنظر لتكاثر أنصار الحركة العلوية. ثم وقع الاستيلاء على الزاوية في ثامن محرم 1079 / 1668، غير أن مولاي رشيد استقبل أهل الزاوية بالحلم ولم يسمح للجيش بانتهاك حرماتهم، وأمر بإخلاء مبانيها وطمس معالمها. أما أسرة محمد الحاج فقد نقلت إلى فاس حيث أقامت في حالة نفي، ثم دعيت إلى الانتقال إلى خارج المغرب، فاستقرت بزعامة محمد الحاج بتلمسان في وضع غير لائق إلى أن سمح لها مولاي اسماعيل بالعودة إلى المغرب وحظيت منه بالرعاية والتكريم، وامتد مقام محمد الحاج بتلمسان حتَّى توفي بها سنة 1082 ودفن بضريح السنوسي، وحظيت محنة الدلائيين بتعاطف معنوي من جانب طلبتهم والنخبة الفكرية في عامتها، وكان لهذه المحنة ذيول سياسية بالغة الخطورة في تاريخ المغرب على الرغم من أن وحدة البلاد مبدأ فوق كل اعتبار.

افتتاح الجنوب

بعد الانتصارات التي حققها مولاي رشيد في عموم الشمال وفي الجنوب الغربي لم يبق من الشمال إلا طنجة والمراكز التي يحتلها الإسبان، بالإضافة إلى الجديدة التي يحتلها البرتغال، وقد كان معقولا أن يصفي العاهل العلوي الإمارات المحلية الضعيفة قبل أن يترك لخلفه مهمة التصدي للاحتلال الأجنبي. وهكذا فلم يكد يفرغ مولاي رشيد من شؤون الزاوية الدلائية حتَّى وجه اهتمامه لفتح مراكش في صفر 1079 / 1669، وكانت بيد كروم الحاج الشباني (من عرب الشبانات أو بني شيبان من

(33) كردودي، و. 141 – 142. استقصا، 7، 36، 54، 69

(34) كردودي، ن. ص

(35) نزهة، ص 502، أكنسوس، ص 60؛ استقصا، 7، 36 – 37. زياني، بستان، ص 25. ضعيف ص 50 و52.

معقل) وكان قد قضَى على الأسرة السعدية منذ 1068 . غير أن زوجته دبرت مؤامرة لقتله فتولى أحد أنجاله . وعندما وقفت قوات مولاي رشيد على أبواب مراكش انفض معظم أنصار أبي بكر بن كروم ، فحاول أن يحتمي بالجبال المجاورة ، لكن ألقي عليه القبض ثم سحب حياً داخل المدينة وأحرقت جثته ورفات والده ، وذلك انتقاما من رفض بيعة كروم ونجله لسلاطين الدولة الجديدة[36] ، كما قتل جماعة من أسرة وأنصار الشبانات .

وفي نفس السنة وقعت ثورة بكل من الشاوية وآيت عياش الصنهاجية المتعاطفة مع الدلائيين فأخضعت ، بينما سمح مولاي رشيد لأسرة الدلائيين بالعودة إلى الأطلس ماعدا محمد الحاج كما سلف[37] . وعندما تولى مولاي إسماعيل سمح لأولاد ابن الحاج بالاستقرار بفاس ، وتأخر فتح سوس إلى 1081 حيث يتضح وجود فراغ في الأحداث البارزة بعد فتح مراكش إلى حين افتتاح سوس ، وعلى كل ، فقد أصيب العاهل بمرض شديد لم يطل . كما سهر على الاحتفال بعرس مولاي إسماعيل بفاس ، وقام ببعض الأعمال العمرانية ، ثم قاد مولاي رشيد في السنة المذكورة حملة كبرَى إلى السوس ، وكان أميرها أبو حسون قد توفي سنة 1070 / 1659 في عهد محمد بن الشريف ، فخلفه نجله محمد ، ووصف أبو حسون بأنه كان «لين الجانب محمود السيرة ، موصوفا بالعفة ، متوقفا في الدماء»[38] . وقد قصد مولاي رشيد تارودانت ، ودافع أنصار أبي حسون دفاعا شديدا عن المنطقة حيث قتل منهم آلاف دون أن تستسلم سوس بأسرها ، على الرغم من دخول جيش مولاي رشيد إلى إيليغ ، ولذلك نرَى السلطان العلوي يوجه فرقا من الخيالة سنة 1082 / 1672 بقيادة زعيم ثورة الريف السابق عبد الله أعراس ، ثم يستعد لبعث جيش جديد لنفس المهمة حتَّى اضطر ابن حسون إلى الالتجاء إلى السودان وقدم أنصاره بيعتهم عن طريق مبعوثيهم إلى فاس[39] .

---

(36) *Hœfer. Op.Cit. p.358* ويلاحظ أيضا اختلاف حول دخول مولاي رشيد لمراكش . انظر : ضعيف ، ص 50 — 51 ، أكنسوس ، ص 60 . ناصري ، 7 ، 38 — 39 .

(37) كان بعضهم قد لجأ إلى ضريح سيدي علي بن حرزهم بفاس

(38) ناصري ، استقصا ، 7 ، 40 *Hœfer. Op. Cit*

(39) نزهة ، ص 502 ، زياني ، بستان ، ص 27 . ضعيف ، ص 53 ، الكردودي ـ الدر ، و 148 ، ناصري 7 ، 40 — 42

وفي غمرة هذه الأحداث كان على المغرب أن يواجه التهديدات الأجنبية والوجود الأجنبي ؛ فقد كانت فرنسا بعد فشلها في إقامة مستعمرة تجارية بالشمال غاضبة من تحركات غزاة البحر من سلا والرباط فوجهت سنة 1081 / 1671 أسطولا من 12 باخرة لقنبلة المدينتين دون طائل ؛ وتكررت العملية في عهد مولاي إسماعيل[40] . ولقد قام مولاي رشيد بإقامة ثكنة بمقبرة العلو بالرباط وقصبة حصينة بنفس المدينة مع ما يلزمها من الرجال والعتاد وبدأ عمليات الهجوم على الإنجليز بطنجة في أوائل 1082 / 1672 فسطر بذلك خطوط السياسية النضالية ضد الاحتلال ، سواء للقوات الحية في البلاد أو لأخيه وخلفه مولاي إسماعيل .

نهاية مولاي رشيد وقيمة أعماله

قضَى مولاي رشيد جل سنة 1082 / 1672 بمراكش التي كانت مركز استقطاب حضاري رئيسي منافس لفاس ، وكانت مراكش محورا تجاريا عظيما بين الشمال والجنوب الغربي وأقطار السودان . وقيل في سبب وفاة مولاي رشيد أن فرسه جمح به فيما كان ببستان المسرة فأصابه غصن شجرة في رأسه فهلك منه ، وكان ذلك في 11 ذي الحجة 1082 / 9 أبريل 1672 وأوصَى أن يدفن بضريح علي ابن حرزهم بفاس ، وقد تم دفنه مؤقتا بقصبة مراكش قبل نقله بأمر مولاي إسماعيل .

وتصف بعض الروايات الأجنبية[41] مولاي رشيد بالقسوة والغلظة ، ولربما حصل منه ذلك في حالات خاصة ، لأن مواقفه تجاه الدلائيين وأولاد النقسيس وأعراس وابن أخيه محمد الصغير وغيرهم بالإضافة إلى ميله إلى تكريم علماء الدين والصلحاء وتردده على أضرحتهم ترجح لين طباعه ومواقفه ، وإذا كان صارماً تجاه حركات تمرد غير شعبية ولا مأمونة العواقب كما حصل في أحياء فاس فقد كان يهدف من غير شك إلى إقامة وحدة وطنية . ففي أقل من سبع سنوات حقق في سبيل هذه الوحدة ما لم يحققه أي زعيم سياسي قبله في تاريخ المغرب خلال المدة نفسها . وليس بالشيء الهين إعادة الوحدة إلى وطن كبير خلال بضع سنوات ، بعد

---

(40) *Champion, Le Maroc et ses villes d'art, 2,47. Terrasse. Histoire du Maroc, 2, 250*

(41) *Hœfer, Empire du Maroc, p.358*

أن مزقته الزعامات المتناحرة أزيد من ستّين سنة ، فإن مولاي رشيد لم يتوف حتّى كانت مملكة المغرب تمتد من وادي نول إلى قرب الأغواط (والأصح الأغوات) بالمغرب الأوسط[42] ، ولم يخرج عن نفوذه إلا المراكز الشاطئية التي يحتلها الأجانب .

لقد ارتكبت أخطاء خلال هذه الفترة التي هي من بعض الوجوه استمرار لسياسة المغرب الماضية ، لاسيما في تنظيم الجيش الذي لم يعزز بكل العناصر الوطنية الممكنة . ومن الآن يبدأ الاعتماد على عنصر الشراقة الذين يقول عنهم الناصري إنهم هم عرب بادية تلمسان وهم في الحقيقة يمثلون سكان المغرب الشرقي القديم أي في حدوده القديمة ، وقد تم تجميع الشراقة في قصبة خاصة بهم حيث سيكون لهم ولقبائل الأودايا دور سلبي في أحداث البلاد وحيال الأسرة الحاكمة ، وبالمقابل . فقد حرمت الدولة والبلاد من المساهمة النضالية لأسرة أولاد النقسيس الذين كان يمكن أن يكونوا جبهة دفاعية وتحريرية ضد الوجود الأجنبي ولو في غير تطوان مسقط رأسهم .

وسجل عهد مولاي رشيد جملة من المآثرات العمرانية والاجتماعية التي سيأتي ذكرها في الإطار العام للنشاط المعماري والاجتماعي ، ولقد ظهر مولاي رشيد منذ توليته حذرا في تعامله مع الأجانب دون أن تطول حياته لمد جسور التعاون مع الخارج على نطاق واسع ومتساو ، فقد توفي وهو دون اثنتين وأربعين سنة .

---

(42) الكردودي . الدر المنضد ، و ، 148

الفصل الثاني
أوج المجد السياسي

مولاي إسماعيل
1082 – 1139 (1672 – 1727)

مولاي إسماعيل كخليفة

خلف مولاي إسماعيل أخاه مولاي رشيد من غير عهد رسمي ، غير أن مولاي إسماعيل مارس المسؤولية السياسية كنائب عن السلطان مولاي رشيد ، بفاس أو مراكش أو مكناس . ونائب السلطان يحمل لقب الخليفة ، أي الذي يخلفه في جهة معينة . وقد يتعدد الخلفاء ويوزعون على مجموع المراكز الرئيسية بالبلاد ويخضع العمال لسلطتهم . وعندما دعي لخلافة السلطان الراحل كان حينئذ خليفة بمكناس ؛ ومن ثم فقد ارتبط تاريخ المغرب طيلة العهد الإسماعيلي بهذه المدينة التي نالت حظا كبيرا من اهتمام مولاي إسماعيل من حيث تخطيطها وتعميرها . وعرف مولاي إسماعيل بالصرامة وعدم التسامح تجاه الذين يعملون على تكدير النظام وأمن السكان . وقتل وهو خليفة بفاس ستين من أولاد جامع وصلبهم على أحد الأبراج لما نسب إليهم من قطع الطريق .

لم يكن مولاي إسماعيل على سعة من العلم كأسلافه ، ولكنه لم يكن محروما من المعرفة التي تتطلبها مسؤوليته ، وكيفما كان الأمر فقد تم تهييئه جيداً ليكون ملكاً ، لأنه بفضل خبرته الخاصة واتصاله بعاهل ذي شخصية نافذة وبصر ثاقب أصبح قادرا على مجابهة الأحداث الخطيرة بعد توليته .

بيعته

بويع مولاي إسماعيل وهو بمكناس التي كان يفضل الاستقرار بها على فاس

الجديد حيث مقر عمله كخليفة . وتمت البيعة في 15 ذي الحجة 1082 / 13 أبريل 1672 ، وكان عمره حينئذ 26 عاما لأنه ولد سنة 1056 / 1646[1] . وقد تلقّى بيعة الوفود من مختلف الأقاليم بما فيها وفود فاس[2] . وكان من المبايعين شخصيات علمية بارزة كعبد القادر الفاسي وأبي علي اليوسي ، ومحمد بن علي الفيلالي ، وأبي زيد عبد الرحمن الفاسي ومحمد بن الحسن المجاصي المكناسي[3] . وجرت العادة أن تقدم وُفود الأقاليم بيعتها مصحوبة بهدايا إلى العاهل[4] . وقد امتنع مولاي اسماعيل من قبول البيعة في البداية ثم تنازل عند إلحاح من ألحوا عليه ، وليس بعيداً أن يكون قد تظاهر بالامتناع حتّى يتعرف مقدماً على مدَى الدعم المعنوي والمادي الذي سيتوفر عليه ويتخذ انطلاقا منه قراره . ومع ذلك فقد جرت الأحداث بشكل لم يكن يتوقعه السلطان الشاب .

وفي غياب أي وصف مكتوب وشاف لملامح مولاي إسماعيل في المصادر العربية نرَى الأوروبيين يبدون اهتماما كبيرا بهذا الجانب من شخصيته[5] ، فقد كان المولى إسماعيل حسبما ذكرته تقارير ومذكرات الدبلوماسيين والأسرَى السابقين في مكناس معتدل القامة ، وأحيانا يوصف بطولها ولعله أميل إلى الطول ، وجهه بيضاوي الشكل خفيف السمرة ، وعيناه سوداوان حادتا النظرة ذو أنف أقنى ؛ له بقعة بيضاء بجانب أنفه ، وهو ذو تقاسيم حسنة ولحية بيضاء طويلة ، ووصفت قامته أحيانا بالقصر وعيناه بالوداعة ؛ ويظهر أن الاختلاف اليسير في وصفه المادي يرتبط بمدَى امتلاء عين الواصف من مشهد الموصوف وطريقة ظهور الموصوف نفسه وظروفه الطارئة وتقدمه في السن . وكان جهوري الصوت تنتابه أحياناً نوبات غضب عنيف ، وكان ذا إرادة حديدية لا تثبط الأزمات من عزيمته مهما اشتدت ، وقالوا إنه متوسط الذكاء ووصفوه مرة بالأمي ومرة بقصور ثقافته ، وكان يعيش على البساطة في حياته الخاصة مطعما ومجلسا وفراشاً . وكان يرتدي قميصا من قماش

---

(1) أفرني ، نزهة ، ص 504

(2) أكنسوس ؛ الجيش العرمرم ، ص 63

(3) الكردودي ، الدر المنضد ، و. 160 . أكنسوس ، ص 64

(4) ن . م

(5) *J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 185. Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 275. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, pp.227 - 228*

عريض الأكمام وتبانا مستطيلا من نفس الثوب تعلوه سراويل ، ثم قفطانا ناصع اللون وحذاءً وبالأصح بلغة صفراء، وكان مولاي إسماعيل قوي البدن فارساً ممتازا يكره التبذير ويميل إلى الزهد ، وهو ذو روح دينية عميقة بالرغم مما عرف عنه من صرامة وشدة على المعارضين والمخالفين . وفي بعض الروايات يوصف بشدة الذكاء وهذا أقرب إلى الحقيقة بالنظر للمنجزات التي حققها في الميدان السياسي على الأخص وتغلبه على الصعوبات التي اعترضته ، بصرف النظر عن مناهجه في الحكم ، وكثير من الروايات الأجنبية تصفه بشدة القسوة والبطش ، خصوصاً وقد كان في سجونه آلاف عديدة من الأسرى الأوروبيين . وقالوا إن قصوره كانت تضم مآت من السرايا ، وتتفق الروايات مسيحية وعربية على أنه ترك مآت من الأولاد ، ومهما قيل عن مولاي إسماعيل فإن مما لا ريب فيه أنه كان يتوفر على روح وطنية ونضالية عالية .

ثورات الأقاليم وأزمة العرش

لم يكد نعي مولاي رشيد يصل إلى تافيلالت حتَّى غادرها أحد أنجال أخيه ، أحمد بن محرز ، متصلاً بعرب السوس وأهل مراكش فبايعوه وساندوه ضد مولاي إسماعيل . وهكذا انفتح باب الثورة على مصراعيه في جهات مختلفة من المغرب الذي تركه العاهل الراحل موحداً. وأسهم في الثورة مدن رئيسية كمراكش وتارودانت وفاس ، وعدد كبير من قبائل الأطلس ، وجملة من الأمراء فيهم بعض أنجال مولاي إسماعيل ، ذلك لأن ولاية العرش لم يوضع لها أي نظام قار . كما أن العلويين لم ينطلقوا من أية عصبية قبلية ولا سياسية ، خلافا لكل أنظمة الحكم التي سبقتهم :

1 ــ الأدارسة ساندتهم أوربة إلى حين استقرار نظامهم

2 ــ الإمارات الزناتية اعتمدت على العنصر الزناتي

3 ــ المرابطون استندوا إلى العصبية الصنهاجية

4 ــ الموحدون اعتمدوا على العنصر المصمودي بالإضافة إلى التعزيزات الزناتية من كومية

5 ــ المرينيون اعتمدوا على العنصر الزناتي

6 ــ السعديون ساندتهم جزولة والعناصر السوسية على العموم .

وهكذا فإن العلويين بالرغم من انتمائهم إلى تافيلالت ، فإن هذه المنطقة التي تضم مزيجا من العرب والبربر والعناصر الملقحة بالأصول الزنجية كانت في جل تاريخها مأوى للثوار من الأمراء ومنفى للمغضوب عليهم بدل أن يعتمد عليها المؤهلون للملك كعامل توازن تقليدي وكوسط اجتماعي قابل للترجيح المتبصر بين المرشحين لمسؤلية الملك ، وإن كان هذا حقا مشتركاً لمجموع الفآت الشعبية . ومهما يكن من أمر ، فقد نشبت ثورات الأقاليم والأمراء كما يلي :

1 — دبر مولاي أحمد بن محرز بمساندة أخيه الحران ثورة مراكش باتفاق مع عاملها ، وعندما طالب مولاي إسماعيل أهل مراكش بالبيعة لم يستجيبوا له ، فتحرك إليهم من فاس في أواخر 1982هـ ثم جرت معركة بين أنصار ابن محرز وجيش مولاي إسماعيل ، أسفرت عن انتصار الأخير وفرار ابن محرز إلى الجبال[6] . وكان اللقاء بضواحي مراكش . ثم دخل مولاي إسماعيل عنوة إلى المدينة ، ولكنه أمن سكانها[7] . وكان دخولها في صفر 1083 / يونيو 1672 ، أما العامل الخائن فقد تم إعدامه .

وعاد مولاي إسماعيل إلى فاس التي وجدها قد دخلت في بيعة ابن محرز . وبعد أن عمل على إعادة إقرار السلطة العلوية هناك وفي المغرب الشرقي تعين عليه أن يواجه مرة أخرى ثورة مراكش التي عادت إلى بيعة ابن محرز 1085 / 1674 ، وتولى تدبير البيعة زوجته الأميرة السعدية مريم ، إلى جانب أسرة الشبانات[8] . وقد كان لعدد من نساء القصر دور مباشر في أزمات العرش خصوصا خلال القرن 12 / 18م . وعندما توجه مولاي اسماعيل لإعادة إخضاع مراكش لقيه ابن محرز بجيشه عند بونقبة بوادي العبيد فانهزم ابن محرز في السنة المذكورة ، وعاد إلى الاعتصام بمراكش فثبتت إلى جانبه[9] حتى 1088 / 1677 حيث اضطر ابن محرز إلى الانسحاب باتفاق مع منافسه مولاي الحران والتزم من جانبه بالتوجه إلى درعة بإذن

---

(6) *Hœfer. Op. Cit, p.358*

(7) أكنسوس . م . س . ص 64 . كردودي ، در ، و. 160

(8) *Deverdun, Marrakech, 1, 468*

(9) ناصري *Hamet Ismaïl. Bulletin de l'enseignement. Janvier 1921, p.3. Deverdun. Ibid. 50, 7*

من مولاي إسماعيل[10] . وقد أمن السلطان السكان في البداية ، ولكنه أطلق يد الجيش في ممتلكاتهم بعد أن ثبت لديه فراغ مخازن القصبة ، ولكنه ما لبث أن أوقف النهب بعد يوم واحد ، وأعدم سبعة من أعيان المدينة وكحل عيون حوالي ثلاثين[11] . أما ابن محرز فلم يعد إلى مراكش التي قبل استسلامها قام مولاي إسماعيل بإخضاع بعض القبائل بضواحيها القريبة والبعيدة ، خصوصا الشاوية ، ثم استخلف بمراكش نجله الأكبر مولاي المامون .

ونعمت مراكش بعد هذه الأحداث المأساوية بأمن نسبي امتد حوالي ربع قرن إلى أن كانت سنة 1114 / 1703 فأعلن محمد العالم نجل مولاي إسماعيل وعامله بالسوس الثورة ضد والده ، وهاجم مراكش التي ارتبط مصيرها بسوس منذ العهد المرابطي ، وعلى الأخص منذ العهد السعدي نظرا لأهميتها الاقتصادية في محور سوس والسودان ، وتمكن عن طريق عملية التفاف عسكرية ماهرة دبرها ضد الحامية من سحق مقاومتها والاستيلاء على الأموال العمومية التي خبأها العامل في انتظار النجدات من مولاي إسماعيل ، وقام أنصار العالم بنهب المدينة التي أخضعت لسلطته بحد السيف ، وعندئذ وجه السلطان نجدات قوية بقيادة نجله زيدان فوجد محمد العالم قد توجه إلى تارودانت ، فأطلق يد الجيش مرة أخرى في مراكش حيث يقول اكنسوس : «أساء السيرة في أهلها أقبح من أخيه ، فنهب الأموال وأظهرت العساكر الفساد في الأرض» . ثم نقل زيدان عددا من المغضوب عليهم وبينهم العامل إلى مكناس حيث تم تعذيبهم قبل إعدامهم ، واستخلف زيدان على مراكش حيث تصفه التقارير الأوروبية بالميل إلى اللهو والخلاعة[12] . وكان عليه أن يتعقب الأمير الثائر محمد العالم بسوس .

2 — ثورة فاس : أعلنت فاس بيعتها في ظروف غامضة لأحمد بن محرز بينما كان يواجه هجوم عمه مولاي اسماعيل على مراكش سنة 1083 / 1672 ، وقام أهل فاس بقتل زيدان العامري قائد الحامية واستقدموا ابن محرز الذي بايعته أيضا تازا ثم استعادها مولاي إسماعيل ، وحاصر فاسا أربعة عشر شهرا ثم أعلنت المدينة

---

(10) *Hœfer Op. Cit, p.359. Beverdun. Ibid*

(11) المراجع المذكورة . الجيش العرمرم ، ص 65

(12) الجيش العرمرم . ص 85 . ناصري . 7 . 90 — 91

Deverdun. Op. Cit, pp.469 - 470

استسلامها سنة 1084 / 1673 وأمن مولاي إسماعيل سكانها غير أنه عين بكل من فاس القديم وفاس الجديد عاملا جائرا[13] .

3 — ثورة سوس : بدأت سنة 1083 / 1672 باتجاه ثورة مراكش وقيادة ابن محرز الذي عاد إلى سوس ليقود المقاومة ضد عمه مولاي إسماعيل بالرغم من التزامه بالانسحاب إلى درعة سنة 1088 / 1677 ، وكانت درعة أيضا تابعة لابن محرز ، وقد توغل ابن محرز بجيشه جنوباً حتَّى تاكارت (كاف معقودة) بالسودان ، وذلك سنة 1091 / 1680 حيث حصل بها على أموال طائلة كما ذكر ذلك هوفر في كتابه «امبراطورية المغرب» (ص 361) وانشغل مولاي اسماعيل لفترة قصيرة بحرب الدلائيين التي اشتعلت من جديد بالأطلس المتوسط ثم توجه صوب جنوب سوس سنة 1089 وتابع زحفه باتجاه شنقيط من غير أن يعمل على تصفية ثورة ابن محرز الذي حاول بعد بضع سنوات أن يحصل على معونة من أتراك الجزائر. غير أن هؤلاء كانوا منشغلين بالحرب ضد بني يزناسن ، كما هاجم الأسطول الفرنسي مدينة الجزائر فتركوا ابن محرز **وشأنه**[14] . ثم زحفت قوات مولاي اسماعيل إلى سوس من جهة مراكش وبعد طول قتال انعقد الصلح بين **الجانبين**[15] سنة 1094 / 1682 ، وقد قاومت سوس باستماتة إلى جانب ابن محرز ، ثم حوصر ابن محرز ، وهلك في الحرب أزيد من ألفين وجرح كل من مولاي إسماعيل وابن محرز قبل اجراء **الصلح**[16] ، وانسحب ابن محرز ليعود بعد سنتين مع أخيه الحران ، فحاصرا تارودانت ثم وقع ابن محرز صدفة في قبضة انصار السلطان دون أن يعرفوه فقتلوه في ذي **القعدة**[17] 1096 / 1684 . وبذلك انتهت ثورة ابن محرز التي واصلها على الفور أخوه الحران واستمات أهل سوس مرة أخرى إلى جانب أمير معارض لمولاي اسماعيل ، فقتل عدد كبير من قادة الجيش الاسماعيلي فضلا عن مآت من الجند حتَّى تمكن السلطان من اقتحام تارودانت سنة 1098 / 1686 **فاستباحها**[18]

---

(13) انظر عن ثورة فاس ، جيش ، ص 64 . ضعيف ، ص 60 ، نزهة ، ص 505 . ناصري ، 7 ، 47 . 358

(14) *Hamet, Op. Cit, p.6*

(15) *Op. Cit* الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، ص 69

(16) ناصري ، 7 ، 65

(17) ن . م . ص 68 ، وحسب *Hamet* قتل ابن محرز سنة 1687

(18) ناصري ، 7 ، 68 — 69 . الكردودي ، الدر المنضد ، و. 165

في الوقت الذي انسحب فيه الحران إلى الصحراء ، وقد سبق لمولاي إسماعيل أن عفا عنه بعد اسهامه في ثورة الصحراء .

واستقرت الأوضاع بسوس حتّى كانت سنة 1112 / 1700 فشجع السوسيون خليفة السلطان ونجله بها المعروف بمحمد العالم لأنه كان على سعة أفق ثقافي . باعلان بيعته **ومناصرته**[19] . ثم هاجم محمد العالم مراكش واستباحها وعاد إلى تارودانت ليواجه هجوم أخيه زيدان واستيلاءه على تارودانت ووقع محمد العالم في قبضة زيدان وذلك في صفر 1116 / 1704 ثم وجهه إلى طريق مكناس فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف تنفيذا للحكم الشرعي ، وقد هلك محمد العالم عند وصوله إلى مكناس[20] . على أن هناك رواية فرنسية تؤكد أن معاقبة العالم تمت بحضور مولاي إسماعيل وأنه قد ذهب ضحية غضب السلطان جلاد رفض تنفيذ الحكم[20] . وشاد السلطان ضريحاً رائعاً لنجله ، وقد حظي محمد العالم بتعاطف حقيقي من فئة المثقفين وعلماء الدين سواء بسوس ، أو من لدن مثقفي فاس ، وقد أظهر مولاي إسماعيل ندمه على تصرفه تجاه محمد العالم لأنه لم ينكب أحدا من المثقفين الذين كانوا يخالطونه[21] ، والواقع أنه حتّى مع التسليم بأن مولاي إسماعيل كان شديد الصرامة على معارضيه فقد أظهر تسامحاً كبيرا تجاه أمراء آخرين كابن محرز والحران وغيرهما . ومما لا شك فيه أن مساندة سوس لمحمد العالم تنطلق من الثقة التي وضعها فيه العلماء والمجموعة الواعية ، وثورة سوس قد استؤنفت مرة أخرى بزعامة أمير آخر سنة 1123 / 1711 هو أبو النصر بن إسماعيل ، واستمرت إلى 1125 / 1713 حيث تم قتله على يد أولاد دليم من عرب سوس[22] وهم من مجموعة الأودايا أخوال مولاي اسماعيل ، وهذا يعني أن المجموعة البربرية في سوس هي التي كانت مناهضة للمولى إسماعيل ، لأن الذين قتلوا ابن محرز هم أيضا من المجموعة العربية .

---

(19) الكردودي ، و. 166 – 168 . وحسب أكنسوس كانت ثورته سنة 1114هـ (ص 85)

(20) ناصري ، 7 ,Hœfer, Op. Cit, p.363.91 - 90

(21) الكردودي . م . س . و . 169 – 170

(22) الجيش العرمرم . ص 87 . ناصري . 7 . 96

4 ــ ثورة الصحراء : تهم هذه الثورة الصحراء الموالية لدرعة شرقا وغربا وجنوبا . وبالنظر لبعد الشقة فقد كان مولاي اسماعيل أقل اهتماما بها أي بثورتها على الرغم من أن فتوحه امتدت إلى النيجير ، وظهرت على الخصوص منذ سنة 1088 / 1677 على يد الحران أخي السلطان وكان على الحران أن يواجه هو أيضا ثائرا آخر من الأمراء هو أخوه حمادة ، وأخيرا تم القبض على الحران الذي حصل على عفو السلطان وحظي منه بإقطاعات تكفل له عيشا كريما بالصحراء[23] . غير أن الحران ما لبث أن عاد إلى الثورة معززا بأخويه هاشم وأحمد وأمراء آخرين وساندتهم آيت عطا ، القبيلة ذات الشكيمة، وقبائل أخرى ، فتوجه مولاي إسماعيل على رأس جيش قوي شاركت فيه نخبة من الرماة سنة 1089 / 1778 ، وبعد حرب دامية هلك فيها عدد كبير من عسكر مولاي إسماعيل وقائده موسَى بن يوسف انسحب الأمراء الثائرون إلى أعماق الصحراء ، وصادف جيش مولاي اسماعيل عاصفة خطيرة من الثلج في ثنية الكلاوي لم يسلم منها إلا القليل وضاع متاع الجيش وأخبيته[24] ، وذلك خلال سنة 1090 .

وعادت الصحراء مرة أخرى إلى الثورة بقيادة الأمير أبي النصر سنة 1114 / 1702 ، فاستولى على درعة ونواحيها وطرد واليها وهو أخوه عبد الملك ، ثم بعث السلطان ابناً آخر له هو مولاي الشريف ، فأقر الأمن بالمنطقة[25] واختفَى أبو النصر قبل أن يعلن بعد عدة سنوات ثورة أخرى بسوس كما سلف .

لقد تعاطفت كل من مراكش وسوس ودرعة والصحراء مع أمراء أقل قوة من إسماعيل ، فهناك مؤثرات الماضي القريب : حركة أبي حسون التي تم سحقها . وأسرة الشبانات وبقايا الأسرة السعدية خصوصا من النساء بالإضافة إلى رغبة السكان في أداء ضرائب أقل ، والاحتفاظ بعائدات المنطقة في عين المكان حتَّى لا تصرف في مبان ضخمة وقلاع نائية من غير مقابل يذكر بالنسبة للخاضعين للضرائب ، ومن غير شك نزل مردود الجنوب من الوجهة التجارية إلى حد كبير فيما يخص نصيبه هو .

---

(23) جيش . ص 67 . ناضري 7 . 53 . ضعيف . ص 62

(24) جيش ، ص 70 . كردودي . و . 163 . 5 *Hamet*

(25) ناصري . 7 . 90

5 ـ ثورة الأطلس : أتاحت ثورة مراكش وسوس والصحراء والتي بلغت ذروتها سنة 1088 / 1677 حتّى مع تجددها فيما بعد ، فرصة لتجمع أنصار الدلائيين من جديد بزعامة أحد بقايا رؤسائهم أحمد بن عبد الله الدلائي الذي حصل على معونة من أتراك الجزائر وأعلن الثورة بتادلا وبعض الأقاليم المجاورة. وتمكن من سحق ثلاث فرق أرسلها مولاي إسماعيل على التوالي. وعاث أنصار الدلائي في المزارع بين تادلا وسايس والشاوية ووقعت حروب دامية بجوار مكناس. وتعين على مولاي إسماعيل أن يهادن أحمد بن محرز ويتولى بنفسه قيادة الحرب ضد الدلائيين، حيث قتل عدد كبير من الفريقين وفر أحمد الدلائي لبعض الجبال فدبر اغتياله على يد ابن بركة كبير آيت يمور التي ساندت مولاي إسماعيل لفترة[26]. وقد امتدت هذه الثورة فيما بين 1088 وأوائل 1089هـ ، وتمكن مولاي اسماعيل من التغلب عليها بفضل المدفعية الثقيلة التي أهلكت أعدادا كبيرة من الثوار.

وفي الشمال الشرقي نشأت حركة بني يزناسن بسبب توطين الشبانات وزيرارة الذين نقلهم مولاي إسماعيل من حوز مراكش سنة 1090 / 1679. ومرة أخرى استغل الأتراك تضايق بني يزناسن من استقرار هؤلاء المهاجرين الداخليين إلى جانبهم وحول مراعيهم ومواردهم المائية، وهكذا استمالوا بني يزناسن للشغب على السلطة المركزية؛ وقام هؤلاء بمنع الوافدين من الحرث في آنجاد. ولم تفد جهود قائد الشبانات العياشي بن الزويعر في تهدئة الأوضاع؛ فتحرك مولاي اسماعيل سنة 1091 / 1680 على رأس جيش قام بإخضاع بني يزناسن وكذا جيرانهم بأنجاد من المهايا وحميان[27]، وجردهم من الخيل والسلاح وأنشأ سلسلة من القلاع في أهم النقط الحساسة بالمغرب الشرقي فضلا عن الأطلس المتوسط وجهات أخرى؛ ومنها واحدة قرب وجدة وأخرى بالعيون وثالثة بطريفة وأخرى على نهر ملوية[28].

وتجددت الاضطرابات بالأطلس المتوسط بين صنهاجة، فعمل مولاي إسماعيل على الحد منها بإقامة سلسلة من القلاع سنة 1095 / 1683؛ ومن بينها قلاع أزرو

---

(26) *Ismail Hamet, Bulletin d'enseignement, Janvier 1921. Hœfer. Empire du Maroc, p.359*
الكردودي. الدر المنضد، و. 162 ـ 163. ناصري، 7. 53

(27) كردودي. م. س. و. 163. أكنسوس. جيش. ص 71

(28) جيش، ص 71

وعين اللوح ، وفي هذه المناطق كانت أنظمة سابقة قد أنشأت قلاعا تهدمت أو اندثرت ، وكانت عناصر صنهاجة تغير على مزارع سايس بالنظر لضعف مواردها ، وقد اهتدَى مولاي إسماعيل في النهاية إلى أن الحل الصائب يكمن في إصلاح وضعها الاقتصادي قدر الإمكان ، وليس للحل العسكري نجاح طويل الأمد . وهكذا زود آيت يدراسن بعشرين ألف رأس من الضأن لاستنتاجها والتعيش منها وأسقط عنهم الضرائب مدة فقلت شوكتهم كما يقول الناصري[29] . غير أن الحل الاقتصادي الذي كان يجب أن يربط أيضا بالحل الاجتماعي والسياسي لم يكن شاملا ولا متصلا ، ولذلك واصل بربر الأطلس التعبير عن غضبهم خصوصا بمنطقة ملوية ، حيث يتحرك إليها مولاي اسماعيل من طريق صفرو سنة 1096 / 1684 . وقد لجأت القبائل إلى قمم الجبال كآيت يوسي وسغروشن ومديونة وعندئذ تواصل بناء القلاع حول ملوية قرابة سنة ، وزود كل منها بحامية من 400 أو خمسمائة جندي من البخاري وقام الجيش بتجريد القبائل المستسلمة من الخيل والسلاح[30] ، وظل الوضع راكداً ركود النار تحت الرماد حتَّى كان عام 1099 / 1687 فتحركت صنهاجة الأطلس المتوسط ، وفي هذه المرة اكتست الثورة طابعا عنيفا بالرغم من الولاء الظاهري لبعض القبائل، وهكذا التحق مولاي اسماعيل ببسيط ادخسان (خنيفرة) وهناك استقبل وفود زمور وبني حكم وولى عليهم رئيسهم بايشي القبلي الذي جردهم من الخيل والسلاح وحتَّى من المال تقرباً إلى السلطان مع أنه لم يأمره بذلك ، غير أن السلطان عاد إلى تسليحهم وشغلهم بحرب جيرانهم من آيت وامالومدة إلى أن أكمل قلعة ادخسان مكان القلعة المرابطية المتهدمة ، والتي كان قد شادها يوسف بن تاشفين[31] . وزودها مولاي إسماعيل بـ 1500 من أفراد جيش دكالة كما أنزل 1500 من عبيد الشاوية بالزاوية الدلائية ، وترك هذا الجيش يتولى حصار القبائل الثائرة خصوصا آيت وامالو وآيت يافلمان وآيت إسري . ويظهر أن الوضع تحسن بعض الشيء مدة قصيرة قبل أن تنفجر الأحداث مرة أخرى بشكل أخطر . وهكذا نرَى السلطان يتحرك سنة 1104 / 1692 لمواجهة ثورة الأطلس

---

(29) ناصري ، استقصا ، 7 ، 67 . وانظر *Hamet, Op. Cit. p.6* جيش ، ص 73

(30) الناصري ، استقصا ، 7 ، 68 . حسب الكردودي ، كانت هذه الأحداث سنة 1098 / 1686 (ورقة 165) *Hamer, p.7 165*

(31) جيش ، ص 76 ـ 77 . استقصا ، 7 ، 70

بجيش تعززه المدفعية والمهارس ويساهم في قيادته علي بن بابا يشو . وقام الجيش بتطويق الثوار وأطلق المدافع باتجاه تجمعاتهم فخاف المطوقون وتفرقوا في الشعاب والأودية ، ووقع النهب والقتل فيهم مدة ثلاثة أيام ثم تخلوا عن المقاومة ، وقدم رؤساؤهم ثلاثين ألف بندقية وعشرة آلاف من الخيل واثني عشر ألف رأس من القتلى . وتولى علي بن يشو قيادة آيت وامالو ثم استقر بقصبة تيغالين التي تلقى الأمر بالاستيلاء عليها[32] . وقد عمل مولاي إسماعيل بعد هذا على تجريد سائر القبائل من السلاح وحتَّى من الخيل ، ولم يعد يحمل السلاح إلا الجيش النظامي وآيت يمور في قلب الأطلس المتوسط ومجاهدو الريف حول سبتة[33] . وقد انتهَى مولاي اسماعيل إلى وقف ثورة الأطلس منذ هذا التاريخ حتَّى وفاته بفضل الجيش النظامي الذي بدأ بإعادة تكوينه على نطاق واسع منذ نهاية القرن الحادي عشر (سنة 1688م) . وضَمن هذا الجيش استقرار الوضع الداخلي فيما عدا ثورة سوس التي تجددت على يد بعض الأمراء خصوصا محمد العالم ، وقد تم سحق هذه الثورة أيضا .

إن ثورة الأطلس لم تمد يدها إلى الأمراء الطامحين ، وهؤلاء أيضا لم يعملوا على استغلالها لصالحهم ، فقد رفض الأطلس موالاة العلويين حتَّى الآن بكيفية تلقائية . ولئن مدت سوس يدها إلى الأمراء عوض أن تبحث عن زعماء محليين غيرهم . فلأن هناك قاسماً مشتركا بينهم وبين الحسونيين ، فالجميع ينتمون إلى البيت النبوي ، وهذا إن كانت أسرة أبي حسون كذلك . فسوس كانت غاضبة من شخص مولاي إسماعيل وسياسته ، وليس من «دولته» . أما الوضع فيختلف في الأطلس الذي فقد في الدلائيين زعماء مرهفي الحس يتمتعون بثقته المطلقة في كل جهاته تقريبا ، وكان هناك روابط روحية عميقة أقامها أهل الزاوية الدلائية مع السكان ، وقد مزقت هذه الروابط مادياً بتهديم الزاوية وتشريد أهلها ولكن طبيعتها النفسية لم تمت ، ولقد فقد كثيرون من الزعماء المحليين مصالحهم بمصادرة أموالهم ، وعوضوا بزعماء دمويين أو لا يحظون بثقة السكان وإنما تعززهم سلطة الجيش الرابض في عين المكان . وهل كان معقولا بالمقابل أن يظل المغرب موزعا كإقطاعيات العصر الوسيط في شعوب أوروبا ؟ حقاً إن الدفاع عن السياسة الداخلية لمولاي إسماعيل ليس

---

(32) الكردودي ، م . س . و . 165 *Hamet, Op. Cit, p.7.* استقصا ، 7 ، 80
(33) ناصري ، 7 ، 81

بالشيء السهل ، ولكن مهاجمتها اعتباطاً ليست بأسهل .

افتتــاح الثغــور

1 - طنجة ودور الخضر غيلان

استولَى البرتغال على طنجة في 28 غشت 1471م ، وكانت طنجة إحدَى المدن الساحلية التي بدأ استيلاؤهم عليها منذ احتلالهم سبتة سنة 1415م وإثر وفاة سان سباستيان وضم البرتغال إلى التاج الإسباني وضعت طنجة وسبتة وأصيلا والجديدة تحت السلطة الإسبانية من سنة 1581 إلى 1643 ، وفي هذه السنة عادت طنجة إلى السلطة البرتغالية حتَّى 1661م . وظلت طنجة بعد أحمد المنصور الذهبي السعدي هدفا للمقاومة الشعبية خصوصا بعد ظهور المجاهد العياشي الذي قاد المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الأجنبي للثغور . وكان من بين شهداء المقاومة ، علي غيلان أحد المساعدين الرئيسيين للعياشي[34] . وتولى نجله الخضر غيلان قيادة المقاومة في الهبط بعد وفاة العياشي . ووصف الخضر بأنه كان شجاعا ذا نظر حاد مع طبيعة متحفظة وروح متيقظة وميل إلى التقشف والزهد مع قسوة في الطبع لا يكشف عن مواقفه الحقيقية عديم الذمة والشرف[35] . هكذا تصفه التقارير المسيحية التي لا يمكن الركون إليها بصفة قطعية فيما يخص زعيما شعبياً يدافع عن تراب بلاده الذي يحتله جيش أوروبي ، وإن كان في هذا الوصف كثير مما هو إيجابي .

واكتفَى الخضر بإدارة المقاومة فترة حتَّى 1063 / 1652 عندما استولى على القصر الكبير ، وظهر عندئذ طموحه إلى الحكم . وربما كان يهدف إلى جعل منطقة الهبط تحت كامل مراقبته حتَّى يسهل عليه تطويق طنجة . ولقد اكتست المقاومة المحلية حول طنجة طابعا محدوداً قبل أن تتحول إلى حرب جماعية نظامية في إطار الحركة الشعبية بالهبط . ذلك لأن المحتلين كانوا يتجرأون في البداية ويغامرون بأنفسهم خارج المدينة لجمع الحطب والحشيش من البادية فيصدهم المواطنون[36] . وحينما تولى الخضر زعامة المقاومة تمكن من حشد حوالي 17 ألفا بين راجل

---

(34) *Villes et tribus du Maroc, 7, 63*

(35) *Op. Cit*

(36) انظر بعض الوثائق البرتغالية عن طنجة عند *Robert Ricard. La place de Mazagan, pp.68-74*

وفارس[37] . وانضم إليه المجاهد أبو سلهام بن كدار وكان من أنصار الدلائيين . وهكذا بدأ الخضر محاولاته لحصار طنجة سنة 1651م ثم أعاد الهجوم والمحاصرة عدة مرات حتى اضطر الحاكم البرتغالي فرناندو دي مينيثيس إلى طلب عقد هدنة سنة 1656 وترأس المفاوضات عن الخضر ، مساعده الأندلسي عبد القادر صيرون ولم تدم الهدنة أكثر من سنة ، فنظم الخضر هجوما قويا وطوق المدينة بـ 25 ألفا مقاتل وحفر خندقا لحمايتهم من المدفعية البرتغالية وقطع الماء عن المدينة من طريق القناة الرومانية المتصلة بوادي اليهود ، وحاولت النجدات البحرية من لشبونة أن تنقذ الموقف ، فسقطت في يد المجاهدين البحريين ، وبعد حصار دام عشرين يوما ثم آخر بعد فترة لمدة ثمانية أيام تراجع المجاهدون بسبب تهاطل قنابل المدفعية التي عاقتهم عن هدم القنوات بصورة نهائية ، وفي 1069 / 1658 بدأت مفاوضات جديدة مع البرتغال لم تؤد إلى نتيجة ، حتى كان انسحاب البرتغال عن طنجة التي سلموها مهراً من كاثرين دي براجانصي إلى شارل الثاني ملك انجلترا[38] سنة 1072 / 1661 ولم يبدأ الاحتلال الإنجليزي عمليا إلا سنة 1662م . وقد واصل المجاهدون هجومهم على المحتلين بمجرد استقرارهم وكبدوهم خسائر كثيرة حتى اضطروا إلى عقد هدنة في السنة الموالية مع غيلان ، وحاول الإسبان أن يشجعوا الزعيم المغربي على نقض الهدنة والاستيلاء على المدينة في غياب حاكمها ، فلم يستجب لإغرائهم ، ولكن الانجليز قاموا بتحصينات قوية حول المدينة ، فعاود الخضر هجوماته ، وتمكن مع أنصاره من نصب كمين للحاكم وعدد كبير من الضباط والجنود الذين غامروا بالتحرك خارج البلد ، فأتى المقاومون عليهم قتلا ، وذلك سنة 1664[40] . على أن الخضر كان لذكائه يضرب عصفورين بحجر واحد ، فيتزود بالسلاح من إسبانيا ويتظاهر بقبول نصائحها ضد بريطانيا ، ولكنه كان يعمل على استخلاص طنجة كما أنه حاول سنة 1664 تحرير العرائش من الاحتلال الاسباني من غير أن يحقق نتيجة[41] . ولكن تطور الأحداث الداخلية :

---

(37) *Villes et tribus, 7, 65*

(38) *Op. Cit, pp. 66-68*

(39) *Op. Cit, p.76*

(40) *Op. Cit*

(41) *Op. Cit, p.73*

المضايقة الدلائية وامتداد الزحف العلوي نحو الشمال ، وعداء الاسبان الذين يراقبون نشاط الخضر ، جعل الزعيم المغربي يعقد سنة 1077 معاهدة صلح مع انجلترا سمح فيها لجيش الاحتلال بالتحرك بين وادي اليهود ووادي الحلق ليتمكن من تتميم أجهزته الدفاعية ، كما أن الخضر كان عليه أن يواجه هجوم جيش مولاي رشيد الذي اضطر الخضر إلى التراجع من قصر كتامة إلى أصيلا في السنة المذكورة[42] . غير أن ضغط الزحف العلوي جعل الخضر يلتجئ إلى الجزائر عن طريق البحر سنة 1079 / 1668[43] . ذلك أن الإنجليز الذين التزموا بمد الخضر بالسلاح كان عليهم أن يحتاطوا لتحرك الأسطول الفرنسي حول الموانئ المغربية وعلى مشهد من الإنجليز ، حيث حاول لويس الرابع عشر أن يظهر تعاطفه مع مولاي رشيد حتّى يطرد الإنجليز[44] . وهكذا فقد تحول الخضر منذ 1077 / 1666 عن مقاومة الاحتلال إلى مقاومة الحركة العلوية بمساندة مؤقتة من الإنجليز ، ثم من الأتراك سنة 1082 / 1672 ، فقد فارق الجزائر في هذه السنة بمجرد أن علم بموت مولاي رشيد ، وبرفقته فرقة عسكرية تركية وسلاح لاستعادة ما فقده من منطقة الهبط ، لكن مولاي إسماعيل ما لبث أن تمكن من سحق مقاومته بالقصر الكبير ثم وقع الخضر في يده فنفذ فيه حكم الإعدام[45] في جمادى 1084 / 1673 وعلى كل فيسود الغموض ظروف مقتل الخضر[46] .

وقد حاول البريطانيون عن طريق مبعوثهم اللورد هوارد ***Howard*** أن يفاوضوا مولاي رشيد سنة 1080 / 1669 بشأن معاهدة حول طنجة[47] ، لكن من غير طائل . وهكذا فإن المناوشات ضد الإنجليز استمرت في عهد مولاي إسماعيل . وفي سنة 1090 / 1679 نظم هجوم قوي على طنجة وتمكن المغاربة من الاستيلاء على حصن خارج المدينة وقتل من الإنجليز ثلاثمائة وخمسون[48] . وفي

---

(42) استقصا . 7 ، 35

(43) الضعيف . تاريخ الدولة السعيدة . ص 52 *Villes et tribus, 8, 77*

(44) *Hamet, Op. Cit, p.6*

(45) *Villes et tribus, 8, 77* الضعيف ؛ ص 59

(46) انظر : الدر المنضد للكردودي ؛ و . 161 . وراجع عن الخضر *Peretié, Revue Archives marocaines, V.18*

(47) *Villes et tribus, 8, 77. R. Le bel. Hespéris, 4e trim. 1929, p.283*

(48) الضعيف ؛ ص 69 ؛ استقصا ، 7 ، 61

1093 / 1682 كانت هناك مفاوضات جديدة مع مولاي إسماعيل[49] بعد أن خضعت طنجة عدة شهور لحصار الجيش المغربي بقيادة عمرو بن حدو البطوئي ثم استمر الحصار بقيادة علي بن عبد الله الريفي حتّى كانت سنة 1095 / 1684 فقرر الإنجليز الجلاء عن المدينة بعد أن تم إجلاء السكان وهدم المنشآت الميناثية والدفاعية وحتّى الدور السكنية ، ووضعت الألغام حول الأسوار وتركت المدينة قاعا صفصفا لأن السكان نقلوا كل أثاثهم وخيلهم ، وكان خروج حاكمها اللورد دارتموذ في 6 فبراير 1684 . وحسب الأفرني فإن دخول الجيش المغربي إليها كان في ربيع الثاني 1095 الموافق لـ 18 مارس إلى 16 أبريل 1684[50] .

وقد أعيد بناء أسوار طنجة ومرافقها الرئيسية على يد القائد علي بن عبد الله[51] ، كما أعيد بناء القصبة وشيد المسجد الأعظم مكان إحدَى الكنائس . وتم تعمير طنجة بعناصر من الريف كما استقر الجيش بالفحص لاستغلال أراضيه وضمان حماية المنطقة[52] .

2 – المهدية 1092 / 1681

كانت أصلا ترسانة للسفن أنشأها الموحدون عند مصب وادي سبو قرب القنيطرة الحالية ، وأطلق عليها حينذاك حلق الوادي والمعمورة ، وتقع بجانب الغابة التي حملت اسم المعمورة أيضا وكانت تزود الترسانة بحاجتها من الخشب . احتلها البرتغال في 921 / 1515م في عهد أبي عبد الله الوطاسي . ودخلت تحت النفوذ الإسباني سنة 1022 / 1613 على وجه التقريب وحاول المجاهدون بقيادة العياشي افتكاكها منذ ذلك الحين وضيقوا بالأسبان وقتلوا أو أسروا منهم أعدادا كبيرة دون أن يتوصلوا إلى الاستيلاء عليها . وقبل تحرير طنجة بنحو ثلاث سنوات أي في عام 1092 / 1681 تقرر فتح المعمورة تنفيذا للرغبة الشعبية . ويبدو أن فتحها كان عملا مشتركا بين القوات الشعبية والجيش النظامي . وهكذا نجد المنطقة تخضع

---

(49) *Le bel, Op. Cip, p.282*

(50) أفرني ، نزهة ص 506 . 84 – 83 ، 8 *Villes et tribus, 8,83-84.*

(51) الجيش العرمرم . ص 73 . ضعيف ، ص 69

(52) *Villes et tribus, 8, 85* وألفت النظر هنا إلى المذكرات والتقارير الإنجليزية الكثيرة عن وضعية طنجة وعلاقات بريطانيا بالمغرب أثناء الاحتلال الإنجليزي . راجع
R. Le bel. Hespéris, 4 trim, 1929

لحصار يساهم فيه عدد من المتطوعة يبلغ ثلاثمائة يقودهم من سلا أحد صلحائها البارزين أحمد حجي . وكان الجيش النظامي بقيادة عمرو بن حدو البطوئي على رأس أهل الفحص والريف . بل من المؤكد أن أغلبية القوات كانت من المتطوعة . وقد قاموا بقطع الماء عن المعمورة ، وطاولوها بالحصار بضعة أشهر ، ثم حاولوا الدخول إليها عنوة بإشارة أحمد حجي ، لكن الأسبان اشترطوا حضور العاهل المغربي الذي قدم عندئذ من مكناس ، وتسلم المدينة التي غادرها المقيمون بها وهم حوالي ثلاثمائة ، وقد حصل المغاربة على غنائم هامة بينها نحو مائة مدفع . وكان فتحها في ربيع الثاني 1092 / 1681 من غير اتفاق بين المؤرخين على يوم دخولها . وقد حصل أحمد حجي بسبب نضاله وموقفه على ظهير توقير وسيف أهداه إياه العاهل المغربي ، وكان عمرو بن حدو قد تولى قيادة الهبط بعد انسحاب الخضر غيلان . وحملت المعمورة منذ فتحها اسم المهدية ، بأمر من مولاي إسماعيل ، وغير صحيح أن المهدية هذه من بناء المهدي الشيعي كما وهم الضعيف . وقد أنزل بها مولاي إسماعيل مجموعة من جيش السوس (العبيد) لتعميرها وحراستها ، وشاد سور القصبة وبابها الضخم . وأقطع الجيش الأراضي المجاورة مع مرتبات نظامية انقطعت في فترة النزاع بين أولاده بعد وفاته[53] ، ومن ثم تداعت مباني القصبة ومباني البرتغال بالترسانة ، وعاد مولاي إسماعيل إلى مكناس بعد الفتح ، أما القائد ابن حدو فأصيب بالوباء في عودته إلى الهبط ، وكانت منه وفاته فخلفه في قيادة الهبط كل من أخيه أحمد بن حدو والقائد علي بن عبد الله الريفي .

3 – العرائش 1101 / 1689

كان محمد الشيخ المامون بن المنصور السعدي قد سلم العرائش إلى الأسبان في رابع رمضان 1019 موافق 20 نونبر 1610 مقابل مساعدته على إقصاء منافسيه على العرش من الأمراء[54] . وفي آخر شوال 1100 / 1688 عمل مولاي إسماعيل

---

(53) نزهة ، ص 506 . أكنسوس ، الجيش العرمرم ، ص 72 ، الاستقصا ، 7 ، 63 – 64 . عهد الحفيظ الفاسي ، مجلة الثقافة المغربية ، شتنبر 1941م . الرباط . عباس بن ابراهيم ، الإعلام ، 3 ، 67 . *Hœfer. Empire du Maroc, p.361* .
الضعيف ، ص 67 ، مخطوط عن سلا لمراقب (والي) سلا الفرنسي ، تعريب عشاش بلقاسم .

(54) نزهة الحادي ، ص 319 – 321 .

على تطويقها بالمجاهدين وأجهزة الحصار ، واستمرت محاصرتها مدة خمسة أشهر بقيادة أحمد بن حدو ، واضطر الاسبان إلى التحصن بحصن القبيبات الذي شيده المنصور الذهبي ، بينما قام المغاربة بتلغيم جوانب السور من جهة الميناء ، ثم اقتحموا المدينة وفتكوا بالنصارى الذين أبدوا مقاومة ضد المغاربة ، ثم استسلم الباقون بمن فيهم المعتصمون بالحصن ، وبينما تم تبادل أفراد الحامية بالأسرى المغاربة بمعدل جندي إسباني مقابل عشرة من المغاربة ، اعتبر حوالي 1800 من السكان أسرى ووجهوا إلى مكناس ليساهموا في بناء القصور الملكية والمرافق الخاصة بالمدينة . وكان دخول العرائش في 18 محرم 1101 / 1 نونبر 1689 ، وتذكر الرواية المغربية أن النصارى قتل منهم 1200 وأن عدد السكان كان حوالي 3000 . وحصل المغاربة على 180 مدفع منها 22 من البرونز ، وقد وصف الأفرني حجم بعض هذه المدافع وقنابلها . كما أن الرواية المغربية لا تشير إلى مصير الحامية الإسبانية ولكن بعض الوثائق الرسمية تعالج قضية تبادل الأسرى ، وعمرت العرائش بعناصر من أهل الريف وشيدت بها على الفور مرافق عمومية كما شيد قصر القائد بالحصن المذكور . وقد استنكر الاسبان معاملتهم كأسرى ، ولجأ العاهل المغربي إلى فتوى من القاضي أبي القاسم العميري لتثبيت هذا الحكم . ثم جرت اتصالات مع الدولة الإسبانية بشأن مفاداتهم . وكان لفتح العرائش تأثير حماسي على معنوية المغاربة الذين كان أدباؤهم خير معبر عنه فيما أنشأوه من قصائد تنوه بالفتح وبطولة المغاربة ، ومنهم الفقيه العالم عبد السلام جسوس الذي لقي فيما بعد حتفه من أجل قضية التجنيد الإجباري الخاص بالحراطين[55] .

4 – أصيلا 1102 / 1691

ظل ثغر أصيلا تابعا للاحتلال الإسباني منذ 1581 بعد خضوعه للاحتلال البرتغالي منذ العهد الوطاسي ، وفي 1101 وبعد تحرير العرائش حوصرت أصيلا مدة

---

(55) حول فتح العرائش يراجع . م . س . ص 506 ، الجيش العرمرم ص 76 ، الاستقصا ، 7 ، 73 ، الضعيف ، ص 71 ، محمد السليماني ، اللسان المعرب ، ص 77 ، عباس المراكشي ، إعلام 3 ، 67 . 361 *Hœfer. Op. Cit, p.361*
المشرفي ، الحلل البهية ، ص 127 ، آمنة اللو ، قضية العرائش ، مجلة البحث العلمي ع 27 ، 28 ، 31 ، الرباط *Hamet, Bulletin, p. 7*

سنة ثم استأمنوا السلطان مولاي إسماعيل ، ولكنهم لم يطمئنوا إلى عهده فغادروا المدينة ليلا عن طريق البحر سنة 1102 / 1691 ثم عمرت المدينة بأهل الريف الذين يعرفون المنطقة أكثر من غيرهم ، كما أن لهم خبرة حربية جيدة . وحسب الناصري فقد شاد المسؤولون مسجدين ومدرسة وحماما وقصرا للقائد بالقلعة[56] .

5 – محاولات فتح سبتة ومليلية ووهران

اتجهت جهود مولاي إسماعيل بعد تحرير المعمورة (المهدية) وطنجة والعرائش وأصيلا إلى محاولة فتح باقي المراكز الشاطئية المحتلة . والواقع أن مليلية كانت من الثغور الأولى التي شغل تحريرها اهتمام مولاي إسمعيل لأنها الثغر الرئيسي الوحيد في شمال شرقي المغرب حينذاك . وقد احتل الإسبان مليلية سنة 903 / 1497 في عهد دون خوان الذي أسند إدارتها إلى غوميز سواريث ، فأنشأ حولها سورا وخندق جانب السور لمنع وصول المهاجمين من الخارج وعرقلة فرار الثائرين من الداخل ، وحمل الخندق اسم سانتياغو ثم حصنت المدينة في عهد شارل الأول الذي لازالت بعض المدافع من أيامه تزين أحد أبواب مليلية . وكانت هناك محاولة شعبية لتحريرها سنة 972 / 1564 بزعامة شخص من الناحية المجاورة هو محمد بن علالت ، لكن الحامية سيطرت على الموقف وفتكت بالمهاجمين المتسللين إلى الداخل ، وفيما بين 1056 / 1646 و1071 / 1660 سقط عدد من جنود وضباط الأسبان قتلَى على يد المغاربة الذين حطموا المنشآت الدفاعية حول مليلية .

وعندما تولى مولاي إسماعيل شاد حولها برج دار المخزن حيث توجد مباني فرخانة الحالية ، وذلك سنة 1090 / 1679 . ومن هذا البرج كانت توجه الحملات وتدار عملية تطويق المدينة برا . ووقعت معارك وهجومات متعددة ساهم فيها الجيش النظامي وأهل الريف فيما بعد هذا التاريخ وسنة 1134 / 1721 أي إلى قرب وفاة مولاي إسماعيل وعلى فترات متقاربة من عهده طوال خمسين سنة[57] ، وهكذا

---

(56) جيش ، ص 76 ، استقصا ، 7 ، 77 ، السلماني ، لسان ، ص 77

(57) بشأن احتلال الأسبان لمليلية والدور الانهزامي للمقاومة الوطاسية ، انظر :

Léon l'Africain, p.289 :

وفيما يرجع إلى تطوراتها الخاصة ودور مولاي إسماعيل، يوجز هذا العرض دراسة مرقونة في حوالي 14 ص عن تاريخ مليلية (بالفرنسية) للسيد قيس مرزوق الورياشي . انظر أيضا : *Hamet, Op. Cit*

فإن محاولة استرداد مليلية سبقت استرداد الثغور المحررة ، ثم استمرت المحاولة إلى ما قُبيل وفاة مولاي إسماعيل ببضع سنوات.

وكانت رغبة مولاي إسماعيل قوية في تحرير سبتة. فما كاد ينهي إقرار الحامية المغربية بأصيلا حتّى أرسل قوات نظامية لمحاصرة سبتة ، وعبأ قوات من القبائل المجاورة فاستكمل خمسة وعشرين ألفاً كان بينها أيضاً مجندون من فاس ، وتواصل القتال حولها خلال سنة 1102 / 1691 ثم من سنة 1106 كما يذكر المشرفي في الحلل البهية ، وكانت قيادة الجيش للباشا علي بن عبد الله الريفي إلى سنة 1125 / 1713 حيث توفي ، وخلفه ابنه أحمد(58) الذي واصل قتال الجيش الإسباني حولها حتّى وفاة مولاي إسماعيل سنة 1139 / 1627(59) وكان القتال لا ينقطع كامل الليل والنهار حسب أكنسوس وغيره ، والمقاتلون يستبدل بهم غيرهم دورياً ، إلا أن قواد الجيش لم يبذلوا جهدهم في فتحها وتحقيق الوسائل الكفيلة بذلك حتّى لا يدعوا إلى التوجه إلى البريجة وحصارها. وكان السلطان منشغلا بمواجهة ثورة سوس وأحداث أخرى لم تمكنه من السهر على فتح سبتة بنفسه. وقد أقام الجيش مباني حول سبتة بما فيها دار القائد والمسجد ، وفي بداية 1133 / 1720 قام الجيش الاسباني بعملية مفاجئة بهجومه على المعسكر المغربي وقتل حوالي ألف والاستيلاء على عدد من الأخبية والأمتعة كما وضعوا أيديهم على قصبة أفراك. وكانت هذه العملية من تدبير فرقة وصلت خصيصا من إسبانيا ثم غادرت المكان بعد أن دبرت العملية ، لكن المغاربة هاجموا الجيش الإسباني اثر ذلك وأسروا فيما قيل حوالي ثلاثة آلاف وذلك في نفس السنة ، وكانت عملية الاسبان المذكورة في عهد فيليب الخامس بقيادة المركيز ليد ، وساهمت فيها قطع من الأسطول لترصد المعسكر المغربي من أطرافه في الوقت الذي هاجمه الجيش البري من الداخل.

وحسب أكنسوس كان القائد علي بن عبد الله هو قائد الجيش في وقت الهجوم الإسباني أي أنه كان لا يزال على قيد الحياة خلافا لما سبق ذكره. ومن جهة أخرى فإن حملة فيليب كانت سنة 1133 / 1720 وليس في السنة الموالية كما يذكره أكنسوس.

---

(58) محمد داود ، مختصر ، ص 66 ـ 69

(59) ن. م. ص 69 ـ 70

وقد حاصر الجيش المغربي أيضا بادس في جيش كبير من الريف والعبيد دون نتيجة[60] .

وكانت الأوضاع بالقطر الجزائري متردية من عهد بعيد حتَّى إن بعض أمراء بني زيان لم يترددوا في التعاون مع الأسبان وتسهيل احتلالهم لشواطئها ، وقد بذل الأتراك جهداً غير هين لطردهم ، لكنهم كانوا يعاودونها بالهجوم والاحتلال حتَّى اضطر السكان الجزائريون إلى الاستنجاد بالدلائيين والمجاهد العياشي . وكان التعاون بين الجزائريين والأطراف المغربية رسمية وشعبية يضايق السلطات العثمانيه ويسبب للمغرب مواجهات عسكرية معها بينما الأوضاع تتطلب حزما وتعاونا مخلصاً لصالح القطرين . وكانت وهران من جملة الثغور التي استولَى عليها الاسبان سنة 914 / 1508 إلى 1119 / 1707 ومن 1144 / 1731 إلى 1206 / 1791 وحررت في المرة الأولى على يد باشا الجزائر محمد بكداش ، وفي الثانية على يد محمد بن عثمان الكردي الذي كان أشهر ولاة الترك بوهران . وقبل التحرير الأول بسنوات قليلة أي عام 1112 / 1700 حاول مولاي إسماعيل أن يتولى تحريرها بنفسه ولكن قوة حصانتها وعدم توفر مدفعية قوية حال دون فتحها[61] . وقال مولاي إسماعيل بعد أن شاهد احتماءها بجبل مرجاجو والحصن الذي يشرف عليها وقد أسسه يوسف بن تاشفين وجدده أبو الحسن المريني : هذه أفعَى تحت صخرة ، تضر غيرها ولا يقدر عليها أحد . وقد أمر مولاي إسماعيل ببناء رباط حولها في مكان دعي بحرش مولاي إسماعيل . وقد عرف أعقاب حامية الرباط بعبيد الغرابة ، وترك أيضاً مجموعة من الجيش ببسيط أغبال قرب وهران عرفوا فيما بعد بالبحايتية ، وتكاثرت فروعهم وأعقابهم والدخلاء فيهم حتَّى تكون منهم قبيلتان هما الدوائر والزمالة . وكان

---

(60) يراجع عن احتلال البرتغال والاسبان لسبتة : ليون الإفريقي ، وصف إفريقيا ، والمغرب عبر التاريخ ج 2 ، لصاحب هذه الدراسة ، وعن نضال المغرب لتحريرها في عهد مولاي اسماعيل ، أكنسوس ، ص 76 و95 .
المشرفي ، حلل ، ص 142 ــ 143 . الناصري ، استقصا ، 7 ، 77 و98 ــ 99
Hœfer, p.363
وعن فتح الثغور في نفس العهد : الكردودي ، الدر المنضد ، و. 174 ــ 180 . داود ، مختصر ، ص 70

(61) ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني ، ص 9 ، 14 ، 20 ، 192 . السليماني ، اللسان المعرب ، ص 77

البحايتية يحظون بثقة السكان والسلطة التركية[62] .

ويعود عجز المغرب عن استرداد الثغور الشمالية التي احتلها الاسبان إلى استعانة هؤلاء بالأسطول البحري ، خصوصاً وأن إسبانيا كانت من أقوَى الدول البحرية في العالم ، كما أن مراكز الإمداد من إسبانيا قريبة وأن أهمية ثغور البحر المتوسط بالنسبة لاسبانيا تفوق بكثير أهمية الثغور الأطلسية المغربية . ومع ذلك فإن لانعدام الحس الوطني أو خموله لدَى قادة الجيش المغربي تأثيرا لا يمكن رده في احتفاظ الاسبان بسبتة خلال الحكم الاسماعيلي، فقد ألفوا المرابطة في دور مؤثثة مع أسرهم وأقربائهم حول سبتة وخشوا أن يفقدوا هذا الامتياز إذا تم الفتح ودعوا إلى التوجه نحو البريجة لحصارها . وما كان قريب المنال في هذا العهد أصبح متعذرا مع تعاقب السنين وتدهور الوضع العسكري الداخلي بعده .

قضايا الحدود وعلاقات المغرب مع الجزائر العثمانية

منذ سنة 1064 / 1653 أي من أيام مولاي محمد بن الشريف وقع الاتفاق مع الأتراك على إقرار الحدود المغربية الجزائرية باعتبار وادي تافنا كحد فاصل[63] . ومنذ هجوم الجيش المغربي سنة 1068 / 1657 على تلمسان استقرت الأوضاع بين الطرفين مع تجديد اتفاق الحدود أيام مولاي رشيد بنفس الصيغة[64] . ولما كانت سلطة الأتراك بالجزائر لا تتجاوز المدن ، وأن البوادي ترك أمرها لزعماء القبائل[65] ، فقد توغل الجيش المغربي سنة 1089 / 1679 بقيادة مولاي إسماعيل في الصحراء الجنوبية حتَّى وادي شلف وانضم إليه بنو عامر من التراب الجزائري ، فهاجم الأتراك المحلة المغربية بالمدفعية الثقيلة ، فقرر مولاي إسماعيل الانسحاب وقبول عرض الأتراك بإقرار الحدود القديمة[66] ، وذلك لأن بني عامر كانوا أول من انهزم فأحدثوا الاضطراب في الجيش المغربي الذي هوجم ليلا[67] ، ولم يسع السلطان إلا أن يقبل العرض المذكور . وفي 1093 / 1682 أعلن الأتراك مساندتهم

(62) السلماني ، ن . م . ص 77 — 78 .
(63) استقصا ، 7 ، 26 — 27
(64) ن . م . ص 60 . الجيش العرمرم ، ص 70
(65) السلماني ، م . س . ص 95
(66) جيش. ن. وص. استقصا 7، ن. ص. كردودي. در، و. 162
(67) *Hamet, Op.cit, p.4*

لابن محرز ، واجتاحوا منطقة بني يزناسن ، فردهم الجيش المغربي وطاردهم حتّى تلمسان بقيادة مولاي إسماعيل . وقد استغرقت تحركات مولاي إسماعيل هذه المرة بالمغرب الأوسط مدة تناهز السنة حتّى دخل العام الموالي[68] ، وخلاله تأزم الوضع في الجزائر حيث عمد الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال تورفيل إلى مهاجمة الجزائر العاصمة ومحاولة حصارها بحرا لمدة ثلاثة أشهر ، ولم يتم الصلح مؤقتا بين الأتراك وفرنسا إلا في 1095 / 1683 ؛ ولكن ابراهيم خوجة باشا والي الجزائر قام بالغارة على سواحل فرنسا سنة 1097 / 1685 فقام الأسطول الفرنسي بغارة مضادة على الجزائر انتهت بعقد صلح بين الطرفين[69] . وهكذا توقفت هجومات الأتراك على المغرب كما توقفت الهجومات المضادة حتّى دخلت سنة 1103 / 1691 ، لأن مولاي إسماعيل انشغل بمجابهة ثورة الأطلس المتوسط وفتح الثغور . وفي هذه السنة وجه جيشا من فاس بقيادة نجله مولاي زيدان لردع بني عامر الذين كانوا يعرضون خدماتهم تارة على الأتراك وطورا على المخزن المغربي ، وهاجم الجيش وهران قصد تحريرها من غير طائل[70] . وتدخل الجيش المغربي مرة أخرى فيما وراء الحدود سنة 1104 / 1692 تنفيذا لاتفاق مع باي تونس الذي عمل من جهته على مهاجمة الأتراك من وراء حدود بلاده ، لكن حملات الطرفين لم تؤد إلى نتائج إيجابية ، فإن الجيش المغربي بقيادة مولاي زيدان بعد تمكنه من الاستيلاء على تلمسان ، التحقت به نجدات كبرَى بقيادة مولاي إسماعيل ، وبلغت في زحفها حوض شلف مرة أخرى ، وهناك انكسر المغاربة[71] ، وتدخل الخليفة العثماني لإقرار الصلح سنة 1693 على أساس اتفاقيات الحدود القديمة[72] . لكن قوات الجيش المغربي بقيادة مولاي زيدان عامل تازا هاجمت من جديد منطقة تلمسان سنة 1106 / 1694 ثم عادت من حيث أتت[73] . وفي أواخر 1108 / 1696 وبعد استمرار التوتر على الحدود ، تدخل الخليفة العثماني مصطفَى بن محمد لإقرار الصلح من جديد وبعث بوفد كبير لهذا الغرض إلى العاهل المغربي ، فاستجاب لذلك وتم عقد الصلح على

---

(68) استقصا . 7 ؛ 64 — 65 . *Terrasse. Histoire, 2, 259*

(69) السلماني . لسان ؛ ص 96

(70) *Hamet, Op. Cit, p.7* جيش . ص 77

(71) *Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, p.233*

(72) *Hamet, Op. Cit*

(73) استقصا 7 ؛ 87 . جيش ؛ 83

الأسس القديمة[74] (وادي تافنا كحد بين البلدين) ، وذلك سنة 1109 / 1697 .

ويظهر أن نشاط مولاي زيدان داخل المناطق الجزائرية استؤنف بعد قليل . فانتقض الصلح سنة 1112 / 1700 وقام مولاي إسماعيل بالزحف على الجزائر من الجهة الغربية للحدود الجزائرية التي ظلت دائما موضع نزاع مع المغرب من عهد قديم لاحتماء أهلها بالسلطة المغربية وتعاطفهم معها . وفي ظل الاحتلال الفرنسي كانوا يعتبرون أنفسهم مغاربة ، على أن هجوم مولاي اسماعيل كلف الجيش المغربي خسائر بشرية كبيرة حيث قيل إن ثلاثة آلاف رأس علقت على أبواب العاصمة الجزائرية في 28 أبريل 1701 ، كما جرح مولاي إسماعيل حول وادي شلف وكاد يقع في قبضة الأتراك[75] . وفي عودة الجيش هلك عدد كبير منه عطشا .

ومنذ هذه الكارثة توقفت عمليا كل مواجهة كبرى مع القوات التركية ، لأن كلا من المغاربة وجيرانهم الأتراك انشغلوا بالقضايا الداخلية لاسيما القضايا الاجتماعية والاقتصادية التي ساعدت على إذكاء الثورات المحلية ، فضلا عن الضغط الأجنبي المتزايد .

العلاقات الخارجية

أهم الأطراف التي كانت لها علاقات تختلف شكلا ومضمونا في هذا العهد هي فرنسا وبريطانيا وإسبانيا والأقاليم المتحدة (هولندا) . وهناك أطراف أخرى تطورت علاقاتها مع المغرب على نطاق واسع بعد هذا العهد ، وشملت العلاقات الخارجية قضايا الأسرى والشؤون السياسية والتجارية .

1 - مع فرنسا

بدأت العلاقات مع هذه البلاد سيئة في عهد مولاي رشيد ، ثم فترت في نهاية عهد مولاي اسماعيل ، وهكذا فإن مجاهدي البحر من حوض أبي رقراق لم يتوقفوا عن نشاطهم بالرغم من قنبلة الأسطول الفرنسي لسلا سنة 1081 / 1671 فقد

---

(74) استقصا ، ن . ج . وص . جيش . ص 83 . *Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 259* وهناك اختلاف في التواريخ بين الناصري واكنسوس

(75) *Julien. Op. Cit*

عاود هذا الأسطول محاصرة حوض أبي رقراق وحطم عددا من السفن الجهادية سنة 1091 / 1680 [76] . وقد عرض مولاي إسماعيل على لويس الرابع عشر عقد هدنة ومعاهدة صلح . ومنذئذ نشطت العلاقات التجارية بين الجانبين دون أن يتوقف نشاط حركة الجهاد البحري انطلاقا من سلا . على أن الوصول إلى إبرام معاهدة بين الطرفين تطلب مفاوضات طويلة . فقد توجه محمد تميم عامل تطوان على رأس وفد من سبعة أعضاء إلى فرنسا ، في شتنمبر 1681 . ولم يعد إلى المغرب إلا في شهر مارس 1682 ، وهو يحمل نص مشروع معاهدة صلح لست سنوات مع ضمان حرية الملاحة والتجارة بالمغرب للطرف الفرنسي ، وقبل أن يقوم العاهل المغربي بتوقيع المعاهدة استقبل مبعوثا فرنسيا هو **سانت أمان** الذي جاء يقترح إضافات جديدة حول الأسرَى فرفضها مولاي اسماعيل وأمضَى النص الذي حمله السفير محمد تميم في 14 دجنبر[77] 1682 ، وتكدرت العلاقات مرة أخرى في السنة الموالية حيث نجد مولاي إسماعيل يبعث بخطاب إلى لويس الرابع عشر[78] مؤرخ بـ 5 شعبان 1095 / يوليوز 1684 وفيه يشير السلطان إلى عدم احترام الطرف الفرنسي لالتزاماته على عكس دول أخرى كالفلامان وأنكلترا ويشير على الخصوص إلى تنازل المخزن لتسريح عشرين من الأسرَى الأوروبيين وقيام السلطات الفرنسية بتحطيم سفينة تجارية مغربية خاصة وأسر بحارتها وركابها دون مراعاة المبادرة المغربية [79] .

وقد أغضب فرنسا أن يواصل مجاهدو البحر نشاطهم على الرغم من معاهدة 1094 / 1682 ، فاستأنفت سفنها الاعتداء على السفن المغربية ، ومنعت التجارة مع المغرب من 1686 إلى 1688 . وأخيرا عرض مولاي إسماعيل إجراء مفاوضات على مستوَى السفراء ، وكانت المبادرة منه حسبما أورده «هوفر»[80] وهكذا وجه لويس سفيرا عنه هو سانت أولون ، وبعث مولاي اسماعيل ابن عائشة أمير البحر ، بعد ذلك ولم تؤد المفاوضات إلى نتيجة . وفي سنة 1105 / 1693 عين المفاوض الفرنسي المذكور قائما بالأعمال في المغرب ، ويظهر أنه تم اتفاق مبدئي على أن تؤازر

---

(76) *I. Hamet, Bulletin d'Enseignement, pp.8-9*

(77) *J. Caillé, La petite histoire, 2, 189-196. Ch. André Julien Histoire, 2, 235*

(78) مجموعة «الوثائق» رق I . مديرية الوثائق الملكية بالرباط . رقم الوثيقة : 130

(79) أشار الأستاذ داود : مختصر تاريخ تطوان ، ص 65 إلى بعض المراسلات الأخرى .

(80) *Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 272-273. Hœfer. Empire du Maroc, p.316*

فرنسا المغرب ضد اسبانيا . ويساند المغرب من جهته فرنسا ضد أتراك الجزائر[81] نظرا لنشاط سفن الجزائر في عمليات الجهاد البحري ، وكان هدف مولاي إسماعيل هو طرد الإسبان من المراكز المغربية المحتلة . كذلك عولجت قضايا الأسرى الأوروبيين جزئياً ، وكان بالمغرب منهم أكثر من عشرين ألفا[82] ، وليس ألفان كما ذكر طيراس[82]. وظلت العلاقات التجارية لفترة سنوات بعد ذلك، قوية لصالح الطرف الفرنسي على الأخص . وإن كان المغرب يستفيد من عائدات الحقوق الجمركية ، وورد في تقرير لطوماسي *Thomassy* أن ميناء سلا استقبل وحده خلال خمسة أشهر من عام 1108 / 1696 اثنتي عشرة سفينة تجارية[83] فرنسية .

وفي 1110 / 1698 وجه مولاي إسماعيل ابن عائشة أمير البحر وقائد سلا إلى فرنسا لعقد معاهدة جديدة تشمل تبادل الأسرَى وقضايا التجارة وغيرها . ولكن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة عملية بالرغم من تنازلات مبدئية من الجانب الفرنسي بشأن الأسرَى . وقد استقبل السفير المغربي استقبالا رائعا يليق بشخصيته كزعيم شعبي وكممثل سام للعاهل المغربي الكبير[84] . واقترح ابن عائشة على مولاي إسماعيل أن يتولى مفاوضة البلاط الفرنسي بشأن خطبة إحدَى الأميرات للسلطان ، وعاد ابن عائشة مرة أخرى إلى فرنسا لهذا الغرض من غير حصول على موافقة العاهل الفرنسي . ومهما قيل عن هذا الحدث ومبرراته ومبلغه من الحقيقة ، فإن الأحداث تطورت بعد ذلك في اتجاه معاكس ، بسبب تحالف معظم دول أوروبا ضد فرنسا لسياستها التوسعية في عهد لويس الرابع عشر ، ومن ثم فقد بدأ نجم هذا العاهل في الأفول خلال السنوات الأخيرة من حكمه وأيامه ، وعرض عليه مولاي إسماعيل مساعدة عسكرية ضد الدولة النمساوية[85] التي لم تكن لها حتَّى ذلك الحين علاقات بالمغرب تستحق الذكر. ويلمح خطاب العاهل المغربي وهو مؤرخ سنة 1121/ 1709 إلى أنه يعرض هذه المساعدة بالرغم من تحسن العلاقات بين فرنسا والعثمانيين بالجزائر، مع كراهيتهم للعرب[86]. وهذا يؤدي إلى التأكيد بأن السياسة العلوية قد

---

(81) *Hamet, p.9-2*

(82) *Terrasse, Op. Cit. p.271 Op. Cit.*

(83) *Hœfer, Op. Cit, p.284*

(84) *Hœfer, Op. Cit, pp.283-285 et 362. Hamet, Op. Cit, p.9. J. Caillé, pp.246-250*

(85) *Hœfer, pp.285-286*

(86) *Ibid*

اتجهت لفترة قصيرة إلى تقوية مكانة العنصر العربي الذي واجه المصاعب في ظل الحكم التركي كما لم يكن في مركز القرار بتاريخ المغرب في غير العهد الإدريسي وفيما عدا ظروف مكانية وزمانية محددة، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى كونه أقلية نسبياً. على أن لويس الرابع عشر اقتصر في رده على تنشيط تبادل الأسرى وكان أكثر ليونة ولكن بعد فوات الأوان كما قال «هوفر»[87]. ومنذ هذه الفترة فقد بدأ لويس الرابع عشر يتأكد من حسن نوايا العاهل المغربي، ويوجه اللوم إلى مبعوثيه الذين اتهم بعضهم بالقصور في فهم السياسة المغربية[88] وهكذا غادر قنصل سلا منصبه سنة 1710 وقنصل تطوان مهمته سنة 1712. كما أن ابن عائشة لم يعد يمثل دورا يذكر، وغادر المبعوثون الدينيون الفرنسيون بدورهم المغرب وتحولت التجارة الفرنسية إلى عناصر من لانجدوك وكانوا يتهمون بموالاتهم للإنجليز[89]. وعمليا لم يعد هناك ممثل قنصلي أو سياسي من سنة 1131 / 1718[90]. وفي نفس الوقت أصبح الانجليز سادة في جبل طارق، فطغى نفوذهم التجاري بالمغرب، ولم يبق لفرنسا ممثل رسمي لمدة أربعين سنة.

2 - مع انجلترا

إذا كانت العلاقات المغربية الانجليزية تعود إلى عهد قديم، أي إلى العهد الموحدي على الأقل، فإنها توطدت واتسع نطاقها منذ عهد اليزابيث الأولى المعاصرة لأحمد المنصور الذهبي ومن البديهي أن تبقَى العلاقات المغربية البريطانية متوترة بعد الاحتلال البريطاني لطنجة وحتّى نهاية 1095 / 1684. وحينما تولى جيمس الثاني (جاك الثاني) سنة 1685 اعتنق الكاثوليكية وحاول ارغام مواطنيه على اعتناقها بتشجيع من السلطة البابوية، فقامت الثورة ضده، واضطر إلى اللجوء إلى فرنسا. وقد حفظ نص خطاب وجهه مولاي اسماعيل بتاريخ 15 شعبان 1109 / 26 فبراير 1698 إلى الملك اللاجئ يذكره فيه بمزايا الإسلام ويدعوه إلى اعتناقه أو العودة إلى المذهب البروتستاني الذي يدين به الانجليز، ثم ينصحه بالاستقرار بلشبونة حيث يمكنه أن يدبر أمر عودته إلى العرش بعيدا عن ضغط الدولة الفرنسية ولوجود

(87) *Hamet, Op. Cit. Hœfer, Op. Cit, p.286*

(88) *Julien, p.237*

(89) *Ibid*

(90) *Hamet. Op. Cit*

زوجة أخيه بالبرتغال ، كما ينصحه الخطاب بعدم الذهاب إلى روما حيث يتعذر عليه مغادرتها بعد ذلك ، وعبر مولاي إسماعيل عن رغبته الملحة في مساعدته لولا عدم توفر المغرب على أسطول : «والله لولا أنّا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر ، كان عندنا من يحسن معرفته أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يديه ، حتّى نكاتب الانجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى ملكك[91] .»

وواضح من هذا الخطاب مدَى الخيبة التي كان يشعر بها مولاي إسماعيل في علاقاته مع البلاط الفرنسي وانعكاس هذه الخيبة على موقفه الموالي للملك الانجليزي الذي فقد عرشه . وعلى كل فإن الأمور سارت في انكلترا ، في اتجاه جديد لم يكن يسمح باستعادة جيمس الثاني لعرشه .

وأول معاهدة تجارية تم عقدها بين الدولتين خارج الاتصالات الفردية كانت في عهد جورج الأول سنة 1134 / 1721 أي قبل سنوات قليلة من وفاة مولاي إسماعيل . وفي الواقع لم تتم المصادقة عليها نهائيا إلا في عهد جورج الثاني ومولاي عبد الله في 10 يوليوز 1729[92] . ولذلك لم تأخذ العلاقات الرسمية بعدا كبيرا بين الدولتين إلا بعد وفاة مولاي إسماعيل ، بينما كانت التجارة وتنقلات التجار الانجليز قد أخذت طابع التوسع والنمو على حساب العلاقات المغربية الفرنسية الفاترة .

مع إسبانيا

لقد كانت العلاقات مع هذه الدولة أقل نشاطاً بالنسبة للعلاقة مع فرنسا وانجلترا ، فمن جهة يوجد المغرب في حالة حرب مع إسبانيا بسبب ثغوره المغتصبة ، ومن جهة أخرى فإن العلاقات التجارية التي كان يفترض أن تكون أوسع نطاقاً ، مع كل من إسبانيا والبرتغال ، ظلت خاضعة للهيمنة التي فرضتها أنجلترا بمراقبتها للملاحة التجارية[93] واستقرارها أخيرا بجبل طارق . وأهم الصادرات الإسبانية إلى المغرب في هذه الفترة بعض أنواع الثياب ، بينما كانت واردات المغرب من هولندا

---

(91) مجموعة الوثائق ، ج 1 ، رقم 133 ، وانظر أيضا بشأن العلاقات بين العاهلين : *Caillé, Op. Cit, 1, 233*

(92) *Hœfer, Op. Cit, p.288* محمد داود ، مختصر تاريخ تطوان ، ص 70 – 73 و75 – 77

(93) *Hœfer, Op. Cit, p.289*

وإيطاليا أكثر أهمية حيث يدخل فيها الفولاذ والحديد والذخائر الحربية وغيرها[94] . لكن أهم ميدان كان يقتضي تواصل البعثات والخطابات الدبلوماسية هو ميدان تبادل الأسرَى ، إذ كان بالمغرب عدد كبير من أسرَى الإسبان ، كما أن إيبريا كانت تضم أعدادا وافرة من أسرى المسلمين من مختلف الأقطار . وظلت سياسة المغرب في أدوار التاريخ ولاسيما في القرون الأربعة الأخيرة ، قائمة على العمل على افتداء أسرَى المسلمين بقطع النظر عن انتمائهم الجغرافي ، وهذا يؤكد الطابع الإسلامي وليس الوطني فحسب للسياسة المغربية خلال القرون الأخيرة . على أن الدولة الاسبانية كانت تعاني خلال القرن السابع عشر م . صعوبات سياسية خطيرة بسبب حروبها مع هولندا ودخولها في الأحلاف الأوروبية العسكرية وهجرة العناصر النشيطة إلى أمريكا . وكان كارلوس الثاني عاهل إسبانيا أحد المعاصرين من ملوكها لمولاي إسماعيل ، وتولى فيما بين 1665 ـ 1700م وقد خاطبه السلطان المغربي بشأن موقف الفقهاء المغاربة من نصارَى العرائش ، وكانوا يعارضون في إطلاق سراحهم لأنهم لم يستسلموا حسب شروط الجيش المغربي . ويتعلق الأمر بمائة أسير اقترح مولاي إسماعيل أن يفادي نصفها بخمسمائة أسير مسلم ، والنصف الآخر بخمسة آلاف كتاب مما احتفظت به الاسبان من الكتب العربية المختارة ، على أن يقوم الوفد المغربي بعملية الانتقاء ، أما الأسرَى المسلمون فيقبل الوفد فيهم الصبي والشيخ كما يقبل المرأة والرجل . وقد تولى المفاوضة باسم المغرب الوزير محمد بن عبد الوهاب ، وكاتبه عبد السلام جسوس ، وكتب خطاب مولاي إسماعيل هذا بـ 16 ذي الحجة 1101 / 1690م[95] .

تقييم العمل الإسماعيلي

استغرق حكم مولاي إسماعيل زهاء خمس وخمسين سنة ، ولم يتمم مرض موته الثلاثة أشهر . وليس هناك نص أو وثيقة تدل على أنه رشح أحدا من أنجاله لولاية العهد ، ولكنه استشار كاتبه أحمد اليحمدي بشأن ترشيح أحدهم ، فنصحه بأن لا يفعل ، لأنه لم يكن فيهم من هو مؤهل للملك حسب نصيحته التي عمل بها السلطان . وهكذا توفي مولاي إسماعيل في 28 رجب 1139 / 1727 وتولى

---

(94) *Julien, Op. Cit, p.234*

(95) مجموعة الوثائق . ج 1 . رقم الوثيقة : 131

الصلاة عليه الفقيه الحسن بن رحال المعدني ، ودفن بضريح الشيخ المجذوب بمكناس[96] . وقد تحدث الزياني بتفصيل عن أعقاب مولاي إسماعيل وترتيب معاشهم[97] . وتأتي الروايات الفرنسية والإنجليزية بتفاصيل عن حياة البلاط الإسماعيلي ، ولكن أهم ما يمكن إيراده بهذا الصدد هو قضية خطبة مولاي إسماعيل للأميرة كونتي والتي سبق تناولها ولم يرد عنها شيء تقريبا في المصادر العربية . وبعضها يتميز بالصراحة والبحث عن الأسرار والمواقف التي تثير الانتقاد كما هو الشأن في تاريخ الضعيف . وقد دحض المؤرخ الرسمي المرحوم عبد الرحمن بن زيدان أدلة خطبة الأميرة كونتي من جانب مولاي إسماعيل[98] والأرجح أن الأمر يتعلق بمبادرة شخصية من ابن عائشة لم يدل فيها العاهل المغربي برأي نهائي ولا مكتوب[99] .

ولقد بذل مولاي إسماعيل جهوداً كبرَى لإعادة تنظيم الجيش كما سيرد ذلك في الفصل الخاص به . ولقد أراد أن يتلافى المؤامرات والتكتلات القبلية ذات الضغط السياسي ، فألف جيشاً يكون عنصر البخاري أكبر أعداده ، ولكن هذا الجيش الذي فقد العناية والتجديد والتدريب بعده تحول إلى أداة اضطراب وشغب ولم يعمل في الغالب على ضبط النظام ومساندة المرشحين القابلين لتطور أحسن في حكمهم ، من بين الملوك . ولكن هذا الجيش بمعونة النضال الشعبي الذي لا مراء في مردوديته ، وبقيادة حازمة وعنيدة من العاهل الكبير ، استطاع أن يحقق افتتاح عدد كبير من الثغور ، واستخلاصها من المستعمر الأجنبي ، وأن يضع حدا لثورات الأمراء ، وبالتالي للمحاولات الانفصالية المتسترة بظل هؤلاء الأمراء ، ولقد عمل مولاي إسماعيل على ضبط الأمن وتسهيل حركة مرور القوافل والمسافرين بفضل الشبكة الأمنية التي بثها في مختلف أرجاء البلاد والتي كان قوامها الحصون والأبراج والقلاع والقصبات وكلها مجهزة بالرجال من الجيش النظامي أو من القبائل المستوطنة بنفس المنطقة ، لقد عاش المغرب فترة طويلة من الأمن وتفرغ السكان للعمل المنتج بعد أن انقضت أجيال انشطر فيها المغرب إلى بقع نفوذ تتطاحن على السلطة .

(96) استقصا ، 7 ، 100

(97) ن . م . ص 101 — 102 ، وانظر *Hœfer, p.364*

(98) جريدة السعادة ، 9 رجب 1355 / 26 شتنبر 1936

(99) بشأن هذه الخطبة ينظر : *Hœfer, p.362*

وتتصارع فيما بينها على مشهد من جيوش الاحتلال الموزعة بين الثغور البحرية.

وامتد نفوذ مولاي اسماعيل إما عن طريق حملات عسكرية أو بصفة تلقائية من السكان، إلى شنكيط وتخوم السودان الغربي، وما وراء النيجير، وبلغ تلمسان وشلف في توغلاته بالمغرب الأوسط، واستقبل وفودا من قبائل هذه المناطق المفتوحة أو التي قدمت بيعتها اختيارا خصوصا عرب معقل الذين تربطهم بمولاي إسماعيل رابطة الخؤولة والصهر، وأسهمت مجموعات كبيرة من هذه القبائل في الجيش الوطني النظامي وكان لها دور كبير في صنع الأحداث الداخلية. وكانت الصحراء الغربية ضمن المناطق الداخلة في بيعة مولاي إسماعيل(100).

وجعل مولاي اسماعيل من مكناس عاصمة لحكمه متجنباً الإقامة بفاس كمقر سياسي دائم، لأن أهل فاس ترددوا فيما سبق بين الدلائيين والعلويين، ثم انهم تشبثوا لفترة أربعة عشر شهرا ببيعة أحمد بن محرز على مسمع من مولاي إسماعيل الذي كان منشغلا بمواجهة الثورات المحلية في جهات أخرى من المغرب. وقد شاد مولاي إسماعيل منشآت جديدة عمرانية وإدارية وعسكرية بمكناس(101) مثلما فعل في جهات أخرى، على أن اختيار مكناس كعاصمة على مقربة من العناصر الصنهاجية التي لم ترتح لوقف نشاط الزاوية الدلائية والتي بدأت تسند ثقتها إلى زعماء ذوي بأس وحذر من الروح الوحدوية، أتى بعد قليل، بنتائج عكسية تظهر من الأحداث التي هزت كيان المنطقة وحكومة المخزن بشكل عنيف.

لم يكن مولاي إسماعيل بحاجة إلى مساندة كتلة طرقية أو صوفية تحل محل الدلائيين، ولكنه كسائر أسلافه وعدد من خلفائه كان شديد الحذر من هذه الكتل التي لم توفق أي منها بصفة انفرادية إلى تحقيق الوحدة الوطنية، والواقع أن التجربة الجزولية كانت مثلا فريداً فيما سبق، وهي مع ذلك معززة بقيادة وتنسيق أسرة تنتمي إلى البيت النبوي. ولقد كان مولاي إسماعيل مع هذا يعظم الصلحاء ويتبرك

---

(100) حول الامبراطورية الإسماعيلية، يراجع: أفرني، نزهة، ص 505، الزياني، بستان، ص 32. الكردودي، الدر المنضد، و. 162. المشرفي، حلل، ص 121، أكنسوس، جيش، ص 69، الضعيف، تاريخ، ص 57، الناصري، استقصا. ص 57 — 58. *Hamet, Op. Cit, p.4*

(101) انظر الفصل الخاص بالنشاط العمراني

بهم ويشيد لبعضهم الأضرحة ، ثم هو يستشير كبار الفقهاء ويزكي آراءهم ويتلقى من بعضهم كالعالم اليوسي آراء صريحة بشأن أسلوب الحكم وقيادة الأمة فلا ينالهم بمكروه ، غير أن المحنة التي شهدها عدد من فقهاء فاس بشأن تجنيد الحراطين وعدم موافقة هؤلاء الفقهاء على تجنيدهم إجبارياً تثير من غير شك ، تساؤل المتعطش إلى الحقيقة[102] ، لقد كان الوطن بحاجة إلى جيش يضم عناصر ذات كفاءة وقدرة على حماية البلاد ، ولكن عملية تجنيد الحراطين إجبارياً كعنصر مستقل ، رأى فيها كثير من الفقهاء اجراءً غير شرعي ، وارتضاها آخرون بضغط من الفقيه المستشار عليليش الذي تزعم العملية وأشار بها على السلطان ، وفيما عدا هذا الحدث الذي أثار جرحا عميقاً في مواقف سكان فاس وفي عواطفهم تجاه السلطة المركزية على الأخص ، فلا غبار على السياسة الدينية لمولاي إسماعيل بوجه عام . ولقد تحدث غير واحد من المؤرخين عن تكريم مولاي إسماعيل للفقهاء والصلحاء والاستماع إلى وجهة نظرهم[103] .

أما وجهة نظر الأوروبيين المعاصرين لمولاي اسماعيل فتتسم عموما بالكراهية لأنها في الغالب تعبير عن موقف أسرى سابقين ومبعوثين دبلوماسيين أو تجاريين لا يجدون في مواقفه ليناً كافياً لصالحهم أو لصالح الأطراف التي يمثلونها ، فهو في نظر معظمهم ، وفي تقاريرهم ملك قاس شديد البأس خصوصاً تجاه الأسرى المسيحيين .

وبكلمة موجزة ، كان مولاي إسماعيل مسلما عربيا صارماً في مواقفه الوطنية والإسلامية ، شديد البطش عند الاقتضاء ، بالمناهضين للوحدة حسب مفهومه وخطته . وكان أيضا ، شديد الحذر في تعامله مع الجهات الأوروبية ، ولكنه في كل حال ، كان صريحاً صادق القول والعمل .

---

(102) حول ما يهم تنظيم الجيش ، انظر الفصل الخاص بالجيش ، وحول قضية تجنيد الحراطين فقد وردت في نفس الفصل وفي الفصل الذي يعالج الحياة الدينية .

(103) الضعيف ، تاريخ ، ص 65 . مجموعة الوثائق ، ج 1 ، وثيقة رقم 131 . استقصا ، 7 ، 69 ، 113 . *Hœfer, Op. Cit, p.359*

الفصل الثالث

هيمنة الجيش واستفحال أزمة العرش

1139 – 1171 (1727 – 1757)

م. عبد الله بن إسماعيل – م. عبد الملك بن اسماعيل – م. أحمد الذهبي – م. زين العابدين – م. المستضيء – م. محمد بن إسماعيل – م. علي الأعرج

مميزات المرحلـة

تعد هذه الفترة من أشد فترات تاريخ المغرب اضطراباً فقد شهدت تنصيب عدد من أبناء مولاي إسماعيل، لم يكن أحد منهم بقادر على إقرار النظام وحل الأزمة السياسية والتنظيمية لشؤون البلاد، وأهم مظاهر الأزمة :

1 – استبداد جيش البخاري بالسلطة وتحكمه في اختيار وخلع الملوك على غرار ما حدث من استبداد قادة الجيش التركي في الدولة العباسية بعد المعتصم. ولم تكن لهذا الجيش الإفريقي عاطفة وطنية ولا أية خطة إصلاحية أو تنظيمية، وكان لوضعيته المادية المزرية أثر فعال في تحركاته ومؤامراته ضد النظام الحاكم بعد وفاة مؤسسه مولاي إسماعيل.

2 – عودة المجموعة الصنهاجية إلى الثورة مع تغيير ملموس في اتجاهها وهي أنها أصبحت تساند بعض الأمراء ضد آخرين من المرشحين للملك أو القائمين به. إلا أن بعض القبائل كآيت وامالو وكروان وزمور وبني مطير وآيت سغروشن تتجمع

Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 281

لفرض وجودها السياسي. فقد برز دورها في صنع الأحداث السياسية حتّى إقرار الحماية الفرنسية بشكل يذكرنا بقوة شكيمة بربر (فازاز) في مواجهتهم للأدارسة والمرابطين، وبدور الأوراس في مواجهتها للفاتحين العرب، لكن المجموعة الصنهاجية غير منسجمة ولا ذات طموحات قومية أو وطنية معززة بالإرادة المستمرة والزعامة الموحدة.

3 ــ عدم وجود وحدة في الرأي والتساند داخل الأسرة العلوية حول شخص واحد من بين الأمراء، تتوفر فيه كل المؤهلات التي يرتضيها المغاربة في المسؤول الأعلى. كما أنه لا يوجد أي نظام للترشيح يتخذ مبدأ ويفتح الباب للاختيار والتعويض داخل الأسرة نفسها.

4 ــ الاستغناء عن خدمات الإطارات الإدارية والسياسية الرئيسية التي اعتمد عليها مولاي إسماعيل وتعويضها بإطارات أقل كفاءة وتجاوباً مع متطلبات الأمة.

مولاي أحمد الذهبي 1139 / 1727

بعد وفاة مولاي إسماعيل كان من حسن حظ مولاي أحمد الذهبي أحد أنجاله أن وجد بمكناس حيث القيادة المركزيه للجيش والسلطة السياسية، مع توفر بيت المال على مدخرات كافية لإغراء الجيش بمبايعة مولاي أحمد، والذي كان أصغر من أخويه عبد الملك وعبد الله[2]. وهكذا يقول أكنسوس عن بيعة مولاي أحمد[3]: «اجتمع قواد العسكر البخاري وقواد الأوداية وأعيان العلماء والقضاة والعمال والكتاب، وبايعوا مولانا أحمد الذهبي بأمر العبيد الشبيه بالجبر».

وعمد أهل فاس إلى عاملهم أبي علي الروسي فقتلوه ثم قدم وفدهم إلى السلطان الجديد بيعة فاس، فقبلها وعين عاملا جديدا هو المحجوب العلج دون أن يهتم بمحاكمة قاتلي العامل السابق، ثم عمد قادة البخاري إلى استصدار الإذن من السلطان بقتل علي ويشي القبلي الذي كان أكبر عمال البربر بالأطلس مقاما، وأحمد بن علي عامل أحواز فاس شرقاً والباشا ابن الأشقر عامل زرهون والمكلف أيضا بجباية أعشار منطقة الغرب وبني حسن[4]. كذلك تم قتل مرجان الكبير الذي

---

(2) *Hœfer, Empire du Maroc, p.364*

(3) أكنسوس، جيش، ص 93

(4) م. س. ص 94. ولصاحب الاستقصا رواية أخرى بشأن مقتل أحمد بن علي (ج 7. 115)

كان قائد عبيد الدار أي حرس القصر ، كما كان أمين أمناء بيت المال ، وهكذا أقام البخاري هذا السلطان «صورة لأنهم علموا أنه لا يدبر معهم شيئا ولا يقدم ولا يؤخر إلا من قدموه وأخروه»[5] . وكان للقادة المقتولين دور كبير في إقرار النظام بالمناطق الساخنة وضمان تحصيل عادي للجبايات المقررة ، فلما وقعت تصفيتهم عاد البربر وغيرهم إلى حمل السلاح وخزنه ، وحاول السلطان أن يقوم بمبادرة إيجابية بإلغاء الضرائب غير الشرعية ولكن الأوضاع كانت أسوأ من أن تصححها هذه المبادرة . فقد نشأت حرب أهلية اندلعت في عدة مناطق :

1 — بفاس حيث يوجد عنصر الأودايا الذي يمثل مركز الثقل في الجيش بعد العنصر الزنجي (البخاري) ، والذي يتولى حماية الأمن بفاس ، فقد ثار الاودايا واعتقلوا عددا من شخصيات فاس ونهبوا سوق الخميس بها ولم ينفع تدخل السلطان وديا ولا عسكريا لانهاء تمردهم .

2 — بالأطلس والسهول الأطلسية حيث عاد البربر والعرب إلى التسلح كما سبق .

3 — بتطوان التي قام عاملها الفقيه محمد بن عمر الوقاش برد هجوم على تطوان قام به المجاهد الشعبي أحمد بن علي الريفي الذي كان له دور بارز في تحرير الثغور المغربية بقيادة مولاي إسماعيل ، وأدى انتصار عامل تطوان إلى إعلان طموحه إلى الملك ، وقال في ذلك أشعارا سجلت عليه[6] .

وعجز السلطان مولاي أحمد عن إعادة إقرار النظام وسلوك سياسة شعبية تمكنه من الاستماع إلى رغبات الشعب والعمل على إصلاح الوضع قدر الامكان ، فلزم قصره وتفرغ للهوه وملذاته تاركا الشعب وهمومه[7] . لقد كان مولاي أحمد الذهبي دون مستوى أسلافه بكثير . ولقد كان مع هذا ضحية استبداد البخاري الذين قرروا في النهاية خلعه واستدعاء أخيه عبد الملك أمير سوس لبيعته ، وكاتبوا بذلك أهل فاس طالبين موافقتهم على هذا الاختيار ، فأجابوهم إلى ذلك ، وقبل أن يصل العاهل الجديد إلى مكناس ، قام جيش البخاري باعتقال مولاي أحمد ووضعوه

---

(5) أكنسوس . ن . م ، وص

(6) استقصا ، 7 ، 116 — 117 . محمد داود ، مختصر ، ص 78 — 82

(7) استقصا ، 7 ، 117 . *Empire du Maroc, p.364*

تحت الإقامة المحروسة بداره خارج قصبة فاس[8] ، وذلك في شعبان 1140 / 1728 (10 أبريل) .

عبد الملك بن اسماعيل : شعبان – ذو الحجة 1140 (1728)

استقبل الجيش مولاي عبد الملك عند وادي بهت في الطريق إلى مكناس ، وكثيرا ما شهدت هذه المنطقة أحداثا هامة ، وبمكناس أعلنت بيعة العاهل الجديد بحضور من يعتبرون ممثلين للأمة من أعيان وقضاة وفقهاء إلى جانب عمال الأقاليم والأمراء والسلطات المعنية . ثم نقل أخاه مولاي أحمد إلى تافيلالت ، وروى القادري في «الأزهار الندية» أنه وجه تعلياته إلى خليفته هناك أن يسمل عينيه[9] ، ولكن مولاي أحمد أشعر بما تقرر في حقه فلجأ إلى زاوية الشيخ سعيد أحنصال ، أما عبد الملك فقد خفض مجموع أرزاق الجيش من مائة وخمسين ألف مثقال[10]، كما أديت في عهد سلفه،إلى أربعة آلاف مثقال ، ثم شرع في مكاتبة زعماء العرب والبربر بشأن مساندته ضد هيمنة البخاري ، وأحدث هذا الموقف قلقاً كبيرا في أوساط الجيش الذي عمد إلى نهب مكناس وقتل جميع الشخصيات التي وقعت في يده ممن تعاطفوا مع عبد الملك . أما السلطان نفسه فقد فر إلى فاس لاجئاً إلى حرم مولاي ادريس ، وكان من ضعف سياسته أنه أغرَى الجيش بالبربر مثلما أغرَى هؤلاء بالجيش ، غير أن الناصري يعد مولاي عبد الملك أجدر بالملك من مولاي أحمد لنجدته وحزمه ، ولأن رغبته الأساسية كانت هي وضع حد لتحكم البخاري وهيمنتهم غير الناجحة[11] .

وبعث عبد الملك إلى الجيش الشيخ الطيب الوزاني ناصحاً وواعداً بالخير ، لكن دون نتيجة . وقام أهل فاس بمساندة عبد الملك مستميتين في بيعته ، بينما عاد البخاري إلى بيعة مولاي أحمد الذي استقدموه من الزاوية الحنصالية بتافيلالت .

---

(8) أكنسوس . جيش . ص 94– 95 . استقصا . 7 . 119

(9) أكنسوس . ن . م . ص 95– 96 . زياني . بستان 48

(10) حسب بعض التقارير الأجنبية فإن مولاي أحمد أوصل أرزاق الجيش إلى مائتي ألف مثقال .

(11) ناصري . 7 . 120

مولاي أحمد الذهبي ثانيا : حجة 1140 - 4 شعبان 1141 (1728 - 1729)

بمجرد تجديد بيعة مولاي أحمد ، عمل على كسب تأييد الجيش بتضخيم مخصصاته ثم قام بمحاصرة فاس بعد أن رفض أهلها تسليم عبد الملك مع موافقتهم على بيعة مولاي أحمد . وكان الفاسيون قد فتكوا بعاملهم السابق الروسي ونهبوا أمواله وأموال الدولة(12) ، فنصب مولاي أحمد مدافعه باتجاه فاس وتولى الجيش تخريب المزارع بضواحيها والمدفعية تحطيم أسوار المدينة ومبانيها واستمرت القنبلة عدة أسابيع وقد قلت المؤن لدَى السكان وارتفعت الأسعار ، وأخيراً وقع الاتفاق على تأمين السكان ومبايعتهم للسلطان مولاي أحمد وتسليم أخيه ، ويظهر من تضارب روايتين بهذا الصدد(13) ، ان مولاي أحمد منع كل اتصال بعبد الملك المحترم بالضريح الإدريسي ، حتَّى ضاق به الأمر ، فسلم نفسه تلقائياً إلى مولاي أحمد الذي نقله إلى دار الباشا مساهل بمكناس ، ثم عاد مولاي أحمد إلى مكناس ومرض بالاستسقاء(14) ، فأمر بخنق أخيه الحبيس ، وتوفي مولاي أحمد بعد ثلاثة أيام في رابع شعبان 1141 (مارس 1729) .

أنفق مولاي أحمد على الجيش من غير حساب حتَّى استحق لقب الذهبي لذلك ، مثل نظيره السعدي أحمد المنصور الذهبي . وكان قاسياً في سلوكه تجاه خدام القصر وغيرهم(15) ، اعتمد على عبيد البخاري ، وترك شؤون الحكم لباشا مكناس الذي كان دون مستوَى تدبير شؤون الأمة . وقد أدت تصرفاته إلى غضب نساء القصر وإسهامهن في خلعه للمرة الأولى(16) .

مولاي عبد الله بن اسماعيل : شعبان 1141 - 27 صفر 1171 (مارس 1729 - 12 نونبر 1757)

عاشر مولاي عبد الله أخاه عبد الملك عندما كان هذا الأخير عاملا على

---

(12) أكنسوس ، ص 97

(13) م . س . ص 97 ، ناصري ، استقصا ، 7 ، 123

(14) *(Chydropisie), Hœfer, Op. Cit, p.365*

(15) زياني ، بستان ، ص 50 ، *Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, pp, 10-14*

(16) *Caillé, Op. Cit.*

السوس ، ثم صحبه إلى مكناس خلال أيام ملكه القصيرة ، ولما فر عبد الملك إلى فاس انتقل مولاي عبد الله إلى سجلماسة ، إلى أن توفي أخوه مولاي أحمد ، فاتفق عبيد البخاري والاودايا على مبايعة مولاي عبد الله واستقدامه إلى مكناس ثم كاتبوا أهل فاس بالدخول في البيعة نظرا لأهمية فاس الاقتصادية ومكانة مثقفيها على المستوَى الشعبي ، وقد استقبل الفاسيون بالترحاب ترشيح مولاي عبد الله وهو من أم عربية هي خناثة بنت بكار المعقلية الشنقيطية ، والتي كانت على ثقافة طيبة ، وهكذا حضر مولاي عبد الله بظاهر فاس في «ظهر المهراس» حيث استقبل وفود المدينة الذين قدموا إليه نص البيعة مكتوبا بإنشاء الفقيه إدريس بن المهدي المشاط الذي تولى فيما سبق قضاء تادلا أيام مولاي إسماعيل[17] ، ويعاهد المبايعون المرشح على الوفاء والطاعة في مقابل إقراره للعدل ، وذلك في 7 رمضان 1141هـ . ووعد مولاي عبد الله سكان فاس بدخول المدينة وزيارة الضريح الإدريسي ، غير أن حادثاً داخلياً بين حمدون الروسي عامل فاس القديم وأسرة عبد الخالق بن يوسف الذي قتله الروسي في عهد مولاي إسماعيل جعل الروسي يخوف السلطان من أهل فاس ، فتراجع عن زيارتها على الرغم من إلحاح الفقهاء والوجهاء واعتذارهم عن الشغب الذي أحدثته الأسرة المذكورة ، وكانت تهم بقتل الروسي . على أن الفاسيين قدموا للعاهل خمسمائة من شبابهم لمرافقة السلطان إلى مكناس والعمل في جيشه ، ومثل هذا العدد من فاس كان في خدمة الجيش المغربي أيام أسلافه ، وهم من أجود الرماة . غير أنه أوقف أداء رواتب واعطيات المستحقين من أهل فاس وأمر وفدهم بالعمل على تسليم الأراضي والبساتين التي وضع الفاسيون يدهم عليها وهي ملك للدولة وهددهم بتخريب أحيائهم إن عصوا . وعندئذ أعلنت فاس التراجع عن بيعتها وأغلقت أبواب المدينة . فعمد الجيش إلى حصارها وقنبلتها ، كما قطع الماء عنها ، وبعد مقاومة مستميتة أذعن الفاسيون لتسليم الأراضي المذكورة ، واستعمل عليهم السلطان حمدون الروسي .

وفي ربيع الأول 1142 / 1729 تجهز مولاي عبد الله لإخضاع آيت يمور الذين كانوا قد استقروا قبل ذلك بتادلا بعد أن أجلاهم آيت وامالو عن أعالي ملوية . غير أن آيت يمور عاثوا فسادا بتادلا ، واعتدوا على ممتلكات أهلها ، فقتل

---

(17) أورد نص البيعة عند أكنسوس، ص 99، والناصري، 7، 126.

منهم الجيش آلافا ، ثم أمر مولاي عبد الله باعدام عشرين من أهل فاس . وتولى العامل حمدون الروسي هدم أبواب المدينة وجزء من أسوارها ، وإثر ذلك أعلن السلطان عفوه عن فاس ، ثم قام سنة 1143 / 1730 بإخضاع حركة تمرد بسوس قبل أن يهدم حي الرياض بمكناس بصورة مفاجئة ، على إثر شغب أحدثه الأودايا ، وكان الحي عبارة عن مدينة حقيقية بأسواقها ومساجدها وحركتها التجارية النشيطة ، فأصبحت أثرا بعد عين وبدأ الهدم على يد الأسرَى المسيحيين والسكان هادئون في نومهم وفي نفس المدة تم بناء باب منصور الشاهق بمكناس (!) . ولم يلبث مولاي عبد الله أن أمر بإعدام القائد موسَى الجراري وثلاثمائة من أنصاره ، كما أعدم عدداً مماثلا من مجاهدي الريف وردوا عليه بهدية من الباشا أحمد بن علي ، الذي سيتخذ موقفا معاديا من المخزن بعد ذلك ، وأخيرا أعدم حوالي مائتين من قطاع الطرق بناحية فاس ، ثم أمر بإغلاق باب كهف لجأ إليه المتفرجون على عملية الإعدام هذه وقد فروا خوفا من السلطان ، فماتوا اختناقاً ، ويقع الكهف بباب بطيوي بفاس .

ثم عين السلطان محمد بن علي الزموري القبلي واليا على فاس وأمره بتوظيف أموال باهظة على جميع السكان ، وأدَّى ذلك إلى هجرة العديد من التجار والسكان إلى بلاد أخرى كتونس والسودان ومصر والشام ، وقد استمرت عملية تغريم السكان بطرق جائرة مدة ثلاثة عشر شهرا وكان المال يوجه إلى مكناس . وسجن من أجله كثيرون .

وفي 1146 / 1733 بعث بجيش من 15 ألفا من البخاري و3 آلاف من الاودايا لقتال آيت وامالوا بالأطلس المتوسط . فلما نزل الجيش ببسيط آدخسان تظاهر البربر بالفرار فاختبأوا في الشعاب وأبعدوا في الجبال والأوعار والجيش يتعقبهم وكانت مجموعات البربر قد كمنت هناك . وأحاطت بالمنطقة من كل جهة ، فلما توزعت فرق الجيش بوغتت بأعداد البربر تنقض عليها وتجردها من أسلحتها وثيابها دون أن تقتل أحدا من الجيش ، وغنم البربر المؤن والذخائر والأمتعة . وفي 1147 أعدم السلطان آلافا من البخارى ممن اتهمهم بقتل أخيه عبد الملك أو التواطؤ على قتله . فعزموا على التخلص منه . ولكن بعضهم أحاطه علما بالمؤامرة فلجأ إلى آيت يدراسن الذين أكرموا مقدمه ثم التحق بمراكش ومنها إلى سوس ثم إلى نول يرافقه

ابناه أحمد ومحمد ، حيث نزل على أخواله المغافرة لمدة ثلاث سنوات . أما عامل فاس محمد وعلي فقد فر بدوره إلى زرهون[18] .

وهكذا انتهت الولاية الأولى لمولاي عبد الله والتي استغرقت ست سنوات حتَّى 1147 / 1735 .

مولاي علي الأعرج بن اسماعيل 1147 / 1149 (1735 – 1736)

قرر جيش البخاري بعد انسحاب مولاي عبد الله تنصيب أخيه مولاي علي الأعرج الذي كان مقيما بتافيلالت ، فاستقدموه لهذا الغرض ، وتلقاه أعيان فاس وفقهاؤها بصفرو في ربيع الثاني 1147 / أكتوبر 1735 ثم عين على فاس مسعود الروسي ، وتلقى السلطان البيعة بفاس الجديد ، واكتفَى من سكان فاس بالجباية الشرعية . لكن مدخرات بيت المال لم تكف رواتب الجيش ، وانتقل السلطان إلى مكناس حيث تلقى البيعة العامة من مختلف الوفود المحملة بالهدايا . ثم قبض على السيدة خناثة بنت بكار أم مولاي عبد الله وسجنها وعذبها حتَّى تصرح بما لديها من مال وما تعرفه عن أموال مولاي عبد الله ، ولكنه لم يحصل منها على طائل ، ثم عادت فاس إلى الثورة مرة أخرى بسبب تهور العامل مسعود الذي انتقم من أحد الذين سعوا في قتل أحد إخوته ، وحمل أهل فاس السلاح وفتحوا باب السجن وقتلوا حراسه بينما فر العامل بجلده ، وأخيرا وقع الاتفاق على تعيين عامل جديد هو عبد الله الحمري من ضباط جيش البخاري ، ثم عوض في 1148 بعبد الله بن الأشقر ، وفي السنة الموالية حاول السلطان بضغط من جيش البخاري أن ينتقم لهم من آيت وامالو فكرر هؤلاء نفس العملية مع جيش مولاي علي الذي تركوه هو نفسه ينجو مع موكبه . ثم طالبه الجيش برواتبه ومخصصاته فلم يجد ما ينفقه عليهم . وعندئذ قرروا خلعه فلجأ إلى ضواحي تلمسان مع حوالي أربعين رجلا ، وأثناء ذلك قامت خناثة بتهييء الجو لعودة مولاي عبد الله ، فوعدت الجيش بثلاثين مثقالا ذهبا لكل من يساعدها على ذلك . وفي هذه الفترة من سنة 1149 كانت الاضطرابات قد عمت البلاد وارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعة . وبدأت المفاوضات بين قادة الجيش حول إعادة مولاي عبد الله الذي استغل الظروف

---

(18) حول أحداث المغرب في الولاية الأولى لمولاي عبد الله راجع : الضعيف ، أكنسوس ، ص 98 ، 104 ، زياني ، بستان ، 51 – 57 . ناصري ، 7 ، 125 – 137 . 365

وتحرك من نول إلى تادلا ، إلا أن القائد سالم الدكالي الذي كان قد عمل على خلعه فيما سبق رفض الدخول في بيعة مولاي عبد الله . وما لبث أنصار مولاي عبد الله أن تكاثروا ففر سالم الدكالي إلى زاوية زرهون ، وفي هذه الأثناء فر مولاي علي ولكن مولاي عبد الله أذن له بعد عدة سنين في المقام بمكناس وأخيرا بتافيلالت حيث توفي . وفي عهد مولاي علي هذا ثار بسوس عبد الله ومحمد الجرسيفي ودخل أكادير ونهبها وقتل عددا من أهلها عطشا ، وكان يحث على جهاد أكادير ويقول : إن ثلثهم نصارَى وثلثهم يهود وثلثهم مسلمون عصاة ثم عاد لتارودانت ، وغزا هوارة فقاوموه وقتلوه[19] .

مولاي عبد الله ثانيا ، محرم 1150 – جمادى الأولى 1150 (1736)

خلال مقام مولاي عبد الله بتادلا في عودته من نول ، اتفق البخاري والاودايا وأهل فاس ومختلف فآت السكان على تجديد بيعة مولاي عبد الله ، لكنه رفض قبولها قبل أن يسلم إليه سالم الدكالي ، ووعد الجيش برفع مجموع مخصصاته إلى أربعمائة ألف مثقال . وأخرج القائد المستجير بزرهون على وعد بالأمان ، وقدم إلى السلطان بتادلا ، مستفتيا في أمره قاضيه أبا عنان فأفتَى بقتله فنفذ فيه حكم الإعدام ، ولجوء السلطان إلى فتوَى شرعية يحرره من تبعات التمرد الذي قد يحصل في الجيش . على أن سالماً هذا حاول أن يحرض وهو في جوار الضريح الإدريسي بزرهون ، أهل فاس على مبايعة الأمير محمد بن إسماعيل المعروف بابن عربية .

ثم انتقل السلطان إلى قصبة أبي فكران حيث استقبل وفودا من الأشراف والعلماء والأعيان من فاس ومكناس ، وبعد أن وبخهم على مواقفهم أمر بإعدام عدد منهم ، ثم استباح مكناس وعزل قاضيها العميري ، كما عين على فاس محمد وعلي ويشي . وساءت الأوضاع بفاس عندما بدأ الأودايا ينهبون الأسواق والطرقات حتَّى إنهم استولوا على كل الأغنام والدواب التي وجدوها بسوق الخميس ، وقد كان الأودايا معتزين بخؤولتهم لمولاي إسماعيل ، ووالدة مولاي عبد الله ذات انتماء اجتماعي إلى نفس المجموعة . وعندئذ قرر أهل فاس باستثناء بعض أنصار مولاي

---

(19) ضعيف ، ص 97 ، 100 . زياني ، بستان ، ص 58 — 59 . أكنسوس ، جيش . ص 103 ، ناصري ، 7 ، 137 — 141 . Hœfer, Op. Cit, p.365

عبد الله أن يخلعوا هذا السلطان وينصبوا محمد بن عربية الذي كان مقيما بفاس عند أحد الصلحاء . وفي هذه المرة جاءت مبادرة الخلع والتنصيب في عين المكان من أهل فاس بعد موافقة البخارى ، ومما يثير الاستغراب أن مصير المسؤول الأعلى في الدولة وترشيحه وتوجيهه في هذه الظروف كان وقفاً على الجيش وأهل فاس ، وبمعزل عن أي استشارة على نطاق وطني ولو في دوائر محلية مغلقة . وعندما تطورت الأحداث لغير صالح مولاي عبد الله انسحب إلى جبال الأطلس التي آوته بشمم على الرغم من مواقفه السابقة تجاهها[20] .

محمد بن إسماعيل المعروف بابن عربية : 10 جمادى الأولى 1150 – 24 صفر 1151 (1736 – 1738)

بويع بفاس ثم بمكناس التي استقبل بها وفود الأقاليم كما وزع على الجيش ما كان ببيت المال ، وامتحن عدداً من المثقفين بفاس ممن رفضوا التخلي عن بيعة مولاي عبد الله . وكان أهل فاس قد التزموا للجيش بما وعده به مولاي عبد الله من مخصصات دون أن يفوا بذلك ، فعمد ابن عربية (بفتح العين وسكون الراء) إلى استصفاء أموال بعض الأثرياء من فاس ؛ وفعل مثل ذلك بأهل الزوايا وانتشرت اللصوصية والمجاعة بفاس ومكناس ، وصودرت الأقوات والحبوب من المخازن والمطامير وحتَّى من دور الخواص بمكناس ، وعم النهب بصورة فظيعة ؛ وأخلى كثير من السكان بفاس منازلهم فهدم اللصوص والاودايا أبوابها وأخذوا أخشابها وأمتعتها . وحاول تجار فاس عن طريق أهل تطوان أن يجلبوا الحبوب من إسبانيا فعطل باشا تطوان أحمد بن علي الريفي وصولها إلى فاس مدة ستة أشهر ، وكان غاضبا من موقف مولاي عبد الله الذي سبق أن أعدم وفدا كبيرا من الشمال ورد لبيعته . وهكذا ماتت عشرات الألوف من الناس جوعا ، وأثناء هذه الأحداث التي لم يكترث لها السلطان أغار مولاي عبد الله الذي كان يقيم بالحاجب قرب مكناس على الاصطبل الملكي الكبير بمكناس وفتك بحراسه وتراجع إلى الحاجب فتعقبه جيش البخاري ونهبوا خيامه فانسحب إلى وادي ملوية ؛ غير أن البربر كروا عليهم من الشعاب ورؤوس الجبال فهزموهم واستولوا على أثقالهم . فسقط في يد ابن عربية وأمر بقطع رؤوس بعض الفلاحين الضعفاء لإيهام أهل فاس ومكناس

---

(20) انظر المصادر المذكورة . علما بوجود رواية مخالفة عند *Hœfer*

بانتصار جيشه على البربر المناصرين لمولاي عبد الله ، وعند تفاقم الأزمة ، عمد البخاري إلى القاء القبض على ابن عربية وقائده بفاس عبد المجيد المشامري واعتقلوا السلطان بقصره في وادي ويسلن بجنان حمرية بمكناس ثم استقدموا أخاه المستضيء من تافيلالت التي كانت تحتفظ باحتياطي من الأمراء تحت تصرف الجيش ذي الأصول الزنجية . وكان القبض علي ابن عربية في 24 صفر 1151 / 1738 . وحسب «هوفر» فإن ابن عربية تنازل عن الملك تلقائياً ، لكن الأحداث اللاحقة تخالفه . وقد نسب ابن عربية إلى أمه ، وهي من الشاوية . وفي أيامه كان المغرب مناطق نفوذ :

1 ــ مولاي عبد الله بالصحراء وسوس ومراكش

2 ــ الباشا الحوات بناحية الغرب

3 ــ الباشا أحمد بن علي الريفي : الفحص ، غمارة ، الريف ، تطوان ، القصر الكبير ، كارت إلى نواحي جرسيف

4 ــ القائد الكعيدي (كاف معقودة) ببني يازغة .

5 ــ ابن عربية : باقي الجهات .

وقال الضعيف عن عهده إنه كان لا يأمن أحد على نفسه ولا على فلسه من كثرة الجور والظلم . وكان كما قال : سفاكا للدماء مسلطا على اليتامى ، وكان وزيره الأعظم عبد الحميد بوطالب ، وتولى خلعه واعتقاله الباشا الحوات[21] .

تفاقم الأزمة بين الإخوة الثلاثة : المستضيء وزين العابدين ومولاي عبد الله

عندما استقدم عبيد البخاري مولاي المستضيء وكاتبوا ببيعته الأقاليم، دخلت فاس قبل غيرها في البيعة مرة أخرى ، فاستقبل وفدها بصفرو السلطان الجديد في ربيع الأول 1151 / 1738 ، وكانت والدته هي التي تولت مفاوضة قائد الجيش بشأن توليته ، وكان الجيش يرغب في تنصيب أخيه زين العابدين ، وما أن احتفل في فاس الجديد بتولية المستضيء حتى وجه أخاه ابن عربية مقيدا إلى فاس ثم إلى

---

(21) الضعيف ، ص 102 ــ 111 . الزياني ، بستان : ص 60 ، أكنسوس ، ص 107 . الناصري ، *Hœfer, p.366 . 147-143, 7*

تافيلالت ، وولى القائد الكعيدي بفاس ، وأمر بسجن الشيخ عبد الرحمن الشامي نصير ابن عربية ، وصادر أموال القائد عبد المجيد المشامري الذي توفي تحت التعذيب ، وضغط الجيش من جهته على المستضيء لأداء رواتبه ، فباع في ذلك كل ما حصل عليه من مدخرات في خزائن القصور الإسماعيلية بمكناس ، خصوصاً المواد التي تدخل في صنع القنابل ، وسبك المدافع النحاسية نقوداً ، وامتحن أشراف فاس وتجارهم وقتل عدد منهم وصودرت أموالهم طبقا لفتوَى من علماء البلد . ثم تولى عامل جديد على فاس فاستصفى ما بقي من أموال الأشراف . وأخيراً حاول أن يهاجم بربر الأطلس المتوسط فهزموا جيشه الذي شارك فيه الأودايا إلى جانب البخاري ، فأغرى مولاي عبد الله البربر بالاودايا الذين صاروا عرضة للنهب ، ورأى المستضيء أن يتخلص من كبار قادة البخاري فقتل عددا من رؤسائهم كالباشا غانم والقائد عبد المجيد سعدون والي مكناس والقائد عيسَى مفتاح ، وفي 1152هـ عزل الباشا فاتح الدكالي عن العبيد وولى عليهم بوعزة مولى الشربيل ، ووصف الزياني المستضيء بأنه كان بخيلا ظلوما سفاكا للدماء .

وكانت تطوان من المراكز التي رفضت بيعة المستضيء ، فكاتبه الباشا أحمد بن علي الريفي بهذا الشأن مع عداوته القديمة لأهل تطوان . وعندئذ أمره المستضيء بتأديب العناصر المتمردة ، فأهلك من أعيانها عدة مآت وصادر أموال آخرين .

وأمر المستضيء بتعذيب أخيه زين العابدين وإرساله مقيداً مع شخصيات أخرى إلى تافيلالت ، وكأن جيش البخاري قد رشحه للملك قبل المستضيء ، لكن أم المستضيء حولت البيعة لابنها هذا غير أن الجيش اعترض طريق زين العابدين وبعث به إلى القائد أحمد الكعيدي ببني يازغة لرعايته .

وأخيراً تآمر البخاري على عزل المستضيء في 14 قعدة 1152 / 1740 ، ففر منها إلى طنجة ثم إلى مراكش التي كان أخوه الناصر خليفته بها ، ولم يبق مشايعا له إلا دكالة أخواله ، وبنو حسن عرب الغرب ، وأقام المستضيء بمراكش إلى عام 1155 / 1742 . وقد ظلت بعض الجهات وفية لمولاي عبد الله خلال ولاية المستضيء ، لاسيما سوس والحوز (حوز مراكش) وفازاز (الأطلس المتوسط) . وكانت مراكش فيما مضى تؤازر مولاي عبد الله .

وظلت أحوال المغرب في غاية الفوضى والاضطراب بدون حكومة موحدة ولا عاهل مستقر بالعاصمة عدة أشهر حتّى راجع الجيش **بيعة مولاي عبد الله للمرة الثالثة** بينما كان يتعقب المستضيء في طريقه إلى مراكش دون أن يعثر عليه . وهكذا بايعوه بقصبة آلزم في أوائل 1153 / 1740 دون أن يتنازل المستضيء لصالحه . وانضم زين العابدين إلى مولاي عبد الله ، بينما فر من مكناس على العميري وزير المستضيء ، ولجأ أخوه المسن القاضي أبو القاسم إلى أحد أضرحتها ، وتولى الجيش أمر مكناس وفاس في غياب مولاي عبد الله ، وقام بتعيين عبد الله الحمري عاملا على فاس التي عادت نهبا للصوص . ثم دخل مولاي عبد الله إلى مكناس وألقى القبض على عدد من فقهائها الذين اتهمهم بتزويج نسائه في غيبته من أخيه ، ثم ولى عاملا جديدا على فاس واستقضى بها يوسف أبا عنان وأمره بعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا باسم المستضيء ، وتخلى الأودايا والشمال عن بيعة مولاي عبد الله بينما انتقل زين العابدين إلى طنجة ، وعندئذ أعلن أحمد الريفي مناهضة بيعة مولاي عبد الله وهاجم منطقة الغرب ونهبها لأنها لم تقبل مجاراته . وتمكن مولاي عبد الله من استمالة الأودايا عن طريق والدته خناثة ، ثم وقع حادث جديد أثر في معنويته ، وهو مقتل أحمد الكعيدي الذي عينه عاملا على جبالة والحياينة وكلفه بجباية الزكوات من الحياينة ، فاغتاله هؤلاء . ولما كانت مكناس قد أصبحت أقل ولاء لمولاي عبد الله ، مع ما شهدته من محن على يد جيش البخارى ، فقد تعرضت مزارعها للنهب ، ومن ثم أصيب ضباط الجيش في مصالحهم . ووقع هرج بمكناس بسبب ارغام أهلها على تموين عمال يقومون ببناء أحد أبوابها ، فتوجهت أم مولاي عبد الله إلى فاس الجديد ، وقد بدأ الجيش يتفاوض مع أحمد بن علي الريفي سنة 1154 / 1741 بشأن خلع مولاي عبد الله وتولية أخيه زين العابدين . وكانت الظروف الاقتصادية والصحية قد ساءت إلى درجة مقلقة ابتداء من هذه السنة ، فقد انتشر الوباء بعدد من الجهات وأفنى عشرات الألوف خلال سنتين بفاس ومكناس وزرهون وغيرها ، ونال من جيش البخارى في منطقة الرملة بالغرب ، فبدأ يضعف عدده تدريجيا .

وتم اتفاق الجيش مع باشا طنجة على بيعة زين العابدين في ربيع 1154 / 1741 ، وانتقل العاهل الجديد إلى مكناس حيث بويع البيعة العامة وتلقّى وفود

الأقاليم . غير أن فاس والاودايا رفضوا بيعته بينما كان مولاي عبد الله قد لجأ مرة أخرى إلى الأطلس المتوسط يشهد الأحداث عن كثب . وفي منتصف جمادى الأولى من السنة ، زحف زين العابدين إلى فاس لحصارها ، فانقسم جيش البخاري على أنفسهم ثم تخلوا عن السلطان بعد إحراق بيادر الاودايا ، وعادوا إلى مكناس من غير أن يرضيهم السلطان مادياً ، فنهبوا مزارع مكناس ، وانصرف أغلبهم إلى ثكنات الرملة . وهكذا أصبح زين العابدين معزولا من أنصاره ، فتقدم مولاي عبد الله نحو فاس التي تلقاه أهلها مع الاودايا بالترحاب في 16 جمادى الآخرة 1154هـ . ثم تلقّى بدار دبيبغ حول فاس بيعة جيش البخاري ، وانسحب زين العابدين نهائياً من المسرح السياسي في الوقت الذي بدأت فيه صفحة جديدة من الاضطرابات والمؤامرات .

وهكذا فبعد إعلان **البيعة الرابعة** لمولاي عبد الله في 16 جمادى الآخرة 1154 / 1741 ، والتي دخل فيها كل من الاودايا وفاس وفازاز وقبائل العرب ، استقر السلطان بدار دبيبغ وطال مقامه بها عدة أشهر ، وتجنب الدخول إلى مكناس، فقلق البخاري لذلك، وعادوا يستقدمون المستضيء من مراكش، فدخل مكناس ومعه القاضي أبو القاسم العميري وأخوه علي، ثم دعا أحمد الريفي أهل فاس إلى خلع مولاي عبد الله والدخول في بيعة المستضيء وذلك في محرم 1155 / 1742 . غير أن مولاي عبد الله استعان بآيت يدراسن وآيت امالو وزمور وبني حكم وجروان في الوقت الذي تحرك فيه المستضيء مع جيش البخاري إلى ظاهر فاس ، وما لبث المستضيء وأنصاره أن انسحبوا في جنح الظلام بعد أن وجدوا أمامهم قوة كثيفة مسلحة من أنصار مولاي عبد الله . ثم عاد المستضيء يستجمع قواه من جديد ، مستعينا بالباشا الريفي الذي حشد بدوره عددا كبيرا من أنصاره تعززهم المدفعية وتحمسهم الطبول ، بينما أسرع مولاي عبد الله بعد أن تفرق أنصاره على إثر انسحاب المستضيء ، إلى الاستعانة بآيت يدراسن . أما جموع الريفي والمستضيء فقد احتشدت بضواحي فاس حول تامزيزت ، وهاجم انصار مولاي عبد الله من أودايا وأهل فاس والبربر وعرب الضواحي هذه الجموع بقوة وألجأوهم إلى القنطرة المجاورة لكدية تامزيزت فأهلكوا أعدادا كبيرة منهم ، وأفلت الريفي إلى الشمال بعد أن تخلى عن أمواله وذخائره التي رافقته . وكان ضمن القتلى

ضابط كبير من جيش البخاري هو الباشا فاتح بن النوبي ، وحصل مولاي عبد الله على مدافع وأسلحة وذخائر كثيرة ، وحضر هذه المواجهة الأمير محمد بن عبد الله الذي سيخلف والده في الملك . على أن هزيمة الباشا الريفي لم تفت من عزيمته ، فقد عاد إلى طنجة مصمما على مهاجمة فاس مرة أخرى ، وقام بتسليح أنصاره وأنصار المستضيء وتولى أداء رواتب جيش البخارى ، وقرر مولاي عبد الله أن يهاجم الباشا في عقر داره بالشمال ، فحشد حوله أنصاره من بربر فازاز وأهل فاس وضواحيها ثم انضم إليه عرب الغرب الذين كان بعضهم يساندون الريفي والمستضيء . وبينما كان مولاي عبد الله يتقدم باتجاه نهر اللكوس ، هاجم المستضيء مكناس بمن معه من عرب بني حسن ، فردهم أهلها بعد مقاومة شديدة ، وأخيرا تم اللقاء بين مولاي عبد الله وأنصار الريفي بنهر اللكوس باتجاه القصر الكبير ، وتم النصر لجيش مولاي عبد الله الذي اهتم بتركيز ضرباته على موكب الباشا الريفي ، وقتل الباشا نفسه مع عديد من أنصاره ، وبذلك انتهت ثورة هذا المجاهد القديم الذي تحول إلى عدو شديد البأس ، لمولاي عبد الله . بل من المؤكد أنه كان يهدف إلى الاستيلاء على السلطة لنفسه ، حتّى إنه ادعَى الشرف واستصدر فتاوي من فقهاء المغرب لتزكية ادعائه ، وصنع عرشا في أوروبا ليدخل به فاسا ، واستطاع أن يكوّن جيشاً من خمسين ألفا . والواقع أن مولاي عبد الله حقق انتصاره على الريفي بفضل بربر فازاز . وحصل البربر على غنائم ضخمة وأسلحة تفوق العد كثرة ، وخيل ومال جسيم ، وبهذه الغنائم والأسلحة أصبح البربر مسلحين بشكل لم يتقدم له نظير ، وساعدهم ذلك على تقوية مركزهم بشكل أثار اختلالا حقيقيا لدَى السلطة المخزنية لعدة أجيال كما أكد ذلك الضعيف الذي وصف ثورة الباشا الريفي وحياته الخاصة وصفا دقيقا(22) . وحسب القادري ، في «نشر المثاني»(23) فإن اللقاء بين الفريقين كان بالمنزه من أحواز القصر في 4 جمادى الآخرة 1156 / 1743 . وقد بعث برأس الريفي إلى فاس حيث علق بباب المحروق . وترك الريفي عدة آثار من المباني بطنجة وتطوان وما اتصل بها(24) . وأقام مولاي عبد الله

---

(22) ضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، ص 126 ـــ 132 . وانظر : داود ، مختصر ، ص 88

(23) عن الناصري ، 7 ، 164

(24) ن . م ، ص 165

بطنجة مدة أربعين يوما يتلقّى التهاني ويحصي مخلفات الباشا الراحل، ويوزعها على أنصاره[25].

أما المستضيء الذي اختفَى على إثر الانتصار الذي حققه مولاي عبد الله قرب القصر، فقد حرض البخاري وبني حسن على مهاجمة مولاي عبد الله وجيشه في عودته من طنجة. وهكذا انقضوا على مؤخرة معسكر مولاي عبد الله، فرد هجومهم وانهزموا بقيادة المستضيء، وأعطَى مولاي عبد الله تعلياته للقائد بوعزة (مولى الشربيل) بالكف عن قتال البخاري مع تجريدهم، وتقتيل بني حسن الذين فقدوا أكثر من ألف محارب وآلافا من الخيل والأسلحة.

واستقر السلطان بعد هذه الأحداث بدار دبيبغ بفاس سنة 1157 / 1744 ؛ فتلقّى عندئذ ضباط جيش البخاري الذين كانوا قد استقروا بالرملة، وقدموا بيعتهم طائعين، ثم دخل مكناس فجددت بيعته على يد القضاة والفقهاء والمسؤولين ؛ واعتبر بعض المؤرخين هذه **بيعة خامسة**، وأثناء هذه الأحداث كان المستضيء يقيم عند بني حسن، ففاجأهم جيش مولاي عبد الله وبقيادته مهاجما ومستبيحا أموالهم وأنعامهم، وأفلت المستضيء بشق الأنفس، ثم عفا السلطان عن بني حسن وسار يتعقب المستضيء نحو دكالة التي كانت تناصره، فنزل مولاي عبد الله بقصبة بولعوان التي فر أهلها نحو الحوز ومعهم المستضيء، وقام الجيش عندئذ بنهب مخازن الزرع وتخريب القرى وقطع الأشجار «والعساكر تتقلب في بسائط دكالة، كلما فرغت من ناحية زادت للأخرى»[26] ، ثم واصل عمليات التخريب في أراضي مسفيوة أنصار المستضيء حتَّى «أتى التخريب على وادي المزات كله ولم يبق فيه محل ينتفع به» كما يقول أكنسوس. وأخيرا أعلن السلطان عفوه عن مسفيوة ودكالة بعد أن أتته وفودها ضارعة مسترحمة. وحاول المستضيء أن يستنجد بمراكش التي تخلت عن بيعته وقدمت إليه أمتعة أخيه الناصر الذي توفي وكان خليفته بها، ثم توجه إلى تادلا ومنها إلى الفحص (ضواحي طنجة) حيث استقر بأصيلا التي كان

---

(25) حول الأحداث التي تشمل ما بين بيعة المستضيء، 1151 / 1738 إلى نهاية المواجهة مع الريفي في 1156 / 1743 يراجع ضعيف، ص 111 ــ 133. زياني، بستان، ص 62 ــ 74. أكنسوس، جيش، ص 108 ــ 117. ناصري، استقصا، 7، 147 ــ 166. *Hœfer, Empire du Maroc, p.366*

(26) زياني. م. س. ص 76

يباشر فيها نشاطاً تجارياً واسعا في الحبوب الزراعية مع الاسبان[27] . وكان قد حاول سنة 1156 / 1743 أن ينتزع بيعة الرباط ، فثاروا ضده ومات منهم كثيرون قبل قدوم جيوش مولاي عبد الله ، وكانت سلا تناصر المستضيء حتَّى هذه الفترة[28] .

وقد تغيب مولاي عبد الله في تحركاته هذه عن مكناس مدة سنتين ؛ وقبل عودته نصب نجله الأمير محمد خليفة عنه بمراكش دون أن يدخلها السلطان نفسه[29] . غير أن عددا كبيرا من الجند فروا بسبب طول الغيبة ونقص المؤن. وعين السلطان نجله الأمير أحمد خليفة بالرباط ، ثم التحق بقصبة بوفكران دون أن يدخل مكناس ، وذلك في 1159 / 1746 . وهناك استقبل أرملة الباشا الريفي وولديها مع هدية عظيمة ووفد كبير من الشمال فقتل الولدين وأعضاء الوفد جميعا ما عدا أرملة الباشا ، وقتل نحو ثلاثمائة من بني حسن قصدوه للتهنئة[29] ، وأمر بنهب زروع البربر بحوز مكناس ، فغضب البربر لذلك وتوقفوا عن الاتصال به ؛ فاستدرج زعيمهم ونصيره القديم محمد واعزيز للقدوم عليه فحضر مع نحو مائة من شيوخ البربر ، فأوشك السلطان أن يعدمهم ، ولولا الدفاع الجريء الذي أبداه محمد واعزيز لانذرت هذه الكارثة بأسوأ العواقب ، وكل هذا وحاجب السلطان من زعماء الأطلس أيضا وهو عبد الوهاب اليموري .

وخرج وفد الأطلس وهو يتحفز للثورة ، وكان قد صدر من مولاي عبد الله فيما نسب إليه ، كلام يبين عن رغبته في الايقاع بين جيش البخاري والبربر[30] لأنهم يمثلون قوتين كبريين تهدد كل منهما مصالح المخزن . وهكذا هاجم البربر منطقة بوفكران ، ووقع صدام شديد هلكت منه مآت من الجانبين ، أما جيش البخاري فقد استاء لما سمع من رغبة السلطان في التخلص منه ، وبدأ الهرج يسري في صفوفه والتحق جند الرملة بإخوانهم بمكناس، فانتقل مولاي عبد الله إلى فاس الجديد. غير أن البخارى ما لبثوا أن وجهوا وفدا عنهم إلى السلطان في عيد الفطر من 1159 يلتمسون عودته إلى مكناس فوعدهم خيرا ومنحهم صلة ، فاعترضهم البربر في الطريق وجردوهم ، كاستنكار لموالاتهم لمولاي عبد الله ، ثم قررت آيت يدراسن

---

(27) *Hœfer, Op. Cit, p.366*

(28) *Ibid* ضعيف ، ص 133 — 135

(29) أكنسوس ، ص 119

(30) ن . م . ص 120

بزعامة محمد واعزيز دعوة فاس لإعلان ثورة مشتركة ضد مولاي عبد الله ، فوافقوا على ذلك وانضم إليهم عرب الغرب بزعامة حبيب المالكي ، ثم استولى الفاسيون على قفاطين المخزن عند الأمين الخياط عديل وكانت ثلاثة آلاف ففرقوها على رماتهم ، وكان ارتداء القفاطين قد شاع من عهد بني مرين ، واستطاع مولاي عبد الله أن يغري واعزيز سرا بالمال وبالإيقاع بعرب الغرب الذين جاءوا مع البربر لمهاجمة محلة مولاي عبد الله . وهكذا تحول البربر عن معسكر السلطان الذي كان مهدداً ، إلى شركائهم في الثورة من العرب ، فهل كان قلب واعزيز مع السلطان أو مع قومه ؟ أم هل كان مع مصالحه الخاصة ؟ الحقيقة أن انسحاب البربر كان مؤقتاً كما سيتضح .

أما فاس فظلت تعيش حالة حصار يضربه الاودايا شيعة السلطان لمدة تزيد عن سنتين ، ومؤازرتها لصنهاجة الأطلس ليست إلا رغبة في التخلص من عاهل تخشى بأسه . ثم إن السلطان تلقى وفدا من بني حسن يشكون أهل الغرب من خصومهم لما نهبوا من أموالهم ، فقام الجيش بردع أهل الغرب ثم عفا عنهم السلطان وعين عليهم حبيب المالكي قائدا رسميا وأضاف إليه جبالة ، واستغل الجيش الفرصة ، وذلك سنة 1161 / 1748 فاستباح مدينة القصر التي استضافته وأطعمت دوابه ، فنهبوا وقتلوا وفعلوا الأفاعيل القبيحة كما قال الزياني[31] .

وبعد بضعة أشهر من هذه الأحداث تهيأ السلطان للقيام بغزو بربر فازاز القريبين من مكناس ، والذين يتولى زعامتهم محمد واعزيز . ولما كان البربر يراقبون تحركات الطرف الآخر عن كثب ، فقد قرروا تطويق منطقة سايس منعا لتجمع البخاري الذين رفضوا الإسهام في هذه الحملة التي ربما كانت مقدمة لأخرى ضدهم . وهكذا اكتفى البربر بنهب مواشي الأوداية وزروعهم حول فاس ثم انسحبوا . ولم تلبث فاس أن عادت إلى مصافاة العاهل الذي استقبل بالترحاب وفدها بمكناس في شوال من السنة المذكورة ، كما تم الصلح بين أهل فاس والأوداية في الشهر الموالي بعد سبعة وعشرين شهرا من الحصار . وعندئذ جنح جيش البخارى إلى القيام بحملة ضد البربر تنفيذا لرغبة السلطان ، لكن البربر بادروا مرة أخرى بتطويق مراكز الجيش الذي حطمت معنوياته الهزائم وأضعفت الأوبئة والعوز من أعداده ، فضلا

(31) الزياني ، بستان ، ص 79 . أكنسوس ، جيش . ص 123

عن سوء تنظيمه وتأطيره . وهكذا تعرض أطفاله للخطف ، وأملاكه للنهب ، ثم أوهمهم البربر بأن هذه تعليمات السلطان ، فصدقوا كلامهم ، وبدأوا يتآمرون هذه المرة لا على خلعه ، بل على اعتقاله وقتله[32] ، ثم اتفقوا مع البربر على مبايعة محمد بن عبد الله وخطبوا باسمه في مكناس وزرهون ، وبعثوا بيعتهم إلى مراكش فرفضها الأمير المرشح[33] . أما مولاي عبد الله فقد غادر مكناس إلى فاس في خضم هذه الأحداث ، وحاول أن يترضّى بالمال والتهديد ضباط البخاري فرفضوا الانصياع لتعليماته ، وعندئذ تحول إلى استرضاء البربر ، فاستقبل وفودهم برئاسة واعزيز ، وأكرمهم بهبات سخية ، وفعل مثل ذلك مع الأودايا وأهل فاس ، ولكي يبرهن الأمير محمد بن عبد الله على وفائه لوالده ملكاً وأباً ، فقد وجه إليه في صفر 1162 / 1748 هدية بلغت حوالي ثلاثين ألف مثقال . وفي جمادى الأولى 1163 / 1749 حضر الأمير سيدي محمد من مراكش إلى مكناس يفاوض الجيش بشأن عودتهم إلى طاعة مولاي عبد الله ، واستنكر استمرارهم في الخطبة باسمه في مكناس وزرهون وتبرأ من ذلك علناً ، وعمل على تسهيل الوفاق بينهم وبين السلطان ، ثم استقبل الأمير استقبالا شعبياً ورسمياً بدار دبيبغ ، وصحبه ضباط البخاري الذين جددوا بيعتهم للسلطان بمحضره ، فكانت بالنسبة إليهم **بيعة سادسة**[34] ، ولكنه لم يصلهم كما جرت العادة ، وأجزل بمحضرهم صلة وفود بني مطير وجروان من البربر ، فانحرفوا عنه مرة أخرى ثم اتصلوا في ذي القعدة من سنة 1164 / 1750 بسيدي محمد بن عبد الله بمراكش يضغطون عليه في قبول البيعة ، ويهددونه بمبايعة عمه المستضيء إن لم يقبل من جهته ، وكانت شكواهم هذه المرة بسبب حرمانهم من مخصصاتهم ، فاسترضاهم خليفة السلطان والتمس من والده العفو عنهم . وبعودة البخاري إلى مسالمة مولاي عبد الله ابتداء من 1164 / 1750 يكون نزاعهم معه وتأرجحهم بين الامتثال والتمرد قد استغرق زهاء سبع عشرة سنة من حياة المغرب السياسية في ظل السلطان مولاي عبد الله ، وفي هذه السنة أيضاً سويت قضية المستضيء بصفة نهائية . وذلك أن المستضيء كان قد استقر بأصيلا في قصر الخضر غيلان الذي رممه ، وتولى تسويق الزرع منها إلى أوروبا وبخاصة إلى

(32) زياني ، ن م وص . اكنسوس ص 124

(33) زياني ، ص 80 . أكنسوس ، ن ، ص .

(34) زياني ، بستان ، ص 81

اسبانيا ، ولم تكن هناك مراقبة على التصدير والاستيراد ، فكان المستضيء يحصل على الربح وحقوق الجمرك دخولا وخروجا . [وقد كتب تاجر ليبي تقريراً دقيقا عن معاملات المستضيء وسلوكه الذي انتقده هذا التاجر[35]] وكان من تصرفاته نهب أموال السكان بالمنطقة ، كما قبض على القائد عبد الكريم بن علي أخي الباشا القتيل ، فصادر أمواله وسمل عينيه ، فثار أهل الريف واعتقلوا المستضيء وهموا بتقديمه للسلطان أخيه ، وقد كانت هذه الأحداث قبل أن يستقر بأصيلا ، ثم بعد استقراره بها واستغنائه عن طريق التجارة مع الخارج على حساب خزينة الدولة ومصلحة الاستهلاك الوطني ، بدأ يتجهز بالسلاح في محاولة غير مجدية للعودة إلى الملك ، وهكذا قرر مولاي عبد الله طرده من أصيلا ، وكتب إلى خليفته بمراكش لينجد القائد عبد الله السفياني بالجند والسلاح ، وهو الذي تولى طرده والاستيلاء على أمواله باسم السلطان ، فلجأ إلى ضريح أبي بكر بن العربي بفاس ، ثم أرجع إليه السلطان أمواله واحتفظ بالسلاح ، وتوجه المستضيء أخيرا إلى تافيلالت سنة 1166 / 1752 حيث قضى بقية حياته ، وتوفي بها سنة 1173 / 1759[36] .

وفيما عدا الأحداث التي أثارها المستضيء قبل نفيه إلى تافيلالت ، فإن السنوات الأخيرة من حكم مولاي عبد الله لم تشهد أحداثا كبرى على الصعيد الوطني . لكن في سنة 1168 / 1754 توفي محمد واعزيز رئيس آيت إدراسن ، فلم يخلفه بها نظيره ، وأثارت قبيلته اعتداءات على جروان المجاورة لها أدت إلى الفرار بمواشيهم إلى فاس وبيعها بأثمان زهيدة ، وطلبت جروان من السلطان ردع آيت إدراسن ، فدعا الأودايا إلى مؤازرتهم عوض جيش البخاري الذي أصبح في طي الإهمال يكتفي السلطان بأداء رواتبه واستقبال كبار ضباطه مع تناقص هذا الجيش كما سبق . ولم يكن من الحكمة أيضا أن يتولى البخاري محاربة البربر بعدما سبق من أحداث بين الجانبين . وهكذا أشرف السلطان على عقد حلف حقيقي بين جروان والأودايا ، وبفضله سحق عدوان آيت إدراسن وقتل منهم مآت كما استمر مفعول الحلف أجيالا . وخلال 1169 ـ 1170 (1755 ـ 1756) تجددت أحداث العدوان من آيت إدراسن على جروان والأودايا[37] .

---

(35) أكنسوس ، ص 129 ـ 130

(36) زياني ، بستان ، ص 100 ، وحسب الضعيف ، كانت وفاة المستضيء سنة 1172 / 1758 (ص 166)

(37) أكنسوس ، ص 125 . ناصري ، 7 ، 186 ـ 187

ورغب جيش البخاري إلى السلطان في العودة إلى مكناس ، فوعدهم خيرا . على أن يتخلصوا من بعض ضباطهم الذين كانوا معادين له ، وقد استجابوا لرغبته فاغتالوا هؤلاء ، فأنعم السلطان على الجيش بأربعين ألف مثقال دون أن يعود لمكناس كما وعد . ولكنه سمح لأخيه مولاي علي الذي سبق أن تولى الملك بين 1147 / 1149 (1735 – 1736) ثم استقر بتافيلالت ، أن يقيم بمكناس مع تخويله مَكْسَهَا ومزارع الدولة بها، وسرعان ما تضايق عبيد البخاري منه، فأمره السلطان بالعودة إلى تافيلالت[38]. وكانت إقامته بمكناس وخروجه منها خلال 1169/ 1755.

وفي 27 صفر 1171 (12 نونبر 1757) توفي السلطان مولاي عبد الله من مرض أصابه[39] ، فدفن بالضريح المنسوب إليه بفاس الجديد ، وبه كان قد دفن نجله أحمد الذي تولى عمالة الرباط . وخلال الاثنتي عشرة سنة الأخيرة من حكمه قلت اتصالات السكان وممثلي الأمة به ، حيث بقي في شبه عزلة بقصره بدار دبيبغ الذي بناه وقضَى فيه أواخر حياته[40] .

وفي عهد مولاي عبد الله نشطت العلاقات التجارية مع أنجلترا وهولندا اللتين احتكرتا بصفة شبه كلية تجارة المغرب الخارجية ، وعقد المغرب مع هولندا معاهدة صلح تتضمن 22 بنداً ، كما أقيمت مراكز تجارية بكل من تطوان وسلا وآسفي وسانتاكروز (إيفني) وحظي فيها التجار الأوروبيون بامتيازات محددة[41] .

وقد أعطَى أكنسوس نظرة عن حقيقة أوضاع الأمن والأحوال الاجتماعية وإشارات عن الوضع الاقتصادي خلال فترة هيمنة الجيش وأزمة العرش بعد وفاة مولاي إسماعيل إلى أخريات حياة مولاي عبد الله ، وهي كافية الآن لتقييم هذه المرحلة المتأزمة من تاريخ المغرب[42] ، إلى حين أن تستعرض هذه الدراسة الأوضاع المذكورة في نطاقها العام .

---

(38) ن . م . ص 126

(39) زياني ، بستان ، ص 98 . 367

(40) ناصري ، 7 ، 187 . 167

(41) *Voir : Empire du Maroc, par Hœfer, pp, 282-290*

(42) أكنسوس، ص 132، وقد نقل عنه الناصري.

الفصل الرابع
الانفتاح وإعادة إقرار الوحدة الوطنية

1171 - 1204 (1757 - 1790)
سيدي محمد بن عبد الله

محمد بن عبد الله كخليفة بمراكش

ولد الأمير سيدي محمد بن عبد الله بمكناس سنة 1134 / 1722 أي قبل وفاة جده مولاي إسماعيل بخمسة أعوام ، وقبل أن يكتمل عقده الأول حج إلى البقاع المقدسة مع جدته خناثة بنت بكار في وفد ضم مجموعة من الفقهاء كالقاضي العميري والكاتب الإسحاقي الذي دون رحلة الأمير وجدته[1] .

وبالنسبة لتكوينه الشخصي فإن السطور التالية التي كتبها ضمن ترجمته ، الفقيه المرحوم المدني بن الحسني تغني الآن عن الإسهاب في هذا الموضوع الذي سيجد مكانا أوسع ضمن النشاط الفكري العام . يقول المترجم عن الأمير[2] :

«... وشب شباباً حسنا تحت رعاية والده وعناية جدته ، وأخذ من العلم ما يسره : دراسة الأدب والتاريخ في شبيبته والفقه والحديث في كهولته ، والجمع والتأليف في شيخوخته ، حتَّى صار يعد من العلماء الأعلام الخائضين في مسائل الشريعة والأحكام .

ثم صار يحضر في بعض الوقائع ، ويتدرب على شهود المعامع ، فكان معه ثلاث فرق من جيوش والده ، لما صار لصد الباشا أحمد الريفي سنة 1156 (1743)» .

---

(1) مقدمة الفتوحات الإلهية ص (أ) . وهذا الكتاب ألفه السلطان سيدي محمد بن عبد الله .
(2) ن . م . ص ب .

وابتداء من 1158 / 1744 وقبل أن يكتمل عمر سيدي محمد الخامسة والعشرين[3] عينه والده خليفة عنه بمراكش التي لم تكن أهميتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لتخفَى على المخزن ، وتولى الأمير الشاب هذه المهمة الدقيقة برغبة من سكان مراكش ، فنزل بقصبتها التي كانت قد أصبحت أطلالا وخرائب ، غير أن الرحامنة منعوه من ترميمها وتشييد قصره بها لأسباب غير واضحة . لكن ربما كانت تعاودهم الرغبة في السيطرة على المنطقة التي تحكم فيها من قبل الشبانات وهم ينتمون بصلة الدم إلى الرحامنة ، وهكذا انتقل الخليفة الشاب إلى آسفي حيث توجد جالية أوروبية وأسر يهودية كثيرة ، فضلا عن العناصر المجاورة من عبدة والشياظمة وغيرهم ، وكلهم رحبوا بمقدم الأمير ، وفي هذه الفترة التي تعرف فيها جيداً على النشاط الاقتصادي وحركة التبادل مع الخارج ، بدأت مواهب الأمير محمد بن عبد الله تنفتح على العالم الخارجي وتستوعب عناصر التقدم الأوروبي في مجال التعامل التجاري والوسائل التقنية والمالية والإدارية ، وكل هذا سيكون له تأثير كبير في اهتمامات سيدي محمد بن عبد الله كملك . وقد حظي خلال مقامه بآسفي ، بتجاوب كبير من السكان على اختلافهم ، وما لبث الرحامنة أن بعثوا إليه بوفد يقدم اعتذاراته باسمهم عما بدر منهم نحوه ، ويرغبه في الاستقرار بمراكش ، واستجاب سيدي محمد لهذه الرغبة وشرع على الفور في انجاز كل الإصلاحات التي كان يراها ضرورية ، وقدم عليه سكان سوس والسهول الأطلسية وعناصر من جيش البخاري الذين ساهموا في بناء قصره بالقصبة . على أن هذا القصر قد تم توسيعه فيما بعد على يد خبراء أوروبيين[4] .

وشمل نفوذ سيدي محمد بن عبد الله مجموع المنطقة الممتدة من الشاوية إلى أطراف سوس جنوبا ، وهي منطقة تشمل العديد من الأقاليم والمراكز الحضرية والقروية بل بسط سلطته على السهول والمراكز الأطلسية كلها . ومع ذلك فقد استنكر بيعة الجيش له ورفضها بصفة قاطعة في كل المحاولات التي قام بها الجيش

---

(3) أكنسوس ص 133 . وعند آخرين تولى الخلافة بمراكش سنة 1159 / 1744 . انظر : مراكشي ، إعلام ، 6 ، 112 . ترجمة سيدي محمد بن عبد الله ، للمدني بن الحسني في «الفتوحات الإلهية» .

(4) مراكشي ، ن . م . ص 112 — 113 . 368

من 1162 إلى 1164 (1748 ـ 1750)[5] . والواقع أن الأمير سيدي محمد تمكّن خلال فترة عمله كخليفة بمراكش أي فيما بين 1158 و1171 (1744 ـ 1757) أن يفرض شعبيته ويسهر على الأمن وينشط الحركة الاقتصادية والثقافية ، ويجعل من آسفي أهم ميناء مغربي . لقد كان سيدي محمد أكبر كفاءة من والده وفي حياته وفي ظل سلطته ، وهذا شيء لا يطرد في الأنظمة الملكية . وقد تأثر سيدي محمد خلال مقامه كخليفة بمراكش ، بشخصية المنصور الذهبي ، فكان مثله الأعلى في سيرته ومواكبه وتنظيماته الداخلية وضبطه لأعماله[6] .

بيعته

بعد إعلان وفاة والده التي كانت في 27 صفر 1171 أو قبل يومين من هذا التاريخ حسب المصادر ، تلقى بصفة تلقائية بيعة أهل مراكش وأحوازها وعبدة والشياظمة وحاحا ثم بيعة أهل فاس ومختلف الأقاليم[7] ، وأعلنت البيعة قبل متم صفر من السنة المذكورة (سابع نونبر 1757م) وكان عمره حينئذ ثمانا وثلاثين سنة ، ووصف الضعيف هذه البيعة بأنها كانت «بإجماع أهل المغرب ، بيعة تامة مرضية ، كاملة الأوصاف ، سنية جامعة لجميع الأمور الشرعية» . وقد رغب إليه أهل فاس في الاستقرار بها نهائيا ، فذكر أن ضرورة الاهتمام بمصالح الأمة تقتضي تنقله بين مراكز المملكة[8] ، وكانت بيعة محمد بن عبد الله بجامع الكتبيين .

ووصف بأنه كان أسمر تام القد أقنَى الأنف عريض شعر اللحية واسع المنكبين سمح الوجه كريم اللقاء فصيحا بليغا متواضعا شفيقا كريما ، عالما بالفقه والسنة والحرام والحلال وفصول الأحكام[9] . ووصفه مصدر أجنبي[10] بأنه كان أميل إلى الطول مع لحية قصيرة قليلة الكثافة ، ضيق المنكبين به حول في احدَى عينيه ، وكان بسيط الملبس يعتم بعمامة من الحرير الملون تحيط بشاشية،وتسليته الوحيدة هي

---

(5) مراكشي . ن . م . ص 113
(6) زياني ، بستان ، ص 83 ، أكنسوس ، ص 127
(7) أكنسوس ، ص 134 ، مراكشي ، م . س . ص 114 . زياني ، بستان ، ص 98 ، ناصري ، 8 ، 3 . ضعيف ، ص 158
(8) ضعيف ، ص 163
(9) ن . م . ص 161
(10) *J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 44*

السماع إلى الموسيقَى في قصره وبين أسرته ، وكان مع هذا قنوعا في مأكله لا يدخن ولا يتناول خمرا وشرابه الشاي أو عصير الزبيب المغلى . وشهد الدبلوماسيون الذين تعرفوا عليه، بذكائه ووفائه بالتزاماته وإنسانيته وتدينه وعبقريته السياسية . وكان يهتم بالجزئيات ويتتبَّع مراحل المفاوضات شخصيا ، وكان حسن الاستقبال للأجانب وإن لاحظ بعضهم أنه يخص بمودته من كانت وراءه مصلحة ، إلا أنه كرجل دولة لابد أن تكون له اختيارات سياسية وهذا يقتضي أن ثقته في الأجانب لا يمكن أن تكون بنفس القدر للجميع . وشذ قليل منهم ممن لم يستفيدوا من امتيازات لأنفسهم أو لبلادهم بالتحامل عليه كما فعل البارون دوسانطو *(De Saintot)* في بعض مذكراته[11] ، وهناك من وصفه بضعف التكوين الثقافي وهذا عكس ما تتفق عليه الروايات المغربية .

واتخذ سيدي محمد بن عبد الله جل أعضاء حكومته من العرب[12] ، وكان وزيره الأول هو مولاي ادريس الذي توفي سنة 1186 / 1772 وكان هذا الوزير يفرط في تعاطي الحشيش[13] .

ومن أهم الأحداث الدولية التي عاصرها سيدي محمد ، حرب الاستقلال بالولايات المتحدة واعتراف المغرب بالدولة الامريكية الجديدة وقيام الثورة الفرنسية واستيلاء الانجليز على كندا .

ثورات الأقاليم واضطراباتها

لم تخل ولاية سيدي محمد بن عبد الله من قلاقل محدودة المدَى في أغلبها ، كما أن بعضها يعتبر تطورا جديدا لأحداث ماضية ، وكيفما كان الأمر فهي أقل خطرا مما كانت عليه في عهد مولاي عبد الله ، ولم تكن هذه القلاقل كلها ثورات منظمة ، بل كان فيها ما نشأ عن نزاعات محلية أو غير ذلك :

1 ــ ثورة غمارة على يد أبي الصخور محمد العربي الخمسي ، وهو من الصلحاء بالمنطقة[14] ، وكان يحظَى بشعبية كبيرة هناك حيث يتنبأ خطأ بقصَر ملك

---

(11) *Op. Cit, p.100*

(12) ضعيف ، ص 162

(13) *Hœfer, p.368*

(14) أكنسوس ، ص 137 ، الناصري ، 8 ، 10

سيدي محمد ، وكانت ثورته في نفس السنة التي تولى فيها هذا العاهل ، وقد أشرف السلطان بنفسه على ردع هذه الثورة التي ذهب ضحية قمعها أبو الصخور في أواخر 1171 / 1757 . وعين السلطان عاملا على غمارة الباشا العياشي ومقره شفشاون . إن الأوضاع الاقتصادية لهذه الناحية وذبول ثورة الباشا الريفي وتصرفات المستضيء كلها تضافرت على قيام هذه الثورة الجديدة التي لم تهدأ إلا لتطفو على السطح مرة أخرى حيث نرَى السلطان يقوم بحملة شاملة في مناطق الشمال لأسباب أمنية وجبائية ، وذلك سنة 1179 / 1765 (15) .

2 — ثورة مسفيوة ، وكانوا فيما مضَى شيعة للمستضيء ثم أخضعهم مولاي عبد الله وخرب قراهم ومزارعهم وأفنَى مواردهم (16) . وقد سبقت الإشارة إلى هذه الأحداث التي كانت سنة 1157 / 1744 ولما كان سيدي محمد خليفة بمراكش ، كان يراقب أحداث الحوز عن كثب ، بما في ذلك مسفيوة التي لم يكن بإمكانها التحرك والحالة هذه في ثورة انتقامية حتّى نصب سلطانا وبدأ يتنقل بين مراكش وفاس ومكناس . وكانت ثورتهم في شكل غارات على القبائل المجاورة ، فأعدم السلطان مائة وخمسين من أعيانهم بمراكش ، وقد قدموا عليه كوفد عن مسفيوة سنة 1175 / 1762 ، وبهذا الاعدام الجماعي استقرت الأوضاع بمسفيوة إثر ذلك (17) .

3 — اضطرابات القبائل العربية (18) : قام السلطان محمد بن عبد الله سنة 1175 / 1761 بعمليات تأديب جماعية ضد مجموعة من القبائل العربية والبربرية التي كانت سلطة المخزن فيها غير قارة ، كما أن الكثير من عناصرها كانت تتعاطَى أعمال النهب والعدوان على القوافل ، في غياب تنظيم اجتماعي واقتصادي يكفل لهذه القبائل عيشاً لائقاً ، وهكذا انطلق العاهل من مراكش لردع الشاوية ، وقبض على عدد كبير منهم قيدوا في السلاسل ووجهوا إلى مراكش ، وقام بحملة في منطقة

---

(15) استقصا ، 8 ، 25

(16) استقصا . 7 ، 168

(17) ن . م 8 ، 18 . زياني ، بستان ، ص 103 ؛ جيش ، ص 144

(18) زياني ، بستان ، ص 102 — 113 . ضعيف ، ص 167 ، 188 ، 204 — 207 . أكنسوس ، جيش ، ص 142 ؛ 144 ، 147 ، 155 ، 172 . ناصري ، استقصا ، 8 ، 16 ، 50 ، 62 .

تادلا ، ثم انطلق نحو مضارب الحياينة وسادن وغياثة (القبيلتان الأخيرتان بربريتان). وفي 1176 / 1762 قام بحملة لإلزام أهل الغرب بأداء الزكوات والأعشار. وفي العام الموالي تم القضاء على ثورة قادها بصحراء فيكيك أحمد الخضر الذي سحق غير ما مرة الحملات الموجهة ضده ، ثم حدثت فتنة في سنة 1181 / 1767 بضواحي مراكش أثارها شخص يدعَى كلخ (بفتح الكاف واللام مشدداً) وكان ينتسب إلى الولاية فهاجم بأنصاره مراكش وكان هدفهم بيت المال بها ، وقد تم القبض على زعيمهم ثم أعدم بأمر العاهل ، وتظهر هذه الثورة المحلية الصغيرة مدَى بؤس سكان البوادي الذين كانوا يتعلقون بأي شخص يعد بتحسين أوضاعهم ولو بالنهب.

وفيما بين 1190 ــ 1196 (1776 ــ 1781) حدثت مجاعة شديدة بسبب الجفاف ، وتولى العاهل بنفسه رعاية الجهات المتضررة ، لكن بعض القبائل لم تر بدأً من سد عوزها عن طريق النهب كما فعل أولاد أبي السباع بحوز مراكش ، فأثاروا بالمنطقة قلاقل أدت إلى تدخل الجيش سنة 1197هـ وقتل عدد كبير من هذه القبيلة وسجن جماعة من رؤسائهم بمكناس حيث قضوا بقية حياتهم ، أما باقي القبيلة فقد نقلوا إلى سوس ، ثم دعي أهل سوس لتهجيرهم فارتحلوا إلى الصحراء الغربية التي كانت مع شنقيط (موريطانيا) موطنهم الأصلي.

وفي 1202 / 1787 حسب الضعيف ، أو 1201 حسب غيره قاد السلطان من مراكش جيشاً لحرب شراقة بناحية فاس ، وكانوا يغيرون على القبائل المجاورة ، فلما حل بسايس ، هربوا إلى ضريح مولاي بوشتة الخمار ، فاقتحم الجيش ساحة الضريح وفتك ببعضهم ثم أمن الباقون. ولنفس الأسباب أيضاً (النهب والسرقة) هوجم الشاوية سنة 1203 / 1788 على يد مجموعات بربرية بأمر المخزن الذي أطلق يد المهاجمين فيهم حتَّى تتبعوهم في مغارات أم الربيع ، فقطعت رؤوس المآت منهم ، وعلق بعضها ووضع البعض في مطامير ، كما سبيت مائتان من أجمل نسائهم.

وهكذا ظلت حلول الأزمات الاجتماعية والاقتصادية في مجملها زجرية على نطاق جماعي من غير أن تؤدي إلى نتيجة صالحة للمخزن والسكان. لقد كانت الإدارة الاقليمية والنظام الجبائي وطرق الإنتاج كلها بحاجة إلى إعادة نظر شامل ،

وكان الداء يكمن قبل كل شيء في انعدام العدد الكافي من الإطارات الواعية والصالحة على الصعيدين المركزي والإقليمي.

4 — اضطرابات الأطلس. ظلت قبيلة جروان تحمل عداء لجيرانها من آيت إدراسن منذ أواخر عهد مولاي عبد الله. ولما تولى نجله سيدي محمد، أنزل آيت إدراسن بجوز مكناس حيث تولى قيادتهم محمد بن محمد واعزيز[19]، وألحقوا مع عناصر من آيت يمور بقيادة عبد الوهاب اليموري، بديوان الجيش مع عبيد البخاري، وهؤلاء بقيادة الباشا سعيد[20]، ولما كان الأودايا حلفاء لجروان فقد كانوا يتعاونون على قطع الطرق والإضرار بآيت إدراسن، ثم قرروا مهاجمة مكناس، فتصدّى لهم آيت إدراسن وأنصارهم سنة 1173 عند وادي وسلان فانهزم المعتدون وانتهبت معسكراتهم وقتل منهم المآت[21]. وأخيرا قام الجيش بنهب أحياء الأودايا بفاس الجديد، وتم اعتقال عدد كبير منهم مع قوادهم بالحيلة، ثم نقلوا مع سائر الأودايا إلى مكناس التي تم فيها إعادة تسليكهم وإدماجهم، حيث أقاموا بها حوالي أربعين سنة إلى أيام اليزيد[22].

وفي هذه السنة أو التي قبلها أوقع السلطان بآيت إسحق الدلائيين. وفي 1175 / 1761 أشرف السلطان على عمليات ردع غياثة وقبائل عربية وبربرية. وأثناء ذلك كان الشيخ محمود الشنقيطي الذي قدم من شنقيط إلى فاس ونزل بمستودع القرويين قد تمكن من تكوين حركة واسعة قوامها عدد من أعيان فاس وقبائل البربر التي كان يكاتبها منتقدا نظام الحكم، زاعما (أن سلطان الوقت جائر، ولم يوافق عليه أحد من الأولياء)[23]، وقد اعتقل الرجل ونقل إلى مراكش، وأعدم بشكل فظيع[24].

وفي سنة 1179 / 1765 توجه السلطان من مكناس إلى تادلا لردع قبيلة آيت

---

(19) أكنسوس، جيش، ص 139

(20) ضعيف، ص 166 — 167

(21) أكنسوس، م. س

(22) أكنسوس، ص 140؛ ضعيف، ص 168

(23) أكنسوس، ص 142 — 143. استقصا: 8، 17

(24) أكنسوس. ن. ص

يمور التي كانت بعض عناصرها مدمجة في الجيش بمكناس كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وعند قصبة تادلا، تم تجميع القبيلة بحجة استدعائها للإسهام في حملة ضد آيت وامالو. ثم طوق المحتشدون منهم عن طريق عرض عسكري أشرف على تنظيمه العاهل بنفسه، وأطلق عليهم الرصاص دفعة واحدة من جميع فرق الجيش التي أحاطت بهم، فقتل منهم ثمانمائة وعلقت رؤوسهم بأسوار فاس، وبعد الاستيلاء على مواشيهم وأموالهم وفرار عدد منهم إلى جبل آيت يسري نقل الباقون إلى حوز فاس ومكناس، وذلك لفترة محدودة، وكان المخزن ينسبهم إلى العبث والفساد والاعتداء على القبائل المجاورة[25]، بالرغم من أنهم كانوا موالين للحكومة في ظروف سابقة.

كذلك اغترت آيت إدراسن بعطف المخزن، وإنصافه لها من الاودايا وجروان، فمدت يدها للسطو على حقوق الآخرين، وعندئذ جردت حملة من أعدائها هؤلاء لإخضاعها سنة 1180 / 1766 وبعد قتل عدد منها ونهب أموالها اعتقل عتاتها وقيدوا بالسلاسل حيث وجهوا إلى سجون مراكش[26].

وفي إطار الغارات المتبادلة بين قبائل الأطلس وقع سنة 1181 / 1767 قتال بين بني مطير وأنصارهم من آيت يمور وآيت يوسي من جهة، وجروان والأودايا من جهة ثانية، يناصرهم عبيد البخاري. ووقعت الهزيمة على بني مطير وأنصارهم، وأقتيد عدد منهم مسلسلين إلى مكناس. وفي هذا الوقت صار بربر أحواز فاس يقطعون الطرقات ويغيرون على مواشي أهل فاس ومزارعهم[27]. وقام السلطان مرة أخرى في أواخر السنة المذكورة بتجريد حملة ضد آيت يمور بتادلا وكان العاهل قد عفا عنهم، وقد قتل منهم عدد كبير وعلقت رؤوس ستمائة منهم بسلا ومكناس وباب الفتوح بفاس[28]، ونقل قسم كبير من هذه القبيلة إلى الغرب.

وقام العاهل سنة 1184 / 1770 بقيادة حملة ضد جروان التي فتك الجيش

---

(25) أكنسوس، ص 146 – 147. زياني، بستان، ص 106، ناصري، استقصا، 8، 27 – 28

(26) اكنسوس، ص 147

(27) الضعيف، ص 172 (هامش المخطوط)

(28) م. س.

بها في جريجرة ونهب أموالها ثم نقلوا إلى أزغار بمنطقة الغرب ، واحترف كثير منهم التسول في القبائل وأسواق فاس[29] . ورفض آيت وامالو القائد بلقاسم الزموري الذي عينه عليهم السلطان ، فحاربهم القائد بأمر العاهل فهزموه سنة 1186 / 1772 . وعندئذ انطلق سيدي محمد بن عبد الله من مكناس ليواجه بنفسه تمرد القبيلة ، وقد جند عددا كبيرا من الفرق والقبائل لهذه الحملة التي حضرها أبو القاسم الزياني وكان لا يرَى من السداد تعيين بلقاسم الزموري عاملا على آيت وامالو الذي كان جائرا سيء التدبير. وأثناء توغل الجيش هلك فريق منهم على يد آيت وامالو ، وعندئذ أمر السلطان أبا القاسم الزياني بالتدخل لدى الثوار قصد فسح الطريق لانسحاب الجيش ، ونقل هؤلاء إلى مكناس حيث خصصت لهم أحياء خارجها ؛ كما تم عزل القائد بلقاسم واستصفاء أمواله وعين على زمور وبني حكم محمد بن محمد واعزيز[30] .

وفي سنة 1196 / 1781 دمر الجيش مخازن الزرع في آيت يمور بمنطقة زرهون[31] . وفي العام التالي ادعى المهدوية في آيت يمور المقيمين بالغرب محمد والحاج اليموري وتمكن من استمالة الأوساط الشعبية بين البربر ، وكان يدعو آيت يمور إلى مهاجمة القبائل العربية بالمنطقة فتجمعت بزعامة الهاشمي السفياني وحاربت آيت يمور بجبل سلفات عند وادي سبو ، فلقيت هزيمة ساحقة وقتل زعيمها السفياني ، وأخيرا اعتقل محمد والحاج اليموري ثم أعدم بمكناس[32] .

وفي نطاق الحركات التي يقودها العاهل لحمل القبائل على أداء الجباية أو لمجرد ردع بعضها توجه العاهل سنة 1198 / 1783 إلى أزمور التي تحصنت بالشعاب فسلط عليها جروان وآيت يمور التي نهبت أموالها ، ثم توجه إلى تافيلالت التي كانت آيت عطا بها وآيت يافلمان تساند عمه مولاي الحسن وكان يستخدمها لقهر الأشراف بالمنطقة ، وقد أخرج آيت عطا وآيت يافلمان من قصورهم مع تعويضهم كما نقل

---

(29) أكنسوس . ص 150
(30) ن . م . وص . استقصا ؛ 8 ، 41
(31) ضعيف ، ص 196
(32) اكنسوس ، ص 155هـ

مولاي الحسن إلى مكناس للسكنى بها[33] . وتولى المفاوضات بهذا الشأن أبو القاسم الزياني .

إن كل هذه الثورات والاضطرابات التي تقمع غالبا بسهولة لم تكتس خطراً يذكر على النظام القائم خلال حكم الملك محمد بن عبد الله ، لأنها لم تتخذ من البعد والاتساع ما اتخذته خلال أسلافه ، وجلها يكتسي طابع غارات وأعمال نهب بين الجيران . غير أن عدم تصحيح الأوضاع بكيفية جذرية سيسمح لبعض الثورات الصغيرة فيما بعد ، أن تتقد بشكل أعنف وأخطر .

5 — ثورة اليزيد وعبيد البخاري . في 1189 / 1775 حدث تمرد في إحدى فرق جيش البخاري . وتفصيل ذلك أن العاهل كان قد وجه بتعليماته من مراكش إلى أركان حربه بمكناس أن يبعثوا بألف جندي إلى طنجة ليكونوا حامية بها ، على أن ينتقلوا بأولادهم ، وعين عليهم القائد الشاهد الذي رفض اصطحاب الفقراء من الجيش وألحّ في اختيار أهل اليسار، فثار الجند وبدأوا يتهيأون لخلع السلطان. وعندئذ بعث العاهل نجله اليزيد ، وكان طموحا إلى السلطة ، وذلك لإقرار النظام وحل المشكل ، فاتفق مع الجيش على أن يبايعوه ، وفتح خزائن المال والسلاح وبدأ يوزع من غير حساب ، وبدأت الحركة تتخذ بعدا خطيرا بتوارد البيعات من الجهات المجاورة ماعدا آيت إدراسن وجروان والأودايا ، فتحرك هؤلاء لحرب عبيد البخاري بقصبة مكناس وقتل من البخاري عدد كبير ووقعت عليهم الهزيمة ، ثم تحرك العاهل بنفسه فلجأ اليزيد قبل وصول والده إلى ضريح مولاي إدريس بزرهون ، وأخيرا أعلن السلطان عفوه عن نجله اليزيد ، وكان أبو القاسم الزياني قد حذره من بعثه إلى مكناس ، وعفا أيضا عن الثوار ثم قام بعملية توزيع شاملة للبخاري وعزل قواد الثورة . وهكذا فرق البخارى بين طنجة والعرائش والرباط والمنصورية (بين الرباط والدار البيضاء) .

إلا أن عملية التوزيع هاته لم تؤت أكلها لأن انتقال البخاري من مكناس أضر بمصالح الكثير منهم بالرغم من أن الجيش معرض بحكم مسؤوليته للتنقل ، فبدأت حركة التمرد تسري في الثغور التي حلوا بها ، لاسيما حاميتي طنجة والعرائش ، فعمد

---

(33) م . س . ص 156 . استقصا . 8 . 51

السلطان إلى تجميع هؤلاء بالحيلة عند سوق أربعاء الغرب ، وحشد حولهم قبائل الغرب في حركة تطويق وجردهم من السلاح ثم وزعهم بين رؤساء القبائل يخدمون الأرض والماشية بنسائهم وأولادهم لمدة أربع سنين ثم ردهم إلى الجندية ووزعهم مرة أخرى كما قام بعملية تنقيل واسعة في صفوف الحاميات الأخرى من جيش البخاري. وقد صاحبت أزمة الجيش هذه فترة الجفاف والقحط الطويلة التي امتدت سبع سنوات من عام 1190 / 1776[34] إلى 1197 / 1782

أما مولاي اليزيد فقد توجه إلى البقاع المقدسة بعد هذه الأحداث ، والتقَى به ركب الحج في مكة ، حيث استولى اليزيد على جزء من الأموال التي قدمها ركب الحج للأشراف باسم المغرب ، وعندئذ أعلن السلطان محمد بن عبد الله تبرؤه منه وكتب بذلك خطابات إلى أمراء البقاع المقدسة وأشراف سجلماسة وأدارسة زرهون وفاس وإلى السلطان العثماني عبد الحميد[35] . ثم دخل اليزيد بعد ذلك إلى الجزائر ورفض العاهل السماح له بالعودة إلى المغرب سنة 1203 / 1788 ، ولكنه دخل سراً. وكان السلطان قد وجه جيشا لهدم الزاوية الناصرية بدرعة لأنه كان متاثرا بالنزعة الحديثية ويرى أن بعض الزوايا الكبرى جمعت ثروات طائلة كالزاوية الناصرية ، مع أن نفوذها لدَى الأوساط الشعبية يضعف من قوة المخزن وهيبته ، حتَّى إذا علم العاهل بدخول نجله إلى المغرب أعاد الجيش من الطريق قبل تنفيذ مهمته ، للقبض على اليزيد أو التصدي لتحركاته ، خصوصا وقد كان السلطان يخشَى أن يمد اليزيد يده إلى الأموال العمومية بطنجة وتطوان والعرائش. ولذلك لجأ اليزيد إلى ضريح عبد السلام بن مشيش بغمارة[36] ، بينما أعلن السلطان تنصله من ترشيح أي أمير للعرش بعده ، وأنه يترك البت في ذلك للمسلمين[37] ، أي ممثلي الأمة من المغاربة المسلمين.

---

(34) زياني ، بستان ، ص 112 . أكنسوس ، جيش ، ص 152 و170 . ناصري ، 8 ، 45 ـ 49 . مشرفي ، حلل ، ص 165 .

(35) جيش ، ص 170

(36) الضعيف ، ص 210 ـ 211

(37) ن . م . ص 312

قام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بجولة لتفقد الثغور[38] سنة 1173 / 1759 ؛ فانطلق من مراكش إلى مكناس ، ومنها إلى تطوان حيث أشرف على بناء برج مرتيل ، ومن ثم عرج على سبتة ليتعرف على أحوالها عن كثب ، ويقرر ما يمكن أن يتخذه من تدابير بشأنها ، إلا أن مناعة تحصينها وكونها في لسان بحري ليس لها من البر إلا منفذ واحد جعل العاهل يستبعد إمكانية استردادها بالوسائل المتوفرة لدَى الجيش المغربي ، فاكتفَى بأن أمر المدفعية بإطلاق دفعة بارود ليتعرف على رد الفعل من الإسبان ، فرد هؤلاء بإطلاق المدافع «حتَّى تزلزلت الجبال»[39] ثم انتدب مجموعة من رماة أنجرة المقيمين حولها لمراقبة حدودها وتحركات الإسبان بها . ويبدو أن الرغبة الشعبية كانت شديدة في أن يقوم المخزن بمحاولة فعالة لاسترداد سبتة ، ولذلك كان الرأي العام يفضل أن يتفرغ المغرب لتحرير ثغوره على أن يوجه الأموال الطائلة والتجهيزات العسكرية إلى الدولة العثمانية لمواجهة الروس . وقال العاهل يرد على المنتقدين : إن مليلية وبادس والنكور لا فائدة في عمارتها ، وأما سبتة فلا يواجهها إلا أحمق أو جاهل ، ولا ينفع فيها حرب ولا ينشأ عنها إلا السبة للإسلام[40] .

وقد كان سيدي محمد بن عبد الله واقعيا فيما يخص سبتة التي كانت تحتاج قبل كل شيء إلى أسطول بحري لتطويقها ومنع الإمدادات عنها مع قربها من الشواطئ الإسبانية ، ولم تكن الحرب البرية أو الشعبية بقادرة على استردادها في هذه الحقبة ؛ واما مليلية فقد بذلت جهود لإنقاذها كما سيأتي وبعد مروره بضواحي طنجة لاستقبال وفودها وسلطاتها زار العرائش التي كانت خالية من السكان تقريباً مع حاجتها إلى حامية كافية ، فقام بتزويدها بمائة من جيش مكناس وعين عليها واليا هو عبد السلام بن علي وعدي[41] ، ثم توجه نحو سلا حيث أمر ببناء برج بالرباط وآخر بسلا كما أمر بإنشاء سفينة لكل منهما لصالح مجاهدي البحر الذين كانوا

---

(38) استقصا 8 ـ 11

(39) ن . م . ص

(40) زياني ، ترجمانة ، ص 131 ـ 132

(41) ناصري ، 8 ، 12 ، ضعيف ، ص 171

ينطلقون لاعتراض سفن الدول الأوروبية المعادية ، وقد كانت العرائش وسلا من الثغور التي تعرضت غير ما مرة لانتقام هذه الدول . وهكذا هوجمت سلا سنة 1178 / 1764 من قبل الأسطول الفرنسي وقنبلت بشدة وقامت المدفعية المغربية بالتصدي للهجوم ، لكن الخسائر المادية لدَى السكان كانت كبيرة .

وتابع الأسطول الفرنسي طريقه نحو العرائش في أوائل 1179 / 1765 فقنبلها بشكل أشد حتَّى خرب دورها ومساجدها وأحرق سفينة بالميناء كانت مما غنمه المجاهدون من السفن الفرنسية ، كما حطم سفينة أخرى أيضا ، ولكن السكان وأفراد الحامية تمكنوا في النهايه من تحطيم هجومهم والاستيلاء على إحدَى عشرة قطعة من بين قطع أسطولهم الخمس عشرة ، وأسر نحو الخمسين تمت مفاداتهم فيما بعد[42] ، وكان للقائد حبيب المالكي دور أساسي في سحق هجوم الأسطول المذكور ، وعلى إثر حادثة العرائش قام العاهل بزيارة هذا الثغر وأقام به شهرا يشرف على ترميمه وبناء أبراجه الدفاعية ، ثم زوده في نفس السنة المذكورة ، بالمدافع والمهاريس التي تعاونت القبائل ورجال المدفعية على جرها من فاس الجديد ومكناس بقيادة الأمير اليزيد[43] .

وبعد سنوات قليلة على هذه الأحداث تم فتح البريجة التي حملت فيما بعد اسم الجديدة . وكانت البريجة قد خضعت للاحتلال البرتغالي منذ 907 / 1502 ، وذلك ضمن سلسلة احتلالات قاموا بها للثغور المغربية ، ثم شرعوا في بناء المنشآت الأولى لمدينة الجديدة[44] .

وكان من ذكاء محمد بن عبد الله أن عمل جدياً على تحرير البريجة البعيدة نسبياً عن مراكز الامدادات البرتغالية . كما أن البرتغال كانت تجتاز ظروفا داخلية صعبة في ظل حكم يوسف الأول[45] الذي كان قليل الاهتمام بشؤون الدولة ، حتَّى إنه ترك القيادة لوزيره المركيز دي بومبال (بالباء المثلثة في الأول) الذي اشتغل قبل كل شيء بالقضايا الداخلية .

---

(42) ناصري ، 8 ، 21 ؛ جيش ، ص 145

(43) جيش . ص 145 — 146 . ناصري . 8 ، 26 . زياني . بستان ، ص 104 . ضعيف ، ص 171 . السليماني ؛ اللسان المعرب ، ص 78 — 79 .

(44) حركات ، المغرب عبر التاريخ ، 2 ، 199

(45) توفي سنة 1777م .

وقبل أن يقوم العاهل المغربي بالتّهيؤ لحصار البريجة ، وجه إلى حاكمها خطابا شديد اللهجة يدعوه إلى أداء الجزية أو تحمل عواقب الحرب[46] . وكان جواب الحاكم هو الصمود للحرب . وعندئذ استشار السلطان مجلسه الحربي بشأن المجابهة ، فاتفقوا على ضرورة حصار البريجة برا وبحراً . واستنفر المتطوعون من مراكش والحوز والسوس ومختلف الجهات ، بما فيها خمسمائة من الصحراء الغربية وشنقيط ، وكانوا كما قال الضعيف[47] يلبسون الجلد ويركبون الإبل وشعورهم مسدلة[47] . وتم حشد الجيش النظامي والمتطوعة بقرب الجديدة في أول رمضان[48] 1182 / 1769 ، ولكن السلطان لم يلتحق بالحشود إلا في منتصف رمضان من السنة بعد أن زار ضريح أبي العباس السبتي للتبرك والدعاء ، وحول البريجة (أومازيغان كما سماها البرتغال وهو اسم وطني قديم ذكره البكري في القرن 5 / 11م) حفر خندق ونصبت 35 مدفعا ، واستعمل الجيش القنابل التي دخل في تركيبها سبعة معادن ، ووزن كل قنبلة أكثر من قنطار ، وكان برفقة الملك وزراؤه والأمراء ، وقد لبس الجنود دروعهم ودقت الطبول لتحميس المحاربين . ونصبت المدافع من جهة البحر أيضا ، وكان يتولى قيادة المدفعية الضابط التركي الحاج سليمان الذي قام بجهد رائع في ضبط عمليات المدفعية يساعده رماة وطنيون لا يقلون عنه مهارة وحاول البرتغال الرد على المدفعية بطلقات مدافعهم التي كانت لا تصل إلى المغاربة ، ثم بدأ القتل في السكان والهدم في مباني البلد يهدد بفنائها ، ولم يجد استجداء السكان مساعدة بلادهم ، فقد وردت التعليمات بإخلاء البلد وانتقال السكان في وحدات النقل التي بعثت بها الحكومة البرتغالية وقال صاحب الحلل البهيجة إنها كانت إحدَى عشرة سفينة جاءت «لنصرة الكفار» وليس الأمر كذلك ، وبعد أخذ ورد أعطيت مهلة للسكان لا تتجاوز ثلاثة أيام للجلاء ، وعندئذ عمد البرتغال إلى تحطيم المباني والأجهزة الدفاعية بالقنابل ، وزرعوا المتفجرات في مختلف جهاتها وأتلفوا كل ما عجزوا عن نقله إلى بلادهم . ثم انتهَى الجلاء في ثاني ذي القعدة 1182 وهو يوافق 28 فبراير 1769 حسب مصدر نقل عنه الناصري[49] . وتولى متطوع برتغالي

---

(46) المراكشي محمد بن أبي القاسم ، الحلل البهيجة ، مخطوط ، ور . 30

(47) ضعيف ، ص 172

(48) استقصا ، 8 ، 36

(49) استقصا ، 8 ، 37 . وحسب *Hœfer, Empire du Maroc, p.368* كان الفتح في =

إيقاد المتفجرات بمجرد دخول المغاربة الذين تسرعوا في اقتحامها رغم تحذيرات العاهل ، فقتلت منهم عدة مآت ، وفي بعض التقديرات خمسة آلاف[50] . ثم أسكن العاهل بالمدينة المحررة أسرا من دكالة . وقد أطلق على المدينة منذ ذلك الوقت اسم المهدومة إلى حوالي منتصف القرن 13 (أوائل حكم مولاي عبد الرحمن) فرممت أسوارها ومنشآتها وأطلق عليها اسم الجديدة .

على أن المقاومة المحلية للاحتلال البرتغالي ألحقت به أضرارا بشرية واقتصادية في عدة فترات قبل التحرير النهائي ، وذلك حسب التقارير البرتغالية نفسها[51] .

وشجع تحرير الجديدة العاهل المغربي على القيام بمحاولة لتحرير مليلية بعد الجهود المتوالية التي بذلها المغاربة شعبا وحكومة منذ استيلاء الإسبان عليها سنة 903 / 1497 ، على الأخص في عهد مولاي إسماعيل وعلى فترات من حكمه خلال خمسين سنة حتّى 1134 / 1721 وهكذا ففي أواخر 1184 / 1770 بدأت محاولة استرجاعها في عهد سيدي محمد بن عبد الله ، فنصب المدافع حولها وبدأ اطلاقها في أول السنة الهجرية 1185 . ثم قام العاهل سنة 1188 / 1774 بقيادة جيش عسكر بقرب الناظور ، وأطلقت المدافع التي حطمت قنابلها عدة منشآت . ويظهر أن مليلية كانت مهددة فعلا بالسقوط . ولذلك بادر العاهل الإسباني شارل الثالث (1759 — 1788) بتذكير نظيره المغربي بشروط عقد صلح تم بين الطرفين على يد وفد تولى قيادته الكاتب الغزال سنة 1179 / 1765 . وكان ضمن بنوده أن المهادنة تنعقد بينهما بحراً لا براً ، لكن الأسبان كشطوا (لا) وعوضوها بواو ، وقدمت الوثيقة إلى العاهل المغربي مزورة ، وكان ذلك سبب إبعاد الغزال عن الوظيف المخزني نظرا لعدم احتياطه في تحرير المعاهدة ، ثم انسحب الجيش المغربي ، وتولى الأسطول الإسباني نقل المعدات الحربية المغربية إلى تطوان والصويرة كما اشترط ذلك السلطان ، ويعزو الضعيف فشل المغرب في تحرير مليلية سنة 1188 / 1774

= مارس من نفس السنة ، وهو يتفق تقريبا مع المصدر الذي ذكره الناصري .

(50) المراكشي ، الحلل البهيجة ، و. 14 ، السليماني ، اللسان ، ص 79 . استقصا ، 8 ، 37 .

وانظر أيضا حول فتح البريجة : أكنسوس ، جيش ، ص 149 . المشرفي ، الحلل البهية . ص 162

(51) *Robert Ricard, La place de Mazagan au début du 17e siècle, pp.66, 67, 75*

إلى عامل قلعية الذي بدت خيانته في هذه العملية فاستحق حكم الإعدام الذي نفذ فيه، ثم عقدت معاهدة صلح جديدة في 30 مايو 1780م، وقد أثارت استياء سكان المنطقة[52].

الإصلاحات والسياسة الداخلية

إن استقرار الوضع الداخلي في هذه الحقبة بوجه عام واكبته تطورات وإصلاحات أو تغييرات تتفاوت أهمية، سواء على صعيد السياسة الداخلية أو بالنسبة للعلاقات الخارجية:

1 - في الميدان العسكري

إن الطموحات التي كانت تذكي مولاي إسماعيل لضم المغرب الأوسط وإقصاء الأتراك عنه بسبب الرغبة التي كانت لدَى القبائل الجزائرية بهذا الشأن، اقتضت إنشاء جيش كبير ساهم أيضا في بسط نفوذ المغرب على أجزاء نائية فيما وراء ترابه الحالي. وهذه الطموحات العسكرية والسياسية خمدت بعده لفترة طويلة، ومن أجل ذلك، وبالنظر لحركات التمرد التي ظهرت غير ما مرة في صفوف جيش البخاري وما نشأ عن ذلك من توزيع بقاياه عدة مرات على جهات متفرقة من المملكة قد أضعف هذا العنصر إلى حد كبير.

وقد انضم إلى الجيش النظامي مجموعات من حراطين الصحراء بالرتب وتافيلالت سنة 1173 / 1759 ونقلوا إلى معسكرات مكناس وفاس[53]. وفي 1179 / 1765 أنشئ فريق جديد من اليكشارية جمعوا من حوز مراكش وعددهم 4500. وكان اختيارهم من بين المرشحين العزاب على يد القائد عبد النبي المنبهي، وقد تم تسريحهم فيما بعد[54]، وذلك على إثر تجاوزاتهم في المناطق التي يحلون بها حيث كانوا يكلفون السكان ما لا يطيقون من تموين، كما نسبت إليهم اعتداءات على الأموال والأعراض[55]. وكانوا يؤلفون على الخصوص فرق المشاة،

(52) الضعيف، ص 170. أكنسوس، ص 150. ناصري، 8، 24 و40.
Ouariachi, p.9. Hœfer, pp.369

(53) استقصا، 8، 12. *Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 293*

(54) استقصا، ن. ص. أكنسوس، ص 147

(55) أكنسوس، ص 152. استقصا، 8، ص 44

ولم يتجاوز الجيش النظامي خمسة عشر ألفا في مجموعه ، ومع ذلك فقد خضع للنقل والتبادل عدة مرات ، وصرف البخاري أحيانا عن الجندية[56] .

كذلك اعتمد المخزن على بعض القبائل التي كانت تستخدم على الخصوص في حملات التأديب ضد قبائل أخرى ، وقد يحدث أن تعاد الكرة بشكل معاكس عن طريق عملية اللف[57] ، ومن هذه القبائل آيت إدراسن وجروان وآيت يمور وغيرها ، وأخيراً فإن الجيش يعزز بالمتطوعة المجاهدين الذين يساهمون في مقاومة الاحتلال الأجنبي للثغور .

واختصت مدينة الصويرة بحامية فرنسية من 250 جندياً استقدمهم سيدي محمد بن عبد الله سنة 1784م وكان الإشراف عليهم يعود مباشرة إلى العاهل الذي تأثر بلاطه بعد بيعته ملكاً بالتقاليد الفرنسية[58] . وقد عززت حاميات الثغور بالأبراج والصقائل والمدفعية كما هو الشأن في تطوان والعرائش وسلا والرباط وآنفا ؛ واستقدم إلى المغرب عدداً من الخبراء الأتراك لصهر المدافع وتدريب رماة المدفعية .

وواصل المغاربة كإخوانهم في سائر الشمال الافريقي عمليات الجهاد البحري بالاستيلاء في عرض البحر على سفن أوروبية من جنسيات مختلفة[59] ، ففي 1172 / 1758 غنم السلاويان محمد عواد مانطو ومحمد عواد قنديل ، والرباطي العربي المستاري سفينة سويدية فأنعم عليهم السلطان بمكافآت ثمينة كما كافأ النوتية ، ثم غنم المستاري سفينتين برتغالية وسويدية[60] . وأمر السلطان ببناء سفينة جهادية للرايس العربي حكم من الرباط[61] ، كما أمر ببناء مجموعة من السفن في تطوان التي أصبحت ذات أهمية كبيرة في تزويد البلاد بالأسلحة ، وكان ذلك سنة

---

(56) يراجع : الضعيف ، ص 183 — 185 ؛ زياني ، بستان ، ص 112 ؛ 114 . أكنسوس ، ص 147 و152 — 155 و172 وبشأن الأودايا : زياني ، بستان ص 100 — 101 . أكنسوس ، 139 . استقصا ، 8 ؛ 13 . *Hœfer p.369*

(57) *Terrasse, Op. Cit*

(58) *Hœfer, Empire du Maroc, pp.369-370*

(59) يراجع :

D. Herbelot, Histoire des états barbaresques... Paris, 1757. Caillé (J) : Hespéris, 1960. Ramon Lourido, Hespéris, 1969, Rabat.

(60) الضعيف ـ ص 164

(61) انظر أسماء عدد من ضباط البحرية . ن . م . ص 168

1173 / 1759 ، وتم استيراد الأجهزة التقنية عن طريق التجار الأوروبيين بآسفي[62] . كذلك انشئت سفينة جهادية بسلا من طابقين سنة 1174هـ وأسندت قيادتها للرايس سالم[63] . وكانت تركيا وأنكلترا والسويد مزودين رئيسيين للمغرب بالتجهيزات التقنية للأسطول ، وقد ترمَّم السفن المغربية خارج المغرب كما هو الشأن في سفينة المستاري التي رممت بأنكلترا وجهزت بالمدافع في عين المكان[64] .

وقامت سلا والرباط بجهد كبير في عمليات بناء السفن وترميمها كما كادتا تستأثران في هذه الحقبة بعمليات الجهاد البحري حتَّى إن العاهل الذي كان يفكر في مصادرة الأراضي التي يشغلها أهل الرباط على أنها ملك للدولة ، تراجع عن ذلك لأنه لم يكن له أن يستغني عن أهل الرباط لخبرتهم البحرية والحربية ، بالرغم من أن الجيش خرب جنائنهم لما كان لهم من موقف عدائي سابق ضد أخيه مولاي أحمد[65] .

ومن البديهي أن الاستيلاء على السفن الأجنبية وأسر بحارتها وضباطها كان يثير أحيانا ردود فعل قوية كما هو الشأن في ضرب الأسطول الفرنسي للعرائش ، وفي الغالب كانت المفاوضات خير وسيلة للوصول إلى حل مرض للأطراف المعنية ، وكان من الصدف أن إحدَى السفن الامريكية قد تم الاستيلاء عليها بعد سنوات قليلة من اعتراف المغرب باستقلال الولايات المتحدة الذي أعلن في رابع يوليوز 1776م ، وهكذا وقعت السفينة في قبضة المغاربة سنة 1784م ، واحتاج الامريكيون إلى تدخل إسبانيا وفرنسا لدَى المغرب لتسوية المشكل ، وحرر الأسرى واسترجع الامريكيون السفينة ، ثم عين أول قنصل عام للولايات المتحدة بالمغرب وعقدت معاهدة أولى للصلح في 16 يوليوز[66] 1786م (1199هـ) . وقد رفض الأمريكيون أداء الجزية كما كان يرفضها الانجليز والفرنسيون .

وذكر الناصري أن السفن المغربية في هذا العهد بلغت خمسين منها عشرون

---

(62) جيش ، ص 138 ــ 139

(63) الضعيف ، ص 168

(64) جيش ، ص 144

(65) ضعيف ، ص 176 ــ 177

(66) *Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 118...*

باخرة كبيرة . كما بلغ عدد ربابنة السفن ستين ، وجيش البحرية ألفاً من المشارقة (خصوصا الأتراك) ، وثلاثة آلاف مغربي ، بالإضافة إلى ألفين من رماة المدفعية [67] .

ويرَى طيراس أن المخزن قد تمكن برغم هذه الوسائل المحدودة ، وبقيادة سيدي محمد بن عبد الله ، من إقرار الأمن والنظام في البلاد التي اتجهت نحو العمل وحتَّى الثراء [68] .

2 - في الميدان المالي والاقتصادي

كان من الإجراءات الأولى التي اتخذت مباشرة بعد بيعة محمد بن عبد الله ، توظيف المكس على الأبواب والسلع والمنتجات الفلاحية ، واستصدر السلطان لذلك فتوَى من فقهاء فاس وغيرهم [69] ، كذلك اعتمد على فتواهم في تبادل المنتجات الزراعية الفائضة عن الاستهلاك المحلي . بالأسلحة والمواد الحربية ، وهكذا أصبح القمح تارة يتبادل بهذه المواد وطورا يباع نقدا للخارج ، حتَّى إن الفلاحين بفضل هذا التبادل تمكنوا من أداء ضرائبهم [70] . وتكاثرت المراكز التجارية بأكادير والصويرة وآسفي والرباط والعرائش .

وبرهن المخزن عن فعالية نادرة في سني المجاعة التي امتدت فيما بين 1190 ـ 1197 (1776 ـ 1782) حتَّى لقد أكل الناس في بعض الجهات الميتة والدم ولحم الخنزير وهلك عدد كبير من السكان ، وظل الجيش يتقاضَى رواتبه بكيفية عادية ، ورتب الخبز في مختلف المدن يفرق على المحتاجين في كل حي ، وتقاضَى سكان البوادي سلفات طائلة من الدولة ولم يطالبوا بردها بعد أن أخصبوا ورغبوا في ردها ، بل أسقطت عنهم الضرائب والمغارم عن السنين المذكورة . وكان التجار أيضا يتقاضون سلفات لجلب المواد الغذائية من أوروبا على أن يبيعوها بثمن التكلفة [71] . وقد استقرت الأحوال بعد ذلك وعاد المغرب إلى تصدير القمح حتَّى

---

(67) استقصا ، 8 ، 70

(68) *Terrasse, Op. Cit, p.294*

(69) استقصا ، 8 ، 7

(70) *Hœfer, Op. Cit, p.368*

(71) زياني . بستان ، ص 114

لقد سجل سنة 1202 / 1789 تزايد ملحوظ في السفن التي تشحن القمح إلى إسبانيا من مدينة الدار البيضاء[72].

ولأول مرة في ظل الحكم العلوي يرتبط المغرب بمعاهدات مع دول كثيرة في آن واحد، وقد تناول أكثرها العلاقات التجارية والاقتصادية بالإضافة إلى الشؤون الدبلوماسية وقضايا الأسرى، وكانت أنجلترا والدنمارك والسويد من ضمن هذه الدول، وعلى سبيل المثال فقد عقدت معاهدة مع الدانمارك سنة 1751م في عهد مولاي عبد الله يسمح بموجبها للدانمارك بإنشاء شركة تجارية أصبح لها حق احتكار التجارة في مراكز الساحل الأطلسي للمغرب، عن مدة أربعين سنة، وقد تأكدت المعاهدة بضمانات جديدة سنة 1753م، ثم 1757[73] ومن ثم فقد انهالت على المغرب بضائع تستوردها الشركة كالشاي والسكر والأسلحة بأثمان مربحة، في الوقت الذي تصدر من المغرب الصوف والزيت والجلد والشمع واللوز وسائر المنتجات الوطنية التي كانت تعرضها الشركة في الخارج بأرباح قد تصل إلى 70 في المائة. واستمرت الشركة في توسيع نشاطها في عهد محمد بن عبد الله فكانت تعقد صفقات تجارية بتطوان وطنجة ومراكز الشمال، وكان الملك فريدريك الخامس الدنماركي يملك أكثر أسهم هذه الشركة. وبالنظر لنشوب الحرب بين أنجلترا وفرنسا، ولانعدام النزاهة لدى بعض أمناء المراسي فقد قلت موارد الجمرك الوطني من هذه الشركة التي دعيت إلى تقديم مبلغ سنوي مقرر لبيت المال عوض وساطة الأمناء. وكان مقر الشركة بآسفي. إلا أن إنشاء الصويرة كميناء جديد ومدينة مستحدثة مع إلزام قناصل الدول بالتجمع فيها، وتركيز الحركة التجارية عبر البحر بها، أضعف من أهمية مراكز أخرى كأكادير وآسفي وسلا. وهكذا قررت الشركة تصفية أعمالها بأمر من دولتها سنة 1767، ثم عقدت معاهدة جديدة مع الدانمارك بـ 28 يوليوز من نفس السنة (28 صفر 1181) وتنص على تزويد المغرب بالمدافع والخشب والأشرعة والحبال سنويا مع تحديد مقادير هذه المواد التي كانت تدفع كجزية سنوية على أن يسمح للتجار الدنماركيين بمزاولة نشاطهم التجاري بصفة حرة. ومعلوم أن عدة دول أوروبية أخرى كانت تدفع الجزية للمغرب لنفس

---

(72) ضعيف. ص 213

(73) *De Castries, Le Danemark at le Maroc, in Hespéris, fas. 4/1926, pp.327-349 Terrasse, Histoire, 2, 297. Hœfer, Op. Cit, p.289*

الغرض ، وذلك حتّى سنة[74] 1845 . على أن بعض الدول حصلت على ترخيص بفتح قنصلياتها خارج آسفي كما هو الشأن في فرنسا التي استقر قنصلها شينيي بسلا[75] . ومع ذلك لم تكن العلاقات التجارية مع فرنسا في المستوَى الملائم ؛ وكان توقيع هذه المعاهدة في 28 مايو 1767م .

وإذا كانت الشركة الدانماركية قد خضعت لتحديد مقدم لالتزاماتها الجبائية ، فإن نظام بيع المكس على صعيد التجارة الداخلية قد عمل به المخزن في نفس الفترة ، وهو نظام عرف من عهد طويل في أنظمة شعوب البحر المتوسط ، وتنقصه الضمانات على أموال الملزمين بالضرائب ، وهكذا فقد ابتاع الصفار مكوس فاس باثني عشر ألف مثقال[76] ، وكان المكس المرتب معمولا به خاصة لدَى الدولة العثمانية . ولذلك كان الجور واستغلال السلطة رديفه في كثير من الحالات .

3 – في السياسة الدينية

ارتبط النشاط الديني في هذه الحقبة كلها ارتباطا متيناً بالسياسة التي نهجها السلطان محمد بن عبد الله ، فهو من جهة ، معجب بالحضارة الغربية ويتعامل معها في زواياها الاقتصادية والعسكرية والعمرانية ، ومن جهة أخرى يكره التقليد في التشريع والارتباط المبالغ فيه بفروع المذهب المالكي ، وبدل أن يتجه إلى العمل على وضع مدونة تحدد فيها التشريعات قدر الإمكان ، عمل على تدوين مجموعة من الأحاديث النبوية وقام هو نفسه بعمل شخصي في هذا المجال ، وظهرت على يده حركة حديثية واسعة النطاق لم يعرف نظيرها في ماضي المغرب إلا في العهد الموحدي .

وحيث إن التعليم عملية تندرج في المفاهيم الدينية الإسلامية بنصيب كبير ، فقد حظي باهتمام الدولة والأمة وعرف انتعاشاً حقيقياً ، لكن من غير أن تكون هناك حركة تطوير لبرامج التعليم في اتجاه العلوم الحديثة وطرق التدريس وأماكنه . كما أن الفكر الاجتماعي ظل مرتبطاً بالتقاليد التي كان الكثير منها ضارا بالمجتمع نفسه . حقاً لقد كانت سياسة المخزن جدية في تشييد المساجد والمدارس والكتاتيب وتوزيع

---

(74) م . س .

(75) *Pierre De Cenival, Hespéris, 1 fas. 1928, PP.23-35*

(76) جيش ، ص 141

الكتب على الخزائن والعناية على العموم بكل ما يحبذه الدين أو يحض عليه ، وهذه أمور لا يمكن إلا أن تنال رضَى الشعب المتمسك في غالبيته العظمَى بتعاليم الدين ، والذي ليس غريباً على كل حال عن التقدم التقني والعلمي والخبرات الحديثة التي يلمسها في أعمال المهندسين الأجانب ومنجزات الخبراء الغربيين أسرى وغيرهم ؛ ومصنوعات الغرب فيما يهم الحياة اليومية والعسكرية وتقنياته الإدارية في التعامل وتأسيس الشركات وغير ذلك ، لكن المجتمع كان في موقف المتفرج على معرض لم ينجز هو فيه شيئا وليس له إلا الفرجة أو الاستهلاك .

ومع ذلك كله ، فهناك خطوة كبيرة لصالح الانفتاح على الغرب لم يشهدها المغرب منذ وفاة رجل الدولة الكبير أحمد المنصور الذهبي ، وهذا الانفتاح الذي يعتبر السلطان محمد بن عبد الله مخططه وصانعه ، يساير تماما سياسة الانفتاح الإسلامي على الحضارات الأخرى التي اختطها من زمن بعيد رسول الإسلام نفسه ﷺ وبلغت أوجها على النطاق العالمي في القرن 4 / 10م .

وهكذا تأثر القضاء أيضاً بالروح التنظيمية التي شملت نشاط المخزن في هذه الحقبة بوجه عام ، والتفت المخزن إلى الفآت الضعيفة والفقيرة وإلى المرأة التي تعيش في رهبة من زوجها القاسي ، واليتيم الذي يتوزع حقوقه الوصي وحماته سلطةً وقضاءً ، وبوجه عام ، كل أولئك الذين يعيشون في دهاليز الظلم والحرمان ولا يحميهم نصير في ظل القهر والبطش ؛ فصدرت نصوص تشريعية في شكل ظهائر متتابعة تحدد التزامات السلطات القضائية والتنفيذية ومسطرة الحكم في مجموعة من المعاملات الأساسية(77) ، وجل هذه الظهائر تقر بوجود الظلم وبعضها ينذر القضاة بالعزل والمتابعة .

على أن السلطة المركزية لم تكن تتهاود مع جبابرة العمال والولاة ، فقد نكب كثير منهم وهم يستحقون أكثر من نكبة إما في نظر الدولة أو اعتباراً لمبادئ العدل نفسها كما حدث في نكبة فنيش عامل سلا لانعدام مرونته ولياقته وإغلاقه أبواب المدينة في وجه العاهل (!) ، ونكبة القائد الحبيب المالكي الذي كان في بدايته مناضلا كبيرا ثم تحول إلى الانحراف الاجتماعي والديني ، حتَّى نسب إليه أن قصره

---

(77) مراكشي ، إعلام 6 ، 120 — 128

كان يضم 18 امرأة من غير صداق ، وأنه كان يتصرف في «دوار» ليس فيه إلا النساء ولا يدخله إلا هو ، وبعد اعتقاله أضرب عن الطعام حتَّى هلك[78] .

وإذا كان المحدثون والفقهاء قد نالوا مقام الشرف وحظوا بامتيازات سياسية ومادية بحسب تقربهم من السلطة ، فإن طبقة الصوفية التي اعتادت في جلها أن تنعزل عن دواليب الدولة ومسيريها قد تقلصت هيمنتها بشكل ملموس عما كانت عليه ، ذلك أن بعض الزوايا التي حاولت أن تجعل من حرمها مأوًى للاجئين الذين تتعقبهم الدولة لسبب أو لآخر قد كانت موضع ريبة المخزن ، حتَّى إن السلطان قرر في مروره من الرباط إلى مراكش عن طريق تادلا ، سنة 1199 / 1784 أن يهدم زاوية أبي الجعد التي كان على رأسها محمد العربي بن المعطي الشرقاوي ، ونقل هذا المرابط إلى مراكش ، مع أسرته ، ثم أعيد إلى أبي الجعد في عهد مولاي هشام ، وأخذت عليه تجاوزات بعد ذلك فنقل إلى فاس ثم أرجع إلى أبي الجعد من جديد ، وإذا كانت الزاوية تحظَى بإقبال جموع السكان فإن المثقفين بعد هذا العهد تفاوتت آراؤهم بشأنها بين عاطف كأكنسوس ثم الناصري ، وبين منتقد كالزياني[79] .

وكادت الزاوية الناصرية بدرعة ، أن تلقى مصيرا مشابها سنة 1203 / 1788 لولا الصدف التي حالت دون ذلك[80] . وقال الضعيف ، كانت رغبة العاهل أن يحتوي على مالها وخيلها كما فعل بزاوية أبي الجعد . لكن مما لاشك فيه أنه إذا كانت الزاويتان معاً قد أديتا دوراً كبيرا في التوعية ونشر المعارف التقليدية والتربية الاجتماعية ، فإن محمد بن عبد الله لم يكن طائشاً ولا مبذرا في حياته الخاصة حسب المصادر الوطنية والأجنبية ، ولذلك كان هدفه سياسياً على الأرجح وليس لمجرد الشهوة إلى مال لا يتمتع به هو نفسه . وعلى كل فالموضوع بحاجة إلى تقصٍّ أكثر .

العلاقات الخارجية

كان المغرب في هذه المرحلة كما في سابقتها يصنع سياسته الخارجية بمحض

---

(78) ضعيف ، ص 171– 172 . استقصا ، 8 ، 29– 30

(79) اكنسوس ، جيش ، ص 171 ، ناصري ، استقصا ، 8 ، 59

(80) انظر ما يتعلق بثورة اليزيد تحت عنوان : ثورات الأقاليم واضطراباتها (فصل 4 ، قسم سياسي)

اختياره ، وهو في مرحلة الانفتاح هذه أكثر مبادرة وأوسع آفاقا : يفتح ترابه للسفارات والقنصليات والبعثات الأجنبية والشركات الأوروبية ، ويكثر من البعثات الدبلوماسية إلى الخارج ويتعامل بلباقة ويحرص على صداقة الآخرين ويتدارك المواقف الخاطئة . وبوجه عام ، فإن مغرب الانفتاح يرغب في الحفاظ على حسن المودة مع جيرانه وسائر الدول التي تبادله نفس الروح الودية ، ولكنه في كل الظروف يضع قضية الإسلام فوق كل اعتبار ، سواء بالنسبة للوطن أو للخارج ، ولقد برهن المغرب عن شهامة حقيقية تجاه الخلافة العثمانية ، وشاطرها بعمق وتأثر ، آمالها وآلامها ، مثلما برهن عن واقعية لم تكن من قبل معهودة ، تجاه الدول الأوروبية حتّى لقد استغلت بعضها هذه الواقعية بخبث بعد هذه المرحلة ، فتطاولت على سيادة البلاد التي أضعفتها تدريجيا حتّى النهاية .

وهكذا كانت سياسة المغرب تتجه في محورين اثنين ، أحدهما المحور العثماني والإسلامي ، والثاني هو المحور الغربي :

ا) العلاقات المغربية العثمانية والإسلامية

كانت الدولة العثمانية تشهد كذي قبل ، ردود الفعل من الشعوب التي خضعت لسيادتها زمناً أو التي اقتصت أطرافها لصالح الحكم العثماني ، وكانت روسيا من أشد الشعوب عداء للدولة العثمانية ، وقد تمكنت كاثرين الثانية ملكة روسيا ذات الأصل الألماني من بسط نفوذها على أراض كانت تابعة للعثمانيين . وذلك انطلاقا من 1176 / 1762 وهكذا حركت الثورة اليونانية ضد الدولة العثمانية في عهد مصطفَى الثالث ، لكن الأتراك هاجموا التراب الروسي . ثم تولى عبد الحميد الأول 1187 / 1773 فهزمت الجيوش العثمانية ثم أرغمت على عقد صلح مع الروس تخلت السلطة العثمانية بموجبه عن جملة من الأراضي وتنازلت عن حق مرور السفن الروسية باتجاه البحر المتوسط وتخلت عن القرم . وأكثر من ذلك ، فإن صلح كاينارجي سنة 1774م أعطَى لروسيا حق حماية المسيحيين في الامبراطورية العثمانية . وتوفي عبد الحميد ومعاصره محمد بن عبد الله والحرب على أشدها ضد العثمانيين وقد دخلت فيها أطراف أخرى خصوصاً النمسا ، وأعلن محمد علي الألباني نفسه سيد مصر محتفظا بتبعية ضعيفة للامبراطورية ، ولما كانت المجتمعات المسيحية تكوِّن عددا كبيرا من الشعوب الخاضعة للسيادة العثمانية ، فقد رأوا في الروس حماة حقيقيين

بموجب صلح كاينارجي ، وفي النصف الثاني من القرن 18م بدأ يتجلى ضعف الامبراطورية عسكرياً بكيفية ملحوظة ، وبتوازٍ مع ضعفها في تسيير الأقاليم وضبط جبايتها[81] .

لقد اختار المغرب لأول مرة سياسة التقارب الإيجابية مع الخلافة العثمانية بعد فترة ركود طويلة ، وسارت هذه السياسة بتواز مع روح الانفتاح التي أبان عنها المغرب تجاه العالم الغربي بشكل لم يكن من قبل معهوداً . في غمرة الأحداث التي هزت من كيان الامبراطورية العثمانية هزاً ، وقف المغرب يعلن مساندته بروح إسلامية عميقة للعثمانيين الذين اعتبرهم المغرب رمزاً للسيادة الإسلامية ، فساندهم بالدعم المادي والمعنوي وتبادل معهم الوفود واستفاد من الخبراء الأتراك في الشؤون العسكرية والهندسية .

ففي سنة 1175 / 1761 توجه الحاج الخياط عديل من وجهاء فاس لعقد صلات المودة باسم العاهل المغربي مع السلطان مصطفى الثالث[82] .

وفي 1179 / 1765 أرسل الفقيهين الكاتبين الطاهر بن عبد السلام من سلا ، والطاهر بناني من الرباط محملين بهدية من المصنوعات الفنية النفيسة (سروج مذهبة بالأحجار الكريمة وأسياف محلاة كذلك ، مع خيل) . وعاد المبعوثان بباخرة تحمل مدافع ومهارس وباروداً وذخيرة حربية[83] .

وفي 1180 / 1766 وجه السلطان عبد الكريم راغون التطواني معزياً في كارثة الأسطول التركي على يد الروس بتشيْسمَه . وكانت عودة السفير سنة 1181 / 1767 ، وقد صحبته بعثة تركية لبناء السفن وصنع القذائف وتعليم الرماية ، وكان عددهم ثلاثين وزعوا بين الرباط وفاس والعرائش وتطوان[84] .

وكانت للعاهل المغربي صلات خاصة مع أمراء البقاع المقدسة ، حتَّى إنه حرص على تزويج إحدَى كرائمه سنة 1182 / 1768 من الشريف سرور وجهزها بمال

---

(81) أحمد دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، 2 ، 249 ، 252
De l'Andelyn, Hist. universelle, pp.427 et 432

(82) مقدمة الفتوحات الإلهية . *De l'Andelyn, Op. Cit, p.432*

(83) مقدمة الفتوحات الالهية للسلطان محمد بن عبد الله . اكنسوس ، جيش ، ص 146 .

(84) أكنسوس ، ص 146 ــ 147 . مقدمة الفتوحات الالهية . 432
داود ، مختصر ، ص 97 .

طائل وأهدَى في نفس الوقت هدايا لولاة مصر وطرابلس والشام وقدم أموالا وعطايا كثيرة لأهل الحرمين والفقهاء والأشراف ، واستقبل موكب كريمة السلطان في حفل كبير[85] .

وبعد وفاة السلطان مصطفَى الثالث ازدادت العلاقة متانة مع خلفه عبد الحميد الأول الذي تولى سنة 1186 / 1772 ، فبعث العاهل المغربي بوفد لتهنئة الخليفة الجديد ، ثم أرسل إليه بمال كان قد خصصه لفداء الأسرَى بإيطاليا ولكن الصفقة لم تتم[86] . ودعا السلطان محمد بن عبد الله للخليفة العثماني سنة 1197 / 1782 أثناء خطبة عيد الأضحَى بثنية الكلاوي[87] .

وتولى السفارة باسم المغرب سنة 1201 / 1786 الكاتب ابن عثمان الذي صحب معه هدية إلى السلطان عبد الحميد ، ثم توجه أبو القاسم الزياني بهدية ثمينة أيضا لهذا السلطان ، واشترى من اسطمبول جملة من الكتب أوصاه سيدي محمد ابن عبد الله بجلبها[88] . وخلال مقام الزياني في ضيافة عبد الحميد عبرت الحكومة التركية عن رغبتها في الحصول على قرض من المغرب ، لمجابهة الحرب ضد الروس ، وقد قام العاهل المغربي بتوجيه أربعة صناديق من سبائك الذهب عن طريق إسبانيا وفرنسا ، ثم بأموال إضافية وأحمال متتالية من البارود وملح البارود ، ثم ثمان بواخر حربية ، وأخيرا قرضا هاما[89] .

واستقبل العاهل المغربي سنة 1201 / 1786 مبعوثا عن السلطان عبد الحميد ومعه 20 من الأتراك . وكان استقبالهم رسميا بمراكش ، ثم عادوا من طريق البحر مرورا بالصويرة في أوائل السنة التالية .

وفي 1203 / 1788 بعث المغرب بمساعدة أخرى من أربع سفن بعد تشحيمها بالعرائش ، وكان ربابنتها من الرباط وسلا ، وهم محمد السبيع ومحمد العنق

---

(85) مقدمة الفتوحات الإلهية

(86) ن . م .

(87) ن . م . وأشار داود في مختصر تاريخ تطوان ص 98 — 99 إلى سفارة سنة 1196هـ

(88) ن . م . زياني ، الترجمانة الكبرَى ، ص 119 — 126 . أكنسوس ، ص 171 . محمد الفاسي ، مجلة تطوان 1960 ، ص 17 — 21

(89) زياني ، م . س . ص 132 . محمد الفاسي ، مجلة تطوان 1960 ، ص 21 — 22

ويوسف الطرابلسي ورايس التركي ، وتوجهت هذه السفن من سلا بإشراف الخبير الحاج مكي بركاش[90] .

وإن تتبع مقادير المساعدات المغربية للدولة العثمانية ، لاسيما السفن والتجهيزات الحربية يؤكد مدى التضحيات التي كان يقدمها المغرب في ظروف كان أحوج إلى المساعدة من غيره في الميدان العسكري ، غير أن المغرب كان ينظر في الخلافة العثمانية رمزا للوحدة الإسلامية بعيدا عن أغراض سياسية خاصة .

ب) العلاقات مع الغرب

حاولت الدول الأوروبية أن تفرض وجودها السياسي والاقتصادي على المغرب بطرق لا تحترم سيادة البلاد ، منذ عهد انحطاط الدولة السعدية ، ولقد تمت تنازلات متوالية من المغرب في هذا العهد ثم تتابعت من غير أن يفطن المخزن إلى خطورتها وعدم تكافئها مع ما استفاده المغرب من المعاهدات المتبادلة ، ومنها على سبيل المثال :

1 ــ معاهدة سلم بين الوليد السعدي ولويس الثالث عشر الفرنسي بتاريخ 17 شتنبر 1631م . وتنص في الفصل الثامن منها على السماح لفرنسا بإنشاء قنصليات في كل الموانئ المغربية التي ترغب فيها ، وينص الفصل 15 على أن السفن المسيحية الأجنبية التي تحمل راية فرنسية لها نفس حقوق التعامل التي للسفن الفرنسية[91] .

2 ــ معاهدة سلم بين المغرب وفرنسا أمضاها مولاي إسماعيل ولويس الرابع عشر في 29 يناير 1982م . ويلتزم المغرب فيها (فصل 5) بحماية السفن الفرنسية التي ترسو بموانئ المغرب ، ويرد بالقوة حتّى على السفن القادمة من الجزائر أو تونس . والتي تقصد الاعتداء على السفن الفرنسية ، ويلتزم باحتجاز السفن المعادية حتّى تبتعد السفن الفرنسية بحيث لا يمكن مطاردتها من قبل هذه السفن المعادية لها[92] . وتعني بعض بنود هذه المعاهدة ، بما فيها هذا الفصل ، أن علاقة المغرب مع أتراك

---

(90) ضعيف ، ص 208 ــ 209

(91) *Allal El-Fâsî, Livre rouge, pp.151-152*

(92) *Op. Cit, p.154*

الشمال الإفريقي والتي سبق الحديث عنها بالنسبة للعهد الإسماعيلي كانت من التوتر إلى الحد الذي جعل المغرب يقف في صف دولة معادية للأتراك. لكن الأمور تغيرت تماما في عهد سيدي محمد بن عبد الله.

3 ـــ المعاهدة المغربية السويدية في 16 مايو 1763م وتعطي للسويد الحق في تعيين ما شاءت من القناصل وتختار السماسرة (أي الوسطاء التجاريين) حسب رغبتها، وتسقط الضرائب عن مستخدميها ماعدا الجزية. كما أن السلطة القنصلية بناء على البند 21 تتولى محاكمة الجناة من رعاياها في ظرف ستة أشهر، فإن تجاوزت المدة يتولى محاكمتهم العاهل المغربي[93].

4 ـــ المعاهدة المغربية الفرنسية في 28 مايو 1767 وهي تسقط التكاليف الضرائبية مطلقاً عن موظفي القنصلية وسماسرتها، وتضع القناصل الفرنسيين في مرتبة الأولوية بالنسبة لنظرائهم. «ولهم أيضا أن يذهبوا حيث شاءوا من إيالة سيدنا نصره الله برا وبحرا، من غير مانع أيضا»[94]. ولا يتدخل القاضي في النزاع بين فرنسي و«مسلم» بل يرفع أمرهما إلى السلطان والعامل.

5 ـــ معاهدة المغرب مع الدانمارك في 25 يوليوز 1767. وشروطها في الجملة تشبه شروط المعاهدات السابقة مع دول أخرى.

6 ـــ معاهدة المغرب مع البرتغال في 27 نونبر 1773، وهي نسبياً أقل تنازلات لصالح البرتغال، وإن كانت تعطي البرتغال حق التصدير والاستيراد مطلقا وحق استقرار التجار بأي ميناء مغربي (شرط 13). والنزاعات بين المسلمين والبرتغال يفصل فيها القاضي بحضور الوالي الإداري، والخصومات بين البرتغال يفصل فيها القنصل[95].

ويتضح أن الدول الأوروبية بدأت تبسط ما يسمى بالحماية الأجنبية انطلاقا من

---

(93) عبد الوهاب بنمنصور، مجموعة الوثائق، ج 4، ص 125ـ 128

(94) ن. م. ص 129ـ 130. مجهول: كناش شروط الأجناس، م. خ. ع. د 1694

(95) ن. م. ص 137ـ 138. وللأستاذ بنمنصور دراسة جيدة عن الحماية في هذه المجموعة، ونشرت مستقلة أيضا (وانظر المصادر التي ذكرها مجموعة الوثائق ج 4، ص 117ـ 121)

حماية رعاياها أولاً ومحاكمتهم دون تدخل السلطة الوطنية ، ثم شملت بحمايتها مستخدميها المغاربة وسماسرتها . وكانت المعاهدات المذكورة كلها مقدمة فقط ، مع خطورتها ، لما سيأتي بعدها من معاهدات مشينة امتدت الحماية القنصلية بموجبها إلى أعداد كبيرة من المواطنين وأصبحت أنواعا أو فآت :

- فئة المحميين ويشملون الكتاب والتراجم والأعوان بالقنصليات من المغاربة .
- السماسرة أي الوسطاء التجاريون بين المغاربة والأجانب
- المخالطون وهم الشركاء والاجراء في الشؤون الزراعية .

وكل هذه الفآت تحتفظ بجنسيتها المغربية ، وهناك فئة المتجنسين الذين اتخذوا جنسية أجنبية وتخلّوا عن الجنسية الأصلية ، وهم يعاملون كأجانب مع تمتعهم بنفس الامتيازات[96] .

لقد كان المستفيد الأول من الانفتاح ، هو الطرف الفرنسي الذي لم يعد له ممثل مقيم بالمغرب من سنة 1718م حتَّى 1767 . والواقع أن أحداث الهجوم الفرنسي على سلا سنة 1178 / 1764 وعلى العرائش في أوائل 1765م ، جعلت المغرب بالرغم من إعادة النظر في التجهيزات الدفاعية لهذين الميناءين[97] يعمل على اختيار السلم طريقاً للتعامل مع طرف يلجأ إلى استعمال القوة مع عدم تكافؤ الجانبين ، ولذلك بدأت مفاوضات سنة 1179 / 1765 عن طريق علي مارسيل الرباطي الذي تولى حيازة تعويضات فداء الأسرَى الفرنسيين مع الحصول على التجهيزات التقنية للسفن[98] . وأخيرا تم عقد معاهدة آخر ذي الحجة 1180 / 28 ماي 1767 والتي سبق ذكر بعض بنودها[99] . وكان التوصل إليها من الجانب الفرنسي على يد الكونت دوبرونيون *(Comte de Breugnon)* سفير لويس الخامس عشر[100] ، وهي تؤكد العمل بالمعاهدة التي انعقدت بين مولاي إسماعيل ولويس الرابع عشر ثم جمدت لتجدد وتنقح سنة 1767م . وينص البند العاشر منها على

---

(96) بنمنصور ، م . س . ص 8 . وانظر أيضا : بنشنهو ، البيان المطرب ، ص 43

(97) أكنسوس ، ص 146

(98) ناصري ، 8 ، 25

(99) نصها الكامل في مجموعة الوثائق ، 1 ، 432 . رقم الوثيقة 135

(100) *Hœfer, Empire du Maroc, p.286*

أن فرنسا لا تلتزم بتقديم أسلحة إلى المغرب ، أي أن الأسلحة لا تصدرها السفن الفرنسية إلى المغرب .

وتضمن الاتفاق المغربي الفرنسي وضع صيغة لجواز البحر بالنسبة لسفن البلدين ، وتكفل القناصل الفرنسيون بتأشير الجواز لرعايا البلدين معا .

وكان من أهم الأحداث التي تعد سبقاً عجيباً في سياسة المغرب الدولية ، اتفاق الملكين سيدي محمد بن عبد الله ولويس السادس عشر سنة 1777م على إلغاء الرق بين المسلمين والمسيحيين[101] ، وبالطبع فإن هذا لا يطبق إلا على رعايا البلدين ومن شملاه برعايتهما من الأرقاء ، وذهب العاهل المغربي بعيدا في ربط علاقات المودة مع الدولة الفرنسية إلى حد أن هذه زودته بفرقة من المتطوعين الفرنسيين للعمل كحامية لمدينة الصويرة منذ سنة 1784م[102] . وكان المهندس الذي وضع تصميم هذه المدينة فرنسيا كذلك .

أما مع الدانمارك فإن المعاهدات التي انعقدت في عهد مولاي عبد الله وخلف حتَّى 1757م[103] أعيد النظر فيها سنة 1180 / 1766 – 1767 بحيث تنص المعاهدة الجديدة على سحب احتكار تجارة الموانئ من الدانمارك والسماح للتجار الدانمارك بممارسة نشاطهم بكيفية حرة على أن تدفع دولتهم للمغرب سنويا خمسة وعشرين مدفعا مع تجهيزات أخرى ومبلغ ستة آلاف وخمسمائة ريال[104] .

ولم تكن العلاقات مع انجلترا طيبة في أواخر أيام سيدي محمد بن عبد الله ذلك أن العاهل المغربي لم يجد تجاوباً كافيا من السلطات البريطانية لمساعدته على إيصال البواخر المهداة منه إلى القسطنطينية ، وأدَّى الأمر إلى أنه وجه خطابا في تاسع مايو 1788م أي قبل وفاته بسنتين إلى قناصل الدول الأوروبية بطنجة يهددهم بإشهار الحرب على دولهم إذا قدموا أية مساعدة لجبل طارق الذي كان يتزود بالكثير من ضرورياته من المغرب ، وذلك لرفض السلطات البريطانية تزويد المغرب بطاقم يتولى قيادة باخرتين حربيتين إلى القسطنطينية[105] . وهذا هو ما يفسر بجلاء مبادرة

---

(101) *Hœfer, Op. Cit, pp.369 et 287*

(102) *Op. Cit, p.369* ، وانظر عن العلاقات مع فرنسا لهذا العصر :
Pierre Grillon, in Hespéris, 1963

(104) انظر ما يتعلق بالجانب المالي والاقتصادي من هذا الفصل

(104) استقصا ، 8 ، 32 – 33

(105) *Hœfer, Op. Cit, p.370*

العاهل المغربي إلى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الامريكية كانتقام دبلوماسي من بريطانيا . وهكذا فإن العلاقات ركدت مع هذه الدولة أكثر من سنتين وإلى ما بعد وفاة العاهل المغربي ، وكانت هناك معاهدة تنظم العلاقات بين البلدين تم عقدها سنة 1760 .

أما مع إسبانيا فقد اختلفت العلاقات حسب الظروف . وارتكزت في أكثر الأحوال على عمليات تبادل ومفاداة الأسرَى ، وهم عادة ، الذين يؤسرون في عمليات اعتراض السفن التي تقع في عرض البحر من الجانب المسيحي أو الإسلامي . وكان المغرب يعمل على فداء أسرَى الشعوب الإسلامية من غير تمييز بين أقطارها . وهكذا بعث السلطان محمد بن عبد الله سفارة برئاسة الكاتب أحمد الغزال سنة 1179 / 1765 إلى مدريد ، فعمل على افتداء حوالي ثلاثمائة وأحصَى الباقين كما وزع عليهم مساعدات ملكية[106] .

وبعد ذلك ، انعقدت معاهدة في 28 مايو 1767 نصت على رفض السلطان السماح للاسبان بإقامة مركز صيد على وادي نون بحجة عدم ضمان المغرب لحماية الاسبان من غارات السكان الرحل ، وبالمقابل سمح للاسبان بالصيد في سواحل المغرب الأطلسية حتَّى أكادير جنوباً[107] ، على أن يستغل الاسبان وحدهم هذا الحق .

وفي 1182 / 1768 كان جميع الأسرَى المغاربة بإسبانيا قد تم تحريرهم ولم يبق بها إلا أسرَى الجزائر ، كما أخبر بذلك شارل الثالث نظيره المغربي ، وكان شارل هذا من أعاظم الملوك المصلحين بإسبانيا (ت ــ 1788م) ، وحينئذ ، تولى الغزال باسم المغرب ، وبتدخل من السلطان لدى السلطات الجزائرية والإسبانية ، مفاداة ألف وستمائة أسير من أهل الجزائر بما يقابلها من أسرَى الاسبان بالجزائر[108] . وقد تناول الغزال مختلف سفاراته في مذكرته : «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» .

ثم تكررت عمليات مفاداة الأسرَى بعد هذا التاريخ ، حيث نرَى الكاتب ابن

(106) مقدمة الفتوحات الإلهية ، استقصا ، 8 ، 23 . الغزال ، نتيجة الاجتهاد ، ص 14 وما بعدها

(107) *Allal El-Fassi, Livre rouge, p.213*

(108) أكنسوس، جيش، ص 149. مقدمة الفتوحات الالهية. استقصا، 8، 38

عثمان يتولى المفاوضة باسم المغرب سنة 1193 / 1779 لتحرير الأسرَى ، مثلما قام بمهمة مماثلة لدَى سلطات مالطة ونابولي بإيطاليا سنة 1195 / 1780 – 1781[109] ، وكان بإيطاليا أعداد كبيرة من أسرَى المغاربة (على نطاق المغرب الإسلامي)[110] .

ومن أهم الأحداث في العلاقات المغربية الإسبانية لهذا العهد عقد اتفاق الصداقة والتجارة في 30 مايو 1780م[111] . وبموجبه تمكنت شركة كامباناريسو الإسبانية من تنشيط التجارة والتبادل مع المغرب عن طريق فرعها بالدار البيضاء[112] .

وفي 1199 / 1784 تعرضت إحدَى أميرات البلاط الإسباني للأسر وهي في طريقها إلى نابولي ، على يد سفن الجزائر ، فتدخل البلاط الإسباني لدَى العاهل المغربي للإفراج عنها ، وقام العاهل بمفاوضة السلطات الحاكمة بالجزائر ، فامتنعت بتاتاً من الاستجابة لتوسطه . وعندئذ ، كاتب السلطان عبد الحميد الذي وقف موقفاً حازماً لدَى سلطات الجزائر ، مذكراً إياها بجهود السلطان المغربي في فداء الأسرَى من الترك . وعندئذ أفرجت عن الأميرة وقدمت اعتذاراتها إلى العاهل المغربي[113] .

ولا يعرف على التحقيق عدد الأسرَى الذين افتكهم السلطان محمد بن عبد الله ، فهو يتراوح بين بضعة آلاف وخمسين ألفا حسب التقديرات ، وعند المشرفي أنه افتك سنة 1200 حوالي 48 ألفا من المغرب وغيره[114] .

ويمكن القول إن علاقات المغرب مع إسبانيا ظلت حسنة في أغلب أيام السلطان محمد بن عبد الله ، بالرغم من المواجهات والمناوشات الحربية حول سبتة ومليلية

---

(109) مقدمة الفتوحات ؛ محمد الفاسي ، مجلة تطوان 1960

(110) انظر بهذا الشأن مقالا ترجم عن الإيطالية لسلفاتور بونو ، مجلة الأصالة ، ع 7 ، 1392 / 1972 ص 113 – الجزائر

(111) *El-Fassi, Op. Cit.*

(112) بالاو ، مجلة تطوان ، 58 – 1959 ، ص 113

(113) زياني ، بستان ، ص 142 – 143 . أكنسوس ، ص 170

(114) مقدمة الفتوحات . المشرفي ، الحلل البهية ، ص 165

أحيانا ، ومن غير شك ، فإن المحافظة على علاقات طيبة وتمتينها باتفاقيات التعاون ، تعود بالدرجة الأولى إلى الحكمة التي برهن عنها المتفاوضون من الجانبين ، وإلى وجود تماثل في بعد النظر لدَى العاهلين معاً ، المغربي والإسباني[115] .

وكانت النمسا أقل حظا من الوفاق مع المغرب بوجه عام ، نظراً لمواقفها تجاه الامبراطورية العثمانية ، مثلما وقفت مواقف عدائية تجاه المغرب بعد فترة الانفتاح هاته . وهكذا فبعد أن عقدت معاهدة تجارة وسلم مع المغرب سنة 1784م مع الأمبراطور يوسف الثاني ، ووضعت النمسا بموجبه على قدم المساواة مع دول أوروبية أخرى ، ساءت العلاقة من جديد بعد أن طلب السلطان عبد الحميد الأول العثماني سنة 1787م مساعدة مادية من المغرب لمجابهة الروس والأطراف الأوروبية المعادية خصوصا النمسا ، وحينئذ ، اتخذ المغرب إجراءات ضد السفن التجارية النمساوية والروسية[116] .

أما الولايات المتحدة فظلت مصالحها وعلاقاتها خاضعة للإشراف البريطاني المباشر حتَّى 1190 / 1776 عندما أعلن استقلالها في رابع يوليوز من السنة نفسها ، وحتَّى هذا التاريخ كانت تجارة الولايات المتحدة مع دول البحر المتوسط ذات أهمية ، وكانت أهم صادراتها القمح والأرز والسمك المجفف . وقد نصت معاهدة 6 فبراير 1778 بين فرنسا والولايات المتحدة على أن تعمل فرنسا من جانبها على السعْي لدَى العاهل المغربي من أجل توثيق العلاقات بين المغرب والولايات المتحدة . ونصح الوزير الفرنسي فيرجينّ الولايات المتحدة بإجراء مفاوضات لعقد اتفاق بينها وبين المغرب بواسطة الطرف الفرنسي ، وكان المغرب من أوائل الدول التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة التي حصلت أيضا على تطمينات من إسبانيا وهولندا بشأن مساندتها لدَى أقطار المغرب الكبير حتَّى تضمن عدم مهاجمة مجاهدي البحر لسفنها كما تضمن أمن رعاياها وتجارتها في هذه البلاد .

على أن الولايات المتحدة لم تعمل بالعروض الأوروبية لعقد اتفاق ترضخ

---

(115) *Hœfer, pp. 288, 370*

(116) يراجع بشأن العلاقات بين العاهلين :

— *Vicente Rodriguez Casado : Política marroqui de Carlos III, Madrid, 1946.*

— *Ramôn Lourido Dîaz : El Sultanato de Sidi Muhammad B, Abd Allah, Universidad de Granada, 1970*

الولايات بموجبه لأداء تعويضات مقابل حماية أمن سفنها من اعتراض السفن الجهادية ، واعتبرت هذه التعويضات جزية حقيقية . إلا أن بعض المبادرات الشخصية بدأت تعرض وساطتها ، أحدها تاجر فرنسي بالرباط اسمه كايّ Caille الذي كتب إلى بنجامن فرانكلن ممثل الولايات المتحدة بفرنسا يحيطه علما برغبته في التوسط لدَى العاهل المغربي لصالح الولايات المتحدة ، وكان ذلك في 1778م ، والثاني روبيرت مونتكومري تاجر أمريكي بأليكانطي ، والثالث جيوكومو كروكو إيطالي يقطن بالمغرب، وقد كتب إلى السفير الأمريكي بفرنسا يخبره بأنه قد اتصل فعلا بالسلطان وعرض عليه عقد معاهدة سلم مع الولايات المتحدة وأن العاهل قبل العرض . وأخيرا وقع حادث اعتراض سفينة أمريكية من لدن المجاهدين المغاربة الذين اقتادوها إلى طنجة في أكتوبر 1784م ، فتدخلت الولايات المتحدة لدَى فرنسا وإسبانيا لتسوية المشكل بالطرق الدبلوماسية ، وتم الإفراج عن السفينة وركابها وانعقدت أول معاهدة سلم وتجارة بين البلدين في 16 يوليوز 1786م ، وعوضت الجزية التي كانت تخشاها الولايات المتحدة ، بهدايا ذات قيمة قدرت بعشرة آلاف دولار، وكان ممثل الطرف الامريكي في عقد الصلح هو طوماس باركلي الذي تمكن من الوصول إلى هذا العقد بعد شهر من المفاوضات ، واعتبر هذا أجلاً قياسياً بالنسبة للدبلوماسية المغربية . وبنود العقد شبيهة بمعاهدات أخرى مع دول أوروبية ، بما في ذلك تزويد السفن الامريكية بالمؤن والضروريات من موانئ المغرب وبالعكس ، وحماية سفن ورعايا الطرفين ومحاكمة الرعايا الامريكيين في نزاعاتهم الخاصة لدَى قنصلياتهم ، والبت في النزاعات بين مغاربة وأمريكيين بحضور قنصل .. الخ . وكل البنود تنص مبدئيا على تساوي الطرفين أي تعاملهما بالمثل . ولأول مرة لا تنص معاهدة افريقية مع دولة غربية ، على أداء جزية ، بل اعتبر الامريكيون أن المعاهدة كانت أكثر تسامحاً بالنسبة لما عقد مع تونس والجزائر .

ولما كان أجل هذه المعاهدة قد حدد بخمسين عاما ، وأن وفاة السلطان محمد بن عبد الله قد وقعت سنة 1790 ، فإن المعاهدة لم تعمر أكثر من خمس سنوات ، ولزم الانتظار إلى ما بعد تنصيب مولاي سليمان أي إلى سنة 1795 للحصول على مصادقته ، نظرا لسوء الأوضاع الداخلية فيما بين وفاة محمد بن عبد الله وتنصيب مولاي سليمان ، وتولى القنصل الامريكي بجبل طارق ، السيد سيمبسون إجراء

المفاوضات بشأنها حتّى وقعت المصادقة عليها دون تبديل ، وقد نقل هذا القنصل فيما بعد إلى طنجة للقيام بنفس المهمة[117] .

وعاصر السلطان محمد الثالث أول رئيس للولايات المتحدة جورج واشنطن الذي تولى من سنة 1789 ـ 1796م .

وفاة السلطان محمد بن عبد الله

على إثر التجاء الأمير يزيد بن السلطان سيدي محمد إلى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش خرج والده من مراكش وقد بدأه المرض ، قاصداً الضريح المذكور ، في محاولة لتأكيد عفوه عنه ، لكن المرض اشتد به في الطريق فأدركته المنية في خامس وعشري رجب 1204 / 11 أبريل 1790 بين وادي يكم والشراط في طريق الدار البيضاء ـ الرباط ، ثم دفن بالرباط[118] ، وروى الضعيف أن أحد وزرائه وضع يده على ما كان معه من مال فأخفاه عند بعض أهل الرباط ، وأن المسمى محمد بن عياد الدغمي من حاشية العاهل الراحل نزع خاتمه من يده وهرب إلى قبيلته (الدغمة)[119] .

إن فترة ثلث قرن التي تعادل حكم محمد الثالث من أمجد العهود خلال القرنين 18 و19 ، بل إن المغرب لم يشهد مثلها في هذه الحقبة حتّى إقرار الحماية الفرنسية ، فبعد وفاة محمد الثالث ، تغيرت أوضاع وجَدَّت أخرى :

1 ـ إعلان وقف «القرصنة» ومنعها على الصعيد الدولي
2 ـ احتلال الجيش الفرنسي للجزائر واختلاق مشاكل الحدود
3 ـ ثورة عبد القادر الجزائري وذيولها بالنسبة للمغرب

---

(117) *Hœfer, Op. Cit, p.289 : Roland Lebel, Les premières relations entre les Etats-Unis et le Maroc in : Bulletin de l'enseignement. n°161/1983 Rabat.*
J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 118

وانظر نص المعاهدة في مجلة تطوان 58 ـ 1959م . مع تقديم للأستاذ م. بن تاويت ، وقد كتبت المعاهدة بمراكش في 25 شعبان 1200هـ .

(118) ناصري . استقصا . ص 65 . ضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، ص 218

(119) ضعيف ، م . س . ن . ص

4 ـ تفاحش امتيازات الحماية الأجنبية بعد حرب تطوان
5 ـ تدويل القضية المغربية / وأخيرا إقرار الحماية الفرنسية

وكانت الهفوات التي ارتكبت في توسيع امتيازات الدول الأوروبية من جهة ، والتمادي في عمليات الجهاد البحري بعيداً عن تفهم الأوضاع الدولية من حيث تطوراتها العسكرية والسياسية التي تؤثر مباشرة أو على المدَى البعيد في مصير السيادة الوطنية ، أهم البذور التي أتاحت للمطامع الأجنبية ، أن تنال من سيادة المغرب وتغتصب أمواله وترابه تدريجياً وبطرق مختلفة .

غير أن مرحلة الانفتاح هاته برهنت عن مرونة واسعة في سياسة المخزن ، بقدر ما كانت هذه المرحلة أيضا ، عهد بناء وإصلاح داخلي شمل عدة مجالات ، ورفع المغرب صوته عاليا في سماء العلاقات الدولية ، ولاسيما بتأييده ودعمه للعثمانيين في رد اعتداءات الدول المناهضة ، وكان أول دولة إسلامية أعلنت إلغاء الرق مبدئيا ، وأثرت هذه المرحلة تأثيرا عميقا في الاتجاهات الفكرية والدينية لفترة طويلة[120] .

(120) تراجع الأعمال العمرانية والدينية والفكرية أو تتمم بما تضمنته الفصول اللاحقة التي تعالج هذه الأعمال وغيرها على نطاق عام .

الفصل الخامس
التكتلات الإقليمية ومراجعة الموقف المغربي تجاه أوروبا

1204 - 1238 (1790 - 1822)
مولاي اليزيد ومولاي سليمان

بعد وفاة محمد بن عبد الله نشأت أزمة عرش جديدة بين الأمير هشام وأخيه مولاي اليزيد الذي نصب ملكاً، وذلك قبل أن تندلع أزمة الأطلس الثالثة في عهد مولاي سليمان[1]. إلاَّ أن أزمة العرش المذكورة لم تطل، لأنها انتهت بموت الأخوين في وقت متقارب، وكيفما كان الأمر، فتنصيب اليزيد يفتح عهداً جديداً يختلف في جل مظاهره عن العهد السابق مباشرة.

اليزيد قبل الملك[2]

كان اليزيد من أنجال محمد بن عبد الله ومن أم أوروبية. ولكن يظهر أنه لم يتلق في حداثته ثقافة واسعة، وبالمقابل كان ذا ميل شديد إلى الفنون العسكرية التي خبرها وأظهر فيها استعدادا كبيرا على حداثته. وكان يحترم علماء الدين والأشراف، وهو إلى ذلك ذو روح وطنية متشبعة بكراهة الاحتلال الأجنبي والأمبريالية بصفة

---

(1) الأزمة الأولى «الرئيسية» بين 1088 ـ 1104 (1677 ـ 1692) في عهد مولاي إسماعيل، والثانية في عهد مولاي عبد الله.

(2) انظر بشأن هذه المرحلة: زياني، بستان، أكنسوس، ص 170 و178 ـ 181. ناصري، استقصا، ج 8. ماريانو أريباس بالاو: مجلة تطوان ـ ع 3 ـ 4 / 1958 ـ 1959 وقد ذكر جميع الصفحات الواردة في الاستقصا عن اليزيد، ولنفس الكاتب:

(Marino Arribas Palau)

Cartas arabes de Marruecos en tiempo de Mulay Yazíd, p.33.

Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 130.

عامة ، وقد اعتبر بعض المؤرخين والكتاب هذه الكراهية تعصباً دينياً ضد غير المسلمين ، والصحيح أن تهافت الدول الأوروبية على الاستفادة من أكثر ما يمكن من الامتيازات ، وتحركات العناصر اليهودية بعد الثورة الفرنسية واحتكارات هذه العناصر داخل المغرب للتجارة الوطنية الأساسية فضلا عن قسم كبير من التجارة الخارجية ، هو مما دفع اليزيد بعد توليته إلى إعلان عدائه بشكل سافر وغير دبلوماسي للمعادين للمصالح المغربية . وكان للمبعوثين الدبلوماسيين من الأسبان اليهود دور كبير في إثارة الانقسامات السياسية داخل المغرب .

ولقد كان اليزيد في حداثته قد ولاه والده شؤون قبيلة جروان ، فكان يخالط شبابا من بربر الأطلس زينوا له التمرد على سلطة والده والانقضاض على العرش على مشهد منه ، وذلك في الوقت الذي كان اليزيد يتمتع بثقته ويتولى قيادة الشؤون البحرية والعسكرية . وهكذا نشاهده على رأس القوات البحرية وقوات المدفعية التي تولت نقل المدافع سنة 1179 / 1765 من فاس إلى العرائش المحررة ، ولكن في سنة 1184 / 1770 جرد السلطان محمد بن عبد الله حملة ضد جروان التي حرضته على الثورة ؛ وفي 1189 / 1775 بايعه جيش البخاري ، فأدى ذلك إلى إجراءات تأديبية جماعية ضدهم ، وتدخل أشراف زرهون لدَى السلطان فأصدر عفوه عنه ووضعه تحت المراقبة ، وفي 1199 / 1784 بعثه إلى الحج ، لأن السلطان انشغل بتسوية أوضاع الأمن بتافيلالت ، فخشي أن يترك له المجال من خلفه ليثور من جديد ، وعندما كان عائداً أمره العاهل بالرجوع إلى البقاع المقدسة مرة أخرى سنة 1200 / 1785 . وبعد أداء فريضة الحج للمرة الثانية استقر بالقاهرة ، وكانت تصله أخبار المغرب وتطوراته السياسية عن طريق والدته ، ثم بعث العاهل هدايا كبرَى مالية وعينية إلى أمراء وحكام الأقطار الإسلامية بما فيها القائمون بشؤون الجزيرة العربية ، فتمكن اليزيد من الاستيلاء على بعضها دون أن يعرف هدفه من ذلك ، فتبرأ والده من تصرفاته وكتب بشأنه إلى حكام الأقطار الإسلامية . وكانت تصدر منه تصرفات طائشة في تنقلاته ، خصوصا تجاه حاشيته وخدمه وحتَّى تجاه الشخصيات الأوروبية الدبلوماسية بتونس وطرابلس الغرب التي استقر بها فترة أثناء منفاه . وفي أواخر 1203 / 1789 عاد إلى المغرب نهائيا ولجأ على التو إلى ضريح عبد السلام بن مشيش بجبل العلم شمال المغرب . وما أن أعلنت وفاة والده حتَّى بادر سكان المنطقة التي لجأ إليها لمبايعته في عين المكان .

وصف الضعيف اليزيد بأنه كان طويل القد حسن الصورة أقنَى الأنف كحل العينين ، بياضهما يميل إلى الصفرة ، واسم والدته شهرزاد ، وكان جواداً كريماً لا يبالي بالعطاء[3] ، وربما كان تبذيره من وراء تصرفاته الطائشة في حداثته والتي جعلته يقوم بعملية نهب الأموال العمومية غير ما مرة ليغدقها على أنصاره أو المتعاملين معه .

بويع اليزيد بيعة محلية في منطقة جبالة أواخر رجب 1204 / أبريل 1790 ثم انتقل إلى تطوان حتَّى تلقَّى بيعات أهلها ووفود طنجة والعرائش وسائر الشمال[4] . وأثناء ذلك استقدمه أهل سلا والرباط لمبايعته جماعياً ، وذلك بعد جدال طويل بشأن استخلافه ، خصوصاً وإن فريقاً من الجيش كان يخشَى بطشه ، وقبل أن يلتحق اليزيد بالرباط أطلق يد الجيش في ملاح تطوان فنهبوه واعتدوا على أعراض نسائه ، ثم أمر بنهب اليهود حيثما حلوا . وتسمى اليزيد عند بيعته بمحمد المهدي[5] ، ومن اختياره لهذا اللقب نستشف رغبته العميقة في نصرة القضية الإسلامية ، لكن عن طريق مواجهة عنيفة ضد غير المسلمين. على أن اليزيد لم يدَّع المهدوية كمذهب .

كذلك استقبل اليزيد بطنجة في 20 أبريل 1790 قناصل الدول الأوروبية بطنجة[6] ، وأعلن أمامهم أنه سيعلن الحرب على دولهم إذا لم يوفوا ببعض التزاماتهم ، ولكنه سرعان ما راسل عدداً من ملوك الدول الأوروبية يطلب إليها أن تبعث بسفراء لتجديد بنود الصلح التي وقع التوصل إليها في عهد سلفه[7] . ونراه يحاول أن يحافظ على علاقات حسنة مع إسبانيا مدة قبل أن يهاجم سبتة .

ثم تنقل م. اليزيد بين العرائش وزرهون ومكناسة ، وأثناء ذلك وردت عليه بيعات ووفود عدة مراكز ، بما في ذلك وفد آيت وامالو بزعامة امهاوش ، ومحمد

---

(3) ضعيف ، ص 223 .
(4) أكنسوس ، جيش ، ص 177 — 178
(5) ضعيف ، ص 220 — 223
(6) بالاو ، مجلة تطوان 58 — 1959 ، ص 111
(7) انظر على سبيل المثال مراسلة اليزيد إلى كارلوس الرابع :

Palau, Cartas arabes de Marruecos, p.94

ابن محمد واعزيز ومولاي سليمان أخو السلطان وممثل سكان سجلماسة ونواحيها، ووفد مراكش[8]، وخلال مقامه بمكناس نقل الاوديا إلى فاس الجديد، وعمل على إعادة تجميع عبيد البخاري بمكناس.

وكان هشام أخو اليزيد مناهضا لبيعته ، فدعا لنفسه ، ثم بعد أخذ ورد أمَّنه وأنعم عليه بأموال طائلة[9] ، ولكن ذلك لم يمنع من اندلاع حرب أهلية في النهاية بين أنصار الفريقين اذكاها على الخصوص بعض الزعماء الشعبيين الموالين لهشام .

كذلك نشأت مواجهة مسلحة بين عرب الصباح والشاوية منشؤها الغارات المتبادلة والهجوم على الممتلكات ، وكانت أعنف المواجهات بمشرع بمنصور قرب سلا ، ثم دخلت في هذه الحرب المحلية قبائل أخرى عربية وبربرية إلى أن تدخل السلطان ، فأمر بنهب الصباح بين سبو وبهت حتّى ألجأهم إلى مناطق زمور الأطلس وزعير ، بعد مذبحة رهيبة[10] .

والواقع أن الشاوية الذين بدأوا يلحظون عن كثب ، نمو الاحتكارات الأجنبية بالدار البيضاء ، أعلنوا هجوما مباشرا على المدينة التي كان على الشركة الإسبانية كامباناريسو بالدار البيضاء أن تتولى الدفاع عنها باسم المخزن ، وتلقى نائب القنصل الإسباني بالبيضاء من السلطان خطاب تنويه ؛ كما حظي قنصل إسبانيا بطنجة بامتيازات تشريفية[11] . وكانت هذه الأحداث مباشرة بعد إعلان وفاة العاهل الراحل محمد الثالث . على أن تحسن العلاقات مع ممثلي الدول الأجنبية بعد أيام قليلة من الاستقبال الجاف الذي خصص لهم لم يتطلب أكثر من تراجع تلقائي من العاهل . وخص مولاي اليزيد الممثلين الدبلوماسيين لإسبانيا بعناية فائقة ، كما أغدق الهدايا على كارلوس الرابع ، وكان شديد الحرص على تسوية مشكل سبتة بالطرق السلمية كما بدا ذلك واضحا في رغبته في إجراء مفاوضات رسمية في خطاب إلى قنصل إسبانيا بالدار البيضاء وجه باسم العاهل في 11 رمضان 1204 / 25 مايو 1790[12] ، كما طلب تعيين مبعوث إسباني بدرجة سفير ، واقترح تعيين شخص

---

(8) انظر نص بيعة أهل مراكش ، عند الناصري ، استقصا ، 8 ، 76

(9) ضعيف ، ص 232

(10) ن . م . ص 232 ، و246

(11) يالاو ، مجلة تطوان ، 58 — 1959 . ص 126 — 127

(12) ن . م . ص 129

يهودي هو منويل سلمون «لما له من معرفة بالبربرية» و«لأنه أعرف الناس بالأمور»[13] . وفي الوقت الذي كان م. اليزيد مازال ينتظر وفد المملكة الإسبانية ، واصل تعاونه مع قناصلها بالمغرب ، وطلب من قنصل اسبانيا بالبيضاء أن يعمل على مده بأربعمائة قنطار من البارود[14] ، ثم تطورت الأمور بشكل مثير. فقد علم المخزن بتعيين السفير وقدومه على متن باخرة حربية إلى ميناء طنجة مصحوبا بالهدايا التقليدية إلى العاهل ، ولكن بدل أن ينزل السفير ليتم استقباله في حفل رسمي ، ظل في السفينة وأنزل جملة من الصناديق التي اكتشف فيما بعد أنها لا تحتوي إلا على خرق بالية ، وتعلل السفير بأنه ينتظر توجيهات من مدريد ، ثم تحركت الباخرة صوب مياه العرائش واستولت على سفينتين مغربيتين. وعندئذ كتب الأمير علي بن ادريس باسم السلطان اليزيد[15] الذي كان قلما يمضي خطاباته أو يوجهها باسمه إلى السلطان كارلوس الرابع مبديا اندهاشه من هذا التصرف ومتهما في نفس الوقت ، القنصل الاسباني بالدار البيضاء الذي اكتشف المخزن أخيرا قيامه (بالتعاون مع الوزير السابق قادوس وعامل طنجة عبد الملك) بوسق الزرع من غير ترخيص ولا أداء حقوق جمركية. وقد نفذ الإعدام في مجموعة من الأشخاص المتواطئين من بين المغاربة في هذه القضية ، لاسيما القائد عباس أحد كبار الضباط[16] . وفيما يتعلق بالسفينتين فقد اقتيدتا إلى الموانئ الإسبانية صحبة الباخرة التي أقلت السفير منويل سلمون الذي رافقه سائر الاسبان الذين كانوا يقطنون بطنجة[17] . وكان من الصدف أن احتجاز السفينتين تم على مرأى من م. اليزيد الذي كان بالعرائش ، وتتبع عملية القرصنة بمكبرته[18] .

وأغضب العاهل تصرف المبعوث الإسباني فأخذ يستعد لحصار سبتة والحصول على السلاح اللازم ، مواصلا جهوده الدبلوماسية أيضاً ، وهكذا أوفد السفير محمد بن عثمان إلى اسبانيا بطلب من كارلوس ، لكن ابن عثمان لم يحصل على طائل بشأن

(13) ن. م. ص 129
(14) ص 131
(15) ن. م. ص 133 — 134. والخطاب مؤرخ بـ 21 محرم 1205 / 30 شتنبر 1790
(16) *Hœfer, Empire du Maroc, p.371*
(17) بالاو. ص 117
(18) استقصا. 8. 81

عقد صلح بين الجانبين ، وأخيرا وجه السلطان تعليماته إلى ابن عثمان بنقل إنذار إلى الحكومة الإسبانية التي دعاها إلى إجلاء جيوشها وأسلحتها من التراب المغربي وتعويض المغرب ماليا بمليون بسيطة حتَّى يمكن قبول إجراء عقد الصلح ، وإلا أعلن الحرب على جيش الاحتلال . غير أن إنذار المغرب وصل متأخرا ، حيث وجه إلى حاكم سبتة بتاريخ 13 حجة 1205 الموافق لـ 13 غشت 1791[19]. وأعلن كارلوس الحرب في 19 غشت 1791 أي أن ما بين وصول الإنذار إلى حاكم سبتة وإلى الحكومة الاسبانية استغرق فترة تجاوزت تاريخ إعلان الحرب من الطرف الإسباني ، لكن المغرب كان أثناء ذلك وقبل ذلك يحشد الجيوش حول سبتة ، بما فيها المتطوعون من المدن والقرَى والجبال وحوالي 13 ألفا من جيش البخاري ، واستمر حصار المغرب 40 يوماً ، لكن القوات الإسبانية أطلقت النار على القوات المغربية مساء يوم إعلان الحرب من جانب إسبانيا .

وحضر مولاي اليزيد عملية الحصار بنفسه ، ثم ترك ابن عمه مولاي علي المشرف على الواجهة مكانه ، وعاد إلى العرائش ، فتمكن نصارَى سبتة من مخادعة مولاي علي ، حتَّى بدأ يدخل سبتة مرارا ، وأحاطوه بالحسان والمسكرات ، وأخذوا منه أسرار الدولة والعاهل والمجتمع المغربي[20] ، ثم تدخل اليزيد لمهاجمة سبتة فدمر الكثير من مواقعها ، وأبدَى المغاربة بسالة في مواجهة المقاومة الإسبانية ، وقام ضباط المدفعية بتوجيه ضربات المدافع نحو سفن العدو ، وأثناء ذلك اتسع نطاق فتنة الحوز بزعامة عبد الرحمن الناصر العبدي ، فاضطر اليزيد إلى مغادرة المكان أوائل 1206هـ[21] ثم وبخ ابن عمه المذكور ونهب أمواله . على أن العاهل ترك بالمنطقة محلة تتعاون معها عناصر أنجره وغيرها[22] . وتمكن هؤلاء من قتل عدد من حامية سبتة وسكانها ، ثم أغراهم اليزيد بإجراء مفاوضات مع حاكم سبتة بشأن تحديد الأرض على أن يغتالوه ، فاستدرجوه إلى خارج المدينة ، وقطعوا رأسه ثم قدموا به إلى السلطان بالعرائش[23] . على أن خطاباً رسمياً موجهاً إلى رئيس وزراء

---

(19) يالاو ، ص 118 ــ 119 . و 136

(20) الضعيف ، ص 252

(21) ن . م . ص 253 ــ 254

(22) ن . م . ص 255

(23) ن . م . ص 255 ــ 256

إسبانيا يتحدث عن ترجمان وليس عن حاكم[24] .

وعاد اليزيد إلى المفاوضات الدبلوماسية بعد أن تبين أن وسائل الهجوم وكفاءة الإطارات العسكرية أقل مما يلزم . وهكذا يظهر مولاي اليزيد أنه على أتم الاستعداد لتسهيل مقام السفير الإسباني في خطاب بـ 24 محرم 1206 / 23 شتنبر 1791 ، كما يخبر الملك كارلوس في خطاب آخر بأنه قد وجه تعليماته إلى السفير محمد بن عثمان بعقد الصلح مع الاسبان ، ويشكر العاهل الاسباني على تزويد اسبانيا للمخزن بتجهيزات للسفن[25] . والواقع أن إمداد اليزيد بهذه التجهيزات لم يكن إلا من قبيل تغطية المساعدات التي خصصتها الحكومة الإسبانية لثائر الحوز عبد الرحمان بن ناصر المخيزني الذي كان يعمل في الظاهر لحساب هشام .

وكان الاسبان غاضبين من تصرفات م. اليزيد التي كان من بينها قتل الوزير السابق في عهد السلطان محمد بن عبد الله ، وهو قادوس الذي هو من أصل إسباني وكان يحتفظ بأموال السلطان الراحل إلى أن أودعها لدَى الاسبان الذين رفضوا تسليمها إلى اليزيد وريثها الشرعي[26] . وحيث إن مولاي اليزيد كان حريصا على تحرير سبتة فقد فضل الاسبان أن يشغلوه بمواجهات داخلية مفتعلة ، فوجدوا في عبد الرحمان بن ناصر عامل آسفي وفي الأمير هشام أداتين لهذه المواجهات ، على أن يدعو هشام لنفسه ، وقامت إسبانيا بالتسليح الحربي لثورة الحوز (حوز مراكش) التي قادها الأمير ونصيره المذكور . وضمن التجهيزات التي وصلت إلى ثغر آسفي باخرتان حربيتان ، بواسطة القنصل انطونيو كونصاليص سلمون[27] .

على أن إسبانيا بدل أن تستجيب لروح التفاوض مع السلطة الشرعية ، استمرت في دعمها للثوار غير عابئة بنداءات اليزيد . وهكذا ففي سنة 1206 / 1792 تمت بيعة هشام بمراكش كما كان ضمن الجهات الموالية آسفي وزمور والرحامنة وسوس . وتوصل عبد الرحمن بأموال يداً بيد من ممثلي الحكومة الإسبانية ، وكان قادة الثورة يستغلون الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تجتازها هذه المناطق بسبب انعدام

(24) يالاو ، م . س . ص 145 ـ 146

(25) ن . م . ص 138 ـ 139

(26) ضعيف ، ص 240

(27) يالاو ، تطوان ، 58 ـ 1959 ص 140 ـ 141 . ضعيف ، ص 257

الأمن وغياب سلطة شرعية حكيمة تراعي أوضاع هذه الجهات . وفي آن واحد ، حاصر الاسبان طنجة بحراً ، فخرج أهلها الريفيون بنسائهم وأولادهم ، ودخل الشاوية في الثورة إلى جانب هشام ، بإغراء الأمير عبد السلام ، وحينئذ عمد اليزيد إلى الشاوية فحملهم بشدة بأسه على أن يساندوه بألف فارس ، ثم قصد مراكش فسدوا الأبواب دونه ، وكانوا قد استدعوه في أوائل حكمه للحضور إلى مراكش فلم يفعل ، وأساء بذلك ظنونهم ، ثم قام اليزيد بتفجير بعض أبواب البلد الذي اقتحمه على الفور فأمر المحلة بنهبه ، وقتل عدد كبير من السكان ، وهتكت الأعراض ونهب الملاح الذي أخذوا منه أربعمائة ألف مثقال نقدا دون الذهب والحلي والجواهر ، وأمر بخروج اليهود حفاة عراة ليسكنوا باب دكالة . ولا ريب أن دور القناصل اليهود الاسبان ودور السفير مانويل سلمون كان له تأثير في اتخاذ اليزيد لهذا الموقف من يهود مراكش ، ولا يبعد أن بعض عناصرهم كانت تزود العدو بكل المعلومات التي يطلبها ، علماً بأن آسفي أيضا كانت تقيم بها نسبة كبيرة من اليهود أيضا[28] .

كذلك قتل اليزيد عدداً كبيرا من أعيان مراكش الذين تواطئوا مع هشام ، ومنهم القاضي عبد العزيز بن حمزة المطاعي ؛ وهمَّ بقتل ابن عمه مولاي علي لخيانته ، ثم زحف هشام بجيش ضخم من 34 ألفا ، قادمين من الحوز ، ولم يكن مع اليزيد إلا بضعة آلاف ، فالتقَى الجيشان بتزكرت على ضفة وادي تانسيفت قرب مراكش ، وأبدَى اليزيد شجاعة عظيمة أذهلت المحاربين ، فقبض على 25 من التقنيين الاسبان من مساعدي هشام ، وأعدمهم كما أعدم عددا كبيرا من أنصار هشام ، وقام جيشه بتطويق جيش هشام من خلف ، فأحدث في صفوفه اضطرابا حقيقيا وتراجعت محلة هشام تاركة أعتدتها وأمتعتها ثم أعادت الكرة قاصدة اليزيد شخصيا فأصابته رصاصه بخده ، ولكنه تماسك حتَّى أتم عمليات تدمير الهجوم المعادي حتَّى اضطر هشام ونصيره المعروف بعبد الرحمن العبدي إلى الفرار نحو آسفي ، وبعد دخول اليزيد إلى مراكش وتصفية خصومه كما سبق ، توفي متأثرا بجراحه ، في 23 جمادى الثانية 1206 / 17 فبراير 1792[29] ، ودفن بقبور

(28) فيما يرجع إلى العلاقات المغربية الإسبانية في عهد اليزيد وكارلوس الثالث راجع لائحة مصادر : *Mariano Arribas* *Cartas arabes de Marruecos, 1961, Titwan*

(29) انظر حول مواجهة هشام لليزيد : الضعيف ، ص 259 — 272 . يالاو ، م . س . =

السعديين ، وإذا كان الضعيف يصور اليزيد كشخصية مناضلة ، والمشرفي يصوره متمسكا بمذاهب الفتوة والدين ، فإن أكنسوس يجعل من مهلكه رحمة للمومنين[30] . والحق أنه كان يجمع بين شدة البطش وشدة الغيرة على كرامة الإسلام والتراب الوطني تجاه الأطراف المعادية .

مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله
(1822 - 1792) 1238 - 1206
(تضعضع سلطة المخزن)

الانقسامات الداخلية وأزمة العرش

لم تسو أزمة المغرب الداخلية بمقتل مولاي اليزيد ، ولم ينعقد الإجماع على أخيه هشام الذي كان يعتقد خطأ أن سائر الأمراء والأقاليم ستهرع لبيعته بعد موت اليزيد الذي كان الجميع يخشَى بأسه ، وهكذا توزع ولاء الشعب بين الأمراء وبعض الزعماء المحليين[31] :

1 — مراكش والحوز مع هشام أخي اليزيد ، بمؤازرة عبد الرحمن بن ناصر العبدي عامل آسفي ومحمد الهاشمي بن العروسي الدكالي قائد تيط

2 — الهبط وثغور الشمال (العرائش ، طنجة ، تطوان) مع مسلمة أخي اليزيد ، وبعض الروايات تسميه «سلامة» وكان مسلمة خليفة بهذه المنطقة أيام اليزيد

3 — درعة وتافيلالت مع م. عبد الرحمن أخي اليزيد .

4 — فاس ومكناس والأطلس المتوسط مع مولاي سليمان الذي سانده أيضا الأوداية وجيش البخاري بمكناس .

= ص 139 — 141 أكنسوس جيش، ص 181 . ناصري ، استقصا ، 8 ، 82 .
Palau, Cartas, pp. 138-139
وتناول الضعيف ، ص 250 — 251 أسباب ثورة عبد الرحمان العبدي .

(30) انظر الضعيف ، والمشرفي — حلل ، ص 172 ، وأكنسوس ، ص 181

(31) الضعيف ، ص 296 ، و 309 . أكنسوس ، ص 181 — 182 . الناصري ، 8 ، 86 — 87 بالاو ، مجلة تطوان 1960 ص 175 . *Hœfer, p.372* داود . مختصر ، ص 106

5 ـ بعض قبائل البربر مع أحد الصلحاء : سيدي علي ويحيى .

فبالنسبة لمراكش والحوز . كانت المصالح الاقتصادية المتمثلة في شحن منتجات الحوز الزراعية إلى إسبانيا . بالإضافة إلى الطموحات السياسية الخفية التي كانت دافعاً لعبد الرحمان بن ناصر في تعامله مع الاسبان هي التي فرضت بيعة المنطقة لهشام . وبالنسبة لمولاي مسلمة فقد كان يحظَى أيضا بتأييد إسبانيا على قدم المساواة مع هشام[32] . ودرعة وتافيلالت انحرفت عن هشام بسبب تعامله مع العدو . كما أن هشاما تخلى عنه قسم من الحوز . ثم مراكش نفسها . مما اضطره إلى اللجوء مدة إلى آسفي ؛ وفضلت فاس ومكناس أن تبايع مولاي سليمان الذي كان بطبعه أقل إخوته ميلا إلى المغامرة الدموية من أجل كسب مزيد من الأنصار . غير أن الأحداث جرت خلافاً لهذا الاتجاه المسالم .

وكان مولاي مسلمة لاجئا بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش عند وفاة اليزيد ؛ ولكن ما أن بلغه نعي السلطان الراحل حتَّى حصل على بيعة طنجة وسائر المراكز التي كانت تحت نفوذه كخليفة ؛ ولما كان عدد من القناصل الرئيسيين يستقرون بطنجة ؛ فقد بذل كل الجهود للحصول بواسطتهم على اعتراف رسمي من دولهم . وطمأن القناصل مؤكدا رغبته في العودة بالعلاقات الطيبة إلى مثل ما كانت عليه أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله[33] . وحاول أن يحصل من إسبانيا على تأكيد كلي على حساب هشام الذي كان يظن أنه قتل هو أيضاً في الحرب مع اليزيد ؛ ولكن إسبانيا فضلت التريث ؛ وأكدت لحاكمها بسبتة ؛ السيد لويس دي أوربينا أنها لا تستطيع أن تستقبل أي سفير عن مسلمة ما لم يثبت لديها أنه يملك المغرب بكيفية سليمة[34] . وذهب مسلمة بعيدا في التسهيلات الجمركية وبعض الإغراءات الاقتصادية لجلب إسبانيا إلى جانبه دون أخيه هشام[35] . واحتفظ القناصل بعلاقات ودية مع الأمير الحائر وقدموا إليه هدايا تقليدية كتوقع لاحتمال بسط سلطته على البلاد .

---

(32) يالاو . م . س . ص 179
(33) يالاو . مجلة تطوان 1960 . ص 175 ـ 186
(34) ن . م . ص 180
(35) ن . م . ص 183 ـ 184

كذلك كان من الأعمال الأولى لمسلمة بعد وفاة مولاي اليزيد أن أمر بالقبض على أشعاش قائد تطوان الذي تمكن من اللجوء عند ذلك إلى ضريح عبد السلام ابن مشيش[36] . على أن مولاي مسلمة تعذر عليه الاستقرار بمكان واحد لوجود معارضين كثيرين . كما أمر بإلقاء القبض على القائد محمد بن محمد واعزيز المطيري وبقطع رأسه ، وقد أبَى القائد سعيد العياشي أن ينفذ الأمر ، وهم مسلمة بإعدام هذا القائد أيضاً فنفر منه كبراء الدولة . على أن محمد واعزيز ما لبث أن التحق بفاس محاولا إقناع الفقيه التاودي بن سودة بتنحية أبناء محمد بن عبد الله عن الملك . وأصر الفقيه على حضورهم ومبايعة أحدهم . وكان يفضل من جهته ترشيح هشام . وفي النهاية اتفق ابن سودة والعياشي وواعزيز على بيعة مولاي سليمان في 18 رجب 1206[37] .

أما مولاي مسلمة فتنقل بين تزروت عند الشرفاء ، أولاد بريسول وتزوج منهم ، وخميس بني عروس حيث التقَى بالمرابط سيدي هَدِّي ، والقصر ، ووزان التي حظي فيها باستقبال فخم . وأنعم على الشرفاء بالأموال وفاخر الثياب كما أنعم على الشيخ علي بن ريسون كبير آل ريسون . وأثناء ذلك شملت سلطته منطقة جبالة والغرب والثغور الشمالية الغربية[38] . وتابع واعزيز من جهته حملة الدعاية لمبايعة مولاي سليمان بمكناس وقبائل الأطلس وتازا وغيرها ، ووقع خلاف شديد بين أهل الرباط من جهة . وداخل سلا أيضا من جهة أخرى بشأن مبايعة مسلمة أو سليمان حيث كان لكل منهما أنصار بالمدينتين معا ، وتناول الضعيف هذا الخلاف وما حصل من فتنة بأحواز العدوتين[39] . وتدخّل واعزيز لدَى الرباط وسلا لمبايعة مولاي سليمان .

بيعة مولاي سليمان

تمت بيعة مولاي سليمان جهوياً كما سبق ، في الوقت الذي كانت هناك بيعات لصالح أمراء آخرين . لاسيما مولاي مسلمة ومولاي هشام . وكانت بيعته بفاس على

---

(36) حول معارك مسلمة بضواحي تطوان . يراجع . محمد داود . مختصر . ص 109

(37) الضعيف . ص 276 – 279

(38) ن . م . ص 279 – 280

(39) الضعيف . ص 284 -- 295 . وانظر أيضا : الناصري . 8 . 90 . 91

يد الفقيه التاودي ابن سودة وفقهاء آخرين ، وكان مولاي سليمان أبيض اللون جميل الصورة ربعة[40] . وهو أخ لليزيد من الأب ، وتولى خليفة عنه بمراكش . وكان حوز مراكش يشهد صراعات داخلية على الأرض ، بين قبائل زمران والرحامنة ومسفيوة ، وكذلك بين أولاد دليم وتكنا من جهة ، وزرارة والشبانات من جهة أخرى[41] . وتعد هذه الصراعات الداخلية من أهم أسباب تقلب الحوز جزءاً أو كلا بين الولاء لهذا الأمير أو ذاك ، وقضى مولاي سليمان أكثر شبابه بسجلماسة حيث تلقى دراسته مثلما استكملها بفاس على يد الفقيه التاودي والفقيه عبد القادر بن شقرون وغيرهما . وكان معروفا بحسن سلوكه واستقامته ويحظى بعطف والده[42] ، ولكنه لم يرشحه لولاية العهد تحرجاً من مسؤولية يرى فيها تبعية دينية خطيرة ، ومن ثم ترك الأمر للأمة . ولم يقم مولاي سليمان طويلا بمراكش ، إذ مالبث أن التحق بفاس على إثر اندلاع الثورة على يد العبدي . وأقام بفاس إلى وفاة اليزيد ، وبويع فيها بضريح مولاي ادريس في 17 رجب 1206[43] . وقد اشترط مولاي سليمان لقبول مهمة الملك أن لا يحارب أو يدخل في القتال وإنما يتولى تسديد أمر المواطنين ، لكن الظروف السائدة اقتضت عكس ذلك على كره منه ، إذ لم يكن مولاي سليمان ذا روح عسكرية بطبعه ، وأجرى مولاي سليمان عدة تغييرات في المناصب الإقليمية . خصوصا بفاس التي عين عليها عاملا صنهاجيا هو عبد الوهاب اليموري ، وقد جرت العادة قبل مولاي سليمان بتعيين عمال لا ينتمون في جل الأحوال إلى فاس . ثم تواردت البيعات تباعاً وعلى مراحل استغرقت أزيد من أربع سنوات . حيث كان على مولاي سليمان أن يضع حدا لمنافسة الأمراء الآخرين .

مواجهة الثورات والاضطرابات

وهكذا قصد العاهل مدينة مكناس ليشرف على تعبئة عسكر العبيد والبربر الموالين . وجند الأودايا وفاس وشراقة ، حيث توجه إلى آيت يمور الذين احتشدوا بمكان يدعَى الحجر الواقف . عند نهر سبو ، وكانوا يومئذ أنصاراً لمسلمة ، وقد

---

(40) ن . م . ص 281

(41) ن . م . ص 237

(42) استقصا . 8 . 86 . 87

(43) ن.م. ص 87 . وورد نص بيعة فاس في نفس المصدر والصفحة إلى ص 90

قاموا بأمره ، بالغارة على زرهون ، فواجههم العسكر السلطاني بقوة ، ونهب أموالهم ومواشيهم التي ردت إليهم بعد أن عفا عنهم العاهل ، ثم تعقب الجيش مسلمة الذي كان يعسكر بالحياينة ، فانهزم هؤلاء ونالوا عفو الملك إثر ذلك ، أما مولاي مسلمة فلم يبق معه إلا حاشيته وأسرته فطاردته القبائل حيثما التجأ ، إلى أن حل بتلمسان ، وهناك اجتمع بأبي القاسم الزياني الذي كان فيما يبدو أكثر ميلا إلى مولاي سليمان . ثم أجبره والي الجزائر على الانتقال إلى سجلماسة دون تدخل من مولاي سليمان ، وقد حاول مولاي سليمان أن يرتب أمر مقامه بسجلماسة كسائر الأمراء بها فرفض ثم انتقل إلى أقطار المشرق وعاد ليحل بوهران متشفعا بواليها كما تشفع بغيره من أمراء المشرق ، وجرت بينه وبين مولاي سليمان مراسلات طويلة انتهت بتخليه كليا عن المطالبة بالعرش ، مفضلا الاستقرار بالمشرق حيث وافته منيته [44] .

وبعد تصفية اضطرابات منطقة الغرب وسائر الجهات التي كانت موالية لمولاي مسلمة ، كان على العاهل أن يواجه اضطرابات أخرى قائمة أو ناشئة :

1 – اضطرابات الشاوية (1207– 1210 / 1792– 1795)

في أواخر 1207 / 1792 [45] وجه السلطان جيشا من عشرة آلاف مقاتل بقيادة أخيه مولاي الطيب إلى الشاوية التي بايعت الأمير مولاي هشام . وكان القائد العسكري الرئيسي إلى جانب مولاي الطيب هو الغنيمي المعروف بشدة البطش والفتك ، والذي سبق أن عمل إلى جانب مولاي اليزيد ، لكن مؤامرة دبرها قادة آخرون منافسون أدت إلى هزيمة الجيش الذي تراجعت فلوله إلى الرباط ثم إلى فاس لإعادة تجميعها وتسليحها كما انسحب مولاي الطيب لينشغل بمواجهة ثورة أخرى بالشمال ، وأثناء ذلك توالت الوفود من الشاوية على مولاي سليمان تراجع موقفها وتطلب تعيين عامل عليها من قبل مولاي سليمان ، فاستعمل عليهم ابن عمه مولاي عبد الملك بن إدريس الذي اتخذ من أنفا (الدار البيضاء) مقرا لعمالته . ولكي

(44) الناصري . استقصا . 8 . 90– 93 . وهناك رواية تذكر أنه توفي من وباء سنة 1211هـ (*Terrasse, 2, 308*) وراجع أيضا حول مطاردة مولاي مسلمة : الجيش العرمرم . ص 181- 183

(45) ناصري . 8– 94 وحسب أكنسوس . ص 183 . سنة 1206هـ

يتألف قلوب رؤساء الشاوية ، أغدق العامل الجديد عليهم من مستفاد الميناء حتَّى طالبوه بمشاطرتهم نصف المستفاد . ثم أغروه بالتخلي عن بيعة أخيه مولاي سليمان . وقاموا ببيعته . ويبدو أن التجار الأوروبيين بالدار البيضاء قاموا بدور فعال في هذه المناورة . فبعث السلطان مولاي سليمان بكتيبة يقودها مولاي الطيب لردع الثوار . وعندئذ انسحب عبد الملك ، وقام الجيش بنهب مديونة وزناتة ، وأعلنت الشاوية ولاءها من جديد لمولاي سليمان بعد مواجهات عنيفة قام فيها بنو حسن بدور إيجابي لصالح مولاي سليمان . غير أن أفواجا من الشاوية تقاطرت ليلا على معسكر مولاي سليمان وكانت هدفا لنيران الجيش الذي ظنها حشودا مهاجمة وكانت تطلب العفو الملكي . فقتل منها عدد كبير ، كما قتل من الشياظمة ودكالة وشتوكة ، أما عبد الملك نفسه فقد قصد أم الربيع ثم التجأ إلى أخواله بسوس عند سكتانة . إلى أن ألقي عليه القبض سنة 1212 / 1797 . ثم تشفع فيه مولاي عبد السلام أخو العاهل ، وزوجته صفية . فأتي به إلى مراكش مؤمناً[46] .

ومن جهة أخرى ، قام السلطان بعد ردع حركة الشاوية . بنقل التجار الأوروبيين من أنفا إلى الرباط . وقد قام تجار هذا المركز الاقتصادي من الأجانب بدور خطير وحاسم في توجيه المد الاستعماري بالمغرب . أما عمالة الشاوية فقد أسندت إلى شخص مقتدر هو الغازي بن المدني المزمزي[47] . غير أن العاهل عطل ميناء الدار البيضاء حتَّى أعاد فتحه خلفه مولاي عبد الرحمن بن هشام

2 – اضطرابات الشمال 1208 – 1214 (1792 – 1799)

بينما كان مولاي سليمان منشغلا بمواجهة ثورة الشاوية ، حدثت سنة 1208 / 1793 ثورة بالشمال انطلقت من قبيلة الأخماس حتَّى تازا بزعامة زيطان الخمسي الذي كان يتردد على فاس ، وكان العاهل قد ولى على غمارة التي منها الأخماس القائد الغنيمي الذي سبقت الإشارة إليه ، وتولى هناك خلفاً لقائد آخر هو قاسم الصريدي من عهد مولاي اليزيد ، فقبض عليه الغنيمي واستصفَى أمواله ثم أهلكه تحت العذاب ، فثار زيطان بعد أن استشرَى بطش الغنيمي وانهزم هذا أمام زيطان

(46) حول اضطرابات الحوز : أكنسوس . جيش . 183 و185 – 186 . ناصري . 8 . 94 و98 . الضعيف . تاريخ 358 – 360 ، و381

(47) استقصا . 8 . 100

وأنصاره وسلب جيش المخزن . فتولى أولاد الصريدي بأمر السلطان الاقتصاص من الغنيمي بعد القبض عليه ؛ وعين العاهل أخاه مولاي الطيب على قبائل الشمال وثغوره من طنجة إلى العرائش . على أن ثورة الشمال امتدت خارج حركة زيطان بين مختلف القبائل كالفحص وبني يدير وبني جرفط . وفي 1214 / 1799 تمكن الجيش الملكي من سحقها . ووقع زيطان واسمه محمد بن عبد السلام في يد مولاي الطيب ؛ فنقل مقيدا إلى الرباط ومنها إلى جزيرة الصويرة . وهذا حسب الضعيف . وعند أكنسوس أنه حصل على أمان العاهل الذي عينه واليا على قبيلته ثم عزله ونقله إلى تطوان مع العناية بأمره ؛ وقد قام بدور فعال في إقرار قبائل الجبال على ولائها لمولاي سليمان عندما خرج عليه الأمير إبراهيم بن اليزيد كما سيأتي[48] ؛ حتى إن قبيلة الأخماس كانت تعتقد في بركته وبركة سلالته وكان لزيطان اتصال مع سيدي ابن ريسون الذي دخل معه إلى فاس.

وقد أدت كثرة الاضطرابات وامتدادها مع كثرة المطالبين بالعرش إلى أن منع حمل السلاح إلا للموظفين سنة 1213 / 1798 . وأبطلت صناعة الأسلحة محليا ؛ وكل هذه الإجراءات لم تستمر أكثر من ثلاثة أسابيع[49] . ويرى (هوفر)[50] أن انكلترا والبرتغال كانتا وراء اضطرابات الشمال في هذه الفترة ؛ وأن أموالا طائلة انفقت في سبيل إذكائها نظرا للعلاقات الطيبة بين المخزن وفرنسا التي كانت في حالة عداء بل مواجهة مع الدولتين الأوروبيتين . والواقع أن ثورة الأخماس بالذات ستتجدد في عهد مولاي عبد الرحمن كما سيتضح ؛ وكما قادت أيضاً حركة غمارة في عهد السلطان محمد الثالث.

وقام المخزن سنة 1217/ 1803 باستخلاص الضرائب من سكان الريف عن ثلاث سنوات سابقة . ولكن الاضطرابات المحلية تجددت بعد بضع سنوات . فتحرك العاهل على رأس جيشه سنة 1225 / 1810 حيث نزل بعين زورة ؛ وتولى الجيش القيام بردع الجهات الثائرة وارغامها على أداء التزاماتها المالية . وفي 1227 / 1812 عمد فلاحو الريف إلى بيع المنتجات الزراعية للأوروبيين لاسيما الإسبان

---

(48) الزياني . بستان . ص 167 . ضعيف . ص 391 و414 . أكنسوس 183

(49) ضعيف . ص 398 . 399 *Hœfer, Empire du Maroc, p.372*

(50) *Hœfer, Empire du Maroc, p.372*

الذين كانوا يتولون وسقها بالتهريب على حساب خزينة الدولة ، فكلف السلطان عامله على الثغور محمد السلاوي بمهاجمة قلعية وغيرها من القبائل المتهمة بعمليات التهريب . ثم استأنف الفلاحون في السنة الموالية مساعدة السفن الأوروبية على وسق الزرع وحتّى الماشية ، فأمر العاهل قواد البحرية بمهاجمة هذه السفن والاستيلاء عليها إن وجدت . وتحرك بنفسه لغزو الريف مع نجله مولاي ابراهيم والقائد محمد السلاوي مارا من فاس إلى تازا ومنها إلى كارت (كاف مثلثة) وهي الناظور الحالية فقام الجيش بنهب أموال القبائل وعين على الريف عاملا جديداً هو أحمد بن عبد الصادق الريفي [51] . وواضح أن سلطة المخزن في الشمال لم تكن معززة بقوات كافية ولا بعمال جلهم في مستوَى المسؤولية . كما يتضح الضعف الكبير الذي أصبحت عليه الثغور من نقص المراقبة والحماية البحرية ودور العناصر الأوروبية في تحطيم الاقتصاد الوطني .

3 - اضطرابات الحوز (1206 - 1211 / 1791 - 1796)

ظلت مراكش وحوزها منذ مقتل مولاي اليزيد على بيعة مولاي هشام الذي كان في الواقع مجرد ستار يشف عن سلطة شخصين يعتدان بقوة نفوذهما في هذه المنطقة الشاسعة التي امتدت لفترة إلى الشاوية [52] ، وكان أحدهما محمد الهاشمي بن العروسي قائد دكالة ، والثاني عبد الرحمن بن ناصر العبدي المستبد بآسفي التي كان يستأثر بإيرادات مينائها. وفي الواقع كانت له الكلمة العليا في منطقة الحوز بأسرها فضلا عن قراراته في بلاط مراكش . وعلى إثر مقتل القائد عبد الله بن محمد الرحماني كبير المسؤولين في بلاط مراكش في ظروف غامضة . هاج الرحامنة وأعلنوا بيعة مولاي الحُسين نجل سيدي محمد بن عبد الله والذي كان من الأمراء المثقفين [53] فلجأ مولاي هشام إلى ضريح أبي العباس السبتي ثم إلى آسفي ، وكان مولاي الحسين قد نصب قبل ذلك بتازروت على يد ابن ناصر العبدي [54] الذي كانت العلاقة قد فترت بينه وبين الأمير هشام ، وكانت أحداث مراكش هاته سنة

---

(51) أكنسوس . ص 189 و193 . ناصري . 8 . 95 . 114 . 127

(52) ضعيف . ص 351

(53) ذكر الضعيف . ص 350 . أنه ألف كتاباً يتعرض فيه لدسائس مولاي اليزيد كما قال . ولأسرار تتعلق بوالده

(54) م . س . ص 349

1209 / 1794 . غير أن عودة الأمير هشام إلى آسفي جعلت الحوز موزعاً بين الأميرين حيث عاد ابن ناصر إلى مؤازرة مولاي هشام ، وظلت الأوضاع كذلك حتى 1211 / 1796 مع نشوب حروب طاحنة بين الفريقين هلكت فيها آلاف من المتحاربين ، إلى أن بدأت وفود الحوز تتصل سرا بمولاي سليمان وتؤدي بيعتها . وعندئذ . وبعد أن انضمت الشاوية إلى مولاي سليمان أصبح بميسوره التحرك إلى الحوز في السنة المذكورة ، فاستولى على دكالة وأزمور وتيط ثم هاجم مراكش التي فر عنها مولاي الحسين ملتجئا إلى زاوية مولاي ابراهيم الأمغاري بضواحيها ، وأدت مراكش بيعتها لمولاي سليمان ثم تلتها بيعة سائر الحوز وسوس . وبعث السلطان كاتبه محمد بن عثمان المكناسي إلى آسفي لحمل ابن ناصر العبدي على البيعة ، فوجده مريضا ، ولكنه خلع بيعة مولاي هشام ودخل في طاعة مولاي سليمان ، بينما انسحب الأمير هشام إلى زاوية الشرادي غرب مراكش ، فأمنه السلطان وأكرم مثواه وكان يحترمه لسنه حتى كان يرفع مجلسه ويجلس دونه . وقد استقر مولاي هشام بالرباط فترة قبل أن ينتقل إلى مراكش حيث وافته منيته . وقام مولاي سليمان بإعادة تنظيم حامية مراكش التي كان ضمنها ألف من عبيد السوس وأهل الحوز الذين كانوا بها أيام والده . كما استخلف بمراكش أخاه مولاي الطيب[55] ، ثم عين كاتبه محمد الرهوني بعد ذلك على سوس ، وكان تقياً .

ثم عمل العاهل على الاستيلاء على الصويرة من غير إراقة دماء ، وكانت تابعة لعبد الرحمن بن ناصر يتصرف في مستفادها أيضا ، وقائدها عبد الملك بن بيهي الحاحي الذي تم طرده منها بالحيلة على يد محمد بن عبد الصادق المسكيني (كاف مثلثة) وأهل أكادير[56] .

وفي 1212 / 1797 قصد مولاي سليمان آسفي متوجها من مكناس ليتولى تقبل بيعة ابن الناصر وأسرته مباشرة وباستخدام القوة عند الاقتضاء ، ولما تجاوز العاهل أم الربيع وجه القائد عياد بن أبي شقرة إلى آسفي مع جيش من الأودايا ، فوجد ابن الناصر مريضا وحمل في محفة إلى مجلس العاهل حيث أدى البيعة مع أسرته .

---

(55) أكنسوس . ص 184 — 188 . ناصري . 8 . 97 ، و100 — 102 . ضعيف ص 350 — 351

(56) ناصري . 8 : 102

وشرفه السلطان بمرافقته إلى منزله بآسفي وشكره على إيواء مولاي هشام[57] . على أن الأمير هشاما ، مالبث أن التحق بمراكش حيث هلك من الوباء مع أخويه مولاي الطيب ومولاي الحسين سنة 1212[58] .

4 – ثورة الأطلس المتوسط

كان الأطلس المتوسط في بداية الأمر إلى جانب مولاي سليمان بفضل الجهود التي بذلها محمد بن محمد واعزيز في أوساط قبائله لموالاة مولاي سليمان. غير أن اضطرابات محلية في قبائل بني زمور سنة 1211 / 1796 جعلت العاهل يأمر عامله على تادلا بالقبض على العناصر المتمردة ونقلها إلى سجون مكناس حيث أطلق سراحها بعد مدة ، كما أطلقت يد الجيش في أموال الجهات الثائرة[59] . وهذه كانت من أوائل اضطرابات الأطلس في عهد مولاي سليمان.

وفي 1213 / 1798 أمر السلطان قائد بني حسن ، الغازي بالغارة على آيت يمور الذين تحولوا إلى عداته كمجموعات أخرى من الأطلس. فاستولى القائد على أموالهم ومواشيهم[60] .

وفي أواخر 1214 / 1799 كانت حركة التمرد قد اتسع نطاقها وبقيت قلة إلى جانب مولاي سليمان في الوقت الذي كان منشغلا أيضاً بإعادة إقرار النظام بالشمال. وهكذا حشد نحو خمسين ألفا من الرحامنة ودكالة وعبدة وحاحا وسوس وغيرهم. واستخدم المدفعية والأنفاظ بقيادة الخبير جودر العلج والقائد الطاهر فنيش. غير أن البربر الموالين للسلطان انضموا إلى إخوانهم ، فاختلت مصاف الجيش ووقعت الهزيمة في أوائل 1215هـ ومات القائدان المذكوران وانسحب الأمير موسى أخو العاهل وقائد الحملة. وكان مولاي سليمان بمكناس ، فتألم لهذه الهزيمة. وفي هذه الأثناء تم تعيين أبي القاسم الزياني عاملا على تادلا[61] وكان من الأخطاء التي ارتكبت في

(57) م. س. ص 105 . أكنسوس 188 – 189
(58) أكنسوس 159 . وحسب الضعيف. مات م. هشام سنة 1214 / 1799 من الوباء (ص 402)
(59) استقصا . 8 . 104
(60) ضعيف ، ص 405
(61) ن. م. ص 408– 413

سياسة المخزن خلال هذه الأحداث إسناد القيادة المباشرة إلى الحكماوي من كتاب المخزن ، وليست له خبرة بشؤون الحرب والتدابير السياسية ، فأنف منه القواد وهم أكثر منه خبرة وتخلوا عن تنفيذ تعليماته ، فلما وقعت الحرب وقع هو نفسه في الأسر إلى أن بعث به البربر إلى العاهل[62] .

وحسب «هوفر»[63] فإن برابرة الأطلس المقيمين حول فاس ومكناس ثاروا سنة 1216 / 1801 مؤاخذين العاهل بعدم وفائه بالتزاماته نحوهم منذ أن ساندوا بيعته في البداية . وكان محرك هذه الثورة هو مولاي ابراهيم نجل اليزيد غير أن أنصاره من البربر انهزموا وأسر منهم حوالي 2400 كما قتل منهم عدة آلاف حسب نفس المصدر . والواقع أن هذه أحداث متأخرة عن التاريخ المذكور .

على أن القائد محمد بن محمد واعزيز الذي تم القبض عليه بسبب تحريضه للبربر ودوره في انقلابهم على المخزن نقل إلى جزيرة الصويرة . وأثار سجنه غضب آيت يدراسن الذين رفضوا ولاية أخيه بوعزة وولوا عليهم ابن عمه بوعزة بن ناصر وكان معاديا لمولاي سليمان . فأطلق سراح محمد واعزيز وأعاده إلى القيادة وأمره بالقبض على ابن عمه فرفض ، وعندئذ هاجم الجيش آيت وامالو ونهب أموالهم وهدم قصورهم وسلم أراضيهم إلى جروان[64] .

وقاد السلطان سنة 1222 / 1807 حملة ضد بعض قبائل تادلا كبني موسى وآيت عتاب وبني عياط بهدف جباية الزكوات والأعشار كما قام الجيش بردع العناصر المتمردة[65] ، ووجه في السنة الموالية جيشا إلى آيت وامالو للقيام بعملية مماثلة بقيادة الوصيف أحمد صاحب الخاتم والطابع[66] ، ثم قاد العاهل سنة 1224 / 1809 حملة أخرى إلى تادلا ضد ورديغة وآيت يسري وغيرهم لنفس الغرض[67] .

---

(62) جيش . ص 189
(63) *Hœfer, p.375*
(64) جيش . ص 190
(65) ن . م . ص 192
(66) ن . م . وص
(67) ن . م . ص 193

وفي سنة 1226 / 1811 حدثت اضطرابات خطيرة بين بعض القبائل ذات النزاع المزمن وذلك أن اشتباكات حدثت بين آيت يدراسن وجروان من جهة ، وآيت وامالو من جهة أخرى ، ثم انضمت جروان غدراً إلى آيت وامالو وأعملوا السيف في رقاب آيت يدراسن وهم غالباً شيعة المخزن وأنصاره . ونهبت خيام آيت يدراسن ومواشيهم . وقد تلقوا نجدات من العاهل فهزمتها آيت وامالو التي كانت تكره سلطة محمد واعزيز وهو من آيت يدراسن ، وذلك لسوء سيرته كما قال أكنسوس . ثم استعانت آيت وامالو وأحلافهم بزعيمهم أمهاوش الذي قاد حركة التمرد فترة طويلة ، تارة من بعيد وطورا بكيفية مباشرة . وجاهر الثوار بمناهضة الدولة ونهب القرَى والقوافل وحتَّى معسكر الجيش قرب صفرو ، وأصبح طريق الصحراء من مكناس وفاس محفوفا بالمخاطر وأسند السلطان قيادة الجيش إلى محمد الصريدي وكان مبغضا في أوساط سكان الأطلس . وأخيرا عزل السلطان محمد واعزيز وعين على المنطقة قائدا عاجزا سيء التدبير هو عياد بن أبي شفرة الذي لم يدرس مشاكل السكان ولا حاول حلها بطرق عملية ، بل كان يتملق زعماءهم بالعطاء والمال فلم تزدد الثورة إلا انتشاراً .

ثم ارتحل السلطان من مكناس إلى مراكش حيث حشد جيشا ضخما ساهمت فيه قبائل الغرب والفحص وعرب نواحي فاس وبني حسن والعبيد والأودايا وشراقة وغيرهم إلى جانب القبائل البربرية المناصرة للمخزن . ورأى العاهل أن يقتص من جروان الذين تسببوا في اندلاع هذه الثورة ، فلما بلغ آزرو وهم على مشارفها تراجع باتجاه آيت يوسي من غير سبب ظاهر ، فظنت جروان بالجيش الوهن ، وانقضت على مؤخرته وقتلت أعداداً منه ومن قادته ، ورأى الثوار في ذلك انتصارا عظيما لحركتهم ، وترددت أصداء موقعة آزرو هذه فترة طويلة حتَّى أرخت بها الأحداث الموازية واللاحقة ! ثم قصد الجيش آيت وامالو أنصار آيت يوسي فهاجمه هؤلاء وألجأوه إلى شعب لا منفذ له حتَّى خلص بفضل آيت يمور وآيت يدراسن . وحاولت بعض العناصر العربية المتعصبة أن تفسر ذلك بتواطؤ البربر ضد العرب . وفي إطار هذه الأحداث ظل العاهل شبه معزول في تدابيره بسبب نقص في الكفاءات الوطنية والسياسية التي حوله كماً ونوعاً ، والتي تستطيع أن تضع يده على حقائق وأوضاع المجتمع ، لاسيما في مناطق الأطلس المتوترة . ولولا إشارة العامل محمد السلاوي على العاهل بالانسحاب وتأجيل القصاص من الذين فتكوا بالجيش

لكانت العاقبة أخطر. وقد انتقد أكنسوس سوء تنظيم الجيش في هذه المواجهة كما انتقد حشد أعداد ضخمة لمواجهة واحدة(68).

وبالرغم من تناقص أنصار المخزن في الأطلس المتوسط، فإن بعض قبائله احتفظت بولائها ظاهرياً لمولاي سليمان على إثر الأحداث المذكورة، وتطلبت مواجهة جديدة ضد آيت وامالو انتظار ثماني سنوات، انشغلت الدولة خلالها بأحداث الريف والصحراء، فلما كان رجب 1234 / 1818 اتخذت الأحداث منعرجا خطيراً وظهر أن بربر الأطلس أصبحوا في أغلبيتهم الساحقة ضد مولاي سليمان وأنصاره من العرب خاصة. لقد أصبحت المواجهة منذ الآن تتخذ طابعا اجتماعياً وسياسيا مكشوفاً غير مكبوت، ولاشك أن أقوَى هذه القبائل عداء وأشدها شكيمة هم آيت وامالو. ونترك للزياني(69) شرح أسباب هذه المواجهة التي حدثت سنة 1234 / 1818، يقول الزياني:

«... والسبب في تلك الحركة. أن بني مطير وآيت يدراسن وجروان وزمور ويمور وحكم هم برابرة الدولة وتحت قهرها وغلبتها، ولهؤلاء، آيت وامالو، غلبة عليهم وقهر لهم من قديم الزمان، وفي كل عام يغيرون عليهم في رحلة الشتاء والصيف، ويطردونهم من بلادهم إلى أن كادوا يستولون على جميعها، وفي كل وقعة يأتون لأمير المومنين شاكين متظلمين، ويوجه معهم الجند لإعانتهم، ولما أعياه أمرهم وتعين طغيانهم وظلمهم لكل من يجاورهم من البربر ومن عرب تادلا، تعين على أمير المؤمنين حربهم، والدخول لبلادهم، وصعود جبالهم، لإراحة الناس من شرهم».

وكانت زعامة الأطلس المتوسط يتشاطرها محمد بن الغازي كبير زمور، والحسن ابن حمو واعزيز كبير آيت يدراسن، وكان لهذا الأخير حظوة لدَى مولاي إبراهيم خليفة السلطان بفاس ونجله، وقد تولى الإشراف على الجيش إلى جانب والده في

(68) أكنسوس. ص 193 ـ 195. ناصري، 8. 115 ـ 117

(69) زياني. ترجمانة، ص 75 ـ 76، وقد روى أيضا أحداث صنهاجة في البستان، ص 162 ـ 180. وهو يتفق مع الناصري 8. 134 ـ 138 في أن آيت وامالو أظهروا كثيرا من التقدير والتكريم لشخص مولاي سليمان بعد اقتحام فسطاطه ومصاحبته إلى خيامهم. وذلك بخلاف أكنسوس. ص 206 ـ 209 و375

هذه المواجهة . وقد أدّى التنافس بين الزعيمين البربريين إلى أن أضمر ابن الغازي تأليب البربر جملة على العاهل . وهكذا احتشدت الجيوش من عبيد مكناسة وجيش الأودايا وشراقة وعرب الغرب وبني حسن وغيرهم بتادلا حتّى استكملت الحشود حوالي ستين ألفاً . وكان العام عام وباء وليس للعاهل علم بانتشاره ، وقد تقدمت وفود آيت وامالو على إثر هذا الزحف ضارعة إلى العاهل وواضعة كل إمكانياتها تحت تصرفه . ولكن رؤساء القبائل العربية والبربرية أشاروا على السلطان برفض العفو . بينما كان رؤساء البربر قد اتفقوا مع ابن الغازي على خذلان السلطان وأنصاره من العرب لأن الأسلحة المعادية فتكت بالعرب دون البربر من أنصار المخزن الذين تحدث عنهم الزياني كما سبق . وكانت مواجهة الجيش مركزة في «ظيان» وهم فخذ من آيت وامالو . وقد قامت الأطراف المعادية بحركة انقضاض على مؤخرة الحشود العربية فقتلت منها أعدادا كبيرة ، وأظهر ابن الغازي الفرار عند اللقاء نهارا ومعه جموع أنصاره الذين قاموا بحركة الانقضاض على العرب مساء وبصورة مفاجئة فتزعزعت صفوف العرب ، وبقي العبيد حول فسطاط السلطان ، كما ثبت نجله مولاي إبراهيم الذي تلقى جراحات خطيرة ثم حمل إلى فاس حيث توفي بعد وصوله ، وأخيرا اقتحم البربر فسطاط العاهل حتّى جرده رعاعهم من معظم ثيابه حسب رواية أكنسوس ، فلما تيقن أحدهم من شخصه استركبه وإثر ذلك انتقل إلى مكناس ، وقد دعيت هذه المواجهة بموقعة ظيان ، ويرى أكنسوس أن سبب هذه المحنة كلها من عدم قبول السلطان العفو عن آيت وامالو ورده شفاعة نسائهم وأطفالهم .

وكان من ذيول موقعة ظيان أن استحوذ البربر على مزارع مكناس ومراعيها . فاضطر العاهل إلى استرضائهم بالمال والهبات وتكاثرت عليه وفودهم حتّى قدم منهم مرة واحدة سبعمائة فارس فانتزع خيلهم وسلاحهم ووضعهم رهن الاعتقال وألحق بهم ثلاثمائة من آيت يوسي ، فاستقدم البربر أحد زعمائهم أبو بكر بن مهاوش وكان يشجعهم على الثورة ويعدهم بالنصر ، ويصفه المؤرخون المعاصرون له بالتدجيل . وفعلا عمد إلى محاصرة مكناس ، وتدخل المرابط عبد الله بن حمزة العياشي لتسوية أمر المعتقلين ووقف زحف المهاجمين ، ولكن الأوضاع لم تتحسن ، وصار البربر كما

قال الناصري يدا واحدة على كل من يتكلم العربية بالمغرب[70] . واستشرت الفتنة ضد العاهل وشملت الحواضر والبوادي ودخل في غمارها مجموعات من العرب والجيش . وفي غمرة المحنة التي كان يجتازها المخزن والعاهل بوجه خاص . لم ييأس مولاي سليمان ، فقد اعتبر عصاة الأطلس خوارج عن جماعة المسلمين لأنهم ينهبون الأموال ويقطعون الطرق ويسفكون الدماء . وقرر أن حربهم جهاد في سبيل الله[71] ، وعلى كل فابتداء من سنة 1235 / 1819 سيتحول مركز الصراع إلى فاس التي تتحالف فيها رسميا وعمليا ، عدة قوات ضد مولاي سليمان كما سيأتي .

5 – اضطرابات فاس (1235 – 1237 / 1819 – 1821)

ظلت الأوضاع هادئة في مجملها أيام سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس ذات الحساسية السياسية الدقيقة . ولذلك لم يجد مولاي سليمان صعوبة تذكر في الحصول على بيعتها سنة 1206 / 1792 . وكانت فاس تراقب عن كثب ما يجري حولها من مواجهات بين البربر وجيوش المخزن . وما من ريب في أن زعماء البربر كانوا يجرون اتصالات سرية أولية مع أهل فاس قبل أن تصبح هذه الاتصالات علنية وتتحول إلى إعلان خلع مولاي سليمان . وهكذا استغل الفاسيون ما أنهي إليهم من سلوك عاملهم محمد الصفار وهو من فاس ، فاتهموه لدى السلطان بالفسق والدعارة . ويبدو أنهم لم ينتظروا جواب السلطان[72] بل ثاروا ضد العامل وأنصاره ، وطالبوا بعزله ، وكان جواب العاهل يتضمن دعوتهم إلى الاتصال مباشرة بخليفته مولاي علي أو إرسال وفد عنهم إلى القصر الملكي ، وساءت الأحوال بفاس ووقع النهب في متاجرها . غير أن العاهل انتقل إليها من مكناس التي ترك بها نجله مولاي الحسن ، للإشراف على إدارتها وجيشها . وهاجم البربر مؤخرة الجيش الذي رافق العاهل إلى فاس ، فأمر عندئذ بنهب بيوت البربر بها . وكل هذه الاضطرابات كانت في

---

(70) استقصا ، 8 ، 137 . وهو يقتبس ، وينقل كالعادة وفي غالب الأحيان من أكنسوس (جيش ، ص 209)

(71) محمد داود : تاريخ تطوان ، 8 ، 51 (ملخص خطاب وجهه مولاي سليمان إلى عامل تطوان) . وانظر عن محنة مكناس : *Hœfer, p.375*

(72) جيش ، 210 ، استقصا ، 8 ، 139 141 . ومن بين ما ورد في هذا الجواب تحليل لطبيعة المجتمع الفاسي من وجهة نظر مولاي سليمان ، وربما كان من تحرير بعض خصومهم .

1235 / 1819 . وفقد السلطان ثقته في ولاء فاس . حيث نراه يفضل عدم إيداع الأموال العموميه بها كما يدل على ذلك خطاب إلى عامله بتطوان في رجب 1235[73] . وفي هذا الشهر خرج العاهل إلى منطقة الهبط لضبط أحوالها ثم عاد إلى الرباط يستقبل جموع قبائل الحوز وسوس وتادلا وعبيد الديوان وغيرهم ويتهيأ لحملة جديدة في جبال الأطلس ومشارفه . غير أنه عدل عن ذلك وتوجه إلى مراكش بهذه الحشود . أمَّا العبيد فتثاقلوا عن مرافقته . وكان تحركه من الرباط في عاشر رمضان 1335[74] . ثم التحق العبيد بالموكب الملكي على مضض . فانسحب عنهم أثناء الطريق والتحق بمحلة الحوز ، فاستولَى العبيد على الخيام الملكية وما بها . وعادوا إلى مكناس ، فاقتدَى بهم الأودايا بفاس في الاستهتار بالمخزن واستولوا على أموال اليهود بها وهتكوا أعراض نسائهم ، وتكونت بالمدينة لجنة ثلاثية انتخبها السكان لإدارة شؤونهم (وتمثل عدوة الأندلسيين والقرويين واللمطيين) . ثم قام الأودايا برد ما نهبوه ، وتوجه أحد الأدباء ، محمد بن إدريس الفاسي بقصيدة إلى مولاي سليمان يستعديه فيها على الأودايا ويتألم لموقف البربر منه[75] .

ووقع حادث آخر بسبب نزاع بين القاضي عباس بن أحمد التاودي والمفتي محمد بن إبراهيم الدكالي أدَّى إلى عزل السلطان للمفتي ، فتعصب له عدد من المثقفين والطلبة . وهموا بقتل القاضي ثم عزلوه وولوا مكانه غيره[76] .

وفي مراكش جمع العاهل بعد صلاة الجمعة أعيان مراكش والرحامنة وعبر لهم عن عجزه عن إقرار النظام ورغبته في التجرد للعبادة دون أن يعلن تنازله عن العرش ، فهتف الأعيان له بطول العمر وأبدوا استعدادهم لنصرته ، وكتب العاهل إلى أهل فاس خطاباً مشابهاً قرأه عليهم خليفته مولاي علي . فتنادوا بعجز العاهل عن تحمل مسؤوليته وأنه بخطابه هذا يتنازل عن العرش . وازداد الشغب عندما أحرق مولاي علي الخطاب بعد قراءته وتصايح الناس للاطلاع عليه . وفي هذه الأثناء كانت الفتنة بين الأودايا وفاس قد تجددت واستشرت . فطلب الفاسيون من

---

(73) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 . 54

(74) استقصا . 8 . 142 . جيش . ص 213

(75) استقصا 145 - 146

(76) جيش . 213 - 214

البربر التدخل لوضع حد لنزاعهم مع الأوديا وللنظر في بيعة ملك جديد ، فاتفق معهم وفد آيت يدراسن بزعامة الحسن بن حمو واعزيز المطيري ، ووفد زمور وبني حكم بزعامة محمد بن الغازي على ترشيح الأمير إبراهيم بن اليزيد ، فاشترطوا عليه شروطا قبلها ثم أعلنت بيعته في 24 محرم 1236 / 1820 . وقد أعلن الأمير رفضه للبيعة إلى أن هدد بترشيح أحد الأدارسة فقبل ، وكان الشيخ الصوفي العربي بن أحمد الدرقاوي ممن تزعموا حركة بيعة مولاي إبراهيم ، بل قيل إنه هو الذي توسط لدَى ابن الغازي في المفاوضة المذكورة مع أهل فاس[77] . غير أنه وقع في قبضة الاوديا أنصار مولاي سليمان فأودعوه السجن حيث ظل به سنتين وأربعة أشهر إلى وفاة مولاي سليمان[78] . ونَرى في حركة الدرقاوي هاته رد فعل ضد مولاي سليمان الذي كان كسلفه متقارب الاتجاه مع الحركة الوهابية التي لا تتعاطف مع المتفقرة وأرباب الزوايا . كذلك كان أبو بكر بن مهاوش كبير آيت وامالو ممن حضروا مفاوضات خلع مولاي سليمان بفاس[79] . أما الأوديا ومعظم عبيد مكناس فقد رفضوا الدخول في بيعة مولاي إبراهيم ، وتمكن الأوديا من قتل عدد من قادة الثورة الآخرين بظهر المهراس بفاس ، وبعثوا برؤوسهم إلى مولاي سليمان بمراكش .

ولم يتمكن عاهل فاس الجديد وأنصاره من تنظيم حركة واسعة النطاق بسبب انعدام المال لديهم ، فقرروا مهاجمة المراسي والاستيلاء على إيراداتها الجمركية ، ثم زحفوا إلى قصر كتامة (القصر الكبير) فدخلت في بيعتهم تطوان التي عزلوا عاملها عبد الرحمن أشعاش وكان مواليا لمولاي سليمان[80] . وحسب الأستاذ داود[81] فإن طنجة أعلنت بيعتها لمولاي ابراهيم في 19 جمادى الأولى 1236هـ . ويظهر أنها كانت بيعة جزئية أما العرائش فلم يتضح موقفها ، وقد استولى المهاجمون على أموال اليهود وخزائن المال العمومية بتطوان التي دخلها مولاي إبراهيم مريضا ، فتوفي بعد أسابيع ، وبويع بها أخوه السعيد بن اليزيد في 12 جمادى الأخيرة 1236[82] .

---

(77) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 46

(78) ن . م . وص

(79) استقصا ، 8 ، 150

(80) تاريخ تطوان ، 8 ، 59 . وظل عامل طنجة العربي السعيدي مواليا لمولاي سليمان أيضا

(81) ن . م . ص 58

(82) ن . م . ص 59 . وانظر أيضا عن السعيد : *Hœfer, p.376* محمد داود ، مختصر ، ص 117 ـ 118

بينما كان مولاي سليمان قد تحرك من مراكش قاصدا قصر كتامة عن طريق الرباط وسلا . ثم اتجه إلى فاس التي قصدها أيضا السعيد وشيعته . وتمكن مولاي سليمان من الحلول بقصره بفاس الجديد تحت حماية الأودايا . بينما نزل السعيد بقنطرة سبو فهاجمه الأوداية واستولوا على ما حمله البربر من أموال اليهود بتطوان ولجأ السعيد إلى داخل المدينة (فاس البالي) فقام مولاي سليمان بحصار البلد وتبادل الطرفان قصف المدافع واستمر حصار فاس حوالي عشرة أشهر توجه مولاي سليمان خلالها إلى طنجة من طريق أصيلا للإشراف على حصار تطوان وإعادتها لسلطته . ثم استقدم ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام عامل الصويرة ونواحيها مع قبائل الحوز حيث استقبلهم العاهل في العرائش[83] وأوضح السلطان لقواد الحوز رغبته في إقرار النظام بفاس فعاهدوه على الوقوف تحت رايته وكان جيش البخارى قد عاد إلى الالتحاق بعسكر مولاي سليمان نادما على ما بدر منه تجاهه ، فعهد الملك إلى القائد الحاج ابراهيم بن زروق البخاري بالتحرك نحو تطوان في مائتي فارس بعد أن رفض أهلها العودة إلى بيعة مولاي سليمان ، إلا أن قائد البلد العربي بن يوسف الذي كان قد عين من قبل ابراهيم بن اليزيد تمكن من الاحتيال في القبض على الكتيبة المذكورة وكانت مهمتها الاستيلاء على المرسى ومنع سكان تطوان من الوصول إليه . غير أن العاهل زحف إلى فاس متجها من العرائش ، ثم تركها محاصرة وتوجه إلى تازا التي بايعت مع غياثة السعيد ، فدخلها بعد أن أشيعت أنباء عن وفاة مولاي سليمان ، وعاد إلى فاس التي تمكن أنصاره بها من سحق مقاومة أنصار السعيد ، وتعزز موقف السلطان باستسلام هذا الأخير واستجارته بعبد الرحمن بن هشام ، فعفا عنه العاهل كما عفا عن ثوار فاس وارتحل السعيد إلى تافيلالت بأمر السلطان الذي قام بزيارة تبرك للضريح الادريسي ووجد به لاجئا الحاج العربي الوزاني ممن كان مولاي سليمان غاضبا من موقفهم ، ولكنه تصرف نحوه بلباقة وعتاب رقيق . وكانت هذه الأحداث في أعقاب رجب 1237 / 1821 ، ثم عين مولاي سليمان ابن أخيه عبد الرحمن خليفة عنه بفاس . وتوجه في أوائل شعبان نحو تطوان من طريق مضارب سفيان على نهر سبو وورغة . وفي مشرع مسيعيدة استقبل وفد تطوان برئاسة العامل ابن يوسف ، فأعلنوا توبتهم من الخروج عن بيعته ، ونالوا على الفور

---

(83) يبدو جليا أن طنجة والعرائش لم تخرجا عن بيعة مولاي سليمان لفترة طويلة على الأقل

عفو السلطان . وكان هذا منه تصرفا حكيما . على أن صناع الأحداث في الأطلس آثروا الانسحاب إلى معاقلهم بعد فشل مخططهم في إقصاء مولاي سليمان وفرض خلف له يحظَى بإجماع الأمة . إن الذي يستحق استخلاصه من ثورة الأطلس وتواطؤ قادتها مع أهل فاس ، أن الأطلس قد أصبح بصورة شاملة ومنذ وفاة مولاي إسماعيل يرتضي علانية الحكم العلوي بعد أن اختفت الأجيال الدلائية وأنصارها ولم تبق إلا ظلالها قائمة . إن الأطلس يناهض مولاي سليمان ويتدخل في نفس الوقت بصفة مباشرة في اختيار مرشح جديد للملك . على غرار ما سبق أن فعلته كتل قبلية وجهات أخرى وعلى نحو ما فعله الأطلس في عهد مولاي عبد الله . وهكذا أصبح زعماء الأطلس يعملون على المشاركة في صنع الأحداث الوطنية بقوتهم المعنوية والعددية والمادية ، ذلك أن هزائم جيوش المخزن حملت إليهم وافر المال والسلاح وأنهم لم يعودوا يقبلون أن تطأهم الأحداث بعنفها بل فضلوا أن يدفعوا بها دفعاً وهذا ما يستمر جلياً حتّى إقرار الحماية الفرنسية . بل وفي مواجهتها وعلى مشهد منها .

الوضع بمناطق الصحراء

لم تعرف مناطق الصحراء قلاقل سياسية توازي في خطورتها الثورات التي قادها الأمراء في العهد الإسماعيلي ، لكن الصحراء عرفت مشاكل اقتصادية وأزمات مالية كثيراً ما اكتست طابعا سياسيا أيضا . ومهما يكن من أمر ، فإن مولاي سليمان لم يكن مطمئنا على الأوضاع هناك بسبب جور الولاة وانعدام المقدرة لدَى معظمهم . وسياسة القهر الضرائبي التي مارسها المسؤولون المركزيون ، وهكذا فإن القائد الحكماوي الذي أوفد لتحصيل الجباية سنة 1211 / 1796 بتافيلالت . استخلص بالشدة مائة وثلاثين قنطار فضة و50 ذهبا[84] .

وأكدت عدة وثائق ملكية وجود جور شائع يمارسه ولاة السوء بالمناطق المذكورة[85] . وكانت الصحاري الممتدة شرقا وجنوباً من جهة تافيلالت وتوات إلى ما وراء شلف جنوبا من مشمولات السلطة المغربية منذ العهد الإسماعيلي[86] . وفي

(84) ضعيف 339 و347 (وورد في ص 344 منه : 180 قنطار فضة)

(85) مجموعة الوثائق 1 . 444 و447

(86) راجع ما يتعلق بقضايا الحدود وعلاقات المغرب مع الجزائر في عهد مولاي إسماعيل من هذا الكتاب

هذا العهد أيضا . ومنذ 1089 / 1678 توغلت الجيوش المغربية إلى ما وراء شنقيط . كما عين ولاة بهذه الجهة[87] .

وقد استعاض العاهل مولاي سليمان بلجن من الأمناء يبعث بها دورياً إلى الأقاليم الصحراوية لاستخلاص الجباية ، وسحب قواده من المنطقة تاركا تسيير الشؤون الداخلية وقضايا الأمن للقبائل نفسها . وكان على الأمناء أيضا أن يقوموا بالنظر في المظالم الرئيسية وينفذوا العقوبات فيها على الجناة ويضبطوا ما يحتاج إلى الضبط[88] . غير أن سحب الولاة لم يستمر طويلا . ففي سنة 1218 / 1803 تولى العامل محمد الصريدي (عامل تافيلالت) جباية النواحي المجاورة حتَّى فيجيج كما توجه مولاي سليمان إلى سجلماسة حيث أشرف على تنصيب حاميات الجيش بمختلف المناطق التي عين عليها ولاة جددا ، ومن بينها غريس وزيز ومدغرة[89] . لكن منطقة توات احتفظت بنظام الأمناء المذكور . وفي 1222 / 1807 فتحت تيكرارين بجوار توات[90] . وفي 1231 / 1815 توجهت الجيوش المغربية بقيادة الأمير مولاي ابراهيم نجل العاهل إلى قصور قبيلة الصباح وآيت عطا ذات الشكيمة في الجنوب الشرقي . وكانوا قد اغتصبوا أحد القصور من يد العبيد الذين استقر به أسلافهم منذ العهد الإسماعيلي . وبعد أن استأمنوا على أنفسهم نكثوا العهد ورفضوا الاستسلام فقتل الأمير رهائنهم ورفض العاهل بعد ذلك الاستماع إلى وفدهم ثم جهز جيشا من العبيد بقيادة الوصيف أحمد بن مبارك صاحب الطابع وتقدم السلطان في إثره ، فتمكن الجيش من الاستيلاء على قصور آيت عطا . ثم التحقت بعض كتائبه بأغريس التي قصدها السلطان فقذفت قصور آيت عطًا هناك أيضا بالقنابل . ثم استسلم الثوار ونصبت الحاميات بالمنطقة . وقام العاهل بعملية توزيع واسعة للعطايا على المحتاجين والزوايا والشرفاء ، وغيرهم[91] .

---

(87) *Hœfer, p.361* محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين . الجأش الربيط . ص 19

(88) الوثائق 1 ون . ص .

(89) استقصا . 8 . 108

(90) يتحدث الناصري . 8 . 113 عن فتح توات في هذه السنة . ويتعلق الأمر بعملية جبائية روتينية . لأن توات لم تتنصل من السيادة المغربية منذ العهد الإسماعيلي وسحب منها مولاي سليمان سنة 1215 ولاته كما سبق

(91) جيش . 204 – 206 استقصا . 8 . 130 – 132

توقيف عمليات الجهاد البحري 1233 / 1817

كان من بين المسائل التي تم الاتفاق عليها في مؤتمر فينا (9 يونيو 1815) ومؤتمر إيكس لاشابل سنة 1818 بين الدول الأوروبية المتضامنة أساسا ضد فرنسا (على إثر حروب بونابارت) . إلغاء القرصنة الدولية ومواجهتها بالتضامن والقوة . وقد احتفظ المغرب بحياده في الحرب بين الدول الأوروبية والتي أثارها نابليون بونابارت[92] . كما احترم الرغبة الأوروبية في إبطال القرصنة . فلما كانت سنة 1817 ، وقبل أن يتم إلغاء القرصنة من جانب تونس وإجبار الجزائر على نفس الإجراء . التزم المغرب لدى الجانب الفرنسي بحل أسطوله الجهادي ، وهكذا سلمت بعض قطعه إلى أسطول طرابلس الغرب وأسطول الجزائر الذي تسلم قطعتين[93] . وما بقي من القطع استخدمت القوات البرية مدافعه وتجهيزاته العسكرية بعد فكها . وتحولت القطع الباقية على قلتها إلى النشاط المدني . وفي الواقع لم يبطل المغرب حركة الجهاد البحري بصورة نهائية ، فقد حاول بعثها في عهد مولاي عبد الرحمن كما سيأتي . واستمر هذا النشاط الجهادي لدى الأسطول الجزائري إلى حلول الاحتلال الفرنسي على الرغم من الإهانة التي تلقتها الجزائر من الأسطول الإنجليزي سنة 1231 / 1815 والتي أرغمت الجزائر بموجبها على التوقيع على معاهدة حول وقف القرصنة ، في ظروف داخلية سيئة كان يجتازها الشعب الجزائري في ظل حكم الباشوات[94] .

قضايا الحدود والعلاقات المغربية الجزائرية

إذا كان المغرب مثل سائر الأقطار الواقعة جنوب البحر المتوسط قد أصبح مع مطلع القرن 19م يعيش تدريجياً تحت مراقبة أوروبية غير مباشرة لا تلبث خلال النصف الثاني منه أن تتحول إلى تدخل فعلي ودولي في شؤونه ، فإن ذلك لم يمنعه من الاحتراس من المجابهة المسلحة مع جيوش الاحتلال بسبتة ومليلية التي اصطنعت لكل منهما حدود وهمية مع باقي التراب الوطني . وهكذا تحاشى المغرب الدخول في نزاع مسلح جديد مع جيش الاحتلال ، منذ نهاية الاصطدامات التي حصلت في عهد مولاي اليزيد . إلا أن اشتباكات الاسبان مع السكان المجاورين كانت تتجدد

(92) *Hœfer, Empire du Maroc, p.373*

(93) ناصري . 8 . 133 *Hœfer, Op. Cit. Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 309*

(94) محمد بن عبد القادر الجزائري . تحفة الزائر . 1 . ص 78 - 80 . *Emerit, Revue d'histoire, Tunis, n° 1974.*

بين الفترة والفترة ، ومن أهمها ما حدث حول مليلية سنة 1210 / 1795 ، حيث وقع نزاع محلي بين أهل قلعية أثناء عيد الأضحَى ، فاستغل الاسبان الفرصة وسبوا بعض النساء والصبيان ، فكر عليهم المتنازعون من قلعية جميعا ، وقتلوا منهم نحو خمسمائة على قول الضعيف[95] ، وهو عدد لاشك مبالغ فيه بالنظر لضخامة أجهزة الاسبان الدفاعية لاسيما في ميدان المدفعية ، ولكن الانتقام الشعبي كان قوياً على كل حال . وخصص المغرب حراسة دائمة لحدود المدينتين المغتصبتين[96] ، ثم تعززت حراسة الموانئ الشمالية في عهد مولاي عبد الرحمن .

وكان أتراك الجزائر قد استولوا على وجدة خلال الاضطرابات التي أسهم فيها عدد من الأمراء ، فجهز السلطان جيشاً لاستردادها سنة 1211 / 1796 ، وانطلق الجيش من فاس مؤلفا من الأودايا وشراقة والأحلاف . وكتب السلطان إلى الباي محمد باشا بشأن تسليم سلط البلد والإشراف على القبائل المجاورة : بني يزناسن ، والمنابهة ، وسقونة ، وأولاد زكري وأولاد علي ورأس العين . فأعادوا تسليمها من غير حرب ، وقامت السلطات المغربية بجباية زكوات وأعشار المنطقة[97] . وقد كانت موارد الخزينة الجزائرية جيدة بفضل عمليات اقتناص السفن الأوروبية والتي تدخل في نطاق حركة الجهاد البحري ، فلم يكن التخلي عن وجدة وما حولها من المناطق المغربية الصحراوية ليحدث أزمة مالية في الخزينة الجزائرية . كما أن العناصر التركية التي هي قوام الجيش بالجزائر تناقصت إلى حد كبير حتَّى إن قبطانا فرنسيا وقع في أسر مجاهدي الجزائر سنة 1799م قدر عدد أفراد الجيش التركي بنحو أربعة إلى خمسة آلاف[98] . ولذلك رأينا أحداثا مهمة وقعت بعد هذه السنة بالجزائر وساهم فيها المغرب دولة وشعباً إلى جانب فآت كبرَى من الشعب الجزائري ، أبانت عن الضعف الذي آل إليه الأتراك ، وكانت أيضا ، تعبيرا حقيقيا عن رغبة الشعب الجزائري في تقويم أوضاعه المتردية . وهكذا انطلقت ثورة عارمة ضد الأتراك قادها تباعا كل من عبد القادر بن الشريف[99] ومحمد بن الأحرش اللذين تعاونا إلى حين وفاة ابن الشريف .

(95) ضعيف . ص 330

(96) جيش . ص 188 . استقصا . 8 . 104

(97) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 . 48

(98) *Emerit, Op. Cit, p.176*

(99) سماه ابن عبد القادر الجزائري ، تحفة . 1 . 75 بمحمد . وعند غيره عبد القادر :=

وعبد القادر بن الشريف الفليتي من الكسانة جنوب أغريس ، والكسانة من قبائل البربر . ولد بقرية أولاد بالليل بفرندة ثم درس بالقيطنة على يد الشيخ محيي الدين والد الأمير عبد القادر ، وتابع بعد ذلك دراسته بفاس وببني زروال حيث دخل في طريقة الشيخ العربي الدرقاوي . ثم عاد إلى مسقط رأسه ومنه انطلق يبث تعاليم الطريقة الدرقاوية التي قدمه عليها شيخه بالجزائر ، وقيل إنه ادعَى المهدوية عندئذ . وكان ذلك سنة 1217 / 1802 . ثم قام بأعمال تخريبية ضد النظام التركي فهاجم جيش باي وهران ، وكان يناهض الزوايا . عددا من أنصار ابن الشريف وقتل بعضهم وهمَّ بالقبض على زعيمهم فلجأ إلى الصحراء فانضم إليه أعرابها . فتعزز بالجموع الجديدة وهاجم الأتراك لأول مرة في فرطاسة الواقعة في الطريق إلى تاهرت ، في ربيع الأول 1219 / 1804 . فهزمهم ومعهم الباي مصطفَى . ثم تقدم لحصار وهران التي سقطت في يد المهاجمين حسب الضعيف أو كادت تسقط حسب غيره ، وتابع الدرقاويون زحفهم ضد الأتراك حتَّى ألزموهم المدن وحاصروهم بها فلم تكن تصلهم المؤن إلا من طريق البحر . وفر عدد كبير من الرعايا الجزائريين إلى المغرب لاجئين من بطش الترك، وكانوا يتوصلون بمساعدات قارة من مولاي سليمان ، كما أن المغرب ساعد بالمواد الغذائية أيضا الشعب التونسي على إثر عرض تقدم به باي تونس حمودة باشابن علي ، الذي أوفد لهذا الغرض وفدا برئاسة العالم الأديب إبراهيم بن عبد القادر الرياحي ، وكانت تونس تعيش في صراع مع ولاة الجزائر الذين تمكن حمودة هذا في النهاية من وضع حد لوصايتهم[100] .

وفي هذه الأثناء كان هناك ثائر آخر درقاوي من المغرب هو الشيخ محمد بن الأحرش الذي عرف أيضا بالبدالي . وكان قد قام بأداء فريضة الحج ثم حشد أنصارا من عرب الشمال الإفريقي جملة وساهم في الحرب ضد نابليون بمصر إلى جانب المصريين ونال من أجل ذلك هدايا من الإنجليز . ولكن هؤلاء تدخلوا باسم

■ جيش . ص 191 . استقصا . 8 . 109 . الراشدي . الثغر الجماني . مقدمة . ص 39 . السليماني . اللسان المعرب ص 102

(100) *Julien, Histoire, 2, 300*

مساعدة مصر والتحالف مع الباب العالي[101] . ثم انتقل إلى الجزائر سنة 1218 / 1803 حيث أنشأ مؤسسة دينية ببني فرقان قرب جيجل وكون حوله مريدين من درقاوة . ثم حاصر قسنطينة ، واشتبك مع الجيش التركي بضواحيها . وقتل الباي حاكمها . غير أن نجدات تركية من الباشا هزمته حول ميلة ثم حاصر بجاية وتدخل آل المقراني لفك الحصار عنها ثم تعاون مع ابن الشريف في منطقة وهران . وخفت صيته بعد ذلك مع مشاركته في حروب خاطفة ضد الأتراك . إلى أن أسس زاوية جديدة بالمنطقة هدمت في أواخر الاحتلال الفرنسي وبني مكانها بعد التحرير مسجد .

وبلغت الأزمة ذروتها بالجزائر سنة 1220 / 1805 عندما امتدت الاضطرابات إلى تلمسان ، وكانت السلطات التركية أثناء حصار ابن الشريف لوهران قد كتبت إلى العاهل المغربي تطلب إرسال الشيخ العربي الدرقاوي ليتدخل مباشرة لدَى تلميذه ابن الشريف حتَّى يتوقف عن نشاطه السياسي واستجاب السلطان لطلب الأتراك . ووجه مع الشيخ الأمين الطاهر بادو فلما وقف الشيخ على الحقائق وسمع عن تعسفات السلطات التركية ضد العرب ودرقاوة بوجه خاص لم يتابع مهمة الوساطة ، وعندئذ رد الأتراك بقنبلة أنصار ابن الشريف فتحركوا نحو تلمسان واتفقوا مع أهلها بزعامة ابن الشريف على مبايعة مولاي سليمان وبعثوا وفدا ببيعتهم إلى السلطان . يرأسه الشيخ العربي . ورأى العاهل أن الحكمة تقتضي المحافظة على حسن العلاقة مع حكام الجزائر ، مع التدخل لدَى الباي حتَّى تتراجع القوات التركية عن تلمسان ويتم الصلح بينه وبين أهلها بحضور الوفد المغربي بقيادة القائد عياد بن أبي شفرة الأودي ، وكلفه بالقبض على ابن الشريف إن هو لم يجنح للسلم ، وهكذا قام الوفد بمهمته أما ابن الشريف فقد انسحب على التو ، واستمر في مواجهاته للأتراك في نواح أخرى حتَّى 1226 / 1811 فعين باشا الجزائر واليا جديدا على وهران محمد باي المقلش المعروف بشدة بطشه ، وقد تمكن من سحق مقاومة ابن الشريف

(101) أشهرت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا عند تدخلها بمصر . وأوعزت إلى والي الجزائر مصطفَى باشا باعلان الحرب من قبل الجزائر على فرنسا لشغلها عن مصر (تحفة الزائر . I . 75) وفي هذا الإطار يجب وضع الحركة التي قام بها ابن الأحرش .

في غريس الذي لجأ عندئذ إلى بني يزناسن بالمغرب حتّى توفي هناك ولقي الدرقاويون وسائر أتباع الزوايا محناً وألوانا من البطش والتقتيل على يد والي وهران المذكور الذي شمل بسطوته حتّى الفقهاء ورجال الدين ممن لا ينتمون للزوايا ، وقد كتب عن ثورة درقاوة وما يتصل بها كثيرون[102] . ووقف العاهل المغربي موقفاً كريماً من السلطات التركية والشعب الجزائري معا ، فرفض بإباء بيعة تلمسان كما أوضح ذلك أكنسوس والناصري وقدم بسخاء ، مساعدات المغرب للاجئين الجزائريين ، وتصمت معظم المصادر والمراجع الجزائرية عن بيعة تلمسان والموقف المغربي النزيه بشأنها .

السياسة الداخليــة

طرأ على السياسة الداخلية قبيل تنصيب مولاي سليمان عنصر جديد لم يشهده المغرب من قبل في ظل الحكم العلوي ، وبرز هذا العنصر أكثر فأكثر ، في ثورة الشمال واستمرار ثورة الحوز ، خلال حكم مولاي سليمان : الأولى لمدة ست سنوات ، والثالثة لمدة خمس سنوات . وهذا العنصر هو تغذية الاضطرابات في الجهات المذكورة على يد الأسبان حتّى يشغلوا المغرب عن الاهتمام بسبتة ومليلية ويحطموا بقايا الحركة الجهادية على ضعفها ضد السفن الأوروبية ، وبالطبع ، يبحث الاسبان عن عملاء في الميدان الاقتصادي والجمركي من حيث تقف السلطة الشرعية موقفاً أكثر حذراً . وقد ظهرت بوادر ضعف وأخرى متميزة في السياسة المغربية لهذه الفترة :

1 – في الميدان العسكري والأمني :

أهم عنصر نظامي في هذا العهد كان هو عنصر الأوديا خصوصا حامية فاس ، يليهم في درجة أبعد ، عبيد البخاري الذين لم يعد لديهم تأثير كبير في توجيه الأحداث لتضاؤل أعدادهم حتّى وإن بقوا عمليا أكثر عددا من الأوديا ، لكن

---

(102) مقدمة البوعبدلي لكتاب الثغر الجماني للراشدي ، ص 39 – 48 . وبشأن بعض المصادر عن هذه الثورة ، تراجع مقدمة البوعبدلي هذه ، ص 45 – 48 . وانظر أيضاً : الضعيف ، تاريخ ، 184 – 187 . زياني ، بستان ص 171 . أكنسوس ، جيش ، ص 190 – 192 . الناصري : استقصا ، 8 ، 109 . 111 – 113 . ابن عبد القادر ، تحفة الزائر ، 1 ، 75 – 77 ، السليماني ، لسان 102 – 104

هؤلاء كانوا أكثر وفاء للسلطة الشرعية ، ويبدو أن الاهتمام بدأ ينصب على قوة الفرسان أكثر فأكثر ، بالنظر لكثرة التحركات وتوزع المناطق الساخنة . كذلك كان الاعتماد على العناصر السوسية والعربية بصفة عامة ، حيث نرَى إلى جانب العاهل باستمرار الرحامنة الذين اعترفوا لفترة ببيعة مولاي هشام قبل أن يتقوى نفوذ مولاي سليمان . وساهم في القوات غير النظامية كل من دكالة والعرب من أهل الغرب وعبدة وغيرهم . كذلك لم تكن يدراسن بعد عملها في صفوف قوات المخزن لفترة طويلة سوَى مدفوعة إلى الإفلات من سلطة العاهل الشرعي بعد أن أعلنت وامالو وسائر قبائل الأطلس مناهضتها لهذه السلطة ، لكن الخطأ كل الخطأ كان في تنصيب قواد إداريين جائرين أو لا حنكة لهم كما كان الشأن أيضا في الصحراء وغيرها ، وهكذا كان الأمر أيضا ، بالنسبة للقواد العسكريين ، ففي بعض معارك الأطلس عين على رأس القيادة محمد الصريدي وكان مبغضا في أوساط الجيش فجر عليه الهزيمة . ورفضت يدراسن ولاية قائد إداري غير الذي ارتضوه وهو محمد واعزيز . وجر القائد الغنيمي هزيمة كبرَى على الجيش في الشاوية ، وفي إحدَى المواجهات الكبرَى بالأطلس المتوسط عين قائد عسكري من بين كتاب المخزن ولا خبرة له في السياسة ولا في الحرب ، فرفض الضباط تنفيذ تعليماته وانتهَى الأمر بانهزام ساحق للجيش سنة 1215 / 1800 .

ومن مظاهر الضعف في الميدان العسكري والأمني انعدام شبكة استخبارات تزود المخزن بحقائق الأوضاع وتطلعه على ما يريده الشعب وما لا يريده ، وكل هذا في غياب مجلس تمثيلي يتعرف العاهل من خلاله على سير الأحوال بالمناطق ، وإن كان معروفا عن مولاي سليمان توخيه للعدل وتجنبه لسياسة الإرهاق الضرائبي ، ومن شأن المجلس التمثيلي أن يتولى توعية الأمة بقضاياها الوطنية وما يهمها من القضايا الدولية ، وفي الواقع كان مولاي سليمان يصدر عن فتاوي الفقهاء شأن أسلافه ، ولكن أغلب هؤلاء اختاروا وزراء وعمالا ومساعدين في مستوَى المسؤولية والثقة ، وهذا ما لا نجده متوفرا بكفاية في عهد مولاي سليمان بالرغم من استثناءات محدودة .

وقد كان توقيف حركة الجهاد البحري مع تضامن الدول الأوروبية وجشعها إلى السيطرة على الطرق المائية والموارد الاقتصادية في العالم ، وانعدام أية سياسة عسكرية

منسقة بين دول جنوب البحر المتوسط بالنظر لتدهور أحوالها الداخلية نفسها ، عملا رصينا لأن المغرب لم يشهد من ردود الفعل التأديبية في هذه الفترة ما شهدته موانئ الجزائر والقطر التونسي حتّى تعرضا للاحتلال الأجنبي قبل المغرب بفترة طويلة وإن استأنف المغرب حركة الجهاد البحري موقتا وأوقفها نهائيا في وقت متأخر من القرن 19م كما تم أيضا الهجوم على ترابه غير ما مرة قبل احتلاله.

لكن فك الأسطول نفسه لم يكن معقولا ، فقطعه على قلتها كان يمكن الاستعانة بها في حماية الموانئ وخفر السواحل سيما وقد صنعت أساسا لتتحرك بسرعة ولتحمل أسلحة الهجوم والمقاومة[103] . وبالجملة فإن العناية بإعادة تنظّيم الجيش وتجهيز البلاد بالوسائل الدفاعية قد توقفت عمليا أو كادت بعد وفاة مولاي اليزيد ، وإلى حين تنصيب مولاي عبد الرحمن بن هشام ، مع تخلف ظاهر في الكم والنوع والتأطير.

وفي غياب معلومات مغربية دقيقة عن الجيش الملكي لهذا العهد ، يمكن الاعتماد على مذكرة خطية محفوظة بوثائق الدفاع الوطني بباريز من تسع وستين صفحة دونها جاسوس فرنسي من ضباط الهندسة العسكرية ، هو أنطوان بوريل *Antoine Burel* الذي تخرج أيضا من البوليتكنيك وساهم في حروب نابليون بإيطاليا ومصر وهولندا. وحررت هذه المذكرة ثم قدمت إلى نابليون في أواسط 1810م[104] . وقد حضر بوريل في البداية وبصفة رسمية ، مبعوثاً عن بونابارت سنة 1808م ليلفت انتباه مولاي سليمان إلى النفوذ المتزايد للإنجليز بالمغرب وهم أعداء فرنسا ، إضافة إلى استيلائهم على بيرخيل *Peregil* وهي جزيرة صغيرة بجانب سبتة ، مما يسهل لهم الاستيلاء على التراب المغربي كما زعم الوفد الفرنسي برئاسة بوريل ، وقد أحال العاهل المغربي هذا الوفد على أخيه الوزير مولاي عبد السلام الذي أكد للوفد أن المغرب يجابه بالقوة من جابهه كذلك ، وأنه لن يتدخل في عداء بين فرنسا وأنجلترا ، وقد عاق مغادرة بوريل للمغرب وجود سفن أنجليزية تتوافد على موانئ المغرب ، خلال عدة أشهر ، مما أتاح لبوريل تجميع معلومات مركزة عن أوضاع المغرب العسكرية.

---

(103) حول الأسطول في القرن 19م وعملية وقف نشاط الجهاد البحري ، انظر :
L. Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 23

(104) *J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, pp.147-154*

وحسب مذكرة بوريل ، فإن قوات الجيش النظامي كانت تبلغ 36 ألفا نصفهم من العبيد من أعقاب جيش مولاي إسماعيل . ثم 8 آلاف من الأوداية . والباقي ألفان من جروان ثم حوالي ثمانية آلاف من طنجة والعرائش وتارودانت والصويرة . وهذا العدد الذي تكونه جروان مع جند المراكز المذكورة أي نحو 10 آلاف ، وزع بين مختلف المدن ليكون تحت تصرف الولاة بها كما في جهات أخرى للمساعدة على استخلاص الجباية بها . وحسب بوريل . كان راتب الجند ضعيفا : للراجل 40 فرنكاً سنوياً وللفارس 54 سنوياً بما فيها ثمن الفرس الذي يشتريه صاحبه ؛ ويحظَى رب العائلة بمبلغ إضافي وللمتزوج عشرة فرنكات زيادة . كما أن الجيش النظامي أقطع أراضي يزرعها وينتفع منها من غير ضريبة ، أما الفرق غير النظامية فتتكفل بمصاريفها . ومع ذلك فليس للجيش زي رسمي . وهو مسلح ببنادق تقليدية وسيوف وخناجر يستعملها عند الاشتباك المباشر ، أما المدافع فصغيرة الحجم تجلب من السويد وتجر بالبغال والجمال . أما مدافع الأبراج والحصون فغير متينة . وتقدمها الدول الأوروبية كهدايا (في الواقع كجزية) من أردإ أنواع أسلحتها . أما تموين الجيش خلال الحملات فتتكفل به المناطق الخاضعة للمخزن لمدة ثلاثة أيام الأولى . ثم يتعين على الجيش بعدها أداء نفقات تموينه . وأما في المناطق المتمردة فيستخدم الجيش عمليات النهب لضمان تموينه .

ولاحظ بوريل عناية الدولة بالتحصينات في الجهات التي مر منها كفاس ومكناس والقصر والعرائش ووزان وسيدي قاسم وأصيلا . ولاحظ هذا الجاسوس العرضي مختلف الطرق وهي غير معبدة ، وفج زكوطة قرب سيدي قاسم وصعوبة اختراقه إذ كانت له حماية كافية[105] .

أما الأسطول فلم يكن يتجاوز سنة 1809م باخرة حربية صغيرة وأربع بوارج صغيرة وثمان أو عشر بواخر بالمجاذيف .

2 – في الميدان المالي والاقتصادي

اتسمت السياسة المالية في مجموعها بالتقشف في النفقات ، وحصر الضرائب والدخل في الموارد الشرعية ، وهكذا أسقطت المكوس التي فرضت في عهد محمد

(105) يتناول موضوع حماية الأمن في هذا الكتاب دور أجانب وجواسيس آخرين بما فيهم دور الإسباني باديا في عهد مولاي سليمان .

الثالث ، في الأسواق والأبواب (أبواب المدن) وعلى السلع والغلال وعشبة الدخان (التبغ) والجلد ، وذلك خمسمائة ألف مثقال تعادل دخل المراسي ومن هذا المكس كان صائر الجيش النظامي وتجهيزه ورواتبه وسلاحه وكسوته[106] . ويظهر أن سياسة التقشف أدت إلى تقلص في رواج المصنوعات الأجنبية لاسيما في الثياب اكتفاء بالمنتجات الوطنية في الجملة . وكان العاهل نفسه مثلا طبيعيا لذلك[107] . وأخيرا تم اقتلاع عشبة التبغ من المزارع على إثر تدخل المتشددين من الفقهاء[108] .

إن تحركات العاهل بكثرة من أجل الاشراف على عمليات الجباية في جولات طويلة أصبحت تزداد ضرورتها ابتداء من الآن وإلى اقتراب إقرار الحماية الفرنسية بالنظر للدور الذي كان يقوم به بعض الإقطاعيين والزعماء المحليين في حبس الجباية عن الدولة . وهناك بالطبع دور بعض الأمراء الذين حبسوا هم أيضا عن الخزينة المركزية جزءا هاما من مواردها ، ويتعين على الجهات المتمردة أحيانا أن تقدم لهذه الخزينة مبالغ ضرائبية عن بضع سنوات متخلفة حتّى ولو استفادت الحكومات الجهوية المنشقة هي ايضا من مبالغ مماثلة . وهذا يزيد بالطبع من تذمر السكان إذا لم يعفوا فعلا من الازدواج الجبائي . على أنه فيما عدا الفترات المضطربة ، والجهات الساخنة ، فإن السلطة الإدارية هي التي تتولى قبض الزكوات والأعشار[109] وقد سارت العملة الوطنية في طريق الانخفاض قياساً إلى قيمتها ذهباً فبعد أن كان الريال في عهد مولاي اسماعيل يساوي ثلاثة أرباع المثقال ذهبا ، أي سبع أواق ونصفاً . صار في بداية القرن 19م يعادل مثقالا أي عشر أواق[110] ، وابتداء من أزمة إيسلي ازدادت مشاكل النقد الوطني تعقيداً كما سيتضح في باب الأوضاع المالية والاقتصادية .

وأثرت المجاعات والأوبئة تأثيرا خطيرا على الاقتصاد الوطني . فقد حل الوباء بدخول الحجاج سنتي 1799 و1800م ، ففقدت مراكش وحدها فيما قيل 50 ألفا

---

(106) زياني ، بستان ، ص 185 ، والزي العسكري في هذا العهد كان لباسا عاديا شعبياً . واللباس من مخصصات الجيش النظامي (داود ، تاريخ تطوان ، 8 ، 17)

(107) *Hœfer, Op. Cit. p.374*

(108) *Op. Cit.*

(109) ضعيف . تاريخ الدولة السعيدة . ص 318

(110) *Michaux Bellaire, Les crises monétaires au Maroc, Revue du monde mus. T. 38/1920*

من سكانها وفاس 65 ألفا وآسفي 5 آلاف[111] وهكذا ...

واكتسح الجراد مناطق المغرب فيما بين 1225 – 1232 / 1810 – 1816 مما أحدث مجاعة خطيرة وفي 1818 نقلت الباخرة الإنجليزية (التاج) حجاج المغرب من الإسكندرية ثم تبعتها باخرة أخرى إنجليزية أيضا إلى ميناء طنجة ، وحمل هؤلاء الحجاج معهم وباء الكوليرا على ما يحتمل . ورفضت السلطات المغربية أن تفرض عليهم الحجر الصحي كما طلب ذلك قناصل الدول الأوروبية ، فمات على إثر ذلك من سكان طنجة وحدها حوالي ألفين من أصل حوالي عشرة آلاف[112] . و1500 بالرباط و7000 بفاس .. الخ . ورافقت هذه الفترة مجاعة واضطرابات خطيرة بالأطلس .

وهكذا فإن المغرب لم يستفد من التقدم الطبي والسياسة الصحية لدى الغرب مثلما استفاد على نطاق ضيق من بعض التقنيات الحربية والتعامل التجاري الخارجي . وفي الميدان الأخير لم يكن هناك نشاط مستمر على نطاق التبادل ولكنه يكتسي أهمية في بعض الظروف . وقد عمل مولاي سليمان على مراقبة حركة التصدير والاستيراد قدر الامكان ، وعاقب الأطراف المتهمة بالتهريب ، ففي سنة 1209 / 1794 كانت عدة سفن أوروبية تقوم بوسق الزرع من العرائش والصويرة والبريجة وتطوان . أما السفن التي تتحرك من تيط وآسفي وكانتا تحت سلطة عبد الرحمن بن الناصر العيدي فكانت تستولي عليها المراكب الجهادية التي تعمل لحساب الدولة[113] .

وفي 1221 / 1806 حصل الفرنسيون والاسبان والبرتغال على ترخيص بوسق الثيران والشمع من تطوان فسمح لهم بوسق ستة آلاف ثور من هذا الميناء . ومبلغ مائة و18 ألف ريال تقريباً من الشمع[114] .

وضرب الفرنسيون مراقبة شديدة على السفن التجارية الانجليزية التي تتحرك من مينائي تطوان وطنجة في أوائل القرن 19 والتي تتجه نحو جبل طارق أو ماهون .

---

(111) *Hœfer, Op. Cit, p.372*

(112) *Hœfer, Op. Cit, p.376 L. Miège, Op. Cit, p.22*

(113) ضعيف . ص 324 و334

(114) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 . 19

وبسبب هذا الحظار تعرضت السفن المغربية نفسها لمضايقات الأسطول الفرنسي الإسباني ؛ وهكذا فإن عدة سفن من تطوان كمسعودة والغريبة (بفتح الغين) والزايدة وسعيد والمربوحة والموائد كانت تقوم بوسق الجلد والشمع ومواد أخرى من تطوان إلى مرسيليا ؛ وتعرضت السفينتان : المربوحة والموائد لحجز استمر عدة سنوات بفرنسا لاتهامها بالتعامل مع الإنجليز (!) مع اختلاق أسباب جمركية ؛ الشيء الذي أضاف مبررات أخرى لسلطات المخزن في تحرّزها من التعامل التجاري مع أوروبا[115] . وهكذا فبعد أن تمتع الاسبان في أواخر القرن 19م بحرية تصدير القمح من الشاوية . مثلما تمتع البرتغال بتصدير الذرة من عبدة طبقا للمعاهدات المبرمة مع الجانبين . بدأت إجراءات الحد من التصدير يتسع نطاقها حتّى شمل المنع الكلي للتصدير عدة مواد سنة 1230 / 1814[116] خصوصاً بعد أن تأكدت عمليات التهريب من موانئ الشمال[117] . فمنع تصدير الزيت والحبوب والصوف والمواشي[118] ؛ ومن ثم كان لمولاي سليمان العذر في التحفظ من سياسة الباب المفتوح تجاه الأطراف الأوروبية التي لا تحترم سيادة البلاد .

3 - في الميدان الديني

اتّسمت السياسة الدينية بالاعتدال في شتّى المجالات . فمن جهة . لم يلتزم مولاي سليمان نفس الخط الذي سلكه محمد الثالث في العودة إلى أصول الشريعة وحدها لاسيما الحديث الذي نال في عهده مقاما متميزا في الدراسات والتشجيعات المادية . بل إن مولاي سليمان عاد إلى تشجيع الفروع ودراسة المختصرات التي نزل مقامها في عهد سلفه ؛ وكل هذا مع الاستمرار في العناية بالحديث أيضا كأصل أساسي للشريعة ، وكطريق صحيح للسلوك الأخلاقي والديني ؛ ومن جهة ثانية . فإن المغرب يتأثر بالمذهب الوهابي الذي يصبح له أنصار كثيرون . فإلى جانب الاتصالات المباشرة بين المغاربة والوهابين خلال مواسم الحج ؛ هناك مراسلات تبودلت بين علماء المغرب وتونس . وبين مولاي سليمان وسعود . وبعث العاهل

---

(115) *L. Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 21*

(116) *Ibid*

(117) استقصا . 8 . 127 . 128

(118) *Miège, Op. Cit.*

المغربي بوفد إلى السعودية ناقش الملك السعودي وثبت لديه أن الوهابية مذهب سني يدعو إلى ما يدعو إليه المالكية المغاربة مع بعض التشدد لدى الوهابيين. ومن الطبيعي أن يكون بين فقهاء المغرب محبذون للمذهب الوهابي كأكنسوس. ومعارضون كالزياني[119]. وبخصوص هذين الفقيهين. وكلاهما مؤرخ رسمي للدولة. لابد أن نضع في الاعتبار مؤثرات البيئة؛ فأكنسوس المصمودي أكثر تشددا من الزياني الصنهاجي وكلاهما لا غبار على شخصيته الدينية. لكن المذهب الوهابي مع هذا يجد مناخاً له في بيئة أكثر انفتاحا في مجملها وهي البيئة الفاسية[120]. ولا مراء في أن الانفتاح الاجتماعي يخلق بالضرورة وسطاً متشدداً. إن مولاي سليمان لم يعتنق المذهب الوهابي. ولكنه في اتجاهه وسلوكه لم يكن بعيدا عن هذا المذهب. ولذلك أبطل المواسم (الاحتفال السنوي بذكرى الأولياء). وكتب حول زيارة أضرحة الأولياء مذكرة كان لها صدى في إبانها لأنها كانت أيضا موقفا وإجراء رسميا تجاه الأولياء. وهي تخاطب الفئات الشعبية التي تتخذ من أسماء الأضرحة والأولياء وسيطا بينها وبين الخالق[121]. وقرار إبطال المواسم والتنديد بعباد الأولياء لم يكن بالشيء الهين في وقته. بالنظر للنفوذ البالغ الذي كانت تمارسه الزوايا والفقراء في الميدان الروحي على الصعيد الشعبي خاصة. وهو يحتاج إلى شجاعة أدبية كبيرة وتضحية بقدر غير قليل من الاستقرار السياسي في أكثر من منطقة. فقد شكلت عدة زوايا أحزابا سياسية حقيقية كان لها في الميدان السياسي تأثير مباشر. فالزاوية الدرقاوية اكتسحت الأطلس المتوسط ومراكز أخرى بالمغرب. فحلت محل الزاوية الدلائية في الميدان السياسي دون أن تشذ عنها في كثير من الوجهة الروحية. وما الضغط الذي مارسه الشيخ العربي الدرقاوي مدعوما بأبي بكر مهاوش وغيره من زعماء الأطلس؛ لزعزعة مولاي سليمان عن الحكم حتى أوشك مخططه أن يصادف النجاح؛ إلا برهان على تدخل الزاوية الدرقاوية وتورطها في العمل السياسي[122].

---

(119) أكنسوس. جيش. ص 196- 197. الزياني. ترجمانة. ص 388- 402

(120) زياني. م. س. وانظر مزيدا من التفاصيل في فصل الحياة الدينية من هذا الكتاب.

(121) استقصا. 8. 123

(122) انظر عن العربي الدرقاوي وطريقته: محمد البشير الفاسي: قبيلة بني زروال. ص 37- 46. و80- 84

كذلك كان لهذه الزاوية أيضا ، دورها الخطير في أحداث المغرب الأوسط ومساهمتها في إضعاف النفوذ التركي ، وقد قامت هذه الزاوية بتوعية القبائل العربية التي لم تنل اهتماما يذكر من رعاية السلطات التركية ، وأفرزت زعماء كابن الشريف الجزائري وابن الأحرش المغربي . وكلاهما حارب الأتراك وتحدى مدافعهم وقنابلهم .

وإذا كان العربي الدرقاوي قد ألقي عليه القبض خلال محاولات الإطاحة بمولاي سليمان ، إلى أن أطلق سراحه بمجرد تولية مولاي عبد الرحمن . فإن الشيخ العربي الوزاني كان لاجئا بضريح مولاي إدريس بفاس ، وقد وقفت الزاوية الوزانية موقفا مناهضا لمولاي سليمان ولصالح أخيه مولاي مسلمة . وكان لهذه الزاوية نفوذ واسع غرب الريف حتَّى سواحل المحيط ، وقامت في هذه الجهات بدور اجتماعي كبير .

وفي غرب مراكش كانت تقوم زاوية الشراردة بدور شبيه بما كانت تقوم به زاوية أبي الجعد فيما مضَى من إيواء المعارضين للمخزن . وبدأت نواة هذه الزاوية في عهد السلطان محمد الثالث ابتداء من قدوم مؤسسها محمد الشرادي من الحج سنة 1177 / 1763 . والشراردة يتكونون من عدة مجموعات عربية من معقل كزرارة والشبانات وهم أساسها ، وكذا تكنة وأولاد دليم وبلال وآخرون . وكان محمد هذا من تلاميذ أحمد بن ناصر الدرعي . فحل بفاس عند عودته . وتمكن من اجتلاب مريدين حوله ، فبنَى له أنصاره زاوية هناك بدرب الدوح . ثم خلفه نجله المعروف بالمهدي وظهر في عهد مولاي سليمان . فأسس زاوية على مسافة قريبة غربي مراكش ، وتكاثر الشراردة حوله ، فعين السلطان عليهم قائدا منهم اسمه قاسم . ثم لجأ إلى الزاوية أحد أقرباء المهدي . فتمكن القائد من إغراء السلطان باقتحام الزاوية ، وحصل من أجل ذلك على قوة مساعدة من الفرسان ، لكن أهل الزاوية انعطفوا على المهاجمين فسلبوهم خيلهم وسلاحهم . ثم قام أهل الزاوية بإرسال وفد إلى العاهل فقبض عليه بإغراء بعض كبار بلاطه ، وعندئذ زحف العاهل نحو الزاوية . فانكسر الجيش وقتل قائده قاسم الرحماني وهو ممن تولوا القبض على الوفد المذكور . كما قتل أيضا القائد عمر بن أبي ستة ، وهو أيضا ممن قاموا بالقبض على الوفد ثم بدأ سلب الجيش المنهزم ، وثبت العاهل في محلته ، إلى أن وقف دونه كبار أهل الزاوية واستضافوه حتَّى يضمنوا عفوه وحلمه ، وكان ذلك

سنة وفاة مولاي سليمان[123] .

وتحمل الزاوية الشرادية عروقا عدائية قديمة من الشبانات الذين يكونون أحد أهم أصولها والذين سبق أن قاموا بانقلاب في مراكش ضد بقايا الدولة السعدية ثم شردتهم الدولة العلوية ، ومهما يكن من شيء فباستثناء هذا الحادث الخطير . لم يمارس الشراردة نفوذا سياسيا واسع النطاق على غرار درقاوة والوزانيين وبعض الزوايا الأخرى .

وكل هذه المواجهات مع الزوايا المذكورة أو مع أربابها على الأقل ، لم تمنع من وجود علاقة طيبة تجاه العناصر المسالمة أو التي انتهَى دورها في الميدان السياسي . كأحمد التيجاني الذي هاجر إلى المغرب واستقر بفاس منذ 1211 / 1796 وأسكنه العاهل منزلا من أملاكه الخاصة[124] . ولقيه بترحاب كبير وكان يحضر مجالسه . وابن الشريف الفليتي الذي لجأ من الجزائر إلى بني يزناسن ، وكلاهما نجا من بطش الأتراك .

لم يكن هناك إذا تناقض في مواقف مولاي سليمان تجاه الزوايا والأولياء ، فهم مكرّمون وينبغي أن تخضع تعاليمهم وتكريمهم أيضا للسنة . وإذا تورطوا في موقف سياسي معاد للمخزن والسلطة القائمة فإن هذا يعرضهم لغضب السلطان الذي قد يؤدي إلى نكبتهم ، لأن السلطان يمثل السلطتين الروحية والسياسية ، وهو مطالب بتطبيق تعاليم السنة ، وقد تميز عهد مولاي سليمان بنشاط كبير في الميدان المعماري خصوصا بناء المساجد في مختلف أنحاء البلاد[125] .

العلاقات الخارجية

صادفت هذه الحقبة التي تمثل عهد حكم مولاي سليمان تطورات كبيرة على الصعيد الدولي كان لها صدى وتأثير مباشر على مجرَى الأحداث في جهات عديدة من العالم . وبالأخص في العالم العربي والإسلامي :

(123) استقصا . 8 . 160 — 163

(124) استقصا . 8 . 104 . مراكشي : اعلام . 6 . 146 — 147

(125) عدد الناصري جملة كبيرة منها : استقصا . 8 . 172 — 173 . راجع الفصل الخاص بالنشاط المعماري من هذا الكتاب .

1 — الحملة الفرنسية بمصر سنة 1213 / 1798 وتمثل أول عملية لاحتلال أقطار العالم الإسلامي فيما عدا الاحتلالات الجزئية . وكان هدف فرنسا زحزحة انجلترا عن مكانتها في التجارة الدولية بتحويل نقل منتجات الأقطار الآسيوية من طريق رأس الرجاء الصالح إلى البحر الأحمر حيث تتحكم فرنسا في مراقبة حركة النقل الكبرى هذه عن طريق احتلال مصر وشق قناة تصل بين البحرين الأحمر والأبيض . كذلك راقبت فرنسا تحركات السفن البريطانية من جهة جبل طارق . ومن ثم كان وضع المغرب دقيقا في هذه الظروف ، ولكنه حافظ على حياده خصوصا مع ضعفه عسكريا . ولم يبدأ نجم قائد الحملة نابليون في الأفول بعد أكتساحه لاجزاء كبرى من أوروبا إلا عند اندحار الجيش الفرنسي في روسيا (1812) وأتاح ذلك الفرصة لتكتل أوروبا ضد فرنسا .

2 — دخول أوروبا مرحلة الاحلاف عن طريق مؤتمرات أوروبية بما فيها مؤتمر إيكس لاشابيل سنة 1818 والذي كان من ضمن اتفاقياته ما يتعلق بإلغاء القرصنة الدولية .

3 — الاتجاه ببطء نحو الإصلاحات الدستورية في أوروبا بتأثير الثورة الفرنسية والنظام الجمهوري بالولايات المتحدة . وسيؤدي ذلك إلى نشأة الحركات القومية بأوروبا في جهات كانت تتوزعها الانقسامات العرقية أو اللغوية كبلجيكا وألمانيا وإيطاليا ، وسيصبح لكل هذه البلاد شأن في مستقبل الشمال الإفريقي .

ويرى «لومونيتور»[126] *Le Moniteur* أن التحولات التي نتجت عن الثورة الفرنسية قد وصلت أصداؤها إلى الشمال الإفريقي الذي أصبح كسائر الأقطار الإسلامية عندئذ . يتحدث عن الصداقة والتفاهم مع الشعوب المسيحية بعد أن كان منطلقه السيف والاسترقاق ، حتى إن ملك المغرب (مولاي سليمان) يتمنى في خطاب له إلى الأمبراطور الفرنسي أن يختفي ظل الاسترقاق من ذاكرة البشر[127] .

(126) حسب *Hœfer, Op. Cit, p.373*

(127) باسم تحرير الشعوب قامت بضع دول أوروبية باسترقاق أكبر عدد من شعوب العالم لعدة أجيال في العصر الحديث

ا) العلاقات المغربية الإسلامية

وصلت الدولة العثمانية إلى درجة مزرية من تردي الأوضاع الداخلية بحلول القرن التاسع عشر. بل قبل مطلعه بكثير. فإن محاولات التحديث في الميدان العسكري والتي قررها السلطان سليم أدت إلى تآمر الأنكشارية والصدر الأعظم وشيخ الإسلام ضده فنحي عن الملك ثم قتله ابن عمه مصطفَى بن عبد الحميد الذي تولى سنة 1222 / 1807 وكان سليم الثالث ذا طموح كبير إلى إعادة تنظيم البحرية والجهاز العسكري وإحداث التجنيد الإجباري والسير في كل ذلك على الأنظمة الأوروبية. ثم قام بعض كبار الضباط من أنصار سليم بخلع مصطفَى وتولية أخيه محمد بن عبد الحميد. لكن مصطفَى ساعد على إثارة الفتنة فتحرك العلماء ضده وعملوا على قتله اتقاء للفتنة[128].

وخلال ولاية مصطفَى بن عبد الحميد التي لم تطل أكثر من سنة وشهرين. كانت الأحوال مضطربة في أطراف الامبراطورية العثمانية ومع الروس الذين استولوا على عدة مراكز جهة تطونة. فكاتب العاهل العثماني ملك المغرب سنة 1222 / 1807 يطلب منه أن يتولى إقامة مراقبة بحرية على السفن الروسية من جهة مضيق جبل طارق حتّى يمنعها من الاتجاه عبر البحر المتوسط حيث تشن هجماتها على الجزر الخاضعة للسلطة العثمانية، وقد قامت القطع المغربية بأداء مهمتها دون أن تصادف سفنا روسية[129].

والواقع أن السلطة العثمانية قد تضعضعت في غير منطقة من مناطق نفوذها. فقد وضع محمد علي يده على مصر بعد خروج الجيش الفرنسي. وأصبحت الجزائر وتونس قريبتين من الاستقلال التام؛ وتصرف حكام العراق وسوريا تصرفا استبدادياً، ووقفت الحركة الوهابية السعودية بصمود تجاه الحكم العثماني والتدخل المصري، وحركت روسيا مناطق البلقان ضد السلطة العثمانية.

وفي غمرة هذه الأحداث عرف المغرب المسلم كيف يوفق بين التعاطف العقائدي

---

(128) أحمد بن زيني دحلان. الفتوحات الإسلامية. 2. 305 – 310

(129) الاستقصا. 8. 113. نقلا عن الزياني (البستان)

مع الحركة الوهابية والحفاظ على أطيب العلاقات مع الدول الأوروبية والأقطار الإسلامية . في سنة 1226 / 1811 تلقى السكان خطابا من باي تونس حموده باشا (ت 1229 / 1814) الذي كان من أبرز بايات تونس وأنشطهم في الحفاظ على الشخصية التونسية وتنظيم الإدارة التونسية . وكانت هذه السنة سنة مجاعة بتونس مثلما كانت المجاعة والأوبئة تفتك بآلاف الأشخاص بالمغرب فيما بين 1810 – 1816[130] . وقد طلب الباي مساعدة تونس بالمواد الغذائية التي لم يبخل المغرب بها مع ظروفه المشابهة . وكان الوفد التونسي برئاسة العالم الاديب إبراهيم بن عبد القادر الرياحي[131] .

وفي سنة 1226 / 1811 تلقى العاهل المغربي مذكرة غير مباشرة وجهت من فقهاء تونس إلى فقهاء المغرب بشأن الدعوة الوهابية . فأمر العاهل الفقيه حمدون ابن الحاج بالرد عليها ، وكان الرد في جملته إيجابياً لأن الموقف المغربي السني مشابه في كل المبادئ الأساسية للدعوة الوهابية مع اختلاف في الممارسة ، وإن كان الوهابيون لا يعملون بالعقيدة الأشعرية[132] . وقد حمل الجواب الملكي وفد يقود ركب الحجيج في السنة المذكورة إلى المملكة السعودية . وتصرف العاهل المغربي بوصفه أمير المؤمنين في القطر المغربي حيث ارتأى أن يخاطب مباشرة ، المسؤول الرئيسي عن تطبيق المذهب الوهابي سعود بن عبد العزيز المعروف بسعود الكبير . وكانت رئاسة الوفد للأمير إبراهيم بن مولاي سليمان ، وضمن الوفد جماعة من الفقهاء البارزين كالقاضي محمد بن إبراهيم الزداغي (بشد الدال) ، والعباس بن كيران . ولقي الوفد عناية فائقة لم تلقها وفود أخرى . كما زار القدس والشام ومصر وأنفق أموالا طائلة في وجوه البر حتّى اضطر الأمير مولاي إبراهيم إلى الاقتراض لتغطية مصروفاته الخيرية[133] . ورجع الوفد كما ذهب في باخرة بريطانية ، واستقبل بالمغرب كما ودع في احتفالات رسمية وشعبية فاخرة[134] .

---

(130) *Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 22,*

(131) استقصا . 8 . 118

(132) راجع ما يتعلق بالميدان الديني من عهد مولاي سليمان

(133) أكنسوس . الجيش العرمرم . ص 196 – 199

(134) ن . م

ب) العلاقات مع الغرب

تناولت العلاقات السياسية مع الغرب جملة من الميادين التي كانت تشغل كذي قبل ؛ اهتمامات المغرب والأقطار الأخرى المعنية . خصوصا قضايا الأسرى مع تناقص أعدادهم بالمغرب تبعا لتقلص نشاط حركة الجهاد البحري . وكذا شؤون التبادل القنصلي والدبلوماسي وتطبيق بنود المعاهدات الثنائية السابقة . علما بأن حركة التبادل التجاري حتّى مع نشاطها النسبي تقلصت مع معظم الأطراف الأوروبية بسبب المضايقات التي لقيتها السفن المغربية من الإجراءات الشكلية وتفاقم الوضع في حوض البحر المتوسط انطلاقا من مضيق جبل طارق حيث تحاول السفن الفرنسية أن تحاصر تحركات البواخر البريطانية كما كانت تفعل هذه أيضا تجاه السفن الفرنسية . وأمام تحركات الأساطيل العملاقة أصبح نشاط حركة الجهاد البحري المغربي ضعيفا منذ عهد مولاي سليمان . بل إن هذا الضعف بدأ يلاحظ من عهد السلطان محمد بن عبد الله[135] .

وبالمقابل نشطت حركة القرصنة الفرنسية فيما بين 1791 – 1815[136] حتّى تدخلت وزارة العلاقات الخارجية الفرنسية غير ما مرة لتعويض ضحايا القرصنة . وكان من بين هؤلاء مغاربة قد يبقون في الأسر سنوات عديدة قبل النظر في أمرهم ؛ ومن بينهم شخصان أبحرا من تطوان سنة 1797 ؛ وهما عبد السلام عمير ومحمد عبد الغفار (؟) كما استولى القراصنة الفرنسيون على باخرة ملكية وتدخل العاهل لاستخلاصها وبعث بوفد إلى حكومة الثورة مكون من الفقيه عبد الرحمن ابن زكور من فاس والحاج محمد بن صالح من آسفي . وقد وقع هذا الأخير هو أيضا في الأسر. فكتب السلطان خطابا إلى حكومة الثورة يذكرها بالمعاهدات التي يجب أن تحترمها كما يلتزم بها الطرف المغربي[137] . وأخيرا رفع الحجز عن البضائع المقرصنة بقرار صدر عن حكومة الثورة في 28 مارس 1799 كما أطلق سراح المحتجزين عن طريق القنصل الفرنسي بسانتاكروز تينيريفي .

---

(135) *Hanon Rosette - Reynaud, Hespéris, 1960, p.552*

(136) *Ibid*

(137) نص الخطاب في المصدر المذكور . ص 554 . وهو مؤرخ بـ 22 ربيع الأول 1213هـ

وفي 1807 ، وبعد تنصيب نابليون الأول أمبراطورا بفرنسا ، أوعز القنصل الفرنسي دورنانو *D'Ornano* إلى الأمير عبد السلام وزير مولاي سليمان بإرسال بعثة دبلوماسية إلى فرنسا لتهنئة نابليون ، وبعد أخذ ورد وافق العاهل المغربي فوجه الحاج إدريس الرامي نجل نقيب الشرفاء الادارسة على رأس وفد كبير يرافقه تاجر فرنسي من العرائش للقيام بمهمة الترجمة ، واستقبل الامبراطور الحاج إدريس في 7 شتنبر 1807 ، وألقى المبعوث المغربي خطابا بالعربية هنأ فيه الامبراطور وعبر باسم العاهل المغربي عن أمانيه باستمرار الصداقة بين البلدين ، وعرض عليه قبول الهدايا التي حملها من المغرب .

وعلى إثر هذه السفارة نشطت العلاقات التجارية بين الجانبين ، إلى حين توقفها بسبب الحصار المتبادل بين السفن البريطانية والفرنسية[138] .

كانت السنوات الأولى من القرن 19م محرجة للمغرب بسبب محاولات الدول الكبرى جره إلى أحلافها وتنافسها في ذلك بالنظر لموقع المغرب على مضيق جبل طارق والمحيط الأطلسي حتى إن الإنجليز كانوا يطلقون الإشاعات بقرب تدخل فرنسي عسكري بالمغرب . وتمكنوا سنة 1223 / 1808 من الحصول على قاعدة عسكرية في الجزيرة الصغيرة بيريخيل *Peregil* قرب سبتة بالضغط على مولاي سليمان[139] . لكن المغرب ظل صامدا في وجه الأحلاف[140] مما أثار اتهامه بالانغلاق في هذه الفترة .

واهتمت فرنسا اهتماماً شديداً بالشمال الإفريقي في هذه الفترة ، وكان نابليون بونابارت تراوده أحلام الاستيلاء على المنطقة في وقت مبكر وقبل احتلال إسبانيا سنة 1223 / 1808 ، وتتوفر وثائق الخارجية الفرنسية على ملفات ضخمة تضم أكداسا من التقارير الواردة من المغرب والجزائر وتونس عن موارد هذه البلاد وطرق الاستيلاء عليها[141] . وفي هذا الإطار ساهمت مذكرات جاسوس إسباني

---

(138) *Hœfer, Op. Cit, p.373* *J. Caillé, Hespéris, 1960, 12. 62*
وحسب كايي ، كانت السفارة بروتوكولية دون نتيجة ، وهو خلاف ما عند هوفر .

(139) *Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 19, Comment. 1*

(140) *Op. Cit* وانظر أيضا عن موقف الانجليز ضد فرنسا داخل المغرب : محمد الفاسي ، مجلة تطوان 1960 ، ص 28

(141) *Hanon Rosette - Reynaud, Op. Cit, p.556*

عمل لحساب بلاط نابليون . وهو دومينكو باديا إي ليبليتش *Domingo Badia y Liblich* الذي أدّى مهمة مشابهة قبل ذلك لحكومة بلاده . ودومينكو هذا من مواليد قطلونيا ودرس بكيفية مستقلة ومعمقة دراسة علمية شملت الفيزياء والعلوم الطبيعية والرياضيات ، وكانت رغبته أن يقوم برحلة للأقطار الإفريقية ويدون مذكرات عن مشاهداته كمغامر . ثم قدم مشروعه إلى كودوي *Godoy* رئيس الحكومة الإسبانية المعروف بأمير السلم *«Le Prince de la Paix»* فارتأت الحكومة أن تستخدم هذا المغامر دبلوماسياً كبيرا . على أن يقترح على العاهل المغربي التنازل لاسبانيا عن مينائين وامتيازات تجارية في مقابل مساعدة إسبانيا له عسكريا على قمع إحدَى الثورات بالجنوب . وأنه في حالة رفضه يتولى الدبلوماسي التفاهم مع مدبر الثورة المذكورة . ولما كان دومينكو يتقن عدة لغات بما فيها العربية فقد انتحل شخصية تركية من حلب . ولقب نفسه بعلي باي العباسي(142) وارتدَى الزي العربي ثم توجه إلى طنجة في 20 يوليو 1803 ومعه أموال وهدايا متنوعة . وكان قد حصل في نفس الوقت على تشجيعات من حكومة نابليون من باريز التي زودت قنصلها بتعليمات لتسهيل مهمته . ثم اتصل بمولاي سليمان وحاول أن يقنعه بالتفاهم مع إسبانيا وتخويلها الامتيازات المذكورة لكن دون نتيجة ، ومع إعجاب العاهل بثقافته ومجالسته فقد أغدق عليه الصلات ووهبه عدداً من الأملاك بمراكش وخارجها . وأثناء ذلك كان يتصل بخصوم العاهل في الصويرة ، وطال مقامه حتَّى توصل سنة 1220 / 1805 بتعليمات من كودوي للقيام بتحريك بني يزناسن حول وجدة ضد السلطة الشرعية . وعندئذ حامت شكوك المخزن حول تحركاته . فلاحقته قوة عسكرية . وحاول أن يلتجئ إلى الجزائر فتعقبته القوة في غشت 1805 ثم نقلته إلى العرائش . ومنها أبحر إلى طرابلس . وقد هيأ هذا الجاسوس المناخ لجاسوس آخر من فرنسا هو

---

(142) كتبت عنه عدة دراسات . منها :

A. Casas, Ali Bey, Viajes y aventuras Badia, Barcelone, 1948. J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 142—146. De Castries, Revue des deux mondes, Septembre 1909.

وكتب علي باي العباسي مذكراته بالاسبانية وترجمت إلى الفرنسية بعنوان :

Voyages d'Ali Bey El-Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années 1803, 4, 5, 6, et 7, Paris, 1814

القبطان أنطوان بوريل الذي حل بالمغرب سنة 1808 ودون معلومات عسكرية ذات أهمية وقد سبق ذكرها بإيجاز[143].

إن أهم عنصر سياسي في تدخلات علي باي العباسي لدَى مولاي سليمان وفئة المثقفين بالمغرب، هو اقتراح مشروع دستور للمملكة المغربية. وكشف علي باي عن كونه حصل بهذا الشأن على إذن من حكومة بلاده. كما كشف عن السر في هذا الاقتراح في خطاب وجهه إلى نابليون من بايون. بتاريخ 14 مايو 1808. ذلك أن تطبيق الدستور سيؤدي كما قال إلى «فتح الموانئ المقفلة بسبب تعصب مولاي سليمان، وإلى حرية التجارة والضمانات الطبيعية للأجانب في البلاد، وإغاثة إسبانيا التي تهلك جوعاً بينما المغرب يطفح زرعاً، الخ...»[144].

ويشير الخطاب إلى ترحيب علماء فاس بالدستور ورفض العاهل للمشروع. ولما كانت المصادر العربية المتوفرة حتّى الآن لا تشير إلى هذه النقطة، فإن الثقة في ما دونه الجاسوس الإسباني تتطلب التحفظ بالنظر لأن هذا الجاسوس يقدم نفسه كشخصية كبيرة ويكتنف الادعاء مروياته[145]. غير أنه لا شيء يدعونا إلى الشك في عرض مشروع الدستور أو فكرته من لدن الجاسوس الإسباني.

على أن وجود عاهل من أسرة بونابارت بإسبانيا لم يكن ليبعث الاطمئنان في نفس السلطة المغربية وقد أصبحت سبتة حينئذ خاضعة للسلطة الفرنسية. ومعها أيضا مليلية والأجزاء المغتصبة شمالا، ولما كانت سبتة القريبة من جبل طارق أكثرها أهمية بالنسبة للجيش الفرنسي. فقد عرض العاهل جوزيف بونابارت سنة 1810 على السلطة المغربية أن تتنازل عن أجزاء من التراب الوطني حول سبتة مقابل تنازل الطرف الآخر للمغرب عن مليلية والحسيمة وبليونش. غير أن الثورة الشعبية في إسبانيا ضد الحكم الفرنسي جعلت العاهل المغربي يتريث في اتخاذ القرارات. معتذراً للقنصل الفرنسي دورنانو بأنه ينتظر أن يوفد إلى جوزيف بعثة ديبلوماسية لتهنئته بعد أن يسود حكمه سائر التراب الإسباني (بالنظر للثورات القائمة هناك). ولاحظ الدبلوماسي الفرنسي في مذكراته أن الخطابات ظلت تتبادل مع المغرب في

---

(143) راجع ما سبق عن الميدان العسكري والأمني ضمن السياسة الداخلية في عهد مولاي سليمان

(144) نشر نص الخطاب في *Hanon, Hespéris, 1960, pp.556-558*

(145) *Op. Cit, p.599*

حلقة مفرغة . في الوقت الذي تتقاطر فيه على جبل طارق حبوب المغرب ومواشيه(146) . غير أن قرار العاهل المغربي بوقف حركة الجهاد البحري سنة 1233 / 1817 كان له وقع إيجابي لدَى الأطراف الأوروبية .

وأعطَى مولاي سليمان دليلا آخر على لباقته وإنسانيته عندما افتدَى من الأسر مجموعة من غرقَى إحدَى السفن الفرنسية ، وكانت متوجهة من فرنسا إلى البرازيل . فقادتها الرياح إلى ساحل وادي الذهب جنوب رأس بوجدور ، وغرقت في 30 مايو 1819 فنجا ستة منها سباحة إلى الشاطئ حيث تلقفهم السكان وتنقلوا في الأسر بين رجال القبائل وعاشوا في ظروف قاسية من الكد والجوع إلى أن أصبحوا في ملك الشيخ بيروك زعيم منطقة وادي ومدينة نون قرب أكلميم بنحو 15 كلم غرباً . (وكانت تدعَى قديما بتاكاوست (كاف معقودة) ، وتحمل الآن اسم القصابي) . ومن هناك كتب الأسرَى إلى القنصل الفرنسي بالصويرة حيث تدخل لدَى العاهل الذي وجه عندئذ تعلياته لعامل سوس القائد الجيلالي بافتداء الأسرَى بأي ثمن ثم حرر الأسرَى ونقلوا إلى طنجة التي كانوا ينتظرون الإبحار منها لفرنسا ، لكن عدم رسو أي باخرة لمدة ستة أشهر بسبب وباء كاسح جعلهم يؤجلون سفرهم إلى يناير 1820 . وقد كتب أحدهم وهو كوشلي ***Cochelet*** مذكرات عن غرق الباخرة (صوفيا) ومشاهداته بالمغرب خلال ثلاثة أشهر من الأسر وسبعة أشهر من الحرية(147) بالمغرب .

وحافظ المغرب على أطيب العلاقات مع الدولة الإسبانية حتَّى في ظروف أزمة العرش التي حدثت إثر وفاة سيدي محمد بن عبد الله وذلك باستثناء الأزمة التي نشأت في عهد مولاي اليزيد ، بين الطرفين ، المغربي والإسباني . وهكذا فما أن أعلن عن وفاة مولاي اليزيد حتَّى كاتب مولاي سلامة (مسلمة) الحكومة الإسبانية في 4 رجب 1206 / 1792 يعرض عليها عقد معاهدة صلح(148) ويخبرها بوفاة

---

(146) *Op. Cit, pp.559-561*

(147) *Hœfer, Op. Cit, p.373-374. Caillé, Op. Cit. pp, 155-166 Ch*

ومن المراجع عن الأسرى

Penz, Les Captifs français au Maroc, 1944, Salamon Reinach, Relation de ce qui s'est passé dans trois voyages... Paris, 1724 Abbert, Savine, Dans les fers du Maghreb. Paris. Edit. Louis Michaud, 1912

(148) خطاب بامضاء الطاهر فنيش . 161 – 160

مولاي اليزيد وأخيه هشام . وفي الحقيقة لم يتوف مولاي هشام إلا بعد بضع سنوات . كما أن إسبانيا كانت ضالعة في الفتنة بين ادعياء العرش بعد وفاة محمد الثالث . وتجددت الخطابات بهذا الشأن ؛ أي فيما يتعلق بمعاهدة الصلح بعد تولية مولاي سليمان التي تمت بفاس في 17 رجب من السنة المذكورة ، وقد كان مولاي مسلمة قبله . مثل مولاي هشام يلحان على الدولة الإسبانية في إقامة علاقات من شأنها أن تسمح لكل منهما بالحصول على تأييد جارة قوية لتثبيت دعائم ملكه خصوصاً بالتوفر على السلاح اللازم لمجابهة خصمه ؛ أما أهداف مولاي سليمان فكانت أشد حذراً وأقوَى حرصاً على المصلحة الوطنية . ولذلك لم يبادر إلى التطارح على إسبانيا لحملها على عقد معاهدة قد تكون أوسع امتيازات من معاهدة 28 مايو 1767م . وهكذا نرَى أنه لم يتم التوصل إلى معاهدة جديدة بعض بنودها فيه مراجعة أفضل بالنسبة للمغرب لمعاهدة 1767 إلا في 22 رمضان 1213 / فاتح مارس 1799 أي قبل وفاة موقعها عن الطرف المغربي ببضعة أشهر ؛ وهو الوزير الأكبر محمد بن عثمان المكناسي ، وكانت وفاته خلال الشهر الأول من السنة الهجرية الموالية[149] . وكان العاهل الإسباني في ذلك العهد هو شارل الرابع (ت. 1223 / 1808) . وكانت إسبانيا وقت إمضاء المعاهدة مع المغرب في نزاع مسلح مع أنجلترا والبرتغال . أي أن الظروف التي تم فيها الصلح مع الطرف الإسباني بعد آثار التوتر التي تركها عهد مولاي اليزيد كانت لصالح المغرب بصفة خاصة . وتناولت المعاهدة العلاقات القنصلية وأمن الرعايا والمصالح التجارية[150] .

وبالنسبة للعلاقة مع الولايات المتحدة فقد أعاد المغرب التصديق على المعاهدة المبرمة معها في عهد السلطان محمد بن عبد الله[151] . لكن بعض الأحداث عكرت صفو العلاقات لأمد قصير . ففي سنة 1217 / 1802 كانت العلاقات الامريكية

= *Palau, Cartas arabes, pp.160-161* . وهناك أيضا خطابات بامضاء الوزير ابن عثمان الذي حظي بثقة العواهل منذ عهد محمد بن عبد الله . انظر . ن . م . ص 164 . 168 — 170

(149) الاستقصا ، 8 . 160 . محمد الفاسي . م . س . ص 30

(150) نشرت هذه المعاهدة من قبل الأستاذ محمد عزيمان في مجلة *Tamùda (Titwàn) n°4/1956*

(151) انظر النص العربي للمعاهدة في مجلة تطوان 58 — 1959م . مع تقديم للأستاذ م. بن تاويت

مع ولاية طرابلس (ليبيا) متوترة بسبب نشاط هذه الولاية في اعتراض سفن الولايات المتحدة والاستيلاء عليها . ولما كان المغرب يمد هذه الولاية مثل سائر أقطار المغرب الكبير بالمواد الغذائية ، فقد حاصر الأسطول الامريكي سفينة مغربية بجبل طارق . وكانت مشحونة بالقمح المعد لطرابلس . وقد أغضب هذا التصرف العاهل المغربي الذي دعا سمبصن قنصل الولايات المتحدة بطنجة إلى مغادرة التراب المغربي عندئذ . ولم تسو المشكلة إلا بتزويد الجيش الملكي ببطارية مدفعية من لدن الولايات المتحدة وبالإفراج عن السفينة المحتجزة ، ثم تأكد أن الباخرة المغربية ظلت تمد القوات التركية التي كانت تحاصرها السفن الامريكية بطرابلس وفي عرض البحر المتوسط . فاحتجز الأسطول الامريكي الباخرة المذكورة بمالطة وانتقاما من هذا التصرف العدواني الامريكي عمدت سفينة جهادية مغربية إلى مهاجمة سفينة أمريكية قرب طنجة واحتجازها بأمر من باشا طنجة . فتدخل الأسطول الامريكي الذي كانت إحدى قطعه تشاهد عن كثب وبصدفة ، عملية احتجاز السفينة الامريكية . ورسا بميناء طنجة ، وفي ذات الوقت وقع احتجاز باخرة أمريكية أخرى بميناء الصويرة كما أن القنصل سمبصن فرضت عليه الإقامة الإجبارية . غير أن مولاي سليمان بادر إلى تسوية هذا النزاع الخطير بسرعة ولباقة ، فأفرج عن السفينة الامريكية بميناء الصويرة ، وعزل باشا طنجة ، وبالمقابل تم الإفراج عن السفينتين المغربيتين بكل من مالطة ومضيق جبل طارق ، وأكد المغرب احترامه للمعاهدات المبرمة . ومعلوم أن المعاهدة المغربية الامريكية تتضمن بنوذا عديدة تتعلق بالقوانين البحرية . كما أن البند الثاني يمنع على الدولتين السماح لسفن كل منهما بمساعدة عدو الطرف الآخر[152] .

على أن الأسطول الامريكي مالبث أن قام بعملية استعراض عضلاته أمام طرابلس سنة 1220 / 1805 وكانت الدولة العثمانية تجتاز آنذاك أزمة عرش حادة . وفي نفس السنة تمكن الأسطول البريطاني بقيادة الأميرال نلسن من تحقيق انتصار كبير على الأسطول الفرنسي الإسباني عند رأس طرافالكار (كاف معقودة) بأقصى جنوبي إسبانيا ، وبذلك تضاءل الضغط الامريكي والفرنسي على تحركات القطع المغربية لعدة سنوات . وكيفما كان الأمر فقد حظي الطرف الامريكي بتقدير

---

(152) م . س .

خاص من الدولة المغربية لأنه كان أبعد الأطراف الأجنبية عن الروح الاستعمارية[153] . وكان لكارلوس الثالث الإسباني دور أساسي في إقامة علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة وإقرار معاهدة 1786م[154] التي بها تم اعتراف المغرب بالجمهورية الناشئة[155] .

وفاة مولاي سليمان 1238 / 1822

كانت الصدمات النفسية التي احتملها مولاي سليمان طيلة ملكه الذي دام أزيد من ثلاثين سنة برهانا كافيا على أن هذا العاهل كان على قدر كبير من الشجاعة الأدبية والمادية . لكن كل صدمة تترك بعض آثارها متى تلتها أخرى ، والصدمات التي عاناها مولاي سليمان لم تؤثر في شخصه بقدر ما أثرت في سير أحوال البلاد . وأخيراً عمدت بعض عناصر الشياظمة وذوي بلال إلى نهب عائدات مرسَى الصويرة وكانت مبلغاً كبيراً ، فزاد ذلك من آلام العاهل نفسياً ، وأثر عليه جسدياً فاعتراه المرض ، وأوصَى بولاية العهد لمولاي عبد الرحمن بن هشام . وقد ورد نص العهد

---

(153) م . س

(154) م . س

(155) انظر عن العلاقات مع الولايات المتحدة الامريكية : م . س .

Hœfer, Op. Cit, p.373. R. Le Bel, Bulletin d'enseignement, n°161, 1983, Rabat. Caillé, Petite Histoire, 2, 118. Hall (Luella) : The United States and Morocco (1776-1956) Scerecrow -Press. Metuchen (N.J.), 1971.

ومن الوثائق التي تهم العلاقات مع اسبانيا . ما يوجد في :

Archivo general de Simencas, Archivo general militar (شقوبية) *Covona de Avafou* (برشلونة)
Rouard de card, Les relations de l'Espagne et du Maroc pendant le 18e et le 19e siècles. Paris, 1905. Edit. A. Pedone

وعن العلاقات المغربية الفرنسية : 1889

Rouard de Card, les traités entre la France et le Maroc, Paris 1898 :
Lucette Valensi, Le Maghreb avant la prise d'Ager, Paris-Flammarion, 1969.

De Castries, Sources inédites de l'histoire du Maroc, 2e série, France. L. Chénier, Recherches historiques sur les Maures... 3 Vol. 1878.

وعن العلاقات مع أوروبا بوجه عام :

A. G. P. Martin, Le Maroc et l'Europe, Paris, 1928.
Hanser, Histoire diplomatique de l'Europe (1871-1914). Paris, 1929

وهذا الأخير يمثل حقبة متأخرة عاصرها مولاي الحسن إلى أوائل الحماية الفرنسية (عهد مولاي يوسف). ولا تشمل هذه المصادر والوثائق والمراجع إلا قليلا من كثير.

لدى الناصري والمشرفي وغيرهما . وحرر في رابع ربيع الأول 1238هـ وساهم في تحريره بعض نساء القصر والكتاب . ثم قرئ بفاس . والحقيقة أنه لم يكن ولاية عهد فحسب . بل كان تنازلا عن الملك لصالح ابن أخيه هذا ، وقد توفي مولاي سليمان بعد تحرير العهد بتسعة أيام أي في 13 ربيع الأول 1238 (28 نونبر 1822) ودفن بضريح جده مولاي علي الشريف بباب أيلان بمراكش .

وقلما حظي ملوك العصر الحديث بما حظي به مولاي سليمان من إجماع المؤرخين على التنويه بمثاليته ونبل أخلاقه كملك . قال عنه المشرفي في الحلل البهية . «لم يكن في ملوك عصره أعدل منه ، وكان يلبس الصوف ، وربما رئيتْ ثيابه مرقعة» . ونوه أبو القاسم الزياني في «البستان» بشمائله وحرصه على تتبع أحوال ملكه وقال : «لا يقع في دولته حل ولا عقد إلا بتوقيعه مع قلة المعين والناصح» . كذلك يقول الناصري : «وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته» .

ومما وصف به هوفر . مولاي سليمان قوله : «كان من أحسن ملوك دولة الأشراف . وكان على وجهه سمات الطيبوبة . ملازما لتعاليم الإسلام التي يتشبث بها» .



الفصل السادس
المغرب في مواجهة الغزو العسكري الأجنبي شرقا وشمالا

1238 - 1290 (1822 - 1873)
مولاي عبد الرحمن ومحمد الرابع

بيعة مولاي عبد الرحمان

تلقّى مولاي عبد الرحمن بن هشام بمجرد وفاة عمه . بيعة أهل فاس وجيش الأودايا بها وسائر فرق الجيش النظامي . واعتبر أكنسوس عهد مولاي سليمان إلى ابن أخيه بالخلافة أكبر حسنة سجلها الملك الراحل ، وكان مولاي عبد الرحمن خليفة بفاس وقت وفاة مولاي سليمان .

وقد سبق أن تولى مولاي عبد الرحمن منصباً مماثلا بالصويرة حيث كانت مسؤولياته تشمل أيضا . الإشراف على الشؤون المالية والجبائية والجمركية بالمنطقة . وقد مكنه ذلك من التمرس بالشؤون المالية والعودة إلى إحداث أمكاس جديدة أو إحياء أخرى قديمة . وعندما كان مولاي سليمان يجابه اضطرابات الشمال استقدمه من الصويرة على رأس فريق من الجيش لمساعدته ، ثم رافق مولاي سليمان إلى فاس سنة 1237 / 1821 لإخماد القلاقل التي نشأت على إثر مشايعة فاس للأمير السعيد ابن اليزيد بعد موت أخيه إبراهيم بن اليزيد . وقام مولاي عبد الرحمن بدور الوسيط في استسلام السعيد وحصوله على عفو العاهل . وبمجرد عودة فاس إلى بيعة مولاي سليمان وتهدئة الأوضاع عين مولاي عبد الرحمن خليفة بها في أواخر رجب من العام المذكور . وما لبث مولاي سليمان بعد التحاقه بمراكش أن أصيب بمرض وفاته فعبر غير ما مرة عن رغبته في التنازل عن العرش وإسناد الولاية لابن أخيه مولاي عبد الرحمن ، إلى أن حرر عهده النهائي المذكور في أحداث وفاته كما سبق .

على أن خبر وفاة مولاي سليمان لم يصل إلى فاس إلا في السادس والعشرين من ربيع الأول 1238 ، فتكون البيعة في أخريات هذا الشهر ، أي أوائل دجنبر 1822م[1] . غير أن بربر الأطلس المتوسط بزعامة أبي بكر بن مهاوش والحاج محمد بن الغازي الزموري قرروا رفض بيعة السلطان الجديد والقضاء على أنصار أسرة مولاي سليمان وانضمت إليهم العشائر العربية الغاضبة وبينها قسم من بني حسن وزعير واكثر عرب تادلا . لكن أسرة الشيخ العربي الدرقاوي السجين بفاس تدخلت لدَى ابن الغازي حتَّى يسعَى في تسريح الشيخ لدَى العاهل . ولما كان ابن الغازي من شيعة الدرقاوي لم يسعه إلا أن يتقدم ببيعته وهداياه إلى السلطان بفاس . ملتمساً إعلان عفوه عن الزعيم الصوفي المنكوب . واستجاب السلطان لرغبة ابن الغازي وأعز مقام ابن الغازي إلى أن نكبه فيما بعد ثم أعلنت آيت يدراسن بيعتها بزعامة الحسن بن حمو واعزيز[2] . وبذلك أمن المخزن جانب الأطلس المتوسط إلى حين .

الأوضاع الداخلية

ظلت مناطق التحرك وصنع الأحداث مع بعض الاستثناءات ، هي نفسها التي عرفت في عهد مولاي سليمان وأسلافه . غير أن هذه الأحداث لم تتخذ قط طابع الخطورة الذي اكتسته في العهد السابق . فقد انشغل المغرب بأحداث دبرت من الخارج أو بجواره ، وكان لها صدى كبير وانعكاسات على مستقبل الشمال الافريقي بأسره وعلى تاريخ الاستعمار الفرنسي بإفريقيا جملة . فلننظر أولا في الأوضاع الداخلية :

1 - الشمـــال :

كانت قبيلة الأخماس المجاورة للشاون قد ثارت فيما بين 1208 – 1214 (1793 – 1799) بزعامة فقيه اسمه محمد بن عبد السلام زيطان الذي تم القبض عليه في النهاية ولكنه ظل وفياً للمخزن إلى وفاة مولاي سليمان . وقد عادت «الأخماس» إلى الثورة من جديد بزعامة زيطان هذا أو بزعامة أحد أفراد أسرته .

---

(1) حول بيعة مولاي عبد الرحمن : أكنسوس . جيش . ص 229 ، ناصري . استقصا . 9 . 6 . 377

(2) استقصا ، 9 . 6 – 7

لأنه كان قد طعن في السن في أواخر حكم مولاي سليمان . وفي فترة ثورته سنة 1241 / 1825 كان يتولى قيادة قبيلته . وتولى عامل تطوان محمد أشعاش إلقاء القبض عليه ، فهنأه السلطان على ذلك ، وأسند إليه شؤون «الأخماس» حسبما جاء في أمر ملكي[3] ؛ كما أمره في خطاب آخر بحيازة زكاة القبيلة التي كانت بإشرافه[4] .

وقد أدرك مولاي عبد الرحمن أن وضعية غمارة من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية تتطلب أكثر ما يمكن من المرونة وحسن الإصغاء إلى متطلباتهم ، حتَّى إن ولاية غمارة أسندت مرارا إلى عامل تطوان المذكور وعزل عنها مراراً ليتولاها أشخاص يرشحهم السكان ثم سرعان ما يضيقون بولايتهم ، وقد يلوذ ممثلوهم بالزاوية الحراقية بتطوان أو بالزاوية الوزانية بوزان تظلما وفراراً من بطش السلطة . لذلك نراه يوصي العامل برعايتهم . وعند الاقتضاء بالتعاون الصادق مع من يوليه العاهل برغبة منهم[5] . وقد كثرت تشكيات غمارة على الخصوص سنة 1247 / 1831 حيث كانت الأحداث بجوار المغرب شرقاً غير مريحة بسبب الاحتلال الفرنسي للجزائر .

على أن قبيلة الأخماس مالبثت سنة 1256 / 1840 أن اتهمت بالاعتداء على جيرانها بالنهب وأعمال العنف فانذرها المخزن وفرض عليها أداء ذعائر بمبلغ عشرة آلاف مثقال كعقاب وتعويض عن أعمال الفساد[6] . كذلك ثارت قبيلة غزاوة (أو غصاوة) سنة 1259 / 1843 ضد قائدها ورفضت الامتثال لتعليمات المخزن ، فأمر الخليفة السلطاني محمد بن عبد الرحمان عامل تطوان محمد أشعاش بالقبض على كل من وقع بيده من أهلها «فإن شد الخناق عليهم بالقبض حيثما ظهروا يقهرهم ويذعنون للطاعة»[7] .

---

(3) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 8 ، 99

(4) ن . م . ص 100

(5) انظر نصوص الخطابات الملكية في م . م . ص 244 . 263 ، 279

(6) م . س . ص 334

(7) ن . م . ص 417 . وتقع «غزاوة» بجوار وزان شمال المغرب .

2 – فتح زاوية الشرادي 1244 / 1828 [8]

منذ قيام الشراردة بمهاجمة الجيش الملكي بأحواز مراكش سنة 1238 / 1822 وإعلان توبتهم أمام مولاي سليمان استقرت الأوضاع بزاويتهم إلى أن بايع وفدهم برئاسة المهدي بن محمد الشرادي العاهل الجديد ، وقدم إليه ما تبقَى من السلع والأموال التي نهبها أنصاره بميناء الصويرة في أواخر أيام سلفه . غير أن خليفة مولاي عبد الرحمن بمراكش عين بالمناطق التي للشراردة فيها نفوذ عدة قواد عوض قائد واحد ، فقام أهل الزاوية بالقبض عليهم ونهبوا دورهم ، وعندئذ وجه العاهل إلى أخيه وخليفته مولاي المامون الأمر بحشد الجند في انتظار قدومه بنجدات ، وتحرك السلطان من الرباط عبر أزمور والجديدة فعسكر بقرب الزاوية في أيام عيد المولد سنة 1244 / 1828 فهاجم الشراردة المخيم ، وتبادل المعسكران طلقات المدافع والمهاريس ، وعندئذ انسحب المهدي متعللا لدَى أنصاره بتكهنات فلكية بهزيمته المحتومة وتوجه إلى سوس ، بينما بادر أنصاره إلى إطلاق سراح القواد المسجونين ، وتشفعوا بهم لدَى الخليفة السلطاني الذي أمنهم ، ثم أمضَى أمانه العاهل أيضا . ويظهر أن الأمان كان على الأرواح ، أما ممتلكاتهم وبيوتهم فقد عاث فيها الجيش الذي استولَى على الأسلحة بما فيها المدافع المنصوبة على الزاوية . أما أسرة المهدي فتم نقلها إلى مكناس حيث أقامت بمنزل قائد هلك في عهد مولاي سليمان ، بينما ألقي القبض على مجموعة من ثوار الشراردة ووزعوا كمساجين بين الرباط وفاس ، وأخيرا تم تسريحهم وتوطينهم بأزغار ، وبتدخل من المرابط السوسي محمد آعجلي الباعمراني عفا السلطان عن المهدي بعد أن أقام لديه ثلاث سنين ثم ولاه على إخوانه ، وتقلب بعد ذلك بين الولاية والعزل والسجن حتَّى توفي في عهد مولاي الحسن سنة 1293 / 1876 وقد تقدمت به السن . وكانت الزاوية الشرادية تضيق ذرعاً بسلطة الولاة الإداريين في الوقت الذي تحرص فيه على تقوية نفوذها خارج الميدان الروحي . على أن توفر الزاوية كبعض مراكز القوَى الشعبية الأخرى على أسلحة ثقيلة على مشهد من سلطات الدولة يدل على مدَى تضاؤل هيبة المخزن ، وبصفة أخص ، على عدم اكتراث المخزن بتجريد المراكز المذكورة من الأسلحة الثقيلة التي تمثل تهديداً محلياً ووطنياً .

---

(8) الاستقصا ، 9 : 17 – 21

3 – ثورة الأودايا 1246 / 1830 إلى 1247 / 1831

كانت كتائب جيش الأودايا بفاس أهم عنصر عسكري نظامي إلى جانب الدولة من حيث القوة والعدد ولما وقعت أحداث استيلاء الفرنسيين على الجزائر سنة 1246 / 1830 عمد المغرب بحكم الجوار والأخوة الإسلامية إلى مساندة الجزائر والاستجابة للجهات التي أعلنت بيعتها بهذه البلاد للملك المغربي مولاي عبد الرحمن وكان ضمن القادة المغاربة عدد من قواد جيش الأودايا خصوصا الطاهر ابن مسعود المغافري الحساني والحاج محمد بن الطاهر المغافري العقيلي والقائد إدريس الجراري والحاج محمد بن فرحون الجراري، فعمدوا إلى القيام بأعمال النهب في بعض مناطق الجزائر حتى أثاروا غضب السكان والعاهل المغربي ؛ ولما حلوا بفاس عزم واليها على استرجاع ما انتهبوه من الجزائر ، فتمرد منهم الحاج محمد بن الطاهر وآزره قائد البخاري بفاس أحمد بن المحجوب . فألقي عليهما القبض وتولى الطاهر ابن مسعود افتكاك الحاج محمد بن الطاهر . وتحرك المغافرة لمهاجمة القصر الملكي . ثم تنصل أعيانهم من المسؤولية وقرر السلطان الخروج إلى مكناس فغضب الأودايا لذلك وهاجموا ركبه في الطريق واستولوا على أمتعته . وكان إدريس الجراري مسجونا بتازا ، فزور أمرا كتابياً باسم العاهل لإطلاق سراحه ، ورأى أن يقوم بعمل لخدمة السلطان وأسرته حتى يستعيد عطفه ورضاه . وتولى عندئذ السهر على أسرة العاهل بفاس وتعهدها بالنفقة[9] . وخلال هذه الأحداث ، كان السلطان يحاول إصلاح الوضع سلمياً مع الأودايا الذين طالبوا بعزل عدد من ضباطهم ، فاستجاب لمطالبهم قبل توجهه إلى مكناس[10] . على أن السلطان استدعى جيش البخاري من مكناس بعد أن اشتد شغب الأودايا ، وحاول هؤلاء منعهم من مرافقة الملك إلى مكناس ولكن البخاري قاوموهم وفتكوا بأعداد منهم حسب مذكرة ملكية إلى بعض العمال[11] . ثم عندما تحرك الموكب الملكي وقطع مسافة في طريقه إلى مكناس ، قام الأودايا بمهاجمته كما تقدم .

وفي الأسابيع الأولى من 1247 / 1831 قرر العاهل الاستعداد لمهاجمة الأودايا

(9) حول الأحداث المذكورة ، انظر الاستقصا ، 9 . 32 – 36

(10) نص خطاب ملكي في تاريخ تطوان . لمحمد داود . ج 8 . 222

(11) ن . م . ص 228

وتمزيق شملهم . فاستنفر لذلك القبائل ، على أن تحتشد بمكناس ، وقام الأودايا من جهتهم باستدعاء محمد بن الطيب ابن عم مولاي عبد الرحمن وأحد ولاة فاس سابقاً ، كما عين بعد ذلك على الشاوية ودكالة ، وتميز بشدة بطشه ، فنصبوه ملكاً ، وعندئذ حاصر مولاي عبد الرحمن فاس وهاجمها بالقنابل حتّى طال الحصار والقصف ستة أشهر[12] . وأخيراً استسلم الثوار بعد أن نفدت المؤن . وطيف بالأمير مولاي الطيب تشهيرا به ثم نفي إلى تافيلالت ، وبني على ستة وعشرين من قادة الثورة حيث هلكوا اختناقا ، كما نقل مائة وخمسون إلى جزيرة الصويرة[13] ومنهم القائد ابن فرحون وتولى إدريس الجراري قيادة جيش الودايا وصار من أخلص خلصاء العاهل الذي أفصح إليه في النهاية عن قراره بتشريد الأودايا[14] . وهكذا قام سنة 1248 / 1832 وخلال السنوات الموالية بنقل متكرر لعناصر الأودايا فيما بين العرائش وجبل سلفات والرباط والمنصورية وتمارة ، وأجلى عن فاس مجموع الأودايا وأسقطهم من ديوان الجيش نحو عقد من السنين ، كما أعدم محمد بن الطاهر ، والطاهر بن مسعود[15] لمسؤوليتها في أعمال النهب والتمرد على النظام . وكان مولاي عبد الرحمن يتخذ تدابيره الزجرية ضد الأودايا على مراحل متباعدة أما رؤوس الثورة الذين نفوا إلى جزيرة الصويرة فقد ظلوا بها حتّى مهلكهم . ولم يتخذ التعاطف مع الأودايا طابعا شعبياً لأنهم أسندوا بيعتهم إلى أمير كان معروفاً بقسوته .

4 – أحـداث زعيـر

زعير من عرب معقل الذين تمكنوا في أواخر عهد بني مرين من التوغل في المغرب عبر الأطلس انطلاقا من الصحراء الشرقية والجنوبية التي تبقت بها مجموعات منهم . وكان من بني معقل أيضا ، كل من بني حسن وعبدة الذين قاموا بتحرك مماثل في ذات الوقت[16] . واستقرت زعير عند أعالي حوض أم الربيع ، ومنذ

(12) *Hœfer, Empire du Maroc, p.377* يذكر أن هذه الأحداث كانت سنة 1834 أو 1835 وهو يخالف الناصري

(13) م . س

(14) خطاب من مولاي عبد الرحمن إلى القائد المذكور : استقصا ، 9 ، 38 — 40

(15) الاستقصا ، 9 . 40 — 41

(16) *Terrasse, Histoire, 2, 255*

عهد مولاي إسماعيل أصبحت زعير من المجموعات ذات البروز الذاتي بين جاراتها من القبائل . وهناك بالطبع العامل الاقتصادي ومشاكل الأرض والرعي والماء والضرائب وموقف السلطة ، حيث يتحدد موقف القبائل عموما بحسب ما يحل من هذه المشاكل . وكانت كل من أنفا (الدار البيضاء) وفضالة والمنصورية في عهد سيدي محمد بن عبد الله هدفا لغارات زعير[17] . وهذا يفسر تحرك الشاوية ضد زعير كلما واتتها الفرصة[18] وقد اختلطت زعير بمجموعات بربرية كانت توجد في عين المكان . وحتَّى الآن تحمل بعض هذه المجموعات أسماء بربرية إلى جانب أخرى عربية[19] ، كما تأثرت زعير ببعض عوائد البربر ، وأثرت بدورها في المنطقة مع احتفاظها بلهجة عربية من أفصح لهجات العرب ، وسبق أن جند منهم مولاي اسماعيل فريقا نظاميا[20] لكن المجموعة الزعرية لم تكن ذات ولاء قار للمخزن . ولما كانوا جواراً لبربر الأطلس المتوسط فقد انضموا إلى حركة التمرد التي ضربت أطنابها في عهد مولاي سليمان ، ومن ثم فقد ارتبطت زعير بحركة المد والجزر التي رافقت مواقف الأطلس ، حتَّى إن الرباط وسلا كانتا أحيانا تحت تهديدهم ، وهكذا فقد كانت زعير بجانب مولاي سلامة (مسلمة) وضد مولاي سليمان . ثم ساندوا حركة الأطلس وفاس خلال أحداث 1819 ــ 1821م ، وهددوا الرباط بزعامة قائدهم محمد الزعري في عهد مولاي سليمان . وفي سنة 1247 / 1831 رفض قسم كبير من زعير أداء الجباية وحاولوا الفتك بالمحلة المخزنية «فقتل منهم عدد كثير» «وقبض على عدد كثير ، ولولا أن الليل غشيهم لاستأصلت المحلة جميعهم»[21] . وساندت زعير سنة 1255 / 1839 تمرد بني ورامن عرب الزيايدة ، فهاجمهم الجيش واستباح مضاربهم وأخضعهم ، كما قام العاهل بتعيين عمال جدد بالمنطقة[22] .

وقامت زعير مرة أخرى بمحاصرة الرباط وسلا سنة 1266 / 1849 فرد الباشا

---

(17) *Op. Cit. p.300*

(18) ضعيف . تاريخ . ص 374

(19) ابن سودة . قبيلة زعير . 1 . 51

(20) ن . م وص 59

(21) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 ، 229 ــ 230

(22) ن . م . ص 321

فراجي هجومهم كما كبدتهم السلطة خسائر بشرية كثيرة[23] . وانضمت زعير إلى العرب والبربر الذين ناهضوا في البداية مولاي عبد الرحمن قبل أن يعلن الأطلس بيعته على إثر اتصال ابن الغازي بالعاهل وإطلاق سراح الشيخ العربي الدرقاوي[24] . ولكن دخول زعير في البيعة بدورها لم يمنعها من مواجهة المخزن خصوصاً في فترات تحصيل الجباية أو عند قيامها باعتداءات على جيرانها كما سلف .

وكانت الرباط وسلا من المراكز الأولى التي دخلت في بيعة مولاي عبد الرحمن . وكان كل من مولاي سليمان ومولاي عبد الرحمن يحل بالرباط اثناء تنقلاته أو يقضي بعض الأيام للنزهة حولها بما في ذلك مناطق زعير القريبة منها جهة الجنوب الشرقي . وفي سنة 1261 / 1845 وقع حادث أدّى إلى نكبة عدد من وجهائها ، ومن بينهم الحاج محمد بن الطاهر الزبدي الذي تواطأ مع السكان على إقصاء العامل محمد السوسي ، وحل محله الزبدي هذا ، ولم ينفع تدخل مبعوث السلطان القائد الطيب الوديني الذي طرده السكان . ثم توجه مبعوث ثان هو الفقيه ابن المختار الجامعي الذي أقر باسم العاهل تعيين الزبدي طبقا لرغبة السكان . ومالبث السلطان بعد مدة أن حل بالرباط وأمر باعتقال عدد من المسؤولين عن طرد العامل السابق[25] . ويبرز هذا الحادث حنين الرباط إلى ذلك الماضي القريب الذي عرفت فيه حكما ذاتياً واسعاً أقرب ما يكون إلى النظام الجمهوري ؛ كما أن بعض الأسر صارت تشكل مراكز قوَى حقيقية داخل السلطة المخزنية .

5 – أحداث الأطلس

إذا كان الأطلس المتوسط قد تحول من عدائه لأسرة مولاي سليمان إلى إعلان بيعته لابن أخيه فإن الأزمة لم تسوَّ بالبيعة ولا باطلاق سراح الشيخ الدرقاوي. وهكذا نَرَى هيجان جيش الأودايا خلال سنة 1246 وما بعدها يشجع بعض الجهات على التمرد ، وضمنها زعير وجروان . وأسباب التمرد متشابهة في أغلب الأحوال . ومن ثم فقد جوبهت جروان بعملية تأديبية واسعة النطاق وصفها منشور

(23) ابن سودة . قبيلة زعير . ص 59. Terrasse, Op. Cit, p.318

(24) استقصا . 9 . 6

(25) ن . م . ص 54 – 55

ملكي إلى العمال ، وجرت في محرم1247 / 1831[26] ، وساهم في ردع جروان جيش البخاري وبني حسن وآيت يدراسن ومجاط وزمور وغيرهم . على أن حادثا مهما وقع قبل ذلك بسنوات ولم تكن له انعكاسات مضادة ، وهو نفي ابن الغازي زعيم زمور إلى جزيرة الصويرة سنة 1240 / 1824 . وكان العاهل قد زوجه إحدى شابات البلاط . وحدث أن بعض جند الحرس الملكي هم باغتياله فأثار الحادث غضبه وتوقف عن الاتصال بالملك ولم تنفع نداءات البلاط لتهدئته فقبض عليه ثم نفي إلى جزيرة الصويرة التي هلك بها بعد قليل[27] .

وقام المخزن بنقل بضع مآت من آيت يمور إلى حوز مراكش . وكان القسم الأكبر منهم قد تم توطينه منذ عهد السلطان محمد بن عبد الله بجبل سلفات والوجة الطويلة فضايقوا أهل زرهون الغرب لاستيلائهم على أخصب الأراضي[28] .

وفي 1259 / 1843 قامت قوات الجيش الملكي بعملية تأديبية واسعة النطاق ضد قبيلة زمور . فحوصروا «وضاع بالحصار الكسب والمال . ولحق الضرر الأولاد والعيال . فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم . طالبين لحلفهم وجوارهم ، وبلغ البؤس فيهم غايته . وأظهر الله فيهم آيته»[29] .

وبدأت الاحداث تتخذ طابعا أشد عنفاً منذ 1269 / 1852 بعد أن ثارت زمور على العامل أحمد بن زيدوح وفتكت به . وقد تخلى مولاي عبد الرحمن عن سياسة أسلافه في ترك مسؤولية السكان لرؤسائهم المحليين دون تعيين ممثلين عن السلطة في مناطق الأطلس . وهذا يفسر حركات التمرد التي حدثت في هذا العهد وأصبحت لا تكاد تنقطع خلال ما تبقى من حياة السلطان مولاي عبد الرحمن منذ 1269 / 1852 . وأسند العاهل مهمة ردع هذه الثورة إلى خليفته وولده سيدي محمد ثم تولاها بنفسه انطلاقا من مكناس «ومن هذا التاريخ صار السلطان والخليفة رحمهما الله يغزوانهم كل سنة ، يجتمعان عليهم ، فتنتسف الجنود زروعهم وأموالهم ، حتى

---

(26) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 . 232

(27) ناصري . 9 . 11

(28) ناصري . 9 — 10

(29) ن . م . ص 47 — 49 . محمد داود . م . س . ص 410 ، 411 . والفقرة من منشور ملكي حرره الوزير ابن إدريس . إلى الخلفاء والعمال .

ضر بهم الحال . وأشرفوا على الهلاك . وكادت تعدم عندهم الأقوات وأذعنوا إلى الطاعة طوعا وكرها»[30] .

والواقع أن حركة زمور تحولت إلى ثورة حقيقية ترفض الخضوع لسلطة المخزن منذ 1270 / 1853 إلى وفاة مولاي عبد الرحمن في مطلع سنة 1276 . ومن أجلها استقر العاهل أخيرا بمكناس ليتولى بنفسه الإشراف على عمليات الجيش بالمنطقة عن كثب . على أن الأوضاع تحسنت بها في عهد محمد الرابع .

6 - أحداث الصحراء الجنوبية

ظلت العمليات الجبائية تتطلب تدخل السلطة المركزية وتنقل الجيوش لاستخلاص الضرائب التي قد تترتب عن عدة سنوات في مناطق الصحراء الجنوبية . وفي أواخر حكم مولاي سليمان وأوائل عهد خلفه . تعرضت هذه الجهات لمجاعة خطيرة بسبب الجفاف ، وبعث مولاي عبد الرحمن الأمير محمد بن الطيب ابن عمه في أوائل الأربعينات من القرن 13 / 19م إلى الصحراء الجنوبية لاستخلاص الجباية فلم يتمكن من جمع مقادير كبيرة . بل عاد مخففا كما يقول الناصري[31] . وكان على القوات المخزنية أن تقوم بحركة ردع في قرى الجنوب سنة 1244 / 1828 . كما يخبر بذلك منشور ملكي[32] .

وكان هناك عداء مزمن بين الأشراف القاطنين بتافيلالت وآيت عطا ونزاع على بعض الممتلكات حيث ظل إنتاج الواحات موردا رئيسيا لكل السكان تقريبا . وكانت آيت يافلمان تنافس إلى حد جارتها آيت عطا ؛ وتمكن أحد زعماء آيت يافلمان ، ابراهيم يسمور اليزدكي من حشد قبيلته حوله ؛ وتولى قيادة حملة ضد آيت عطا محققاً انتصارا نادراً عليها . وبذلك كسب عطف أشراف المنطقة . وكانت هذه الأحداث سنة 1271 / 1854 . وحصل الزعيم المنتصر على تقدير العاهل الذي ولاه على الناحية . ثم أظهر الاستبداد ضد الدولة ووسع مناطق نفوذه على حساب السلطة المركزية ؛ فاغتاله أحد أقربائه وبذلك انتهت هذه الثورة الصغيرة التي كان يمكن أن تصبح أشد خطورة . حيث إن العاهل أقام الأفراح بعد أن حمل إليه

---

(30) ناصري . 9 . 65 . وقد أورد نص منشور ملكي بشأن سحق حركة التمرد هذه

(31) م . س . ص 13

(32) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 . 166

رأس الثائر الصحراوي ، وأنعم على سكان مراكش التي كان يقيم بها[33] .

الاحتلال الفرنسي للجزائر وقضية تلمسان

منذ أن حط الأتراك رحالهم تدريجيا بالمغرب الأوسط ، انطلاقاً من 922 / 1516 إلى بداية الاحتلال الفرنسي سنة 1246 / 1830 واجهوا مقاومة داخلية وخارجية يطول مداها أو يقصر حسب الظروف . فطردوا من السواحل كلا من الايطاليين والاسبان ، وواجهوا خيانة بني زيان الذين تعاملوا مع الاسبان إلى أن وضعوا حدا لبقايا نظامهم ، وجابهوا صراع العناصر المناهضة من السكان والثوار . بينما كانت سفنهم الجهادية تكبد في عرض البحر خسائر كبيرة للأطراف الصليبية وتستولي على قطعها وركابها وأموالها . ثم كان على المغرب الأوسط أن يتلقى بدوره هجمات السفن الأوروبية في حركة انتقامية أو لبواعث دينية . وقام الأتراك بدور تاريخي في تحرير تونس وليبيا أيضا من الاحتلال الأجنبي ، ولكن ردود الفعل الأوروبية بدأت تتخذ اتجاها خطيراً منذ مؤتمر فينا (1815) وإكس لاشابيل (1818) حيث أقرت أوربا مبدأ وقف القرصنة الدولية ومواجهتها بالقوة والتعاون الأوروبي . وفي 1231 / 1815 بالذات هاجم الأسطولان الإنجليزي والهولندي الجزائر ، وبالرغم من حدوث عاصفة هوجاء أحرقت القطع الهولندية وبعض السفن الإنجليزية ، فقد أرغم اللورد اكسموث قائد الأسطول الإنجليزي باشا الجزائر على إمضاء معاهدة بوقف «القرصنة»[34] والواقع أن الظروف الداخلية للجزائر وتحركات الأساطيل الأوروبية بالإضافة إلى أطماع الامبراطور بونابارت ، كلها كانت خلال العقود التي سبقت من القرن 19م ، الاحتلال الفرنسي ، تنذر بمصير مشؤوم لهذه البلاد التي كانت تعاني من الصراع الطبقي الذي تحتل فيه الطبقة الحاكمة قمة الهرم المنخور من الداخل على الرغم من وجود نظام قضائي صارم في جملته[35] . وإذا أضفنا إلى ذلك ما قامت به الطريقة الدرقاوية من تهييء للرأي العام في القسم الغربي من الجزائر على الأخص ، ضد النظام التركي الذي واجه الطرق والزوايا بروح عدائية في هذه المرحلة ، استطعنا أن نكون نظرة عن الصعوبات التي كانت

---

(33) ناصري . 9 . 67 – 68

(34) ابن عبد القادر . تحفة . 1 . 79 80

Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 2, 298

(35) *Emerit, Revue d'histoire maghrébine, 2/1974*

تواجه الجيش الذي لم يكن يحمي غير المدن . وقد رأينا أن السلطان المغربي مولاي سليمان لم يستغل الظروف الجزائرية لصالحه ورفض بيعة أهل تلمسان وأنصار الشيخ العربي الدرقاوي على كثرتهم بالجزائر .

إن لكل استعمار اسباباً بعيدة وأخرى قريبة وثالثة مباشرة . لقد كانت البواعث البعيدة بالنسبة لاستعمار الجزائر دينية صليبية . وكانت الأسباب القريبة ترتبط بتدمير الأسطول الجزائري ووقف نشاطه . وفي هذا النطاق أيضاً كانت فرنسا تعاني من أوضاع اقتصادية متدهورة بسبب مغامرات بونابارت وردود الفعل من لدن الدول الأوروبية . ومن ثم كان السبب المباشر للاحتلال يخفي في طياته العامل الاقتصادي . إذ مالبثت فرنسا أن وطنت بالأراضي الخصبة آلافاً عديدة من المعمرين والطموحين إلى الكسب السريع على حساب أصحاب الأرض الأصليين . وكان السبب المباشر هو قصة القنصل الفرنسي دوفال *Douval* مع داي الجزائر حسين باشا . فقد كان للجزائر دين على الحكومة الفرنسية تأخرت عن أدائه عشرين سنة . ثم عقدت معاهدة تجارية بين الطرفين سنة 1235 / 1819 تعهدت فرنسا بموجبه . بأداء دينها الذي بلغ سبعة ملايين فرنك ، فأدت منها أربعة ملايين ونصفاً واحتفظت بالباقي بحجة أن لتجار مرسيليا ديونا على تجار الجزائر بمبلغ مليونين ونصف . وطالبت الحكومة الفرنسية الجزائر بتبرئة ذمتها من هذا الدين ، فحدث لذلك نزاع طال أمده ، حتى دخل القنصل المذكور لتهنئة الداي بعيد الفطر أول شوال 1243 / 30 أبريل 1827 فتحدث الداي عن خطاب وجهه إلى عاهل فرنسا دون أن يتلقى رداً . فأجابه القنصل بأن ملك فرنسا لا يجيب من دونه إلا بواسطة دبلوماسية . وأغضب ذلك الداي الذي لطمه بمروحة كانت في يده ، وطالبت الحكومة الفرنسية بأن يقدم الداي اعتذاره ، ورفض هو الاعتذار . وغادر القنصل الفرنسي وهو جنرال . التراب الجزائري ، ومعه الجالية الفرنسية . ثم بدأت فرنسا على الفور تهيئ لغزو الجزائر[36] .

وما من شك في أن غزو دولة لأخرى في العصر الحديث لا يمكن أن يقع لمجرد لطمة تلقاها قنصل . فقبل هذا الحادث بثلاثين سنة . أي في عام 1213 / 1798م قام مصطفى الخزناجي باشا الجزائر بإيعاز من حكومة القسطنطينية ، وعلى

---

(36) السليماني . لسان . ص 105 — 106 *Caillé, Petite histoire, 2, 179. Julien, Op. Cit*

إثر التدخل الفرنسي بمصر . بالقبض على قنصل فرنسا العام وحكم عليه بالأشغال الشاقة واعتقل سائر القناصل الفرنسيين[37] . فلم تبادر فرنسا إلى احتلال الجزائر مع أن بونابارت كان في أوج مجده .

وهكذا بدأت عملية الحصار البحري لموانئ الجزائر . وانصب الاهتمام في البداية على ميناء الجزائر ودارت معارك مهمة منذ سنة 1827 . وكان من بين أوائلها معركة وصفها طبيب ألماني هو سيمون بفايفر . وكان على مشهد من أحداثها . وقد تحطمت فيها هجومات الأسطول الفرنسي[38] .

وفي 25 أكتوبر 1828 حدث اشتباك بحري غرب مدينة الجزائر دمرت خلاله أربع سفن جزائرية[39] . ثم عمدت فرنسا إلى تعزيز أسطولها الذي ناهزت قطعه الخمسين كان على قسم منها أن تذرع عرض المتوسط لمراقبة المسالك التجارية وطرق الملاحة من شواطئ تونس حتَّى البليار[40] مع مراقبة تحركات السفن الجزائرية التي كانت تستطيع مع ذلك . اختراق الحصار ليلا والقيام بغزوات خاطفة في عرض المتوسط حتَّى سواحل فرنسا نفسها[41] !

ويظهر أن طول الحصار حتَّى مع سلبيته وعدم فعاليته مدة ثلاث سنوات[42] . أدَّى إلى ميل الداي إلى انتظار حل سلمي لم يتحقق قط . ومن ثم قرر شارل العاشر القيام بعملية حاسمة برا وبحرا . واتخذ قراره هذا في 7 فبراير 1830[43] . وذلك على الرغم من أن فرنسا كانت تعيش صعوبات داخلية على الصعيد السياسي . وفي 14 يونيو 1830 تمكنت القوات الفرنسية البالغة أربعة وثلاثين ألفا من النزول بشاطئ سيدي فرج وفرت أمامهم الحامية التركية الصغيرة التي كانت في برج المراقبة . بينما كانت المنطقة خالية من العمران مع قربها من العاصمة .

---

(37) تحفة الزائر . 1 . 74

(38) ناصر الدين سعيدوني . مجلة الثقافة . الجزائر . عدد 28 . 1395 / 1975 ص 14

(39) ن . م . ص 15

(40) ن . م . ص 16

(41) ن . م . ص 17

(42) ن . م . ص 17 - 18 . تحفة الزائر . 1 . 82

(43) سعيدوني . م . س . ص 22

وفي الواقع حاول الداي حسين بعد اتخاذ فرنسا قرارها بغزو حاسم للتراب الجزائري أن يطلب مساعدة السلطة المغربية. فأرسل مبعوثه إلى مولاي عبد الرحمن في فبراير 1830. ولكن المغرب كان في حالة ضعف من الوجهة العسكرية، وقد تبين ذلك في الأحداث اللاحقة. كما أن العاهل المغربي الذي أحيط علما بصفة رسمية عن طريق القنصل الفرنسي بطنجة، دولابورت ***Delaporte*** بمشروع الغزو الفرنسي للجزائر مقدما. التزم بعدم التدخل في الصراع بين الأتراك والفرنسيين. والحق أن الموقف المغربي انبنَى أساساً على التريث. خصوصاً وأن الدولة العثمانية لم تحرك ساكناً بالنظر لوضعية الشرق الأوسط واكتساح محمد علي لسوريا وآسيا الصغرَى حتَّى أصبحت القسطنطينية نفسها تحت رحمته. لكن صمت الدولة العثمانية مع ذلك، يؤكد موافقتها رسميا على التدخل الفرنسي[44].

نعم، اقتضَى الموقف الرسمي بالمغرب هذا التريث مؤقتا، في الوقت الذي كان الشعب المغربي يعاني قلقا عاماً ويتابع الأوضاع بالجزائر باهتمام[45]، وكان ينتظر تدخلا من انجلترا لصالح «المسلمين». وأشيع أيضا أن شيخ الطريقة التيجانية المغربي كان يتهيأ للزحف على الجزائر بثمانين ألف رجل. ومن جهة أخرى لم يكن مولاي عبد الرحمن يرَى أن الجيش الفرنسي سيمدد مقامه بالتراب الجزائري بقصد استقرار نهائي[46]، ومن ثم، وحيث إن الموقف أصبح مغايرا لما كان عليه في عهد سلفه (الذي رفض بيعة قسم من سكان الجزائر). وذلك لوجود عدو خارجي الآن فسيهدد مجموع الشمال الإفريقي إذا لم يبادر سكانه للدفاع عن أنفسهم. لكن مولاي عبد الرحمن لم يفكر لعدة سنوات في مواجهة مباشرة للجيش الفرنسي، بل تزعم المواجهة بكيفية غير علنية ولا رسمية كما بينت ذلك الأحداث.

وتم الاتفاق بين قائد الحملة الفرنسية بريمون وحسين باشا على تخليه عن السلطة لصالح الدولة الفرنسية وان تسلم على الفور القلاع المحيطة بالجزائر المدينة. وتحفظ للداي أمواله وحريته في اختيار البلاد التي يرغب في الاستقرار بها وأن يتمتع بحماية السلطة الفرنسية هو وعائلته وقواد جيشه ما بقوا في الجزائر. وأن تحافظ فرنسا على

---

(44) مشرفي. حلل بهية. ص 201

(45) *Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 189*

(46) م. س.

تقاليد الشعب الجزائري وممارسته للديانة الإسلامية[47] . وكان تحرير الاتفاق ودخول الجيش الفرنسي إلى مدينة الجزائر في 13 محرم 1346 موافق 5 يوليوز 1830 . أما الداي فقد توجه بعد قليل إلى مصر ضيفا على محمد علي ، ومالبث أن توفي هناك سنة 1254 / 1838 . وبتنازله ينتهي حكم الأتراك بالجزائر . بعد أن استمر أزيد بكثير من ثلاثة قرون .

واهتم الجيش الفرنسي قبل كل شيء بالمراكز الساحلية مما كان يحمل على الظن في الأوساط المغربية والإسلامية بأن مهمته محدودة الأجل . ولما كانت الاعتبارات الطائفية قد عملت عملها بين العنصرين العربي والتركي الذي تشكله مجموعة الكرغلان ، وأن كثيرا من الأتراك وحتّى العرب قد قبلوا الإشراف على شؤون المراكز القروية تحت ظل الجيش الفرنسي ، وذلك في الجهات المجاورة للمراكز الساحلية فقد أدّى ذلك إلى غضب الأهالي في عدة جهات . كما أن ولاة آخرين أعلنوا ثورتهم ضد السلطة الفرنسية ، وكان استبدال بريمون بكلوزيل بداية لانتشار الثورة على نطاق واسع ، لأنه دخل بروح التسلط وتوسيع النفوذ الفرنسي في عمق التراب الجزائري . واستعانت السلطة الفرنسية ببعض الولاة من تونس . فزاد الأمر هيجاناً . وتحركت وهران تبعث بوفد عنها إلى السلطان مولاي عبد الرحمن ضمن وفد جماعي عن تلمسان أيضا ، وكان بين رؤساء وهران زعماء الدواير والزمالة وعلى رأسهم مصطفَى بن اسماعيل المزاري[48] ، وبين رؤساء تلمسان وأعيانهم شخص يدعى بنونة . وبلغ عدد الوفد حوالي مائتين . وكان اتصالهم في البداية بعامل وجدة إدريس الجراري من رؤساء الأوداية ، وعن طريقه تم اتصالهم في فاس بالعاهل المغربي حيث استقبلهم بالترحيب والإكرام ، ومع أنه كان راغبا في التدخل بالمغرب الأوسط بعد أن تطورت أحوال الجيش الفرنسي إلى استيلاء دائم على الجزائر ، فقد استفتَى علماء فاس بشأن بيعة أهل تلمسان ، فأشار أغلبهم بإحالة ممثلي الجزائر على الباب العالي . وأجاب الجزائريون ببعد الشقة وتعذر الاتصال وانتظار المعونة مع عدم ممارسة الباب العالي أي نفوذ حقيقي على السلطة التركية السابقة ، وألحوا على قبول مولاي عبد الرحمن بيعتهم ، وذلك مراسلة بعد أن عاد الوفد إلى بلاده[49] .

(47) تحفة الزائر . 1 . 84 . اللسان المعرب . ص 108

(48) *Hœfer, Empire du Maroc, p.378*

(49) نص خطاب أهل تلمسان في الاستقصا . 9 . 27 . وانظر نص خطاب ملكي يبين عن

فاستجاب العاهل لرغبتهم ورشح للنيابة عنه بالمنطقة مولاي علي بن مولاي سليمان . وأصحبه في البداية خمسمائة جندي ، وكان مولاي علي في سن الخامسة عشرة . لكن المسؤولية المباشرة لأخذ البيعة وضبط الأمور كانت للقائد الجراري . وكان ضمن الجيش مجموعة من الرماة والتقنيين ، ولقي المغاربة ترحابا من عرب تلمسان ، لكن الكرغلية قاوموا الإدارة الجديدة إلى أن تم إخضاعهم ، واستقر الأمير بمعسكر ، وهي مركز الحاكم التركي السابق لتلمسان[50] ، وأخيرا استقر بتلمسان نفسها[51] . ثم انطلق المغاربة وأنصارهم يعملون على إدخال القبائل في بيعة ملك المغرب . وكان بين المبايعين أهل معسكر والحشم والمشاشيل وبنو شقران والمرابطون من أهل غريس (درقاوة) ورغية وتحليت وحميان[52] . ووصلت جيوش الأمير المغربي إلى مليانة ، وعين العمال وأخذ يجبي الضرائب ، واتخذ من تلمسان مقرا للإمارة[53] حيث ينوب عن الملك .

ولم تقف فرنسا مكتوفة الأيدي تجاه هذا التحرك الذي أقدم عليه الجزائريون والمغاربة معاً . بل رأى دهاتها أن الحكمة تقتضي اللجوء إلى الدبلوماسية أولا مع الإنذار والتهديد حتَّى يسحب المغرب جيشه وإدارته ، فوجه الجنرال كلوزيل *Clauzol* إلى دولابورت القنصل العام الفرنسي بطنجة يدعوه إلى التدخل لدَى العاهل المغربي حتَّى يسحب جيشه فوراً ويسلم الأمير مولاي علي إلى داي وهران التي لم يتمكن المغاربة من الاستيلاء عليها وأن يقوم المغرب بأداء التعويضات عن الخسائر الناجمة عن تدخله[54] (!) ولم تكن اللياقة الدبلوماسية بالمغرب تسمح آنذاك بتقديم إنذار مباشر من هذا النوع إلى الملك . ورفض عامل طنجة أن يوجه إنذار الجنرال إلى السلطان . وعاد أوفري *Auvray* مبعوث كلوزيل إلى الجزائر في خامس يناير[55] 1831 ، في الوقت الذي قام فيه ممثل عن الحكومة الفرنسية شارل

= تعاطف صادق مع الجزائر . في تاريخ تطوان لمحمد داود . ج 8 . 192

(50) مشرفي . حلل . ص 206

(51) سليماني . لسان . ص 110

(52) ناصري . 9 . 31

(53) لسان . ص 110 — 111 . ونص بيعة القبائل عند الناصري . 9 . 31 . وهي مؤرخة بجمادى الثانية 1246هـ

(54) *Caillé, La petite histoire, 2, 191*

(55) *Op. Cit.*

دوموري De Morny بمهمة مماثلة بطنجة لكن دون طائل[56] . وعين حاكم فرنسي جديد بالجزائر هو الدوق دوروفيكو De Rovigo على أن ممثل الحكومة الفرنسية دوموري واصل مساعيه بصبر لمدى البلاط مباشرة .

على أن الظروف تغيرت لصالح الجهاز الاستعماري وعلى غير انتظار ، فإن مقام الأمير الشاب لم يطل أكثر من ستة أشهر ، ولكن الإدارة المغربية استمرت فترة بعده . وكان للشيخ العربي الوزاني دور في جلب المزيد من الأنصار لصالح هذه الإدارة ، وعين العاهل محتسبا جديدا هو عبد السلام البوعناني . وجهز المناطق الموالية بالتجهيزات الدفاعية والعسكرية[57] . كما عين خليفة عنه مكان مولاي علي ، غير أن عددا من قواد الجيش وجلهم من الأودايا كالطاهر بن مسعود المغفري ومحمد بن الطاهر المغفري العقيلي ومحمد بن فرحون الجراري وأحمد بن المحجوب البخاري نهبوا أثاث الكرغلية وأموال الدواير والزمالة ومواشيهم بالرغم من احتمائهم بالشيخ العربي الوزاني ، فأفسدوا العلاقة بين السلطة المغربية وبعض القبائل التي تخلت عنها لتولي وجهها نحو الجهاز الاستعماري[58] . ومع أن العاهل قد استقدم القواد الفاسدين فإن الإدارة المغربية لم يتم سحبها إلا سنة 1832 حيث وجه مبعوث فرنسا خبرا مستعجلا من مكناس برابع أبريل من هذه السنة إلى حكومة بلاده يخبرها بقرار المغرب[59] . وتمسك أنصار المغرب بالجزائر ، بالرغبة في عودة السلطة الملكية[60] . لكن مولاي عبد الرحمن ، أهاب بالوفد الجزائري إلى أن يقوم مع مواطنيه الجزائريين بالبحث عن قيادة وطنية تفهم أوضاع المنطقة عن كثب ، وتواجه الاحتلال الفرنسي بما يلزم من تضحية[61] ، ولا يعني هذا أن خطة المغرب هي التخلي عن مساعدة الجزائر ، فما قدمه المغرب بعد هذه المرحلة يتجاوز بكثير ما قدمه قبلها .

---

(56) *Hœfer, Empire - p.378*

(57) ناصري . 9 . 31 - 32

(58) ن . م . ص 35

(59) *Hœfer, Op. Cit*

(60) تلمساني . لسان . ص 111

(61) يراجع بقصد التوسع في موضوع الاحتلال الفرنسي للجزائر وقضية تلمسان :

Walsin Esterhazy, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, 1840. Fisquet, Histoire de l'Algérie, Paris, 1842. P. Cristian, l'Afrique française. Paris 1846. Leynedier et Clausel, Histoire de l'Algérie française, Paris, 1846. A.Nettement, Histoire de la conquête d'Alger, Paris, 1856

لم يمض وقت قصير على سحب الإدارة المغربية من الجزائر حتَّى نشأ تجمع وطني كبير حول شاب من إحدَى الأسر المتدينة والتي ساهمت بوفير حظ في مقاومة الاحتلال الفرنسي ، وهذا الشاب هو الأمير عبد القادر الجزائري وكان والده محي الدين من أسرة الادارسة الحسينيين يقيم عند حلة الحشم ويدير زاوية للتدريس . وهو ممن شاركوا في قيادة المقاومة حول وهران منذ أواخر 1247 / 1831 وحسب مؤلف تحفة الزائر . كان عدد من الجزائريين يرغبون في بيعته قبل أن يبايعوا مولاي عبد الرحمن كما سلف[62] . لكنه رفض محتجا بكبر سنه . وعندما تم سحب السلطة المغربية راودوه على البيعة من جديد فأشار عليهم بمبايعة نجله عبد القادر الذي يقول عنه الناصري[63] : لم يكن أكبر أنجال والده ولا أعلمهم ولا أصلحهم ، وإنما كان فيه مضاء وإقدام ، وبويع عبد القادر وهو ابن أربع وعشرين سنة . بوادي فروحة من غريس بمنطقة وهران وكتب البيعة خاله العالم محمد بن عبد القادر المعروف بابن آمنة ، في 3 رجب 1248 موافق 27 نونبر 1832[64] . ثم صدر في نفس اليوم منشور من مجلس العلماء في معسكر مقر الإمارة . يطالب الشعب بالدخول في البيعة . وتعهد الأمير بالتزام الشريعة . وليس في البيعة ولا المنشور ولا التعهد الأميري شيء يشير إلى الالتزامات الجهادية ضد الاحتلال . بل مجرد دعاء عرضي بالنصر على العدو (في نص البيعة) لكن هناك تعبير عميق عن الرغبة في إقامة وحدة إسلامية شعبية بالمنطقة . ولكن الحركة الناشئة انطلقت على الفور لتنظيم نفسها عسكرياً وإدارياً واقتصادياً في الوقت الذي لاتزال فيه بقايا السلطة المغربية بتلمسان . ولما كانت تلمسان نفسها لم تقبل بيعة الأمير إلا على أساس ارتباطه بالعاهل المغربي ، فإن عبد القادر الذي انطلق في البداية على أساس الاستقلال عن كل سلطة خارجية حسبما هو واضح من النصوص المشار إليها لم ير بدا من تغيير خطته وقبول التبعية لعاهل المغرب . حيث بدأت الخطب تُلقَى باسمه . وسمى الأمير نفسه خليفة عنه[65] . ولم تكن المسألة مسألة شعور بالنقص بل

---

(62) تحفة الزائر . 1 . 91

(63) استقصا . 9 . 42

(64) تحفة . 1 . 98-- 99 . وفيه نص البيعة

(65) استقصا . 9 . 42 . *La petite histoire, 2, 200 - 201*

مجرد استجابة لتقليد إسلامي بمبايعة أمير المومنين الذي يتوفر على نفوذ أقوَى ويضمن وحدة أشمل . بينما كانت عدة جهات تمارس المقاومة بالجزائر غير موالية للأمير . فضلا عن الجهات التي فتحت المجال للسلطة الفرنسية ورضيت بالتبعية لها ، ولذلك كانت مهمة الأمير عبد القادر صعبة لوجود عدة أطراف معادية أو غير داخلة في البيعة .

حشد الأمير أنصاره. من الترك والعرب والبربر ، فكون منهم جيشا نظاميا مشاته من الترك والحضر ، وفرسانه من العرب والبربر . ثم أخضع بربر جبل راشد في 1248 / 1832 .

وفي ربيع الأول 1249 / 1833 هاجم القوات الفرنسية على مشارف وهران حتَّى التجأت إلى أسوار البلد

وشن الفرنسيون حملة على الدواوير والزمالة الذين يقال إنهم من أعقاب جيش مولاي إسماعيل ، فنهبوا أموالهم وساقوا أسراهم في رجب من السنة المذكورة . فتدخلت قوات الأمير وردت المهاجمين على أعقابهم وافتكت الأسرى والأموال وطلب الأمير إلى الدواوير والزمالة الانتقال إلى تمزوغت بضواحي تلمسان . ومالبث هؤلاء أن انحازوا إلى السلطة الفرنسية لقاء شروط معينة . وبإشراف حاكم وهران الجنرال طريزيل الذي نقلهم إلى نواحي وهران . وكان ذلك سنة 1252 / 1836 . وقيل إنهم انتقلوا من تلقاء أنفسهم حسب الناصري .

وكان الأمير عبد القادر قد أمضَى في 17 شوال 1249 موافق 28 فبراير 1833 معاهدة مع دي ميشيل القائد العسكري بوهران تتعلق بالتعامل بين الطرفين[66] . فاعتبر عمل الطرف الآخر من حيث إدخال الزمالة والدواوير في سلطته وتوطينهم بمنطقة نفوذه منافيا للمعاهدة ، وبعد جدال طويل كاتب الأمير عبد القادر علماء فاس وبعث وفداً للاتصال بالسلطان . وكان غرض الأمير التعرف على رأي علماء فاس بشأن المواطنين الجزائريين الذين يختلسون البضائع والمواشي من إخوانهم ثم يتسللون إلى الجهات التي يبسط عليها العدو سلطته فإذا وقعوا في يد الأمير حكم عليهم بما دون الإعدام ، وكان ضمن استفسارات الأمير ما يتعلق بالامتناع عن دفع

---

(66) ذكر نصها العربي في تحفة الزائر . 1 . 105 – 106

الزكاة وما يستخلص من أموال إضافية لصرفها في تموين الجيش وتسليحه[67] . وكتب الأمير إلى علماء مصر في نفس الموضوع . وقد استقبل السلطان وفد الأمير الذي كان على رأسه سقاط بن عبد الله ، وأحاله فيما يخص الاستفسارات على الفقيه علي بن عبد السلام مديدش التسولي الذي حرر جوابا مفصلا ومقنعاً على شكل مذكرة[68] وذلك في أعقاب 1252 / 1836 . واهتم العاهل بتزويد تنظيمات الثورة الجزائرية بما تطلبه من مساعدات ، فنراه على سبيل المثال يوصي عامله بتطوان بتهييء مائة خيمة[69] ، وعندما استقبل مبعوث الأمير أصحبه أربعة مدافع و67 فرسا وقيمة عشرة آلاف مثقال من السلاح الذي ترغب الثورة في استعماله[70] . وأوصى العاهل المغربي مبعوث الأمير بنقض معاهدة 1833 ملحا في استئناف المقاومة . وفعلا . كان الأمير قد هاجم القوات الفرنسية عند حرش مولاي إسماعيل قرب سيك وأنزل بها خسائر جسيمة وقتل الضابط أودينو . ثم كبدها خسائر أخرى عند نهر لمقطع. وكانت القوات الفرنسية تستعين بالزمالة والدواوير. وكانت مساعدة المغرب المذكورة مشجعاً جديداً للثورة . ثم قام الجيش الجزائري بمهاجمة أنصار الفرنسيين بمتيجة وهاجم المعمرين حول الجزائر وحاصر وهران . غير أن الجنرال كلوزيل قائد جيش وهران وقد خلف طريزيل المعزول تمكن من الاستيلاء على تلمسان . ثم لقي هزيمة ساحقة أمام قوات الأمير عند وادي تافنا . وبعثت فرنسا بنجدات ضخمة يقودها الجنرال بيجو . لأن القوات الجزائرية ضربت حصارا شديداً على تلمسان[71] حتى استعادتها لفترة وجيزة في ربيع الثاني 1253 / 1836 وبلغ ابتهاج المغرب مبلغاً عظيما كما ورد في مذكرة بعثها مولاي عبد الرحمن إلى ولاته . وتقول الفقرة الأخيرة منها[72] :

«... فَلِمِثْل هذا فليفرح المومنون ، وفي التهنئة به فليتنافس المتنافسون ، وما ورد البشير حتى انتشر الإسلام في معاهدها ، وشهد الله بالوحدانية في معابدها .

---

(67) ن . م . ص 206 – 207

(68) ن . م . ص 207 – 217

(69) داود . تاريخ تطوان . 8 . 297

(70) تحفة . 1 . 207

(71) *Caillé, Op. Cit, p.196*

(72) داود . تاريخ تطوان . 8 . 300

وأقيمت الصلوات الخمس في مساجدها ، فلِلّه الحمد على هذه النعمة العظيمة . والمنة الجسيمة . نسأل الله تعالى أن يتم مسيرة المسلمين بفتح وهران والجزائر . ويجعلها في صحائف المجاهدين من الذخائر» .

ثم تواصلت غارات الثورة على ضواحي وهران ومدينة الجزائر ، وتضايقت السلطات العسكرية الفرنسية من نشاط المقاومة . فقررت أن تدعو الأمير إلى عقد معاهدة أخرى ، وتوصل الطرفان عندئذ إلى معاهدة تافنا التي انعقدت في 6 ربيع 1 سنة 1254 موافق فاتح يونيو 1838 بإمضاء الأمير والجنرال بيجو ، وتتضمن خمسة عشر بنداً[73] . وهي معاهدة مهينة في معظم شروطها التي هي في جملتها لصالح الاحتلال وتوسيع نطاقه . وهي لا تضع قضية الوطن الجزائري في الاعتبار بل تحدد نفوذ الأمير في ضواحي وهران وإقليم تيطري وبعض ضواحي مدينة الجزائر ومدينة تلمسان ورشقون واسكلة وقلعة المشور وتحمل حكومته على دفع جزية سنوية ، وتفرض عليه أن لا يصدر إلا للأسواق الفرنسية ولا يستورد إلا منها . وكانت هذه المعاهدة مجرد خطوة للضم النهائي بعد أن تتمركز القوات والإدارة الفرنسية في باقي الأقاليم .

ثم ارتكب الأمير خطأً فادحا آخر بنقل مقر حكومته إلى المدية من إقليم تيطري ، حيث أثار امتعاض أهل غريس . بينما انشغلت القوات الفرنسية بقنبلة قسنطينة التي اقتحمتها بعد مقاومة باسلة من أهلها وجندها التركي بقيادة أحد بقايا الحكام الأتراك أحمد باي ، وقد انسحب إلى بسكرة . ثم طرده منها ممثل الأمير عبد القادر وهو محمد البركاني[74] . والتحق أحمد باي بعد ذلك بمدينة الجزائر .

وباحتلال الجيش الفرنسي لقسنطينة أصبحت المنطقة الشرقية معبدة امامه . ومالبث قادة الاحتلال أن طالبوا الأمير بسحب عدد من ولاته وأخذوا يتحرشون بممثليه في الأقاليم ، وعملوا على ضم المزيد من أنصار الثورة إلى جانبهم ، حتّى استكتب علماء المشرق والمغرب بشأنهم وحول جواز قتالهم ، وكان ممن استفتاهم قاضي القضاة بفاس عبد الهادي العلوي[75] . ثم تواردت نجدات كبرى من فرنسا

---

(73) نخفة . 1 . 176 - 178

(74) سليماني . لسان . ص 120

(75) نخفة . 1 . 251 - 254

بقيادة الدوق دومال نجل العاهل الفرنسي لويس فيليب وزحفت نحو المدية في 1256 / 1840 التي احتلتها بعد مقاومة شديدة هلك خلالها الدوق دورليان الذي رافق الدوق دومال ، وكانت القيادة العامة للماريشال فيلا الذي هلكت أعداد كبيرة من الجيش بقيادته فاستبدل به بيجو كقائد عام وأضيفت إليه نجدات أخرى ، وفي السنة الموالية تمّ الاستعداد لمهاجمة جميع المراكز التابعة للأمير دفعة واحدة . فاحتلت تاكدمت عند مدينة تاهرت فعسكر التي تحولت إلى مركز لقيادة الجيش الفرنسي لأن المنطقة الساخنة ظلت هي الشمال الغربي حيث عدد من أنصار الأمير . ثم تلمسان التي أخلاها البوحَمْدي ممثل الأمير . وعندئذ حول مركز قيادة الثورة إلى وانشريس على قمة جبل راشد .

وتلاحقت الإمدادات من فرنسا بما يزيد عن مائة ألف جندي بعتادها زيادة على ما يقارب هذا العدد مما كان موجودا بالجزائر ، وفي هذه الأثناء أصبحت مناطق الصحراء جنوبا هي الباقية على ولائها للثورة وتكاثر المنضمون إلى سلطة الاحتلال . وكان الأمير يهاجم القبائل الموالية لفرنسا وجيشها في آن واحد ويحصل بذلك على مصدر وحيد لتموين جيشه ويوجه إلى العاهل المغربي نصيبه من الغنائم(76) تطبيقا لالتزامه بالبيعة ، ولمقتضيات الشريعة الإسلامية .

وأخيرا اتخذت القيادة الفرنسية قرارا بملاحقة الأمير نفسه ، ووكلوا ذلك إلى الجنرال لاموريسيير الذي أسند الأمر إلى ألدّ أعداء الأمير والثورة وهو مصطفى بن إسماعيل أغا الدواير . لكنه لقي حتفه على يد الثوار في أواسط 1259 / 1843 . ثم واجه الفرنسيون عند جبل أولاد عوف الأمير عبد القادر وهو في جمع قليل من جيشه فقاومهم ببسالة قبل أن يبدأ مرحلة جديدة من المقاومة انطلاقاً من التراب المغربي ، وعلى شكل غارات خاطفة .

وقد برهن المغرب حكومة وشعبا عن تعاطفه مع الجزائر في محنتها وتشجيعه لحركتها الجهادية قبل الاحتلال وأثناءه . وهذه بعض مبادراته وعلائم تضامنه(77) :

1 — ورد في خطاب ملكي من مولاي عبد الرحمن إلى عامله بتطوان بتاريخ

---

(76) داود . م . س . ص 365

(77) ن . م . ص 170

26 ربيع 1 1244 / 1828 قوله : «... وقد أصبت في حماية المركب الذي غنمه أهل الجزائر وتيقظك للدفاع عنه أصلحك الله ، فإن أهل الجزائر منا وإلينا ولا ندّخر عنهم شيئا من المعونة إن أمكننا ...»

وقوله : «... وعلى كل حال ، استوص خيرا باهل الجزائر وأحسن إليهم ، ولا تمنعهم من شراء القرشك ، وإن لم يكن لديهم ما يشترونه به فمن صائرنا» .

2 — في منشور ملكي[78] إلى عمال الشمال بتاريخ 27 شوال 1245 / 1829 يعبر العاهل عن حزن عميق لما تكابده الجزائر من حصار بحري شديد ويأمر الولاة باتخاذ الحيطة والحذر ووسائل الدفاع .

3 — بمجرد احتلال الجزائر العاصمة في 1246 / 1830 تقاطرت على المغرب أفواج المهاجرين منها ومن مراكز أخرى جزائرية في سفينتين رستا بتطوان ، وجاء في تعليمات مولاي عبد الرحمن إلى عامله بها قوله[79] : «... فكل من ورد منهم قابله بالبشاشة والقبول واجبر خواطرهم بالإكرام ولين الجانب . فإن جبر القلوب واجب ، وأحرى إخواننا المسلمين الذين قهرهم العدو واستولى على أملاكهم وبلادهم وفروا بدينهم ...»

4 — عبر المغرب على لسان ملكه عن استعداده لاستقبال الداي حسين وأهله وحاشيته ليستقر حسب رغبته بتطوان التي حلت بها جالية جزائرية كبيرة ، وكان الداي قد كاتب في نفس الوقت محمد علي باشا حاكم مصر فرحب به أيضا[80] . وفضل الداي الاستقرار هناك .

5 — قبل السلطان مولاي عبد الرحمن أن يتولى الأمير عبد القادر شؤون الشعب الجزائري في ظل البيعة التي لم يكن له مناص منها أمام رقبة أنصاره أنفسهم[81] .

6 — في 1250 / 1834 زود المغرب الثورة الجزائرية بكمية كبيرة من الذخائر

---

(78) ن . م . ص 192

(79) ن . م . ص 198

(80) ن . م . ص 220 و225

(81) *Caillé, Petite histoire, 2, 200*

الحربية ومائتي بندقية ومائتي سيف . ورد العاهل على شكوى القنصل الفرنسي ميشان *Méchain* بأن الأمر يتعلق برد على هدية وردت من الأمير ! وفي السنة الموالية . وعلى إثر انتصار الثورة في المقطع كما تقدم وجهت أسلحة وكميات أخرى من الذخائر إلى الأمير وصادر عامل فاس علانية . الإبل المتوفرة لحملها[82] . واغتبط العاهل مولاي عبد الرحمن بالانتصارات التي تحققت على يد الأمير عبد القادر «لأنه رأى أنه قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له . فصار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح والمال . المرة بعد المرة . على يد الأمين الحاج الطالب بن جلون وغيره»[83] ولما كان الأمير عبد القادر يبذل جهده في الوقوف مع تعاليم الشريعة في قراراته السياسية وغيرها كان يلجأ إلى فتاوي علماء المغرب وغيرهم ليستند إلى رأيهم واجتهاداتهم . وحيث إن المغرب يساند الجزائر بالدرجة الأولى على أساس الوحدة الدينية فقد كان السلطان يبذل مجهوده كما قال الناصري في امداد الأمير بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك[84] . وسبقت الإشارة إلى بعض المبالغ التي وضعت تحت تصرف الثورة .

7 — في 1252 / 1836 استولى الفرنسيون على تلمسان . وعند سيدي يعقوب قرب تافنا حققت الثورة انتصارا كبيرا على قوات الجنرال دارلانج *D'Arlanges* وفي كل المعارك التي خاضتها الثورة في أقصى الشمال الغربي كان الوجود المغربي بارزا في القوات الكبيرة وفي تحقيق انتصارات الثورة ، وكان في الجند النظامي وحده مع الأمير ثلاثة آلاف مغربي[85] فضلا عن المتطوعة . وفي خامس يوليوز 1836 حل مبعوث الحكومة الفرنسية البارون فريدريك دولارو بطنجة ثم اتخذ طريقه إلى مكناس ليحتج باسم بلاده على المساعدة المغربية للثورة الجزائرية وقائدها ويطلب بإلحاح وقف كل تدخل من جانب المغرب ، ولقيت البعثة الفرنسية بقيادة البارون مواجهة صاخبة من الشعب المغربي منذ انطلاقها من طنجة حتى مكناس ، وألقيت عليها الحجارة وأطلق الرصاص على البارون حتى أصيب في

---

(82) ن . م

(83) ناصري . استقصا . 9 . 44 . وانظر تاريخ تطوان لداود . ج 8 . 315 . 318 . 326 . 335

(84) ن . م . ص 46

(85) *Petite histoire, 2, 196*

إحدى عينيه بالرغم من العدد الكبير من الحراس الذين رافقوه . وأخيرا استقبله الملك مولاي عبد الرحمن في هذه الحالة ، وفاوضه الوزير محمد الطيب البياز ولم يقبل من مطالبه شيئا ولكنه التزم باسم العاهل أن يتوقف المغرب «عن كل تآمر ضد سيادة فرنسا على الجزائر» واعتبر هذا انتصارا للسفير وبلاده ، ثم واصل المغرب مساعداته بالرغم من تعهداته المجددة للطرف الفرنسي[86] . والواقع أن ذلك لم يكن مجرد مساندة أو تضحية من الجانب المغربي ، بل مغامرة حقيقية ترفّع المغرب ملكاً وشعباً عن مجرد وضعها في الاعتبار ، وهكذا استمرت امدادات المغرب بل ازدادت حجما[87] .

وفي 1253 / 1837 وجه العاهل إلى الولاة أمراً بإقامة الاحتفالات على إثر استيلاء الأمير على تلمسان ، ووجه إليه بخلعة كدليل على التكريم والتنويه كما أنها خلعة تنصيب للأمير كنائب عن الملك المغربي . وواصل إمداده بالرصاص والبارود والأسلحة والذخيرة[88] .

8 — بدأ تقهقر مقاومة الثورة بكيفية لا عودة فيها لتحقيق انتصارات تستحق الذكر منذ 1258 / 1842 عندما اضطر الأمير إلى اللجوء مرتين إلى المغرب قبل معركة إيسلي ، وذلك خلال السنة المذكورة والتي تليها . بل كان إلى جانبه جند نظامي مغربي من جيش وجدة . وكان هناك عدد كبير من المغاربة بزعامة سيدي محمد بن عبد الرحمن نجل الملك . يلحُّون في أن يتحمل المغرب مسؤوليته علانية إلى جانب الثورة ، وكان الأمير يوجه في هذه الفترة كما كان من قبل . مبعوثيه إلى العاهل فيمدهم بما يطلبونه من السلاح والعتاد . وهذا رغم احتجاجات وانذارات السلطة الفرنسية التي لم تكن تتلقى إلا ردوداً من المخزن غير مقنعة[89] . والحق أن مساندة الثورة كان يكتسي طابعا رسمياً وشعبياً ولم يكن منطقيا أن يدخل المغرب في حرب مباشرة ضد فرنسا في الوقت الذي تخلى فيه أنصار الثورة الجزائريون عن زعيمهم واستكان القسم الأكبر من السكان تحت القهر وقوة السلاح للحكم

---

(86) *Op. Cit, pp.196-199*

(87) ابن ع. القادر . تحفة . 1 . 207 . داود . تاريخ تطوان . 8 . 297

(88) *Petite histoire, 2,*

(89) *Hœfer, Op. Cit*

الفرنسي ، ومع كل ذلك ، ارتضى المغرب في ظروفه الصّعبة هذه المواجهة المباشرة التي تبيّن أنها لم تكن لصالح الجزائر ولا لصالح المغرب .

معركة إيسلي واتفاقيات الحدود 1844 – 1845

منذ أن انتزع الدوق دومال *Le Duc d'Aumale* سمالة ، بالنجود العليا من يد الأمير عبد القادر سنة 1259 / 1843 تحولت الثورة إلى غارات خاطفة على القوات الفرنسية مع انتقال مراكز الثوار إلى الأرض المغربية . وفي 1844 أنشأ الفرنسيون معسكرا بمركز للا مغنية الذي كان تحت نفوذ السلطة المغربية[90] . كما عمدوا إلى ضريح للا مغنية فهدموه ودكوه على مشهد من سكان الناحية من بني واسين الذين اشتبكوا مباشرة مع الجيش المعتدي بسبب هذا العدوان . وفاوض ابن الجناوي عامل وجدة سلطات الاحتلال عبثاً[91] . لأنها طالبت بترضيات واعتذار من الحكومة المغربية على ما حل بجيشها عوض أن تنسحب من التراب المغربي وتعتذر عن تصرفاتها ! وفي هذه الأثناء وردت كتيبة من الجيش المغربي مكونة من خمسمائة مقاتل بقيادة الأمير مولاي المامون ابن عم السلطان ، وتقدمت لمهاجمة المعسكر الفرنسي بالرغم من أن عامل وجدة علي بن الجناوي نصح الأمير بعدم الهجوم[92] ، لكن حماس الجنود المغاربة أدَّى إلى الاشتباك في 30 مايو 1844 . وعندئذ هرع الحاكم العام بيجو *Bugeaud* إلى عين المكان فأمر بحشد الجيش عند تلمسان ثم بدأت مفاوضات سلمية بين الجنرال بيدو ممثله وعامل وجدة باسم العاهل المغربي ، واشترط بيدو باسم بلاده طرد الأمير عبد القادر من التراب المغربي أو إجباره على أن يعيش مواطنا عاديا بالمغرب ، واشترط العامل ابن الجناوي أن تعاد للمغرب حدوده القديمة مع الأتراك عند تافنا[93] ولكن المفاوضات انقطعت فجأة عندما هاجمت مفرزة من الجيش في 15 يونيو المعسكر الفرنسي . وفي 16 منه

---

(90) تحفة . 1 . 289 . لسان ص 135

(91) تحفة . 1 . 290

(92) *Hœfer, Empire du Maroc, p.379*

(93) *Op. Cit.* وحسب ابن عبد القادر في التحفة . 1 . 291 فإن الجانب الفرنسي هو الذي عرض على الطرف المغربي عودة المغرب إلى حدوده القديمة . لكن الزحف الفرنسي يخالف هذا الاتجاه تماما

تحركت قطع من الأسطول الفرنسي بطولون متجهة بقيادة لوبرانس دو جوان فيل *Le prince de Joinville* إلى السواحل المغربية . وفي 19 يونيو اقتحمت القوات الفرنسية بقيادة الماريشال بيجو مدينة وجدة بعد أن انجلى عنها عدد من سكانها وكانت مدينة صغيرة . ثم عاد المهاجمون إلى معسكرهم بلالا مغنية ومعهم مائتان من الأسر التلمسانية التي لجأت إلى وجدة ؛ وحسب «هوفر» كان الأمير عبد القادر هو الذي أرغمها على اللجوء إلى وجدة[94] . على أن عودة المهاجمين بعد يوم واحد من احتلالهم لوجدة . يرجع إلى خوف الجانب الفرنسي من رد فعل بريطاني[95] .

أما الأسطول الفرنسي فقد تولى في البداية نقل الرعايا الفرنسيين من المراكز الساحلية في انتظار قصفها بالمدفعية . وفي ثالث يوليوز هاجم الجيش الملكي فرقة فرنسية كانت تتحرك عند نهر ملوية من أعلاه . واعتبر الجانب العسكري الفرنسي عندئذ أن ذلك بمثابة إعلان حرب .

وفي 15 يوليوز 1844 طالب بيجو بنجدات كافية بعد أن علم أن الحكومة المغربية قد بعثت إلى الجبهة الشرقية بقوات كبيرة العدد يقودها الأمير سيدي محمد . وفي الوقت ذاته أبلغ العاهل المغربي السلطات الفرنسية عن طريق وزيره محمد بن إدريس وبواسطة القنصل العام الفرنسي بطنجة أنه يقر بوجود هجمات مغربية على الجيش المعتدي ، ويعد بمعاقبة القواد المسؤولين ؛ ولكنه يطالب بعزل بيجو المسؤول عن احتلال وجدة . ودون أن يتعرض بذكر للأمير عبد القادر[96] الذي كان يتحرك آنذاك بين الريف والحدود الشرقية . وبناء على إلحاح من الطرف الفرنسي دعا السلطان الأمير عبد القادر إلى الابتعاد عن الحدود الشرقية والإقامة بضواحي فاس[97] مع جيشه الذي انتهى عندئذ إلى نحو خمسمائة نفر من المواطنين الجزائريين[98] . غير أنه مازال يحظى حتى ذلك الوقت بعطف المغاربة ملكا وشعبا. كما أنه قد ظهر مع كتيبته في موقعة إيسلي دون أن يشارك في الحرب نفسها. وهذا

---

(94) *Hœfer, Op. Cit,*

(95) *Terrasse, Histoire. 2. 322* *Hœfer, Op. Cit, p.379*

(96) *Hœfer, p.380*

(97) *Op. Cit, p.383*

(98) استقصا ، 9 ، 51

يعني أن بقاءه على مرأى من العدو ، وبالرغم من التدخل الملكي ظاهرياً ، يتفق مع تعاطف المغرب وصموده في أحرج الظروف لصالح جيرانه . وبلغ من جرأة الأمير أن فرض سلطته الفعلية في منطقة الريف الذي ظل يدفع عبر القرون بالمزيد من أبنائه فداء للجزائر في مواجهتها للغزو الأجنبي . وكان يلقي الخطب في الدعوة إلى الجهاد ويستمع إليه كبار الشخصيات في الدولة المغربية وأصبح شبه خليفة مفروض للسلطان في الريف ، ويحظَى بامدادات عسكرية متوالية من ولي العهد سيدي محمد ، وبينها كمية ضخمة من البنادق الانجليزية[99] .

وفي 23 يوليوز وجه القنصل *De Nion* من طنجة رسالة إلى العاهل يطلب جواباً محدداً عن شروط بلاده وأعطَى إنذاراً مهلته ثمانية أيام . ففوض العاهل لباشا العرائش بوسلهام بن علي حق التفاوض بشأن السلم مع الطرف الفرنسي بطنجة وانسحب الأمير عبد القادر مؤقتاً إلى نواحي فاس . لكن المفاوض المغربي لم يستطع إقناع الطرف الفرنسي بموقف المغرب من إرسال قوات كبيرة إلى الحدود ، وهكذا عمد أسطول لوبرانس دو جوان فيل إلى قصف طنجة بشدة . ورد المغاربة بقصف أشد مما كان يظنه المهاجمون الذين واجهوا قصف ثمانين مدفعاً[100] . وكان بدء العمليات في 6 غشت ، وبلغ أسطول الجيش الفرنسي 28 قطعة بعضها يحمل مائة مدفع أو دونها . أما أخطر هجوم فكان على الصويرة التي دمرت مدفعيتها كلياً واحتل الأسطول الجزيرة المجاورة . وكان رسوه بشاطئها في 11 غشت . وبينما كان يتهيأ للقصف كان الوضع أخطر بمنطقة الحدود الشرقية فإن القوات المغربية التي تجمعت عند وادي إيسلي حول وجدة بقيادة سيدي محمد بن عبد الرحمن اكتمل عددها حوالي ثلاثين ألف فارس بما فيهم حوالي الثلث من بني يزناسن . وكان غرض العاهل من غير شك هو القيام بمواجهة حاسمة ضد الجيش الفرنسي إذا قام بمبادرة انتقامية . وهكذا احتشد الفرنسيون في هضاب وادي تافنا بقيادة دولاموريسيير الذي اقتطع من الجيش ما لا يقل عن 11 ألف مقاتل زحفت إلى جهة للا مغنية وانتشرت حول إيسلي ووادي ملوية ، وتحولت للا مغنية إلى مركز تموين . واتخذ من ساحل «الغزوات» مركز استقبال للجيوش القادمة كنجدات عبر البحر من وهران

---

(99) *Hœfer, Ibid* ـ

(100) *Op. Cit, p.318* وانظر أيضا : *Villes et tribus (Tanger), p.103*

وكان على القبائل الجزائرية أن تمد الجيش الفرنسي ببعض مواد تموينه كالبيض والفواكه[101] . ولم يكتف الماريشال بيجو بفيالق لاموريسيير . بل أضاف طابورين آخرين أحدهما بقيادة الكولونيل إينار **Eynard** والآخر بقيادة الجنرال بيدو **Bedeau** . وبعد أن تعرفت قيادة الجيش الفرنسي على المعسكر المغربي الذي كان ينقصه التنظيم والسلاح الثقيل تحرك الجيش الفرنسي ليلة 14 غشت فاجتاز في جنح الظلام ابتداء من الثانية صباحا ومن غير ضجيج ، نهر إيسلي وشاهدوا من قمم الجرف الأخضر معسكر الجيش الملكي على التلال المحيطة بالضفة اليمنى لإيسلي .

ومن مجموع الجيش الفرنسي خصص ما يناهز 11 ألفا نظمت على شكل مربع وسطه للذخائر والتجهيزات العسكرية ، ويحيط به مشاة فرنسيون ووراءهم فرسان فرنسيون ثم فرسان السبايس الجزائريون ووراءهم مختلف القبائل الموالية لفرنسا من أهل الجزائر[102] . وبين كل فريق وآخر مسافة معينة . وشغل عرض المربع في أقصاه حوالي 700 متر . ثم نصبت ثمانية مدافع في كل زاوية ، وبين الزاوية والأخرى أيضا . والجميع 64 مدفعا مقابل 11 مدفعا في الجانب المغربي[103] .

ويتفق الناصري مع ابن عبد القادر في أن الأمير عبد القادر نصح الأمير سيدي محمد بعدم مواجهة الجيش الفرنسي ونصحه أن يخفي مقره عن عيون العدو ، لأنه كان مميزاً بالرايات والمظلة والفساطيط الملكية فلم يعمل برأيه ، وزاد الطين بلة أن الجيش الفرنسي بينما كان يقترب ليلا من المعسكر المغربي اتصل بعض البدو بالوزير الحاجب الطيب بوعشرين وأخبروه باقتراب العدو ، فقال : إن سيدي نائم ولا يمكن أن أوقظه . على أن الجيش المغربي لم يقم بالمواجهة مباشرة . بل أرسل القائد العام فرقة من ألف فارس للتعرف على ما إذا كان الجيش الفرنسي قد أخلى للا مغنية. ولما كان الأمر بعكس ذلك ، أصر الأمير على المواجهة وفي صبيحة 14 غشت ، حاولت مقدمة الجيش الملكي أن تمنع وحدات بيجو من التقدم نحو بسيط أنكاد فاشتبكت معها وكانت خسائر من الجانبين ، وأول طلقات العدو نحو المخيم المغربي ، اتجهت نحو موقع الأمير ، وكان عدد كبير من الخيالة المغاربة مختبئين في

---

(101) *Op. Cit, p.383*

(102) سليماني . لسان . ص 136

(103) ن . م.و ص . *Hœfer, p.385*

كمائن فهاجموا في آن واحد . ميمنة وميسرة ومؤخرة العدو . وكانت التعليمات لدَى الجيش الفرنسي صارمة بعدم التحرك من مواقعه في حالة هجوم ومدفعيته في حالة تأهب . فلما اقترب الفرسان المغاربة المسلحون بالبنادق انطلق قصف المدافع نحوهم من مختلف الزوايا . وكان الأمير قد غير زيه وأخفَى الشارات الملكية بعد أن سقطت قنبلة أمام حامل المظلة . فلما تعذر التعرف على موضعه داخل الجيش الملكي . حدث الوهن في صفوفه بالرغم من صمود الفرسان لقنابل العدو بعض الوقت . وعندئذ بدأ الشراردة وغيرهم في عمليات النهب داخل المعسكر(104) . لكن سرعان ما انسحب الناهبون وقد فتكت المدافع بمآت من الفرسان والمشاة . وانسحب الأمير سيدي محمد باتجاه تازا ثم فاس ، ووقع سلاح المغاربة وذخائرهم وأثاثهم وخيام التموين وفسطاط الأمير وفساطيط القواد في يد العدو ، وحاولت فرق من الجيش المغربي عبثاً أن تعيد الكرة ضد القوات الفرنسية التي بفضل تفوق تنظيمها وتسليحها القوي تمكنت من سحق المقاومة المغربية حسبما ورد في تقرير للماريشال بيجو(105) . وانتهت هذه المعركة الدامية بعد نصف يوم ، وحسب التقرير المذكور ، فقد فقد المغاربة حوالي ثمانمائة شهيد جلهم فرسان لأن المشاة كانوا قلة وهم تمكنوا في غالبيتهم من النجاة بفضل الشعاب والأوعار . كما كان بين المغاربة 1500 إلى 2000 جريح وهذه التقديرات لا يمكن أن تكون موضع مبالغة كبيرة ، لأن المصادر الوطنية نفسها على قلتها تؤكد أن خسائر المغرب كانت كبيرة . ويقول التقرير العسكري الفرنسي المذكور إن خسائر الجيش الفرنسي من أفراده لا تزيد عن عشرين منهم خمسة ضباط ، وحيث إنه لا يوجد لدَى المصادر الوطنية إلا عموميات فالرواية الأجنبية لابد أن تكون موضع شك ما لم تؤكدها تقديرات محايدة . وما يرجح حقيقة الخسائر المغربية من حيث كبر حجمها ، ودون الاستناد إلى أي مصدر ، هو أن المغاربة هاجموا العدو بالبنادق وعرضوا أنفسهم مباشرة لقنابل المدفعية في الوقت الذي لم تتحرك فيه على ما يظهر مدافعهم القليلة بالنظر للمفاجأة ونقص التنظيم .

ومع كل ذلك ، فإن صمود بعض فرق الجيش الوطني للمقاومة بعد انسحاب

---

(104) استقصا 9 ، 52

(105) *Hœfer, Op. Cit, pp.385-386* وقد نقل هذا التقرير

القسم الأكبر منه ، وباعتراف القائد العام للجيش المعادي ، يدل على أن هزيمة إيسلي قررتها المدفعية المعادية وليس فوضى الجيش المغربي التي لم تكن بالغة السوء كما تشير إلى ذلك المصادر العربية كالناصري وابن عبد القادر والسلماني . أما النقص الخطير حقاً ، فهو الجهل الكلي لدى السلطة المغربية بتنظيمات واستراتيجية الجيش الفرنسي الذي استخدم أيضا لضرب المغاربة أعدادا كبيرة من إخوانهم الجزائريين ، كما أن دور أركان حرب الأمير سيدي محمد يكاد يكون منعدما أو مجهولا على الأقل . وقد نقل المنتصرون على إثر انسحابهم عددا من المخلفات الثمينة التي تركها المغاربة إلى باريس ، كفسطاط الأمير ومظلته والرايات التي نصبت حوله[106] .

وإذا كانت معركة إيسلي قد حدثت في 14 غشت 1844 فإن يوم 15 غشت شهد ضرب الأسطول الفرنسي للصويرة واستيلائه على جزيرتها وفك بطارياتها وتدمير بطاريات المدينة والاستيلاء على 120 مدفعا نصفها اسباني والنصف الآخر إنجليزي ، لكن الفرنسيون اكتفوا بأخذ بعضها وإلقاء الباقي في البحر[107] .

وبدأت المفاوضات بين السلطتين المغربية والفرنسية بعد موقعة إيسلي ، لأن الفرنسيين فضلوا أن لا يواصلوا مغامرتهم في التراب المغربي وأقدامهم لا تزال تقف على موقع هش في الجزائر ، بل اكتفوا بالاستيلاء على وجدة وجزيرة الصويرة .

وأخيرا تم التوصل إلى اتفاق طنجة المبرم في 10 شتنبر 1844 الذي أمضاه باسم ملك المغرب بوسلهام بن علي أزطوط ، وباسم عاهل فرنسا كل من قنصلها العام والقائم بأعمالها لدى ملك المغرب[108] وهذه ترجمة النص الفرنسي للاتفاق (دون مقدمة)[109] :

الفصل الأول – إن الجيوش المغربية التي تجمعت بكيفية غير عادية على حدود المملكتين أو بجوار الحدود المذكورة سيتم تسريحها . ويلتزم جلالة ملك المغرب بأن يمنع من الآن فصاعداً كل تجمع من هذا القبيل . ويبقى تحت قيادة قائد وجدة فقط فرقة لا يمكن أن يتجاوز عددها بكيفية عادية ألفي رجل . غير أنه يمكن

---

(106) Hœfer Op. Cit, p.386

(107) Op. Cit, p.382

(108) مجموعة الوثائق . 1 . 470

(109) النص العربي الأصلي رديء ومبهم لركاكته (راجعه في م . س . ص 466)

الزيادة في هذا العدد إذا دعت الضرورة للمصلحة المشتركة ، وفي ظروف غير عادية ومعترف بها كذلك من لدن الحكومتين .

الفصل الثاني — يعاقب عقاب عبرة كل الرؤساء المغاربة الذين قادوا أو تساهلوا في أعمال عدوانية ارتكبت زمن السلم في التراب الجزائري ضد عساكر جلالة ملك فرنسا . وستطلع الحكومة المغربية ، حكومة فرنسا ، على الاجراءات التي ستتخذ لتطبيق هذا الشرط .

الفصل الثالث — يتعهد جلالة ملك المغرب من جديد ، وبكيفية باتة ومطلقة وكليةً ، أن لا يقدم في منطقة حكمه ، ولا يسمح بتقديم مساعدة ولا غوث من مال أو ذخائر أو أي أشياء حربية ، لأي واحد من الرعايا الثائرين أو أي عدو لفرنسا .

الفصل الرابع — يعتبر الحاج عبد القادر خارجاً عن القانون في مجموع تراب المملكة المغربية والتراب الجزائري ، وبناء على ذلك ، يطارده الفرنسيون في الجزائر ، والمغاربة في ترابهم الوطني بحد السلاح حتّى يطرد أو يقع في أيدي هذه الدولة أو تلك . وفي حالة ما إذا وقع عبد القادر في يد الجيش الفرنسي فإن حكومة جلالة ملك فرنسا تتعهد بمعاملته بالاحترام والتكريم ، وإذا وقع في يد الجيش الملكي المغربي فإن جلالة ملك المغرب يتعهد باعتقاله في إحدَى المدن الساحلية غرب مملكته إلى أن تتخذ الحكومتان باتفاق بينهما ، الاجراءات الضرورية حتّى لا يعود عبد القادر بأية حال لحمل السلاح ويقلق مرة أخرى راحة الجزائر والمغرب .

الفصل الخامس — إن تحديد الحدود بين ممتلكات جلالة عاهل فرنسا وجلالة ملك المغرب يبقَى مقرراً ومتفقا عليه طبقا لما كان معترفا به من لدن الحكومة المغربية في عهد حكم الأتراك بالجزائر . وسيكون التنقيح التام والمنتظم لهذا الشرط موضع اتفاقية خاصة تعقد في عين المكان بين المكلفين المعينين لهذا الغرض من قِبل جلالة عاهل فرنسا وبين مندوب عن الحكومة المغربية ، ويلتزم جلالة ملك المغرب بأن يتخذ بدون تأخير ، لهذا الغرض الإجراءات الملائمة ويخبر بها الحكومة الفرنسية .

الفصل السادس — بمجرد إمضاء هذا الاتفاق تتوقف الاعتداءات من الجهتين . وحالما تطبق الفصول الأول والثاني والرابع والخامس تطبيقا يرضي الحكومة الفرنسية . فإن الجيش الفرنسي سينجلي عن جزيرة الصويرة ومدينة وجدة ويوضع

على الفور تحت تصرف كل من الدولتين كل الأسرى لديها .

الفصل السابع — يلتزم الطرفان الساميان المتعاقدان أن يشرعا بتراض منهم وبأسرع ما يمكن . في عقد معاهدة جديدة ترتكز على المعاهدات الجاري بها العمل حالياً ، ويكون الهدف منها تمتين وتتميم المعاهدات السابقة لصالح العلاقات السياسية والتجارية بين المملكتين ، وفي انتظار ذلك فإن المعاهدات السابقة تحترم بدقة ويلتزم بكل شروطها . وتتمتع فرنسا من جميع النواحي . وفي كل مناسبة . بمعاملة الدولة الأكثر تفضيلا .

الفصل الثامن — يصادق على هذا الاتفاق . وتتبادل المصادقة في أجل شهرين أو قبله إن أمكن .

وحرر يومه بـ 10 شتنبر من عام 1844 ، الموافق لـ 25 شعبان من السنة الهجرية 1260 [110] . وأمضى هذا الاتفاق ووضع عليه طابعه كل من المندوبين المذكورين أدناه والمعينين من لدن جلالة ملك فرنسا وجلالة ملك المغرب [111] .

الامضاء : دوق دونيون دوقاز
دوق جلوكسبرج
(خاتم المندوب المغربي بوسلهام بن علي ازطوط)

وبالاطلاع على هذا الاتفاق يتبين أن الفصل الرابع هو أسوأ ما فيه فحوى وتطبيقا . لأنه يتعلق بمصير شخص قاد حركة الثورة في بلاده ومد إليه المغرب يد المساعدة منذ انطلاقته الأولى حتى مواجهة إيسلي أي لفترة تناهز اثني عشر عاما . غير أن المغرب كان أمام اختيارين . إما أن يقبل شرطا فرضه العدو وإما أن يتحمل كل المسؤوليات المترتبة عن عدم تطبيقه :

1 — استمرار احتلال وجدة وجزيرة الصويرة حسب الفصل السادس وهذا أمر واقع وليس احتمالا

2 — قيام الجيش الفرنسي باستعمال حق مطاردة الأمير عبد القادر داخل التراب المغربي

---

(110) هذا التوافق الرسمي بين التاريخين يؤكد أن معركة إيسلي لم تكن في نصف شعبان كما في المصادر العربية المتداولة . بل في اليومين الأخيرين من رجب .

(111) راجع تحليل بعض نصوص هذا الاتفاق لدى *111 Allal EL-Fassi, Livre rouge, p.198*

3 ـ قنبلة المزيد من الموانئ المغربية

4 ـ ضرب حصار اقتصادي على سواحل المغرب أو موانئه على الأقل ، وعلى حدوده الشرقية

5 ـ انتشار القوات الفرنسية داخل الحدود المغربية شرقاً .

وهذا كله مع استبعاد مغامرة أوسع نطاقا ، أي بالاستيلاء على التراب المغربي كله وهو احتمال لم يكن مستحيلا في حق الأطماع التوسعية الفرنسية .

وبالمقابل ، فإن الأمير عبد القادر :

1 ـ لم يفرض قط نفسه كزعيم لأكبر مساحة من الجزائر

2 ـ كان الأمير مضطرا إلى أن يحارب في نفس الوقت وهو بالجزائر كلا من مواطنيه المقهورين والمتعاونين مع الاستعمار وقوات الاحتلال

3 ـ أظهرت مواجهة إيسلي أن مكْر المحتلين ذهب بهم إلى استخدام القبائل الجزائرية والسبايس ضد إخوانهم المغاربة ، ولو امتدت المواجهة زمنا ومكاناً لكان الأمر أخطر .

4 ـ تخلى الجزائريون عمليا عن الاعتماد على الأمير عبد القادر ولم يحاول من جهته أن يستميل إليه منطقة القبائل التي كان يمكن أن تلعب دورا كبيرا في المقاومة. والدفاع عن بلد من الخارج لا يقوم قط مقام الدفاع من الداخل . ولابد من الارتكاز على نقطة تجمع ثابتة أو متحركة في الداخل ليفيد إمدادها من الخارج . وقد وقف المغرب بثقله ضد الجيش الفرنسي حتَّى معركة إيسلي ، ولصالح الثورة الجزائرية وأميرها . لكن بعدها كان المغرب بين خيارين إما أن يقبل ولو بعد مقاومة طويلة ، الاستسلام كرها وتفوز فرنسا بقطرين عوض واحد ، وإما أن يحتفظ باستقلاله ويخضع لتسليم شريف لزعيم كبير إلى عدوه الذي التزم بتكريمه ، وهذا هو ما اختاره المغرب وأنفه راغم وليس هناك حل ثالث ولا تأويلات مزيفة . وفي جميع الأحوال ففرنسا هي التي قررت حل قضية عبد القادر ، وكانت هي التي ستحلها حتَّى ولو دافعها المغرب في خمسين معركة ، إن تحول المغرب على كره منه ضد عبد القادر شيء مؤلم . لكن ما هو الحل البديل ؟

وبعد زهاء ستة أشهر من توقيع الاتفاق المذكور تم عقد معاهدة للا مغنية في 9 ربيع الأول 1260 موافق 18 مارس 1845 المتعلقة بتحديد الحدود تطبيقا للاتفاق المذكور[112] . وكان المفاوض المغربي هو عامل وجدة حميدة الشجعي والمفاوض الفرنسي هو الكونت دولارو *Comte de la Rue* وحسب هذه المعاهدة ، فقد جرد المغرب من أراضيه الممتدة غرب وادي تافنا (بند 3) وأدخل قسم من الجنوب الشرقي في تراب الجزائر ، وتركت الصحراء مجرد مرعًى لسكان البلدين من غير تحديد (بند 4) في الوقت الذي كان قسم كبير منها يدين بالبيعة لملوك المغرب عبر القرون ، وفيما عدا الأراضي الواقعة جنوب قصور الصحراء (بند 6) والتي اعتبرت فلاة لا تحتاج إلى تحديد ، فقد ضمن حق اللجوء السياسي لرعايا كل بلد في القطر المجاور ماعدا الحاج عبد القادر (بند 7).

لكن ، لم يكد مولاي عبد الرحمن يطلع على نص المعاهدة حتَّى عبر عن غضبه من تصرف عامل وجدة والكاتب الذي رافقه أحمد الخضر ، في جزء من السيادة الوطنية الذي هو تراب البلاد وقسم من سكانها ، ووافق أن أعيان القبائل التي أدمجت في تراب الجزائر حضروا عيد المولد النبوي في البلاط . ولما اطلعوا بدورهم على ما قرر بشأن الحدود استنكروا ذلك وطالبوا باعطائهم حق الكلمة والاختيار . ومن جهة أخرى أصر ملك المغرب على أن تبقَى الحدود كما كانت مع الأتراك[113] . ورفض المصادقة على المعاهدة كما هي ، واعتبرها خدعة من «نائب عدو الدين» أي المفاوض الفرنسي[114] .

وورد في خطاب ملكي آخر إلى العامل بوسلهام بن علي[115] :

«... وبعد ، فقد وصلنا كتابك جوابا عما كنا كتبنا لك به في شأن حميدة بن علي الشرقي (الشجعي) وأحمد الخضر ، وأن عدو الدين خدعهما وبذل لهما الطمع . **حتَّى أدخلا طرفاً وافِراً من هذه الإيالة السعيدة في إيالة الجزائر، وعلمنا ما شرحت من عُجَرِهما وبُجَرِهِمَا وما ذكرت في ذلك، وأخبرت أن الأمر يسهل إن لم نطبع**

(112) عبد الوهاب بنمنصور . مجموعة الوثائق . 1 . ص 473-- 484

(113) م . س . من نص مذكرة ملكية ص 486

(114) ن . م . وص

(115) ن . م . ص 389

عليه[116]. فاعلم أنا علمنا الحيف من أول وهلة، فلم نَطْبَع ولا نفعل في المستقبل إن شاء الله، وإنما طبع عليه حميدة فقط. فاشرع في مباشرة الأمر على الكيفية التي قدمنا لك، ولا تأل جهدا في فسخ ما عقد الطماعان الساقطا الهمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد توجه أصحاب البلد المجاورين ليقفوا على حدود بلادهم ، ويستظهروا برسومهم وتصرفاتهم . مع أنا احترزنا من هذا كله ، حتَّى في كتاب التفويض ذكرنا فيه أن الحدود تكون على ما كانت عليه أيام دولة الترك ، ولم نقصر من الاحتراز والتحري والتقدم بالوصية . ولكن الطمع يعمي ويصم[117] . والسلام ... في 9 ربيع الثاني عام 1261هـ» .

وحاول العاهل أن يعين مفاوضا جديدا لنقض ما أبرمه سابقه ، فاختار العامل بوسلهام أزطوط[118] لكن ضغط الحكومة الفرنسية ومطالبتها بتعيين بعثة دبلوماسية تتفاوض بشأن فتح الحدود بين البلدين في العاصمة الفرنسية وتهديدها بقنبلة الموانئ المغربية في حالة الرفض الملكي لمطلب السلطات الفرنسية[119] جعل الملك المغربي يتخذ حلا وسطا ، وهو قبول الفصول التي أذن للمفاوض بالتفاوض فيها ورفض ما لم يأذن فيه . ويذكر الأستاذ بنمنصور أنه لا تتوفر وثيقة تدل على ما رفضه وما وافق عليه . ووافقت البعثة الفرنسية بطنجة[120] على تعديلات السلطان بعد تردد[121] . لكن أثيرت فيما بعد مشكلات بسبب عدم الضبط من المفاوض المغربي الذي يعايش الأوضاع في عين المكان دون أن يستشير السكان المعنيين ؛ وعلى سبيل المثال ، أدمجت قبائل في التراب المغربي كما كانت واقتطعت قصورها لصالح القطر الجزائري[122] بل كان هدف السلطة الفرنسية أن تقتطع فيجيج أيضا .

---

(116) إن لم نضع عليه خاتمنا علامة على المصادقة

(117) يظهر أن المفاوض المغربي أغري بالمال أو ما في مجراه ليتخلى عن تراب البلاد دون استشارة ملكها أو حكومتها .

(118) ن . م . ص 493

(119) ن . م . ص 495

(120) ن . م . ص 495 . والأستاذ بنمنصور يتكلم كمدير لإدارة الوثائق الملكية بالرباط

(121) بنمنصور . وثائق . 2 . 18 . و22

(122) ن . م . ص 72

ولكي يوقع عاهل فرنسا (لويس فيليب) بدوره على المعاهدة ويكون من ورائها فتح باب جديد للتعاون السلمي حرصت الحكومة الفرنسية على أن يكون ذلك بحضور بعثة دبلوماسية يوجهها العاهل المغربي لهذا الغرض ، وفعلا . بدأ البحث في المغرب عن سفير . واقتضى نظر المخزن عدم التسرع في اختياره وإرساله . فقد اتجهت الرغبة إلى اختيار القنصل المغربي الحاج محمد الرزيني منذ جمادى الثانية 1261 [123] . ولما كانت الحكومة الفرنسية تلح على ممثلها بطنجة ليلح بدوره على الحكومة المغربية ، فقد كان الجواب (السري) على لسان الوزير ابن إدريس إلى عامل الملك بالعرائش وطنجة الذي كان صلة وصل بين الممثلين الأجانب والحكومة المغربية هو التزام «التأني والإمهال الذي يحصل معه التشوف وكثرة التمني [124]» . ثم عين السلطان أخيرا الحاج عبد القادر أشعاش عامله بتطوان حيث استبدل به الرزيني الذي كان مجرد تاجر . وكان تعيينه في رمضان 1261 [125] وقد قوبل في فرنسا بحفاوة وتقدير . ولم يكن عليه أن يقوم بعملية بروتوكولية فحسب . بل إن العاهل فوض إليه النظر في حل المشكلات التي بقيت معلقة بين البلدين ولم تفصح عنها رسالة الاعتماد [126] .

قضية الأمير عبد القادر بعد حرب إيسلي

بالرغم من انهزام المغرب في معركة إيسلي فهو لم يطأطئ رأسه لمحاولات الإذلال . بل لجأ إلى الطرق الدبلوماسية التي كانت أيضا من مبادرات الحكومة الفرنسية . فالأمير عبد القادر لم يقع تسليمه . ولم تسو قضيته بكيفية فورية كما كان يتوقع المحتلون ، واتفاق الحدود لم ينه بالكيفية التي أراده بها الفرنسيون والمفاوضون الذين كانوا يتقاضون الرشوة مقابل خيانتهم ، ولا بالسرعة التي كانوا يتمنونها وهكذا فإن معاهدة للامغنية عوضت بمشروع مغربي معدل لجملة من فقراتها وأمضاه السلطان مولاي عبد الرحمن في 22 جمادى الثانية 1261 / 28 يونيو 1845 وتريث المغرب في إرسال سفيره بالنص الذي أمضاه ملك المغرب إلى فرنسا فلم

---

(123) ن . م . ص 26
(124) بنمنصور . وثائق 2 . 38
(125) م . س . ص . 75 — 76
(126) ن . م . ص 88— 89

يتوصل به عاهلها إلا في 29 حجة عام 1262 موافق 28 دجنبر 1845[127] . وهكذا استغرقت المفاوضات بشأن الحدود ما يناهز عشرة أشهر بعد توقيع معاهدة للامغنية من لدن المفاوض المغربي ، وسلمت وجدة إلى المغرب خلال فترة التفاوض .

أما الأمير عبد القادر ، فمنذ لجوئه إلى المغرب سنة 1843م واصل بعث المحاربين في مجموعات إلى الجزائر ، وآزرته بنو عامر مدة في منطقة الجزائر ثم التحق به عدد منهم فيما وراء جبل بني يزناسن غرباً[128] . وتواصلت بعوثه حتَّى نواحي تاهرت ووهران[129] . وفي الوقت ذاته حصل على تأييد بني يزناسن ، ولما رأى أن المساعدات العسكرية قد توقفت بسبب الضغط الاستعماري على المغرب ، بدأ يدعو لنفسه في مناطق الشمال[130] التي تميزت عبر تاريخها الطويل وفي أحسن فتراته بأن تنظر بحذر إلى السلطة المركزية مع ما كانت تخلقه الحواجز الطبيعية المنيعة من صعوبات في المواصلات ، ومع عدم اتخاذ الحيطة في اختيار الولاة الأكفاء الصالحين وسلوك سياسة مرنة في جباية الضرائب ومراعاة الشعور الديني العميق لسكان المنطقة ، وقيل إنه كاتب بعض شخصيات فاس والحكومة[131] . وأثناء ذلك كانت تدخلات الدبلوماسيين الفرنسيين تتواصل بإلحاح لطرد الأمير من المغرب ، وحتَّى أواسط سنة 1261 / 1845 كان لعاهل المغرب أمل في إعفاء المغرب من التزامه بمطاردة الأمير عبد القادر[132] . إلا أن احتجاج السلطات الحاكمة بالجزائر ، بما يقوم به عبد القادر وأنصاره من غارات على قبائل الجزائر ، وأنه ينهبها ثم يبيع ما يحصل عليه بأسواق وجدة على مرأى من ولاتها جعل المخزن في موقف حرج . بل إن المخزن اتخذ موقفا واضحا بعد أن تبين أن عبد القادر أصبح يدعو لنفسه[133] ، وإن حاول نجله في «تحفة الزائر» أن يبرئه من هذه التهمة . ذلك

---

(127) ن . م . ص 118

(128) ابن عبد القادر . تحفة . 1 . 293

(129) ن . م . وص

(130) حصل فعلا على تأييد الريف بشهادة رسالة ملكية (وثائق . 2 . 115)

(131) استقصا . 9 . 56

(132) وثائق 2 . 29

(133) استقصا . 9 . 58

أن موقف عبد القادر كان واضحا أيضا . وهو أن المغرب كان يجب أن يواصل الجهاد ضد الفرنسيين ، وحيث إن ملكه لم يلتزم بذلك فيجب أن يقوم عبد القادر بحركة مناوئة من شأنها إثارة المغاربة ضد السلطة القائمة ببلادهم وتحريكهم بإدارته لمواجهة الفرنسيين والقبائل المسالمة لهم . وإذاً فإن مولاي عبد الرحمن أصبح عليه في آن واحد أن يضمن حماية استقلال المغرب والعرش المهدد . وقد بدأ الغضب على حركة الأمير عبد القادر في وسط البلاط المغربي يتجلى على الخصوص انطلاقا من شعبان 1261 / غشت 1845[134] .

وحدثت تطورات جديدة في أكتوبر 1845 عندما هاجم الأمير بفرقة من المغاربة والجزائريين فرقتين فرنستين إحداهما قرب جامع الغزوات بساحل الجزائر غربا والأخرى بناحية تموشنت غربا ففتك بعدد كبير وأسر مائتين[135] . وعندئذ أعطت فرنسا تعليماتها للماريشال بيجو الذي أطلق عليه أيضا لقب دوق إيسلي بعد معركة إيسلي بمطاردة عبد القادر داخل التراب المغربي ومعاقبة السكان المغاربة الذين يأوونه أو يساندونه أو يساهمون في غاراته ، وألحت التعليمات المركزية من الحكومة الفرنسية على ضرورة تعاون المخزن معها لهذا الغرض ، والقيام بمهمتها المذكورة حتَّى إذا رفض المخزن هذا التعاون[136] . لأن الفرنسيين ظلوا حتَّى وقت متأخر ، وبالرغم من مضايقته للسلطة الحكومية بالمغرب ، يعتقدون أن العاهل مازال يأمل أن يحقق عبد القادر انتصارات إيجابية بالجزائر[137] . وكان في قرارة نفسه يكن عطفاً غريباً على الثورة الجزائرية لكن بشرط أن لا يكون المستضعفون ضحايا لها . وفي الوقت ذاته ، فإن عبد القادر أصبح يعتبر فتاناً في الخطابات الملكية ، فالتعاطف أصبح منعدماً بين الشخصيتين . وكلتاهما تعطف على الثورة الجزائرية باسم الدين وبطرق مختلفة . والفقرة التالية وردت في خطاب ملكي إلى عامل العرائش بوسلهام بن علي توضح موقف مولاي عبد الرحمن[138] :

---

(134) وثائق 2 . 55 و58

(135) بنمنصور . ن . م . س . ص 83 . وانظر أيضا ص 96— 97

(136) وثائق . 2 . 85— 86 . 99

(137) ن . م . ص 105

(138) ن . م . ص 108

«... نسأل الله أن يدمر الكافرين ، ويجعل كيدهم في نحرهم ، ويكفينا أمر هذا الفتان الذي كلما خمدت نيران الكفر أوقدها وجر الوبال للمستضعفين ، فإنا نحب نصر الإسلام ، وظهور أهله على عبدة الأصنام ، ولا نكره ما يحل بهم ، ولكن على وجه لا يكون لهم معه انتصار . ولا يتأتى لهم به دفاع ولا أخذ ثار ، فإن الحاج عبد القادر إنما يصطاد الغرة ويخطف ما قدر عليه ، ويترك المستضعفين في الوبال مع عدو الدين ، ويجب الفتنة لهذه الإيالة ...» .

وفي أواخر أكتوبر 1845 بدأ تنفيذ الجيش الفرنسي لعمليات مطاردة عبد القادر[139] بحشد اثني عشر ألف جندي لهذا الغرض في انتظار المطاردة ، وأسند العاهل إلى شيخ قبيلة الأحلاف الشيخ بوزيان قيادة القبائل والفرق العسكرية التي اسند إليها أمر مطاردته من جهة السلطة المغربية[140] . وقامت الحكومة البريطانية بالتدخل لدى السلطان بقصد اتخاذ مبادرة حاسمة لاقصاء الحاج عبد القادر من التراب المغربي[141] ، وكان الموقف دقيقا بالنسبة للمخزن ، لأن عبد القادر يلتجئ إلى قبائل مغربية كبني يزناسن والريف . وتحاشى المخزن مواجهة هذه القبائل حتى لا يفتح واجهتين داخليتين في آن واحد[142] .

وخلال سنة 1845 / 1261 ظهر مقاوم بارز من المغرب في الجزائر باسم بومعزة ، وهو من ناحية وزان ومنتسب إلى الطريقة الوزانية ، فاستعان بالعناصر العربية الموجودة في حوض شلف ، كما سانده سكان الونشريس ، وادعى المهدوية ، وكبّد الجيش الفرنسي خسائر كثيرة خصوصا في معركة قادها من الجانب الفرنسي الجنرال بورجلي (بضم الجيم وشد اللام كسرا) **Bourjolly** وبعد مقاومة ضارية في مناطق أخرى وقع أسره في ناحية تاهرت ثم نقل إلى فرنسا ، وبعد ذلك سمح له بالذهاب إلى تركيا[143] .

---

(139) ن . م . ص 114

(140) م . س . ص 111 – 112

(141) ن . م . ص 114

(142) ن . م . ص 115

(143) بنمنصور . أعلام المغرب العربي . 2 . 39 . وهو يصحح خطأ مؤلف التحفة . ابن عبد القادر الذي يعتبر «بومعزة» جزائريا

أما الأمير عبد القادر فقد اعتصم بالريف الغربي وأصبح عليه أن يواجه حملات المخزن بعد فترة من الصمت. وهكذا أنذر السلطان القبائل بالمنطقة[144] في منشور بثالث رمضان 1263، وهذا يعني أن الجيش الفرنسي لم ينفذ خطته في اقتحام التراب المغربي، وقد حدث تغيير في القيادة العامة بالجزائر قبل ثلاثة شهور من هذا التاريخ، حيث عين حاكم عام مدني هو الدوق دومال نجل عاهل فرنسا محل الماريشال بيجو.

وبدأت المواجهة الأولى ضد عبد القادر عندما حاول أن ينزل أنصاره من بني عامر والحشم في طريق فاس من جهة الريف. ويظهر أن العاهل كان يتوقع أن يكون هناك تواطؤ مع أهل فاس أنفسهم، فجرد حملة بقيادة ابراهيم بن أحمد الأكحل، وأظهر المقاومون شجاعة انتحارية بقتل أبنائهم وعيالهم ثم بقتل أنفسهم بعد أن أحاط بهم الجيش المهاجم[145]، ولم يحضر الأمير هذه الوقعة حيث كانت على نهر سبو وهو بنواحي التسول (وهم من قبائل زناتة المكناسية) مع باقي أنصاره.

ثم ارتأى العاهل أن يهيئ حملة حاسمة ضد عبد القادر، فعين على رأس جيش كبير نجله الأمير سيدي محمد[146]. وأسند القيادة العامة للقائد محمد بن عبد الكريم الشرقي المعروف بـ «باحمد» وحضر أيضا بعض إخوة الأمير. وانقسم الجيش شطرين عند وصوله إلى سلوان بالشمال، وأثناء الليل عمد عبد القادر إلى مفاجأة الجيش المغربي، فدخلت ثلة صغيرة انتحارية بين شطرين واشعلت حراقيات على ظهور الدواب يسمع لها صوت مخيف وأطلقوا وابلا من الرصاص فهاج الجيش وبدأ يقتل بعضه بعضا[147]. ثم تحرك عند زايو بجوار ملوية، وهناك هاجمهم الأمير في مجاز ضيق فغرق من الجيش عدد كبير[148]. وبقي الجيش يتتبع عبد القادر ورفاقه. بينما قام الأمير سيدي محمد بمبادرة لحقن الدماء، ودعا عبد القادر إلى الاعتذار إلى

---

(144) تحفة. 1. 318

(145) ن. م. ص 319. استقصا. 9. 56

(146) ابن عبد القادر. تحفة. 1. 321. وذكر أن جيش سيدي محمد بلغ خمسين ألفاً. وهو ما لم يكن يتوفر عليه المغرب في هذه الحقبة. علما بأن قوات الجيش النظامي في معركة إيسلي لم تزد على 20 ألفاً بشهادته هو.

(147) م. س. ص 322

(148) ن. م. وص

السلطان فانتدب خليفته البوحمدي . لكن ما لحق الجيش المغربي من سوء جعل السلطان يأمر بإلقاء القبض على البوحمدي الذي يقول صاحب تحفة الزائر إنه اغتيل مسموما في السجن بعد أيام[149] . وكانت هذه الأحداث في أواخر 1263 / دجنبر 1847 . ثم طوردت فلول عبد القادر عند مصب ملوية بمشرع الرحائل فلجأ إلى بقايا أنصاره من بني يزناسن[150] على مسافة قريبة جدا من الحدود الجزائرية . وفكر عندئذ في اللجوء إلى الصحراء بالنظر لاقترابه من حشود العدو لكن لم يكن لديه ممر سوى فج قرر الجنرال لاموريسيير أن يراقبه جيشه ، وبعث لذلك بمفرزة من السبايسية على رأسهم بوكراوية وبمفرزة أخرى يقودها الملازم الثاني إبراهيم . وتمكن بوكراوية نفسه أن يلحق بالأمير عبد القادر على مسافة قريبة داخل الفج المذكور حيث التقى بوكراوية بعبد القادر الذي عبر عن رغبته في الاستسلام للجيش الفرنسي . لأنه فضل ذلك على أن يستسلم للسلطة المغربية . وفي 23 دجنبر 1847 وبعد إجراء المفاوضات بشأن الاستسلام ، عن طريق بوكراوية سلم الأمير عبد القادر نفسه إلى لاموريسيير . ومعه أسرته وجمع من مساعديه[151] ، وصادف هذا التاريخ شهر محرم 1264هـ .

واجمع كل الذين حللوا شخصية عبد القادر على أنه كان داهية في السياسة وقائداً عسكريا محنكا ذا شجاعة خارقة . قال عنه المشرفي في الحلل البهية ، كان آية من آيات الله الباهرة ، وقال السليماني في اللسان المعرب : ظهر منه من الإقدام والشجاعة وحسن السياسة والمهارة في مكايد الحروب ما قيد الأبصار عليه . وقال الناصري ... إن مقام هذا الرجل في الشجاعة معروف وبصَارته بمكائد الحروب معلومة ، وأقر له «هوفر» بالشجاعة رغم سوء حظه كما قال .

والحق أن عبد القادر الجزائري مناضل شريف خانه الحظ كما خان آخرين إلاّ أنه ترك ظله بارزاً في تاريخ النضال ضد الاستعمار .

استقبال الأسر الجزائرية

كان للاحتلال الفرنسي للجزائر انعكاسات اجتماعية واقتصادية على أوضاع أسر

---

(149) ن. م. ص 321.

(150) *Hœfer, Empire du Maroc, p.389*

(151) *Op. Cit, pp.389-391* تحفة، 1 ، ص 321. استقصا، 9 ، 57 ، والمصدران الأخيران أقل دقة.

جزائرية كثيرة على اختلاف مستوياتها المادية والمعاشية . وكان للعامل الديني والتشبث بالتقاليد تأثير واضح في حركة الهجرة إلى المغرب ، فضحت هذه الأسر بمصالحها وأملاكها إما تجنباً لانتقام أو خوفاً من الانسلاخ عن تقاليدها وممارسة شعائر دينها وقد كان هناك سوابق من الاحتلال الإسباني لجملة من مراكز المغرب الأوسط قبل تحريرها على يد الأتراك . وقام المغرب بواجبه في استقبال الأسر والأفراد والضباط والجنود الذين آووا إلى كنفه بحكم الجوار والأخوة الإسلامية ، لأن الاعتبارات القومية لم تكن لها قيمة تذكر في علاقات المغرب بالأقطار الإسلامية . والأتراك الذين أنشأوا كيانا بتونس وآخر بالجزائر لم يزيدوا في نظر المجتمع المغربي وحكومته على أن فصلوا التراب بحدود ولم يفصلوا بين المسلمين الذين يسكنون داخل الحدود .

وهكذا تدفقت على المغرب جموع المهاجرين منذ الأيام الأولى للنزول الفرنسي بتراب الجزائر ، فوردت سفينتان من الجزائر في ربيع الأول 1246 / 1830 غشت على تطوان ، وأوصَى العاهل عامله بها أن يحسن استقبالهم وإيواءهم[152] . ثم اهتم المخزن على الفور بإدماج التقنيين العسكريين في إطارات الجيش الملكي[153] . وأعطَى تعلياته بإسقاط الضرائب جملة عن المهاجرين « ... فينبغي لنا أن نؤنس وحشتهم ونعاملهم بما ينسيهم غربتهم ، لأنهم إخواننا في الدين ...»[154] ولما كانت تطوان قد استقبلت أكبر عدد منهم قبل توزعهم على مراكز أخرى ، فقد كان مهاجروها موضع عناية خاصة ، لأن كثيرا منهم فقراء ولا حرفة لهم[155] . ولذلك كانوا يستفيدون من هبات مالية أو عينية[156] . وأُحْصي من فقراء الجزائر بتطوان وحدها في 1258 / 1842 حوالي سبعمائة[157] . كذلك استفاد تجارهم ومثقفوهم من مساعدات خاصة[158] . وكان فيهم من يطلب إعانات لغرض محدَّد فتنفذ له . وكثيرا ما كان يتم ذلك من مخصصات العاهل وعلى حسابه[159] . ولم تنقطع

---

(152) بنمنصور ، وثائق ، 1 ، 459 – 460

(153) ن . م . ص 462

(154) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 8 ، 314

(155) م . س . ص 315

(156) م . س . ص 328 ، 331

(157) م . س . ص 357

(158) م . س . ص 375

(159) بنمنصور ، وثائق 2 ، 47 و52 – 65

مساعدة المغرب للمهاجرين الجزائريين مع تدفقهم وتتابع السنين طيلة حكم مولاي عبد الرحمن .

ومن الأسر الجزائرية التي حلت بفاس لهذا العهد أو قبل فترة قليلة منه :

1 — من تلمسان . عائلات ابن منصور والمقريين والبيدريين والبوسعديين الودغيريين وبنو حربيط المتسبون لعبد السلام بن مشيش وبنو غبريط والقيسيون والزغاريون والنجاريون . كما ورد من تلمسان أسر من ذوي الحرف الصغيرة من بني عبد الواد وغيرهم من الأمازيغ . وعدد من أسر الأتراك الكورغلان وبعض مسلمة اليهود كأسرة ابن ثابت العبد الوادية .

2 -- من معسكر وضواحيها : عائلات المهاجيين وكذا المشرفيون والمراحيون والدحاويون الأدارسة والمختاريون الأدارسة والنميشيون الأدارسة والخالديون والشبانيون الغريسيون .

3 -- من مستغانم : أسر من سويد وصنهاجة وهبرة ، ومنهم أولاد ابن معزوز وابن صابر . وأولاد معمر وأولاد الجندوز . وهناك من احترفوا الزراعة بضواحي فاس حيث اقطعوا أراضي خصبة ثم نقلوا إلى نواحي مراكش[160] .

كذلك عاد إلى المغرب سنة 1262 / 1845 الأسرى المغاربة من القوات البرية والبحرية الذين ساهموا في حرب الجزائر ووقعوا في قبضة الاحتلال . وعددهم 124[161] .

تهديد الثغور البحرية والموقف تجاه إسبانيا

أصبح تهديد الثغور البحرية وتهديد منشآتها واحتلالها عند الاقتضاء من أهم الخطط السياسية والستراتيجية التي طبقتها الدول الأوروبية بسواحل الشمال الإفريقي خلال القرن 19م لإذلال السكان أو الضغط على الدولة التي تهاجمها السفن الأوروبية . واعتمدت الدول الاستعمارية على القوة البحرية لا في مهاجمة هذه المنطقة فحسب . بل كذلك في سواحل مصر والشام والقارة الافريقية عموما . لأن

---

(160) سليماني . لسان . ص 29 -- 36

(161) بنمنصور . وثائق . 2 . 45 — 46

تجارة القوافل لم تعد تشغل إلا حيزا محدودا بالنسبة للتجارة البحرية التي سيطرت عليها الدول الاستعمارية وضرب الموانئ ومنشآتها وأجهزتها الدفاعية ومحاصرتها مما يعمل على تخريب الاقتصاد الوطني الذي أصبح قسم كبير منه في هذا الوقت البعيد تحت رحمة الغرب (التسويق، التصدير. عدد من مواد الاستهلاك كالسكر والشاي. المنسوجات. الخ ...).

وقد هوجمت أو هددت في عهد مولاي عبد الرحمن المراكز التالية :

1 — العرائش، من لدن الأسطول النمساوي في 3 قعدة 1245 / 3 يونيو 1829

2 — وادي نون في أواسط 1261 / 1845

3 — جزر كبدانة (أو جزر ملوية) في 1264 / 1847 احتلها الاسبان.

4 — سلا في صفر 1268 / 26 نونبر 1851 من لدن الأسطول الفرنسي.

5 — ضاحية سبتة في محرم 1276 / غشت 1859 على يد الاسبان، وأدّى ذلك إلى احتلالهم تطوان في رجب 1276 / فبراير 1860 (وكان احتلال تطوان بعد تنصيب السلطان محمد الرابع).

على أن اتساع حركة الأساطيل الاوروبية في عرض البحر المتوسط منذ أوائل القرن التاسع عشر م. جعلت مولاي عبد الرحمن يعيد النظر في سياسة سلفه الذي أوقف نشاط الأسطول العسكري جملة على إثر اتفاق مؤتمر فينا الأوروبي (1815م).

ولما كان مولاي عبد الرحمن يرَى أن العودة إلى ممارسة عمليات الجهاد البحري ضرورية لإظهار قوة الإسلام[162] فقد أنشأ أسطولا لهذا الغرض بدأ نشاطه قبل حادثة «المروحة» بالجزائر ببضعة أسابيع وأعطَى تعليماته لعامل تطوان أن يزود طاقه بالمواد الغذائية[163] وسائر ما يحتاجون إليه. وقصر نشاط هذا الأسطول الجهادي على اعتراض سفن الدول غير المسالمة للمغرب، أي التي ليس له معها معاهدة

---

(162) محمد داود. تاريخ تطوان. 8. 142

(163) ن. م. وص

سلم[164]. واعتبرت النمسا دولة معادية حتَّى مع عقد معاهدة معها في 1198 / 1783 ثم جددت على التوالي في 1214 / 1799 و1220 / 1805 لأن عاهلها فرانسوا الأول لم يهنئ مولاي عبد الرحمن بالملك ؛ ومن جهة أخرى لم تكن النمسا من الدول التي تؤدي الجزية للمغرب ولو في صورة هدايا.

في أواخر 1243 / 1828 خرج الرئيسان عبد الرحمن باركاش وعبد الرحمن بريطل وكلاهما من الرباط إلى الغزو في عرض البحر على رأس أسطول بأمر العاهل ، فاعترضوا سفينة نمساوية لم يكن مع ربانها جواز ، واستاقوها إلى مرسَى العرائش[165]. ثم بذل النمساويون محاولتين لقصف العرائش وتحطيم سفنها ، إحداهما في آخر ذي القعدة من السنة نفسها ، وقد أنزلوا قواتهم برا ، ويقول منشور ملكي[166]. إن المسلمين أحاطوا بهم وقتلوا عددا منهم وأنهم أغرقوا مركبا لهم وكسروا آخر. واستشهد من المواطنين أربعة ؛ ثم يتوجه المنشور إلى سكان الموانئ والسواحل على الخصوص حتَّى يلتزموا جانب الحذر من تحركات العدو الذي يتتبع عوراتهم والثانية في ثالث ذي القعدة 1245 / 31 يونيو 1829 حيث هاجم أسطول نمساوي من ست قطع ؛ ميناء العرائش بقيادة بانديرا ثم أنزل قواته المؤلفة من نحو خمسمائة جندي بالبر من جهة «المقصرة» وتوجه هؤلاء إلى السفن المغربية الراسية فأحرقوها ، وهرع السكان المحليون إلى المكان براً وسباحة ففتكوا بعدد منهم وغنموا جملة من الأسلحة[167]. ولكن هذا الهجوم جعل السلطان يقبل عرض النمسا بإجراء مفاوضات أدت إلى تجديد المعاهدة السابقة وتغيير بعض بنودها لصالح النمسا (19 مارس 1830) كما أعيدت إلى الطرف النمساوي الباخرة التي احتجزت من سنة 1243 / 1828[168].

وخلافا لما يذكره الناصري[169] من أن حادث الهجوم على العرائش أدَّى

---

(164) داود . ن . م . وص

(165) ناصري . 9 . 25 (يتحدث عن عدد من المراكب) و *Hœfer, p.288* عن سفينة واحدة

(166) داود . م . س . ص 183

(167) ناصري . 9 . 25

(168) *Hœfer, Op. Cit.*

(169) ناصري . ن . م . وص

بالعاهل المغربي إلى الإعراض عن الجهاد البحري والاعتناء بشؤون الأسطول فإن نشاط السفن الجهادية ومظاهر العناية بالقوة البحرية قد استمرت بضع سنوات أخرى على ضعف في التجهيز والتأطير. وكانت غنائم بعض السفن تباع بجبل طارق[170] . وشمل تشجيع حركة الجهاد البحري حتَّى الجزائريين المهاجرين إلى تطوان والذين مارسوا هذه العملية ضد بعض المراكب الفرنسية[171] . وقد عزز الأسطول بخمس وحدات خصصت لحراسة المضيق والاعتراض المضاد للسفن الأجنبية التي تحوم حول السواحل المغربية أو تحاول اعتراض السفن المغربية[172] .

وتمكن الجزائريون المقيمون بتطوان بقيادة الحاج عبد الكريم بن الطالب من الاستيلاء على سفينة فرنسية في سنة 1247 / 1831 . ولما كان الفرنسيون قد شرعوا قبل ذلك في احتلال الجزائر، وأن بعثتهم القنصلية تدخلت للإفراج عن المركب وبضائعه فقد استجاب العاهل لرغبتهم[173] وحذر ولاة الموانئ من تحركات الأسطول الفرنسي وانتقامه : «فلا تغتروا من جهة البحر، وكونوا على حذر. وأذكوا العيون والجواسيس»[174] . وفي سنة 1250 / 1834 أحيى المغرب حركة الجهاد البحري ضد السفن المعادية وأعطيت التعليمات لاختيار بحريين من تطوان يقودهم الرباطيان باركاش وبريطل[175] .

وحرص المغرب على حسن العلاقة مع الدول المسالمة والتزم بحماية السفن اللاجئة من مطاردة أعدائها كما حصل سنة 1248 / 1832 من لجوء بعض سفن البلجيك التي كانت تطاردها البواخر البريطانية حتَّى استصدر ممثلها بالمغرب إذنا من العاهل يسمح لها بالاحتماء بموانئ البلاد والتزام السلطة المغربية بصد البواخر التي قد تطاردها[176] . وبالمقابل تحفظ المغرب في قبول نزول لاجئين سياسيين من الاسبان سنة 1239 / 1823 وذلك رعيا للمعاهدات بين الطرفين[177] . غير أن العلاقات

(170) داود . م. س. ص 162
(171) ن . م. ص 165
(172) ن . م. ص 181
(173) ن . م. ص 273
(174) ن . م. ص 210 . 218 . بنمنصور . وثائق . 1 . 464
(175) داود . ص 290
(176) ن . م. ص 282
(177) ن . م. ص 69

مغربية الاسبانية بدأت تجتاز مرحلة توتر . خصوصاً منذ أن شملت فرنسا بتوغلها معظم التراب الجزائري وتشدد الاسبان تجاه التجار والمواطنين المغاربة فتقاضوا منهم مبالغ مجحفة واضطر المغرب أن يعاملهم بالمثل[178] . وألقي القبض على مركب إسباني بساحل الريف كان يمارس عمليات تهريب السلع ، وكان المغرب يشكو من هذه الممارسات من زمن . ثم تكرم العاهل في مطلع 1258 / 1842 بتسريح المركب وبحارته بعد سنة من الحجز[179] . وكانت الدولة الاسبانية نفسها تشكو من رعاياها الذين يهربون البضائع من غير أداء حقوق ثم تلتجئ إلى الموانئ المغربية . والتزاما بالعهود المبرمة ، فإن المغرب سمح لبواخر الدولة الاسبانية أن تحتجز البضائع المهربة عند احتماء القراصنة الاسبان بالموانئ المغربية[180] .

وفي سنة 1258 / 1842 بدأت البوادر الأولى للتوتر بسبب النزاع الترابي حول سبتة أو حول حدودها على الأصح . بل إن الخلاف الذي نشأ حول هذه الحدود قديم قِدَم الاحتلال الإسباني وقد نشب نزاع سنة 1253 / 1837 حول الحد الذي يجب أن تقام فيه الحراسة من لدن أهل أنجرة سكان الحدود ومالكي الأرض الأصليين[181] . وظل الحد غامضاً . إذ كان هناك جزء من الأرض بين سبتة وأنجرة يحرثه سكان أنجرة ثم طالب الاسبان باعتباره داخلا في حدود سبتة من جهتهم . وذلك سنة 1258 / 1842[182] . ثم تقرر أن يبقَى هذا الجزء خارجا عن تصرف الطرفين كحد فاصل[183] .

غير أن الاتفاق المذكور لم يكن نهائيا . بل ترك الباب مفتوحا للتفاوض بين أهل أنجرة وسلطات سبتة حتَّى تقسم الأرض مناصفة أو خالية من الاستغلال[184] .

---

(178) ن . م . ص 358
(179) ن . م . ص 362
(180) ن . م . ص 386
(181) ن . م . ص 302
(182) ن . م . ص 386
(183) ن . م . ص 392 . 411- 412
(184) ن . م . ص 412

وكان للساحل الأطلسي من المغرب نصيبه من أطماع الاحتلال الأجنبي حيث رغب الأسبان في إنشاء مركز تجاري عند مصب وادي نون . ووجهوا لذلك باخرة تحمل معدات البناء وكميات من السلع لبيعها في المنطقة من غير ترخيص ولا حقوق جمركية . بل إن أحد المواطنين من الصويرة هو الذي كان يتولى قيادة الباخرة التي حالت عواصف هوجاء من رسوها على وادي نون كما تدل على ذلك مراسلة وزارية بتاريخ جمادى الثانية 1261 / 16 يونيو 1845 وعادت الباخرة إلى الصويرة فألقي القبض على ربانها الخائن [188] ولا نعرف بعد ذلك مصير الباخرة نفسها .

ثم مدت إسبانيا يدها إلى جزر كبدانة (جزر ملوية) الواقعة حول مصب ملوية . وهي غير جزيرتي باديس والنكور اللذين كان لهما دور كبير منذ الفتح الإسلامي وسميت جزر كبدانة عند الاسبان جزر اللصوص ***(Chafarinas)*** لأن مجاهدي البحر مغاربة وأتراكاً كانوا يرسون عندها [186] . وكانت فرنسا تهم بوضع يدها عليها . غير أن الأسطول الإسباني سبق إلى احتلالها سنة 1265 / 1848 بالرغم من احتجاجات المغرب وعدم اعترافه قط بهذا الأمر الواقع [187] . وفي نفس السنة قدم الشيخ الحبة ماء العينين وهو في عنفوان شبابه . على السلطان مولاي عبد الرحمن . وقد أظهر الشيخ الحبة وهو أحد كبار زعماء الصحراء الغربية تشبثه بسيادة المغرب على الصحراء . كما قدم بيعته للعرش العلوي واتصل بعدد من الملوك العلويين بعد مولاي عبد الرحمن .

وتكون سنة 1265 / 1848 بداية فترة جديدة في تاريخ العلاقات المغربية مع فرنسا وإسبانيا . فتصفية قضية الحدود تصفية غالب لمغلوب وبكيفية غير نهائية . وكذا تسوية قضية الأمير عبد القادر . جرأت فرنسا وإسبانيا على فتح مرحلة جديدة من الضغط المضاد والمضايقات في مجالات متعددة . وكان المغرب يلجأ أكثر فأكثر إلى الطرق الدبلوماسية ويستغلّ أدنَى البوادر لتسوية القضايا المعلقة بالتي هي أحسن . فإذا كانت إسبانيا قد وضعت يدها بسرعة على جزر كبدانة في هذه السنة بالذات وأن فرنسا قد كانت تهيئ هي أيضا لهذا الاحتلال من قبل . فإن حادثا

---

(185) بنمنصور . وثائق . 2 . 112

(186) م . س . ص 136

(187) ن . م . ص 136 – 152

بسبب بعض رعايا الدولة الفرنسية أدَّى إلى قطع مؤقت للعلاقات الدبلوماسية مع هذه الدولة سنة 1266 / 1849 [188] . ووقعت أحداث مشابهة بطنجة سنة 1268 / 1851 وذلك بالرغم من تعيين الباشا محمد الخطيب بطنجة كنائب سلطاني يتمتع باحترام السلك الدبلوماسي [189] . ذلك أن القائم بأعمال فرنسا جاجرشميد قرر أن يكاتب السلطان رأسا في المسائل الهامة عوض المرور من قناة نائبه بطنجة كما كان جاريا [190] .

ثم طرأ حادث جديد أدَّى إلى قصف سلا بالمدفعية سنة 1268 . ففي أوائل أبريل من السنة الميلادية الموافقة 1851 استولى السكان بهذه المدينة على سفينتين فرنسيتين مشحونتين قمحاً فنهبوهما وكان العام عام مجاعة . وتدخل تجارها لتسوية المشكل لدَى عامل سلا محمد بن عبد الهادي زنيبر الذي لم يخبر البلاط بالحادث . كما أنه لم يقم بشيء لتسويته . وبعد مفاوضات طويلة لم تؤد إلى شيء بين الحكومتين عمد الأسطول الفرنسي إلى قصف منشآت سلا العسكرية والمدنية بما لا يقل عن تسعة آلاف قنبلة فخرب الكثير من مبانيها في صفر / نونبر من السنة المذكورة . على مشهد من الباخرة البريطانية جينيوس ، وقد اعتاد الفرنسيون والاسبان أن يتخذوا من السفن البريطانية عدولاً أو ماذونين للاحتفال بزفاف قصف الثغور المغربية . وقام المخزن بإعادة بناء المنشآت والدور المهدمة وشيد برج جديد متين بسلا إضافة إلى الأبراج السابقة . وقد أثار قصف سلا تعاليق مستفيضة من الصحف البريطانية . وحصلت فرنسا بعد هذا على ترضية من العاهل المغربي اعتبرتها نصرا مبيناً لقوتها العسكرية وهي حق ممثلها في مراسلة البلاط مباشرة دون المرور عن طريق النائب السلطاني بطنجة والذي كان طريقا طويلاً [191] .

أما بالنسبة للجانب الإسباني فإن تردد المراكب التجارية الصغيرة على الشواطئ الشمالية جعل كثيرا منها يقع في قبضة السكان المحليين وحركة الجهاد البحري الشعبي التي كانت تعمل لحسابها ضد المراكب الأوروبية ، ففي 1268 / أكتوبر 1851 ورد

---

188 Caillé, Charles Jagerschmidt, pp. 39 - 40

189 Op. Cit. P. 71 et suite

190 Op. Cit, p.110

191 Op. Cit, pp.91-180

Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 217

مركب من مالقة مشحونا خمراً إلى حامية مليلية فغنمه الريفيون حول رأس المذاري الثلاث . وفي السنة الموالية وبنفس المكان غنموا باخرتين ونهبوا محتوياتهما ثم أحرقوهما وكان الريفيون في سبعة مراكب والباخرتان إسبانيتان . ثم نهبوا باخرة بروسية ثم أخرى إسبانية حول الحسيمة هاجمها عشرة زوارق مغربية مسلحة . وكان من أهم أسباب انقضاض الريفيين على السفن الاسبانية الانتقام لاحتلال إسبانيا مدينتي سبتة ومليلية كما يعلل ذلك «كايّي» وفي سنة 1855م تمكنت باخرة تهريب إسبانية من الإفلات من قبضة مجاهدي البحر إلى سواحل الجزائر . أما تجاه السفن الفرنسية فقد سلك الريفيون موقفا مسالما لبعض الوقت بالنظر لاحتلال فرنسا للجزائر ووجود أعداد كبيرة من أهل الريف في ميادين العمل بالجزائر . على أن الزوارق المغربية لم تكن بمنجاة من انتقام البواخر الإسبانية وحتَّى البريطانية لأن الريفيين كانوا يطلقون النار عليها حتَّى ولو لم ينهبوها وكان المخزن يرد على احتجاجات واستفسارات الجهات الأجنبية بأن وضع السلطة المخزنية في منطقة الريف غير قوي . وأن الريفيين يتصرفون من تلقاء أنفسهم . ولما كانت السفن الفرنسية أيضا تخشَى من نيران الريفيين وهجومهم . فقد قرر الجانبان البريطاني والفرنسي القيام بعملية ردع مباشرة ضد السكان أو على الأصح كانت بمبادرة فرنسية ، وفعلا قامت سفينة حربية فرنسية بعملية ضد زوارق مغربية ، وضغطت على السكان حتَّى يتوقفوا عن حركة اعتراض السفن وذلك سنة 1854 وذلك عن طريق أحد صلحاء المنطقة . وفي الواقع لم تنته عمليات نهب السفن الأوروبية بهذه الحملة البسيطة . ففي أبريل 1855م هاجم اثنا عشر زورقا ريفيا على نحو ثلاثين ميلا من شاطئ الريف باخرة فرنسية وقبضوا على عدد من تجارتها ثم وقع تسريحهم مقابل فدية . وطالب جاجرشميد القائم بأعمال فرنسا في طنجة أن تقوم حكومته بردع قوي وفوري ليكون في نفس الوقت حاسماً . لكن مغادرة القائم بالأعمال للمغرب في مايو 1855م . لم يكن من شأنها تحقيق هذا الإجراء قط . بل إن عمليات المقاومة البحرية ضد السفن الفرنسية نفسها تواصلت حتَّى إن عدة سفن فرنسية احتجزت بشاطئ الريف فيما بين 1312 ـ 1314 / 1894 ـ 1896[192] . وهذا يؤكد أن حركة الجهاد البحري التي توقفت في أواسط القرن 19م هي التي كانت ترعاها الدولة وتتحمل

---

(192) راجع نشاط المقاومة الشعبية في الريف عند كايي في :

192 Jagerschmidt, pp, 169-183

مسؤوليتها . أما الحركة الشعبية فقد تواصلت حوالي نصف قرن بعد ذلك .

العلاقات المغربية البريطانية

ظلت انجلترا تتمتع بامتياز الدولة المفضلة في الميدان التجاري وتكتسح بضائعها الأسواق المغربية طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر م . وإلى حين الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي حسب له المخزن حسابه وبدأت الثقة بين المغرب وبريطانيا تضعف تدريجيا في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر م . وفي أعقاب 1259 / 1860 أوفدت الحكومتان البريطانية والفرنسية وفداً يعرض على المخزن إلغاء الاسترقاق ، وكان المغرب قد وافق مبدئياً على إلغائه في عهد سيدي محمد بن عبد الله ، ولكن لم يتم تطبيقه لأسباب تتعلق بالعقلية السائدة لدَى المجتمع المغربي ومعظم المجتمعات البشرية حتَّى تلك الحقبة . أما مولاي عبد الرحمن فعد هذه المبادرة الجديدة من الدولتين فضولا[193] أي تدخلا في الشؤون الداخلية للمغرب . بل أثار ذلك تشكيات المخزن ضد الحكومة البريطانية[194] . وكان من أسباب سوء التفاهم مغادرة نائب القنصل البريطاني ويلتشاير للصويرة وعليه ديون متراكمة لصالح الجمرك المغربي . وتقدر بعدد كبير من الملايير بعملتنا الحالية[195] .

وفيما بين 1845 و1846 ارتفعت حقوق الجمارك ارتفاعا كبيرا على الواردات البريطانية وكانت بعض السفن البريطانية عرضة للنهب في سواحل الريف . بينما كانت مصروفات الخزينة الوطنية تتضاعف بسبب بناء أو إصلاح التجهيزات الدفاعية وتسليح الجيش وإمداد الثورة الجزائرية، كمَا زاد المغرب من وضع الحواجز في وجه الواردات الأجنبية والتجار البريطانيين خاصة حتَّى نزل التبادل التجاري فيما بين 1848 و1853 عنه بالنسبة للثلاثينات . وكان المغرب غير راض عن الموقف البريطاني تجاه تهديدات فرنسا وضربها للموانئ المغربية . وشكا التجار الأوروبيون بوجه عام من تضاؤل التجارة الوطنية التي لم يعد يسيطر عليها إلا مجموعة من اليهود[196] .

---

(193) محمد داود . تاريخ تطوان . 8 . 419

(194) *Miège, Le Maroc et l'Europe, p.212*

(195) *Op. Cit*

(196) *Op. Cit, p.243*

وإذا أضيفت إلى هذه الأوضاع معاناة الخزينة من قلة الموارد ونشاط حركة التهريب التي استغلها مواطنون غير مسؤولين في سواحل الريف إبان الثورة الجزائرية ثم تحركات الأمير عبد القادر بالمنطقة وإغلاق عدد غير قليل من المراكز التجارية الأوروبية بمدن هامة كالصويرة والجديدة وطنجة وعدم وجود ضمانات تشريعية حول الأداءات الجمركية غير القارة . في المعاهدات المبرمة منذ 1767م تصورنا مدى قدرة المخزن على تحقيق الطموحات الوطنية التي كانت تقوده إلى التشدد تجاه الأجانب من غير أن يعالج الأوضاع الداخلية بشكل يحقق اكتفاءه ذاتياً في عدد من المجالات الحيوية (الأسلحة ، المنسوجات . بعض مواد التموين كالسكر . الأواني الخ ...) . وكانت هناك أطراف وطنية وبينها عناصر يهودية تحتكر التجارة مع الخارج وتستفيد من حماية الدول الأجنبية في الوقت الذي لا تفيد الخزينة بأموال تستحق الذكر . وكانت تلعب دور الوسيط مع الأوروبيين فتزداد بذلك تكاليف الواردات والصادرات على تضاؤلها حجما .

ولأجل ذلك قررت الحكومة البريطانية أن تسند إلى السير هاي ممثلها بطنجة . مهمة التفاوض بشأن إبرام معاهدة جديدة يستفيد منها الطرف البريطاني أكثر ما يمكن . وفعلا قام هاي بعدة اتصالات ومحاولات دبلوماسية اتسع نطاقها منذ 1270 / 1853[197] . ثم لجأ سنة 1272 / 1855 إلى رشوة كبار المسؤولين في البلاط[198] . وهي خطة اتخذها سابقا القنصل الفرنسي روش بطنجة الذي خصص لذلك قطعا نقدية ذهبية من «الضبلون» الفرنسي . وهو قنصل عاصر الحقبة نفسها[199] . كذلك واصل هاي الضغط على «الخطيب» النائب السلطاني بطنجة والذي كان يمثل بهذه الصفة دور وزير الخارجية . وأخيراً لجأت بريطانيا إلى تهديد الموانئ المغربية بالشمال بحجة القضاء على القراصنة متواطئة في ذلك مع الأسطول الفرنسي[200] . وكانت الدول الأوروبية الأخرى ترى فائدة في عقد معاهدة بريطانية مغربية بعض شروطها تخدم المصالح الأوروبية عموما كالتزام المغرب بوقف «القرصنة» وإلغاء الاحتكارات جملة . وهكذا وافق العاهل تحت التهديد

---

197. Op. Cit, p.280
198. Op. Cit, p.310
199. Op. Cit, pp.310-311
200. Op. Cit, p.313

وبتعديلات جزئية على مشروع المعاهدة الذي تم التفاوض فيه بين محمد الخطيب ودريموند هاي *Drummond hay* ووقعاه في 10 ربيع الثاني 1273 موافق 9 دجنبر 1856 وبدأ تطبيقه في 10 أبريل من السنة الموالية بعد أن صادق عليه العاهلان مولاي عبد الرحمن وفكتوريا. وتمت المصادقة في نفس الوقت على اتفاق تجاري[201].

وتتكون المعاهدة (معاهدة الصلح والهدنة) من 38 شرطا نميز منها:

الشرط 3: تشمل حماية الدولة البريطانية المغاربة العاملين في خدمة القنصليات البريطانية وعيالهم (فقط!).

الشرط 8: لا يفصل في الدعاوي بين الرعايا البريطانيين إلا القنصل البريطاني.

الشرط 9: الدعاوي بين بريطاني ومغربي يحكم فيها العاهل أو القاضي إن كان المشتكي بريطانيا. والقنصل البريطاني إن كان المشتكي مغربيا مع حضور من يمثل القنصل أو السلطة المغربية.

الشرط 14: لا يسمح بتدخل الولاة في الدعاوي.

الشرط 18: لا حق للدولة في التصرف في أموال الهالكين من المحميين. فمالهم لمن أوصوا لهم به أو لورثتهم الحاضرين. وفي غير ذلك تكون مسؤولية حفظ الأموال للقنصل إلى حين ظهور ورثة الميت.

الشرط 34: يلتزم المغرب بالغاء القرصنة ويساعد الطرف البريطاني على ردع ومعاقبة المشتغلين بها.

وواضح من هذا الشرط أن المغرب لم يعترف بوقف حركة الجهاد البحري بصفة نهائية إلا من خلال هذا النص بالذات، أي بنهاية 1856، ولكن استمرت المقاومة إلى آخر القرن 19 كما تقدم وخارج سلطة الدولة أو برضى منها أحيانا.

وكان الاتفاق التجاري أكثر اجحافا لأنه يفرض حقوقا جمركية ثابتة على الدولة

(201) نص معاهدة الصلح والهدنة. ونص الاتفاق التجاري بالعربية والإنجليزية في مجموعة: الوثائق. 2. 152 231

المغربية ويلزمها بإيجاد السكنى أو المساعدة على إيجادها لرعايا صاحبة الجلالة . ويفرض الشرط 11 أن لا يزاد مستقبلا في ثمن نقل السلع من السفن بواسطة المراكب المغربية (الفلايك) وفرض الشرط 13 أن لا تزاد عقوبة المهربين البريطانيين على نسب حددها الطرف البريطاني[202] .

وفاة السلطان مولاي عبد الرحمن وقيمة عمله

اتخذ مولاي عبد الرحمن من مراكش مقرا لحكمه ابتداء من 1270 / 1853 ثم اشتغل في السنتين الأخيرتين من حياته بالتردُّد على مناطق زمور الأطلس في محاولة لوقف تمردها إلى أن أدركه المرض فانتقل إلى مكناس ، وبها توفي ودفن في ضريح مولاي إسماعيل[203] . وكانت وفاته في 29 محرم 1276 / 26 شتنبر 1859 . وقبل انتقاله إلى رحمة الله بأسابيع قليلة عمد الاسبان بسبتة إلى بناء منشآت حربية حول سبتة ، فهدمها أهل أنجرة المجاورون في 10 غشت 1859م . وأدَّى ذلك إلى حرب تطوان التي سيأتي الحديث عنها وقد وقعت في عهد نجله وخلفه محمد الرابع .

لم تعد الأوضاع الداخلية في عهد مولاي عبد الرحمن تثير من القلق ما أثارته في عهد سلفه مولاي سليمان . فبعد ردع جميع الحركات تقريباً . ووضع حد لشغب الأودايا ظلت المنطقة الساخنة هي منطقة زمور . أما الشمال فقد تأثر إلى حد كبير بدسائس الأسبان ثم بحركة عبد القادر الجزائري بعد تحولها إلى معارضة داخل التراب المغربي . وظروف الشمال الاقتصادية وانحرافات الولاة المرتشين والجائرين كان لها تأثير بالغ في تاريخ الأحوال بالمنطقة وتضاؤل نفوذ السلطة بها في بعض الأحيان .

وإذا كان العاهل قد لجأ إلى حماية البضائع الوطنية من المنافسة الخارجية إلى حد ، وأنه وقف في وجه الغزو الاقتصادي طيلة ملكه إلى أن أجبر بالتهديد على تخويل الأوروبيين امتيازات جديدة في أخريات أيامه ، فإن سياسته الضرائبية بالرغم من كون الدولة كانت في حاجة إلى المزيد من المال للدفاع عن أمن البلاد وسلامة حدوده . قد أثرت في ضعف الحركة التجارية الداخلية مع الخارج على السواء .

عني مولاي عبد الرحمن بتسليح الجيش في دائرة إمكانيات البلاد ، ووقف

---

(202) راجع تحليلا مفصلا للمعاهدة والاتفاق عند
Miège, Le Maroc et l'Europe, pp.313-347

(203) ناصري . استقصا . 9 . 76 – 77

بشموخ وثبات ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وساند ثورتها بالمال والسلاح والرجال وإيواء الأسر اللاجئة وتشغيل الأيدي العاملة والتقنية. ووقفت مراكبه الجهادية بشجاعة في وجه الأساطيل القوية التي تبيت العدوان وتهدد موانئ البلاد حتّى مع ما تخلقه حركة الجهاد البحري من صعوبات دبلوماسية وما تؤول إليه من سوء علاقات بين الدول.

كان يضع قضايا التراب الوطني كجزء من شرايينه. يتخذ الطرق الدبلوماسية لحل مشكلاته ويتذرع بالصبر والمراوغة والتسويف لإرهاق خصمه. وإنه لأمر غير يسير أن يكون المغرب أمام تهديد ثلاثة أساطيل وثلاثة جيوش قوية كلها تربض بجواره. ثم يحافظ على استقلاله. على ضعف في جيشه وماليته واقتصاده. وليس سهلا أن يفلت المغرب من الاحتلال في هذه الفترة لولا ما بين هذه الجيوش أو دولها من تنافس وتباغض، ولولا هذه القدرة العجيبة على المراوغة الدبلوماسية التي تميز بها مغرب القرن التاسع عشر م.

أصبح موظفو البلاط ومسؤولوه الكبار وولاة الأقاليم في هذا العهد إلا القليل يبيعون ضمائرهم مقابل ترضيات وهبات مالية يقدمها إليهم الدبلوماسيون حتّى يسهلوا أغراضهم في الحصول على المزيد من الامتيازات. وليحملوا العاهل بضغطهم وتزيينهم على تخويل هذه الامتيازات للأجانب على حساب مصلحة الأمة. لكن مولاي عبد الرحمن، حتّى مع هذا الواقع المر. كان يقوم بتغيير كبار المسؤولين والولاة وينكبهم ويصادر أموالهم كلما أثروا جوراً أو أطغاهم النفوذ والجاه. كانت هذه الحالات قليلة ولكنها كانت رادعة وفي صالح بيت المال.

بيعة محمد الرابع 1276 / 1859

تلقّى ولي العهد سيدي محمد أنباء عن مرض والده وإشرافه على الموت، وهو بمراكش خليفة. فقصد مكناس يحاول إدراكه قبل وفاته. ولكن نعيه وصل إليه وهو بمنطقة السراغنة قريبا من مراكش. فأعلنت بيعته في عين المكان. كما أعلنت بيعته بمكناس في فاتح صفر 1276 / 27 شتنبر 1859 قبل وصوله إليها[204] ثم بمراكش ومختلف المراكز[205]. وحظي العاهل بإجماع الأمة على بيعته. باستثناء

(204) بنمنصور، وثائق، 2، 339.

(205) راجع عددا من نصوص البيعات في م.س. ص 337 — 372.

محاولة انقلاب داخلي صغيرة . قام بها بعض الأمراء بفاس ومكناس لبيعة مولاي عبد الرحمن بن سليمان غير أن الفقيه ابن المختار الجامعي رئيس شراقة تمكن من إقرار بيعة المركزين لمحمد بن عبد الرحمن . بفضل العمل الدعائي المضاد لحركة الأمير الثائر[206] .

ووصف ضابط مغربي أدرك محمد الرابع[207] . بأنه كان طويل القامة قوي البدن رحب الصدر دقيق الساقين جعد الشعر طويله . واسع العينين برونزي اللون . وأنه كان مثقفا ورجل حرب . وقال الناصري[208] : إنه كان متميزا عن سائر إخوته بشدة البرور بأبيه . ومتصفا بالسكينة والوقار والصلاح والتقوَى وسائر خصال الخير . وتولى سيدي محمد بن عبد الرحمن خليفة عن والده بفاس ومراكش وغيرهما كما قاد الجيش المغربي في عدد من المواجهات خصوصاً في معركة إيسلي ومطاردة عبد القادر الجزائري داخل التراب المغربي ، وكان ذلك في عهد والده وسلفه مولاي عبد الرحمن ، وكان حاجبه هو موسَى بن أحمد والد باحماد الذي تولى الحجابة للسلطان الحسن الأول . وأسرة باحماد من زنوج إفريقيا . وكان الطيب بليمني المعروف ببوعشرين صدراً أعظم،وقائد المشور (وزير البلاط) هو الجيلالي بن حمو يساعده النجاري محمد بن يعيش الذي تولى أعقابه الحجابة أيضا[209] .

ومن أهم الأحداث الدولية التي شهدها عصر محمد الرابع . تدخل فرنسا بالمكسيك وإيطاليا واكتساح الروس لبولونيا وحصول فرنسا على منطقتي السافوا ونيس ونشوب الحرب بين ألمانيا وفرنسا (1870م) وقد انتهت بانتصار ألمانيا التي خرجت معززة ثم مالبثت أن قوت من اهتمامها بالسياسة الاستعمارية ، وبالتالي من اسهامها في رسم السياسة الدولية الخاصة بالمغرب وغيره من الأقطار المستضعفة . وعاشت إسبانيا من جهتها عهدا من الدكتاتورية في ظل إيزابلا الثانية التي أقصيت عن العرش في 1285 / 1868 وكانت الكنيسة والجيش يتمتعان بنفوذ واسع استغله الوزير العسكري أودونيل *(O'Donnell)* الذي اشهر على المغرب حربا قاسية

---

(206) الناصري. استقصا، 9، 83.

(207) *Dr Louis Arnaud, Au temps des mehalla, p.2*

(208) ناصري، م.س. ص 80

(209) *Arnaud, Op. Cit.*

متعصبة[210] .

مقدمات حرب تطوان

من الطبيعي أن يكون احتلال الاسبان لمليلية وسبتة وجزر كبدانة على تقادمه موضع غضب المغاربة لاسيما أهل الريف الذين كانوا غصة في حلق هذا الاحتلال العسكري . وكانت المناوشات على الحدود لا تفتر بين السكان المجاورين وجيش الاحتلال . فضلا عن الحروب الدامية والمنظمة بين الجيشين المغربي والاسباني . وفي أخريات حياة السلطان مولاي عبد الرحمن . عمد الجيش الاسباني بسبتة إلى بناء محرس حول المدينة بالحجر والطين ؛ وكانوا قد أقاموا بيوتا من الخشب في المنطقة الموالية لهم من الحدود . فلما بنوا المحرس بالحجر . احتج أهل انجرة المجاورين وطالبوا بهدم البناء فورا وإقامة محرس من الخشب[211] ؛ وكان البناء المذكور قد انجز في 10 محرم 1271 موافق 10 غشت 1859 بعد إخبار نائب السلطان بطنجة . محمد الخطيب حسبما تدعيه الوثائق الإسبانية[212] . غير أن الحامية الإسبانية رفضت طلب السكان فهدموا المحرس ونجسوا الراية التي نصبت عليه . فطالب القنصل العام الإسباني خوان بلانكو نائب السلطان بإنزال عقوبة قاسية بأشخاص معينين اعتبروا مسؤولين عن الحادث . بل اشترط تسليمهم إلى السلطة العسكرية الإسبانية لتتولى إعدامهم ! وفي أثناء المفاوضة أعلنت وفاة مولاي عبد الرحمن وتنصيب ولي عهده سيدي محمد . كما أن قبيلة الأنجرة قامت بمناوشات جديدة ضد الاسبان حول سبتة . فتحرك هؤلاء لاحتلال بعض المرتفعات داخل «الحدود» المغربية . وتسلسل شريط الأحداث كما يلي :

– في 12 محرم 1276 / 12 غشت 1859 هدد القنصل الاسباني العام بطنجة . باحتلال التراب المغربي حول سبتة ليقوم حاكم سبتة «باتخاذ ما يلزم اتخاذه في شأن معاقبة المتوحشين الذين يترامون من غير رادع على حقوق الناس (!)»[213] .

---

(210) *Ch. De l'Andelyn. Histoire universelle, pp. 525-530*

(211) استقصا، 9، 84.

(212) مجموعة الوثائق، 2، 234 — 235.

(213) ن. م. ص 238 — 239.

– في 24 غشت 1859 تحدث بلاغ عسكري عن هجوم مغربي جديد ساهمت فيه القبائل المجاورة وترك فيه المغاربة حسب هذا البلاغ 32 قتيلا و40 جريحا. وجرح من الاسبان 14 ؛ وتلقت القوات الاسبانية نجدات تمكنت من صد المغاربة إلى غابة سيرايو[214].

– في 6 صفر 1276 / 5 شتنبر 1859 تلقى النائب السلطاني محمد الخطيب رسالة مهينة في حق شخص العاهل والدولة المغربية من القنصل العام لإسبانيا بطنجة حيث طالب باسم بلاده :

1 – بإعادة رفع العلم الإسباني في محله وقيام الجيش الملكي بتحيته في نفس المكان الذي نكس فيه.

2 – بأن يساق المتهمون بالاعتداء إلى سبتة ليعاقبوا بمحضر حاميتها وسكانها.

3 – بإصدار تصريح يمنح الحكومة الإسبانية حق تشييد التحصينات التي تراها ضرورية لأمن سبتة !

4 – باتخاذ وسائل إضافية كانت موضع محادثات شفوية بين الدبلوماسي الإسباني ونائب السلطان. وأعطي المغرب مهلة عشرة أيام قبل أن تطلق إسبانيا جحافلها على التراب المغربي[215].

ورد النائب السلطاني بأن مسؤولية ما جرى من تدهور في العلاقات بين الدولتين تقع أولا وأخيرا على حاكم سبتة الذي يأمر بإطلاق المدافع عدوانا على المغاربة. كما طلب النائب تمديد الأجل بسبب تدهور الحالة الصحية للعاهل المغربي[216]. وخلال ذلك أعلنت وفاة مولاي عبد الرحمن وتنصيب نجله وولي عهده سيدي محمد.

– في 3 أكتوبر 1859 قبلت إسبانيا تمديد مهلة الرد المغربي على المطالب المذكورة إلى غاية 15 منه مع إصرارها على تعديل حدود سبتة[217].

---

(214) ن. م. ص 241 – 242.

(215) ن. م. ص 244 – 246.

(216) م. س. ص 247 – 249.

(217) ن. م. ص 267 – 269.

ـ في 7 ربيع الأول 1276 / 10 أكتوبر 1859 وافق المغرب على المطالب الإسبانية من غير تفصيل[218] . وساند بعض الزعماء الشعبيين موقف السلطان ومنهم الشيخ عبد السلام بن علي بن ريسون[219] .

غير أن ممثل إسبانيا خوان بلانكو طالب بالنص صراحة على أن يكون لإسبانيا الحق في «القيام بكل ما تراه لازما لسلامة مدينة سبتة»[220] .

ـ في 14 ربيع الأول 1276 / 17 أكتوبر 1859 عين السلطان الحاج محمد الزبدي كمفاوض مشارك مع النائب السلطاني[221] ثم أذن له بمفاوضة الدول الأوروبية التي يمكن أن تساعد على حل الخلاف المغربي . وأثناء ذلك عبر المغرب عن قبوله لتمديد حدود سبتة إلى المرتفعات المجاورة والتي كانت داخلة في الحدود الرسمية المغربية[222] . غير أن الحكومة الإسبانية اشتطت في المطالب وفي اذلال المخزن المغربي وتهديده . وتفاديا لإثارة حرب كان المغرب متأكدا مقدما من عدم كسبها . عين السلطان على عجل مئة فارس من الجيش سيكون عليهم معاقبة المتهمين بالاعتداء من أهل أنجرة . وخلال ذلك تحرك كل من الأسطولين الفرنسي والبريطاني بقرب السواحل المغربية لمراقبة الاحوال ومنعا لاحتلال السواحل من الجانب الإسباني ، وأكدت إسبانيا للطرف البريطاني أنها تعمل ما في وسعها للحصول سلميا «على التعويضات اللازمة»[223] .

على أن بريطانيا حاولت التدخل لحل النزاع سلميا بين الطرفين ، وجرت مفاوضات بهذا الشأن فيما بين 11 شتنبر و21 أكتوبر 1859 . وقد رأينا أن الحكومة الإسبانية أصبحت تستعمل مطلب التعويضات اللازمة كتهديد جديد لإذلال المغرب ، وشملت التعويضات المطلوبة الأضرار التي تدعي إسبانيا أنها لحقت

---

(218) ن. م. ص 273 ـ 276.

(219) ن. م. ص 280 ـ 281.

(220) ن. م. ص 275 ـ 276.

(221) ن. م. ص 285.

(222) ن. م. ص 290.

(223) ن. م. ص 298 ـ 299.

التجارة الاسبانية من لدن «القراصنة»[224] . كما أن الوساطة البريطانية لم تجد نفعا . بل إن الحماس الإسباني ذهب إلى الإصرار على احتلال طنجة ، ووافقت بريطانيا على أن يكون هذا الاحتلال مؤقتا[225] .

أما داخل إسبانيا فاعتبرت إهانة العلم الإسباني عملا في منتهى الخطورة ، وكان للرأي العام موقف مماثل تجاه حشد الأسطول البريطاني[226] . على أن بريطانيا ما لبثت أن استصدرت تأكيدا من إسبانيا بعدم احتلال طنجة . ومن ثم اتخذت بريطانيا موقف الحياد الذي يقترب من مصالح[227] إسبانيا ملحة في ذات الوقت على أن لا تقوم إسبانيا بغزو المغرب[228] . لكن الطرف الاسباني أصر على أن يقوم بعمل عسكري مهما كان الثمن . مؤكدا عدم تعريض الملاحة الدولية في المضيق للخطر[229] .

– في 24 ربيع الأول 1276 / 22 أكتوبر 1859 أعلن المغرب رسمياً رفضه الصريح لمعاقبة أهل أنجرة بالقتل وقبل معاقبتهم بغيره «وأما ما طلب من الجبل (جبل موسَى) فلا نعطيهم بلاد المسلمين من غير قانون . نعم . ما ادعاه من لحوق المضرة له . من الأماكن التي أراد ، فنحن نتكفل بعدم لحوق مضرة له منها»[230] .

وفي نفس الوقت . أعلن المغرب على لسان عاهله ، وفي توجيهاته إلى المفاوض الحاج محمد الزبدي عن تكليف المسؤولين بالسواحل بأخذ الأهبة والاستعداد لمجابهة الهجوم الإسباني المتوقع .

– في 26 ربيع الأول 1276 / 24 أكتوبر أخبر القنصل الاسباني العام خوان بلانكو ديلبايي ، ممثل السلطان بطنجة ووزير الخارجية محمد الخطيب بأن إسبانيا

---

(224) ن. م. ص 305.

(225) ن. م. ص 307 — 312.

(226) *Louis - Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 360*

(227) *Op. Cit, p. 361*

(228) الوثائق، 2، 321.

(229) ن. م. ص 328.

(230) ن. م. ص 331.

قررت استعمال قوة السلاح ضد المغرب[231] . وبذلك دخل الطرفان في طور المجابهة العسكرية من الوجهة الرسمية وحصلت إسبانيا على تأييد كل من فرنسا والنمسا وسردانيا والبرتغال[232] . وبذلك اطلقت يدها في التحرك ضد المغرب المعزول . وزاد الطين بلة أن الرغبة في المواجهة العسكرية وهي غير متكافئة وليست لصالح المغرب . كانت تحدو السياسيين والصحافة الوطنية وسائر الشعب في إسبانيا[233] . وبمجرد إعلان الحرب من الجانب الإسباني انسحب الممثلون الدبلوماسيون الاسبان .

حرب تطوان

نسي الإسبان خلافاتهم الداخلية وتحركوا بمختلف فآتهم ونزعاتهم في حملة ذات طابع صليبي ضد المغرب . وقدمت الملكة اليزابيث الثانية حليها ، وتقاطر المتطوعون من كل حدب وصوب من داخل إسبانيا . ولما كانت بعض مواد التموين والتجهيز العسكري غير كافية فقد لجأت إسبانيا إلى معونة فرنسا وحتّى انجلترا مقابل أثمان باهظة . وحشدت 44 ألف جندي وجهزت 14 باخرة حربية[234] .

أما من الجانب المغربي ، فعلى صعيد المسؤولين السياسيين كان هناك خلاف في الرأي بشأن الموقف الذي يجب اتخاذه حيال الخطر الإسباني . وهكذا كان وزير الخارجية ابن الخطيب أكثر المسؤولين في الحكومة ميلا إلى الأخذ بالمفاوضات الدبلوماسية والاستجابة للمطالب الإسبانية مع إجحافها لأن الإمكانيات العسكرية للبلاد لا تسمح بمجابهة لصالح المغرب . وكان الأمين الزبدي متشددا في المفاوضات يميل إلى عدم الرضوخ للمطالب الاسبانية[235] . وفي الطرف القاعدي كان الأمر أيضا يختلف . فعبد السلام بن ريسون كان يجنح إلى السلم ، والحاج عبد السلام الوزاني وكلاهما شيخ طريقة ، كان يساير الرغبة الشعبية في الشمال بالمجابهة المسلحة . وانتهَى موقف العاهل نفسه إلى الأخذ برأي «الصقور» وفي ذلك يقول الناصري[236] : «وكثر المتنصّحون لدَى السلطان ، وهونوا عليه أمر العدو جدا . مع

---

(231) ن. م. ص 336.

(232) *L. Miège, Op.Cit, p. 364*

(233) *Op. Cit, p.359*

(234) *Op. Cit, pp.364 - 365*

(235) ناصري، استقصا، 9، 85 — 86.

(236) ن. م. ص 86.

أنه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هينا حقيراً».

وقد ظهر أن الاستعدادات المغربية لم تكن في مستوى التنظيم العسكري الإسباني. فقد كانت الانطلاقة من «انجرة» وبعض القبائل المتطوعة ثم بعث السلطان نجدات متوالية: أولاها بقيادة المامون الزرازي إلى ناحية تطوان باتجاه سبتة، في خمسمائة رام ومائة فارس، ثم أرسل كتيبة بقيادة أخيه مولاي العباس وهو من الشخصيات المثقفة، ولم يكن رجل حرب، فأخرى بقيادة مولاي أحمد ابن عبد الرحمن[237]. ولم يكن مجموع الجيش نظامياً ومتطوعاً يتجاوز خمسة عشر ألفا. ويدل هذا على أن التعبئة النفسية والتنظيمية للجيش المغربي كانت بالغة القصور، وأنها لم تتم إلا في آخر لحظة وعلى إثر إعلان الحرب مباشرة من الطرف الإسباني على الرغم من أن إدارة المخزن كانت على علم تام بتحركات العدو.

وجرى مسلسل الحرب منذ أول مجابهة حتى احتلال تطوان في مدة تزيد قليلاً عن شهرين ونصف[238]:

— في 23 ربيع الثاني 1276 / 19 نونبر 1859 احتل الجيش الاسباني المقيم بسبتة بقيادة الجنرال ابتشاكوي (كاف م.) موقع سرابو على ثلاثة كيلومترات من سبتة. وكانت القيادة العامة لأودونيل. وكان احتشاد الجيش الاسباني بالجزيرة الخضراء قبل نقله إلى سبتة.

— في 24 ربيع الثاني / 20 نونبر هاجم المغاربة الخطوط الأمامية وسقط قليل من القتلى بين الاسبان.

— في 25 / 21 نونبر انطلقت بعض القبائل المحتشدة بتطوان وهم وادراس وبني يدر وبني حزمر مع رماة أنجرة إلى «دار البيضة» على نحو 17 كلم من تطوان فكانو يهاجمون المواقع الأساسية ويتعرضون لمدافع العدو لكن أول هجوم حقيقي بدأ في اليوم الموالي.

---

(237) ن. م. ص 85 — 89.

(238) محمد داود، مختصر، ص 138، ناصري، استقصا، 9، 85 — 92.

Louis Arnaud, Au temps des mehalla, p.3. Miège, Op.Cit, p.366. Joly (A), in Archives marocaines, 8/ 1906. pp. 404-539

ـ في 26 / 22 نونبر هاجم المغاربة تحصينات الاسبان وقتلوا منهم 46 شخصا بالسلاح الأبيض.

ـ في 27 / 23 نونبر أخذت أعراض الكوليرا تظهر في الجيش الاسباني وهلك منهمَ في مدة الحرب حوالي 4000.

ـ وفي 29 / 25 نونبر قام المغاربة بهجوم واسع على القوات الاسبانية التي خسرت 399 جندياً وقتل أو جرح من المغاربة حوالي سبعين حسب مخطوط أفيلال الذي يروي عنه المؤرخ محمد داود. وفي هذا اليوم قنبل المغاربة باخرة فرنسية كانت بساحل تطوان حيث ظنوها إسبانية، فردت بقنبلة برج مرتيل الذي هدمته.

ثم تتابعت المناوشات بين الاسبان والمغاربة حول سبتة بينما كان الاسبان يتابعون تقدمهم فيما وراء حدود سبتة، وتساقط القتلَى والجرحَى من الجانبين.

ـ وفي 13 جمادى الأولى / 9 دجنبر وقع هجوم كبير من الجانب المغربي قرب دار البيضة ساهم فيه عشرة آلاف رجل كلهم مشاة ماعدا مائتي فارس، وخسر الاسبان 373 جنديا، واعترف الاسبان بإحكام الهجوم المغربي وفعالية تنظيم الجيش المغربي بكيفية غير معتادة.

ـ في 23 جمادى الأولى / 19 دجنبر دخل الخليفة السلطاني مولاي العباس تطوان، ثم وقف على توجيه حاميتها نحو سبتة والتحق هو بها ثم تبعه جمع من شخصيات تطوان برئاسة الشيخ عبد السلام بن ريسون. وخلال ذلك كانت القوات الاسبانية تستعد لاحتلال تطوان برا وبحراً دون أن يكون السكان على يقين من ذلك.

ـ في 29 جمادى الأولى / 25 دجنبر وقعت مواجهة جديدة فيما بين سبتة وتطوان وقتل فيها عدد كبير من الجانبين ثم قنبل الأسطول الإسباني مرسَى تطوان. ولما كان المغاربة قد وضعوا كل قواتهم تقريبا باتجاه سبتة، فإن تطوان ستصبح فريسة سهلة للقوات المهاجمة.

ـ في 6 جمادى الأخيرة / 1 يناير 1860 وقعت معركة الفنيدق (تصغير فندق) وذلك أن الإسبان نقلوا جزءا كبيرا من قواتهم إلى هذا المكان بقيادة الجنرال بريم

بينما تراجعت القوات المغربية بقيادة مولاي العباس إلى مجاز الحصا قبل Prim يوم المعركة ، وأخذوا يشنون هجوماتهم على الجيش الاسباني حتّى كان اليوم المذكور فقذفوا بعشرين ألفا في مواجهة الاسبان الذين فقدوا عندئذ 619 محاربا . ولكن هذا الهجوم القوي لم يزحزح الاسبان عن مواقعهم . بل قرروا الزحف باتجاه تطوان . وأثناء ذلك استقبل السلطان وفدا من تطوان يستعجل المدد . كما طالب كل من الخطيب والزبدي بالأسلحة والتموين والذخائر ، ولما كانت أحوال الجو سيئة فقد تأخر تحرك القوات الإسبانية عدة أيام قبل أن يتوجه إلى نيجرو .

— في 12 جمادى الأخيرة / 7 يناير 1860 حل الاسبان بوادي النيجرو . وبينما كانت الامدادات تصلهم برا من سبتة وبحراً من إسبانيا كان بعض المتطوعين من المغاربة يستولون على دواب من المعسكر الاسباني ثم يقدمون بها إلى تطوان وغيرها موهمين السكان بالنيل من العدو في الوقت الذي يستولي فيه الإسبان على مزيد من الأرض كما لاحظ ذلك الناصري ، وتوقفت سفنهم فيما بين وادي النيجرو ووادي اسمير حيث صادفت ريحا شرقية عاتية ، وارتفعت مياه البحر من كل جانب ولم يستغل المغاربة الفرصة كما لاحظ ذلك الناصري أيضا . لأن الاسبان انقطعت عنهم خلال هذه المدة المؤن والإمدادات .

— وفي 19 جمادى الأخيرة / 14 يناير غادر الجيش الإسباني المنطقة الهائجة بعد ركود العاصفة وتوارد المدد عليه ، في الوقت الذي تقرر فيه تراجع المغاربة إلى مدشر القلالين قريبا من تطوان ، بينما نزل الجيش الاسباني بالمضيق وأوقد النار في الحقول المجاورة ولم تنفع مناوشات المغاربة الذين قتل منهم أو جرح عدد كبير. وتحدث الناصري هنا عن نضال شباب فاس وأهل زرهون وآيت يمور لاسيما أحد أبطالهم أبو ريالة ، وبمجرد نزول العدو بالمضيق تحرك برا نحو تطوان من جهة فم العليق ، وبدأ الإضطراب عندئذ يعم أوساط تطوان فخرج عدد منهم ، والقي القبض على بعضهم وأدخلوا السجن .

— وفي 20 جمادى / 15 يناير تحركت محلة مولاي العباس إلى مدشر القلالين . وعوض أن تقوم المحلة بتقوية حماية برج مرتيل أمرت حامية المنطقة بإخلائها على جناح السرعة ، وبذلك أتيح للعدو أن يحصل على ميناء أمين ومركز دفاعي يحادي تطوان ويقع على البحر حيث أصبحت الامدادات تصله الآن بكثرة وسهولة .

وعمد الاسبان إلى تحصين الموقع وإخلائه من الأسلحة والمدافع المغربية التي نقلت إلى اسبانيا . وكان المغاربة قد نقلوا بعضها إلى محلتهم ، وباستيلاء الاسبان على مرتيل جردت تطوان من كل حماية خلفية أو بحرية . وإلى ذلك فقد انشأ الجيش الاسباني برجا جديدا هو برج النجمة بين الساحل ومدينة تطوان . وأثناء ذلك وردت أخبار عن إمدادات عسكرية بقيادة الأمير مولاي أحمد بن عبد الرحمن . بينما ظلت كتائب مولاي العباس عند جبل درسة في مدشر القلالين . وأخذ الإسبان لأنفسهم فترة راحة كما لو كانوا في منطقة آمنة ببلادهم .

– وفي 28 جمادى / 23 يناير وقع اصطدام بين الجيشين المغربي والاسباني أدّى إلى هزيمة المغاربة واضطراب صفوفهم وفرارهم بشكل فوضوي باتجاه تطوان ثم تراجعهم إلى المحلة .

– وفي 5 رجب / 29 يناير وصلت الامدادات بقيادة الأمير مولاي أحمد بن عبد الرحمن . فعسكرت بالجزيرة (بالتصغير) .

– وفي 7 رجب / 31 يناير احتشدت القوات المغربية القادمة مع مولاي أحمد ثم تقدمت في اتجاه المعسكر الاسباني لتطويقه . فعمد الاسبان إلى توزيع فرقهم التي فاجأ بعضها المغاربة من خلف بينما اطلقت المدافع باتجاه القوات المتقدمة التي ردت بطلقات مدفعية من برج القلالين ، واعترف الإسبان بسقوط أعداد كبيرة قتلَى وجرحَى من صفوفهم ، لكنهم ردوا الهجوم المغربي واضطروا المغاربة إلى التقهقر حتَّى توقفوا عن مجابهتهم تلقائياً .

– وفي 10 رجب / 3 فبراير عرض أودونيل الصلح على الخليفة مولاي العباس . ووقف زحفهم على تطوان مقابل تسليمهم المواقع المواجهَة لسبتة عند الحدود وأداء تعويضات الحرب . فقبض على الرسول وأوفده إلى السلطان .

– في 11 رجب / 4 فبراير بدأ الزحف الاسباني على المدينة ، وقسم أودونيل الجيش إلى طابورين أحدهما يزحف من جهة الوادي وهو من الفرسان ، والثاني من جهة الغابة وهو من المشاة ، وفي الطليعة المدفعية بأربعين مدفعا ، وما كادت طلائع الاسبان تطبق على محلة مولاي أحمد حتَّى انسحب المغاربة تاركين أخبيتهم بعد أن

وقع تبادل إطلاق المدافع .. تحركت المحلة باتجاه معاكس لاتجاه العدو وفي ذات الوقت وقع الصدام بين الاسبان ومحلة مولاي العباس حيث انسحبت إلى خط خلف تطوان .. عندئذ أذن مولاي العباس لسكان تطوان أن ينقلوا أسرهم وما يمكن من أموالهم وأثاثهم إلى مداشر الجبل ؛ وامتدت يد النهب إلى البلد من لدن البدو دون تنظيم لعمليات جلاء السكان كما كان واجباً ؛ وقد حصل الاسبان على غنائم كثيرة تركتها المحلتان المنسحبتان وفيها دواب ومآت من الأخبية وثمانية مدافع هي كل ما كان يتوفر عليه المغاربة في الميدان . ومع ذلك لم يخل انسحاب المغاربة من صدام كبير أدّى إلى قتل أعداد مرتفعة من الجانبين بينها 836 من قتلى الاسبان . ولا توجد وثائق عن خسائر الطرف المغربي .

— في 12 رجب / 5 فبراير 1860 أفرغت خزائن بيت المال في تطوان بأمر مولاي العباس . بينما قام بعض الاشرار بنهب أموال اليهود . ثم انضمت عناصر من المحلة لاعمال النهب وقتلت عددا من اليهود وفي هذا اليوم تجمع بقايا سكان تطوان حول أحد وجهائهم الحاج أحمد ابعير واتفقوا على أن يتقدموا مباشرة إلى القيادة الاسبانية بعرض فتح المدينة في وجوههم وفعلا استقبلهم أودونيل وهش لعرضهم ووعدهم بالاحسان إلى أهل البلد وضمان أمنهم وأموالهم والواقع أن جل الدور والدكاكين تسلط عليها النهب والتخريب واقتلعت حتّى أبوابها أو حطمت ؛ وفي هذا اليوم انجلى من بقي من الحامية .

— في 13 رجب / 6 فبراير دخل الجيش الاسباني تطوان بدون عائق واستولَى الضباط على البيوت الرئيسية في البلد وكانت لاتحتها بأيديهم مقدما لأن عددا من الأسر كانت لها علاقات حميمة بالاسبان وتحظى بحمايتهم ، ولم ينقطع النهب في البلد إلا بعد أن تسامع مرتكبوه بضجيج الاسبان الذين رفعوا راية بلادهم على الفول في أحد أبراج المدينة ؛ أما القائد العام فقد احتل بدار المخزن التي هي مقر ادارة المنطقة؛ وكلف بأمور السكان الوجيه الحاج أبعير ؛ ثم تحول أودونيل إلى ظاهر البلد بعد أن ترك به عشرة آلاف جندي ، وتلقى أودونيل في اليوم التالي أرفع الأوسمة من الامبراطورة أوجين . كما عيّن حاكم للبلد هو الكولونيل أراسطا .

وقامت السلطات العسكرية بالاستيلاء على 146 مدفعاً وأسلحة أخرى وذخائر

تركها الجيش المغربي دون أن يحسن استخدامها أو استِصلاح ما يمكن استصلاحه منها . ثم نقلت القطع الصالحة إلى اسبانيا . أما الجيش المغربي فقد ابتعد عن المنطقة غربا باتجاه طنجة . وتعترف المصادر الإسبانية بأن الجيش الإسباني تكبد من الخسائر البشرية عدداً كبيراً يفوق عشرة آلاف ، منها 1122 قتيل وما يناهز خمسة آلاف جريح كما أصيب بالوباء أربعة آلاف[239] .

وغير الاسبان الكثير من معالم تطوان واستخدموا عددا من زواياها ومساجدها مطاعم أو مرابط للدواب أو كنائس أو غير ذلك .

وشجع احتلال تطوان الجيش الاسباني على الاستعداد للزحف على طنجة التي استعدت حاميتها للدفاع عنها مع تلقي مساعدات عسكرية من بريطانيا التي تدخلت في نفس الوقت لوقف هذه المغامرة .

— وفي 24 رجب / 17 فبراير توجه وفد عن مولاي العباس إلى القائد الأعلى أودونيل يستفسر عن شروط الصلح التي يعرضها الاسبان ، ورد القائد العام بلائحة الشروط التي تضعها مدريد ، وهي تنص على تسليم مواقع معينة حول سبتة وموقع آخر على ساحل سوس ، وبناء مقر لممثل إسبانيا بمدينة فاس على نفقة الحكومة الإسبانية ، وتطبيق اتفاقية سابقة حول مليلية وبادس ، والحصول على امتيازات تجارية وما إلى ذلك . وأعطى المخزن المغربي مهلة غايتها 23 فبراير .

— وفي 24 فبراير 1860 انعقدت أول مفاوضة للصلح ضمت أودونيل ومولاي العباس والخطيب في خيمة نصبت على مقربة من قنطرة وادي بوصفيحة بنحو عشرة كيلومترات من تطوان . وكان أودونيل مهذبا في مقابلته للأمير المغربي ، غير أن السلطات الإسبانية أصبحت ترغب في الاحتفاظ بتطوان . وبعد أن أحيلت طلباتها على السلطان رفضها ، كما أن بريطانيا عارضت في استمرار احتلال تطوان .

وفي أعقاب احتلال تطوان عرض الخطيب على السلطات المغربية عرقلة استقرار الاحتلال بسحب سكان القرى المجاورة وتخريب منشآته حول المدينة وتحطيم سكة الحديد التي شرع الاسبان في مدها بين تطوان والساحل كما أوضح ذلك الأستاذ

---

(239) *Voir, L. Miège, Le Maroc et l'Europe...2, 367*، وبالنسبة للأسلحة التي تركها المغاربة بالمدينة يتحدث الناصري عن موقع واحد فقط (استقصا 9، 94).

داود في «تاريخ تطوان» . وكان من رأي الخطيب قبل عقد الصلح أن يسند أمر استرجاع تطوان إلى القبائل الريفية مقابل تشجيعات ضرائبية ومكافأة مالية كبيرة .

وحيث إن المفاوضة لم تدم أكثر من ساعة بسبب تهديدات الطرف الإسباني وحضوره بمطالب ترابية تتزايد مع الأيام . فقد عمدت القوات البحرية الإسبانية في 25 فبراير إلى قنبلة ميناء العرائش .

— وفي 26 فبراير قنبل الأسطول الإسباني مدينة أصيلا .

— وفي 18 شعبان / 11 مارس قامت مجموعة كبيرة من القوات المغربية بهجوم على مواقع الجيش الإسباني في اتجاهين . أحدهما على مقربة من مدشر سمسة . والآخر قرب نهر تطوان . واستمر الاشتباك من منتصف النهار إلى منتصف الليل وأدَّى إلى قتل عدد كبير من الأسبان الذين قدرته قيادتهم بـ 213 قتيل بالإضافة إلى الجرحَى ، وحسب الناصري كان قتلاهم أزيد من خمسمائة ، والجرحَى منهم أكثر من ألف ، وعلى إثر ذلك . تغير موقف الاسبان من سكان تطوان وعاملوهم بمنتهَى الإذلال والغلظة . على أن مولاي العباس لم يغتر هذه المرة بما حققه الجيش المغربي من انتصار عابر ، حتَّى إنه عرض الدخول في مفاوضة ثانية للصلح في يوم المعركة . وذلك على يد رسوله الحاج أحمد الشبلي . وتلقَّى الأمير من الغد جواب القائد الأعلى للجيش الإسباني ، وفي هذه المرة عرض الطرف الإسباني التخلي عن تطوان وذلك من غير شك بضغط من الحكومة البريطانية ، لكن التنازلات الترابية الأخرى حول سبتة لم يوافق عليها الطرف المغربي .

— وفي 23 شعبان 1276 / 16 مارس 1860 عرض أودونيل عرضا جديداً أقل تشدداً . وهو أن تؤدي الحكومة المغربية مبلغ 20 مليون بسيطة . على أن يحتفظ الأسبان بتطوان حتَّى يتقاضوا المبلغ ، وتدخلت كل من أنجلترا والولايات المتحدة للضغط على المغرب حتَّى يقبل عقد الصلح مع إسبانيا ، وتردد المخزن أثناء ذلك ، في الوقت الذي توبعت فيه على يد الملك سيدي محمد عمليات استنفار المجاهدين وإمدادهم بلوازم المقاومة ، وأقبل عدد كبير من المتطوعة بينهم عرب الحياينة .

— وفي 30 شعبان / 23 مارس كان الجيش الإسباني قد استعد بدوره للهجوم

على المعسكر المغربي . فسبقه المغاربة المتطوعة . لأن معسكر مولاي العباس كان بعيدا عن المكان الذي هاجم فيه المغاربة الجيش الاسباني وهو واد بوصفيحة . حيث جرت معركة طاحنة عرفت بمعركة وادراس قام الحياينة فيها بدور بطولي كبير ، وهي دون شك أعظم مواجهة في حرب تطوان . وقدر الاسبان عدد المغاربة المقاتلين بخمسين ألفاً . كما قدروا قتلى الجيش الاسباني بـ 1268 ، واعترف فيجيراس بتفوق المقاتلين المغاربة .

وبدا مع هذا أن الزمام يوشك أن يفلت من يد القيادة المغربية إذا احتفظ المتطوعة بحق المبادرة ، لأن العدو مصمم على اغتصاب مزيد من التراب الوطني كلما هوجمت مواقعه وجيوشه ، وقد لاحظ أحمد بن خالد الناصري بحق أن المغاربة يهتمون بالخسائر البشرية لدى العدو ، في الوقت الذي يهتم العدو بكسب المواقع وتحصينها .

عقد الصلح في يوم الأحد 2 رمضان 1876 / 25 مارس 1860

بناء على الاعتبارات المذكورة آنفا ، واستجابة لإلحاح بريطانيا تنازل المغرب لعقد الصلح ، وكان المغاربة الذين حققوا على أي حال تقدما معنويا أكيدا في معركة واد راس التي استمرت من التاسعة صباحاً إلى الثالثة زوالا ، قد فكروا في الدخول في اشتباك قوي آخر بعد هذه الوقعة ، ودون أن يتركوا للعدو فرصة كافية للم صفوفه ، ولكن مما لاشك فيه أن الجيش الاسباني نفسه كان في الواقع أكثر ميلا إلى إنهاء الحرب وعقد الصلح ، بالنظر للخسائر الكبيرة التي تكبدها ، وللمقاومة الشعبية التي بدأت تعي أكثر فأكثر مسؤوليتها وللموقف النضالي الصامد للعاهل حتى مع ضعف تنظيم المقاومة .

وهكذا في اليوم المذكور ، تم اجتماع الأمير مولاي العباس بالقائد الاسباني الأعلى أودونيل بحضور أركان حربهما ، وكانت هذه ثاني مرة يجتمع فيها القائدان منذ اجتماعهما الأول في 24 فبراير وقبل المفاوض المغربي على الفور ، الشروط الأساسية للصلح ، والتي تتعلق الثلاثة الأولى منها بتوسعة محدودة لتراب سبتة ومليلية وحصول إسبانيا على مركز تجاري بساحل سوس حدد اسمه الإسباني وهو Santa Cruz de Mar Pequena ، دون موقعه ، ويتعلق البندان 4 و5

بتعويضات الحرب وهي عشرون مليون ريال تؤدى للطرف الإسباني الذي يحتفظ بتطوان إلى تمام أداء المبلغ . وينص البند السادس على التزام المغرب بعقد معاهدة تجارية مع إسبانيا . أما البندان 7 و8 فيتعلقان بالترخيص لاسبانيا بإنشاء بعثة قنصلية لها بفاس . ونص مشروع المعاهدة على أن إسبانيا تحتفظ بحق إنشاء تمثيلية لها في أية مدينة مغربية يمكنها أن تتولى بها حماية مصالحها ، كما سمح بفتح الباب على مصراعيه للمبشرين الاسبانيين حتّى يؤدوا مهمتهم في عموم أرجاء المملكة[240] .

وينبغي التفريق بين شروط الصلح التي أمضيت بين مولاي العباس وأودونيل في 25 مارس 1860 وبين المعاهدة والاتفاقيات اللاحقة :

1 ـــ معاهدة تطوان في 4 شوال 1276 / 26 أبريل 1860 وهي تفصل شروط الصلح وتدققها وقد أمضاها مبدئيا ، مولاي العباس وأودونيل ، وصادق عليها ملك المغرب سيدي محمد بن عبد الرحمن في 26 ماي 1860 ، وهي من 16 بنداً ، كما صادقت عليها ملكة إسبانيا في نفس اليوم .

2 ـــ اتفاقية الحدود حول سبتة ، وقد أمضيت بـ 3 جمادى الأولى 1277 / 17 نونبر 1860 من قبل محمد بن عبد السلام مقشد والحاج محمد بن دحمان عن المغرب .

3 ـــ اتفاقية حدود مليلية ، وهي تثبيت لاتفاقية 24 محرم 1276 / 24 غشت 1859 وكانت من إمضاء محمد الخطيب عن المغرب ، وخوان بلانكو عن إسبانيا .

4 ـــ المعاهدة التجارية التي تم التفاوض بشأنها في طنجة وأمضيت بها في 20 نونبر 1861 ، وكان التفاوض من الجانب المغربي على يد محمد بركاش يساعده التاجر الفاسي عبد الرحمن الحاج ، وتضم 64 فصلا وتعطي هذه المعاهدة حق الملكية العقارية للرعايا الأسبان ، وتفتح أمامهم موانئ المغرب ومصايده الساحلية وتخفض من حقوق رسو السفن بالموانئ وتوطد حق الحماية الإسبانية للرعايا المغاربة .

تطبيق اتفاقيات الصلح ونتائجه

كان أول ما شغل اهتمام الدولة بعد عقد معاهدة الصلح هو كيفية الحصول على

(240) ورد نص المعاهدة نفسها في تاريخ تطوان ج 4 لمحمد داود.

المال الكافي لتغطية تعويضات الحرب المتفق عليها وهو عشرون مليون ريال أي مائة مليون بسيطة ، وكان على الدولة أن تعجل بدفع ربع المبلغ[241] ، ولزمت لذلك مفاوضات دبلوماسية جديدة كانت خاتمتها إنذاراً غير مباشر لتسديد القسط ، وأخيراً تمّ أداء خمسة ملايين ريال كان يتم تقديمها على دفعات انتهت يوم 12 أكتوبر 1860 . ثم وقع التعثر في جمع مليونين وهدد النائب الإسباني بأن أسطول بلاده سيقنبل الصويرة إذا لم يتسلم من باشاها هذا المبلغ . وتقاضى الطرف الإسباني المليونين ، وبهما فرغت خزينة الدولة إلا من مصروفات الجيش ، وعندئذ لجأ المخزن إلى استفتاء بعض علماء فاس بشأن طرق الحصول على أموال التعويضات . ثم أخذت فكرة الاقتراض تراود المخزن بجدة . بعد أن راجت منذ أكتوبر 1860 وهكذا بدأت مفاوضات مع الأبناك الإنجليزية عن طريق تاجر إنجليزي مقيم بجبل طارق ثم بواسطة المفاوضات الدبلوماسية . وحيث إن السلف يتعلق بعملية سياسية فقد التزم المخزن برد السلف المطلوب وهو مليونان من الريال من دخل المراسي المغربية وهذا يقتضي بالطبع حضور ممثلين عن الحكومة الإنجليزية لضمان تسديد المبلغ في عين المكان ، أي بالموانئ وتعثرت المفاوضات واستمرت عدة شهور قبل أن تكلل بالنجاح وبعد حصول المخزن على فتوى من الشريف الوزاني برد السلف مضافاً إليه الفائدة التي هي 10 بالمائة . وهكذا تسلم المغرب عشرة ملايين بسيطة في مارس 1862 وتمكن بذلك من تسديد بقية نصف مبلغ التعويضات بعدما بذل جهوداً أخرى لافراغ الخزينة وتجميع حوالي خمسة ملايين بسيطة بطرق مختلفة . وكان للسرجون هاي ممثل بريطانيا وأحد الرأسماليين الانجليز بآسفي دور كبير في تسوية مشكل السلف . ولما كان دفع نصف مبلغ التعويضات شرطا لانسحاب الجيش من تطوان وإعادة تسليمها إلى المغرب ، وان هذا الشرط قد تم الايفاء به . فقد انسحب الجيش وسلمت المدينة إلى عاملها الجديد عبد القادر أشعاش في 11 قعدة 1278 الموافق لعاشر مايو 1862 بعد أن بقيت تحت الاحتلال سنتين وربعاً .

وشهدت تطوان خلال الاحتلال جملة من التطورات والتغييرات كتحويل زاوية الشيخ عبد الله البقال إلى كنيسة وحولت أغلب المساجد والزوايا إلى أغراض

---

(241) كان ضمن شروط الصلح أن يؤدى مجموع مبلغ التعويضات في ظرف ثمانية أشهر، ولكن لم يستطع المغرب أن يستوفي المبلغ الا بعد ما يقرب من ربع قرن.

متنوعة ، فبعضها حانات وأخرى مستودعات أو مرابض . كما هدمت مجموعة من الأزقة لتوسيع الشوارع أو تخطيطها على الأصح .

وفيما يرجع إلى النصف الباقي من التعويضات وهو عشرة ملايين من الريالات أي 50 مليون بسيطة فقد طبق الاتفاق الخاص بشأنها وهو تنصيب موظفين من الاسبان إلى جانب الأمناء بالموانئ لاقتطاع المبالغ تدريجياً . وقامت إسبانيا بتنصيب قناصل في كل الموانئ لمراقبة تحصيل الجمرك وتجميع الأموال ثم توجيهها إلى طنجة حيث تنتظرها باخرة حربية لنقلها تباعا . كما أن بريطانيا ضمنت استرجاع ديونها عن طريق توسيع شبكة قناصلها . وعمدت دول أوروبية إلى استغلال الفرصة بتكثير ممثليها وإنشاء مزيد من القنصليات ، خصوصا فرنسا والسارد (إيطاليا) . واستمر حضور الموظفين الاسبان إلى جانب الأمناء حتَّى 1202 / 1884 . ولتثبيت دعائم التغلغل الأوروبي فقد رفعت الدول الأوروبية المذكورة درجة رؤساء بعثاتها الدبلوماسية إلى وزراء مفوضين ثم مقيمين وهذا يخولهم أن يقوموا بعدة إجراءات في عين المكان دون اللجوء إلى مشاورات مع حكومات بلادهم[242] .

كذلك استرجعت بريطانيا ديونها خلال بضع سنوات . غير أن نتائج الحرب لم تقتصر على احتلال تطوان وإرغام المغرب على دفع تعويضات ضخمة أضيفت إليها 25 مليون بسيطة كفوائد ورواتب للموظفين . ثم تقاسم هؤلاء السيادة على موانئ البلاد مع أهله لمدة تقرب من ربع قرن . بل ان هناك نتائج أخرى بينها ما هو أسوأ وأخطر :

1 – تعنت التجار والرعايا الأوروبيين

فقد تغيرت لهجتهم تجاه السلطة والسكان المغاربة وأثبت ذلك خطاب ملكي ذكر فيه أن «هؤلاء النصارَى كثيرا ما يتعنتون فيما يعرض لهم بمراكش وغيرها من الدعاوي ، ويريدون أن يكون العمال (ولاة الأقاليم) وكلاء لهم في قبض ما يجب وما لا يجب ، وإلزام ما يلزم وما لا يلزم ...» . وذهبت الوقاحة إلى أن ممثل إسبانيا فرانسيسك مرّي أخبر وزير الخارجية المغربي محمد باركاش بأن التعليمات قد أعطيت للقناصل ليلزموا العمال بتغريم أموال الدائنين الأسبان إذا لم يؤدها المدينون المغاربة مهما ادعوا إفلاسهم !

---

(242) حول قضايا التعويضات والسلف، يراجع بحث مهم لجان لوي مييج عربته مجلة تطوان 58 ـــ 1959.

وكان من محدثات الأوروبيين بالشمال تربية الحلاليف في الوسط الاجتماعي المحافظ . مما اضطر الدولة إلى فرض ضرائب ثقيلة على استغلال الحلاليف وإباحة إعدامها خارج البلد إن وجدت بعد فترة معينة . كذلك كانت هناك ردود فعل متفرقة ضد هذا التعنت الأوروبي وبخاصة الاسباني حتّى كان من بينها أسر ثلاثة من الاسبان بوادي نون وقتل آخرين حول مليلية .

2 – تفاقم المشكلات الترابية

من أهم المشكلات ادعاء إسبانيا سنة 1280 / 1863 أن رايتها أهينت على يد المغاربة حول الحدود مع مليلية . وعادت الأمور تذكر بأحداث ما قبل حرب تطوان والتي جرت حول سبتة في محرم 1271 / غشت 1859 وهدّد بقيام حرب جديدة لم يكن المغرب مستعدا لها معنويا ولا عسكريا وطالبت إسبانيا بإقامة حراسة كافية بالحدود ، ويظهر أن تحرشات الاسبان بالسكان واستئناف استرعاءات السلطة الإسبانية بعد احداث 1280 / 1863 كان نتيجة لعدم التوصل إلى حلول أمنية نهائية ، ولذلك نَرَى مشكل حدود مليلية يثار بشكل حاد مرة أخرى سنة 1287 / 1870 بعد أن تشكى الاسبان من اعتداءات اتهموا بها أهل قلعية وكان بينها حوادث قتل واعتراض مراكب بساحل الريف ، وأخيراً توسط السفير الإنجليزي لترضية الطرف الإسباني بعدة أشياء منها تعويض مبلغه عشرون ألف ريال لعائلات القتلَى وتحويل وادي مليلية لصالح المحتلين وتعويض رئيس مركب منهوب ، وسجل بذلك تقرير في 12 يونيو 1871 .

ونشأ أخذ ورد حول تطبيق البند الثامن من معاهدة الصلح لـ 1860 والمتعلق بمركز للصيد على شاطئ سوس ، لكن من الأفضل ترك هذه النقطة إلى الفصل التالي لأن المفاوضات بشأن هذا المركز استغرقت كل عهد السلطان مولاي الحسن [243] .

3 – استفحال الحماية الأجنبية وتعسف القناصل

المقصود بهذا النوع من الحماية أن تتمتع دولة أجنبية عن طريق قناصلها وبعثاتها

---

(243) راجع فيما يتعلق بحرب تطوان : استقصا 9، 84 — 102. السليماني، لسان، ص 138. بنمنصور، وثائق 2، 234 — 236 و448. محمد داود، تاريخ تطوان. ج 4 و6. مختصر، ص 125 — 196. مشرفي، حلل ص 222.

الدبلوماسية بامتياز اعتبار المستخدمين المغاربة في المؤسسات الدبلوماسية التابعة لها كرعاياها مع إعفاء القناصل والموظفين التابعين لهم من كل التكاليف المالية.

وكانت الدولة العثمانية أول من خولت الدول الأجنبية امتيازات من هذا النوع مع اتساع مداها تدريجيا. ومع تكاثر الدول المستفيدة. وكانت مصر من بين الدول الأكثر تضررا من هذا الامتيازات، وأول بوادرها في المغرب من خلال المعاهدة المغربية السويدية لـ 1177 / 1763 وليس معاهدة المغرب مع فرنسا كما ذكر «مييج» لأن هذه كانت سنة 1767؛ غير أن المعاهدة المغربية الفرنسية نصت على المزيد من الامتيازات بما في ذلك حق تنقل القناصل الفرنسيين في أنحاء المملكة وعدم تدخل القضاء في النوازل الحالة بين فرنسي ومغربي بحيث يتولى العاهل أو عامله النظر في ذلك.

وحيث إن عدد القناصل لم يحدد؛ فقد فتح الباب لاستخدام قدر ما شاء هؤلاء من المساعدين والسماسرة المكلفين بتنظيم النشاط التجاري وربط الاتصالات التجارية مع المواطنين المغاربة. وفي نفس السنة عقدت معاهدة مع الدانمارك أعطت لتجارها حق التنقل والاستقرار بمجموع أنحاء المملكة فضلا عن الامتيازات الضرائبية والقضائية.

وأبرمت معاهدة المغرب مع البرتغال في 27 نونبر 1773 فخولتهم حق تصدير واستيراد السلع لكن ترك الفصل في النزاعات القضائية بين رعايا البرتغال والمغاربة للقاضي مع حضور حاكم المنطقة التي وقع بها النزاع.

وحيث إن نظام حماية القنصليات للرعايا المغاربة لم يكن قط موضع تقنينات بل اعترف المغرب رسميا بشمولية هذه الحماية لكل المتعاملين مع القنصليات من غير اعتبار ان المواطن المغربي يظل كذلك سواء أكان في خدمة القنصليات أو في خدمة بلده فمن ثم لم يكن هناك قانون للتجنس. وهكذا استفحل أمر الحمايات حتى وجهت تعليمات إلى وزير الخارجية محمد الخطيب سنة 1854م بدعوة البعثات الأجنبية إلى تحديد مدلول الحماية في إطاره الحقيقي.

ثم أبرمت معاهدة مع بريطانيا في 9 دجنبر 1856 وهي أيضا تنص على رفع الضرائب حتى عن المترجمين وسائر الخدام. ولكن خليفة القنصل حيث كان

بموانئ المغرب «لا يكون له أحد تحت حمايته من رعية هذه الإيالة إلا عياله فقط» كما جاء في الشرط 3 . وبالمقابل أصبح الرعايا المغاربة تحت رحمة القضاء القنصلي الإنجليزي إذا كان لهم نزاع مع رعايا إنجليز ، فإذا رفع مغربي دعوى ضد إنجليزي فإن القنصل هو الذي يبت فيها وإذا رفع إنجليزي دعوى ضد مغربي أمام القضاء الوطني ولم يرض عن الحكم فله أن يستأنفه لدى وزير الخارجية المغربي . ومع هذه الامتيازات الجائرة . ظل السرهاي ممثل بريطانيا يرى فيها غبناً على التجارة البريطانية بالنسبة للتجارة الفرنسية . من حيث ان الشرط الثالث جرد خلفاء القنصل بالمدن من بسط حمايتهم على الرعايا المغاربة . لكن الرعايا المغاربة المحميين ظلوا عددا محدودا إلى حدوث حرب تطوان التي تؤرخ بها الروايات الأوروبية مبدأ «الانفتاح» المغربي على أوروبا أي فتح أبواب المغرب على مصاريعها للانتشار الأوروبي والاحتكارات الأوروبية وامتيازاتها على حساب أهل البلاد . وهكذا في أقل من سنة بعد الحرب المذكورة . ارتفعت أعداد المحميين بالنسبة للبلاد الرئيسية من بضع عشرات إلى عدة مآت . وظهرت علامات التحرك المغربي ضد هذه الظاهرة بقصد وقفها وتقنينها ، وذلك بإيفاد موظف سام هو الكاتب ادريس بن إدريس العمراوي إلى طنجة ليتولى مع نائب السلطان محمد بركاش المحادثات مع رؤساء البعثات الدبلوماسية . وفي خطاب السلطان المؤرخ بـ 27 شوال 1279 / 17 أبريل 1863 (244) يتأكد ما حصل للدولة من ضرر في الميدان المالي والاقتصادي : «وذلك أن المحتمي يسقط من الزكاة والإعطاء واجبه ، فيقوم بأدائه إخوانه وأقاربه ، فإن عجزوا عنه سقط من الداخل على بيت المال ، وأدّى ذلك إلى فساد الأعمال على العمال ، لكونهم يبقون في حيرة من أجل واجبهم ومن عدم تنفيذ الأحكام عليهم» وكان الضغط بالدرجة الأولى على فرنسا . وذلك بمساع من ممثل بريطانيا جون هاي الذي كان يهمه أن تتساوى الأطراف الكبرى في الامتيازات صعودا وهبوطا . وهكذا وقع اتفاق مغربي مع بكلارد *Béclard* في 3 ربيع 1 سنة 1280 / 19 غشت 1863 لم يصادق عليه السلطان ولا الحكومة الفرنسية .

= *Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 349 - 409, Joly (A) Les négociations du Maroc avec l'Espagne à la veille de la guerre de 1859 à 1860, in Anchives Maroc. 8/1906, Godard, Description et histoire du Maroc.*

وتراجع أيضا سجلات وزارة الخارجية بمدريد.

(244) بنمنصور، وثائق 4، 183.

وجاء في بنودها أن الحماية تشمل حريم المحمي وأولاده الساكنين معه في منزل واحد ولا تشمل غيرهم من أقاربه وأن بعض الأشخاص يمكن أن يستفيدوا منها مدى عمرهم. وحدد عدد السماسرة باثنين في كل متجر. واشترطت الوثيقة تسليم لائحة المحميين إلى العامل وإخطاره بكل تغيير[245] ثم عقدت تسوية مشابهة مع ممثل إسبانيا وأخرى مع بريطانيا وسائر الأطراف المعنية. غير أن السلطان لم يكن موافقا على نتائج التسوية مع هذه الدول في بعض محتوياتها. ولذلك وجه إلى نائبه بطنجة توضيحات تتعلق بالتسوية الأصلية التي تمت مع بكلارد. وقد تشبث الطرف الفرنسي بعدم إدخال أي تغيير بما في ذلك إسقاط الحماية كلية[246]. وحاول السلطان أن يمتّن علاقات المغرب مع فرنسا. فأرسل وفداً مركبا من قائد الجيش محمد بن عبد الكريم الشرقي وعامل سلا محمد بن سعيد إلى العاهل نابليون الثالث سنة 1282 / 1865 وذلك لطلب تعيين ممثلين دبلوماسيين أكثر لباقة عن الطرف الفرنسي[247].

وبدل أن يخف الإقبال على الحماية الأجنبية فقد ارتفعت أعداد المستفيدين بشكل مقلق. فزيادة على الامتيازات الضرائبية الشاملة حُجز بين القضاء الوطني والرعايا المحميين بتدخل القضاء القنصلي في جميع الظروف. وبدا واضحا أن السيادة المغربية أهينت في آن واحد من الحماة والمحميين معاً. وعلى مشهد من السلطة بجميع مستوياتها الوطنية.

وأدّى تعاظم نفوذ القناصل إلى مزيد من تعسفات المحميين. كما أن القناصل أنفسهم اشتطوا في استغلال نفوذهم وفرض سلطتهم على الأجهزة الحاكمة. وهكذا تضررت البلاد سياسياً وقضائياً ودينياً من الحماية القنصلية:

سياسيا

كان من نماذج الحيف القنصلي التجاء بعض المتابعين قضائيا إلى هذه القنصلية أو تلك. حتّى إن جنديا سرق أشياء من قائد معسكر ثم احتمى بتاجرين

---

(245) ن. م. ص 191 — 195.

(246) ن. م. ص 203 — 210.

(247) استقصا، 9، 116، وقد أورد نص الاعتماد الملكي للسفيرين. *Hespéris*، 1960.

إنجليزيين . وذلك أن بعض التجار الأجانب كانوا هم أيضا يتولون حماية الرعايا (!) . ومن أحداث 1863م أن السلطة اعتقلت بعض المحميين بالدار البيضاء لأمر موجب . فتدخلت القنصلية الفرنسية بكثير من التحدي والتهديد وتم تسريحهم . وعمد بعض الأجانب إلى الاستيلاء على الأراضي حتَّى داخل المدن لاستغلالها مستودعات أو لتوسيع نشاط اقتصادي . وأبشع مظاهر التحدي الدبلوماسي هو منع ممثلي البعثات بطنجة لنزول الحجاج القادمين على متن باخرة مصرية سنة 1282 / 1865 وتهديدهم باستعمال السلاح إذا نزلوا ، وذلك بدعوَى الخوف من نشرهم للوباء بطنجة حيث يقيم السفراء أو من في حكمهم . وهدد سفير إسبانيا وزير الخارجية محمد بركاش باستعمال القوة وتحميله كل التبعات إذا منع أحد التجار الأسبان من وسق «الفرشي» أي الفلين ، واعتدَى إسباني على بعض الجنود المغاربة بالضرب في العرائش ولما رد جندي بالمثل عوقب الجنود بأن اقتص منهم العامل .

وفي سنة 1280 / 1863 حدثت ضجة بسبب تآمر ثلاثة يهود على قتل نائب خليفة القنصل الإسباني بآسفي وبلغت أصداء الضجة أنجلترا بعد اعتقال الجناة وقرار القضاء بإعدامهم . وتحرك اليهود في كل مكان وبعثوا زعيم الطائفة اليهودية بأنجلترا مونطيفيور الذي قام بجولة عبر أنحاء المغرب وتدخل لدَى المخزن من أجل تخويل اليهود حقوقا خاصة . ومنذ ذلك الوقت تبنت انجلترا قضايا اليهود عمليا داخل التراب المغربي وهم رعايا مغاربة . وفي هذه السنة أيضاً وقعت أزمة خطيرة بين فرنسا والمغرب بسبب معاقبة عامل تطوان عبد القادر أشعاش لبعض المحميين الجزائريين . وتدخل القنصل الفرنسي الذي كان يهودياً . حيث اقتحم مكتب العامل من غير إذن . وكان القنصل غاضباً . فصفعه العامل . وعندئذ طالبت فرنسا بعزل العامل . ثم تم الاتفاق على عزله هو والقنصل ، ونقل العامل إلى سجن سلا ثم سرح بعد ذلك .

اقتصاديا

استغل القناصل وحتَّى محميوهم ، الإعفاءات الضرائبية بشكل حرم بيت المال من موارد هامة على الرغم من أن المخزن ألح في تعشير السلع والواردات الزائدة عن حاجة القناصل وكان الأسبان يقتطعون أشجار الغابات محتجين بالمعاهدات كما كانوا

وغيرهم من الأجانب يصدرون حتَّى الأشياء الممنوعة ، وحتَّى حقوق الأبواب بالمدن والأسواق نزل مردودها . وكان بعض المتعلقين بالأجانب أو محمييهم يرفضون أداء حقوق الوزن ، وكذلك انخفضت رسوم «النزالات» أي المحطات التي يستريح بها المسافرون .

قضائيا :

كان من «الأعراف» التي ابتدعها جبروت البعثات الأجنبية أن يقام الحد على من ثبتت عليه التهمة من المغاربة في نزاع قضائي مع أجنبي ، بباب القنصلية التي ينتمي إليها خصمه الأجنبي . وهكذا يجلد المواطن على مشهد من الأجانب والمواطنين . وحاول السلطان أن يحصر شؤون النزاع بين المغاربة والأجانب في يد النائب السلطاني بطنجة . وفي 1288 / 1871 وقع الاتفاق مع البعثات الدبلوماسية على تعيين هيأة قضائية خاصة بطنجة للنظر في الدعاوي بين الخلطاء المغاربة والأجانب ، وتم تنصيب هذه المحكمة فعلا . ولكن قضايا التدخلات القنصلية واعتداءات المحميين واستهانتهم بسلطة الدولة لم تزدد إلا استفحالا .

دينيا :

بدأ استيراد الخمر على نطاق واسع ، وانتشرت حاناته في عدة جهات ، وتحايل التجار الأجانب على استيراده من غير تعشير . كما استفحلت تربية الخنازير التي كانت مقصورة في البداية على بعض المدن ثم امتدت إلى البوادي أيضا ، وكذلك تجرأ بعض الأجانب خصوصا الأسبان والايطاليون على فتح مواخير للبغاء أو استغلال بعض الفنادق لهذا الغرض .

ومن الواضح أن أجهزة المخزن لم تقف مكتوفة الأيدي من الوجهة الدبلوماسية وأحيانا حتَّى من الوجهة الادارية والقضائية ، فكثير من التعليمات التي كانت تصدر عن القصر تدعو إلى الصرامة في مواجهة الموقف . وتقارير العمال والنائب السلطاني بطنجة والمسؤولين الماليين تدل على وعي بخطورة الحالة وبتدهور الكرامة الوطنية والدينية إلى درجة متناهية . غير أن الخروق التي فتحتها المعاهدات بما منحت من

تسهيلات وامتيازات جعلت موقف المخزن صعبا تجاه الأوضاع التي نجمت عنها[248] .

الأوضاع الدّاخليــة

في غمرة المواجهات الدبلوماسية وتكالب ممثلي الدول الأجنبية وتجارها ومحمييها على ثروات المغرب وإضعافهم لموارد البلاد كان على المخزن أن يواجه أيضا بعض الاضطرابات التي ترجع أهم أسبابها الحقيقية إلى سوء الإدارة المحلية وانعدام سياسة توازن اقتصادي بين المناطق الفقيرة والغنية . وأخطر هذه الاضطرابات :

1 — ثورة الجيلاني الروكي (كاف م.) سنة 1278 / 1861 بمنطقة الغرب في ناحية كورت . وكان هذا الشخص راعياً ، تعلم بعض أعمال الشعوذة فيما ذكره المشرفي والناصري فأصبح سكان المنطقة يعتقدون بولايته وينسبون إليه الكرامات ؛ ثم قاد أنصاره إلى دار القائد عبد الكريم السفياني ، فنهبوها وقتلوا القائد وعددا من قرابته كما نهبوا قرية كورت ، ثم زحفوا إلى قبيلة الشراردة قرب مكناس فنهبُوها وأحدثوا بغاراتهم رعبا حقيقيا بفاس وتطوان التي كان الأسبان يحتلونها وقيل إن الروكي كان يرغب في إحداث انقلاب . فبعث السلطان بجيش يقوده أخوه مولاي الرشيد إلى ناحية سوق الأربعاء حيث كمن عدد من أنصار الروكي في الشعاب لكن فرسان الجيش اعتقلوا عددا كبيرا منهم ، بينما كان الروكي قد قصد ضريح مولاي ادريس زرهون فاعتقله أصحاب الضريح وقتلوه في أواسط شعبان 1278 . وقد وجه منشور ملكي يفصل أكثر هذه الأحداث إلى ولاة الأقاليم[249]. ولم يكن لهذه الثورة ذيول بعد مقتل مدبرها .

2 — ثورة الرحامنة ، وهم من عرب حوز مراكش الذي يشغلون منه مساحات شاسعة ، وتكونوا من إحدَى عشائر ذوي حسان جنوب الأطلس ، ولا يعرف على التحقيق وقت استقرارهم بحوز مراكش ، ولكن المصادر تذكرهم خلال

---

(248) محمد داود، تاريخ تطوان، ج 6. بنمنصور، وثائق، 2، 448، وسائر المجلد 4. مشكلة الحماية القنصلية. *Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 401. Rouard de Card, Traités entre la France et Le Maroc. Paris, 1898. Paul le Boeuf, De la protection diplomatique et consulaire des indigènes au Maroc. 1905. Martin in Archives marocaines, Vol, 16. Revue des questions diplomatiques et coloniales, Mai 1897.*

(249) ناصري، استقصا، 9، 108، المشرفي، حلل بهية، ص 226 — 227.

القرن 12/ 18 بكثرة ، وخصوصا منذ أيام مولاي عبد الله ، وكيفما كان الأمر ، فقد تعايشوا مع بربر الحوز ، وحافظوا على اللسان العربي . كما مارسوا حياة الترحل ، وتكاثرت أعدادهم دون أن تكون مناطق انتشارهم كافية لاستقرار عيشهم لأن جلها قاحل . وهكذا مارسوا أعمال النهب كما فرضوا بكثرتهم نفوذهم على الدولة أحيانا ، وصار لهم تأثير كبير على الأوضاع بمنطقة مراكش بعد وفاة السلطان محمد الثالث . ولما انشغل السلطان محمد بن عبد الرحمن باحداث تطوان ثم بثورة الروكي ، هاجموا سوق الخميس بمراكش ونهبوه . كما نهبوا القوافل التي تقصد المدينة واستولوا على الزروع والمواشي حولها . وحاصروا مراكش دون أن تنفع فيهم نصائح خليفتها مولاي علي . وهكذا جرد السلطان حملة تولى قيادتها . وحاول الرحامنة أن يمنعوا الجيش من دخول مراكش فاقتحم صفوفهم واستولى على كل ما بأيديهم وقتل منهم أعدادا كبيرة ثم صادر أموال المتمردين ، ولما هاجم الجيش مواطنهم تشفعوا بالصلحاء كما ذكر ذلك تقرير ملكي موجه إلى الأمير مولاي الرشيد . وشاركت بعض القبائل المجاورة في ردع الرحامنة وبعد أن اختفى رؤساؤهم عن الأنظار مدة خوف العقاب توسلوا بقائدهم ولد بلة . فدعوا إلى الحضور إلى القصر الملكي ، وهناك ألقي القبض على ستة وستين من أكابرهم وزج بهم في السجن . وباعتقالهم استقرت الأوضاع مدة طويلة . وكانت هذه الأحداث في آخر شهر من 1278 / 1861 ومنذئذ عززت حامية مراكش بفرقة خاصة من 500 إلى 600 جندي بقيادة باشا كان مقره قرب جامع الفنا . وانتظر الرحامنة وفاة سيدي محمد بن عبد الرحمن قبل أن يعودوا إلى التمرد مرة أخرى[250] .

3. اضطرابات الأطلس المتوسط ، وكانت لأسباب اقتصادية وإدارية ، ففي الوقت الذي كان تجار المدن يستظلون بالحماية القنصلية كان على سكان البوادي أن يؤدوا الضرائب ويواجهوا ابتزازات الولاة . وهكذا قاد السلطان حملة سنة 1289 ضد تادلا وزمور وأبي الجعد وبني عمير ثم ضد مراكش التي ثارت ضد جور عاملها أحمد بن داود مع وجود خليفة مقتدر هو مولاي الحسن . ويظهر أن السلطان كان يتلقى من طريق عيونه تقارير لصالح القائد الجائر ، ولذلك لم يعر توسلات الفقهاء والقراء والصبيان اهتماماً . غير أن الأمير مولاي الحسن أنقذ الموقف

(250) ناصري، ن. م. ص 110. وثائق، 2، 394. Deverdun, Marrakech, pp.524 - 527

بنباقته كما تحررت مراكش من جبارها بموته بعد يسير[251] .

الإصــلاحات

لم تكد حرب تطوان تنكشف عن هزيمة الطرف المغربي حتّى تقرر إعادة تنظيم الجيش وتجهيزه وترميم ما يمكن من المنشآت العسكرية . إلا أن هذا العمل كان يتطلب العودة إلى إقرار المكوس على الأبواب حتّى يمكن سد حاجات الجيش . وبعد استشارة التجار واستفتاء علماء الشريعة أعيد إقرار المكوس وأخطر أمناء المراسي بتفاصيل النظام الضرائبي الجديد كما يشير إلى ذلك منشور ملكي في رجب 1277 / 1860 . وفي إطار إقرار الأمن وتسهيل انتشار الجيش أنشئت بعض القصبات الإضافية كقصبة الصخيرات وقصبة بوزنيقة . وأرسلت بعثات إلى الخارج لتلقي العلوم والفنون العسكرية بصفة خاصة . وكل هذه الجهود مع قيمتها كانت محدودة الأهمية بسبب ضعف هياكل التسيير وبدائيتها ولضعف موارد الدولة التي تعاون على نهبها أطراف متعددة من الداخل والخارج . وقد أشارت هذه الدراسة إلى محاولات أخرى إصلاحية لهذا العاهل في فصول أخرى عامة .

وفاة سيدي محمد بن عبد الرحمن (1290 / 1873)

حسب المشرفي في الحلل البهية . كانت وفاة سيدي محمد بن عبد الرحمن (محمد الرابع) في مستهل رجب 1290 . وعند الناصري : في 18 رجب / 1873 . وكانت وفاته من شرب دواء مسهل كما عند المشرفي أيضا . وقال هذا المؤرخ عن سيدي محمد بن عبد الرحمن إنه «كان من العقلاء الثابتين والأتقياء العارفين . والعلماء الراسخين . بانياً أمره على الشريعة لا يحيد عنها طرفة عين» . ودفن سيدي محمد بضريح مولاي علي الشريف بمراكش .

(251) استقصا، 9، 123.

الفصل السابع
تدويل القضية المغربية

1290 - 1325 (1873 - 1907)
مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز

بيعة مولاي الحسن 1290 / 1873

كان مولاي الحسن في مهمة بحاحا عندما تلقّى نعْي والده السلطان محمد بن عبد الرحمن ، ثم بويع بنفس المكان قبل أن يحل بمراكش في 27 رجب من نفس السنة ، وتولى مراسيم البيعة موسَى بن أحمد الذي أباح دم كل من امتنع عن البيعة ، وكان يشغل منصب الحاجب ، ومن أجل استبداده هاجر الوزير إدريس بوعشرين إلى الحجاز بجوار البقاع المقدسة ، وبعد وفاة موسَى بن أحمد البخاري سنة 1296 / 1878 عين نجله أحمد حاجباً مكانه كما عين قريبه محمد بن العربي ابن المختار الجامعي صدرا أعظم. وعين السلطان من جهة أخرى أخاه مولاي عثمان خليفة عنه بمراكش ، وامتنع عن البيعة الأمير مولاي الكبير بن عبد الرحمن بسجلماسة ، وتردد بين قبائل البربر إلى أن اعتقل بمكيدة ثم أطلق سراحه لكبر سنه[1] ، وقد أغدق السلطان الجديد العطايا على الوفود التي تقاطرت من جهات المملكة لمبايعته بمراكش ، كما استقبل هداياها أيضا .

ومن مزايا مولاي الحسن أنه هيئ لمنصب المسؤول الأول في الدولة أثناء قيامه بالخلافة عن والده بمنطقة مراكش الشاسعة ، وبعد بيعته تحرك باتجاه فاس حيث رفض الدباغون بيعة مولاي الحسن قبل أن ترفع عنهم المكوس .

---

(1) مشرفي، حلل، ص 237. بنمنصور، وثائق 3، 371، 381، 480. استقصا، 9، 128 و134؛

اضطرابات فاس وقضية المكوس

طالب أهل فاس لاسيما الدباغون برفع المكوس عن الأبواب والتزم أحد الأشراف باستصدار أمر ملكي برفعها حالما يصل العاهل إلى فاس . ووقع الضغط على الأمين الحاج المدني بنيس فوعد خيراً ؛ وسحب المكاسون من الأسواق والأبواب . غير أن أحدهم واصل تحصيل المكس من فندق الجلد . فثار الدباغون وبحثوا عن الأمين بنيس . ثم حاصروا منزله واتسع مدى الهيجان ولم ينفع تدخل الخليفة مولاي اسماعيل ولا العامل إدريس السراج ولا القاضي مولاي امحمد بن عبد الرحمن العلوي وتمكن الأمين من الاختفاء بحمام . ولكن المهاجمين اقتحموا داره ونهبوها وكانت بها أموال طائلة ثم لجأ الأمين بنيس إلى ضريح مولاي إدريس . وأخيراً وصل العاهل إلى فاس بعد أن كاتب أهلها من مراكش يذكرهم بالتزاماتهم ؛ وكانوا قد فهموا من الخطاب الملكي تهديدا بعقاب المشاغبين . فزاد ذلك من توتر الحالة بفاس بالرغم من التطمينات والتوضيحات التي قدمها كبار المسؤولين . وكان العاهل قد بعث إلى الأمين بنيس يعده بالتعويض عما ضاع من امواله . وكان وصوله إلى فاس قادما من مكناس . في سادس ربيع الأول 1291 / 23 ابريل 1874 . ولم يقرر أي شيء على الفور . بل قضى بضعة أسابيع في دراسة الوضع ومسألة المكوس . ثم قرر إعادتها إلى سابق عهدها ونصب المكاسون في أماكنهم المعتادة . وعندئذ عبر الدباغون عن غضبهم بشدة . فمنعوا العامل من الاتصال بالملك . وطالبوا بأن يسلم إليهم المدني بنيس ليتولوا بأنفسهم محاكمته . وطالب الأعيان بأن يسلم إليهم بعض كبار المسؤولين كموسى بن أحمد الحاجب وأخيه عبد الله . ثم انتصب الثوار في شرفات بعض المباني بفاس البالي وأطلقوا الرصاص على بعض المخازنية «الحراس» الذين قدموا باسم القصر ليستطلعوا الأحوال وعندئذ أعطى العاهل الأمر بتطويق المهاجمين . وتمت قنبلة مواقعهم بالمدفعية . ثم عرض السلطان الأمان على أهل فاس بشرط قبولهم إقرار المكوس وتوقف المواجهة . والقي القبض على العامل الذي اعتبر مسؤولا رئيسيا ويبدو من رواية أحد قادة جيش البخاري كشاهد عيان أن أهل فاس فرضت عليهم غرامة حربية . كما فرض التجنيد الإجباري عليهم كسائر مدن المملكة بنسبة 500 نفر وعمل السلطان على إحداث تعديلات في مناصب الإدارة بفاس . بما في ذلك منصب العامل الذي اسند إلى الجيلالي بن حمو .

وكان لعدم تحديد المسؤوليات وتدخل بعض الأشراف ونزوات أصحاب المصالح دور رئيسي في خلق هذا المشكل . في الوقت الذي كان الاسبان يبتزون فيه نصف موارد المراسي . ثم إن إلغاء المكس بفاس كان لا محالة سيؤدي إلى إلغائه بسائر المغرب . ومع ما كان فيه من تعدد أداءات وفي استخلاصه من جور فقد كان موردا مهما للدولة[2] .

حركات مولاي الحسن

اشتهر مولاي الحسن بأنه طيلة ملكه عاش على صهوة فرسه، وهذا يفسر جيدا . الأحوال التي أصبحت عليها البلاد بعد حرب تطوان فإن أحوال البلاد من الوجهة الاقتصادية والمالية وضعف المؤسسات والإطارات عن تحقيق إصلاح جذري وعادل ساعد على انتشار الاضطرابات المحلية وبالتالي أدّى إلى تحرك السلطان بنفسه للقيام بإخماد الفتن واستخلاص الجباية وفض النزاعات وهكذا أطلق المغاربة على هذه الحملات اسم الحركات (بجزم الراء) . وكان هدف معظمها الأطلس والمغرب الشرقي وسوس ثم تافيلالت وغمارة والحوز :

1 – الأطلس المتوسط

كان مولاي الحسن قبل التحاقه بفاس قد قضى عيد الفطر بالرباط حيث استقبل وفدا عن زمور . ثم انتقل باتجاه مكناس . وفي دار ابن العامري قضى على ثورة جماعة من بني حسن الذين قاموا ضد عاملهم ونهبوا داره . وخلال مقامه بمكناس سنة 1290 / 1873 هاجم بني مطير ومجاط وبني مكيلد وآيت يوسي وكلهم من بربر الأطلس المتوسط ومركزهم الحاجب . واتهموا بالتضييق بأهل مكناس وفاس . وهكذا هوجموا في عقر دارهم وغرموا تعويضات الحملة وأسر زعماؤهم . وأكد الضابط الحاج سالم العبدي أن المجاعة كانت سبب هجوم هذه القبائل على مكناس واستيلائهم على مخزونها من الأقوات .

وفي 1293 / 1876 توجهت حملة جديدة من الرباط بقيادة العاهل إلى زمور . غير أن أهلها قابلوه متضرعين . فاكتفى بأن جند عددا منهم وضرب على

---

(2) يراجع عن اضطرابات فاس : الاستقصا، 9، 128. الوثائق ج 3.

.Arnaud, Au temps des mehalla, pp.29 - 38

لآخرين الاتاوة وفي سنة 1294 قابل أهل زمور السلطان مظهرين خضوعهم «وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به». كما قال الناصري. وهذا معناه أنهم أدوا كل ما عليهم من التزامات جبائية بل أكثر. وإثر ذلك وقع الاضطراب في قيمة السكة فتضررت من ذلك فآت الشعب الفقيرة ثم التجار أيضا: كما أن سنة 1295 / 1878 كانت عام مجاعة وانتشر خلالها داء الكوليرا. وكانت سنة 1296 / 1879 قليلة الإنتاج في مجال الحبوب. غير أن حملة جديدة جردت ضد الأطلس وشملت آيت عتاب وبني موسى وبني مطير. وهؤلاء كانوا قد هاجموا من قبل عرب دخيسة وأولاد نصير وهم في قلة. وكان مولاي الحسن قد أذن لهم بالمقام بجوارهم فأجلاهم بنو مطير وقام الجيش عندئذ بهجوم شديد على بني مطير حيث كانت الحركة الدرقاوية وحتى التيجانية ثم الكتانية تعمل على بث الوعي السياسي. وقد كلف تدخل الجيش بني مطير غاليا في هذه المدة فقد انتهب مخزونهم من المواد الغذائية وأدوا مائة وخمسين ألف ريال غرامة بالإضافة إلى الحقوق الجبائية وإقامة محطات للقوافل يتولون حراستها والسهر عليها. وجردت حملة أخرى سنة 1297 / 1880 ضد آيت يوسي وأعدم عدد منهم.

واستقرت الأوضاع نسبيا بالأطلس إثر ذلك إلى سنة 1305 / 1888. وفي هذه المدة كان على العاهل أن يستخلص الأموال المستحقة على آيت وامالو الذين ينتمون إلى صباجة. وهم أنفسهم يكونون عدة قبائل كزيان وآيت شخمان وآيت يسري وبني مكيلد وشقيرين. وفي قصبة آدخسان استقبل السلطان وفود آيت وامالو وأدت كلها التزاماتها وهداياها. بينما نصبت آيت سخمان كمينا للفرقة التي كان عليها أن تستخلص جباية هذه القبيلة. وقتل قائد الفرقة الأمير سرور بن مولاي سليمان وعدد من الجنود. فقام الجيش بالقبض على الجناة وفتك بالقبيلة ومناصريها من آيت يسري. وكان تدبير المؤامرة ضد الجيش من بقايا أسرة آل مهاوش الدرقاويين.

2 – الأطلس الكبير

لاحظ طيراس أن هذه الجهة الشاسعة من المغرب قد أصبح معظمها يخضع لحكم جيل جديد من كبار القواد. وفي الوقت الذي كان بعضهم يعمل على توسيع سلطته كانوا كلهم تقريبا يعترفون بسلطة المخزن كمتوكة وكلاوة. غير أن كندافة

أعلنت في تينمل تمردها ضد سلطة عامل حوز مراكش ابن مالك . ولكن رئيسها ظل على ولاء لشخص العاهل نفسه . ولما كانت حركة السلطان سنة 1304 / 1886 إلى سوس أعلن القائد الكندافي محمد بن الحسن خضوعه المطلق . وقدم للعاهل أموالا وهدايا عظيمة . وقد استؤنفت اضطرابات الأطلس بعد وفاة مولاي الحسن[3] .

3 – المغرب الشرقي

في سنة 1292 / 1874 عادت أحداث المغرب الشرقي لتبرز على الميدان بعد ربع قرن أو يزيد من استقرار الأحوال على هذه التخوم ذات الحساسية السياسية . وفي هذه المرة تزعم الثورة بوعزة الهبري . نسبة إلى هبرة من عرب بني مالك الهلاليين بسيرات بنواحي مستغانم الجزائرية . وكانت ثورته بنواحي وجدة . وزعم أنه من تلاميذ التيجاني . ولكن لا علاقة للحركة التيجانية المركزية بثورته . وساعده الشيخ مولاي سعيد بن أحمد أحد صلحاء سغروشن التي كان أغلبها ينتمي لدرقاوة . ونسب إلى الهبري أنه كان يتعاطى بعض أعمال السحر ويخط في الرمل وشايعه لا بعض الأوباش كما يقول الناصري بل بنو وراين وقسم من الحياينة وبني سادن بالإضافة إلى سغروشن . وعاث أنصاره بمختلف الجهات المجاورة لتازا . وقد أسندت قيادة الجيش الملكي إلى القائد الحاج منو . وبدأت مطاردته في صيف السنة المذكورة وانتقل السلطان بنفسه إلى تازا لمراقبة العمليات إلى أن تم القبض على الثائر بقبيلة كلال (بضم الأول) ثم سيق إلى سجن فاس ثم إلى مراكش حيث توفي سجينا . وأما نصيره مولاي سعيد فقد قتل بمنزله غيلة . أما القبائل التي ناصرت ثورة بوعزة الهبري فقد ألزمت بأداء مغارم باهظة .

وهاجم الجيش سنة 1293 / 1875 – 1876 منطقة بني يزناسن حيث يبدو أن تحركات هؤلاء كانت تنشيطاً لاضطرابات المغرب الشرقي السالف ذكرها . والقاسم المشترك بين الحركتين هو سوء الأوضاع الاقتصادية بمناطق امتدادها . وهكذا تم القبض على قائد بني يزناسن محمد بن البشير بن مسعود وولد رمضان الوجدي أمين وجدة . وكان لهما نفوذ كبير بالنواحي الشرقية ولا يوجهان من الجباية إلا ما

---

(3) استقصا 9، 133 و135 و168 و199 — 201. مشرفي، حلل، ص 251 و256.
Arnaud, Au temps des mehalla, pp.24 - 28, 59.65 - 68. Terrasse, Histoire, 2, 336

يدان توجيهه مع ضعف المراقبة . وكانت هذه المنطقة تعمل كما قال المشرفي بقاعدة اللف والميعاد . واللف أن تؤازر إحدَى القبائل أو أكثر . قبيلة أخرى تستعد للدفاع أو الهجوم على قبيلة معادية تلجأ بدورها لطريقة اللف . وشبه المشرفي ذلك بالأحلاف الدولية (!) . والميعاد ان يختار رئيس القوم عدداً من الأعيان ينضمون إليه ويجتمعون معه للنظر في الشؤون الجماعية مادية وجنائية وغيرها . ويتولى هذا المجلس بصفة مباشرة تنظيم استخلاص الذعائر من الجناة وتقديرها حسبما يناسب حال كل واحد . وقد عفا العاهل عن المسؤولين المذكورين ظاهرياً ووضعهما مؤقتاً تحت الإقامة الجبرية . وكان ابن البشير قد قاوم الجيش الملكي الذي صحب قائد وجدة الجديد ابن الشليح . وأدَّى ذلك إلى انهزام أنصار ابن البشير والقبض عليه . وكان عرب أنجاد يحبذون ولاية ابن الشليح الذي كان عاملا من قبل على تازا وكان يحظَى بسمعة طيبة . ولزم للقبض على ابن البشير اتخاذ الحيطة والاحتيال لذلك . فقد أظهر العاهل أنه يُقرّه عاملا على بني يزناسن . واحتفل لذلك بشكل مهيب . ثم دعي للمبيت عند إحدَى شخصيات الحاشية الملكية . وهناك تم القبض عليه قبل أن يلتحق السلطان بوجدة . حيث وفد عليه الجنرال أصمن باسم حكام الجزائر . في زيارة لباقة يشكره على «ردعه للعتاة» بالمنطقة وهذا يعني أن بني يزناسن كانوا يضايقون الاستعمار في عقر داره . وأعجب العاهل المغربي بما رأى من انضباط ضباط الوفد العسكري الفرنسي وترتيبات ملاقاته للسلطان . فعرض على الجنرال استقدام مدربين من الجيش الفرنسي لتدريب الجند المغربي . وأعرب الضباط والمسؤولون الحكوميون بعد ذلك للعاهل عن قلقهم من هذه المساعدة . وحاول السلطان أن يراجع موقفه ولكن جيش الاحتلال واصل اهتمامه بالرغبة الملكية فلم ير من اللباقة إلغاء ما سعَى هو إليه .

وكان الجيش قبل قمع اضطرابات بني يزناسن قد قام بالهجوم على منطقة غياثة التي عبرت عن عجزها عن تموين الجيش حسبما وظف عليها أثناء حلوله بها . وعندئذ اقتحم الجيش يتقدمه الملك أوعار غياثة فلما توسط خندق «الشقة» وهو ممر ضيق بين جبلين خرجت الكمائن تهاجم الجيش بالرصاص بعد أن سدت المنافذ وتركوا الطريق إلى مهواة لا مخرج لها فارتطمت بها خيل الجيش ووقع الفتك بكثيرين منه . وتخلص العاهل بصعوبة . ولكن الجيش عاد لمهاجمة مداشر غياثة

بعد أيام قليلة وفتك بالسكان وخرب ديارهم ومزارعهم . قبل أن يواصل زحفه باتجاه بني يزناسن كما سلف[4] .

4 - السهـــول

خلال الأسابيع الأخيرة من 1292 / 1875 توجه الجيش بقيادة العاهل إلى حوز مراكش فأرغم الرحامنة على أداء مغارم باهظة وكانوا متهمين بالتمرد على السلطة . كما جند منهم فريق معين . وقبض على 280 من رؤساء أولاد أبي السباع ووجهت إليهم أيضا تهمة التمرد على المسؤولين المحليين . ثم غرموا ستين ألف ريال اضطروا من أجلها إلى بيع مواشيهم بثمن بخس كما جند منهم عدد بخيلهم وسلاحهم . وفي السنة التالية قام العاهل بحركة مماثلة في منطقة الزيايدة بتامسنا . ثم في سنة 1294 / 1877 غزا عرب السهول بضواحي سلا[5] .

5 - غـمــارة

في سنة 1306 / 1888 قاد مولاي الحسن حملة ضد غمارة . وبعد إخضاعها زار ضريح الولي عبد السلام بن مشيش . ثم زار كلا من تطوان وطنجة والعرائش وهي كلها مناطق يتركز بها نفوذ الزوايا بشكل خاص[6] .

6 - تافيــلالــت

في سنة 1310 / 1893 خرج الجيش بقيادة مولاي الحسن من فاس باتجاه تافيلالت لاستخلاص الجبايات المتخلفة وليتعرف العاهل في عين المكان على الأوضاع بالمنطقة التي يبدو من التقرير الموجه باسم العاهل إلى الولاة . أن بعض قبائلها كآيت أزدك وآيت مرغاد . وبالأخص آيت حديدو قد بعد عهدها باستيفاء التزاماتها الضرائبية والعسكرية (المساهمة في الجيش) . وهكذا ألقي القبض على علي ابن يحيى زعيم آيت مرغاد. كما ألقي القبض على حوالي مائتين من آيت حديدو حتى تؤدي القبيلة أعشارها وزكواتها. وفي جمادى الأولى 1311 / 1893 توجهت

---

(4) استقصا، 9، 142 — 143، 158. مشرفي حلل، ص 237 — 240. و251 — 255.
Arnaud, pp.36, 52.

(5) استقصا، 9، 148، 152، 162.

(6) ن. م. ص 201.

الحملة نحو مراكش من طريق تدغة ووارزازات ثم مناطق كلاوة[7] .

7 - ســوس

قاد مولاي الحسن حملتين . الأولى في 1299 / 1882 والثانية في 1303 / 1886 . وكلتاهما كانت مراكش منطلقاً لها ومعاداً . والمرور في الأولى من طريق شيشاوة -- أكادير وفي الثانية من طريق آسفي -- الصويرة .

وكان المغرب يشهد اتجاها في الأحداث بالساحل السوسي والصحراء الغربية يثير قلق المخزن وسكان المنطقة . فقد نصت معاهدة الصلح بين المغرب وإسبانيا في 4 شوال 1276 / 26 أبريل 1860 على أن جلالة ملك المغرب يلتزم بأن يسلم للملكة إسبانيا بصفة دائمة . أرضا على ساحل الأطلسي قريبا من سانطاكروز الصغرى . وتكون كافية لإنشاء مؤسسة للصيد كالتي كانت من قبل . ومن أجل إتمام تطبيق هذا الشرط يتفق الملكان على تعيين لجنة عن كل من الطرفين لتعيين الأرض وتخطيط حدودها والتي ستقام عليها المؤسسة .

وكان الاسبان قد أقاموا قبل معاهدة تطوان بوقت طويل برجاً أو ما يشبه البرج عند مدخل مضيق صغير حول منطقة خنيفيس بين طرفاية وطان طان[8] . والمنطقة تدعى في الواقع «أكويدرخنيفيس» وأكويدر تصغير أكادير . ولما كان البرج قد بقيت أطلاله التي كان الماء يخفيها عند المد . فإن أحدا لم يستطع تحديد البرج الإسباني القديم . وفي محاولة لصرف الاسبان عن الاستفادة من تنازلات ترابية جديدة . عرض المغرب مبلغ ثلاثة ملايين ريال على إسبانيا سنة 1862 مقابل عدم تنفيذ الشرط الثامن المشار إليه . ثم عرض عليها إقامة مركز الصيد برأس كبدانة فرفضت العرض . وتشبث الاسبان مدة بأن أكويدر المذكور هو أكادير وأن المركز الجديد يجب أن يقام حولها . وأثناء ذلك تكونت لجنة مختلطة أبحرت من الصويرة سنة 1877 وبحثت دون جدوى عن المركز القديم . فيما بين أكادير ورأس أخفنير . وفي 1878 أبحرت لجنة ثانية من الصويرة فعثرت على آثار حصن قديم بإيفني . فقرر الوفد الاسباني أن هذا هو المركز المقصود . وعلى مشهد من الوفد الرسمي

---

(7) استقصا، 9، 202. *Terrasse, Op.Cit, p.* 336.

(8) حسب تقرير أمريكي عربه د. التازي (بحث علمي 1980) كان يوجد حصن بناه الاسبان في القرن 15 م ثم هجروه بعد اكتشاف امريكا. وموقعه بين اساكا وآيت بناران بسوس.

المغربي . انتزع الممثلون الاسبان صك اعتراف من أحد رؤساء القبائل المحلية بأن هذا المركز كان إسبانيا من قبل . لكن مولاي الحسن لم يقبل هذا الاتفاق المحلي إلا سنة 1301 / 1883 .

وأثناء الاتصالات الإسبانية المغربية كان العاهل يتلقى بالحاح عروضا بإعادة فتح ميناء أكادير وتجهيزه من الدولة البريطانية . وفي 1299 / 1881 بدأ تنشيط الحركة التجارية بميناء أكادير كما قبل المغرب عرضا من بريطانيا أيضا بفتح ميناء جديد على وادي أساكا . وكان بعض الخواص من البريطانيين قد تولوا إنشاء مركز تجاري على ساحل طرفاية دون ترخيص من الدولة . ولذلك كان إنشاء ميناء أساكا لصالح التجارة المغربية ومراقبة النشاط الأجنبي بالمنطقة[9] . وكانت إسبانيا قد بدأت تهتم أكثر فأكثر بمنطقة الصحراء الغربية . خصوصا منذ 1882 حيث تكونت جمعية الصيد الكنارية الافريقية ثم الجمعية الاسبانية للجغرافيا التجارية سنة 1302 /1884 . وتحت ستار هذه الجمعية احتل الاسبان على الفور الشاطئ الممتد من رأس يوخادور إلى الرأس الأبيض واتخذت من منطقة الداخلة مركزا لها وسمتها بوادي الذهب . ثم بدأ توغل الاسبان تجاريا تباعا في تيريس الغربية حيث اتصلوا بالشيخ سعدبوه أخي ماء العينين[10] .

وعندما انطلقت الحملة الأولى إلى سوس توقفت بأكادير ثم تابعت طريقها إلى تارودانت في يونيو 1882 . وكانت آثار القحط بادية بعد سنتين من انحباس المطر . وقام العاهل بجلب الحبوب إلى منطقة آيت باعمران والجهات المتضررة . واستشار شريف تازروالت محمد وهاشم الذي هو من سلالة أبي حسون المعروف ببودميعة . وذلك في اختيار مكان الميناء المزمع إنشاؤه والذي كان عليه أن يعمل على مضايقة الاسبان أنفسهم ويخول التجارة المحلية كلها إلى الدولة فيما يرجع للطريق البحري . وفي هذه الفترة (صيف 1882) أنشئت قصبة آيت باعمران كما أعطيت التعليمات لبناء قصبة تزنيت وكانت من قبل مدشرا كبيرا . وقد لعبت هذه القصبة دورا كبيرا في مراقبة شيخ تازروالت وأنصاره . وكان له نفوذ بالغ بسوس[11] .

---

(9) *Arnaud, Au temps des mehalla, p.62. Coufourier, Chronique de la vie de Moulay El-Hassan. in Archives Maroc. 8/1906.*

(10) *Paul Marty, Le Sahara espagnol, in Revue du monde musulman, T. 46*

(11) *Arnaud, Op.Cit, pp.62 - 64*

ووجه منشور باسم العاهل إلى الولاة يتضمن تفاصيل عن هذه الحملة ويشير إلى أن منطقة سوس قد أذعنت لأداء حقوق الجباية تلقائيا بعد أن توقفت عنها مدة كما يشير إلى ما قام به العاهل من تعيينات جديدة أو إقرارات في سلك الولاة والقضاة بعموم المنطقة ونصب وال جديد بتزنيت يمتد نفوذه إلى أكلميم[12].

وقام العاهل بحملة أخرى إلى سوس وهي الحملة الثانية سنة 1303 / 1886 وفي هذه المرة كانت عمليات بناء ميناء أساكا قد تمت. كما قام العاهل بتوزيع حاميات من جيش المحلة الذي بلغ أربعين ألفا. على مختلف المراكز الحساسة بإقليم سوس ؛ وفي منطقة اكلميم استقبل وفود شنقيط (موريطانيا) كما بلغت سراياه منطقة الساقية الحمراء[13].

وكان من أهداف هذه الحملة ردع حركة بني معقل بسوس والإشراف على سير الأحوال الأمنية والاقتصادية بالمنطقة مع تدمير مركزين تجاريين أنشأهما بريطانيون بكل من أركسيس وطرفاية. وكان دونالد ماكنزي *Donald Mackenzie* المهندس الإنجليزي قد زار ساحل طرفاية منذ 1289 / 1872 وأنشأ إثر ذلك شركة تجارية سنة 1295 / 1878 ، وحسب تقرير أمريكي[14] فقد كان المركز الذي أقيم بطرفاية مجرد توطئة لعملية أوسع وهي إنشاء مستعمرة إنجليزية مصنعة لفرض المنتجات البريطانية بالمنطقة وغزوها بشكل كاسح للأقطار القريبة ؛ وأنشئ المركز المذكور بطرفاية سنة 1880 كما أنشئ آخر باركسيس[15]. وذلك بالاتفاق مع بعض شيوخ وادي نون وطرفاية بما فيهم الشيخ الحسين بن هاشم الذي أنشأ عددا كبيرا من المتاجر لصالح اليهود المغاربة المتوافدين على الأسواق[16]. ولاشك أن تدفق اليهود لم يكن بالصدفة. بل هو عملية مدبرة مع البريطانيين الذين تنادى زعماؤهم للدفاع عن اليهود ومصالحهم في العالم.

وما كاد العاهل يحل بأكلميم حتّى أعطى أوامره بتحطيم المنشآت البريطانية.

---

(12) استقصا، 9، 175.

(13) م. س. ص 181. محمد الامام، الجاش الربيط، ص 20.

(14) *Felix Matheus*. تقرير عن ساحل افريقيا العربي، عربه د. التازي. بحث علمي 1400/1980.

(15) م. س. *Arnaud, Op.Cit, p.65*

(16) مجلة البحث العلمي (تقرير سابق).

وتوجهت لذلك فرقتان إحداهما باتجاه وادي نون حيث حطمت منشآت أركيس .
وثانية إلى طرفاية . وأحدث هذا العمل هيجانا لدى المسؤولين البريطانيين وطالبوا
بتعويض ضخم وطالت المفاوضات بهذا الشأن حتى سنة 1313 / 1895 حيث
أدى المغرب تعويضاً للطرف «المتضرر» مبلغه خمسون ألف جنيه ونصبت حامية
وولاة مخزنيون بالمنطقة[17] . أما مستخدمو الشركة فقد غادروا المكان بطريق البحر
من تلقاء أنفسهم بمجرد أن وصلت القوة المغربية لتحطيم منشآتهم ؛ ولاتزال آثار
بعضها على ساحل طرفاية .

وخيب الإجراء الحسني آمال بعض الشيوخ في الاعتماد على النفوذ البريطاني
الذي زحزح نهائيا عن المنطقة . كما أن الشريف بن هاشم زعيم تازروالت وسائر
القبائل التي كانت تشعر بمناعتها تجاه المخزن قدمت ولاءها للدولة . ولا يوجد شك
في أن التوفيق صادف هذه الحملة أكثر من سابقتها . فإن قبائل المنطقة ساهمت
بمقادير كبيرة في تموين الجيش من غير أن يحصل منها رد فعل ضد الجيش ؛ وقد
تبقت مجموعة كبيرة من الوثائق المتعلقة بحملة سوس وما يخص مساهمات القبائل وما
يتعلق بالأوضاع الاقتصادية والسياسية ؛ ونشر جملة من هذه الوثائق أرسين
روكس[18] .

وقد حدثت تطورات كبيرة فيما بين الحملتين الأولى والثانية . في 1298 /
1880 أي قبل الحملة الأولى بقليل أبرمت اتفاقية مدريد التي بموجبها دخلت
القضية المغربية في طور التدويل . وفي السنة التالية أبرمت معاهدة الحماية الفرنسية
بتونس . وفي سنة 1300 / 1884 قدم الشيخ ماء العينين على مولاي الحسن لتقديم
بيعته . كما تابعت إسبانيا انزال جيوشها بالصحراء الغربية فيما بين بوجدور والداخلة
أي بعيدا عن مراكز الامدادات المغربية بينما تتوفر إسبانيا على أسطول قوي وضخم
غير أن السلطة المغربية اخضعت باقي المناطق سنة 1886 لحماية الجيش الوطني
واتخذت من أكلميم مركزا رئيسيا للجيش . وفي 1308 / 1890 أبرمت فرنسا
وبريطانيا اتفاقا تبسط الأولى بموجبه نفوذها على الصحراء والمقصود هنا شنقيط

---

(17) *Arnaud, pp.65 - 66 R. Montagne, les Berberes et le makhzen, p.112*

(18) *Arsène Roux, Quelques documents manuscrits sur la campagne de Moulay Hassan, in Hespéris, 1er trim. 1936.*

وتندوف . أما ايفني فإن المقاومة الباسلة التي أبداها السكان المحليون عاقت الأسبان عن الاستقرار بها ، واستمرت المقاومة حتّى 1934 وفيها تم استيلاؤهم على إيفني .

وكان الشيخ محمد بن بيروك الذي عين عاملا بالصحراء الغربية في عهد محمد الرابع هو الذي تولى عقد صفقة شركة ماكينزي . وإذا كانت الدولة قد تولت تدمير منشآت هذه الشركة . فإن مقاومة السكان أنفسهم للمنشآت الإسبانية بمنطقة الداخلة بدأت منذ استقرار الاسبان بها وساهم فيها أولاد الدليم والعروسيون وسائر قبائل المنطقة . وكان للشيخ ماء العينين دور كبير في إدارة عمليات المقاومة ضد الاحتلال الإسباني والفرنسي معا كما ستوضحه هذه الدراسة[19] .

8 – توات والصحراء الشرقية

ارتبط الوضع السياسي للصحراء الغربية في أغلب فترات التاريخ بوضع سوس . وبالأخص بمنطقة وادي نول . أما توات والصحراء الشرقية فشملها الحكم المغربي المركزي من قديم ، وكلما حدث تضعضع في هذا الحكم ارتبط أمر هذه المناطق بالتدبير الجماعي وحكم الشيوخ ونفوذ الصلحاء والأشراف . وقد انضمت توات مبكراً إلى النظام العلوي ابتداء من مولاي محمد الشريف الذي عين عليها عاملا جديدا تمكن من القضاء على ثورة منافس اسمه عبد الله الصوفي . كما أن العاهل أقام بتوات بضعة أشهر وجبى زكواتها وضبط سعر الذهب بها .

وفي عهد مولاي رشيد أعيد تقدير الجباية بالأحمال بمعدل مثقال لكل حملين . ولما تضايق السكان من هذا التقدير حدد لكل خمسة أحمال مثقالا واحدا[20] .

واستقر بتوات وكورارا عدد كبير من اليهود من عهد قديم ودخل بعضهم في الإسلام . واستمرت توات تستقبل الولاة الذين يعينهم السلطان ، غير أن جلهم

---

(19) انظر عن قضايا الصحراء المغربية فضلا عما سبق : حركات، دراسة عن نضال المغرب الدبلوماسي، دعوة الحق الرباط. دكتور عبد الهادي التازي، الثغور المغربية، بحث علمي، ع 1977/1397/27.
Geronimo Dequer, Historia del Marruecos, Madrid, 1915. De la Chapelle, Esquisse d'une histoire du Sahara occidental. in Hespéris, 1930. Rouard De Card, Les relations de l'Espagne et du Maroc pendant le 18e et le 19e siècles, Paris, 1905. Figueras Tomas Garda, Santa Cruz De Mar Pequena, Madrid, 1941.
وهناك مجموعة وثائق خاصة بشأن مركز الصيد الاسباني ونزاع المغرب واسبانيا بشأنه.

(20) بنعبد الله، موسوعة، (معلمة الصحراء)، 1، ص 81.

أساء التصرف في الميدان الجبائي أيام مولاي اسماعيل ، وكان ذلك يؤدي في الغالب إلى تمرد السكان ضدهم والمطالبة بعزلهم ، وكان هذا يؤدي إلى مصادرة أموالهم وإلى اعتقالهم في الغالب . وكان لتعذر المواصلات وبعد المسافة عن العاصمة أثر في استبداد الولاة وسوء تدبيرهم بالرغم من لجن المراقبة التي كانت تعين بين الفينة والأخرى . كما أن توات كانت تتبع تارة خليفة السلطان بسجلماسة وتارة ترتبط بالمخزن المركزي مباشرة ، وممن باشروا شؤون توات من الأمراء مولاي هرون ومولاي حمادي أخوا مولاي إسماعيل . كما أن المنطقة كانت ملجأ سياسيا للأمراء المتهمين بالتمرد. وأحيانا كانت الصحراء الجنوبية والشرقية معاً تضم إلى سلطة خليفيَّة واحدة. فالأمير المامون بن إسماعيل بسط سلطته باسم مولاي إسماعيل من درعة إلى كورارة . وهي منطقة تشمل عشرات الألوف من الكيلومترات المربعة . بل إن الأمير عبد الملك استطاع بعد وفاة والده مولاي اسماعيل سنة 1140 / 1227 أن يحصل على بيعة توات وهو مقيم بتارودانت كخليفة ، ولكن مالبثت توات أن تحولت إلى مولاي عبد الله بعد أن أمسك بزمام الحكم واستقبل وفد توات بفاس وعين على المنطقة عاملا جديدا هو باحو وعلي . غير أن السلطة على توات تحولت لأمير آخر من الأسرة العلوية منذ 1157 / 1744 وهو العباس بن إسماعيل الذي طرد العامل الجيلالي الصفار واستقر بسموتة بدل تيميمون التي هي مقر الإقليم سابقاً ، وبقي مولاي العباس مقيما بالمنطقة نفسها ومعترفا به هناك ملكا عليها دون أن تنفع حملة مولاي عبد الله لإخضاع الأمير وأنصاره ، ولم ينته استقلال مولاي العباس بتوات إلا بتنصيب السلطان سيدي محمد ونقل مولاي العباس كخليفة بمراكش ، وتعيين عامل جديد هو الباشا الطاهر سنة 1171 / 1757 . غير أن قبيلة مكيدة العربية أخذت تهاجم بعض القصور بالمنطقة سنة 1186 / 1772 . كما هزمت الجيش الذي وجه لردعها ، ولكنه تمكن في النهايه من سحق ثورتها .

وقام مولاي سليمان من جهته بالعناية بشؤون توات ، وخصوصا بأشرافها وكان العلويون وحدهم يناهزون بها تسعة آلاف نسمة فضلا عن غيرهم . ووقعت تطورات مهمة في نظام حكم توات كما تم تفصيل ذلك في الحديث عن الوضع بمناطق الصحراء أيام مولاي سليمان . وخلاصته أن مولاي سليمان منح منذ 1215 / 1800 حكما ذاتيا لتوات واكتفى بلجنة من الأمناء تتوجه إليها دوريا لاستخلاص

جباية والبت في القضايا الشائكة . وأعيدت السلطة المغربية على كورارا سنة 1223 / 1808 بعد أن اضطربت الأوضاع بها مدة على إثر وفاة محمد الثالث .

وتوبع العمل بنظام الحكم الذاتي في أيام مولاي عبد الرحمن كما استمر المخزن يوجه أمناءه لقبض الجبايات دون أن يكون هناك تحرك عسكري من الأتراك ضد توات ؛ وكان الطوارق من جهتهم يتسلطون على الواحات ويلزمونها في هذه المرحلة بأداء أتاوات .

ومنذ 1271 / 1854 بدأ الفرنسيون يطلقون جواسيسهم على المنطقة ؛ وكثير منهم يتعرض للفتك به إذا افتضح أمره . ثم أتاحت هزيمة المغرب في تطوان انشغال المغرب بنتائجها المالية والاقتصادية . وبدأ السكان بتوات يعيشون تحت رحمة الطوارق والتهديد الفرنسي . فعلى مرأى من شيوخ المنطقة الذين يمثلون أيضا السلطة الرسمية المغربية . بدأ الفرنسيون يتحركون مسلحين وفي وضح النهار . تارة يرسمون الخرائط وطورا يلتقطون المعلومات تحت ستار الكشوف العلمية ؛ واحتج السلطان سنة 1866 ضد تحركات حاكم وهران بمنطقة توات . غير أن الخطر الفرنسي أصبح أكثر وضوحاً في عهد مولاي الحسن الذي كان يجابه الخطر الأجنبي والوجود الاستعماري بالشمال والصحراء الغربية . ومنذ سنة 1302 / 1884 أخذ المخزن يبدي امتعاضه من اتصالات بعض الأعيان بضباط الاحتلال وينبه السكان إلى أن توات جزء من المغرب .

وفي 1304 / 1886 قتل ضابط فرنسي اسمه بالا وكان يقوم بربط اتصالات داخل توات ثم عمد الفرنسيون إلى بناء برج بالكليعة . واستقبل العاهل في نفس السنة وفدا كبيرا عن توات ثم وجه وفودا مخزنية للاطلاع على أحوال المنطقة . وفي 1308 / 1890 أبرمت انجلترا معاهدة مع فرنسا ضمنها النص على إطلاق يد فرنسا في الصحراء وتعقب المغاربة لأنهم يقتلون جواسيس وضباط الاحتلال الذين يتغلغلون في توات . وفي السنة التالية وضعت إدارة توات والساورة تحت إشراف حميد بن لحسن الديلمي ؛ وأثناء ذلك كان العاهل يوالي تعليماته ونصائحه إلى القبائل بالتزام الهدوء وتجنب الصدام مع الجيران . وبعث في نفس الوقت بقوة عسكرية إلى المنطقة ؛ وفي الواقع بدأت الخيانات تبرز في صفوف أولاد الشيخ وأولاد حمزة لصالح المظلة الفرنسية . وهكذا تحدت فرنسا معظم السكان والسلطة الرسمية العريقة

وواصلت بناء الحصون . وفي سنة 1309 / 1892 أعادت الدولة المغربية بسط سلطتها المباشرة على توات بتعيين ولاة جدد . وفي 1310 / 1893 قاد العاهل قوة من الجيش قوامها 15 ألفاً باتجاه تافيلالت . وهناك استقبل جماعة من ممثلي سكان توات الذين عبروا عن ولائهم للسلطان واشتكوا من اعتداءات ومضايقات الفرنسيين . وكان على السلطان أن يعود على الفور إلى مراكش ليستقبل الماريشال مارتينز كامبوس *Martinez Campos* مبعوث الحكومة الإسبانية ليفاوضه بشأن أحداث مليلية . وتوفي العاهل بعد قليل من مكثه بمراكش[21] .

التحركات الدبلوماسية والتغلغل الأوروبي

اهتم مولاي الحسن منذ السنوات الأولى من ملكه بإجراء اتصالات دبلوماسية في مستوى عال ؛ وكانت فرنسا بحكم دورها في الجزائر وامتداد نفوذها الدبلوماسي والاقتصادي داخل المغرب في مقدمة الدول التي عمل مولاي الحسن على توجيه مبعوثين دبلوماسيين وحكوميين إليها . ففي 1293 / 1876 أبحر الحاج محمد الزبدي الذي سبق أن عمل في خدمة محمد الرابع وسلفه مولاي عبد الرحمن . إلى مرسيليا يرافقه كل من الأمين بناصر بن أحمد غنام والكاتب الفقيه إدريس بن محمد الجعيدي وموظفون آخرون وعدد من الخدم بالإضافة إلى ترجمان المفوضية الفرنسية بطنجة مونجْ وآخرين من نفس المفوضية . وفي يونيو من 1876 قدم أوراق اعتماده إلى الماريشال ماكماهون رئيس الجمهورية كما اتصل بوزير الخارجية دوكاز *Decazes* بشأن إعفاء الأشراف المغاربة بالجزائر من الضرائب . ودعوة فرنسا إلى التخفيف من بسط الحماية القنصلية على الرعايا المغاربة ؛ وحصل السفير على ترضية بشأن المطلب الأول . ووعده الوزير بأن الدولة الفرنسية تساند المغرب في كل إجراء يتخذ بشأن الحماية القنصلية على نطاق دولي . وكان هذا تملصا من مسؤولية فرنسا الفردية بشأن الحماية القنصلية في انتظار أن تتقوَى هذه الحماية بإجراء دولي لا مفر للمغرب منه . ووضع الفقيه الجعيدي رحلة عن هذه السفارة باسم «تحفة الأحبار بغرائب الأخبار»[22] .

---

(21) بنمنصور، تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات. بنبعد الله م. س. أحمد بناني توات الشهيدة. مجلة البينة ع 1382/5 *Allal El. Fassi, Livre rouge. P. Vuillot, L'exploration du Sahara, Paris, 1895,*
Bernard (Augustin), La pénétration saharienne, Alger, 1906.

(22) استقصا، 9، 151 *J. Caillé. Ambassades et missions marocaines en France in Hespéris, 1960*

وفي 1298 / 1879 – 1880 توجهت بعثة بقيادة الفقيه علي المسفيوي من كبار الفقهاء والأمناء السابقين وتولى الوفد تهنئة رئيس الجمهورية الجديد جول جريفي Jules Grévy بانتخابه ثم عرض على أعضاء الحكومة مطلب المغرب بتدخل فرنسا لدى مدريد قصد سحب طلبها أو شرطها المتعلق بتنازل المغرب عن سانتا كروز دي ماربيكينيا التي لم تحدد قط رسميا. ولم يحصل المغرب إلا على مجاملات كلامية وعادت البعثة عن طريق مرسيليا على متن الفرغاطة كورون التي قدمت بها من المغرب[23].

وفي 1303 / 1885 توجه عبد المالك بن علي عامل وجدة برفقة الوزير الفرنسي المعتمد بالمغرب فيرو Féraud على متن باخرة حربية فرنسية مع اثني عشر موظفاً منهم باشا فاس وكاتب. بالإضافة إلى 12 طالبا كان عليهم أن يقضوا فترة تدريب بمدرسة الهندسة بمونتبيليي. وكانت للوفد مفاوضات مع وزير الخارجية فريسيني Freycinet بشأن النزاع حول حدود المغرب الشرقية وقضية الحماية القنصلية والتجنّس وذلك بعد مرور خمس سنوات على اتفاقية 1880. وادعى الطرف الفرنسي أنه يطبق بأمانة اتفاقية مدريد المذكورة. كما أن على المغرب أن يفرض سلطته بحدوده الشرقية[24].

وأخيراً عينت بعثة سنة 1307 / 1889 يقودها عامل الشاوية الحاج المعطي عبد الكريم المزامزي ورافقه أحمد الكردودي من كتاب البلاط. والحاج محمد بنيس وجماعة كبيرة من الموظفين الدينيين والمخزنيين وبعض تراجمة البعثة الفرنسية بطنجة. وعند استراحة الوفد بباريز استقبل السفير من لدن رئيس الجمهورية كارنو. كما استقبل من لدن وزير الخارجية سبولير. ودار الحديث مرة أخرى حول الحدود الشرقية لكن دون نتيجة[25].

وأنشأ المغرب علاقات أخذت تتوطد أكثر فأكثر مع ألمانيا منذ السبعينات من القرن 19م.

---

(23) Caillé, Op.Cit

(24) Ibid.

(25) Ibid.

وهكذا في 1294 / 1877 توصل المغرب بمشروع معاهدة من هذه البلاد يتضمن معاملات تجارية وسياسية . وعرض الطرف الألماني عن طريق المبعوث الخاص ويبير Webert بيع مدافع كروب وتدريب الجيش المغربي ؛ وتجدد العرض الألماني أكثر من مرة بعد ذلك بينما كانت ألمانيا تبدي مزيدا من الاهتمام بالمغرب سياسيا واقتصاديا . وفي 1308 / 1890 توصل الطرفان إلى معاهدة اقتصادية تسمح للألمان بتصدير الحبوب من المغرب . وكان على المغرب أن يجد حليفاً جديدا افتقده في فرنسا وانجلترا . وبالنسبة لألمانيا فإن وضع رجلها في المغرب عنصر ضغط على فرنسا وانجلترا من أجل الحصول على تنازلات في مستقبل قريب . وهكذا بدأت ألمانيا تنادي بالمحافظة على استقلال المغرب . مقابل فتح أبوابه للصناعة والتجارة الأوروبية ؛ لكن الأمور تطورت بعد وفاة مولاي الحسن[26] . ومن جهة أخرى فإن ألمانيا لم تكن قد اقحمت في معاهدة مدريد إذ كان دورها بالمغرب مايزال محدودا .

أما أنجلترا التي يربض جيشها بجبل طارق . فقد كانت على علم بكل أوضاع المغرب وتظهر أكثر ما يمكن من الود لسلاطينه . بل إن ممثلها بالمغرب دريموند هاي كان يزود البلاط المغربي بأسرار دقيقة عما يروج في قلب إسبانيا . وقد كان مولاي الحسن من أكثر ملوك المغرب رغبة في الاطلاع على ما يجري في المحيط الدولي ابتداء من جيران بلاده[27] . وكانت انجلترا ضمن البلدان الأوروبية الأولى التي وجه إليها العاهل سفيراً. وهكذا فإن السفارة التي ترأسها الحاج محمد الزبْدي سنة 1876م زارت كلا من فرنسا وأنجلترا وإيطاليا وبلجيكا . وكان البلاط المغربي يعرف جيدا ما يجريه مبعوثوه من اتصالات . بل إن كثيرا من هؤلاء المبعوثين كانوا يوسمون بمحاباة هذه الدولة أو تلك من دول أوروبا[28] .

وفي سنة 1305 / 1887 وجه مولاي الحسن سفارة إلى الفاتيكان لتهنئة البابا ليون الثالث عشر باليوبيل الكهنوتي لتوليته . وكانت السفارة بإيعاز من الراهب الاسباني الأب خوسي ليرتشوندي مستشار السفارة الإسبانية ، وعين على رأسها عبد

(26) *P. Guillen, L'Allemagne et le Maroc de 1870 - 1905, in Bul. d'hist. du Maroc, 1/1968. G. Ayyach, in Hespéris, 1968, pp.289 - 296.*

(27) محمد داود، تاريخ تطوان 6، 164.

(28) استقصا، 9، 151 *Arnaud, Au temps des mehalla, p.57. J. Caillé, Op.Cit.*

الصادق بن أحمد الريفي ورافقه الكاتب أحمد الكردودي والراهب المذكور . غير أن عبد الصادق الريفي أصيب بمرض فعوض بوزير الخارجية محمد العربي الطريس الذي انتهز الفرصة بروما وخاطب السفير الاسباني بها حول قضية الحماية القنصلية[29] .

والواقع أن العلاقات الإسبانية المغربية لم تكن على ما يرام بالرغم من المحاولات الدبلوماسية التي بذلها المغرب في هذا العهد من أجل تصحيح بعض الأوضاع التي عانَى منها المغرب ؛ فزيادة على الوجود الإسباني بالموانئ المغربية ، والتجاء الرعايا المغاربة إلى الحماية الاسبانية وغيرها من الحمايات الأجنبية كانت هناك مشكلة سبتة ومليلية بالإضافة إلى التغلغل الاسباني جنوب الصحراء الغربية . في شوال 1292 / نونبر 1875 خاطب ممثل إسبانيا وزير الخارجية المغربي محمد باركاش بضرورة عزل عامل أنجرة أحمد بن حقو لأنه كان يمنع دخول التموين إلى سبتة ، وذكره بالفصل 45 من المعاهدة التجارية التي تنص على حرية التبادل التجاري بين المغاربة والاسبان[30] . ومع ما في تهديد الممثل الإسباني وتدخله في الشؤون الخاصة بالمخزن فإن العاهل قد حافظ على حسن الجوار والعلاقات الدبلوماسية . ووجه القائد محمد عبد السلام السوسي عامل الرباط سفيرا إلى مدريد يرافقه كل من عبد الكريم بريشة التطواني ومحمد بن عبد الرزاق بن شقرون الفاسي سنة 1294 / 1877 لرد زيارة قام بها سفير إسباني من مستوًى عالٍ[31] .

وما كاد المغرب يشهد انسحاب الاسبان من الموانئ سنة 1302 / 1884 حتَّى وقعت أحداث خطيرة سنة 1311 / 1894 حول مليلية . ذلك أن الاسبان انتزعوا من العاهل إذنا بتوسيع تراب مليلية ؛ فلما هموا ببناء بعض المنشآت بجوار ضريح «سيدي ورياش» عمد السكان إلى هدمها بعد أن حاولوا إقناع هؤلاء بالبناء بعيدا عنها ؛ وتطورت الأحوال إلى حرب حقيقية بين قبيلة قلعية الزناتية والجيش الإسباني الذي تدعمه المدافع والامدادات . وكانت الهزيمة على الجانب الإسباني الذي كان يَخشَى من الدخول في مغامرة جديدة بعد تدويل القضية المغربية في مؤتمر مدريد .

(29) خوسي إيغيليرا، وثائق تتعلق بالسفارة المغربية إلى البابا ليون الثالث عشر. مجلة تطوان، 1957.

(30) وثائق 3، 447.

(31) استقصا، 9، 164.

ولذلك حضر مبعوث إسباني من مستوى عال هو الماريشال مارتينيز كامبوس إلى مراكش في 29 يناير 1894 مع ثلاثين من الضباط والدبلوماسيين والتراجمة. وكانت النتيجة سريعة حيث حصل الاسبان على تعويض من عشرين مليون بسيطة، دون أن يقوم المخزن ببحث دقيق ولا بمفاوضات حسب السلم الدبلوماسي. ويرى السليماني أن العهدة تقع في ذلك على وزير الخارجية الذي استعجل السلطان في التوقيع على المبلغ المذكور[32].

وكان الاسبان قبل استيفائهم الذعيرة التي فرضوها على المغرب بعد حرب تطوان يستغلون سلطتهم بالموانئ فيخرجون ماشاؤوا على مشهد من السلطة المغربية. وبعضهم كانوا يبعثون بالرقيق إلى اسبانيا رغم تشكيات المغرب[33]. وتهافت الأوروبيون على شراء الأراضي الزراعية من المغاربة دون ترخيص من الدولة ودون التثبت مما إذا كان للدولة أو الخواص المغاربة حق المتابعة بشأنها[34]، وكان هذا مظهرا آخر من مظاهر التسلط على حقوق السيادة المغربية وأسسها.

وإذا كانت كل دولة قوية تتطاول على هذه السيادة بشكل انفرادي، فإن هذا لم يكن كافياً لتحقيق أطماع المجموعة الأوروبية. لأن مصالحها الاقتصادية كانت تتطلب وسائل اتصال ونقل سريعة، ولذلك أخذت تتكتل وتضغط على العاهل من أجل أن يقبل إنشاء سكة حديدية وإدخال القطار وتنظيم البريد وإنشاء اتصال تلغرافي.

وقبل هذه الخطوة نظم القناصل والتجار الأوروبيون شؤون البريد الخاص بهم على أن ينقل البريد من كل ميناء كل عشرة أيام. وذلك ابتداء من 1846. وبالنسبة لأوروبا كانت البواخر تتجه من طنجة إلى جبل طارق أو طريف وتتكفل السفن أو البريد الداخلي حسب الظروف بتتميم عملية نقل البريد، وابتداء من 1854 أخذت الدول تباعاً تخصص باخرة لنقل بريدها. وفي 1294 / 1877 تدخل ممثلو الدول الأوروبية لدى مولاي الحسن وعرضوا عليه مشروع خط حديدي وإنشاء نظام بريدي حديث. لكن العاهل أرجأ هذا المشروع.

---

(32) م. س. ص 205. سليماني، لسان، ص 139. Arnaud, Op. Cit. p.74

(33) وثائق 4، 465 — 473 — 475.

(34) م. س، ص 445 — 447.

وفي 1309 / 1891 قام درودو *Drudo* نجل نائب القنصل الفرنسي بالجديدة بإنشاء بريد خاص ، بحيث ينطلق السعاة يومياً إلى مختلف الاتجاهات ، ونجح هذا المشروع بشكل ايجابي ، وعندئذ أصدر العاهل في ثاني جمادى الأولى 1310 / 22 نونبر 1892 ظهيرا بإنشاء بريد وطني يشمل عدة خطوط داخلية وميناثية ، وبذلك أُمِّم البريد لأول مرة بالمغرب . وأسند استخلاص الرسوم عن المراسلات إلى أمين الشكارة بكل مركز . وعين موظف مركزي لتنسيق عمليات البريد ، وقد أدخلت إصلاحات على النظام البريدي على يد الفرنسيين قبل الحماية وسميت إدارته ببريد المخزن الشريف ، لكن الاسبان وضعوا نظاما خاصا بهم منذ 1886 ، بينما أنشأ الإنجليز مؤسسة للتلغراف في السنة التالية دون رخصة من الدولة ولا برضاها . وأنشأ الاسبان بعد ذلك تلغرافهم ثم حذا الفرنسيون حذوهم في مطلع القرن العشرين[35] .

أما السكة الحديدية فلم يتم شيء بشأنها إلا بعد إقرار الحماية .

اتفاقية مدريد 1298 / 1880

سبق الحديث في الفصل السابق عن مشكل الحماية الأجنبية (القنصلية) التي استفحلت إثر حرب تطوان وكان لها ذيول خطيرة على الاقتصاد الوطني والوضع السياسي والاجتماعي بالمغرب ؛ ووثائق الخزانة الملكية ومديرية الوثائق الملكية بالرباط ، فضلا عن وثائق وزارات الخارجية بالدول المعنية تستغرق مجلدات عديدة لو رتبت دون تحليل فأحرى مع التحليل . ولذلك لا مجال هنا للعودة إلى موضوع كتب عنه الشيء الكثير ولايزال أكثره دون تمحيص ، لكن من وجهة الممارسات التي ارتكبت باسم هذه الحماية فإن في النماذج التي ذكرت في الفصل السابق كفاية ، وهي لم تزد على أن تكررت واتسع مداها في عهد مولاي الحسن ، وإلى حين عقد اتفاقية مدريد .

وطيلة السنوات السبع التي سبقت معاهدة مدريد ، وبالأخص منذ 1876م . نشطت الدبلوماسية المغربية بشكل لم يكن معهودا فيما سبق ، من حيث توسيع

---

(35) بنمنصور، *Villes et tribus (Tanger), p. 237. Miège. Le Maroc et l'Europe, 2, 455. Deverdun, Marrakech, p.582.* وثائق، 4، 459

الاتصالات مع كل الأطراف المهتمة ، ونقل الجزء الرئيسي من هذه الاتصالات إلى الدوائر العليا بأوروبا مباشرة .

ومن الوجهة النظرية كان المخزن يعتمد على حسن تفهم الطرفين الإنجليزي والفرنسي أكثر مما يعتمد على غيرهما ؛ فالطرف الإنجليزي يهمه الجانب الاقتصادي وعدم تشويش استراتيجيته في جبل طارق ؛ والطرف الفرنسي لأن توسيع دائرة الحماية القنصلية يزيد من تغلغل نفوذ دول أخرى على حسابه وهو يهيئ منذ حرب إيسلي لابتلاع المغرب تدريجياً . ومن أجل ذلك قام وزير الخارجية محمد بركاش بتعليمات من العاهل ، بتوجيه مذكرة إلى نواب الدول الغربية بتاريخ 20 مارس 1877 وهي لا تطلب إلغاء الحماية القنصلية ، ولكن احترام المعاهدتين المبرمتين مع بريطانيا وإسبانيا وما تلاها من اتفاق 1863 (19 غشت) والمعروف باتفاق *Béclard* وكيفما كان الأمر ، فقد كان السير ديموندهاي أقدم أعضاء السلك الدبلوماسي ، وله تعاطف شخصي مع وزير الخارجية المغربي . وقام بدور كبير في تنشيط المحادثات مع زملائه من رؤساء السلك الدبلوماسي وكان في نفس الوقت يمثل مصالح النمسا وهولندا والمجر والدانمارك ، وطالت المفاوضات بين هؤلاء المسؤولين الدبلوماسيين ، وبينهم وبين السلطة المغربية دون نتيجة . ثم زاد المغرب من توضيح موقفه سنة 1297 / 1879 فأثار انتباه نواب الدول إلى ما يلحق البلاد من أضرار نتيجة عدم أداء المحميين لواجباتهم المالية ؛ وبسط الحماية على غير من نصت عليهم المعاهدات والاستغلال التجاري الذي يمارسه على حساب الجمرك المغربي بعض المسؤولين القنصليين وخلطائهم وامتهان القضاء المغربي والسلطة الإدارية . وكانت مواقف الدول متباينة بشأن هذه النقط ، وتكررت اجتماعات نوابها خلال أزيد من سنتين دون أن يظهر هناك اتفاق شامل . وأخيرا دعا وزير الخارجية البريطانية في أكتوبر 1879 إلى عقد اجتماع بمدريد كأصلح مكان في نظره للبت في قضية الحماية القنصلية والأجنبية وبعض النقط المالية التي أثارها المغرب ؛ وأثناء ذلك قرر مولاي الحسن عدم اعتبار شهادات الجنسية التي تسلمها الدول الأجنبية إلى المغاربة سواء أكانوا يهودا أم مسلمين . والذين يقيمون مدة بهذه الدول ثم يعودون إلى المغرب بجنسية أجنبية ، ويتصرفون تصرفا غير لائق تجاه مواطنيهم وتجاه السلطة المغربية . وأشعر ممثلو الدول الأجنبية بهذا الإجراء في صفر 1297 / فبراير

1880 وغضب لذلك عدد منهم كممثل امريكا وفرنسا وإيطاليا ، لكن سارت جراءات الاستعداد للمؤتمر سيرها العادي . وهكذا دعي لحضوره كل من المغرب وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والنمسا وإيطاليا وروسيا وهولندا والدانمارك والبرتغال والبرازيل والسويد والنرويج وألمانيا وبلجيكا . وكان ممثلو الدول هم غير ممثليها بالمغرب .

وعين الوفد المغربي برئاسة النائب السلطاني بطنجة مَحمد بركاش والذي كان يعد وزيرا للخارجية . ومعه نجله محمد والفقيه المكي البطاوري والمهندس الزبير سكيرج ليقوم بدور الترجمان وكان قد درس بأنجلترا[36] وابتدأت جلسات المؤتمر يوم 19 مايو 1880 .

وكانت مطالب المغرب تجمع بين نصوص المعاهدة المغربية الانجليزية سنة 1856 والاتفاقية المغربية الإسبانية لسنة 1861 والتسوية المحلية بين المغرب وفرنسا سنة 1863 . وهي تعفي من الضرائب تراجم ومستخدمي النواب من المغاربة ؛ وحدد المستفيدون من الإعفاء بالنسبة لنواب القناصل بالموانئ في ترجمان وثلاثة أعوان . وألزم بالضرائب السماسرة والرعايا الأجانب والمحميون العاملون في الفلاحة . كما أخضع للحكم المخزني المغاربة العائدون إلى المغرب بجنسية أجنبية . وهناك مطالب أخرى كانت تتكرر دائما بشأن قوائم المحميين وغير ذلك .

وأكثر الدول تعنتاً وتشبثاً بإبقاء ما كان على ما كان أو بتنازل محدود لا يمس جوهر الامتيازات . هي فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا والبرتغال وتتفق كلها (أي هذه الدول الخمس) في أنها دول ساهمت في النشاط الاستعماري . مع اختلاف في الزمن وأسلوب العمل ، وأسفرت جلسات المؤتمر العديدة عن معاهدة وقع إمضاؤها يوم 3 يوليوز 1880 أي بعد شهرين ونصف من المفاوضات والمناورات والتحالفات داخل الكواليس ضد معظم المطالب المغربية . وفيما يلي تحليل موجز لشروط الاتفاقية الثمانية عشرة :

1 — الفصل الأول يؤكد بنود المعاهدتين البريطانية والاسبانية مع المغرب ، وشروط التسوية المبرمة بين فرنسا ودول أوروبية أخرى من جهة . والمغرب من جهة

---

(36) بنمنصور، مشكل الحماية القنصلية، ص 93، انظر أسماء باقي رؤساء الوفود، ن. م. ص 94.

ثانية (اتفاقية 1863) . وفي هذا الفصل ترضيه نسبية للمغرب ، لأنه طالب بذلك دون أن يطالب بإلغاء مبدأ الحماية .

2 — يسمح لنواب الدول باختيار تراجمتهم وموظفيهم من المغاربة وغيرهم ويعفيهم من الضرائب ماعدا الذي نص عليه الفصلان 12 و13 . وهذا مكسب نسبي للمغرب .

3 — حدد عدد الموظفين الملحقين بالقنصليات ووكالاتها ، وحكمهم في الضرائب كما نص عليه الفصلان 12 و13 . وهذا التحديد لصالح المغرب .

4 — طبق على الوكلاء القنصليين المغاربة العاملين بالتراب المغربي لصالح دولة أجنبية ، الفصلان 12 و13 . مع اعتبار حق «حماية» أسرتهم وحارسهم الخاص .

5 — منع على الممثلين الدبلوماسيين توظيف مغاربة يعملون كموظفين في خدمة الدولة المغربية أو مغاربة تتابعهم الدولة من أجل مخالفة . كما أن المحميين السابقين قبل عقد الاتفاقية تجري عليهم المسطرة القضائية في نفس المحكمة التي بدأت محاكمتهم ، وما بقي الشخص المتابع بجنحة أو جريمة تحت طائلة العقاب فإنه يجرد من الحماية حتّى يتمم عقوبته ، وكذلك الشأن طيلة مدة المتابعة القضائية .

6 — حددت عائلة المحمي والتي تحظَى هي أيضا بالحماية ، في زوجته وأبنائه ومن يعولهم من أسرته غير الراشدين ، وهذا يفتح بابا للتلاعب يغفله القانون .

7 — ألزم نواب الدول بتسليم لائحة المحميين قانونيا كل سنة إلى السلطة المغربية . وهذا مطلب طالما تقدم به المغرب .

8 — ألزم القناصل بتزويد بلادهم سنوياً . بلائحة المحميين . ويتعين على وزارة الخارجية التي يرتبط بها القنصل أن تخبر هذا بما يمكن أن تشمله اللائحة من مخالفات ، وهنا يثبت المغرب بشكل دبلوماسي أن القناصل يرتكبون المخالفات فعلا .

9 — صار من حق السلطة المغربية أن تتابع وتعتقل كل مستخدم مغربي يعمل في خدمة مغربي لدَى سلطة دبلوماسية . إذا لزم الحال اعتقاله قضائيا . بشرط إخبار الهيئة التي يعمل في خدمتها .

10 — طبق على السماسرة ما ورد في تسوية 1863 .

11 — انفتح الباب لغير المغاربة جميعا في حق الملكية العقارية . وهذا من أخطر التنازلات المغربية . بالرغم من أن نقل الملكية للأجنبي نص على أنه يجب أن يخضع لموافقة السلطة المغربية .

12 — ألزم جميع الملاك والمكترين للأراضي الزراعية أجانب ومحميين بضريبة «الترتيب» نظرياً ، وفرضت عليهم دعيرة في حالة تصريح ناقص بممتلكاتهم . لكن أسوأ ما في هذا الفصل أن حق تحديد الضريبة الفلاحية أقحم فيه ممثلو الدول الأجنبية . ومعنَى هذا أنهم أصبحوا ملاكاً ويحددون الضرائب في غير تراب بلادهم (بالنسبة للأجانب ومن في حكمهم) .

13 — ألزم أصحاب المواشي أيضا بضريبة خاصة سواء أكانوا أجانب أم محميين أم سماسرة . وفرضت الاتفاقية على المغرب أن يحدد نواب الدول الأجنبية أيضا مبلغ هذه الضريبة وطرق أدائها وهي تلزم الرعايا المغاربة جميعاً كذلك . وهذا أيضاً تنازل يهين كرامة الدولة والأمة .

14 — حددت وساطة الموظفين المغاربة بالقنصليات . بالنسبة للأشخاص غير الذين تحميهم القنصلية وذلك بأن لا يسمح لهم بالوساطة إلا إذا كانوا يحملون ترخيصاً مكتوبا من السلطة القنصلية . وطالما أن الترخيص مبدأ يطبق ، يبقى الخرق مفتوحاً .

15 — إذا عاد المغربي من الخارج بجنسية أجنبية وقضَى بالمغرب بعد عودته مدة تعادل المدة التي قضاها قبل الحصول على الجنسية بالخارج فإن عليه أن يختار عندئذ الخضوع لقوانين المغرب أو مغادرته وكان الطرف المغربي قد طلب إعادة الجنسية إلى المغربي بمجرد عودته .

16 — أعطي الطرف المغربي الحق في رفض كل حماية قنصلية لم تسمح بها الاتفاقية باستثناء اثني عشر شخصاً يضافون كحد أقصَى من بين الذين أدوا خدمات تريد دولة أجنبية أن تكافئهم عليها بـ «الحماية» . ويتعين أن يحاط وزير الخارجية المغربي علماً بهذا الإنعام ومبرراته مقدماً .

17 — أصبحت كل الدول الممثلة في الاتفاقية تنعم بميزة الدولة المفضلة أي

أن الأطفال المدللين أصبحوا متعددين جداً وعلى المغرب أن يتبنى دلالهم الأقصى مع عدل في الصعود بهم جميعا إلى سقف النعمة.

18 — من أجل إقفال الباب على السلطة العليا للبلاد والتي يمثلها الملك. فقد بادر الموقعون بإخضاع الاتفاقية للتطبيق بمجرد توقيعها بمدريد. وذلك لأن عرضها للمصادقة على العاهل المغربي بصورة خاصة كان يمكن أن يعرقل تطبيقها. وهذا مع العلم بأن الوفد المغربي أعطي نفس التفويض النيابي الذي أعطي لنظرائه الأجانب.

وفيما يلي تعريب النص الفرنسي لاتفاقية مدريد (بعد الديباجة) :[٣٧]

الفصل الأول : إن الحالات التي يمكن أن تخول الحماية بموجبها هي المنصوص عليها في المعاهدات البريطانية والإسبانية مع الحكومة المغربية. وفي الاتفاقية التي تمت بين هذه الحكومة ودول أخرى سنة 1863 باستثناء التغييرات التي أدخلت عليها في هذه الاتفاقية.

الفصل الثاني : يمكن أن يختار الممثلون الأجانب. رؤساء البعثات. تراجمهم ومستخدميهم من بين الرعايا المغاربة وغيرهم. وهؤلاء المحميون لن يخضعوا لأي واجب أو ضريبة أو مكس كيفما كان خارج ما نص عليه الفصلان 12 و13.

الفصل الثالث : لا يمكن للقناصل ونواب القناصل أو الوكلاء القنصليين رؤساء المراكز الذين يقطنون التراب الخاضع لحكومة سلطان المغرب أن يختاروا سوَى ترجمان وجندي وخادمين من بين رعايا السلطان. ما لم يحتاجوا إلى كاتب من الأهالي.

ولن يخضع هؤلاء المحميون هم أيضا لأي واجب أو ضريبة أو مكس كيفما كان خارج ما نص عليه الفصلان 12 و13.

الفصل الرابع : إذا عين ممثل دولة أجنبية أحد رعايا السلطان في وظيف وكيل قنصلي بمدينة ساحلية ، فإن هذا الوكيل سيحظَى بالاحترام والتشريف هو وعائلته.

الفصل الخامس : تعترف الحكومة المغربية للوزراء والقائمين بالاعمال وسائر ممثلي الدول الأجنبية بما تخوله إياهم المعاهدات من حق اختيار الأشخاص الذين

---

(37) النص العربي الأصلي ركيك جدا وغير مفهوم، بحيث يحتاج الى تعريب.

يستخدمونهم سواء بصفة شخصية أو لصالح حكوماتهم ما لم يكن هؤلاء الأشخاص أشياخا أو موظفين لدَى الحكومة المغربية كالجنود النظاميين أو الفرسان ما عدا المخازنية المعدّين لحراستهم . كما لا يمكن أن يوظفوا أي واحد من الرعايا المغاربة تحت طائلة المتابعة .

وتم الاتفاق على أن الدعاوي المرفوعة قبل الحماية ستصفّى لدَى المحاكم التي أجرت بشأنها مسطرة الدعوَى دون أن يعرقل تنفيذ الحكم ؛ غير أن السلطة المغربية المحلية ستعنَى بتبليغ الحكم الصادر . مباشرة إلى المفوضية أو القنصلية أو الوكالة القنصلية التي يرتبط بها المحمي .

أما المحميون السابقون الذين بدأوا إجراءات التقاضي قبل أن تتوقف حمايتهم . فإن قضاياهم ستحكم فيها المحكمة التي رفعت إليها دعاويهم .

ولا يمكن أن يستفيد من حق الحماية الأشخاص المتابعون من أجل جنحة أو جريمة قبل أن تصدر عليهم الحكم سلطات البلاد وتتم مدة عقوبتهم إذا لزم الأمر .

الفصل السادس : تمتد الحماية إلى عائلة المحمي ؛ ويحترم مسكنه . ومن المسلم به أن الأسرة تتركب من المرأة والأطفال والأقارب القاصرين الذين يسكنون تحت سقف واحد .

ولا تورث الحماية . باستثناء حالة واحدة اقرتها اتفاقية 1863 والتي لا يمكن أن تخلق سابقة وهي تثبت في حق أسرة بنشيمون .

غير أن السلطان إذا منح استثناء آخر فإن كلا من الدول المتعاقدة سيكون له الحق في المطالبة بتنازل مماثل .

الفصل السابع : يخبر ممثلو الدول الأجنبية كتابة وزير خارجية السلطان بمن اختاروه من المستخدمين . ويطلعون الوزير كل سنة على لائحة أسماء الأشخاص الذين هم في حمايتهم أو في حماية وكلائهم بأقاليم سلطان المغرب ؛ وتسلم هذه اللائحة إلى السلطات المحلية التي لن تعتبر محميين إلا من سجلوا فيها .

الفصل الثامن : يسلم الوكلاء القنصليون كل سنة لسلطات المنطقة التي يسكنون بها . لائحة مختومة بخاتمهم . وتتضمن الأشخاص المحميين من قبلهم . ثم تسلم

السلطات اللائحة إلى وزير الشؤون الخارجية حتَّى إذا لم تكن مطابقة للضوابط المقررة أخبر بها النواب بطنجة .

الفصل التاسع : لا يتمتع بالحماية . الخدم والمزارعون والمستخدمون الأهالي لدَى الكتاب والمترجمين الأهالي . كما هو الشأن أيضا في المستخدمين أو الخدم المغاربة لدَى الرعايا الأجانب .

غير أن السلطات المحلية لا يمكن أن تعتقل مستخدما أو خادما لدَى موظف من الأهالي ، في خدمة مفوضية أو قنصلية أو أحد الرعايا الأجانب أو المحميين منهم . دون أن تخبر بشأنه السلطة التي يرتبط بها .

وإذا قتل أحد الرعايا المغاربة أو جرح ، وهو في خدمة أحد الرعايا الأجانب شخصاً ما أو اقتحم مسكنه فيعتقل فورا . غير أن السلطة الدبلوماسية أو القنصلية التي يخضع لها يتم إخطارها دون تأخر .

الفصل العاشر : لا تغيير في وضعية المخالطين . كما أقرتها المعاهدات واتفاقية 1863 ماعدا الأشياء المتعلقة بالضرائب ، التي نصَّتْ عليها الفصول التالية .

الفصل الحادي عشر : يعترف بحق الملكية بالمغرب لكل الأجانب . ويجب أن يكون شراء الأملاك من لدن الأجانب برضىً سابق من الحكومة . وتخضع رسوم هذه الأملاك للصيغ التي نصت عليها قوانين البلاد .

وكل قضية يمكن أن يثيرها هذا الحق سيُبَتُّ فيها حسب هذه القوانين . مع تذكير وزير الشؤون الخارجية المنصوص عليه في المعاهدات .

الفصل الثاني عشر : إن الأجانب والمحميين من بين الملاكين والمكترين للأراضي الفلاحية . وكذا المخالطين الذين يتعاطون الفلاحة سيؤدون الضريبة الفلاحية ويسلمون كل سنة إلى قنصلهم لائحة دقيقة بممتلكاتهم مع أداء المبالغ الضرائبية بمحضره .

ومن قدم تصريحاً مكذوباً أدَّى على وجه الذعيرة ضعف مبلغ الضريبة الذي استُحق عليه أداؤه قانونيا بالنسبة للأملاك غير المصرح بها . وفي حالة تقديم تصريح جديد مكذوب تضاعف هذه الذعيرة .

وستكون طبيعة وشكل وتاريخ وصفة هذه الضريبة موضع تسوية خاصة بين ممثلي الدول ووزارة الشؤون الخارجية لدَى الجلالة الشريفة.

الفصل الثالث عشر: يؤدي الأجانب والمحميون والخلطاء. ملاك الدواب. مكوس الأبواب. أما شكل وطريقة استخلاص هذه الرسوم المشتركة بين الأجانب والأهالي. فستكون أيضا موضع تسوية خاصة بين ممثلي الدول ووزارة الشؤون الخارجية لدَى الجلالة الشريفة.

ولا يمكن أن يزاد في المكوس المذكورة دون اتفاق جديد مع ممثلي الدول الأجنبية.

الفصل الرابع عشر: لا تقبل وساطة التراجمة أو الكتاب الأهالي أو الجنود العاملين في خدمة مختلف المفوضيات أو القنصليات. عندما يتعلق الأمر بأشخاص غير محميين من المفوضية أو القنصلية إلا إذا كان الوسيط يحمل وثيقة أمضاها رئيس البعثة أو السلطة القنصلية.

الفصل الخامس عشر: كل من تجنس من الرعايا المغاربة بجنسية أجنبية في الخارج، وعاد إلى المغرب يجب عليه. بعد مقام معادل للمدة التي لزم أن يقضيها بالبلد الأجنبي للحصول على جنسيته، أن يختار بين خضوعه الكلي لقوانين المملكة وحتمية مغادرة التراب المغربي. ما لم يثبت أن الجنسية الأجنبية قد حصل عليها بموافقة الحكومة المغربية.

وكل جنسية أجنبية حصل عليها حتَّى اليوم رعايا مغاربة حسب القواعد التي أقرتها قوانين كل بلد تبقَى قارة بكل آثارها ومن غير أي استثناء.

الفصل السادس عشر: لا يمكن بعد الآن أن تمنح أية حماية غير قانونية أو شبيهة بالرسمية. ولن تعترف السلطات المغربية قط بحمايات أخرى مهما كانت طبيعتها. ماعدا التي تقررت في هذه الاتفاقية قصداً. غير أن إجراء حق الحماية القنصلية المعتادة سيخصص فقط للحالات التي يتعلق الأمر فيها بخدمات معلومة أداها مغربي لدولة أجنبية أو من أجل أسباب أخرى استثنائية تماما. أما طبيعة الخدمات وتوخي مكافأتها بطريق الحماية فيشعر بها مقدما وزير الشؤون الخارجية بطنجة حتَّى يمكنه

عند الاقتضاء أن يقدم ملاحظاته . ويبقَى القرار النهائي مع ذلك من اختصاص الحكومة التي أديت الخدمات من أجلها ، ولا يمكن أن يتجاوز عدد المحميين اثني عشر لكل دولة ، وهذا العدد تقرر كحد أقصَى ما لم يتم الحصول على موافقة السلطان .

أما وضعية المحميين الذين حصلوا على الحماية بموجب القاعدة التي يضبطها من الآن فصاعداً هذا الإجراء فستكون بالنسبة إليهم ولعائلاتهم ودون تحديد لعدد المحميين الحاليين من هذا الصنف . مشابهة للوضعية التي تقررت في حق المحميين الآخرين .

الفصل السابع عشر : يعترف المغرب بحق معاملة الدولة المفضلة لكل الدول الممثلة في مؤتمر مدريد .

الفصل الثامن عشر : ستتم المصادقة على هذه الاتفاقية ، وسيكون تبادل المصادقة بطنجة وفي أقرب وقت ممكن .

وبتراض استثنائي بين الأطراف العليا المتعاقدة فإن إجراءات هذه الاتفاقية يجري بها العمل ابتداء من يوم إمضائها بمدريد ، وإثباتاً لذلك . فإن المفوضين المعتمدين قد أمضوا بالتتابع هذه الاتفاقية ووضعوا عليها خاتمهم .

وحرر بمدريد في ثلاث عشرة نسخة بثالث يوليوز عام ثمانين وثمانمائة وألف .

والدول الممثلة في هذه الاتفاقية هي إسبانيا والولايات المتحدة الامريكية وألمانيا والنمسا وبلجيكا وفرنسا والمغرب وأنجلترا وهولندا والبرتغال والسويد وإيطاليا .

سياسة الحسن الأول وإصلاحاته

كل الفترة التي استغرقها حكم مولاي الحسن والتي تناهز عشرين سنة ، كانت في الواقع محاولة مستميتة لإصلاح أخطاء بعضها يعود إلى أكثر من قرن قبل توليته ، وبعضها حدث من عهد مولاي سليمان أو في عهد سلفه محمد الرابع (المواجهة الحربية غير المنظمة ضد الاسبان) . وهكذا كان على مولاي الحسن أن يضرب في عدة جبهات : 1) الجبهة الداخلية 2) الجبهة الفرنسية في الحدود الشرقية 3) الجبهة الإسبانية شمالا وجنوبا 4) الجبهة الدولية مجتمعة في القوَى العظمَى .

كانت محاولات رتق ما أفسدته الأيام والأخطاء الماضية في أقصَى حدود مكانيات المخزن ماليا وبشريا وعقلياً.

فعلى الصعيد الداخلي خفت حدة المواجهة التي أعلنها الأطلس منذ القرن 12 / 18 . وكانت تحركات المغرب الشرقي تتجاذبها تيارات التقارب المحلي مع العدو. والتيار الوطني الذي يندفع من غير حساب لتربصات العدو، والتيار الذي له وجهان وتحركه أيدي الولاة الإقطاعيين . وقد اختلفت سياسة المخزن في كل من الأطلس والمغرب الشرقي حسب الظروف بين الشدة واللين ، وحيث إن السلطة المركزية في شغل شاغل مع تحركات الدول الأجنبية ودسائسها الداخلية . فإن عددا من القواد الإقطاعيين الذين تولوا المحافظة على الأمن في المناطق الشاسعة التي أداروا شؤونها قد سمح لهم بممارسة مهام السلطة التي فرضوا أنفسهم فيها مقدما لقاء محافظتهم على الأمن وتزويد الدولة بما شاءوا من جباية . وأظهر مولاي الحسن قوة المخزن في حركتيه الأولى والثانية بسوس عندما حطم المراكز البريطانية التي سمحت بإنشائها على الخصوص أسرة بيروك ، وهي عريقة في خدمة المخزن ، وبقيت كذلك حتَّى ليلة الحماية . وكذلك فإن إنشاء ميناء أساكا وقصبة تيزنيت وقصبة آيت باعمران وتزويد هذه المراكز إلى جانب مركز طرفاية وباقي الصحراء المغربية ماعدا منطقة الداخلة التي استولَى عليها الاسبان بحاميات قوية مقيمة باستمرار أكد سيادة الدولة على أطرافها النائية التي كانت مرتبطة على الدوام إما بحكم مركزي أو بحكم محلي مغربي .

حاول مولاي الحسن أن يطور شيئا ما من نظام الحكم المركزي فأنشأ حكومة ضمنها وزير للمالية لأن الشؤون المالية لم يعد يكفي لضبطها وظيف أمين الامناء الذي هو في الواقع مراقب مالي أكثر منه مخططاً للسياسة المالية ، ووقف العاهل بحزم ضد إلغاء المكوس من فاس للأسباب التي سبق ذكرها ولكن بعد أن اثقلت المكوس كاهل الشعب مدة حكم سلفه وحكمه هو . وبعد أن رفع كابوس الاسبان عن الجمارك ، ألغيت المكوس المذكورة سنة 1303 / 1886 . غير أن التجار الأوروبيين طالبوا في هذه السنة أيضا بتخفيف رسوم السلع المصدرة وتسريح وسق بعض المنتجات كالحبوب والدواب .

ولجأ مولاي الحسن إلى استفتاء شعبي عام عن طريق منشور موجه إلى الأمة .

وكان أحمد بن خالد الناصري ممن حرروا رداً فقهيا مفصلا . وأجاز أن يقوم العاهل بتقديم تسهيلات للأجانب رغبة في تنمية النشاط التجاري الوطني . كما بين أن المغرب عاجز عن فرض قوانينه بالقوة ضدهم ، وفي النهاية ترك البت في المسألة للملك نفسه «فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه»[38] .

ثم استصدر العاهل فتوَى من الفقهاء بتحريم التجارة في الأعشاب المخدّرة بعد أن وجه بشأنها مذكرة إليهم في محرم 1304 . وتم إعدام مخزوناتها لدَى الدولة في سائر أنحاء المملكة ومنع على التجار الأجانب جلبها إلا عن طريق ميناء طنجة ولاستهلاكهم الخاص مع تعشير مقاديرها[39] .

وأعاد مولاي الحسن تنظيم الجيش مع تعميم التجنيد الإجباري وتكوين الإطارات على يد خبراء أجانب كما وجه عددا مهما من بعثات الطلاب إلى الدول الأوروبية لدراسة الهندسة والفنون العسكرية رغبة في أن يسند إليهم تكوين الإطارات الوطنية في المستقبل بدل الأجانب . وكانت توازي هذه الجهود محاولة متواضعة لتصنيع الأسلحة حيث أنشئ مصنع للبنادق والمدافع الخفيفة بفاس . كما أصلحت كل الموانئ التي كانت بحاجة إلى إصلاح .

وظل المؤثر الديني هو الموجه الأول والأخير لمولاي الحسن في سياسته العامة . فتحريم التبغ وتخفيف المكوس أو إلغاؤها ومواجهة العدو تارة باللين وطورا بالشدة وتقوية الجيش الوطني . كلها محركات دينية تستند إلى نصوص الشريعة . أي أن القوة العسكرية والنظام الاقتصادي وهما عمليتان ماديتان أخضعتا للدين والشريعة . من وجهة نظر رجل دولة لم يكن جامداً ولكنه كان يرَى أن الوازع الديني والمحرك الديني هما الأساسان لإعادة بناء الحضارة الإسلامية والوطنية بالمغرب والتي حطمت أركانها أدوات التخريب من الداخل والخارج ، وحيث إن مولاي الحسن كان ينظر إليه على أنه رجل دولة على قدر كبير من الروح الإسلامية والوطنية والسياسية . فقد كان يحظَى بقدر كبير من الثقة داخل بلاده على الرغم من القلاقل التي لم تتوقف في عهده لأسباب عميقة الجذور . ومن أجل هذه الثقة التي كان للشبيبة المثقفة حظ

(38) استقصا، 9، 184 ــ 192.

(39) ن. م. ص 192 ــ 199. *Coufourier, Arch. Maroc. 8/1909, p.395*

منها يقول المشرفي في «الحلل البهية» : مال الناس إلى الوظائف المخزنية . لما رأوه من صلاح الأحوال والاستقامة والاعتناء والقيام بأمور الدنيا والدين . كما أنه لم يفته حال من أحوال قواده وعماله ووزرائه وكتابه وقضاته .

وفاة مولاي الحسن 1311/ 1894

عندما عاد مولاي الحسن من حركته في تافيلالت إلى مراكش كان قد أصيب بمرض وهو في الطريق إلى هذه المدينة . ثم خرج في ذي القعدة 1311 من مراكش باتجاه آيت سخمان فأدركته الوفاة بوادي العبيد من منطقة تادلا في ثالث ذي الحجة 1311 / 1894 . ثم نقل جثمانه إلى الرباط حيث دفن إلى جانب جده محمد بن عبد الله بقصر أكدال[40] .

بيعة مولاي عبد العزيز 1311 / 1894

عندما حل مولاي الحسن بمراكش كان قد هيأ حملة ضد آيت شخمان وقسم الجيش إلى قسمين أحدهما توجه في مرحلة أولى إلى الرباط بقيادة نجله مولاي عبد العزيز الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة ؛ والثاني بقيادة السلطان . لكن وفاة مولاي الحسن غيرت اتجاه جيشه . فحمل جثمانه إلى الرباط ؛ وكان مولاي عبد العزيز قد حل بها . وترك مولاي الحسن حكومة مؤلفة من الحاج المعطي الجامعي رئيسا ؛ وأخيه محمد الصغير الجامعي وزيرا للحرب ؛ وموخا التازي الرباطي وزيرا للمالية . وفضول غرنيط وزير البحر . وعلال المسفيوي وزير الشكايات (العدل) . والعربي الزبدي أمين الحسابات ؛ وبامحمد الشرقي قائد الجيش . وأوصَى مولاي الحسن بولاية العهد لمولاي عبد العزيز وهو في بدء احتضاره . وقام باحماد الحاجب بحمل الوزراء على إمضاء الوصية الملكية . لكن بعضهم كالعربي الزبدي ومحمد الصغير رفض بيعة مولاي عبد العزيز وهموا بالعودة إلى مراكش لتنصيب أخيه مولاي امحمد . وأثناء ذلك جمع باحماد قواد الجيش وزعماء القبائل الموجودين

---

(40) وضعت مؤلفات كثيرة عن مولاي الحسن وأوضاع المغرب في عهده، ومن بينها : الفتوحات الوهبية للحسن بن عبد الرحمن السملالي (ت 1891/1309)، والدر المنتخب لأحمد بن الحاج السلمي في 14 مجلدا منها نسخة بالخزانة الزيدانية، وواحد بـ خ. م. والمسك البهي لعبد الله بن عبد السلام الفاسي (ت 1929/1348) خ. المرحوم العايد الفاسي، والبستان الجامع لمحمد بن ابراهيم السباعي (ت 1914/1332) ومنه نسخة بالخزانة العامة بالرباط.

وأخبرهم بأن مولاي الحسن لازال مريضا ويأمرهم ببيعة نجله عبد العزيز في الوقت الذي كان مولاي الحسن قد توفي فعلا. وهكذا تصرف باحماد كما تصرف الحاجب رضوان من قبل بشأن أبي مروان عبد الملك السعدي. ثم سمّى نفسه وزيرا أول. ووضع في السجن وفي الوقت المناسب خصومه من الحكومة السابقة. ولم تنفع احتجاجات ممثل ألمانيا بالمغرب بشأن العربي الزبدي الذي يحظَى بالحماية الألمانية وهو عضو في الحكومة الحسنية ثم اعتقل بآسفي. أما فضول غرنيط فطلب منه الانسحاب فوراً فعاد إلى فاس.

واختفت شخصية العاهل الصغير تماما وراء شخصية الصدر الأعظم الذي كان أيضاً وصيا على العرش. وباحماد معروف بحب السلطة واستعمالها بقسوة ضد كل العناصر التي لا يرغب في ظهورها أمامه. بما فيها أمراء من أقرب الناس إلى العاهل. فقد عزل مولاي محمد أخا عبد العزيز عن كل تدخل في شؤون الحكومة ؛ وفعل مثل ذلك تجاه الأمير عمر عمه.

ومقابل هذه الإجراءات كان باحماد الذي هو من أُسَر جيش البخاري حريصاً على توطيد شؤون الحكم بإشراك بعض إخوته في مناصب وزارية. وكذلك بالمحافظة على نظام المخزن ومحاولة كسب القبائل المناهضة.

اضطرابات القبائل ومواصلة الحملات

لم تكد العناصر القبلية التي رافقت مولاي الحسن من مراكش تعود إلى مضاربها بعد موته حتّى بدأت الاضطرابات تسود عددا من الجهات المتأثرة بسوء الأوضاع الاقتصادية والادارية والسياسية. لكن كان الجميع تقريباً. وبالنظر للتكالب الأجنبي على المغرب ضد تولية عاهل في سن الطفولة يحجر عليه باحماد الذي لم يكن في نظر الأمة إلا شخصا مستبداً يتخذ من الجميع أداة تنفيذ. وهكذا انتشرت الثورة بالشاوية والحوز ودكالة والغرب أي في كل السهول الأطلسية بما فيها سوس. ثم أخذت تمتد إلى غيرها تدريجيا. فامتدت الأيدي إلى القواد ورجال السلطة فقتل بعضهم كما في بني حسن ؛ ونهبت دور آخرين كما في الحوز ؛ ووقع الاعتداء على أعراض نسائهم وبناتهم ؛ وقاوم باحماد الثوار بوسائل مختلفة. فعزل باشا الدار البيضاء عبد الرحمن باركاش. وقامت نجدات عسكرية بفك الحصار عن وزان

التي طوقها بنو مزكلدة. ولكن الأوضاع لم تهدأ ، فقد طالب القواد الذين كانوا متغيبين بفاس أو الرباط بالرجوع إلى مراكزهم في حماية الجيش فلما رفض طلبهم أسسوا مجموعات غير نظامية وقرروا تنصيب مولاي محمد الأمراني من الأسرة المالكة ، ولكن الأمور لم تتم . بسبب تنافر القبائل وعدم اجتماعها حوله.

ثم قام القائد عبد المالك المتوكي الذي عينه باحماد على متوكة بنهب القبائل فيما بين فاس وأزمور. ثم بث الغارات على حاحا وسوس. وبذلك أصبح الجنوب المغربي في ثورة تجتاح كل ربوعه ، فقد كانت الثورة في مظهرها ضد ولاة المخزن. ولكن دون خطة إصلاحية . حيث انتشر معها قطاع الطرق واللصوص وعناصر الفساد. أما الرحامنة فقد تزعمهم شخص يدعَى مبارك ولد الطاهر بن سليمان الذي قرر مهاجمة مراكش والتفاف الرحامنة حول مولاي محمد الأمراني الذي كان ينتظر مسار الأمور بمولاي بوشعيب (أزمور) واستيلاء الرحامنة على مراكش ليحل بها كعاصمة. ووقعت معارك طاحنة حول مراكش وتكررت محاولة اقتحامها من الرحامنة وأنصارهم من أهل الحوز بينما كانت الثورة تدمر الجهات القريبة من آسفي والصويرة كعبدة والشياظمة. وأخيراً نزل باحماد عند نصيحة بعض قواد المخزن. فأشار على مولاي عبد العزيز بالتحرك نحو مراكش بعد أزيد من سنة من الاضطرابات ، واستنجد العاهل بأنصار المتوكي. فحلت جموعهم بالرباط قبل تحرك العاهل الذي احتشد حوله حوالي 15 ألفا من قبائل الغرب والشمال والأطلس. وفي فبراير 1896 انطلق الجيش مارا بالشاويه التي كانت الأوضاع قد تمت تهدئتها فيها بفضل الحامية القوية التي يقودها أحد الأمراء (مولاي الأمين). لكن الجيش فوجئ بتساقط أفراده صرعَى من وباء الكوليرا الذي سرت عدواه من طنجة ، وكان ضمن «المحلة» عدد من الخبراء الفرنسيين والإنجليز ، وكان هؤلاء بقيادة ماكلين *Mac Lean* الذي كان مسؤولا عن جيش المشاة. غير أن الجيش لم يحتج إلى استخدام القوة فإن الكوليرا بددت شمل الثوار بعد أن تكفلت بالباقي المقاومة الضارية التي تولى كبرها بمراكش القائد عويدة. فضلا عن أموال بيت المال التي أغدقت من غير حساب على زعماء الثورة ، لكن زعيمها الرئيسي الطاهر ابن سليمان (والد مبارك المذكور) لم يُغره المال فبقي على موقفه ضد المخزن. بعد أن كان فيما مضَى قائدا بالجنوب ، وعندما شعر بالخطر من حوله لجأ إلى أحد

الأضرحة . ثم عفا عنه باحماد بعد أن أهين على مشهد من قومه . وألزمت القبائل الثائرة بالحوز بأداء الضرائب عن سنتين مع غرامة باهظة[41] .

وخلال مقام مولاي عبد العزيز بمراكش أجريت حركة عزل وتغيير في سلك الولاة ، ومن بينهم المهدي المنبهي الذي كان مجرد مخزني (شاويش) فعين قائدا على قبيلة المنابهة ، وكان يحظى بعطف باحماد ، وقد هيأه بهذه الترقية لمستقبل كان بعيدا عن أحلامه .

وكان على المحلة أن تتابع سيرها بعد ذلك إلى سوس في خريف 1315 / 1897. وقد وزعت إلى بضع فرق إحداها بقيادة مولاي عبد الحفيظ أخي الملك كما توجهت فرق إلى جهات أخرى كحاحا والشاوية ، وكان معظم الجيش الموجه إلى سوس غير نظامي ، ولم يرافقه إلا قليل من المدفعية دون الخبراء الأجانب الذين تبقوا بمراكش . كما أن سوس التفت بإصرار حول زعيمها الروحي محمد وهاشم سليل أبي حسون . فلاذ الجيش بالقصبات قبل أن ينسحب معظمه من غير طائل .

ثم كان على المخزن أن يردع حركات تمرد أخرى بجبالة ومسفيوة . وتعد مسفيوة من أقل القبائل ولاء للمخزن . فبمجرد ردع حركة الرحامنة التي تضامنت معها مسفيوة استقرت الأحوال ظاهرياً بها . لكن الثورة عادة لتجتاح مسفيوة في سنة 1317 / 1899 . ولذلك أدّى الثوار الثمن غالياً من رؤوسهم وممتلكاتهم التي تم تخريبها[42] .

نهاية حكم باحماد

بينما كان باحماد يدبر شؤون الدولة ويردع الثورات من غير لجوء إلى الحوار مع المناهضين انشغل الملك الصغير بألعابه ولهوه أكثر أوقاته . فمنذ أن حمل مسؤولية الملك اسماً . استقبل بعثة من انجلترا برئاسة أرثور نيكلسون ***Arthur Nicholson*** في أبريل 1896 وتسلم من السفير مجموعة من الألعاب الميكانيكية الملائمة لسنه . ومنذ ذلك الوقت واصل الإنجليز تلهية العاهل فتقاطرت عليه من أنجلترا أنواع الدراجات

---

(41) *Dr Arnaud, Au temps des mehalla, pp. 91 - 121*

(42) *Op.Cit. pp.122 - 128*

ووسائل اللهو التي ازداد تأثيرها بموت باحماد سنة 1318 / 1900[43] . وعندما ادرك الأجل باحماد كان مولاي عبد العزيز قد بلغ العشرين . أي أنه لو هيئ من قبل تربوياً وسياسياً بكيفية جدية لكان مؤهلا لمارسة الحكم في هذه السن أكثر مما كان وهو صبي . أما باحماد فقد اختطف الوباء أسرته تباعا ، فمات أخوه سعيد وزير الحرب ثم أخوه إدريس الحاجب الملكي ولحق بهما هو سنة 1900 . وقام مولاي عبد العزيز في مرحلة انتقالية بالمحافظة على نفوذ أسرة باحماد فعين أخاه لحسن حاجبا . وابن عمه المختار بن عبد الله بن أحمد صدراً أعظم . ثم عين المهدي المنبهي وزيرا للحرب وأقر موخا التازي الرباطي وزيرا للمالية.وبترشيح المنبهي للوزارة تبدأ صفحة أخرى من حياة المخزن الذي ازداد ابتعاداً عن مسايرة التطور المعاصر في أساليب التسيير واختيار الأشخاص الملائمين له والذين يحظون بثقة الأمة . وكان المنبهي وهو أيضا شاب في مقتبل العمر لا يخلو من ذكاء وجاذبية . فبدأ يتقرب إلى العاهل ويخدمه في الشاذة والفاذة ، حتى كانت أمور تدبر بشأن الدولة والأمة . والوزراء الآخرون وصدرهم الأعظم غائبون عنها . وكان الصدر الأعظم هو الذي أشار على العاهل بتعيين المنبهي وزيرا للحربية . وفي الوقت الذي بدأ المنبهي يدبر الدسائس لعقلاء الحكومة الذين كانوا كالتازي والصدر الأعظم يتألمون لانشغال العاهل الشاب باللهو الذي يشاطره فيه ويشجعه عليه وزير الحربية . بدأت الأوضاع بالمملكة تضطرب من جديد . كما أن المنبهي تمكن من تنحية المختار بن عبد الله عن رئاسة الوزراء وتعيين فضول غرنيط مكانه بعد أن لزم بيته بفاس طيلة حكم باحماد .

ثورة بوحمارة 1320 - 1327 / 1902 - 1909

بوحمارة هذا الشخص الذي أثار أخطر حركة مناهضة للدولة خلال العقد الأول من القرن العشرين م . لم يكشف حتى الآن عن كثير من أسرار حركته والجهات التي كانت تموله وتسانده من الخارج . وبوحمارة أيضا . لم يكن يخلو من سند قوي في الداخل . ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد ست سنوات في وجه القوات الحكومية ويهزمها شر هزيمة غير ما مرة .

الجيلالي (باللام) بن إدريس الزرهوني حسب بعض معاصريه . أو ابن عبد

---

(43) *Ibid, pp.123. 132 - 133*

السلام الزرهوني حسب الوثائق المخزنية[44] لقب أيضا بالروكي كسلفه الثائر الروكي الذي ينتمي إلى قبيلة رواكة من سفيان الغرب والذي قتل في عهد السلطان محمد ابن عبد الرحمن. وهكذا أصبح كل متمرد يلقب بالروكي كما لقب به بوحمارة الذي هو من مدينة زرهون. ونقل الدكتور أرنو تفسيراً أوضح للروكي بالمعنَى السياسي. وهو كل متمرد ينتحل الانتماء إلى الأسرة المالكة دون أي سند. ولا نعرف شيئاً عن المستوَى الثقافي الذي كان عليه الجيلالي الزرهوني ؛ ولكنه كان مستنيراً وألمَّ بعلم الجداول التقليدي ليستخدمه في إغراء الجماهير وكسبها زيادة على الدعوة التي كان يجيد أساليبها لطلاقة لسانه وخصوبة التربة السياسية الصالحة لنشاطه. وينتمي الجيلالي الزرهوني إلى أسرة أولاد يوسف من منطقة زرهون حيث كان مولده في 1282 / 1865. وقد استقر بمنطقة زرهون عدد كبير من أهل الريف وبعض القبائل المجاورة خلال فترات متباعدة ؛ وبخاصة في العصر العلوي قبل الحمايه ؛ ولذلك لا نعجب إذا رأينا ثورة بوحمارة فيما بعد تتركز في بعض المناطق الريفية والمجاورة لها جنوباً.

وكان الجيلالي الزرهوني مخزنيا في خدمة قائد الجيش عبد الكريم ولد باالمحمد الشرقي ؛ ومن هناك وُجه في عهد مولاي الحسن نحو دراسة الهندسة العسكرية بالمغرب بإشراف ضباط فرنسيين. وبذلك تمكن الجيلالي من تعلم الفرنسية زيادة على ما حصل عليه من معارف عسكرية وهندسية ؛ ولكن بدل أن يستفيد الجيش من تكوينه مهما كان من مردوديته ؛ فقد عين كاتبا لدَى الخليفة مولاي عمر بفاس. وهناك تعرف على أحد المخازنية الذي عمل «مشاورياً» بقصر الخليفة ؛ وهو المهدي المنبهي الذي أصبح صديقا له. غير أن المنبهي ترقَّى بسرعة كقائد للمنابهة. ثم أصبح بعد قليل وزيرا للحربية ؛ وبذلك أثارت ترقية القائد الأمي غضب الكاتب المثقف الذي كانت تجري على مشهد منه مظاهر التدهور والانحطاط في أوضاع الإدارة والجيش والحكومة والأمة. إن بوحمارة لم يصلح شيئا في الواقع ؛ فلم يقدم بين يديه برنامج إصلاح اجتماعي واقتصادي وسياسي. وحيث إنه لم يختر الإطار الثوري كمحور لعمله. فقد فكر في أن يدبر انقلاباً داخل العرش على أن يكون هو نفسه البديل. وحيث إنه يحتاج إلى سند فقد وجده في انتحال شخصية الأمير

---

(44) Op. Cit. p. 153 بنمنصور، أعلام المغرب العربي 1، 303.

مولاي امحمد أخي مولاي عبد العزيز . والذي كان تحت الإقامة المحروسة بفاس . ولكن قبل الوصول إلى هذه المرحلة لزم أن يبحث عن أنصار في جهات يمكن أن يصل إليها السلاح بسهولة . واختار قبل كل شيء طريق التدين والصلاح وهما صفتان تلازمان الزعماء الشعبيين الأكثر قرباً إلى نفوس الجماهير ، فطاف بقبائل الحياينة وبني وارين وبني سادن وتسول والبرانس ، وقد وجد الكثير من نقط الضعف التي كان يبرر بها ضرورة التغيير كحداثة سن العاهل وتلهية الضباط والمدربين الإنجليز له بوسائل اللهو ليشغل بها أكثر وقته ، وإعدام مواطن استدرج من ضريح مولاي ادريس بفاس وكان لاجئا به على إثر اغتياله أمريكيا اقتحم الضريح على سبيل الفضول . وكان يمزج انتقاداته بشيء من أعمال الشعوذة ليتظاهر ببعض الكرامات ، ولا ننس أن المهدي بن تومرت وهو عالم سلفي قدير كان له دور مشابه قبل ثمانية قرون . فإن التوعية لم تكن مقصورة على وسائل جديدة . بل كذلك على تقاليد الجماهير التي اختلط لديها الصلاح بالشعوذة في ظروف تركت فيها إلى نفسها من غير توجيه . وبالأخص من غير توجيه يناسب تطور العصر .

وتابع الجيلالي نشاطه الدعائي وهو يركب حمارة شهباء ، ويقلد في ذلك آخرين سابقين . وبالأخص اليزيد الطنبدي الملقب بصاحب الحمار . هل كان ذلك تقليداً للرسول ﷺ والذي اتخذ البراق في تنقله بين مكة والمدينة ؟ إنه لقياس مع فارق بعيد في الزمن والأشخاص فقد كان محمد الرسول صاحب رسالة وزعيم ثورة ولم يطلب ملكا ولم يتخذ مظاهر السلطة .

وقادت الجيلالي تنقلاته إلى الجزائر حيث اتصل في مستغانم أو بقربها . بشيخ درقاوة هناك عبد القادر بن عدة وأخذ عنه ثم دخل وجدة سنة 1320 / 1902 . ولا يعرف على وجه الدقة ماهية الاتصالات التي أجراها الجيلالي الزرهوني بالجزائر . غير أنه كان بحاجة إلى السلاح والدعم المادي ، ومن المرجح أنه تلقى من الجزائر في مرحلة أولية . دعماً محدوداً إما بواسطة جزائريين أو مباشرة من الفرنسيين بكيفية غير معلنة ، وقد قام بحركة دعائية واسعة في وجدة ضد مولاي عبد العزيز وضد التغلغل الأوروبي في البلاط ، وتابع نشاطه هذا بأنجاد وأوساط بني يزناسن قبل أن يتوجه إلى الحياينة في موسم الولي امحمد الجاناتي . فأعلن أنه الأمير مولاي امحمد الذي نحاه بحماد عن العرش ونصب مكانه مولاي عبد العزيز .

لكن بوحمارة تقوت حركته . فالتف حوله 15 ألفاً من الفرسان النظاميين من بين القبائل الضاربة بين تازا وفاس ، وارتاع المخزن لما حدث ، ووجد الثائر حتَّى بين مثقفي فاس متعاطفين . بل إن عالما بفاس اعتبر أن ثورته مقدمة لظهور المهدي المنتظر[45] الا أن كبار علماء فاس نشروا بيانا طبع على الحجر . وعدوا بوحمارة مجرد فتان أي متمرد ، وكذاب ينتحل نسب أمير كبير وسفاك دماء ونهاب أموال نجب محاربته . واستُقدم مولاي عبد العزيز من مكناس إلى فاس ، وطلب منه العلماء والمناهضون لبوحمارة أن يبقَى بفاس إلى أن يضع حدا للثورة القائمة . وهكذا بدأ تجنيد المحاربين من مختلف القبائل الممتدة على سهول الأطلس . بينما عسكر جيش بوحمارة بين الحياينة وغياثة . وساهم فيه قبائل شرق المغرب وآيت يوسي إلى جانب القبائل التي سبق ذكرها ، وكان يوجد من كل قبيلة محاربون في هذا الجيش أو ذاك . وكان بوحمارة قد حل بتازا وطرد ولاة المخزن وأنشأ مشوره ومساكنه التي لاتزال قائمة بتازا . وتوزع جيش المخزن إلى خمس فرق على رأس كل منها قائد دون أن تكون هناك قيادة تنسيق . وعسكرت الفرق بوطابوعبان فيما بين 15 و20 دجنبر 1902 ثم بدأت المناوشات دون أن تنشب حرب حقيقية خلال شعبان وشطر من رمضان إلى أن هاجمت قوات الثائر محلة الأمير مولاي الكبير بعنف . وبشكل مفاجئ ، فدب الرعب إلى المحلة التي تركت خيامها وتموينها ثم لاذ أفرادها بالفرار في فزع وفوضَى دون أن تقوم الفرق الأخرى بمساعدتها . بل إن هذه الفرق انسحبت بدورها تاركة غنائم ثمينة لقوات بوحمارة ، وكان هذا الانسحاب بعد شبيه به في شهر شعبان 1320 . ودخل الجيش فرادى في حالة معنوية بالغة الانحطاط . إذ دخلوا حفاة عراة مجردين من الأسلحة التي استولَى عليها بوحمارة وبينها اثنا عشر مدفعا ، واعتبر مولاي عبد السلام الأمراني مسؤولا عن هذه الهزيمة الشنعاء التي تمت في 21 رمضان مع أن تنسيق القيادة لم يكن مضبوطاً وكانت كل فرقة تعمل لحسابها ، وكان من نتائج هذه الحركة غرق عدد كبير من الجيش المخزني في وادي اللبن وسقوط كميات كبيرة من مواد التموين التي يملكها تجار يصحبون الجيش في يد أنصار بوحمارة . وكان بين المسؤولين المركزيين عدد من الوزراء الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب وأسندت إليهم مسؤوليات قيادية ، وبينهم عبد الكريم بنسليمان وزير الخارجية .

(45) محمد الباقر، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 181 — 183.

وكان للهزيمة وقع كبير لدَى الدول الأوروبية . فعززت كل من فرنسا وإسبانيا وبريطانيا وجودها العسكري على سواحل المتوسط من جهة المغرب . وقوت فرنسا جيشها بالجزائر بمزيد من الأسلحة والذخائر . وأخيرا عمد المخزن إلى إخراج الأمير مولاي امحمد من القصر الذي كان محبوسا به . ودعيت جماهير الشعب بفاس إلى رؤيته للتعرف عليه وتسفيه دعوَى بوحمارة ؛ وسمح القصر للأمير أن يستعيد حياته العادية ويختلط بالسكان لتأكيد نسبه . وهذا الإجراء الذي جاء متأخرا كان له مع ذلك أثر بالغ في تهدئة النفوس وإرجاع الرشد إلى كثيرين ممن افتتنوا بحركة الجيلالي الزرهوني .

وبينما دخل الثائر إلى تازا دخول الظافر المنتصر بدأ المخزن يتهيأ لمواجهة جديدة ضده . غير أن فراغ الخزينة ألجأ الدولة إلى اقتراض المال من الخارج ؛ وذلك يتيح لفرنسا على الخصوص أن تجعل الدولة أطوع لها من بنانها بينما هي تمد الثائر بالسلاح. **فلما بدأ يقوى أمره ويستد ساعده خشيت أن تفسد مخططاتها، فعادت في النهاية، وبعد انسحاب مولاي عبد العزيز من الحكم إلى مساندة المخزن ضد حركة بوحمارة.**

وأسندت قيادة الجيش المخصص لسحق هذه الحركة إلى صديقه القديم المنبهي وزير الحربية بعد الهزائم التي تكبدتها القوات الحكومية . وكان الثائر يفكر في الهجوم على فاس ؛ ولكن تهييء الحملة الحكومية الجديدة أعجله عن تحقيق هدفه هذا . وفي الوقت الذي اتخذ الجيش الحكومي القرار بالاستيلاء على تازا كان الجيلالي الزرهوني يستجيش زعماء القبائل بشرق المغرب وداخل الحدود الجزائرية . ثم فتح خط اتصال مع السلطات الإسبانية بمليلية . واستغل الثائر استغلالا جيداً الأثر الذي أحدثته ضريبة الترتيب التي تقررت منذ سنة 1901 على الممتلكات الزراعية والحيوانية (المواشي) وجل القبائل التي ناصرته رفضت أداء هذه الضريبة ؛ ولذلك نرَى ثورة بوحمارة تنطلق بالذات في السنة التالية لإقرار الترتيب وعندما وثق من المساندة الإسبانية اتخذ من ريستينكا المصيف الحالي بقرب سبتة مرفأ طبيعياً تجتاز منه الأسلحة مع وجود أنصار له كثيرين بالشمال أيضا . وكان ممن اكتسبهم بالمغرب الشرقي والتخوم الجزائرية الطيب بن الشيخ بوعمامة بن العربي البوشيخي . وعبد المالك بن محيي الدين بن عبد القادر الجزائري ؛ واستطاع الثائر أن يستولي على

وجدة سنة 1321 / 1903 وبذلك اكتسب ممراً اقتصاديا بالغ الأهمية وأصبح قاب قوسين أو أدنَى من مراكز الإمداد العسكري من حيث السلاح بكل من الجزائر ومليلية . ذلك أن مناطق الريف أعلن أكثرها ولاءها للثائر . بينما كان بوحمارة ينادي بالجهاد ضد هؤلاء الذين باعوا الوطن للإنجليز . مع تحفظه في ذكر الفرنسيين والاسبان .

واستقدمت الحكومة نجدات من سوس والحوز والغرب بالإضافة إلى آيت يوسي وزمور وزايان وقبائل أخرى استمالها المخزن بالمال ولكنها لم تكد تتسلم عطاياها حتَّى تراجع أكثرها إلى مواطنها عازفة عن المساهمة في حرب جديدة ضد بوحمارة . لأن آثار ضريبة الترتيب لم تمحها العطايا الظرفية التي أدَّى المخزن أكثرها من قروض إسبانية وفرنسية وإنجليزية . وقاد القبائل التي بقيت على ولائها للمخزن : إلى جانب الجيش النظامي الوزير المهدي المنبهي . وكانت قواته تناهز 50 ألفا . وبعد تحركها في 29 يناير 1903 توقفت في «الحجرة الكحلا» عند وادي سبو باتجاه تازا . ثم تابعت طريقها على مراحل حتَّى عين مديونة حيث تلقت الطلقات الأولى للقبائل الثائرة . وكان الجيش قد تعزز بمزيد من الأنصار في طريقه إلى مديونة بفضل الإغراءات المادية ومظاهر القوة وضخامة العدد إلى أن انتهَى إلى 70 ألفا . ثم وقعت مواجهة ضد بني واراين وجرح خلالها بوحمارة كما استولى الجيش الحكومي على عدد كبير من الأسلحة . ولما كان الفصل باردا مع تساقط الثلج فإن قوات المنبهي عادت إلى فاس ثم تجددت المواجهات بينما انشغل بوحمارة بحصار وجدة التي سبقت الإشارة إلى أنها سقطت في يده هذه السنة . وأخيرا زحفت قوات المنبهي في مايو 1903 نحو تازا ولقيت مقاومة عنيفة كالتي سبق ذكرها . غير أن تازا التي قاومت أقل من شهرين استسلمت في النهاية ، وترك وزير الحربية أفراد الجيش يستبيحون المدينة بنسائها وبناتها وأموالها ، وهذا هو الانتصار الكبير الذي حققه المنبهي على صديقه القديم . ثم عاد المنبهي ومعه المدني الكلاوي والطيب الكندافي وفرقة من الجيش لتبشير العاهل بالنصر . بينما كان بوحمارة قد دخل ظافرا إلى وجدة تسانده قبائل أنكاد . وبويع هناك سلطانا باسم مولاي امحمد بن الحسن أما تازا نفسها فقامت غياثة بتطويقها تساندها قبائل أخرَى كرد فعل ضد تصرفات الجيش تجاه سكان المدينة الأبرياء . وقام المخزن من جهة أخرى بدور سياسي إيجابي في

استرجاع وجدة ، حيث أرسل وفدا مكونا من القائد الحاجب أحمد الركينة والقائد عبد الرحمن بن عبد الصادق الريفي والفقيه محمد بن الحسن الحجوي . وكان الوفد مزوداً بكمية كبيرة من المال تم إغداقها على رؤساء أنكاد الذين استرجعت وجدة بفضل جهودهم . وهكذا نجح الوفد المذكور في مهمته ، وأثناء ذلك سحب من حامية تازا عدة آلاف التحقوا بوجدة والتحق قواد الجيش الذين كانوا في تازا بفاس . وأصبحت حامية تازا تعيش تحت رحمة القبائل المحاصرة لها . وحيث ان طريق تازا كله لم يقع تأمينه وأن الخطر أصبح محدقاً بتازا من جديد فقد بات المنبهي شخصا مغضوبا عليه ، وانتهى موسم الحصانة التي تمتع بها لبضع سنوات . وحيث إن العيون بدأت ترمقه شزرا في القصر ، فقد عجل بالخروج من الورطة . بأن التمس الذهاب إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج بعد أن عبث بمنصبه واتخذه طريقا سهلا للكسب السخي غير المشروع . واستجيب لطلبه على الفور وبعد عودته استقر بطنجة ، وبذلك فرغ منصب وزير الحربية الذي تولاه بعد ذلك محمد الجباص الذي استقدم من الجزائر حيث كان يمثل المغرب في المفاوضات المتعلقة باتفاقية الحدود لسنة 1901 وهي اتفاقية انتزعت بموجبها توات وكورارا وتيديكلت من المغرب . وكان على السفير الجباص الذي شغل قبل ذلك منصب نائب وزير الحربية أن يتفق مع ضباط الاحتلال على اعداد مراكز الحراسة بفيكيك وتحديد ممر اتصال بين المغرب والجزائر عبر ذوي منيع وأولاد جرار التي اقحمت أيضا في منطقة الاحتلال بعد أن كانت في أسوأ الظروف معبراً حراً . كما أنها طالما وجهت بيعاتها إلى سلاطين المغرب .

على أن وجدة باتت تتعرض لحصار جديد من بوحمارة وأنصاره ، لكن المدني الكلاوي قائد الجيش بتازا استطاع بالرغم من الحصار المضروب على المنطقة أن يجعل قسما من بقايا جيشه يتسلل ليلا باتجاه وجدة مروراً بميسون التي احتلها بسهولة . وتسامع أنصار الثائر بالصعوبات التي تعيشها تازا وحاميتها فقرر السير إليها ولكنه اصطدم في الطريق بطلائع الجيش الحكومي حول ميسون ، وارتد الثائر على أعقابه جريحاً نحو وجدة ، بينما خرج المدني الكلاوي على رأس فرقة من حامية تازا باتجاه ميسون ، وتعرضت بقايا الحامية لحملة تقتيل ضارية فقد كان بوحمارة وأنصاره يلقبون الجيش النظامي بأبناء الكولونيل ، أي الكولونيل ماكلين الإنجليزي كبير

الضباط الإنجليز المدربين للجيش المغربي الذي كان أنصار بوحمارة ينعتونه بالكفر ولم يكن عاهله الشاب يسلم من هذا القذف أيضا . وبينما كان جيش المدني يزحف نحو وجدة بعد أن تخلى كليا عن حماية تازا تسلل بوحمارة وأنصاره إلى هذه المدينة في محاولة لتعزيز صفوفهم وإعادة تجميع باقي القبائل المتشتتة ؛ وهكذا استعاد بوحمارة مدينة تازا واستمر بها يحشد أنصاره بقية 1903 وسائر 1904 حتَّى دجنبر منها حيث عاد إلى ناحية وجدة يحاول استردادها هي أيضا . إن فراغ الطريق الطويلة الممتدة بين وجدة وتازا من أي حامية أو قوات مناصرة للدولة يدل على ضعف بالغ في الاستراتيجية العسكرية للدولة ؛ وفضلا عن ذلك ؛ فإن طول مقام الجيش حول وجدة جعل القبائل غير النظامية وعددا كبيرا من القواد يتسللون إلى الجزائر للعمل بها أو لدخول المغرب من جهة الجنوب . كما التحق آخرون بمداشرهم عبر البحر والطرق المامونة نسبياً ؛ وحتَّى المدني الكلاوي الذي صمد مدة تخلى هو الآخر عن حماية وجدة بعد أن تخلى عن تازا وفضل الدخول إلى الجزائر .

ووجد بوحمارة حول وجدة صديقه الجزائري الشيخ بوعمامة الذي كان قد تقدمت به السن . ولكنه وقف إلى جانبه من غير تحفظ . ومعه أنصاره من أولاد سيدي الشيخ والشعامبة . وكان هناك نصير آخر هو عبد المالك بن عبد القادر الجزائري الذي عاش حياة غير مستقرة حيث عمل في خدمة حكومات كثيرة وبالأخص في خدمة الدولة الفرنسية والدولة المغربية وأخيرا الدولة الأسبانية فحارب إلى جانبها قوات عبد الكريم الريفي وقتل في إحدَى المعارك التي خاضها ضد عبد الكريم الريفي ودفن سنة 1924 بضريح الشيخ عبد السلام بن ريسون بتطوان .

وكان عبد المالك أثناء استقرار أنصار بوحمارة حول وجدة يقيم مع أنصاره بضواحي تازا شمالا قبل أن يلتحق بقوات بوحمارة . وكان بوعمامة يسانده نجله الطيب الذي تخلى عنه في النهاية بفضل تدخل المخزن لدَى قوات الاحتلال بالجزائر التي منعت على أنصار بوحمارة التزود مدة بالأسلحة والمؤونة من الجزائر . وانتقل الطيب إلى فاس حيث استقبل بحفاوة ، لكن المخزن ارتاب في أمره بعد ذلك فسجن بالصويرة إلى أن تدخلت فرنسا لإطلاق سراحه في عهد مولاي عبد الحفيظ . كما أن عبد المالك ألقي عليه القبض في عهد مولاي حفيظ وسرح بتدخل من فرنسا بوصفه من رعايا الجزائر كما هو الشأن في الطيب بوعمامة . وسواء أعمل

عبد المالك وأسرة بوعمامة في خدمة الجهاز الفرنسي أم لم يعملا فقد وجد بوحمارة من العناصر الجزائرية على الحدود وداخل الجزائر أنصاراً أقوياء كان لهم دور ثابت في عرقلة تأمين الوضع بالمغرب الشرقي . بل إن عددا كبيرا من المساعدين الرئيسيين في الحكومة التي انشأها بوحمارة جزائريون .

وساءت أحوال الجيش الحكومي بوجدة وحولها في أعقاب سنة 1321 / 1904 عندما فرغت مرة أخرى خزينة المغرب وتوقفت الدولة عن أداء رواتب الحاميات بمختلف المناطق حتى إن حامية فيكيك تقدمت إلى ضباط الجزائر تطلب تدخلهم لدى الحكومة المغربية لتسعفهم بالمؤونة والرواتب المستحقة . ثم لجأت الحكومة من جديد إلى الاقتراض من الأبناك الفرنسية لترد شيئا من سلفاتها السابقة وتواجه الأوضاع العسكرية الخطيرة بالمغرب الشرقي ومنطقة الريف التي ظهرت بها حركة مناهضة أخرى هي حركة الشريف الريسوني .

وشهدت سنة 1904 ميلاد اتفاق جديد بين فرنسا وبريطانيا يعطي حق الشفعة للأولى في امتلاك المغرب وللثانية في امتلاك مصر . ومالبثت إسبانيا أن حصلت على صك من فرنسا يسلم لها حق احتلال الجزء الشمالي من المغرب وجزءا كبيرا من ترابه في الجنوب الغربي .

وبالنسبة للجبهة الشرقية والشمالية ، مر شريط أحداث 1904 (1321) باختصار كما يلي :

— في يناير 1904 أظهر المخزن رغبته في استرجاع سلوان لكن معظم الجيش النظامي كان بالجبهة الشرقية وهو غير مستعد معنويا وماديا لمواجهة خارج منطقة وجدة . وعين قائد جديد لمحلة وجدة هو محمد بن بوشتا البغدادي المعروف بصرامته وذكائه . وتعاون معه باشا وجدة السابق ابن كروم .

— في غشت 1904 / جمادى الثانية 1322 عين قائد إداري جديد بوجدة هو عبد الرحمن بن عبد الصادق مكان القائد الحاجب أحمد الركينة .

أما المعارك بالجبهة الشرقية فاتخذ الحكوميون موقفا دفاعيا ضد قوات الزرهوني التي بدأت تتناقص بوضوح لكنها ظلت صامدة للهجوم والغارة .

في آخر دجنبر 1904 / شوال 1322 هاجمت قوات الزرهوني السعيدية ونالت في مطلع السنة الميلادية 1905 من القوات الحكومية التي قتل وأسر عدد كبير منها .

وتوبع شريط أحداث 1322 / 1905 كالتالي :

— يناير 1905 / قعدة 1322 وقع الهجوم على وجدة بقوات مشتركة بين أنصار الزرهوني وبوعمامة ورد الهجوم بتدخل المدفعية التي يشرف عليها فرنسيون بقيادة الملازم موجان ، وصدت قوات ابن كروم المهاجمين .

— أبريل 1905 / صفر 1323 جدد الهجوم فكان مآله كالذي سبقه . وكانت قوات الزرهوني تستخدم المدفعية أيضا من أعالي جبل سمَّارة (بشد الميم) وتؤازرها قوات جزائرية تابعة لبوعمامة وأخرى من أنكاد ومهاية وبني محيو وغيرهم ، وفي أوائل هذا الشهر احتل الفرنسيون ناحية بشار .

— آخر ماي 1905 / ربيع الأول 1323 هوجمت محلة المخزن وتمكنت من رد الهجوم .

— فاتح يوليوز / 27 ربيع الثاني أطلقت المدفعية على محلة الزرهوني وبعد ثمانية أيام هاجم الجيش قوات بوعمامة التي قاومت بضراوة ولكن المدفعية الحكومية شتتت صفوفها وإثر ذلك بدأت المفاوضات مع الزعماء الجزائريين المناصرين لبوحمارة . فانحاز كل من الطيب وعبد المالك إلى المخزن وكان من مصيرهما ما ذكر سابقا .

وبعد يومين آخريين حاول بوحمارة مهاجمة وجدة من جديد فحطمت المدفعية قواته . وانسحب عندئذ إلى أنكاد . وعلى الرغم من خيانة القائد أحمد المنبهي وهو غير المنبهي الوزير السابق ، بتقاعسه عن المساهمة في بعض الحملات ، فإن المدفعية الحكومية تفوقت على أسلحة الزرهوني ومدفعيته ذات العيار الصغير . وفي شتنبر اتجه الثوار إلى سلوان بعد أن توقف بوعمامة عن مناصرته وأصبح كل من نجله الطيب وعبد المالك بن عبد القادر في قبضة المخزن .

— — في يونيو 1905 / ربيع 1 سنة 1323 وقعت خلافات بين الباشا ابن عبد الصادق وقادة الجيش ، وأخذ عدد من الضباط والجنود يلتجأون إلى الجزائر بعد توقف رواتبهم ، وأثناء ذلك حاول بوحمارة بمساعدة فرنسيين من الجزائر أن

يحصن نفسه بالسلاح والعتاد ، فاقترض منهم المال وسمح لهم بإنشاء ميناء بمكان الناظور الحالية وكانت تعرف بضاية بوعرق . وكان المخزن قد استغنى كليا عن المدربين الأجانب بقرار اتخذه في نهاية 1904 وبإيعاز من ألمانيا التي وعدته بالمساعدة لكن دون نتيجة . ورخص بوحمارة للأسبان مقابل أموال بخسة بوضع أيديهم على معادن الحديد وأراض كثيرة حول مليلية . وكان لهذا التصرف الخطير في التراب الوطني أثره الحاسم في إضعاف نفوذه بالشمال وتحول عدد من القبائل هناك إلى مقاومته .

وقد استغل بوحمارة توقف المواجهة مع قوات المخزن الجائعة والعارية مدة سنة تقريباً كان خلالها وقبلها ينعم على الفرنسيين والأسبان بالامتيازات الترابية والمعدنية . لكن فيما بين ربيع الأول 1324 / أبريل 1906 إلى رجب / شتنبر من نفس السنة انتقلت المواجهة ضد الثوار إلى غرب ملوية وكانت سجالا لم ينته معها أمر هذه الحركة التي كانت الأولى من نوعها بالمغرب لتعدد الأطراف التي كانت بجانبها أو ضدها أو معها مرة وضدها أخرى حسب الظروف والمصلحة ، وأثناء هذه الفترة عادت جل يزناسن وكبدانة إلى التعاون مع المخزن بعد أن اكتشفت انحرافات الثورة وتلافيها للانتقال إلى فاس عقر دار المخزن حيث يمكن لبوحمارة حسب زعمه أن يثبت دعواه بالانتماء إلى الأسرة المالكة أو يتمكن من إغلاق أهم منفذ للمغرب الشرقي في وجه أنصار مولاي عبد العزيز . وعلى كل فهو لم يحاول الهجوم على فاس إلا بعد فوات الأوان .

وبعد التاريخ المذكور لم تعد هناك إلا مناوشات ضعيفة لأن أحداثاً أخرى ذات خطورة أشمل بدأت تبرز بالمغرب الشرقي وجهات أخرى من المغرب . وهذا بعد أن وقع المغرب على ميثاق الجزيرة الخضراء في أبريل 1906 كما سيأتي بيانه ، أما مصير بوحمارة فقد تلا هذه الأحداث الجديدة ولكل مكانه ضمن تسلسل الأحداث(46) .

---

(46) عن الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) وثورته : سليماني، لسان ص 144. بمنصور، أعلام المغرب، 1، 303، *L. Voinot, les conséquences de la lutte du makhzen et du Rogui, 1903 - 1905 in Bul,* 397 *de la Société de Géog. d'Oran, 1934. L. Arnaud, Au temps des mehalla, pp. 153 - 214 et 269 - 286. Eugène Aubin, Le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1904. Le Glay, Le Nord du Rogui, Paris 1926*

وعن عبد المالك وبو عمامة، ماسبق بالاضافة الى : ع الحميد الاسماعيلي، علم ثقافي، الرباط، يونيو 1981 ع 565 والاخضر بوعمامة، ن. م. 16 اكتوبر 1981. مراكشي اعلام، 8، 379، ابو القاسم سعد الله، المجلة التاريخية المغربية، ع 1974/1.

ثورة الشريف الريسوني

ينتمي آل ريسون إلى البيت النبوي ؛ وهم ينحدرون من الولي الشهير عبد السلام بن مشيش الذي هو من سلالة إدريس الأول ، والزاوية الريسونية التي برز نشاطها منذ العصر السعدي كانت لها مساهمات طيبة وإيجابية في المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية انطلاقا من مقرها بتازروت في جبل العلم .

ومولاي أحمد الريسوني الذي ظهر كمعارض مناهض لسياسة مولاي عبد العزيز ينتمي إلى عائلة طيبة تعيش وسط جبالة حيث ولد ونشأ في زينات ببني عروس . ويمكن تقسيم مراحل حياته بعد أن بدأ نشاطه يثير انتباه السلطة والرأي العام إلى ثلاث :

1 — مرحلة المغامرة

2 — مرحلة مناهضة سياسة مولاي عبد العزيز وحكومته .

3 — مرحلة المواجهة المسلحة والسياسية ضد الاحتلال الأجنبي بشكل مباشر .

والمرحلة الأولى يظهر فيها الشريف الريسوني شاباً مغامراً يكتنف بداية نشاطه الغموض ، فهو يقوم قبل كل شيء بالعمل المسلح ضد عدد من لصوص المواشي الذين كانوا يتسلطون على قرية زينات وسائر جبالة على مشهد من ممثلي السلطة الضعاف . وهذه المرحلة التي تتضارب فيها الأقوال عن تصرفاته قادته في النهاية إلى السجن عدة سنوات . فالمغامرة قادته إلى القيام بحركة مضادة لأعمال اللصوص وقطاع الطرق الذين كان الريسوني ينتقم منهم ويشل حركتهم ويقطع هو عليهم الطريق . ولكن لا يمكن في غياب الوثائق عن هذه المرحلة بالذات أن ينسب الشريف الريسوني إلى اللصوصية لمجرد تصرف انتقامي ضد اللصوص . كما أنه في هذه المرحلة الشابة من حياته كان أبعد بكثير عن تصرفات الإقطاعيين الكبار من أمثال الكندافي والمدني الكلاوي والمهدي المنبهي ممن فرضوا أنفسهم على الدولة بالقوة أو بالاحتيال بينما هم يكدسون الأموال في الصرر والخوابي غصبا عن القبائل التي طالما نهبوا موارد رزقها المحدودة . وهكذا فإن التهمة التي ألصقت بالشريف الريسوني على يد السلطة هي أنه كان يقطع الطريق على القوافل بين طنجة والقصر الكبير دون أن تنجح حملات التأديب التي كان يبعثها مولاي الحسن في ردعه .

وأخيرا وقع الاحتيال للقبض عليه في مقر الباشا بطنجة ثم اقتيد مكبلا إلى الجزيرة القريبة من الصويرة سنة 1312 / 1894 ولم يطلق سراحه إلا سنة 1318 / 1900 بعد أن تدخلت أسرته لدَى دوائر المخزن ، وطلب الشريف نفسه وساطة الحاج محمد الطريس النائب السلطاني بطنجة . وأخيراً تدخلت الأسرة الريسونية لدَى العاهل مولاي عبد العزيز وشقيقه مولاي عبد الحفيظ . وكان مولاي أحمد قد حاول الفرار من السجن ولكن اكتشف أمره على الفور ، وتعد فترة السجن مرحلة تهييئية لما بعدها حيث تعرف على الأوضاع السياسية وطريقة تدبير الدولة من خلال اتصالاته بالمعارضين المعتقلين الذين كانت تستضيفهم أعماق السجن الرهيب بالجزيرة والذي لايزال قائما كأثر .

وأما المرحلة الثانية فتبدأ بعد خروج الريسوني من السجن وقد بدأ يشهد تطورات خطيرة في الأوضاع السياسية . فإلى جانب نفوذ الضباط الإنجليز والفرنسيين في الجيش والبلاط ، هناك مخزن عاجز وجل عناصره المركزية غير مؤهلة لمواجهة الموقف . وهناك معاهدات سرية تعقد تباعاً بشأن اقتسام المغرب بين إسبانيا وفرنسا . ثم إن هناك سبباً آخر لغضب الريسوني من مخزن مولاي عبد العزيز ولمناهضته لحكم هذا السلطان ، وهو أن أملاكه التي صودرت بعد القبض عليه لم توافق السلطة على إعادتها إليه . وهذا هو السبب المباشر في عودته إلى المغامرة مرة أخرى لكن بصورة مباشرة ضد المخزن ثم ضد الأجانب .

— ففي سنة 1321 / 1903 هاجمت قوات المخزن قرية زينات وكان بصحبتها صحفي إنجليزي هو هاريس الذي اختطفه أنصار الريسوني . ثم اختطفه أهل أنجرة الذين طالبوا المخزن كفدية لهم . بإطلاق مساجينهم لدَى الدولة وهذا ما حصل بعد شهر ونصف من اعتقال الصحفي .

— في 18 مايو 1904 اختطف الريسوني أمريكيا هو بيرديكاريس *Perdicaris* وصهره فارلي *Varley* وطالب بتنفيذ عدة شروط من أجل تسريحهما ، ومن بينها فدية ضخمة وعزل باشا طنجة وتعيين الريسوني نفسه عاملا على أحواز طنجة . وقام الأسطول الامريكي بتهديد طنجة ، لكن المخزن نفذ كل شروط الريسوني الذي أصبح قائدا على أحواز طنجة في 28 يونيو 1904 . وفي

هذه الأثناء كانت حركة الجيلالي الزرهوني قد اتسع نطاقها شرقا وشمالا. وحيث إن الفحص كله بيد الريسوني فإن الأوروبيين بطنجة أخذوا يتضايقون من هذا الجبلي الذي كانوا يخشون بطشه وسطوته ، وكان الفرنسيون أكثر خوفا بعد أن أسند إلى الضابطين فورنيي وابن سديرة مهمة التدريب والإشراف على المدفعية بطنجة .

– في فبراير– مارس 1905 تقدم السفير الفرنسي روني طاياندي بمشروع إصلاحات تهم المغرب ، وعارض الريسوني هذا المشروع .

– في 31 مارس 1905 حل الامبراطور الألماني غيوم بطنجة ، وجاء بعده مبعوث عنه في مايو 1905 يعارض المشروع الفرنسي ويدعو إلى عقد مؤتمر دولي وكان هو مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي ابتدأ في 15 يناير 1906 .

– عارض الشريف الريسوني نتائج مؤتمر الجزيرة الخضراء ضمن الزعماء الذين استنكروه وبذلك أصبح معارضا للسلطان نفسه على الصعيد السياسي بقدر ما كان كذلك على صعيد الإدارة .

– في أواخر أكتوبر 1906 قامت جماعة من بني عروس بثورة داخل أصيلا . فانزعج الاسبان ونسب بعضهم ما حدث بها إلى الريسوني حتّى إن باشاها ابن عبد الخالق اضطر إلى مغادرتها .

وحسب الأستاذ ابن عزوز في كتابه «موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي» فإن المخزن نفسه دعا الريسوني إلى قمع ثورة بني عروس التي نهبت خلالها أموال عدد من الأجانب بأصيلا ، وفي هذه الأثناء أصبح الريسوني مسؤولا عن إدارة أصيلا ، كما أنه كان مسؤولا عن حماية الأمن ابتداء من طنجة إلى ضواحي القصر مع وجود باشا بطنجة .

– نونبر 1906 بدأت فرنسا وإسبانيا تحركان مجموع ممثلي الدول بطنجة لإقصاء الريسوني الذي عارض تنظيم شرطة حديثة بالمغرب تمثل فيها إسبانيا وفرنسا بإطاراتها في عموم المغرب ، وقرر البلدان انزال قوة عسكرية بطنجة التي أصبح أمن الأجانب بها مهددا من أنصار الريسوني . وكان الريسوني يضايق المعمرين والبحريين الأجانب الذين يتجولون بطنجة ، وكان هدفه الفرنسيون وحدهم .

ـ في دجنبر 1906 رست عدة قطع بحرية فرنسية حول طنجة وهدد الأسطول باحتلال المدينة إذا لم يتم إقصاء الريسوني، وعندئذ وجه العاهل وزير الحرب محمد الجباص على رأس قوة ضخمة من 4 آلاف جندي مجهزة بالمدفعية لإخضاع الريسوني الذي لم يفاوضه أحد بشأن مواقفه، فلجأ إلى الزينات، وفيما بين 27 ـ 31 دجنبر 1906 أسندت منطقة نفوذه إلى بلغازي باشا طنجة. ثم هاجمت فرقة من الجيش بقيادة بوشتة البغدادي قرية الزينات وكان معه ماك لين وملازم إنجليزي وطبيب فرنسي. وأطلقت قنابل المدفعية على القرية التي ردت بطلقات البنادق حيث جرح البغدادي، أما الريسوني فخرج ليلا بأمواله وحوالي مائة من أنصاره إلى الجبال متنقلا بين القبائل حتّى انتهى إلى بني يدر. وأثناء ذلك قام الجيش بحملات تأديبية ضد القبائل التي آوته، لكن تنقله بين مناطق وعرة غير آمنة جعل استدعاءه إلى طنجة أمرا محتوماً.

ـ في 1325 / يونيو 1907 حاول الضابط ماك لين أن يقوم بعمل يعيد به أمجاده في البلاط بعد أن قرر العاهل الاستغناء عن المدربين الأجانب في الجيش، فحاول أن يستدرج الريسوني إلى طنجة بحجة مصالحته مع المخزن ليهيئ فيما بعد اعتقاله، وهكذا فاوضه بشأن عودته إلى الطاعة فعرض شروطا منها إعادة ما صودر من أمواله وعودته إلى عمالة الفحص بإضافة أصيلا، وبعد أن فاوض ماك لين السلطان عاد ليقدم جوابه إلى الريسوني فألقي عليه القبض بمدشر الغراف بقبيلة سريف، وذلك بأمر من الريسوني في آخر يونيو أو أوائل يوليوز 1907. ثم عرض الريسوني كشرط لإطلاق سراحه حصوله على فدية من 20 ألف جنيه مع قيادة أنجرة المجاورة لسبتة. وتنازل المخزن لترضية الريسوني جزءياً بشطر من الفدية الذي بلغ خمسة آلاف جنيه يظهر أنه تقاضاها كمقابل لما فقده من أملاكه كما أنه حصل على الحماية الانجليزية فيما بعد، وأطلق سراح ماك لين في شتنبر 1907.

ـ 16 غشت 1907 أعلن خلع مولاي عبد العزيز بمراكش وتنصيب أخيه مولاي عبد الحفيظ الذي بايعته فاس في يناير 1908 وقد ساند الريسوني بيعة السلطان الجديد الذي دعاه قبل أن تتم بيعة المنطقة الشمالية له، إلى التدخل لدَى قبيلة أنجرة لإطلاق سراح أحد الإنجليز الذي كان محتجزا لديها[47].

(47) وثيقة بتاريخ 15 جمادى الثانية 1326 زودني بها قبل نشرها الاستاذ المحامي السيد علي الريسوني.

— فاتح صفر 1327 / 22 فبراير 1909 عين الريسوني عاملا على أصيلا وقسم كبير من جبالة وقد أصبح الريسوني في هذه الفترة أكثر امتثالا لتعليمات المخزن ويحرص على أداء واجباته الإدارية والسياسية بمرونة كما أن المخزن يوجهه بدقة[48]. فقد أصبح المغرب يعيش في وضعية يائسة تجاه التغلغل الاستعماري الذي فغر أفواهه باحتلال وجدة والدار البيضاء سنة 1325 / 1907 على أن عمالة أصيلا وأنجرة التي ضمت مدة مدينة القصر الكبير عزلت عنها منطقة جبالة لما نسب إلى الريسوني من تجاوزات في معاملة أهلها.

— في مايو 1911 تحركت القوات الفرنسية باتجاه فاس بناء على طلب من العاهل، وفي يونيو احتلت مكناس بينما احتلت إسبانيا العرائش والقصر الكبير التي كان قد أخلاها الريسوني بعد أن استدعى السلطان الجيش الفرنسي للزحف على فاس. وإذا كان الفرنسيون قد اتهموا الريسوني بكونه قد دعا الاسبان إلى احتلال العرائش والقصر الكبير وكانوا يطمعون في ضمها إلى منطقة نفوذهم فإن الأحداث تؤكد في جميع الأحوال أن الريسوني ظل لفترة طويلة أكثر مرونة مع الاسبان منه مع الفرنسيين.

وهكذا تبدأ المرحلة الثالثة من حياة الريسوني كعنصر بارز في مغرب ما قبيل الحماية وما بُعيْدها فقد أعلنت الحماية الفرنسية والاسبانية سنة 1912 وغادر الريسوني أصيلا في أول دجنبر 1912. إن هذه المرحلة لا تهم هذه الدراسة تاريخياً. ولذلك ينبغي تلخيصها أكثر ما يمكن. فإن الاسبان رأوا أن ينصبوا الريسوني سنة 1913 خليفة بمنطقة الشمال عن عاهل المغرب. ولكن الأمر لم يتم بسبب الموقف الفرنسي المعادي لشخصه. وتمَّ الاتفاق في الأخير على أن ينصب أحد أفراد الأسرة المالكة، وفيما بين 1913 — 1918 كانت علاقة الريسوني بالاسبان عادية في مجملها ولكنه عمل على مساعدة الثوار المجاورين لمنطقة الشمال والخاضعين للنفوذ الفرنسي أو الرافضين له بالأولى. وفي 1919 دعاه الاسبان إلى مبايعة مولاي المهدي فمانع في ذلك وأعلن الحرب على الاحتلال الإسباني وناضل من أجل الشرف الوطني إلى أن جندت إسبانيا كل إمكانياتها بعد معركة أنوال 1921 فلجأ إلى تازروت التي احتلها

(48) وثيقتان لم تنشرا حتى وقت تحرير هذه الدراسة، إحداهما بتاريخ 23 جمادى الأولى 1327 والثانية في 23 جمادى الثانية 1327، وسلم الي صورتهما مشكورا الاستاذ علي الريسوني.

الاسبان سنة 1922 وفاوض الحكومة الاسبانية بشأن توقيف مواجهته لها . وفي 1343 / 1925 زحفت قوات ابن عبد الكريم الريفي إلى تازروت وكان الريسوني مريضا بالاستسقاء وقد نفر عنه كل أنصاره إلا أفراداً ، وانتقد عليه ابن عبد الكريم مهادنته للأسبان وليونته تجاههم ثم حمل مريضاً إلى أجدير مقر الثورة الريفية ، وبعد أقل من شهر ونصف توفي في رمضان 1343 / 10 أبريل 1925 .

كانت ثورة الريسوني قبل الحماية تجمع بين حياة المغامرة ومناهضة المخزن والنفوذ الأجنبي بوجه عام . وكان لكثير من وسائل العمل التي مارسها مبرراته التي نجدها في انهيار السلطة الحكومية وانتشار الغصب والنهب وانعدام سياسة الحوار وتكالب الأجانب على ممتلكات الدولة والخواص وتهديداتهم الخرقاء المتواصلة للسيادة المغربية للشعب والدولة معاً .

وكان الريسوني مناهضا للفرنسيين أكثر من غيرهم لأنه كان يحملهم مسؤولية احتلال المغرب بأجمعه . لقد كان مغامراً في فترات من حياته قبل الحماية ، ومارس من غير شك تجاوزات في هذه الفترة داخل السلطة وخارجها ، ولكنه في جميع الأحوال لم يؤلف حكومة ولم يعلن استقلالا ولم يتنازل عن شبر من الوطن للأجانب . واحتلال القصر الكبير من لدن الأسبان بتنازل منه إنما هو تهمة فرنسية لم تقم على حجة ، فإن ثبتت فإن الرجل يتحمل في ذلك مسؤولية وطنية لا تناقش ، والذين ساندوا الريسوني هم جَبَليون أشداء محافظون على القيم الدينية يوجدون في الصفوف الأمامية كلما دعوا إلى المشاركة في الدفاع عن القضية الاسلامية والتراب الإسلامي، فكانوا بجانب طارق بن زياد في نشر الإسلام بالأندلس، ثم بجانب الدولة الإدريسية في المغرب. وكانوا بجانب المذهب المالكي مع المرابطين، وكانوا في الصفوف الأمامية التي حررت الثغور المغربية في عهد السعديين وفي عهد مولاي اسماعيل ومحمد الثالث العلوي.

وبالطبع كان بجانب الريسوني في فترات المغامرة وشن الغارات عناصر من المغامرين مثله والذين كانوا أقلية لا تتجاوز عشرات محدودة في أزهر أيامهم ، كان الريسوني شهماً عالي الهمة في وطنيته ، يسعَى إلى الموت من أجلها إذا لزم الأمر . وهذه الروح الشماء التي تعرب عنها المبادرة والمواجهة ضد عدو قوي ينبغي أن تغسل كل وصمة في جبين هذا الرجل الذي لم يكن من حوله عندما بلغت أزمة

المغرب ذروتها إلا إقطاعيون يسلمون للعدو تراب الوطن جزءاً جزءاً . ماعدا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه[49] .

الصحراء الغربية وموريطانيا

عرفنا أن الأسبان قد احتلوا منطقة الداخلة عسكرياً وكذا سائر منطقة وادي الذهب سنة 1302 / 1884 وهذا بعد أن كانوا خلال أربعة قرون أو زهاءها قبل هذا التاريخ يترددون على سواحل الصحراء الغربية للتبادل التجاري مع السكان . وقد ينشئون بين الفينة والأخرى مركزا تجارياً أو للصيد لا يطول به الأمدُ حتّى يدمره السكان . وفي سنة 1884 أيضا وضعت إسبانيا الدول الموقعة على ميثاق برلين أمام الأمر الواقع بإعلان حمايتها لوادي الذهب[50] .

وفي 1892 هاجم السكان بواخر الشركة الإسبانية بالداخلة . وقيل إن ذلك كان من عمل سوري اسمه محمد صبيره أسس مع إسباني شركة بالمنطقة وكان صبيره متزوجاً من خالة القائد صالح بن البشير بيروك ، وهو أي السوري تلميذ لماء العينين .

وفي 1311 / 1894 هاجم أولاد الدليم وأولاد بو السبع والعروسيون مقر الشركة الإسبانية طرانز اطلانتيك[51] وقد بايع ماء العينين السلطان مولاي عبد العزيز في هذه السنة بعد أن بدأ مقاومة الاحتلال الأجنبي بعدة سنوات ، وهكذا عاد ماء العينين إلى الصحراء الغربية على متن باخرة ملكية مشحونة بالأسلحة والعتاد ثم حول أهم شطر من نضاله إلى الفرنسيين الذين تدربوا على التوغل في الصحراء الشرقية للمغرب ، بينما التزم الأسبان مراكز محدودة على الشاطئ بوادي

---

(49) ابن عزوز، الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب، ج 1. موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي. التهامي الوزاني، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب. على الريسوني،رجال ومواقف. وثائق سبق ذكرها. ادريس الرجراجي : حقائق تاريخية... جريدة الوحدة الكبرى، عدد 64 و65. شعبان 1401/يوليوز 1981. ابن زيدان، اتحاف 1.

Garcia Figueras, Del Marruecos Feudad Madrid, 1930, Manuel Ortega, El-Raisuni, Madrid, 1917, Michaux Bellaire al-Raisouni, Revue du monde musulman, Paris, 1908. Arnaud, Au temps des mehalla. Walter Harris, France, Spain and the Rif, London, 1927.

(50) *A. El-Fassi, livre rouge, p. 238, Du Puigaudeau. Le passé maghrébin... p.81*

(51) *Livre rouge, p.238*

الذهب[52] . هذا الاسم الذي أطلقه الأسبان أنفسهم على المنطقة . لكن الاسبان كانوا هم أيضا يغامرون بحذر في الداخل بتيريس الغربية (وادي الذهب) حيث اتصلوا بالشيخ سعدبوه أخي ماء العينين جنوب شرقي بئر أجايلا[53] . وكان سعدبوه دون أخيه ماء العينين في قوة النضال ، ولذلك وقف موقفاً بعيداً عن الجهاد الصامد الذي قاده ماء العينين وكان للفرنسيين اتصالات به شأن الاسبان ، ومن بينهم الضابط كوبولاني *Coppolani* الذي أعطَى لمنطقة شنقيط والجمهورية الموريطانية الحالية اسم موريطانيا في السنوات الأولى من القرن العشرين م[54] .

وفي سنة 1894 أيضا استرجع المغرب طرفاية من يد الإنجليز مقابل تعويضات ضخمة عن المنشآت و«الحق التجاري !» وأبرم بهذا الشأن اتفاق أمضاه الصدر الأعظم أحمد بن موسَى (باحماد) وممثل بريطانيا بطنجة إرنست ساطون[55] . وذلك برمضان 1312 / 1894 . ويعتبر هذا الاتفاق من الشهادات الدولية الكثيرة عن السيادة الترابية والقانونية للمغرب لأنه ينص على سيادة المغرب على ما وراء طرفاية . لكن الإنجليز حاولوا أن يستعيضوا عن الصحراء الغربية بإنشاء مركز تجاري بوس ، وفي نفس الوقت ، ودون أن ينجحوا في تأسيس المركز التجاري ، أخذوا يتجرون في الأسلحة . فقام النائب السلطاني عبد الله بنسعيد بتقديم احتجاج إلى الممثل البريطاني وذلك في 16 نونبر 1899 بعد أن ضبط التجار الإنجليز متلبسين بجريمتهم[56] . أما السلطات الإسبانية العليا بمدريد فقد حرصت في هذه الظروف على منع بيع الأسلحة للمناهضين للسلطان بالصحراء الغربية[57] وواضح أن هؤلاء المناهضين هم الذين اشترت السلطات الإسبانية ذِممهم وهم قلة قليلة .

وفي 1317 / 1899 أجرى وزير الخارجية الفرنسي ديلكاسي *Delcassé* وليون إي كاستيو *Léon y Castillo* السفير الإسباني بفرنسا محادثات مبدئية بشأن مشروع اتفاق جديد ذي صبغة استعمارية ، وكانت الصحافة الإسبانية

---

(52) *Du Puigaudeau, Le passé maghrébin p. 94*

(53) *Paul Marty, Le Sahara Espagnol, Revue du monde musulman, T, 46, p.193*

(54) *G. Gouraud, Mauritanie Adrar, pp.13 et 15*

(55) ورد النص العربي لهذا الاتفاق في الساقية الحمراء ووادي الذهب/محمد الغربي، ص 336.

(56) عبد الهادي التازي، مجلة البحث العلمي، سنة 1977م، ص 23

(57) *Livre rouge, p.* 239

وساسة إسبانيا يلومون حكومتهم على ضعفها تجاه الضغط الفرنسي بشأن إعداد ضمانات مسبقة لاقتسام السيادة المغربية مع عدم التساوي بين الطرفين حتّى ذلك الوقت في ابتلاع التراب المغربي(58) . ولما كانت تقع احتكاكات على الحدود بين غينيا (الفرنسية) التي تم استعمارها على مراحل منذ الثلاثينات من القرن 19م والإسبانيين على بعد الشقة ووجود السينغال كحاجز وهي أيضا مستعمرة فرنسية . فإن الضرورة أصبحت تتطلب عقد مؤتمر لاقتسام السيادة على إفريقيا الغربية التي للبرتغال والأسبان والإنجليز جميعاً نصيب فيها . وهكذا توصل الطرفان الفرنسي والإسباني إلى اتفاق 27 يونيو 1900 (1318)(59) يحدد (ممتلكات) كل منهما بخليج غينيا وشواطئ الصحراء الغربية . والفصل السابع منه ينص صراحة على حق الشفعة لفرنسا بالنسبة لبعض الجزر القريبة من الكونغو والتي قد تتنازل عنها السلطة الإسبانية .

ويقول بول مارتي بصدد المساومات الفرنسية الإسبانية(60) :

«إن تاريخ وادي الذهب سياسي كليا ، أو على الأصح ، دبلوماسي تماما . وهو ليس سوَى صفقات عقدتها إسبانيا مع فرنسا بشأن المنطقة كلما تقدمت أسلحتنا في موريطانيا وأذكت في إسبانيا بشيء من القلق . الرغبة في أن تعجل بتحديد صحرائها (كذا) . وقد بدأ هذا التحديد في 1900 ، واستمر إلى 1904 ، وانتهى في 1912» .

لكن تاريخ وادي الذهب لا يمكن عزله عن الصحراء الغربية وموريطانيا قبل استقلال هذه الأخيرة بالأخص ، فإن القبائل التي كانت تتحرك طردا وعكساً لم تتغير وهي رحل لا تعرف حدودا بينها ولا فيما بينها والشمال المجاور ، ولذلك كان تحرك المقاومة شاملا . وقد عرف الصحراويون الدور الخطير الذي كان لفرنسا في التغلغل الاستعماري . وقد حاولت مجموعة من الفرنسيين سنة 1900 أن تدخل إلى أدرار فاعتقلها السكان ، واعتبر مؤلف «الجأش الربيط» أن هذه أول مرحلة في

---

(58) *A. El-Fassi, Livre rouge, p.240*

(59) النص المترجم لهذا الاتفاق في كتاب «الغربي» المذكور ص 288.

(60) *Marty, Op.Cit, p. 196*

الاهتمام الأوروبي المباشر بما كان معروفا بشنقيط[61]. ونقل هذا المؤلف نص رسالتين وجههما الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز بفاتح وسابع محرم 1318 / 1900 ويثير فيهما انتباهه إلى استعداد الفرنسيين لاكتساح أدرار وأشار عليه أن يذكر الساسة الفرنسيين بسيادة السلطان على هذه المنطقة. وقال الشيخ ماء العينين: «واعلم أن النصارى كثيرا ما تأتيني رسلهم طلبا للعهد معي وأنا أمتنع لهم من ذلك أي امتناع إلا إذا كان ذلك على يد السلطان ...»[62] وهذه الجملة ذات دلالة على وطنية هذا المناضل الكبير الذي طالب كما كان شأنه دائما بالسلاح وحضور ممثلين إداريين من المخزن لإثبات وجود الدولة وحمايتها للسكان. وظهر ماء العينين شجىً في حلق الفرنسيين. فإن الجنرال كورو يشهد بصلابته في الدفاع عن الإسلام وبنوه بأخيه وبعض أفراد أسرته الذين لم يسيروا في خطه[63]. وسجل كورو أيضا أن ماء العينين قد وضع يده على أدرار ونصب عليها سنة 1320 / 1902 أميرا من بين تلاميذه. لكن القوات الفرنسية تقدمت في تغلغلها تدريجيا بشنقيط خلال هذه السنة مستعملة إلى جانب ذلك الأساليب «المدنية» المعهودة لدى دهاة الاستعمار. فإن كوبولاني الذي عينته الحكومة الفرنسية مندوباً لها بموريطانيا كان مستعربا خبيراً بالشؤون الإسلامية. وكان يعتمد على الاتصالات والحوار مع الزعماء ويغريهم بالمال والجاه ويستعمل سياسة فرق تسد بين المناهضين منهم للاستعمار. وحصل من الشيخ سيديا بابا على فتوى تثبت أن الاحتلال الفرنسي نعمة من الله[64]. أما التدخل العسكري نفسه فلم يبدأ إلا في 1321 / 1903 بمنطقة الترارزة حيث انضم إلى كوبولاني كل من أخي ماء العينين وسعدبوه. وعندما استولى الجيش الفرنسي على المنطقة نهائيا في هذه السنة غادرها أميرها المحلي أحمد سلوم ملتحقاً بشمال المغرب وفي هذه السنة أيضا (1322 / 1904) استولى جيش الاحتلال على منطقة البراكنة المحادية لإمارة الترارزة والتي تنتمي كالترارزة وقبائل أخرى إلى معقل. ومن المعلوم أن السلطة المغربية لم تعترف بهذه الاحتلالات الجزئية

(61) محمد الامام، الجأش الربيط، ص 78.

(62) نص الرسالتين في م. م. ص 78 — 79.

(63) *Gouraud, Op.Cit, pp. 16 - 17*

(64) *Du Puigaudeau, Le passé maghrébin... pp. 89 - 90*

وواصلت باتفاق مع زعماء القبائل وكبيرهم الشيخ ماء العينين تعييناتها للموظفين المخزنيين.

وسجلت سنة 1904 اتفاقيات سرية على حساب المغرب ومصر:

1 - التصريح الفرنسي الانجليزي بشأن مصر والمغرب ؛ وهو مؤرخ بـ 8 أبريل 1904 ويضم 15 فصلا[65]. وينص الفصل الثاني على حق فرنسا في السهر على الأمن والطمأنينة بالمغرب وأن لا تعرقل أنجلترا تحركها بهذا الصدد كما أن الفصل الأول ينص على أن فرنسا لن تتدخل للمطالبة بوضع حد للاحتلال البريطاني لمصر.

2 - الفصول السرية الملحقة بالتصريح المذكور والمؤرخة بنفس التاريخ والمكونة من خمسة بنود ينص ثالثها على منح إسبانيا السيادة على قسم من التراب المغربي بجوار ممتلكاتها بالشمال.

3 - الاتفاق السري الفرنسي الإسباني الموقع بباريز في 3 أكتوبر 1904[66] من لدن وزير الخارجية ديلكاسي والسفير الإسباني دي ليون إي كاستيو ويتكون من 16 فصلا تنضم إسبانيا بموجب الفصل الأول إلى المعاهدة السرية الفرنسية الانجليزية المذكورة ؛ وينص الفصل الثالث على حرية التحرك بالنسبة لإسبانيا في منطقة نفوذها. ويحدد الفصل الرابع حدود «إيفني» ؛ والتاسع ينص على بقاء طنجة دولية ؛ والعاشر على إمكان استغلال مشترك للمعادن.

كل هذه الاتفاقات وما تلاها كان له أثره في مصير المغرب عموماً ؛ وحتّى لو كان المغرب على علم بفحواها كلياً لما أغناه ذلك شيئا ؛ لأن أصحابها هم أقوى الدول الاستعمارية وهم يجاورون المغرب برا وبحراً من جميع حدوده والوضع كما علمنا من زعامات غير موحدة وإقطاعيين يلتهمون بيت المال وسياسة مخزنية تعيش صعوبات وتعقيدات داخلية.

واستحث الشيخ ماء العينين السلطان مولاي عبد العزيز في خطاب وجهه إليه بشأن تعيين نائب عنه بشنقيط وتزويده بالسلاح والعتاد[67]. وهو مؤرخ بـ 13

(65) الغربي، الساقية الحمراء ص 306.

(66) ن. م. ص 294.

(67) الجأش الربيط، ص 22.

رمضان 1322 / 1904 . لكن المخزن كان منشغلا بالثورات التي اندلعت في كل مكان . وأخيرا وجه الشيخ وفداً يتقدمه عبد الله بن هندوب من أسرته في 1323 / 1905 للقاء السلطان ورجال البلاط ، فعين العاهل الأمير مولاي إدريس بن عبد الرحمن بن سليمان نائبا عنه وأصحبه مجموعة من كبار المسؤولين[68] . وبالنظر لبعد المسافة وسوء الأوضاع الأمنية فقد توجه الموكب من فاس إلى العرائش ثم اتخذ الطريق البحري إلى الصويرة ثم إلى طرفاية ؛ ومنها انطلق براً إلى السمارة ، المركز الديني والسياسي والفكري الذي أنشأه ماء العينين بمساعدة السلطة المغربية . وقام الفقيه محمد بن الحسن بن يعيش من الوفد الأميري بتسليم أربعة عشر ظهيرا إلى القواد الجدد الذين عينهم السلطان ، وكان استقبال النائب السلطاني عظيماً بالسمارة بعد أن كان كذلك في طرفاية .

وتعزز موقف ماء العينين وأنصاره بحضور الممثل السلطاني والفرقة العسكرية التي لحقت به . ولذلك نجد الشيخ يكاتب عددا من زعماء موريطانيا لينضموا إلى حركة المقاومة التي أصبحت لها قيادة رسمية يمثلها النائب السلطاني ، وروحية يمثلها الشيخ ماء العينين . وكان ممن كاتبهم . الشيخ سيديا من أشياخ الطرق . فأخبره بتشكيات السكان من التغلغل الفرنسي وأن هؤلاء طلبوا منه أن يبذل مساعيه لدى السلطان الذي ذكّر الفرنسيين بأن التراب الموريطاني تحت سلطته ولا حق لهم في الاستيلاء عليه فأجابه هؤلاء بأن هذه البلاد مهجورة ويتعين أن تصبح ملكا لأول من يضع عليها يده ؛ وأشار ماء العينين في هذه الرسالة إلى أن السلطان ذكّر الفرنسيين بأن موريطانيا تحت نفوذه رسميا من عهد أمير الترارزة علي شندورة (عهد مولاي اسماعيل) . وأن أميرا من الأسرة المالكة قد حل بالمنطقة . ومهمته الحصول على ولاء السكان ومساعدتهم بالجيش والسلاح . كما أن ولاء هؤلاء أقوَى حجة ضد المحتلين . وقد كتبت هذه الرسالة في 15 رجب 1323 / 15 شتنبر 1905[69] .

وبعدما تسلم القواد ظهائرهم تمت عملية تجميع الزكوات المتخلفة فبلغت ألفا ومائة جمل بيعت بسان لوي التي كانت تدعَى بأندر[70] . وكان رد فعل الشيخ

(68) مراكشي، اعلام، 7، 172. *Du Puigaudeau, Le passé maghrébin, p.97*

(69) *Boulmogdad, Lettre de Hassana, in Revue Le monde musulman, p.109*

(70) مراكشي ن. م. وص. تعليق بنمنصور

سيديا على رسالة ماء العينين أن طلب مساعدة الكولونيل مونطاني بالسلاح والمال لمحاربة إخوانه المجاهدين ، وأن يسمح له عند الاقتضاء باللجوء إلى السينغال . بينما أعلن زعيم آخر هو ولد عايدة الجهاد ضد الاحتلال وطلب تدخل السلطان[71] .

ومالبث مولاي إدريس والشيخ ماء العينين أن استأنفا نشاط المقاومة مع محاولة توحيدها بالمنطقة . وقرر القائدان الزحف على المناطق التي احتلها الفرنسيون بعد القيام بحملة دعائية واتصالات مع القبائل وتوزيع السلاح على المقاومين . وهكذا أيضا كان الأمر في الدفاع عن المراكز التي لم يحتلها الفرنسيون بعد . فقد تخطت هجوماتهم سنة 1905 بشكل ساحق ، في تيجيكجا جنوب أدرار التمر[72] . وتوبع النضال بعد ذلك فنجح المقاومون والجيش بقيادة الأمير في سحق القوات الفرنسية بتْيميلان وأدَّى ذلك إلى احتشاد مزيد من القبائل والمترددين حوله[73] وأثناء ذلك كان الاسبان في الصحراء الغربية يحشدون بضع مآت من الفقراء ليضموهم إلى الجيش الإسباني[74] . وحتَّى الألمان حاولوا أن يعرفوا عن كثب ماذا يجري في الصحراء التي أقصتهم عنها الاتفاقات السرية وهكذا فبفضل خبيرهم التقني بمراكش هولتسمان الذي كان أيضا مستشار مولاي حفيظ خليفة مراكش بعث القائم بالأعمال الألماني بطنجة وفدا تنقل بين عدد من زعماء القبائل والزوايا[75] . ومن جهة أخرى أخذ الضباط الأسبان يتحركون داخل منطقة الساقية الحمراء التي لم تكن المقاومة فيها أقل ضراوة منها في موريطانيا . فإلى هذا الوقت كانت إسبانيا ترَى أن الساقية الحمراء من مشمولات السيادة المغربية ولكن الاتفاقيات السرية مع فرنسا قدمتها لها هدية على سبيل التبادل والتعاون بالنظر للجوار الموريطاني .

وعندما بويع مولاي عبد الحفيظ بمراكش 1325 / 1907 كان الشيخ مصطفَى ماء العينين مشغولا باجتماعات على نطاق واسع مع زعماء القبائل الذين تلاحقوا به في الساقية الحمراء حيث قرروا الاتصال بالعاهل . وعندما حلوا بمراكش وجدوها قد بايعت مولاي عبد الحفيظ فأعلنت الوفود الصحراوية بيعتها

---

(71) *Du Puigaudeau, Le passé maghrébin. p.95*

(72) *P. Marty, Le Sahara espagnol, in Revue le monde musulman, T 46, p.198*

(73) *Du Puigaudeau, Le passé maghrébin, p.100*

(74) *A. El-Fassi, Le livre rouge, p.240*

(75) *Du Puigaudeau, Le passé... pp.99 - 100*

ن[76] . واحتجت فرنسا على استقبال مولاي حفيظ لماء العينين فدعاه العاهل إلى الرجوع إلى الصحراء وزوده بما أمكن من الأسلحة فضلا عن المؤونة[77] .

وفي هذه السنة تمكن المقاومون من تدمير ثلاثة فيالق بموريطانيا في ضمانة وأصلات ومركز ثالث[78] كما عين الكولونيل كورو للسهر على تدمير المقاومة وتوطيد الاحتلال . وقد نشر مذكراته العسكرية في كتاب بعنوان : موريطانيا أدرار *Mauritanie Adrar* وتحدث بتفصيل عن المقاومة التي لقيها في أطار مركز أدرار ذي الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية بل إن جيشه لقي مقاومة ضارية في أماتيل ومشارف أدرار في نهاية 1326 / 1908 وبداية السنة التالية حيث اشتبك مع أنصار ماء العينين وسائر سكان أدرار . وقال ضابط فرنسي : يجب أن يحارب المرء المغاربة ليعرف قيمتهم . إنهم أنداد خطيرون جداً[79] وقد استطاع أهل أدرار سنة 1908 بزعامة ولد عايدة أن يفتكّوا مركز أكجوجت من يد المهارية الذين جندهم الاحتلال . غير أن الضباط الفرنسيين كانوا في نفس الوقت يسخرون بعض المتخاذلين واليائسين والخونة من السكان لتثبيت أقدامهم[80] .

وفي 9 يناير 1909 استولى الجيش الفرنسي على اطار فانفتح الطريق الشمالي أمام الاحتلال وأخذ عدد من المقاومين والقبائل ينسحبون إلى الساقية الحمراء في انتظار الفرصة لاتخاذ موقف[81] وبحث المحتلون عن أمير لأدرار فاستوردوه من سان لوي وهو ولد عايدة ابن عم الزعيم المذكور . وخلال هذه السنة الموافقة لـ 1327 عين مولاي حفيظ قائدا جديدا على الرقيبات وتدرارين ؛ وهو إبراهيم بن الحبيب بن بيروك . بينما استولى الكومندان كلوزيل على وادان في صيف هذا العام بعد معارك طاحنة[82] .

---

(76) محمد الامام، الجأش الربيط، ص 24 — 26.

(77) إعلام، 7، 173.

(78) *Marty, Op. Cit*

(79) *Du Puigaudeau, Le passé... p.101*

(80) *Général Gouraud, Mauritanie Adrar, pp.42, 43, 102*

(81) *Le passé maghrébin, p.101*

(82) *Gouraud, Op. Cit. p.223*

وقد عرفت هذه السنة توقفاً نهائياً عن المساعدة المخزنية العلنية للمقاومة التي أذكَى نارها الشيخ مصطفَى ماء العينين وتابعها نجله أحمد الهيبة، وعثر في السينغال على رسالة بإمضاء أحمد الهيبة في 20 ذي القعدة 1327/ 3 دجنبر 1909[83] وهي موجهة إلى محمد بن الخليل ، وفيها يخبره الهيبة بأنه قدم من عند السلطان (في غاية العز والافتخار والتبجيل والإكرام) . ويذكر انتصار السلطان على الروكي ومقتل الثائر ، وأن السلطان أمر الهيبة بالرحيل إلى تزنيت (وله كثير يطلب منا ذلك) وبالكف عن قتال الفرنسيين . وفعلا . استقر كل من الشيخ ماء العينين ونجله الهبة بتزنيت . خلال 1328 / 1910 . وظل أحمد الهيبة على اتصال مستمر بمولاي عبد الحفيظ عن طريق الرقاصين (سعاة البريد) . وقد أثار استقرار ماء العينين بتزنيت ونشاط نجله ارتياباً وارتباكاً لدَى ضباط الاحتلال بالمغرب واعتبر بعضهم أن وجود ماء العينين بسوس بأمر من السلطان ما هو إلا ورقة يستخدمها العاهل عندما يحين الوقت لإعلان الجهاد ضد الاحتلال[84] خصوصا وقد حضر بعدد كبير من الرجال وبـ 800 خيمة و16 ألف جمل حسب كورو .

وفي 28 أكتوبر 1910 توفي الشيخ مصطفَى ماء العينين بتزنيت حيث دفن بزاويته التي أعلن المصلون بها بعد وفاته عن بيعتهم لأحمد الهيبة كسلطان[85] في الوقت الذي لم يعد فيه مولاي عبد الحفيظ سوَى منفذ لتعليمات الساسة الفرنسيين والضباط الذين يحتلون وجدة والدار البيضاء وعدة مراكز أخرى . وكان عمل أحمد الهيبة هو أن المغرب أصبح بدون ملك أو أن هذا الملك يستحيل عليه أن يتولى حركة المقاومة وهو في قبضة الفرنسيين . ولذلك وجب أن يكون هناك قيادة روحية وسياسة جديدة ولو بصفة مؤقتة ، وجعل الهيبة من نفسه هذا البديل . هل كان هناك اتفاق ضمني أو سري مع مولاي عبد الحفيظ ؟ ربما ...

توات والصحراء الشرقية

لم يكد مولاي عبد العزيز يتولى الملك حتَّى عين عاملا عسكرياً على توات هو الباشا أحمد بن زروق . في شوال 1312 / 1895 الذي سار على رأس قوة من

(83) نشر هذه الرسالة *L. B. in Revue Le monde musulman, T26/19/4*

(84) *Gouraud, Op,Cit. pp.15,19-20*

(85) *Odette du Puigaudeau* البحث العلمي، 1979.

الجيش. ثم عوض على رأس الجهاز المدني بالقائد ابن عمور المراكشي في السنة التالية. وفي 1315 / 1897 نصب ولاة جدد بالمنطقة. وخلال شعبان 1317 / 1899 استولى الفرنسيون على واحة عين صالح ثم طردهم السكان واحتجوا لدَى العاهل على هذا الهجوم، وكان الباشا حينئذ إدريس بن الكوري الذي أبلغ العاهل بنفسه تشكيات السكان، فرفع العاهل الأمر إلى نائبه بطنجة محمد الطريس وهو الذي تولى تبليغ احتجاج الدولة المغربية لدَى ممثل فرنسا. وكان الفرنسيون في هجومهم قد قتلوا بعض المسؤولين المخزنيين وعددا من السكان. وحيث ان مشاكل الحدود الشرقية والجنوبية الشرقية أصبحت تستدعي حلا بشكل أو بآخر فقد فرضت الحكومة الفرنسية مجموعة من الاتفاقات المكملة لاتفاقات سابقة وهي :

1 — الصيغة التطبيقية المؤرخة بـ 20 يوليوز 1901، لمعاهدة 1845 (86).
وتتكون هذه الصيغة من تسعة فصول يسمح الثاني منها بوضع حراسة وجمرك للحدود بالنسبة للطرف المغربي فيما يخص تراب القبائل والواحات التابعة له. وبقي الفصل 4 غامضا فيما يخص تحديد تراب أولاد منيع وأولاد جرار بينما الفصل 5 يسمح بنوع غريب من تقرير المصير لهاتين القبيلتين، فمن اختار الطرف الفرنسي بقي مكانه، ومن اختار الطرف المغربي نقل إلى داخل التراب المغربي على أن يتصرف في أملاكه بحرية في الطرف الآخر، ومعنَى هذا أن السيادة على تراب الطرف المغربي انتقلت إلى الجانب الفرنسي وفي نفس الوقت أقر الجانب الفرنسي سيادته على القسم الخاص به من ذوي منيع وأولاد جرار. أما الفصل السابع فيسمح بحرية التنقل والتجارة بين سكان التخوم الشرقية من المغرب والتي تقابلها التخوم الغربية من الجزائر.

ووقع هذه الصيغة التطبيقية كل من عبد الكريم بنسليمان وديلكاسي بباريز.

2 — اتفاق 12 محرم 1320 / 20 أبريل 1902 (87) وهو تتميم للصيغة التطبيقية السابق ذكرها ويتكون من عشرة فصول تنص على تنظيم أسواق على الحدود ومراكز للجمرك والحراسة مع تحديدها. وينص الفصل السابع على تفاصيل

---

(86) *A. El. Fassi, Livre rouge, pp. 190 - 192*

(87) *Op. Cit. pp. 192 - 195*

منها إقامة مراكز مغربية للحراسة بكل من السعيدية ووجدة ووادي زا. ونص الفصل 9 على تعيين خليفة عن عامل فيكيك يمثل الحكومة المغربية في كل من القنادسة وبشار وأوكادة ويساعد السلطات الجزائرية ضد العناصر التي يمكن أن تلتجئ إلى هذه المراكز، ووقع هذا الاتفاق كل من محمد الجباص وكوشميز بالجزائر.

3 ـ إجراءات إضافية بتاريخ 27 محرم 1320 / 7 مايو 1902 [88] وتتكون من عشرة فصول وتتناول شكليات تتعلق بقبض الحقوق الجمركية ومسؤولية الأسواق المشتركة ونوع العملة وقضايا مراكز الحراسة، وقد أمضي هذا الاتفاق الإضافي أيضا بالجزائر على يد الجباص وكوشميز.

ويدل تتابع هذه الصيغ والإجراءات التطبيقية على أن السلطات الفرنسية لم تهضم بدقة ومقدماً تفاصيل التطبيق والنوازل المتوقعة لتكون صيغة واحدة. كما أنها جعلت السلطات المغربية رهن إشارتها وتحركها باستمرار لصالحها.

أما بشار التي ظلت تحت السلطة المغربية حتَّى 1321 / 1903 فقد ضمت في هذه السنة إلى الجزائر بعد أن ألحقت بها توات سنة 1318 / 1900 ثم أعطيت بشار اسم (كولومب بشار) وكولومب هو اسم ضابط فرنسي قام باكتشاف المنطقة سنة 1274 / 1857 بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر.

تيندوف [89]

مركز صحراوي ذكره البكري [90] باسم تندفس وقال إن به آباراً يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن. ويقع جنوب حماده درعة حيث يشرف على سبخة شاسعة. وتعرض المركز الذي عرف ازدهار مدينة حقيقية حولها النخيل في القرن 10 / 16 للتخريب على يد الرقيبات والبربر والطوارق حتَّى اندثرت هذه المدينة، وفي 1267 / 1850. قام أحد مرابطي تاجاكانت. محمد المختار الأعمش تلميذ محمد بن المختار الكنتي ببناء مركز حضاري جديد بهذه المنطقة

---

(88) *A. El-Fassi, Livre rouge, pp. 195-197*

(89) نستعرض هنا وضع تندوف لمجرد استكمال الحديث عن مصير الصحراء المغربية من جهاتها الثلاث.

(90) بكرى، مسالك، ص 156.

الخصبة التي تتحكم في طريق الصحراء الغربية وخطوط إفريقيا الغربية من جهة الجنوب الغربي للجزائر الحالية ، وقد درس بالزاوية التي أنشأها محمد المختار الأعمش آلاف من الطلبة من بينهم الشيخ مصطفى ماء العينين ، وكانت تيندوف تابعة للمغرب يعين بها السلطان قائدا وقاضياً حتَّى بعد أن استولت عليها السلطة الفرنسية بالجزائر وإلى حين اكتساحها من لدن الجزائريين بعد استقلال بلادهم. وآخر من عينوا ولاتها حتَّى إقرار الحماية الفرنسية مولاي عبد الحفيظ . وكانت ترتبط بها قبائل تاجاكانت ، وتتلقى منتجاتها الزراعية من تافيلالت وسوس ، وكانت خطوطها التجارية تمتد إلى تومبوكتو وأدرار تمر وتوات . وقطعت الجيوش الفرنسية عنها هذه الخطوط فهاجرها جل سكانها فيما بين 1321 — 1329 / 1903 — 1911 حيث استقروا بموريطانيا . وهي تتكون من ثلاثة قصور كانت آهلة بالسكان قبل هذا التاريخ ولها طابع مغربي عريق ، وحسب تقرير الضابط الفرنسي ريسو فإن تيندوف لبعدها الشديد يجب ربطها بالمغرب حسبما جاء في مجموعة جيليي *Gillier* 1926م . ولكن ضباط الجزائر قرروا في النهاية ربط تيندوف بالحدود الجزائرية في 1353 / 1934 لتكون فاصلا بين المغرب وموريطانيا وليفقد المغرب كل أمل في ادعاء السيادة على موريطانيا بانعدام حدود بينها وبينه[٩١] .

ميثاق الجزيرة الخضراء 1324 / 1906

كانت هناك محاولات لتحسين علاقات المغرب مع الدول الأوروبية الكبرَى بعد اعتلاء مولاي عبد العزيز العرش ، وهكذا توجه محمد بن موسَى أخو الصدر الأعظم إلى فرنسا . وكان عليه أن يتوجه إثرها إلى لندرة . وذلك سنة 1315 / 1897 ، وفعلا قابل السفير كلا من وزير الخارجية الفرنسية هانوتو *Hanotaux* ورئيس الجمهورية فيليكس فور . وكانت الزيارة ودية غير منظمة بقصد التفاوض إلا أن الوزير أصيب بانهيار عصبي ، وكان برفقته طبيب العاهل المغربي وهو ليناريس الفرنسي الذي كان جاسوساً أيضاً . ولا يبعد أن يكون مرض السفير من عمل الطبيب . إذ أن السفير كان سيقوم أيضا بزيارة دبلوماسية لبريطانيا واتصالاته قد تزعج الفرنسيين . ويبدو مع هذا أن السفير كان يصاب بنوبات قد يفقد فيها رشده حتَّى إن المراكشي في (الإعلام) نسبه إلى الاختلال ، وحينئذ فإن تكليف

---

(91) هذه المعلومات جلها من كتاب *Puigaudeau* بويغودو المذكور ص 47 — 51.

مختل بمهمة دبلوماسية مع ما عرف عن باحماد من فطنة كما قيل يثير التساؤل والاستغراب[92] .

وفي 1319 / 1901 توجه عبد الكريم بنسليمان إلى فرنسا في يونيو من ميناء طنجة واستقبله رئيس الجمهورية لوبي *Loubet* وكان مع السفير ، بناصر غنام ومحمد الجباص وقدور بن غبريط وتناولت محادثات الوفد مع ممثلي الحكومة الفرنسية وبينهم الوالي العام للجزائر الصيغة التطبيقية لمعاهدة 1845 بشأن الحدود مع الجزائر ، وتم إمضاء هذه الصيغة كما أشير إلى ذلك سابقا في موضوع (توات والصحراء الشرقية)[93] .

وتوجه في ذات الوقت إلى أنجلترا وفد برئاسة المهدي المنبهي الذي قابل إدوارد السابع ولكن دون أن يحصل على نتيجة . فقد كان ديلكاسي وبلفور يهيئان لاتفاقية سرية بين فرنسا وبريطانيا وذلك بعد أن أبرمت فرنسا مع إسبانيا اتفاقي 1900 و1902 . ويتناول الأول تحديد ممتلكاتهما بإفريقيا الغربية بما فيها تحديد الصحراء الغربية ، ويتناول الثاني تقسيم التراب المغربي بينهما ككل وتقديم ميناء لألمانيا مقابل إيجار إذا تنازلت عن كل حق لها في التراب المغربي[94] .

ثم جاءت الاتفاقات السرية لسنة 1904 والتي ورد الحديث عنها في موضوع الصحراء الغربية وموريطانيا ، وهي تهم كلا من فرنسا وإسبانيا وبريطانيا ، وحيث إن اتفاق بريطانيا وفرنسا في رابع أبريل من هذه السنة ينهي مضايقة فرنسا لانجلترا بشأن مصر مقابل توقف انجلترا عن عرقلة أي تحرك لفرنسا بالمغرب فلم تبق إلا فرنسا وإسبانيا في الميدان ، ولكن يوجد منافس آخر يعلن غضبه على تحديات هاتين للسيادة المغربية ، ومن أجل ذلك تابعت فرنسا وإسبانيا مسلسل تطبيق الاتفاقيات السرية بتحرك دبلوماسي علني في شكل تقديم مطالب انفرادية تتعلق بإصلاحات أمنية وغيرها ثم تأطير هذه الإصلاحات في ميثاق دولي يمهد للسيطرة العسكرية المقننة دولياً ومنها إلى الاحتلال الشامل المفروض بمعاهدة وجيش منتشر .

---

(92) *J. Caillé, Ambassades et missions marocaines en France, in Hespéris, 1960*

(93) *Op.Cit.* سليماني، لسان، ص 142.

(94) نص اتفاق 1900/1318 في الساقية الحمراء ووادي الذهب للغربي، ص 288. 236 — 230
A. El-Fassi, Livre rouge.

في 1905 / 1323 ، أي بعد بضعة أشهر من إمضاء الاتفاقية السرية بين فرنسا وإسبانيا حضر إلى فاس على رأس وفد دبلوماسي مبعوث عن الحكومة الفرنسية هو سان روني طايانديي الذي عرض على السلطان مشروعا عاما للإصلاحات بالمغرب ، ولم تكد الحكومة الألمانية تتعرف على مقاصد فرنسا حتى ثارت ضجة كبيرة في مختلف المستويات الصحافية والدبلوماسية والسياسية بألمانيا . وانشطر الرأي داخل حكومتها بين اتخاذ موقف قوي وآخر لين[95] وأخيرا تقرر أن يزور الامبراطور غيوم طنجة وكان في رحلة سياحة بحرية ؛ فرسا يخته بطنجة صباح يوم 31 مارس 1905 واستقبله الأمير مولاي عبد المالك عم السلطان وصرح غيوم بأنه جاء لزيارة سلطان المغرب العاهل المستقل . وغادر غيوم التراب المغربي بعد الظهر من نفس اليوم بعد أن لقي استقبالا رسميا وشعبياً كبيرا وكانت الأفكار الداخلية بألمانيا قد أخذت تتجه أكثر فأكثر إلى تأكيد عظمة ألمانيا على المستوى الدولي عن طريق القوة وهي أفكار ساعد بسمارك على ترسيخها بموازاة الدهاء السياسي ، ثم كانت تهييئاً لتفوق النظرية النازية التي تعطي للعنصر الجرماني أفضلية على الجميع .

وفي 11 مايو 1905 توجه إلى فاس طاطنباخ *Tattenbach* مبعوث الحكومة الألمانية ليعبر رسمياً عن معارضة بلاده للمشروع الفرنسي . وفي 30 مايو قررت الحكومة المغربية أن تستجيب لمطالب ألمانيا التي اتفقت بشأنها مع فرنسا والتي تقضي بعرض القضية المغربية على أنظار مؤتمر دولي . ولم تكن هذه أول مرحلة لتدويل القضية المغربية فقد سبقتها اتفاقية مدريد بربع قرن والاتفاقات السرية ببضع سنوات . وتم الاتفاق أخيرا على عقد مؤتمر دولي بالجزيرة الخضراء القريبة من كل الأطراف المهتمة مباشرة : (إسبانيا وهي جزء من ترابها جنوبا) وأنكلترا (جبل طارق) وفرنسا المغرب . وهناك أطراف أخرى لها مصالح بالمغرب . وهي ألمانيا والنمسا وبلجيكا والولايات المتحدة الامريكية وإيطاليا وهولندا والبرتغال وروسيا والسويد . وبعض هذه الأطراف له مصالح استراتيجية أكثر منها اقتصادية كروسيا التي تهتم بأمن مضيق جبل طارق وما يجري حوله وهي فوق ذلك دولة عظمى كجل الدول المذكورة بما فيها هولندا التي كانت لها مستعمرات مهمة .

---

(95) *Pierre Guillen, in Bul, de la Société d'hist. du Maroc/1, 1968*

ومثل المغرب في مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي أمضى ميثاقه بـ 7 أبريل 1906 :

1 — محمد بن العربي الطريس نائب السلطان بطنجة
2 — محمد بن عبد السلام المقري وزير الخراج
3 — محمد الصفار
4 — عبد الرحمن بنيس .

أما الميثاق الذي خرج به المؤتمر فيقع في صفحات كثيرة ويتضمن سبعة أبواب [96] :

الباب الأول عن إجراءات تنظيم الشرطة .
الباب الثاني في تنظيم مراقبة تهريب الأسلحة وزجر التهريب .
الباب الثالث في إحداث بنك مخزني (بنك الدولة)
الباب الرابع في تحسين مردودية الضرائب وإحداث موارد مالية جديدة
الباب الخامس عن نظام الجمارك وزجر الغش والتهريب التجاري .
الباب السادس حول المصالح العامة والأشغال العمومية .
الباب السابع ، مقتضيات عامة .

وأول ما يلاحظ على هذا المشروع أن جميع فصوله ذات صبغة مالية أو اقتصادية ، ماعدا الفصل الأول الذي خصص للمحافظة على أمن السكان الأوروبيين حتّى يمارسوا نشاطهم الاقتصادي والمالي في اطمئنان وراحة بال . ومن ثم فأهدافه ذات دلالة فليس هناك ولا بند عن الإصلاحات الاجتماعية من سكنى وصحة وتعليم .

وحيث إن التحليل الدقيق لهذا الميثاق يتطلب حجما من الصفحات لا تقبله هذه الدراسة العامة ، وأن الميثاق نفسه لم يكن له كبير قيمة من الوجهة العملية إلا من بعض النواحي لأن حركة المقاومة الوطنية وإفلات الزمام من يد المخزن وتدخل جيوش الاحتلال ثم إقرار الحماية عرقلت تطبيق القسم الأكبر من إجراءات الميثاق وجعلت من التدخل العسكري مظهراً جديداً للأزمة ، فلنعرضه باختصار :

(96) النص العربي الكامل لهذا الميثاق، في مجلة تاريخ المغرب ع 1982/2 الرباط.

فبالنسبة للباب الأول أصبحت الشرطة وتنظيمها بإشراف ضباط فرنسيين وإسبان . وهذا كسب لهؤلاء وأولئك .

وفي الباب الثاني ضيق الميثاق على الحكومة المغربية في استيراد الأسلحة لجيشها وحتّى أسلحة الصيد التي أخضع دخولها وتناولها لإجراءات قاسية .

والباب الثالث يحدث بموجبه بنك للدولة فرض على المغرب أن يضع فيه كل موارد الجمارك بينما البنك هو عمليا تحت سلطة دولية أجنبية . والمجلس الإداري هو الذي يوافق على تعيين المندوب المغربي أو يرفضه . ومع أن البنك على تراب المغرب وفي دولة ذات سيادة فإن النزاع بشأن امتيازاته بين الحكومة والمسؤولين الأجانب يرفع إلى محكمة لوزان على سبيل الاستئناف ، أما على سبيل الابتداء فيطبق بالمغرب القانون التجاري الفرنسي ، وكل هذا والحماية الفرنسية بعيدة بست سنوات !

والباب الرابع يثبت حق الملكية للأجانب ، بمزيد من التنازل بالنسبة لاتفاقية مدريد ويفرض على المغرب نسبة مئوية محددة على المبيعات العقارية وفي المكوس وغيرها من الموارد .

ويفرض الباب الخامس تكوين لجنة مختلطة تساهم فيها الهيئة الدبلوماسية بطنجة ومندوب عن البنك المخزني والجميع سبعة أعضاء أربعة منهم أجانب ! وهذه اللجنة هي التي تحدد رسوم الجمارك التي هي عملية تدخل في نطاق السيادة الوطنية .

وأعطَى الباب السادس للدولة حق بسط نفوذها على كل الأشغال العمومية التي يمكن أن تنجز في المستقبل كالموانئ والخطوط الحديدية لكن فرض على المغرب مرة أخرى أن يحصر السمسرة في الدول الموقعة على الميثاق ، وذلك بشكل ضمني في الفصل 108 .

وفي الباب السابع إذا وقع تعارض بين المعاهدات السابقة والميثاق رجحت مقتضيات الميثاق . وهذا يعني أن حكومة دولية أنشئت ضمنيا بموجب الميثاق ولكن من الوجهة العملية لحساب أطراف محدودة ، بحيث إن الهيمنة للبنك المخزني حيثما كان هناك تخطيط مالي أو اقتصادي . وأصبح هذا البنك في كل مرفق ، وأيدي المخزن مكتوفة بحكم الميثاق الذي ارتضاه ووقع عليه ، وهكذا يتجلى خطأ كل من يزعم أن ميثاق الجزيرة يؤكد السيادة المغربية على التراب المغربي ورعاياه وسياسته . في كل هذه النقط كان المغرب خاسرا على طول الخط . فعندما تتصرف في السيادة

أكثر من دولة واحدة في الوطن الواحد يصبح أبناؤه غرباء في أرضهم.

وعندما يراجع الدارس الصيغة التنظيمية والسرية، للاتفاق السري المبرم بين فرنسا وإسبانيا في 1904، وهي صيغة أعدت بفاتح شتنبر 1905 [97] يجدها متفقة في كل خطوطها العامة مع ميثاق الجزيرة الخضراء، ومن ثم فهي تمهيد له، بحيث إن الميثاق هو قبل كل شيء مشروع فرنسي وافقت عليه إسبانيا مقدما كما استشيرت ألمانيا بشأنه [98] ثم وقع تقديمه إلى المؤتمر الذي نقحه من غير تغيير في جوهره. ولذلك نجد لألمانيا امتيازات في الميثاق من حيث انها طرف متساو مع فرنسا وإسبانيا وانجلترا في الإشراف على البنك المخزني أي على الاقتصاد الوطني والرواج المالي بأكمله، وهذا بالرغم من أن ألمانيا كانت تنادي باحترام السيادة المغربية والدفاع عن وحدة تراب المغرب.

---

(97) الغربي، م. س. ص 301.

(98) ن. م. ص 312.

الفصل الثامن
الاكتساح العسكري الأجنبي وإقرار الحماية
1325 - 1331 (1907 - 1912)

تنصيب مولاي عبد الحفيظ بمراكش

نصب مولاي عبد الحفيظ خليفة عن أخيه مولاي عبد العزيز بمراكش منذ 1314 / 1896 وكان أسن من مولاي عبد العزيز، وتلقى ثقافة جيدة تمكن من تنميتها في مراكش بفضل مجالسه العلمية بها واطلاعه على عدد كبير من الكتب التقليدية وميله الشخصي إلى النشاط الفكري. وكان إلى غاية تنصيبه سلطانا بمراكش ذا روح وطنية قوية وغيرة دينية عميقة، حتَّى إن الأجانب وصفوه بالتعصب وكراهة الأجنبي حيث امتنع عن استقبال الأوروبيين بقصره بمراكش، كرد فعل ضد الهيمنة التي صارت للأوروبيين في بلاط مولاي عبد العزيز وجيشه. وعلى سياسة البلاد بوجه عام. وبالمقابل فإن مولاي عبد الحفيظ قد وجد في المدني الجلاوي زعيم قبيلة جلاوة ذات البأس في الجنوب أقوَى نصير له، وكان قد تخلى عن خدمة مولاي عبد العزيز وتعقُّبِ بوحمارة وأنصاره. وجاءت إجراءات مؤتمر الجزيرة الخضراء التي ربطت المغرب بإصلاحات صورية ولكنها تخدم المطامع الاقتصادية للدول الأوروبية كرأس دبوس فجر الأزمة بين الأخوين، وأخذ مولاي عبد الحفيظ ينتقد التدخل الأوروبي وسياسة مولاي عبد العزيز ويتهيأ للإطاحة به. على أن مولاي عبد الحفيظ أعلن عن عدائه للسياسة العزيزية منذ 1323 / 1905 ولذلك رأى مولاي عبد العزيز أن يبدأ بتصفية معارضيه بناحية مراكش، ومنهم الرحامنة ومسفيوة لكن الأمراء الذين كلفوا بهذه المهمة وجدوا مقاومة قوية ولم

يكونوا مستعدين لمواجهة جلاوة الذين يحمون مراكش على الرغم من استعانة مولاي عبد العزيز بالقائدين المتوكّي والجندافي . ثم حاول العاهل تنصيب باشا جديد بمراكش فلم يجرؤ على الاقتراب من مراكش بعد أن فر معظم رجاله في الطريق .

وفي 19 مارس 1907 عمد السكان بمراكش إلى اغتيال الطبيب الفرنسي موشان الذي أكد القنصل الألماني بها أنه كان يحاول نصب جهاز تلغراف بسطح منزله لمخابرة بلاده وإطلاعها على ما يجري بالمنطقة ، وهذا ما ذكره الدكتور أرنو . ومن جهة أخرى فقد رفع علم بلاده فوق سطح منزله مع أنه لا ينتمي رسمياً إلى الهيئة الدبلوماسية ، ولذلك اغتاله السكان رميا بالحجارة .

وردت القوات الفرنسية باحتلال **وجدة** بعد عشرة أيام لتتميم عملية تطويق المغرب شرقاً ومن داخل حدوده متعللة بالمطالبة بالاقتصاص من قتلة الطبيب الجاسوس كما اتهمت عاملي وجدة وتافيلالت بمناهضة إصلاحات ميثاق الجزيرة الخضراء بشكل علني[1] . وقامت القوات الفرنسية التابعة للجزائر والتي يقودها الجنرال ليوطي بتطويق وجدة على مسافة كبيرة . ثم تصدت للمقاومة التي اندلعت في جبال بني يزناسن والتي تطلبت السيطرة عليها حوالي عشرة أشهر بالنظر لتفوق الفرنسيين تسلّحاً .

وأثناء ذلك كان الريسوني بالشمال يناهض سياسة المخزن ويثير الرعب في الأوروبيين . وفي 3 يوليوز 1907 وقع ماك لين الإنجليزي في قبضته . وتلا ذلك إنشاء الشرطة بقيادة فرنسيين وأسبان تطبيقاً للإصلاحات المشار إليها . وتطورت الأحداث بسرعة ، فقد اندلعت ثورة **الشاوية** التي بدأت تفرض شخصيتها في العصر الحديث منذ أواخر القرن 12 / 18م بفضل ثرواتها الزراعية وإعادة الاعتبار إلى أنفا (الدار البيضاء) المركز الكبير الذي عرف أهميته السلطان محمد الثالث فأنشأ به ميناء جديداً وبضع قصبات حوله ، وهكذا تكونت أكثر مجموعات السكان بها من أهل الشاوية . لكن الاستقرار الأوروبي بالدار البيضاء وإنشاء قوة اقتصادية كبيرة من الأوروبيين تتحكم في التسويق والاستيراد وتطور النفوذ الأوروبي حتّى في الميدان الإداري والسياسي قلب الموازين بين السكان أهل البلد والقادمين الجدد .

---

(1) *Terrasse, Histoire, 2, 391*

وجل رجال السلطة الذين كانوا يعينون بالدار البيضاء كانوا يضعون في الاعتبار الواقع الأوروبي ولا يحسبون كبير حساب للواقع المغربي الشاوي. نعم، كان هناك عرف تحترمه السلطة المركزية خلال القرن 13 / 19م بتعيين ولاة الإقليم من أهله. أما المدينة فتعين عمالها من غيرهم، وعادة من بعض الأسر ذات الجاه. ويظهر الأمراء غالبا في أعلى السلم كخلفاء أو قواد عسكريين للمنطقة. وظهر التناقض تدريجياً بين المدينة الأوروبية وجيرانها الذين يمدونها بكل شيء وتعيد إليهم مقابله بعض الأشياء من حاجياتهم؛ وكان أغنياء الشاوية يحظون بالحماية من أجل هذا التبادل غير المتوازن. ومنذ عهد مولاي الحسن ظهرت طبقة جديدة من الموظفين كما لاحظ ذلك الكردودي في «الدر المنضد» وهي طبقة جمعت بين قدر من التكوين الثقافي وممارسة التجارة والوظيف المخزني معاً وظفرت في نفس الوقت بالحماية. وهذه الطبقة نجدها في المدن الكبرى بالأخص. ومن ناحية أخرى فإن رجال السلطة بالمدينة عزلوا أنفسهم عن سكان المنطقة وتحاشوا الحوار كأغلب نظرائهم في هذه الفترة. ثم إن إقرار الترتيب ساهم في غضب الفآت الضعيفة من الفلاحين والذين لا يمكن أن يتلافوا التملص الضرائبي إلا برد فعل قوي. وهذا ما يفسر اضطرابات 1894 و1898 و1900 [2] وما بعدها والتي حاول المخزن عبثاً ردعها بالقوة. على أن إقرار الترتيب لم يتم إلا في 1901 ولكن استخلاصه بالشاوية تقرر سنة 1321 / 1903 بمفعول رجعي؛ وهذا ما أتاح لسكان المنطقة أن يتهيأوا بالسلاح ويقوموا بخزن الحبوب. وذلك ما حدث بجهات أخرى من المملكة وبالأخص شمال المغرب وشرقه حيث تولى كبْر الثورة الجيلالي الزرهوني ودعي أهل الشاوية إلى المساهمة فيها بأموالهم وشبابهم وأدَّى ذلك إلى رد فعل ضد قواد المخزن بقصبات المنطقة كبئر الرشيد (برشيد) وسطات وأولاد بوزيري وأولاد سعيد وأولاد حريز. وإذا كان هدف الثوار هو تحطيم هذه القصبات كما ذكر ذلك «بورك» [3] فإن الثورة لم تكن من عمل الأغنياء وحدهم وإن كانوا مقصودين بالدرجة الأولى من عملية الترتيب التي تقرر أن لا تستثني شريفا ولا مشروفا. غير أن تدبيرها كان من عمل الشريف محمد البوعزاوي الذي كان من كبار صلحاء المنطقة ويحظى بنفوذ كبير بها وقد أفرده عباس المراكشي بترجمة ضمن «الإعلام». ويختلف مفهوم الثورة لدَى هذه الشخصية

---

(2) *F. Burke, in Actes du premier Cong. d'Hist. du Maghreb, T2, Tunis*

(3) *Op. Cit, pp.191 - 192*

عنه في مفهوم «بورك» المذكور . فإن البوعزاوي كان عدوا لدوداً للهيمنة الأجنبية بالمنطقة ودعا علانية إلى الجهاد ضدهم ، ومن أجل ذلك وضع يده بسرعة في يد مولاي عبد الحفيظ الذي ثار هو نفسه باسم الجهاد المقدس . ومن ثم فاضطرابات الشاوية ابتداء من مطلع القرن العشرين هي في نفس الوقت تعبير عن غضب السكان من النظام الضرائبي الجديد وجور الولاة وتحكم الأجانب .

وفي سنة 1324 / 1906 ظهر عنصر جديد في الاضطرابات حيث عينت السلطة المركزية عاملا جديداً هو أبو بكر بن بوزيد من سلا ، وكان هناك شخص من زعماء الشاوية هو ولد الحاج حمو الذي انضم إلى البوعزاوي وطالب بأن يولى عاملا قبل تعيين أبو بكر بن بوزيد وهذا ما أثار اضطرابات جديدة عجز المخزن من تهدئتها وتحولت إلى ثورة جديدة موجهة هذه المرة بشكل مباشر إلى الأوروبيين القاطنين بالدار البيضاء . وهكذا حوصرت المدينة في جمادى الثانية 1325 / 28 يوليوز 1907 وسمى طيراس غضب الشاوية هذه المرة بكراهة الأجانب ، وسماه «بورك» بالسيبة[4] .

وهكذا في 28 يوليوز 1907 هاجم الثوار ومعهم السكان المحليون عمال الميناء الذين قتل عدد منهم ، وعمدوا إلى نهب البلد حيث لجأ الأوروبيون إلى البواخر الراسية ، ثم استنجد القناصل بالبواخر الحربية ، وحينئذ قدمت باخرة فرنسية في 5 غشت وتلتها بواخر حربية أخرى فرنسية قدمت من الجزائر وبفضل نجدتها رفع الثوار الحصار عن القنصليات خصوصا القنصلية الفرنسية .

وفي 16 غشت 1907 الموافق لسادس رجب 1325 أعلن بمراكش خلع مولاي عبد العزيز وتنصيب مولاي عبد الحفيظ سلطانا . وهذا يعني أن أحداث وجدة والدار البيضاء حسمت الموقف بين الاخوين . ومالبث مولاي حفيظ أن أخذ يجلب المزيد من الأنصار فكاتب عددا من الشخصيات السياسية والعلمية والدينية لتنضم إليه حتى يقتدي بها الجماهير ، وكان الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني[5] والشريف الريسوني ممن دعاهم إلى بيعته ، وأثناء ذلك تهيأ مولاي حفيظ لمواجهة

---

(4) *Op. Cit. p.193. Terrasse, Histoire, 2, 392*

(5) محمد الباقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 192.

الاكتساح الفرنسي للدار البيضاء والشاوية. فإن الجنرال درود ثم خلفه داماد بدأ يزحف على أحياء البيضاء التي أمسكها بقبضته ثم عطف على القصبات يستولي عليها واحدة إثر الأخرى.

المواجهة بين الملكين وخلع مولاي عبد العزيز في 23 قعدة 1325

بعد أن تلقّى مولاي عبد الحفيظ بيعة أهل مراكش بزعامة القائد الجلاوي، وقام بزيارة روتينية لأضرحة الرجال السبعة بمراكش، وفقاً للعرف الذي كان من بنات أفكار الشيخ أبي علي اليوسي، دعا القبائل إلى بيعته كما فعل تجاه الأشراف وأرباب الزوايا والعلماء. واستجابت الرحامنة والسراغنة ودكالة وعبدة والشاوية لبيعته. وكان مولاي حفيظ ينحدر من أم كانت بنتاً لعامل سطات أي أن مولاي حفيظ كان يدين بالخؤولة لأهل الشاوية.

وتحرك مولاي عبد العزيز على رأس قوة من ثلاثة آلاف مقاتل متوجها من فاس إلى الرباط في 12 شتنبر كمرحلة في انتظار التحرك نحو مراكش. وأثناء ذلك ركزت قوات الاحتلال جهودها في المراكز الستراتيجية فأخضعت الزيايدة وزناتة وأولاد زيان.

وفي 16 شتنبر تحركت قوات مولاي حفيظ نحو الشاوية التي انضمت عناصر كثيرة منها تباعاً إلى أنصاره المحاربين. كما أن مولاي حفيظ وجه قوة أخرى لاستنزال القائد أنفلوس بحاحا. وفي 15 أكتوبر بعث مولاي عبد العزيز بقوة لمواجهة جيش أخيه حيث هاجمت محلة مولاي عبد العزيز بقيادة بوشتة البغدادي ومعه عدد من الأمراء وعبد المالك بن عبد القادر الجزائري بابن سليمان، جيش مولاي حفيظ بقيادة القائد رحو الذي حطم هجوم جيش مولاي عبد العزيز. وبينما عادت المحلة المهزومة إلى الرباط بدأ مولاي حفيظ يستعد لمغادرة مراكش التي فارقها في دجنبر 1907 وكانت وحداته بالشاوية قد بدأت تجابه الزحف الفرنسي بعد أن ردت محلة البغدادي على أعقابها. غير أن مولاي حفيظ لم يتخذ وجهته الشاوية، بل بدأ يتحرك باتجاه فاس ونزل في الطريق بمشرع الشعير على وادي أم الربيع.

كان الجيش الفرنسي يجابه المقاومة المحلية التي يدعمها الجيش الحفيظي، وكان الجيش العزيزي يحاول أن يعيد إخضاع بعض القبائل لبيعة مولاي عبد العزيز، غير

أن الاكتساح الفرنسي الذي ابتدأ حول الدار البيضاء من يناير 1908 وانتهى حوالي مايو من السنة نفسها أثار مرة أخرى ضجة في الأوساط الألمانية . وقد شمل مناطق تمتد من بوزنيقة شمالا إلى دكالة جنوبا أي ما لا يقل عن ثلث أخصب الأراضي الزراعية[6] .

وفي هذه الأثناء تغيرت الأحداث بسرعة في فاس لصالح مولاي عبد الحفيظ فقد تحرك بها جماعة من ممثلي سكانها ووجهوا استفسارا إلى علماء المدينة بشأن خلع مولاي عبد العزيز[7] وعددوا موجبات ذلك من الأستعاضة عن الزكاة بالترتيب واللجوء إلى إنشاء بنك يتعامل بالربا وبسط النفوذ الأجنبي وقتال الشاوية في الوقت الذي يتعرضون فيه لاكتساح جيش مُعادٍ ، واحتلال هذا الجيش للصحراء الشرقية ووجدة الخ .. وعندئذ استقر رأي العلماء وممثلي السكان وأعلنوا خلع مولاي عبد العزيز وبيعة مولاي عبد الحفيظ على أن يلتزم بشروط وضع نصها الشيخ الكتاني ووافق عليه وعلى نص الخلع والبيعة الشخصيات الأكثر تمثيلا ، ووقعوا على البيعة الحفيظية المؤرخة بفاتح ذي الحجة 1325[8] وكان مولاي عبد الحفيظ منذ حلوله بمشرع الشعير يتلقى أنباء الشاوية ويبعث بالنجدات إلى المحاربين بها إلى أن تكبد نصيره الشيخ البوعزاوي هزائم مثبطة في أبريل 1908 فعقد مولاي حفيظ مجلسا حربياً لتقرير ما يجب عمله ، وتوزع المستشارون وبينهم موحا وحمو والبوعزاوي بين راغب في العودة إلى مراكش ومقترح التربص بمشرع الشعير ومشير بالزحف على فاس ، ومال مولاي حفيظ إلى هذا الرأي الذي اقترحه البوعزاوي ثم اتجه نحو والماس ومنها إلى مكناس التي أصدر منها أمره إلى الشاويه بالتوقف عن المقاومة[9] وحاول مولاي عبد العزيز أن يقطع الطريق على مولاي حفيظ قبل أن يتمكن من

---

(6) *Général Gouraud, Mauritanie, pp.301 - 307. Dr Arnaud, Au temps, pp.237 - 248 Terrasse, Op. Cit. p.392. Burke, Op.Cit. Miège, Les Européens à Casablanca.*

ويراجع بشأن احداث الشاوية وما يتصل بها أيضا :

Mission Scientifique, Villes et tribus.. Casablanca et les Chaouia.
Burke, Prélude to protectorate in Morocco, 1860-1912. G. Salmon, Le tertib, in Arch. Maroc II. André Adam, Hist. de Casablanca, Aix En-Provence, 1968.

(7) محمد الباقر، م. س. ص 195.

(8) ن. م. ص 198 — 200.

(9) *Arnaud, Op.Cit. p. 248*

دخول فاس ، لكن ما كادت المحلة تبلغ مشرع الرملة لتتجنب مكناس وتتجه عبر الغرب إلى فاس حتّى تواردت الأنباء ببيعة مولاي عبد الحفيظ بفاس ، فعادت محلة مولاي عبد العزيز إلى الرباط بقيادة بوشتة البغدادي الذي رفض مؤقتاً بيعة مولاي حفيظ . وتلقى السلطان الجديد بيعة فاس مباشرة بها في 7 يونيو 1908 وكان قد استقبل بمكناس وفدا من كبار فقهاء فاس لتقديم بيعتهم فاستنكر الشروط التي أضيفت إلى البيعة ووقعوا عليها ومن بينها فسخ ميثاق الجزيرة الذي أثار غضب الأمة ، وتحرير وجدة والدار البيضاء وإلغاء الحمايات ومساندة العالم الإسلامي وكف الولاة عن التدخل في القضاء وإلغاء المكوس وإعادة امتيازات الأشراف والعلماء والصلحاء[10] .

وكان جواب الوفد هو إلقاء التبعة على الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني الذي ألح في تضمين هذه الشروط نص البيعة الذي حرره الفقيه المطلع أحمد بن المواز ، ولاحظ العاهل أن شروط البيعة تعبر عن حقد شديد للأجانب الذين لا يمكن إجبارهم على السكنَى بالحي اليهودي . وبالنسبة للحرب فإن فراغ بيت المال يستحيل معه استعداد جدي للجهاد ، ولذلك وجب البحث عن ضرائب جديدة ، وهذا ما قررته ، يقول مولاي عبد الحفيظ للعلماء بفاس ، وهنا تلقى مزيدا من البيعات من القصر الكبير وتطوان وغيرهما كما تلقى بيعة بوشتة البغدادي وأخيه والقائد بامحمد الشرقي الذي قدم إليه هدية مالية ، غير أن العاهل أمر باعتقال البغدادي وأخيه ثم عين بوشتة باشا بالقصر الكبير بعد ثلاثة أشهر . وكانت حياة الولاة تتأرجح بين العقاب والتكريم .

أما مولاي عبد العزيز فتحرك من الرباط في يوليوز 1908 يصحبه جماعة من الضباط الأوروبيين المدربين للجيش وقسم كبير من أهل الشاوية الذين لم يرتضوا ميل مولاي حفيظ إلى الحلول السلمية مع الفرنسيين ، وعدد من أنصار الزاوية الشرقاوية بزعامة ابن داود ، وأعضاء الحكومة العزيزية.وفي الوقت ذاته وجه مولاي عبد العزيز وحدات إلى آسفي والصويرة لاستنزال خصومه وضمان امدادات عن طريق البحر ، بينما اتجه مولاي عبد العزيز نحو الحوز حيث جابههم الرحامنة بقيادة العيادي وجلاوة بصمود وهزموا محلة مولاي عبد العزيز الذي كان يشهد نهب

---

(10) الباقر، م. س. ص 199 — 200.

صناديق أمواله في حزن وألم بحضور أخيه الأمير مولاي يوسف الذي نصب فيما بعد ملكاً ، وانسحب مولاي عبد العزيز باتجاه الشمال في قليل من حرسه بينما تبدد شمل الجيش النظامي الذي انضم إثر ذلك إلى مولاي حفيظ . وتدخل قادة الجيش الفرنسي وعلى رأسهم داماد وليوطي لوضع حد للحرب الدامية بين الأخوين . وهكذا أعلن مولاي عبد العزيز تنازله عن العرش في نونبر 1908 وانسحب إلى طنجة حيث قضَى بقية حياته يتقاضَى معاشاً لائقا من الحكومة ، وبذلك بايعت الدار البيضاء في الخامس والعشرين من نونبر ، مولاي عبد الحفيظ .

وفي هذه الأثناء كان الأمير مولاي امحمد الذي لم يكن مولاي عبد العزيز يتخلى عنه في سفر أو حضر ، خوفاً من تدبيره لمؤامرة ضده ، قد أصبح حراً ، وزين له بعض بطانته أن يدعو لنفسه ، غير أن مولاي عبد الحفيظ أمر باعتقاله من جديد . ولم يذق هذا الأمير المثقف طعم الحرية إلا بعد تنصيب مولاي يوسف .

مصير الجيلالي الزرهوني (بوحمارة) 1907 – 1909

لم تتوقف المجابهة تماما بين قوات المخزن العزيزي وثائر الشمال الشرقي ، فإن ظهور مولاي عبد الحفيظ كمطالب بالعرش وثائر هو الآخر مع أنصاره على سياسة مولاي عبد العزيز جعل الحكومة في فاس تنشغل بالخصمين معا وان اختلفت طبيعة ثورتهما وحجم قوتهما الجماهيرية ومركزهما الاجتماعي .

ولقد أتاحت المساعدات التي تلقاها الجيلالي الزرهوني من فرنسا وإسبانيا سنة 1906 أن يحصل على أنصار جدد بعد أن بدأت الإشاعات تروج عن تأهبه للهجوم على فاس حتَّى قيل إنه انتهَى في ربيع 1907 إلى أن يتوفر على عشرين ألف محارب وعشرة مدافع . وفيما بين 18 و31 مايو 1907 نشب قتال ضار بين أنصاره حول سلوان ومحلة المخزن . وهلك خلال المعارك عدد كبير من الضباط وتوفي عم الملك الأمير أبو بكر . ونشبت معركة جديدة في شتنبر كانت الهزيمة فيها على محلة السلطان بقيادة محمد بن الجيلالي . وحيث إن هذه المواجهات لم تكن مجرد كمائن بل حرباً علنية ، فلا يمكن أن يكون أنصار بوحمارة بضع مآت ، بل قوة كبيرة مسلحة بشكل جيد ، ويبدو أن استعداد الثائر لغزو فاس قد أعاد الأمل إلى نفوس الكثيرين ممن انفضوا عنه وشجع آخرين على الالتحاق به . غير أن جل قلعية تخلَّوا

عنه بسبب تخليه عن معادن الحديد للأسبان . كما أن احتلال وجدة من لدن الجيش الفرنسي في مارس وظهور مولاي عبد الحفيظ كملك بمراكش في غشت جعل الفرنسيين يشجعون تحرك بوحمارة باتجاه فاس حتّى يشغلوا مولاي حفيظ عن دخولها ويثيروا الصعوبات في وجهه .

وفي دجنبر 1907 قتل القائد ابن الجيلالي مع خمسة من قواد الرحى واضطر بقايا الجيش الذي فر معظمه أن تتوجه إلى فاس بحرا من مليلية إلى طنجة ومن هذه إلى العاصمة . غير أن ظهور المهندسين الأجانب في تراب السكان وحركة بيع الأراضي للأسبان أثارت موجة من الغضب على الزرهوني وبدأت القبائل تتكتل لمطاردته فلجأ أخيرا إلى تازا في يونيو 1908 بعد أن توجه مولاي عبد الحفيظ بأيام إلى فاس في الشهر نفسه . ثم سار بوحمارة يستقدم أنصاره للالتحاق به في الطريق . وهيأ مولاي حفيظ محلة للقائه لكن شدة البرد عاقتها عن الحركة كما هلكت مواشيها فعادت من غير طائل ، وكان الثائر يتقدم في زحفه حتّى بلغ الحياينة .

وفي رجب 1327 / يوليوز 1909 وجهت محلة جديدة صادفت أنصار بوحمارة بملتقَى يناون ووادي اللبن ، وهناك لحقت الهزيمة هؤلاء الأنصار على يد مجموعة من قواد جيش المخزن بإشراف محبوب بن قاسم الذي امتد به العمر إلى وقت متأخر من الحماية . وكانت قيادة الثوار للجيلالي خليفة بوحمارة الذي كان في هذه الأثناء يتحرك من جهة إلى أخرى عن قرب إلى أن حل ببني زروال ومعه قليل من الحياينة ، ثم قصد قلعة سلاس ومنها إلى جبل بني ورياغل . وساعد سكان هذه الناحية على مواجهة بوحمارة وأنصاره الذين كانوا يتحركون في مجموعات متقطعة ومعهم كل أثاث الثائر وأسرته وماله ، ووقع الهجوم على القافلة التي كانت تحمل هذه الأموال والتي سقطت في يد المحلة ، ويعترف الضابط سالم العبدي من جيش مولاي حفيظ أن بوحمارة لم ينخذل بل قاوم ببسالة مع أنصاره وبشكل منظم حتّى أرخَى الليل سدوله ، ثم اختفَى الثائر بعد أن سقط عدد من أنصاره قتلَى أو جرحَى أو أسرَى ، وبين الصرعَى خليفته الجيلالي .

ثم طاردت المحلة في اتجاهات متفرقة ، بوحمارة وبقية أنصاره فتبين أنه لجأ إلى زاوية مولاي عمران مع أسرته بعد أن فقد جل سلاحه ومؤونته . وتقع الزاوية ببني مستارة . وبعد تبادل إطلاق الرصاص وقتل عدد من أفراد المحلة تقرر إشعال النار

في سقف الزاوية حتَّى يسهل اقتحامها. وهكذا سهل على الجيش الدخول إلى الزاوية التي سقط نصف سقفها ووقع الثائر المقصود في الأسر يوم خامس شعبان 1327 / 22 غشت 1909 وكان القبض عليه من نصيب القائد الناجم الدليمي التابع للمفرزة التي يقودها القائد بامحمد الشرقي الذي تنسب إليه (قرية بامحمد) بينما قيادة تنسيق العمليات لمحبوب بن قاسم. ثم حمل الأسير ورفاقه إلى فاس حيث كان ينتظر الثائر بظاهرها قفص خصص لايوائه حتَّى يدخل المدينة مشهَّرا به؛ ولايزال هذا القفص بمتحف السلاح بفاس حتَّى يومنا هذا.

وفي كل يوم كان يتم عقاب مجموعة من أنصار بوحمارة بباب محروق الذي تحول ظاهره إلى موسم يومي لعدة أيام. فتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتنزف دماؤهم حتَّى يهلك كثير منهم، وأثار ذلك استياء السلك القنصلي الذي تدخل لوضع حد لهذه المجزرة. ومن أجل ذلك عقد السلطان مجلسا سريا لاتخاذ ما يلزم من قرار بشأن الزرهوني. وهكذا أعدم بوحمارة سراً ورمياً بالرصاص ثم أحرقت جثته في منتصف شتنبر 1909.

إن ثورة بوحمارة لم تكن من النوع المألوف في تاريخ الشمال الإفريقي فصاحبها ينتحل لقب أمير معروف وعلى مشهد منه ومن أسرته الحاكمة، وهي تأتي على إثر الإجراء الضرائبي الذي اتخذته حكومة مولاي عبد العزيز بإيعاز من الأوروبيين؛ ولم يكن «الترتيب» صالحاً من حيث تطبيقه للمناخ الاجتماعي والاقتصادي بالمغرب. لأنه من حيث المبدأ يمثل ثورة، ولكنها ثورة في غير زمانها ومكانها لأن الزمان زمان مجاعات وأوبئة، والمكان يدين بالولاء والإخلاص لتقاليد تحترم الإسلام ونصوصه بشأن الزكوات والجبايات الشرعية.

وبوحمارة نقصه النفَس الوطني فقد ظل إطار عمله بين سلوان وتازا ومنطقة وجدة مع غارات على ضواحي فاس، ولكنه لفت النظر إليه على الصعيد الوطني كله والذي كانت تتقاسمه تيارات وزعامات أخرى. بل لفت إليه النظرِ على صعيد قوات الاحتلال والساسة الأجانب، وثورته كانت ضد المخزن الذي تشير إليه أصابع الاتهام بالتخاذل والسير في ركاب الأجنبي ولكنها لم تتجه مطلقا إلى الذين يسير هذا المخزن في ركابهم. وممثلو هذا المخزن قدموا تنازلات للأجانب مقننة دولياً وبوحمارة قدم تنازلات لا سند لها من قانون. وقام بوحمارة بإنشاء حكومة وبلاط جله من

عناصر جزائرية ، وحيث إن حركته ظلت في أغلب أوقاتها تطل على الجزائر وعلى مليلية فهذا شيء يثير أكثر من تساؤل . إننا نتمنى أن يُماط اللثام عن الوثائق التي ترتبط بحركة بوحمارة في هذا الخط الجغرافي بالذات ومع عناصر موازية من الجزائر ومتعاونة مع الحركة . لكن الذين تعاطفوا مع هذه الحركة من المغاربة هم من القبائل البدوية فحسب ، ولا يساندها إلا قليل من الأقوياء خوفا أو طمعا أو غضبا على المخزن وسياسته .

الحكومة والجيش

رفض مولاي عبد الحفيظ أن يكون في حكومته جل أعضاء الحكومة التي تعاونت مع سلفه مولاي عبد العزيز ، وهكذا بحث عن عناصر أكثر إخلاصا وأغلبها دون مستوَى حكومة مولاي عبد العزيز :

— الصدر الأعظم : المدني الجلاوي الذي عين مكان فضول غرنيط ، وقد شغل المدني مهمة وزير الحرب مدة قصيرة .

— محمد العربي الجلاوي وزير الحرب ، وهو نجل المدني . وشغل هذا المنصب في عهد مولاي عبد الحفيظ أيضا . عبد الملك المتوكّي .

— عيسَى بن عمر وزير الخارجية .

— ابن كبور ، وزير الشكايات (العدل) وكان في السابق نائب وزير الحرب في عهد مولاي عبد العزيز وعمل في إدارة مولاي عبد الحفيظ بمراكش .

أما فضول غرنيط فقد انسحب إلى الرباط كما انسحب الشيخ التازي . بينما توفي عبد الكريم بنسليمان وزير الخارجية السابق والذي طمع عبثاً في منصب الصدر الأعظم ، واتهمه المعادون للنفوذ الأوروبي بالتقرب إلى الفرنسيين . وبعد وفاته نبش قبره وقطع رأسه وعلق بباب المصلى .

واستقر كل من التازي والركينة الحاجب السابق بطنجة التي قصدها أيضا ماك لين الخبير العسكري الإنجليزي الذي وقع في أسر الريسوني[11] من قبل .

(11) انظر بشأن حكومة مولاي حفيظ : بنمنصور، أعلام المغرب العربي. 1. 380.
Dr Arnaud, Au temps des mehalla, p.2, 292.

هذه الحكومة في تركيبها وظروف تأسيسها لم تكن بقادرة على أن تواجه الأخطار المحدقة بالبلاد لأنها بعيدة عن تطلعات الشعب ورغبته الأساسية في تصفية البلاد من الاحتلال وهي غير مستعدة للحوار والتفاوض مع الأطراف المعارضة والتي اقترح بعضها مشاريع إصلاح دستوري وعسكري . فهي حكومة تأمر فتطاع وتؤمر فتطيع ، وليست على علم بما يجري من تطورات داخل الشعوب الأخرى ، كما أنها لم تألف المرونة فيما مارسته من إدارة عسكرية أو إقليمية .

أما الجيش فكانت هناك محاولة لتنظيمه وذلك بإحداث فرق قارة ومدربة باستمرار مع ضمان رواتبها بانتظام ، غير أن المخزن لم يستطع أن يكوّن أكثر من 3250 جندي لا يمكن بحال أن يقدموا مردودا مرضيا في حماية الأمن الداخلي فضلا عن الأمن الخارجي وحيث إن الدولة قررت جباية «النائبة» فإن القبائل المحيطة بفاس فضلا عن البعيدة عنها أخذت تستعد لمواجهة الحملات العسكرية المنتظرة لاستخلاص الضرائب .

اندلاع الثورة ضد الاحتلال وسياسة مولاي عبد الحفيظ

لم تعد مشكلة النفوذ الأجنبي تشغل بال المخزن بقدر ما شغلت أذهان الشعب في أخريات حكم مولاي عبد العزيز ، فإن مقتل الطبيب موشان لم يكن إلا مبرراً للتدخل العسكري الفرنسي بوجدة والدار البيضاء ، بينما المقاومة الشعبية تفرض نفسها في جبهات عديدة وبصور مختلفة فإلى جانب المضايقات التي وجدها الاوروبيون من تحديات الريسوني كانت المقاومة تواصل هجومها على المراكز العسكرية الإسبانية والفرنسية بكل من الصحراء الغربية وموريطانيا . والأطلس يغلي غضباً على الوجود الأجنبي وسياسة المخزن التي لم تتغير بانسحاب مولاي عبد العزيز وحكومته . ولذلك تفجر هذا الغضب الذي أذكته أيضا السياسة الضرائبية بعنف وتحول إلى تحفز ضد العاصمة. وبالشمال قامت ثورة جديدة يقودها قائد لم يكن اسمه متداولا من قبل وهو أمزيان .

واستقبل السلطان في نهاية يناير 1909 / أوائل 1327 ممثل فرنسا رينيو *Regnault* فعبر له عن رغبته في أن يجلو الجيش الفرنسي عن مديونة وبئر الرشيد ويعتبر احتلاله للدار البيضاء مؤقتا ريثما يتم تجنيد فرق كافية من القبائل لمساعدة

الجيش النظامي . وكان العاهل واقعيا في سياسة المفاوضة مع عدو قوي . ولكنه لم يسلك السبيل نفسه مع ممثلي الشعب غير الرسميين. وحيث إن رينيو ليس بقادر على أن يبت في الاحتلال العسكري لوجدة والبيضاء باسم بلاده ، فقد وجه مولاي حفيظ وفداً إلى باريز في 23 مايو يرأسه الحاج محمد المقري ويصحبه قدور بن غبريط الترجمان بالبعثة الفرنسية بطنجة والذي صار فيما بعد مسؤولا كبيرا في الحكومة المغربية بعد إقرار الحماية ، وعبد الله الفاسي نائب وزير الشؤون الخارجية . وكان على الوفد أن يفاوض الجهات الرسمية أيضا بشأن قرض جديد . وقضى الوفد شهورا عديدة في المفاوضات وانتهى إلى وعود بانسحاب الجيش الفرنسي من الدار البيضاء بعد أن تقيم الحكومة المغربية الدليل على مقدرة جيشها على إقرار الأمن بالشاويه . وبعد أن تتم الترتيبات لاستقراره هناك وينسحب الجيش الفرنسي من الشاوية . وكتب نفس التعهد بشأن وجدة ، وحصلت الحكومة المغربية على إذن بالاقتراض من بنك الدولة بالمغرب والذي هو تابع اسما للسيادة المغربية . ولم تنته المفاوضات مع الوزير بيشون *Pichon* إلا بعقد اتفاق بهذا الشأن في 4 مارس 1910 [12] كما حصل المغرب على القرض المطلوب .

وخلال هذه المفاوضات كان المخزن قد أجرى مفاوضات مع القسطنطينية لاستقدام خبراء عسكريين يحلون محل الخبراء الفرنسيين وفعلا قدمت بعثة من الضباط الأتراك ، لكن القواد المغاربة لم يتعاونوا معهم ، ويظهر أنهم هم أنفسهم كانوا بحاجة إلى وقت ليتكيفوا مع الوضع الجديد وأن يدرسوا عن كثب أحوال المناطق التي كان عليهم أن يؤمنوها كما كان يفعل الخبراء الأوروبيون ، غير أن ما حدث هو تكليفهم مباشرة بقيادة حملات ضد الحياينة وغيرهم ، وحيث إن المصالح الخاصة والخيانات الداخلية تعمل عملها في صفوف المسؤولين الحكوميين ، فقد سرح الضباط الأتراك وأعيدت بعثة التدريب العسكرية إلى مهمتها ، ومن الغريب أن استقدام الأتراك وطرد العسكريين الفرنسيين تم في وقت كان الوفد المغربي لايزال يواصل مفاوضاته مع الحكومة الفرنسية . على أن الأوضاع لم تهدأ بالاتفاق المبرم كما سنرى :

أولا : بعد أن انتهت ثورة بوحمارة اتجهت مجموعة من القبائل التي كانت

(12) *J. Caillé, Hespéris, 1960, Fas.1.*

تناصره إلى أمير حقيقي من الأسرة المالكة هو مولاي الكبير الذي أعلن تخليه عن بيعة مولاي حفيظ وساندته الحياينة والبرانس وتسول ومكناسة. غير أن مولاي حفيظ بادر بتوجيه محلة لتعقب الأمير فلجأ عندئذ إلى الجزائر، لكن السلطات الفرنسية بها سلمته إلى العاهل الذي حبسه في أكتوبر 1910 بفاس.

ثانيا: في الشمال، واصل الاسبان اهتمامهم بمناجم الحديد معتمدين على الامتيازات التي خولهم إياها الجيلالي الزرهوني، وهكذا شرعوا في عمليات الحفر سن 1329 / 1911 ومن أجل ذلك انتفضت منطقة الريف بزعامة الشريف محمد أمزيان الذي ظهر قبل ذلك بسنتين، فقد كانت المنطقة طيلة تاريخها بحاجة إلى قيادة محلية تجسم مطامحها الخاصة والتي تلتقي في أغلبها مع الرأي العام الوطني وبعد دخول الإسلام أخذ الاشراف مكانة لم يحظوا بمثلها كثافة ونوعا. ففي مقدمة الثورات والحركات الدينية يكون الأشراف مؤهلين للقيادة قبل غيرهم وهذه المنطقة أول جهة من المغرب استقبلت بترحاب طلائع العرب، وأول بقعة من المغرب أقيمت بها إمارة عربية. فليس غريباً أن يكون للوزانيين والريسونيين مكان ممتاز بالمنطقة. وأخيراً فإن حركة الشريف أمزيان التي لا تعتمد على سند طريقي خاص ارتبطت بانتمائه إلى البيت النبوي، لأن التقاليد تستند إلى الدعم الروحي بينما البطولات النضالية في المعامع تغذيها بيئة الجبال الوعرة والبعد عن البيئة الناعمة. وهكذا ففيما بين 1327 ـ 1331 (1909 ـ 1912) جرت معارك كثيرة بين حركة أمزيان والأسبان، فبينما كان هؤلاء يمسحون الأرض ويقيمون التجهيزات واجههم الشريف أمزيان خلال 1909 فاضطروا إلى نشر وحدات من جيشهم حول المناجم، وهاجمهم أمزيان وردهم إلى مليلية، وفي 27 يوليوز وقعت معركة حول وادي الذيب قتل فيها عدد من ضباط الأسبان واحد منهم بدرجة جنرال. غير أن القوات النظامية الضخمة التي جندها الأسبان وتفوقها في السلاح ضيق على المقاومة رقعة تحركها حتى استشهد بطلها أمزيان في 15 مايو 1912 لكن حركة المقاومة التي لم تتوقف مع ذلك جعلت الأسبان يؤخرون استغلال المناجم إلى سنة 1350 / 1931. على أن مولاي عبد الحفيظ لم يغفل عما كان يجري بالمنطقة فقد احتج على احتلال المناجم لدى الدول الأجنبية، ولكن هذا لم يكن كافياً لردع الأسبان الذين جندوا ما بين 40 و50 ألفاً في شتنبر 1909 لاحتلال رأس الماء والناظور وسوق

أربعاء كبدانة والمناجم نفسها. لقد كانوا في الواقع يطبقون الاتفاقيات السرية التي عقدوها مع الفرنسيين. وهؤلاء سبقوهم إلى تطبيقها بمجرد التوقيع على ميثاق الجزيرة[13].

وبينما كانت المقاومة تواصل عرقلة الانتشار الإسباني من جهة الشمال الشرقي تمكنت إسبانيا من إنزال جيوشها بكل من العرائش والقصر الكبير في يومي 8 و10 يونيو 1911، لكن في ظروف يسودها اللبس والغموض، وكانت فرنسا ترغب في إلحاق المدينتين بمنطقة نفوذها. وحيث إن الريسوني كان على علم بذلك فهو حتَّى وإن لم يساهم في تسهيل هذا الاحتلال فقد اعترف بأنه لم يقف في وجه الأسبان حتَّى يقطع الطريق على الفرنسيين[14] وهؤلاء كانوا بدون شك يحلمون بأن تبقَى الطريق مفتوحة بين طنجة ومنطقة النفوذ الفرنسي لكن المبادرة الإسبانية التي بررها احتلال الطرف الآخر لوجدة ومنطقة الدار البيضاء أفسد مخططات هذا الطرف على دقة استراتيجيته.

وفي هذه السنة بالذات (1911) سجل الضغط الأجنبي على المغرب موقفاً جديداً لم يكن متوقعاً من الوجهة الظاهرية. فإن ألمانيا التي كانت تحاول أن تدفع بمولاي حفيظ إلى رفض الوصاية العسكرية والسياسية للمدربين وممثلي الدبلوماسية الفرنسيين خطت خطوة كبيرة في التفاوض مع الحكومة الفرنسية، ففي سنة 1909، وعلى إثر حادث بين عناصر ألمانية وأطراف فرنسية بالدار البيضاء بسبب تهريب القنصلية الألمانية لأفراد ألمان من اللفيف الأجنبي في الجيش الفرنسي، وبعد تسوية هذا الحادث اتفق الطرفان على احترام استقلال وسيادة المغرب ووحدته الترابية مع الاعتراف لألمانيا بمصالحها الخاصة وتقديم تنازلات اقتصادية لها، وفي 4 نونبر 1911 تم التوصل إلى اتفاق سري يسمح فيه الطرف الألماني لفرنسا ببسط حمايتها على المغرب دون عرقلة من ألمانيا. وألحق الطرف الألماني مراسلات بالاتفاق تؤكد واحدة منها سيادة المغرب على وادي الذهب واتصال حدوده بإفريقيا الغربية، ومن جهة أخرى فقد أعلنت ألمانيا عن عدم تدخلها في الاتفاقات الفرنسية الإسبانية.

---

(13) أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص 449. *Garcia Figueras, Del Marruecos feudal.Arnaud. Au temps des mehalla, p. 286*

(14) ابن عزوز حكيم، الشريف الريسوني ص 25.

وذلك مقابل حصولها على امتيازات اقتصادية بالمغرب ، وترابية في إفريقيا الغربية [15] .

ولم تتنازل فرنسا لألمانيا بهذا الشكل إلا بعد أن قام الأسطول الألماني بتوجيه إحدَى قطعه الحربية إلى أكادير بحجة حماية مصالح التجار والرعايا الألمان بها . ومالبث الألمان أن أفصحوا عن إرادتهم في التوصل إلى اتفاق مع فرنسا باعتبار أن ميثاق الجزيرة قد تجاوزته الأحداث ، وهذا ما أدَّى إلى الاتفاق الجديد في 4 نونبر 1911 .

ثالثا : في الأطلس المتوسط : لم يكد مولاي عبد الحفيظ يتلقى بيعة أهل فاس التي تمت بمبادرة من الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني حتَّى طالب الشيخ بطرد الأوروبيين من فاس ومنع دخولهم إليها وعدم لجوء العاهل إلى استشارتهم والتراجع عن تطبيق ميثاق الجزيرة الخضراء وإجراء إصلاحات شاملة وإعلان الجهاد ضد الاحتلال . وحيث إن العاهل تخلَّى عن التزاماته بسبب الحصار السياسي الذي ضربه الفرنسيون على البلاط وفرض احتلالهم العسكري لمناطق شاسعة من البلاد فإن الشيخ الكتاني أخذ يوجه انتقاداته علنا إلى السياسة الحفيظية ، وكان الفرنسيون يتتبعون تحركات الكتاني في الوقت الذي كان يستعد لمغادرة فاس متوجها إلى بني مطير ليعلن منها تنظيم الجهاد ضد الاحتلال . وهنا قيل إنه كان يدبر للإطاحة بمولاي عبد الحفيظ أيضا ، على أن يدير بنفسه سياسة الدولة ، ولكن لا تتوفر وثائق لإثبات أو نفي هذه المحاولة. ويغلب على الظن أن الدبلوماسيين الفرنسيين قرروا أن يتخلصوا منه بتضخيم مغامرته لدَى البلاط ، وأشاروا على العاهل بالقبض عليه ، وهكذا فعندما حل الكتاني لدَى بني مطير وجه السلطان من ورائه محلة قوامها ألفا رجل يصحبها عدد من الضباط الأجانب ويقودها مسؤول داخلي بالقصر هو القائد بوخبزة ، وعندما اقتربت المحلة كان أحد قواد بني مطير قد دبر عملية تطويق الكتاني وأنصاره فسلمهم إلى المحلة التي لم تكد تبلغ رأس الماء حتَّى قيدت الشيخ وأسرته من الذكور ، ثم استنطق الشيخ من لدن السلطان وبعد قليل سجن بالقصر ثم صودرت بيوت أسرته وأنصاره ، وعوقب جلدا بالسوط ثم توفي من آلامه

(15) الغربي، الساقية الحمراء ص 317 — 322. *Terrasse, Histoire, 2, 395 - 399*

في رابع مايو 1908 (13 ربيع الثاني 1327) ودفن بباب الساكمه بفاس حيث أخفي قبره.

وحيث إن بني مطير اتهموا بإيواء الشيخ الكتاني وتأييد حركته فقد تكفلت محلة بمحاولة تأديبهم لكنها منيت بالهزيمة فنظمت حملة أخرى بقيادة محبوب الذي وكل إليه فيما بعد إلقاء القبض على بوحمارة ؛ وتقوت الحملة الجديدة بالضباط الفرنسيين والانجليز وبعدة قطع من المدفعية وبذلك سحقت مؤقتا ، ثورة بني مطير وبشكل لم يعهد من قبل حيث أجبروا على أداء ذعائر ضخمة . وكانت ثورة بني مطير معززة بقبائل أخرى من الأطلس كزمور وآيت يوسي وجروان وبني مكيلد ، وحتّى آيت شخمان . وكان الكتاني يحظَى بتعاطف شديد في الميدان السياسي فضلا عن الديني من لدن زعير والشاوية أيضا . وحيثما كان للزاوية الكتانية نفوذ واسع ، نجد المقاومة ضد الاحتلال تأخذ بعدا من الإصرار شبيها بإصرار الكتاني وصلابته[16] .

ثم إن الثورة ضد السياسة العامة لمولاي حفيظ أخذت تمتد إلى جبالة ومشارف الريف والشراردة وسائر الحوز الذي انشغل لأجله فكر العاهل وهو يعلم خطورة حركة الحوز على مراكش ، أي على نصف المملكة الجنوبي . وهكذا جردت حملة من الجيش النظامي قامت في مارس 1911 باخضاع الشراردة . لكن ثورة بني مطير وسائر الأطلس المتوسط عادت لتأخذ امتدادا أخطر بزحف الثوار على مكناس في أواخر مارس ، وقد تمكنوا من سحق هجوم الفرقة النظامية التي جردت ضدهم دون أن تكون متحمسة لقتالهم ثم أعلنوا بيعة مولاي الزين بمكناس حيث بدأ في تكوين حكومته .

حصار فاس وتدخل الجيش الفرنسي ومصير الشمال

شجع تخاذل الجيش النظامي القليل العدد ، والإشاعات عن إفلات الزمام شيئا فشيئاً من يد السلطان ، قبائل كثيرة على الثورة ، فتحركت باتفاق سابق لحصار فاس ، وبينها من كانوا من أنصار بوحمارة ، غياثة وبني واراين ، وأنصار الكتاني : آيت يوسي ، بني مطير ، وآخرون ممن كانوا يتعاونون مع المخزن أو في خدمته غالبا . كالأودايا . ومن المنضمين إلى الثورة : الشراردة والزراهنة وبني حسن . وحاول

(16) محمد الباقر، الشيخ محمد الكتاني. ابن سودة، قبيلة زعير، 1، 210. *Arnaud, pp.266 - 267*

مولاي حفيظ أن يستنجد بقبائل الحوز التي كانت تناصره بمراكش خصوصا الرحامنة التي لم تستجب لندائه ، وتركزت مطالب القبائل الثائرة قبل كل شيء في طرد الأوروبيين مع رفضها أداء الضرائب . وقلّ أنصار السلطان من حوله ، واشتد الضغط على الأوروبيين بفاس كما أن مولاي حفيظ نفسه أصبح تحت رحمة الثوار داخل المدينة التي كانت أغلب أوساطها قد تراجعت عن تأييدها للعاهل . وكان هناك تواطؤ تلقائي يحدث بين العاصمة والأطلس المتوسط بسبب حاجة كل منهما للآخر في الميدان الاقتصادي . لكن دور الدرقاويين والكتانيين انطلاقاً من خلاياهم النشيطة بفاس وضع الوعي السياسي والديني بين المجتمعين في درجة متوازنة تجاه الأحداث التي تدبّر في البلاط أو من حوله .

وحيث إن الأوضاع تطورت إلى هذا الحد ، فإن مولاي حفيظ بدل أن يعقد مؤتمرا عاجلا تمثل فيه كل أطراف المعارضة والمحبذين للأمر الواقع ليقرر ما يمكن تدبيره في مستوى وطني صحيح ، لجأ إلى معونة الجيش الفرنسي فدعاه إلى التدخل في رابع مايو واستجاب الجيش الفرنسي لرغبة العاهل ، فوردت نجدة عن طريق المهدية (بحرا) بقيادة الكولونيل كورو ، وثانية بقيادة الجنرال موانيي من الدار البيضاء ، كما انضمت إليها محلة المخزن بقيادة الامراني يرافقه الكولونيل برولار . ولقيت الفرق المذكورة مقاومة متقطعة قبل وصولها إلى ضواحي فاس حيث هاجمتها قبائل الأطلس التي كانت تعسكر بالمنطقة ، وكان وصول الجيش الفرنسي في 21 مايو 1911 وبعد انسحاب هذه القبائل تدريجيا حيث فتحت صفحة جديدة من المقاومة في جبال الأطلس ، وهذه المرة ضد التدخل الأجنبي ، أما مولاي الزين الذي نصبه ثوار الأطلس فقد أجبره الجيش الفرنسي على التنازل .

وبينما أصبح القصر الملكي (دار دبيبغ) تحت حماية الجيش الفرنسي قام العاهل بإقصاء المدني الجلاوي عن الصدارة العظمَى وعوضه بأمين الأمناء السابق محمد المقري ، وبعد أن وضع المدني تحت الإقامة المحروسة سمح له بالانسحاب إلى قصبته بالأطلس الكبير ، وأقصي التهامي الجلاوي عن باشوية مراكش التي أعادته إليها إدارة الحماية فيما بعد . وبما أن الفرنسيين كانوا يرغبون في إضفاء الشرعية على تدخلهم العسكري الشامل فقد ضغطوا على مولاي حفيظ حتَّى يقبل التوقيع على صك الحماية الذي هيأوه حسب رغبتهم ، وقد امتدت فترة انتظار توقيع العقد أزيد

من عشرة أشهر مرت في قسوة على الضباط والمدنيين الفرنسيين داخل فاس . وكانت أسوأ الأيام عليهم تلك التي سبقت مباشرة والتي تلت مباشرة توقيع صك الحماية[17] وتم هذا التوقيع في 11 ربيع الثاني 1330 / 30 مارس 1912 . فقد قام السكان بتعقب هؤلاء الفرنسيين وقتلوا منهم عددا كبيرا قبل أن يستطيع الجيش اكتساح المدينة ويضع حدا لثورة فاس .

وكان الوسيط بين الحكومة الفرنسية والسلطان هو سفيرها رينيو الذي كان حتَّى ذلك الوقت يستقر بطنجة . وليس هناك دليل على أن مولاي حفيظ كانت له رغبة في أن يضفي على الوجود الفرنسي طابع الشرعية أو طابع الاستقرار ، ولكن كل الدلائل تؤكد أنه كان معزولا عن الأمة وقت إقرار الحماية ، وأنه هو الذي وضع نفسه في هذه العزلة .

وساهم بقايا الجيش المغربي في التمرد على الجيش الفرنسي فقتلوا عددا من ضباطه وجنوده بفاس . ومالبثت الحكومة الفرنسية أن عينت الجنرال ليوطي أول مقيم عام لها ليأخذ تدبير شؤون الدولة بيده عسكريا وإدارياً ، وأعرب مولاي حفيظ عن رغبته في التنازل عن العرش لأخيه ، ثم انسحب إلى الرباط ، ومنها إلى طنجة ، وفي 20 يوليوز بويع بالملك مولاي يوسف وفتحت صفحة جديدة من تاريخ المغرب في اتجاهين: في ظل الحماية وضدها . وإذا كانت المقاومة انطلاقا من توقيع عقد الحماية إلى ثورة عبد الكريم الريفي قد تولاها زعماء يناضلون ضد الاحتلال وحده فإن ثورة أحمد الهيبة ، القصيرة الأمد اتجهت إلى المخزن والاحتلال معا ، ففي غمرة انشغال الجيش الفرنسي بتأمين الأوضاع بفاس والأطلس المتوسط ، تقدم أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين إلى مراكش حيث حصل على بيعة أهلها في غشت 1912 واصطحب معه ثمانية مدافع أتى بها من تزنيت التي سبق أن أعلنت بيعته سنة 1910 . وقد وجدت سوس فيه إلى حد بديلا عن عميدها السابق ابن هاشم شيخ تازروالت . وقام ليوطي بتجريد حملة لإسقاط الهيبة ، بقيادة الكولونيل مانجان ومساعدة التهامي الجلاوي والعيادي زعيم الرحامنة . غير أن أحمد الهيبة سرعان ما انسحب إلى الجنوب في ثامن شتنبر 1912 واحتلت الإدارة الفرنسية

---

(17) راجع بشأن هذه الفترة : الحماية الفرنسية، بدؤها ونهايتها للدكتور عبد الهادي التازي.

مراكش . وكانت ثورة أحمد الهيبة تجسيداً لليأس الذي استولى عليه بعد فشل مولاي حفيظ في إقرار وحدة البلاد والوفاء بالتزاماته في قيادة حركة الجهاد ، ولكنها لم تفرض نفسها بديلا لأن واجهات الصراع كانت كثيرة ، كما أن بدائية تنظيم المقاومة وتشتتها ساعد الأطراف المعادية والأكثر تنظيما على أن تتحكم على الساحة دون أن تختفي ظلال المقاومة قط . وكانت وفاة أحمد الهيبة شهيداً في كردوس سنة 1337 / 1919 بعد أن واصل المقاومة بالصحراء بضع سنوات أخرى إثر انسحابه من مراكش(18) .

أما في الشمال حيث كان مولاي حفيظ قد حصل على بيعة أغلب الجهات والقبائل بعد استقراره بفاس فقد تركت المنطقة لتجابه المقاومة ضد الانتشار الإسباني التدريجي ، وفيما بين 1908 ــ 1912 سقط في يد الاسبان رأس سيدي البشير (1908) والعرائش والقصر الكبير ومدشر العبيد وخميس الساحل وسوق سيدي اليمني وسيدي ابن داود (وكلها 1911) ، وإلى حين بيعة مولاي يوسف بفاس في 20 يوليوز 1912 ظل التقدم الإسباني بطيئاً ، وفي 12 ربيع الأول 1331 / 19 فبراير 1913 احتلت إسبانيا تطوان سلميا بعد مفاوضات مع السلطة والسكان . وكان ذلك بمبادرة من الجنرال ألفاو الذي عين إثر ذلك مقيما عاما لإسبانيا بالمنطقة الشمالية ، وفي هذه السنة وبعد محاولات من إسبانيا لفصل المنطقة عن باقي المغرب، تَمَّ اقتراح تعيين الشريف الريسوني خليفة للسلطان بها. ورفضت فرنسا كلتا الفكرتين وتم الاتفاق على ترشيح خليفة من الأسرة المالكة وكان هو مولاي المهدي ابن إسماعيل بن السلطان محمد بن عبد الرحمن الذي اتخذ من تطوان عاصمة وأحاط نفسه بهيئة وزارية وسائر الامتيازات التي للملك المغرب حيث يحكم الخليفة باسمه(19)

معاهدة الحماية

ترجم النص الأصلي الفرنسي إلى العربية غير ما مرة ، لكن أقرب الترجمات إلى الأصل مع سلامة لغته هو إلى حد الآن النص الذي أورده المرحوم الشيخ محمد

---

(18) الغربي، م. س. ص 580 ــ 587. *Deverdun, Marrakech, p.548*

(19) محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، ص 230 ــ 236. ابن عزوز حكيم، الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة.

الباقر الكتاني[20] وهو :

بناء على اهتمام حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة الجلالة الشريفة . بتأسيس حكم منظم في المغرب ، قائم على السكينة الداخلية والأمن العام ، ومساعد على إدخال الإصلاحات وضمان نمو البلاد الاقتصادي ، اتفقت الحكومتان على المواد التالية :

الفصل الأول : اتفقت حكومة الجمهورية الفرنسية مع جلالة السلطان على إنشاء نظام جديد في المغرب يسمح بالإصلاحات الإدارية والقضائية والدراسية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي ترَى الحكومة الفرنسية فائدة في إدخالها للتراب المغربي .

وهذا النظام (الجديد) سيحفظ الوضعية الدينية وحرمة السلطان ومكانته المعتادة وتطبيق الدين الإسلامي . وسيصون المؤسسات الإسلامية ، خصوصاً مؤسسات الأحباس كما أنه سيضمن تنظيم مخزن شريف على أساس إصلاحي .

وستتفاوض حكومة الجمهورية مع الحكومة الإسبانية في موضوع المصالح التي لها بالمغرب ، من أجل موقعها الجغرافي ، وممتلكاتها الأرضية على الشاطئ المغربي .

كما أن مدينة طنجة ستحتفظ بالطابع الخاص الذي اعترف لها به ، والذي سيحدد نظامها البلدي .

الفصل الثاني : يقبل جلالة السلطان منذ الآن ، أن تشرع الحكومة الفرنسية بعد إعلام المخزن ، في الاحتلالات العسكرية التي تراها ضرورية لاستتباب السكينة وتأمين المعاملات التجارية في التراب المغربي . كما أنه يقبل أن تزاول الحكومة الفرنسية كل عمل من أعمال الحراسة برا وبحرا في المياه المغربية .

الفصل الثالث : تتعهد حكومة الجمهورية بأن تبذل لجلالته الشريفة تأييداً دائما ضد كل خطر سيهدد شخصه أو عرشه أو سيقلق راحة إيالته . وستقدم (من جانبها) نفس التأييد لوارث العرش ولتابعيه من بعده .

الفصل الرابع : سيصدر الأمر من جلالته الشريفة ، أو من السلطات التي ينيبها

(20) محمد الباقر ترجمة الشيخ محمد الكتاني، ص 225 — 227. وقد حفظ النص العربي الأصلي ضمن الوثائق الملكية بالرباط، وتسوده الركاكة.

جلالته ، بالتدابير التي يقتضيها نظام الحماية الجديد طبقاً لاقتراح الحكومة الفرنسية . وكذلك سيجري الأمر في الضوابط الجديدة وتنقيحات الضوابط الموجودة من قبل .

الفصل الخامس : ستمثل الحكومة الفرنسية لدَى جلالة السلطان بواسطة مندوب مقيم عام حامل لكل تفويضات الجمهورية في المغرب ، وساهر على تنفيذ هذا الاتفاق .

وسيكون المندوب المقيم العام هو الوسيط الوحيد بين السلطان والنواب الأجانب ، وبينهم وبين الحكومة المغربية ، في العلاقات التي لهم معها ، وسيكلف خصوصا بالقضايا التي تهم الأجانب في المملكة الشريفة .

وباسم الحكومة الفرنسية سيصادق على كل الأوامر الصادرة عن جلالته الشريفة ، ويأذن بنشرها .

الفصل السادس : سيكلف نواب فرنسا الدبلوماسيون والقنصليون بتمثيل المغرب وحماية الرعايا المغاربة والمصالح المغربية في الخارج .

ويتعهد جلالة السلطان بأن لا يعقد أي عقد ذي صبغة دولية ، دون رضَى سابق من حكومة الجمهورية الفرنسية .

الفصل السابع : ستحدد حكومة الجمهورية الفرنسية ، وحكومة الجلالة الشريفة ، باتفاق مشترك ، أصول تنظيم مالي يسمح بضمان التزامات الخزينة الشريفة وجباية مداخيل المملكة بانتظام ، مع رعاية الحقوق المخولة لحامل سندات الديون العمومية المغربية .

الفصل الثامن : يمتنع جلالته الشريفة ، من أن يعقد في المستقبل رأساً ، أو بواسطة ، أيّ سلف عمومي أو خصوصي ، أو يمنح أي امتياز على أي شكل كان ، دون ترخيص من الحكومة الفرنسية .

الفصل التاسع : سيقدم هذا الاتفاق لمصادقة حكومة الجمهورية الفرنسية ، وسترفع وثيقة هذه المصادقة إلى جلالة السلطان في أقصر أجل ممكن .

وإقرارا بما هو أعلاه ، حرر الموقعان هذا الاتفاق وختماه بطابعهما .

وحرر بفاس في 30 مارس 1912 ، موافق 11 ربيع الثاني 1330هـ .

توقيع (1) — **توقيع (2)**

رينيو . سفير فرنسا — **عبد الحفيظ . سلطان المغرب**

هذا هو النص العربي غير الرسمي لمعاهدة الحماية ، وليس هنا مجال تحليل فصوله التي ترتبط بفترة ما بعد إمضاء المعاهدة .

غير أن الذي يثير التساؤل بصدد عقد الحماية هو أن توقيعه قد جاء كما سبقت الإشارة إلى ذلك بعد دخول الجيش الفرنسي إلى فاس بعشرة أشهر ، والفرنسيون حتَّى مع انتصابهم كمحتلين لابد أن يحاولوا إضفاء الشرعية على احتلالهم في أقرب وقت ، وقد كان السلطان بعيدا عن اعتقاد أن الفرنسيين جاءوا ليقروا حماية . وكان يعلن أن المغرب سيتعامل معهم على أساس ميثاق الجزيرة الخضراء[21] ، وهذا حسب تصريح المقري لمؤسسة (هافاس) الإخبارية لفرنسا. وميزة هذا الميثاق أنه يضمن سيادة المغرب ووحدته الترابية واستقلاله شكلا .

وكان واضحاً أن مولاي عبد الحفيظ يثق في مساعدة ألمانيا ووقوفها إلى جانبه لكن اتفاق 4 نونبر 1911 الذي تخلت فرنسا بموجبه لألمانيا عن مساحة صغيرة من الكونغو في مقابل إطلاق يد فرنسا في المغرب بدد كل وهم . ومنذ هذا الوقت وبعد أن أصبح العاهل رسميا على علم بالاتفاق المذكور أكد لوزارة الخارجية الفرنسية أن المغرب لم يكن قط ولن يكون مستعمرة ، وهذا بعد أن عرض المقري معاهدة في أكتوبر 1911 من 27 فصلا لقيت رفضاً باتا من الطرف الفرنسي . ومنذ نونبر سلم إلى السلطان نص معاهدة الحماية المذكور ليقبله بصفة نهائية فاحتفظ به خمسة أشهر ، وكان قدور بن غبريط يتولى ترجمة البنود للعاهل الذي أبدَى كثيرا من التحفظات والاعتراضات على مضمون المعاهدة للمسيو رينيو ، بما في ذلك قضية طنجة والوضع الدولي المقترح لها ومسألة المحافظة على التقاليد الإسلامية للشعب المغربي .

---

(21) عن مقال بعنوان معاهدة الحماية كما يرويها الأجانب. بإمضاء : أبو الفداء. مجلة السلام، تطوان، ع 4، 1933/1352.

وكان ممن وقفوا ضد الحماية كمبدأ الزعيم الاشتراكي الفرنسي جوريس ، وتوقع البرلمان ومجلس الشيوخ بفرنسا أن تصادف الإدارة الفرنسية بالمغرب صعوبات ومقاومة شديدة من الشعب المغربي . وقد أصبحت المعاهدة رسمية بمجرد مصادقة أغلبية البرلمان ومجلس الشيوخ ثم رئيس الجمهورية الذي أمضى قانون تنفيذها في 15 يوليوز 1912 .

ولم يكن هناك عقد حماية بين المغرب وإسبانيا ، لأن الإدارة الفرنسية تكلفت بتسوية ترتيبات الفصل الوهمي بين منطقتي النفوذ طبقاً لعقد الحماية مع المغرب .

وقد علق الأستاذ ديسبانيي *Despagnet* من أساتذة القانون الدولي بفرنسا عن نظام الحماية كمبدإ بقوله : «إن معاهدات الحماية لا يمكن بحكم طبيعة الأشياء أن تكون لأجل غير مسمى ولوقت غير محدود ، لأنها لا تنظم حالة ثابتة مستقرة بطبيعتها ... وهي شيء عارض في القانون الدولي»[22] .

أما ما كان من أصداء مباشرة داخل المغرب ضد الحماية فكان التعبير عنه بغضب الأوساط المثقفة والمتشبثة بحق المغرب في الاستقلال والحرية ، وتوجيهها أو تعاطفها مع الفآت التي حملت البندقية في كل بقعة من البلاد .

---

(22) ما سبق عن اصداء الحماية بفرنسا تلخيص للمقال المشار اليه .

خـاتـمـة

رأينا في عرض الأحداث المتعلقة بنشأة الدولة العلوية ، أن انطلاقة هذه الدولة كان مبناها قبل كل شيء على رد الاعتبار إلى العنصر العربي في ميدان الحكم . ومن أجل تحقيق هذا الهدف واجهت الدولة في آن واحد ، الأتراك وأنصار بودميعة السوسيين والإمارة الدلائية الصنهاجية . لم تكن القضية قضية عنصرية ، بل كانت قضية البحث عن بديل يحقق الاستغناء عن إمارات لم تحقق أي واحدة منها وحدة البلاد وتحرير الثغور . ثم إن الدعوة جاءت من سكان تافيلالت إلى الأسرة العلوية . وبدخول العلويين إلى الحكم يبدأ عهد جديد من نفوذ الأشراف في كل مكان . لقد كانت لهم حرمة فيما مضى ، لكن هذه الحرمة أخذت بعدا جديداً الآن . ففي كل أنحاء البلاد برزت الأسر الشريفة كخلايا اجتماعية متميزة ، وكثير منها احتل مكانا دينياً أو سياسياً أو هما معا . ولذلك رأينا أغلب الزوايا الرئيسية تنتمي إلى أسر من الأشراف.إن السيادة التي كانت لجزولة على إدارة حركة الجهاد على الصعيد الوطني من أواخر العصر المريني وإلى أن تقوى عضد السعديين انحصرت في إمارة تازروالت التي لم يختف ظلها حتَّى مع قيام العلويين وإلى نهاية القرن 13 / 19م وحاولت الدولة أن تجعل الأشراف إلى جانبها في وجهتها السياسية . وكان للزوايا الكبرَى دور بارز في مؤازرتها طورا ومعارضتها أخرى .

وظل شبح الدلائيين حاضرا في انتفاضات الأطلس التي تعاون على إذكائها سوء تصرف الجيش والإدارة في استخلاص الضرائب وقمع حركات الشغب وتحميل السكان مؤونة الجيش ثم دور الزاويتين الدرقاوية والكتانية في توعية السكان.والواقع أن الأطلس شأن جهات أخرى لم يولّ ظهره للعلويين بل وقف مع فاس يفرض اختياراته بين أمراء الأسرة المالكة من غير أن يكون ثقله حاسماً باستمرار . فهناك منطقتان أخريان تحطان هما أيضا بثقلهما في الميدان : الشمال الذي لم يتوقف عن

الصراع المسلح ضد الاسبان إلا بين فترة وأخرى ريثما يستجمع جهوده ؛ ومنطقة الحوز التي تتحكم فيها العناصر الصحراوية الأصيلة منذ العصر المرابطي .

كانت نقط الضعف الأساسية تشمل التنظيمات العسكرية والإدارية والمالية . في الميدان العسكري بذلت جهود قوية لإنشاء جيش من العناصر الزنجية أو ذات الأصل الزنجي . بالإضافة إلى مجموعات من عرب معقل ، وكان مفروضاً على كل المدن والقبائل أن تتطوع بحصة من شبابها للمساهمة في الحاميات والحروب. غير أن تناحر الأمراء على العرش عطل جهود الأكفاء من الملوك وأفرغ الخزينة بالنهب مع توقف السكان في عدة جهات عن أداء الجباية . وبدل أن يقوم المخزن بإنشاء معاهد لتكوين الإطارات العسكرية والإدارية مع الاستفادة من التقنيات الحديثة فقد ترك الأمر في جل الظروف لمدربين من خارج المغرب يصادفون صعوبات في التكيف من جهة ، ولا يخضعون لأية سياسة تنظيمية مضبوطة لتغطية حاجة الدولة من الإطارات من جهة أخرى . كما أن البعثات المتأخرة لم تعط الكثير مما كان يرجّى منها بسبب النظرة المعادية التي كان أفرادها يلاقونها بعد تخرجهم من عناصر المخزن .

واستغل الأوروبيون ضعف المغرب في الميدان العسكري وانعدام الوحدة في تنظيم مقاومته الشعبية فنهبوا ترابه نهباً شنيعاً ومزقوا مدنه ومناطقه تمزيقاً .

وكانت الإدارة تشكو من نقص في الكفاءات وطرق العمل والتعاون مع السكان ، والرواتب لا تؤدَّى إلا لمستويات عليا من الوظيف ويبقَى على السلم الوظيفي كله تقريباً أن يستخلص حقوقه المادية من المتعاملين وهذا ما كان يفتح أبواب الجور والاستغلال والرشوة على مصاريعها . كما أن سلطة القضاة تقلصت بشكل لم يسبق له مثيل حيث صارت سلطة الولاة تشمل كل شيء في مناطق نفوذهم بما في ذلك اقتراح تعيين القضاة وغيرهم من الموظفين في كل المراكز الرئيسية .

وتأرجحت السياسة المالية بين الاقتصار على الزكوات والأعشار الشرعية ، وبين إحداث مكوس إضافية . ثم محاولة تعويض كل ذلك بضريبة الترتيب التي وضعت الأزمة المغربية في قمتها وزعزعت ما تبقى من استقرار في كل أرجاء البلاد وفتحت الباب لميثاق الجزيرة الخضراء ثم لعقد الحماية .

كل هذه الوجوه السلبية من حياة المغرب في قرنين ونصف لا تحمل الدارس المنصف على تجريد هذه الفترة من إيجابياتها ومنجزاتها :

1 ــ حرر المغرب ما تبقى من ثغوره المغتصبة فيما عدا سبتة ومليلية التي لم تبخل الدولة بالمال والسلاح من أجلها . والأمة بالتضحية بدماء أبطالها في محاولة تحريرهما .

2 ــ نعم المغرب باستعادة وحدته الترابية والسياسية بعد فترة طويلة من حكم الإمارات والزعامات المتعددة قبل قيام النظام العلوي . ولم يسلم المغرب في الواقع من ظهور اضطرابات خطيرة وتصدعات في الحكم ، ولكن الوحدة السياسية سلمت لأنه لم تكن هناك محاولات انقلابية ذات خطر ضد الحكم القائم فيما عدا ثورة الزرهوني بوحمارة الذي انتحل هو نفسه شخص أمير علوي . وأهمية الوحدة السياسية بصرف النظر عن شكلها ومردودها الداخلي ، هي قبل كل شيء في التعامل مع الأطراف الأجنبية ، وحينما كان العاهل المغربي يرفع عقيرته ضد اعتداء أجنبي على التراب الوطني لم يكن يوجد مواطن واحد يجادل في شرعية تحدثه باسم الأمة حتّى في حالة تضعضع الحكم الداخلي. وحينما فقدت الجزائر زعامة وطنية يعترف بها كل السكان أو جلهم وجد الاحتلال الفرنسي فراغاً في هذا المجال (لأن البطل عبد القادر الجزائري لم تقف إلى جانبه بصمود إلا مجموعات من الشعب محدودة) فضم الجزائر ضماً إلى فرنسا حيث لا يوجد محاور تفرضه الأمة ويتحدث باسمها .

3 ــ خطت الدبلوماسية المغربية خطوات ناجحة وعميقة الأثر خلال هذه الحقبة الطويلة ، ولولا هذه الدبلوماسية الموفقة التي تحافظ بصلابة على سيادة البلاد وتقاليد الأمة وقوانينها الخاصة ، وتلجأ إلى المرونة والمراوغة والتماطل لارهاق العدو وكسب أنصار يتقوّى بهم المغرب ، لكان المغرب قد سقط في فخ الاستعمار قبل الجزائر وتونس بوقت طويل ، وإن كان للنضال الشعبي وتضاريس المغرب دور إيجابي في تأخير هذا الاستعمار وتقصير أجله .

4 ــ لم يكن المغرب فقيرا في اقتصاده ، فتهافت السفن الأجنبية على موانئه لشَحْن الحبوب والجلود وغيرها من المنتجات الرئيسية ، ووقوف المغرب بقوة ضد

التهريب والمهربين دليل على توفر المغرب على كميات كبيرة من الانتاج تفيض عن حاجته ويحتاج مع ذلك لتحديد وسقها توقعا لانحباس المطر والمجاعة . وكان تدخل المخزن في التبادل حازماً على الرغم من أن حركة الوسق والاستيراد كانت تستفيد منها بشكل مباشر أطراف محدودة .

وقد كان المغرب يتتبع ما يجري من أصداء في العالم شرقاً وغرباً ، وقلوب أبنائه بدافع العاطفة الدينية مع العثمانيين الذين كانوا يجابهون الأحلاف الأوروبية ومع الحركات الإسلامية التي تناهض الاستعمار كالحركة المهدوية بالسودان ، أو التي تشدُّ يَدَهَا بقوة على السلفية كالوهابية التي تعاطف معها بعض ملوك الدولة والمثقفون .

ووقف عدد غير قليل من الفئات ذات الوعي الثقافي والسياسي المستنير تطالب بتحقيق العدل الاجتماعي والقانوني وتطبيق إصلاحات عسكرية ودستورية استوجبها تطور الأحداث وحاجة المخزن نفسه إلى التعرف على ما يجري في البلاد وتقرير ما يرغب فيه ممثلو الأمة من إصلاحات . ولو أن الوقت تأخر بمولاي حفيظ قليلا في الحكم لاقتنع في آخر المطاف بضرورة الاستجابة لرغبة الذين نصحوه بالبحث عن تغيير إصلاحي ينبع من الداخل ولا يأتي مفروضا وهزيلا من الخارج[23] .

---

(23) يعد المؤلف دراسة مستقلة عن التيارات السياسية، والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية.

القسم الثاني

○ ○

مؤسسات الحكم وأنظمته

الفصل الأول
النظام السياسي

طبيعة الحكم المخزني :

المخزن هو مجموع الجهاز السياسي والإداري الحاكم . وهو يستمد تقاليده الأساسية من الأنظمة الملكية السابقة بالمغرب والتي ترتبط إلى حد بالتقاليد الأندلسية المعروفة في العصر الوسيط .

إن شخصية العاهل تقوم بأهم دور في هذا الجهاز . فهو مصدر السلطات كلها . ولكنه لا يتصرف غالباً بكيفية انفرادية عندما يتعلق الأمر بقرارات ترهن مصير الأمة . ولذلك يلجأ إلى استشارة رؤساء القبائل وكبار المسؤولين في البلاط . وبالأخص بعض الأمراء المقربين . غير أن دور كبار الفقهاء يكاد يعادل دور برلمان ديموقراطي في العصر الحاضر . فالعاهل حتى في حالة عدم رضاه عن بعض فتاوي الفقهاء في مسائل سياسية يلجأ إلى فتاو مضادة من هيئة فقهية أقل تصلباً . إن يد الفقهاء تلمس سجل الحياة اليومية والعامة وتكاد تضغط بثقلها في المدن الكبرى على تصرفات السلطة في الوقت الذي يقوم رؤساء القبائل . وأحيانا أرباب الزوايا بدور معادل في المراكز الصغيرة والبوادي .

ويعني هذا أن هناك مجتمعين يختلفان كثيرا في طبيعة علاقتهما مع المخزن ، وهما مجتمع المدن ومجتمع البوادي . إن المخزن كثيرا ما يتعرض لهزات تصل من العنف إلى حد إقصاء عاهل وتنصيب آخر ، أو إلى رفض السلطة المحلية أو المركزية القائمة . لكن هذه الحالات التي تطبعها المؤامرات والدسائس لا تتشابه في مجتمع المدن ومجتمع البوادي دائما ، فحيث تحاسب المدن التقليدية السلطة على تصرفاتها تلجأ البادية إلى رفض تزويد السلطة بالضرائب المفروضة ، نظراً لحالات الجفاف أو المجاعة أو لمجرد سوء استعمال السلطة من الولاة .

كان المخزن فقيرا في جهازه الحكومي والإداري . فعدد الوزراء واختصاصاتهم محدود وجل الملوك كانوا يتتبعون أحوال الإدارة والنشاطات العامة بكيفية تكاد تكون مباشرة . فالإطارات ذات الكفاءة والضمير المهني تقل عوض أن تكثر . والولاة والأمناء قلما كانوا يشرفون مهنتهم . وكان هذا النقص يتم سده جزئياً بإجراءات حازمة من السلطة العليا . وبالمقابل . شهد المغرب فترات مهمة من الضبط الإداري والقضائي والسياسي حينما حظي بملوك على جانب كبير من الحنكة .

العاهل :

أطلق على العاهل لفظ السلطان في جل الأحوال ، وهو لقب عرف من عهد السلاجقة واستعمله الخلفاء العثمانيون من بين ألقابهم الكثيرة ، لكن ملوك الدول المغربية على العموم لم يهتموا بكثرة الألقاب والتشريفات . بل إن العاهل في العصر الذي نعالجه كان في مظهره ومجلسه . وفي جل الحالات أقرب ما يكون إلى أوساط الناس فيماعدا حرسه وحاشيته التي تميز منصبه .

وتتم بيعة العاهل بمحضر الأمراء ورؤساء القبائل والوزراء وكبار المسؤولين والعلماء والصلحاء والأشراف ، ثم يتلوهم وفود الحواضر والبوادي . وقد تصل البيعات مكتوبة وممضاة من بعض الجهات في حالة استعجال أو لبعد المسافة . وتأتي الوفود عادة مصحوبة بهدايا تقدم للعاهل . ويشارك في البيعة كبار الضباط المركزيين والوافدين من الأقاليم . وإذا كان العاهل الراحل قد عهد لأحد الأمراء من أسرته قبل وفاته . قرئ العهد بمحضر كبار الشخصيات المذكورة[1] .

ولا تكون البيعة الرئيسية أو الخاصة بالعاصمة ضرورة ، فقد بويع مولاي أحمد الذهبي بتارودانت ، ومولاي عبد الله بمكناس ، ومرة بتادلا ، كما بويع بغيرها . وكانت بيعة زين العابدين بطنجة ومولاي سليمان بفاس ، وهكذا .

وإذا كان العاهل يتلقى الهدايا فإنه بالمقابل يقدم صلات للفقهاء والأشراف والضباط ويتولى في الغالب تسليم الجيش رواتبه المتخلفة ، وقد يزيد في مقدارها . وقد تشمل العطايا وفود القبائل وممثلي السكان الوافدين ببيعتهم . وقد تكون الصلات عينية أيضاً . كالكُسى والثياب وما إلى ذلك . وكثيراً ما تؤثر هذه

---

(1) استقصا، 9، 4.

الصلات لكثرتها في بيت المال ، ولو أنها تشبه إلى حد . بعض المكافآت والتعويضات الإضافية التي تقدمها الحكومات الحديثة بعد تنصيبها . وقد وقع نقص خطير في بيت المال بعد تنصيب مولاي أحمد بن إسماعيل بسبب ما أغدق من عطايا ، وقد ترك سلفه مبالغ كبيرة في بيت المال فوزعها مولاي أحمد من غير حساب[2] على أنصاره لاسيما الجيش ، بينما رفض خلفه أداء رواتب جيش البخاري التي بلغت مائة ألف مثقال ، فوجه لهم منها أربعة آلاف[3] . ولما تولى مولاي اليزيد قدم عطاءات كثيرة نال منها امهاوش وحده وهو من كبار زعماء الأطلس عشرة آلاف ريال[4] ، ونال رفقاؤه جميعا مائة ألف ريال .

وتختلف نصوص البيعة في تحريرها ولكنها لا تختلف كثيرا في مضمونها . فهي تفتتح بحمد الخالق والتنويه بآلائه وأفضاله ، ثم بالرسول والصلاة عليه ، ويتلو ذلك التعبير عن ضرورة وجود إمام يسهر على مصالح الأمة بالعدل والحق . ويتخلل ذلك آيات وأحاديث نبوية . ثم يأتي تقديم المرشح للإمامة مع ذكر نسبه ، فذكر الأطراف الداخلة في البيعة ، بعد الإشارة إلى التزامات المبايعين باسم الأمة، تجاه السلطان الجديد ، وعلى العموم فقد وقع التخلي عن ذكر التزامات المرشح نفسه تجاه الأمة . ثم يتلو ذلك دعوات بالتوفيق للسلطان ، فالنص على تاريخ كتابة البيعة . وأخيرا إمضاءات الأطراف المبايعة[5] . وقد يرد في البيعة التزام العاهل بالعدل والرفق كما حدث في بعض بيعات مولاي الحسن وغيره .

وعلماء الشريعة طرف أساسي في البيعة لا يمكن أن يتم تنصيب العاهل دون حضورهم بل دون مشاورتهم ، فهم في كل بيعة حاضرون[6] . وقد يحدث أن يتعرض بعضهم لمحنة حقيقية كما حدث عندما أعيد إلى الحكم مولاي عبد الله سنة 1153هـ فقد عزل عددا كبيرا من القضاة والخطباء الذين خطبوا فيما قبل باسم

(2) أبو القاسم الزياني، البستان الظريف، ص46. *Ferd Hœfer. Empire du Maroc, p.364*

(3) الزياني، م.س. ص 49.

(4) استقصا 8، 76.

(5) راجع نصوص عدة بيعات في : الاستقصا، 7، 126 و8، 76، 87، و9، 31، 129. أكنسوس، الجيش العرمرم، ص 99 ــ 109. عبد الوهاب بن منصور، الوثائق، 2، 337 ــ 376 و3، 1 — 279.

(6) الكردودي، الدر المنضد، و160. أكنسوس، جيش، ص 63. المشرفي، الحلل البهية، ص 103. الناصري، استقصا، 7، 45، الخ.

المستضيء. كما نكل بجماعة من فقهاء مكناس وسجنهم واستباح دورهم متهما إياهم بتطليق زوجه منه وتزويجها من أخيه[7].

وفي بعض الحالات يعلن العاهل عن بيعته في منشور ملكي كما هو الشأن في بيعة الحسن الأول، ويقوم بنفس العمل إذا سجل انتصاراً على حركة تمرد أو أية حركة مناهضة[8].

وتحدث هوفر عن البلاط الملكي وتنظيماته الداخلية. ملاحظاً أن العاهل يتخذ مقر حكمه بفاس أو مراكش أو مكناس وفي هذه المدينة تتجمع أكثر أموال الدولة. وللعاهل وزير أو صدر أعظم ومجموعة من الكتاب أو الوزراء لهم مساعدون غير مأجورين، وهناك عدد من «المشاورية» أو الحجاب مع مساعديهم. ولا يوجد وزير للمالية. ويستقبل السلطان في يوم معين رعاياه للنظر في مظالمهم، كما يتوفر على تراجمة للتخاطب مع الأجانب. وبالإضافة إلى مجموعة من موظفي القصر وضباطه، هناك طبيب خاص ومؤقتان وثلاثة أئمة وخمسة ضباط يتولون مراقبة وتذوق الطعام المقدم للعاهل.

ويتناول الكاتب هنا بلاط السلطان مولاي عبد الرحمن، وهو لا يختلف كثيرا عن بلاط أسلافه.

وقيل عن مولاي أحمد الذهبي إنه كان لا يتكلف في ملبسه. وكان يرتدي فوق ملابسه المباشرة برنسا و«حائكا» أبيض. وكان حزامه مرصعا بالأحجار الكريمة. وكان يستقبل زواره في رواق بقصره. وإذا تجول في حدائقه اتخذ لذلك عربة يجرها بغل واحد. واستعمل غيره من العواهل العربة أيضا. ومع ذلك فقد كان في حياته الخاصة أقل تشبثاً بتعاليم الإسلام. من أسلافه، كما أورد ذلك «كايي» وغيره.

ووصف قصر مراكش في عهد سيدي محمد بن عبد الله بأنه كان يحتوي على أنواع مختلفة من المباني، وبينها أروقة ومخازن واصطبلات ودور سكنى دون تنسيق في مواقعها. ولكن مساكن أسرة العاهل تضم زخارف ونقوشا رائعة كما فرشت بالزرابي والفرش والطنافس. ويشتمل قصر مراكش على ما لا يقل عن اثني عشر

---

(7) استقصا، 7، 125.

(8) ن.م.ج 9، 108، 110.

فناء تشرف عليها دور العيال . وداخل الدور فرشت الجدران بالحائطي وزينت بالساعات الحائطية والمرايا المذهبة ، وهناك أرائك أنيقة في أركان القاعات خصصت للزينة[10] .

وكان العواهل في أغلبيتهم يمارسون حياة متقشفة أو عادية بعيدة عن الترف والإسراف ، على الرغم من أن بيت المال وأموال المخزن تحت تصرفهم المباشر . وهذا في الوقت الذي كانت بلاطات الدول الأوروبية تشهد فيه حياة معقدة في ولائمها وحفلاتها وبذخاً متناهياً في الإفراط يستنزف الأموال والطاقات البشرية .

ولهدايا الأعياد والمناسبات تقاليدها وأهميتها في عوائد البلاط وعلاقات الولاة والمبعوثين الأجانب بالسلطة . فمن جهة ، هناك الهدايا الرسمية التي تقدم للعاهل في الأعياد على يد الوفود الشعبية والرسمية التي ترد للتهنئة أو لمبايعة السلطان الجديد . ومن جهة أخرى هناك الهدايا التي يقدمها المبعوثون الأجانب إما عند تكليفهم بمهمة لدى البلاط أو عند تعيينهم ممثلين لبلادهم . وتكون الهدايا في هذه الحال من ملوك بلاد أخرى أو مباشرة من هؤلاء المبعوثين الذين يقتطعونها عادة من نفقات تمثيلهم . وكيفما كان الأمر ، فالتهادي بين الملوك وزعماء المجتمعات عادة قديمة وشائعة من غابر العصور .

ومن حالات المهاداة في العهود السابقة للحكم العلوي ، هدية فرانسوا الأول سنة 940 / 1533 إلى العاهل الوطاسي بفاس ، وشملت خمس سلال من الفضة ومرايا وأغماد سيوف مذهبة ومطعمة بالعاج وثياباً وقفازات وأعراف طيور محلاة بالجواهر وخمس ساعات ذهبية وساعتين حائطيتين[11] .

وأهدى القنصل الفرنسي جان بابتيست باسم بلاده إلى مولاي إسماعيل سنة 1103 / 1691 مجموعة من الهدايا الثمينة بينها ساعات وبنادق وثياب رفيعة .

وفي 1140 / 1727 تسلم مولاي أحمد الذهبي هدية من البلاط البريطاني على يد ممثله جون راسل ، وتضمنت أشياء كثيرة بينها بعض المواد الغذائية كالشاي

---

(9) *Hœfer, Op. Cit. p.* 279

(10) *J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 48 et 52*

(11) *Op. Cit. Vol.2*

والسكر وحلي وثياب وثريا ضخمة من البلور وما إلى ذلك[12] . كما تلقى ملوك آخرون هدايا من نظرائهم الأوروبيين ، وقدموا بدورهم هدايا إلى هؤلاء . ولاشك أن أكبر الهدايا قيمة وأهمها محتوَى هي ما قدمه السلطان محمد الثالث إلى البلاط العثماني والتي كانت تضم زيادة على الهدايا التقليدية ، أسلحة وهبات مالية كبيرة وحتَّى بواخر حربية مشحونة كما تحدث عن ذلك أبو القاسم الزياني في كتبه . خصوصاً الترجمانة الكبرَى .

أما هدايا العيد فتعود أيضا إلى تقليد قديم . وقد ألغيت نهائيا في أول الاستقلال سنة 1956م[13] . وكانت عملية تجميع الهدايا أو الأموال اللازمة لشرائها تتم في الأقاليم على يد الولاة . وتقام حفلة رسمية بالعاصمة يتقبل خلالها العاهل مختلف الهدايا التي تقدمها الوفود بولاتها وزعماء قبائلها . على أن عملية جمع الأموال والهدايا كانت في الغالب مناسبة يثري فيها معظم المسؤولين عن جمعها على حساب المواطنين . وجرت العادة أن يقدم العاهل إلى الوفود صلات مالية بنفس المناسبة أي عند تقديم هداياها ، ونادرا ما يحرم بعضها لسبب سياسي على الأخص[14] . وحدث أن استصفَى السلطان علي بن إسماعيل أموال الأميرة خناثة ليعوض الفراغ الذي حدث في بيت المال بعد أن أجاز الوفود في أحد الأعياد ووزع رواتب الجيش .

وقد يحدث أن يتخلف بعض الولاة عن الحضور مع الوفود فيسجل محضرا بالهدايا المرسلة ويجيب السلطان بإثبات ما وصل إليه[15] . ومن أغرب ما ذكر عن الهدايا ما وصفه شاهد عيان[16] عن بيعة القائد المتوكي (كاف معقودة) وقبيلته بسوس ، وهو من القواد الإقطاعيين الذين أخضعتهم بشكل غير مباشر حملة السلطان الحسن الأول سنة 1304 / 1886 إلى سوس . فقد اصطف لتقديم الهدية على طول 800 متر صف من الرجال يرتدون البياض ويحمل كل منهم سلة مليئة بالريالات . وشملت الهدية أيضا بغالا وخيلا فارهة قد زينت بسروج محلاة بالذهب

---

(12) *Ibid*

(13) راجع ما كتبه الاستاذ عبد الوهاب بن منصور في «الوثائق» 2، 441.

(14) استقصا، 7، 129.

(15) الوثائق، 2، 441 ــ 442 و446 و450.

(16) *Louis Arnaud, Au temps des mehalla, pp 66 - 67*

والفضة . وكانت هذه هدية القبيلة . أما أسرة المتوكي فقدمت بدورها خيلا فارهة محملة بأكياس من العملة الذهبية . وقامت نساء الأسرة بتقديم أكياس مماثلة إلى الأميرة للا رقية والدة مولاي عبد العزيز وإلى باقي نساء الأسرة الملكية الحاضرات .

على أن العاهل لا يُعيّد بالضرورة في العاصمة ، فقد يكون عليه أن يقوم بجولة تفقدية أو بحملة تأديبية أو مجابهة حربية وبعيدا عن العاصمة ، وفي هذه الحال يعيد حَسَبما اتفق ، وعلى سبيل المثال فقد قضَى مولاي عبد الرحمن عيد المولد مرة بدكالة . وقضَى مولاي الحسن عيد الفطر بالرباط سنة 1290هـ وعيد الأضحَى بفاس ، وعيد الأضحَى أيضا سنة 1294 بمراكش وهكذا[17] .

والأعياد الدينية فرصة للإحسان إلى المساكين والفقراء ولإطلاق سراح عدد من المساجين . وهذا التقليد كثيرا ما يعمل به كذلك عند تنصيب سلطان جديد .

وبيعة السلطان ليست في كل الحالات موضع إجماع شعبي ولا داخل الأسرة المالكة ، وذلك لعدم وجود قانون ينظم ولاية العهد ، ووضع المشكل منذ أوائل عهد الدولة عندما نشب الصراع على أشده بين أنصار مولاي محمد وأخيه مولاي الرشيد ، وواجه مولاي اسماعيل مقاومة مسلحة من عدد من الأمراء ، بما فيهم بعض أنجاله ، فضلا عن مواجهته لبقايا الدلائيين وأنصارهم .

وحدث تصدع كبير بين البناء الوحدوي الذي قام به مولاي إسماعيل أدَّى إلى توزع السلطة بين أنجاله وفتح المجال لعدد من الزعامات المحلية التي تساند أميرا لتطيح بآخر . ولقي مولاي سليمان مع تقواه وجنوحه إلى السلم مجابهة ضارية من عدد من الأمراء بالإضافة إلى عداء الأطلس المتوسط . وأذكت إسبانيا نار الفتنة بين الأمراء قبل أن يفرض سليمان سلطته ويقصي منافسيه . وشهد العرش آخر مراحل أزماته وأشدها خطورة قبل الحماية مباشرة بسبب النزاع الحاد بين أنصار مولاي عبد العزيز وأنصار مولاي عبد الحفيظ .

وجرت العادة أن الملك المخلوع يستقر بعيدا عن العواصم السياسية ما لم يلزمه خلفه بالاستقرار في إحداها تحت الحراسة . وإذا كان الخلف أكثر صرامة فقد يعتقل سلفه ويبعث به إلى السجن[18] . وفي الغالب كانت سجلماسة مقراً أو منفىً للملوك

---

(17) استقصا، 9، 55، 133، 136، 144، 164.

(18) ناصري، استقصا، 7، 148 و187.

السابقين والأمراء المناهضين. وكثيراً ما يلجأ بعضهم إلى الجزائر قبل احتلالها. ولا توجد دلالات على وجود مؤامرات يمكن أن تنسب إلى أمراء معينين بشأن التعامل مع الأجانب لتحقيق مكاسب من السلطة على حساب تنازلات ترابية، وذلك خلافاً لما عرف في ظل الحكم السعدي وحتّى في عهد بني مرين.

واعتبرت أضرحة عدد من كبار الصلحاء بمثابة ملاجئ سياسية للأمراء والثوار المغضوب عليهم وذلك كضريح مولاي إبراهيم قرب مراكش، والذي لجأ إليه مولاي هشام، وكضريح مولاي إدريس (الأول) بزرهون الذي لجأ إليه مولاي اليزيد في عهد والده.

ومن الأمراء الذين لجأوا إلى الجزائر مولاي مسلمة الذي لجأ قبل ذلك إلى مصر حيث صادف احتلال الجيش الفرنسي لرشيد[19]. وفي مقامه بالجزائر صادف أبا القاسم الزياني الذي لجأ بدوره إلى الجزائر بعد أن نهب الأعراب قافلته وهو في الطريق إلى وجدة التي عين عليها عاملا[20].

وفي الوقت الذي كان يلجأ عدد من التجار وأعيان الطبقة البورجوازية إلى الحمايات الأجنبية داخل تراب بلادهم، كان أمراء الدولة حتّى في حالة لجوئهم إلى أسلحة العدو ليجابه بعضهم بعضا يتجنبون الاحتماء بأرض العدو نفسه مولين وجهتهم شطر الحدود الشرقية أو التخوم الجنوبية قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد انشغل جل الملوك بمهام متعددة في وقت واحد، وتكاد تكون أوقات فراغهم دون أوقات فراغ رؤساء الدول اليوم كما، بل كانت كذلك فعلا، لأنهم يتتبعون النشاطات العامة ويستقبلون الزوار والمتظلمين والمبعوثين الأجانب والوفود الرسمية والشعبية ويجابهون منافسيهم من الأمراء ويتولون بأنفسهم إخضاع الجهات المناهضة ويتتبعون القضايا الدينية والإدارية من تعيينات وشؤون حج وأوقاف وغيرها. وأكثر من ذلك فهم يطلعون على العديد من المراسلات لإمضائها وكثير منها يسند أمره عادة إلى موظفين أقل من رتبة وزير، وذلك لأن عددا من القرارات التي ترتبط بمساجين أو تجار أو غيرهم من الخواص بالذات إليهم ولا يمكن أن يبت فيها غيرهم.

(19) الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 398.

(20) ناصري، م.س.ج 8، 93.

وكثيرا ما تتضمن المراسلات الملكية تقارير حقيقية عن النشاطات العسكرية توجه على شكل منشورات إلى الولاة أو الأمراء خاصة ولي العهد. وتعتبر هذه التقارير في غاية الأهمية لصدورها عن أعلى سلطة في البلاد، ولأنها تمثل وجهة نظر هذه السلطة في معالجة الشؤون السياسية[21].

ولي العهد :

عرفنا أنه لم يكن هناك نظام قار لولاية العهد، وهناك عدة طرق لهذه الولاية حسب الظروف :

1 ـ ان يفرض المرشح نفسه باجتذاب الانصار ثم بإقصاء القائم على العرش بالقوة عند الاقتضاء كما هو الشأن في تولية مولاي رشيد، ولكن هذه حالة نادرة ما لم تتدخل أطراف أخرى لفرض المرشح الجديد.

2 ـ أن يفرض الجيش مرشحا كما هو الشأن بعد مولاي أحمد الذهبي إلى ما قبل تنصيب محمد الثالث.

3 ـ أن تتفق عدة أطراف على شخص واحد كما في تولية محمد الثالث.

4 ـ أن يعهد السلطان نفسه لأحد أفراد الأسرة، وهذا ينطبق على الملوك الذين تولوا منذ مولاي سليمان إلى مولاي عبد العزيز الذي تخلّى عن العرش.

وتختلف مواقف المجتمع بحسب سلوك المرشح وسياسته، كما أن بعض الولاة وزعماء القبائل يساهمون بكبير حظ في مساندة العاهل أو مناقضته. ويبقى بعد ذلك دور الظروف الاقتصادية والاجتماعية والضغوط الخارجية التي تعمل طوراً في الخفاء وطوراً بوضوح.

وقد تخلّى عدة ملوك عن ترشيح أحد أفراد الأسرة تاركين الأمر للأمة والأطراف ذات الوزن السياسي. وهكذا فإن مولاي إسماعيل عندما استشار القاضي اليحمدي فيمن يوليه ولاية العهد صارحه بأنه لم يعد على قيد الحياة من أنجاله من يصلح لهذه المهمة، فتخلى عن ترشيح أي من الأمراء. بينما اقترح الزياني[22] على مولاي

---

(21) راجع نماذج من هذه التقارير في م.س.ج 9، 47، 65، 134، 138، 202.

(22) الزياني، بستان، ص 183 ـ 184.

سليمان ترشيح نجله مولاي ابراهيم ، ووضع لذلك مشروعا للبيعة ، فلم يعمل بهذا الاقتراح ورشح ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام . وهكذا كان أحزم ملوك الدولة يتحرجون من تحمل تبعات ولاية العهد خضوعا لإحساس ديني أو رغبة في تجنب تصدع في الأسرة والعاهل على قيد الحياة ، إلا أن ترشيحات بعض الأمراء لولاية العهد كانت في الغالب موفقة[23] .

وكان من موجبات ترشيح مولاي سليمان لابن أخيه أنه «لا يشرب الخمر ولا يزني ولا يكذب ولا يخون ، ولا يقدم على الدماء والأموال بلا موجب ولو ملك ملك المشرقين ، لأنها عبادة صهيبية ، ويصوم الفرض والنفل ، ويصلي الفرض والنفل ...» .

وواضح أن الجانب الديني والخلقي يمثل كل شيء في هذه المبررات ، ثم إن التنصيص على تنزيه المرشح عن بعض مظاهر السلوك المشين ، دلالة قوية على عدم توفر هذه الشروط في عدد ممن فرضهم الجيش أو بعض الأطراف المناهضة ، وفي السنوات الأخيرة التي سبقت الحماية ، تمكن الحاجب أحمد بن موسى المعروف بباحماد من حمل السلطان الحسن الأول وهو على وشك الاحتضار، على أن يعهد لنجله مولاي عبد العزيز الذي كان لايزال حدثاً حتى يخلو له الجو في تدبير شؤون الدولة[24] .

وقد أتيح لعدد من الأمراء أن يؤهلوا لولاية العهد خصوصاً عن طريق شغلهم مناصب خليفية في إحدى العواصم أو المناطق الرئيسية ، أي ذات الحساسية السياسية خاصة . وكان مولاي إسماعيل قبل الملك خليفة عن أخيه بمكناس ثم بفاس الجديد . وكان محمد الثالث خليفة بمراكش عن والده مولاي عبد الله ، وتولى نفس المنصب مولاي عبد الرحمن بفاس أيام عمه مولاي سليمان ، بل إن هذا الترشيح كان متعمداً لتأهيله للملك ، حسب الناصري[25] . ولنفس السبب كان محمد بن عبد الرحمن ينوب عن والده بمكناس أو مراكش ، كما قام مولاي الحسن بمهام مشابهة في حياة والده .

---

(23) انظر نص تولية مولاي عبد الرحمن العهد في المصدر السابق، وفي الاستقصا، 8، 164، 166.

(24) *Arnaud, Au temps des mehalla, p.77*

(25) استقصا، 9،3.

ويتمتع خليفة الملك بمنطقة ما بامتيازات تشريفية تعادل امتيازات العاهل. فهو يتقبل تهاني العمال والولاة ويتولى عزل وتعيين المسؤولين في منطقة نفوذه ويستقبل القناصل إن كانوا معينين في دائرة نفوذه. وللخليفة مع هذا جيشه وحرسه الخاص وقصره الخليفي ووزيره[26].

الحكومة :

لم يكن شكل الحكومة قاراً، فعدد وزرائها واختصاصاتهم تتغير بحسب الظروف. ودور أشخاصها يبرز أو يضعف حسب مقدرتهم أو طريقة تعاملهم، وتبعاً لاهتمامات العاهل ومدَى توفر الأشخاص أنفسهم على كفاءة لحل المعضلات المعروضة. وليس دور الحكومة واضحا على الدوام لأنه لا توجد محاضر جلسات خاصة بها، ومن جهة أخرى فالوثائق على كثرتها لا يمكن الاطلاع عليها قبل زمن طويل وتصنيف دقيق وشامل.

إن أهم شخصية في البلاط بعد العاهل، هي من دون شك شخصية الحاجب الذي هو من حيث المبدإ بمثابة رئيس التشريفات ورئيس الديوان الملكي، أي أنه ينظم استقبالات العاهل ويبلغ تعليماته، وهو أمين سره وموضع ثقته، واتصال العاهل به لا ينقطع في سفر أو حضر. ولما كان يقوم بدور سياسي كبير والحالة هذه. فهو عملياً عضو في الحكومة، بل أبرز عضو فيها حتَّى وإن اختص ظاهرياً بدور الوسيط، ولهذا السبب تماماً، يبرز دور الحجاب في الدولة أكثر من الوزراء. وهو مع هذا يتولى المحافظة على الخاتَم الملكي[27].

ومن بين الحجاب عبد الوهاب اليموري في بلاط مولاي عبد الله[28] ثم في بلاط نجله وخلفه، والطيب اليماني في عهد مولاي عبد الرحمن، وباحماد في عهد مولاي الحسن وخلفه مولاي عبد العزيز.

ويتألف أعضاء الحكومة الرسميون من :

1 — الصدر الأعظم، وهو واحد من الوزراء يميز عنهم بكونه أكثر اتصالا

---

(26) مراكشي، اعلام، 7، 360.

(27) بنشنهو : البيان المطرب، ص 21.

(28) الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 158.

بالعاهل من غير أن تطلق يده في الشؤون السياسية إلا بقدر ما يأذن له العاهل في حالات معينة. والواقع أن وظيف الصدر الأعظم لم يصبح قائما بذاته إلا في وقت متأخر ، وعلى الأخص من عهد مولاي الحسن ، وبقي كذلك حتّى فجر الاستقلال حيث أصبحت هناك وزارة أولى ، بل كان الوزير الأول في فجر الاستقلال يعد رئيسا للحكومة . وفي غالب الأحيان تظل شخصية الحاجب طاغية على الحكومة وظلها مهيمناً على التدابير المتخذة حتّى مع وجود صدر أعظم أو وزير ذي كفاءة .

2 — وزير البحر. وكان السلطان في البداية يعين أمير البحر ويسند إليه قيادة الشؤون البحرية والشؤون الخارجية كما كان الشأن في ابن عائشة أمير البحر في عهد مولاي إسماعيل ، وفي الأمير مولاي اليزيد الذي شغل مهام مماثلة في عهد والده . ومنذ عهد مولاي عبد الرحمن أصبح هناك نائب عن السلطان بطنجة يتولى باسم العاهل مفاوضة الممثلين الدبلوماسيين والقناصل العامين المستقرين بنفس المدينة ، ثم أصبح هناك من عهد مولاي الحسن وزير للبحر يمارس سلطات وزير الخارجية إضافة إلى النائب السلطاني بطنجة .

3 — وزير الشكايات أو ما يقابل وزير العدل حاليا ، وهو يتلقى شكايات المواطنين من الولاة ويقدم موجزا عنها إلى العاهل الذي يقرر فيها ما يلزم .

4 — العلاف وهو المكلف بتموين الجيش . وقد عين مولاي الحسن وزيرا للحربية وألغى بذلك منصب العلاف أو جعله تابعا لهذا الوزير .

5 — أمين الأمناء وهو مكلف باستقبال التقارير المالية والحسابات ومراقبة الأمناء المكلفين بجمارك الموانئ ، إلا أن مولاي الحسن عين وزيرا للمالية كما عين أمين الحساب لتركيز مراقبة الموارد والنفقات .

هذه كانت حكومة المخزن في أحسن ظروفها وأتم تنظيمها على الصعيد المركزي . وكنموذج محدد فإن حكومة مولاي الحسن كانت تتألف من :

1 — الصدر الأعظم : الحاج المعطي الجامعي

2 — وزير الحرب : محمد الصغير الجامعي (أخو الصدر الأعظم)

3 ــ وزير المالية : موخا التازي الرباطي
4 ــ وزير البحر : فضول غرنيط
5 ــ وزير الشكايات : علال المسفيوي
6 ــ أمين الحساب : العربي الزبدي
7 ــ كبير المحلة (قائد الجيش) : بامحمد الشرقي

ويبدو أن أول من شغل منصب الصدر الأعظم كان الفقيه اليحمدي في عهد مولاي إسماعيل ، وكان موضع تقدير العاهل وثقته حتّى كان يساره في أدق شؤونه[30] .

وكثيراً ما يكلف وزير بمهمة سياسية خارج المغرب كما كان دور محمد بن عبد الوهاب لدَى كارلوس عاهل إسبانيا[31] وابن عثمان في إسبانيا وغيرها . وهناك وزراء تصادر أموالهم أو يلقون المحنة إذا تغير عليهم العاهل لوشاية أو نصب عاهل جديد . وكان الوزير محمد العربي قادوس يحظَى بعطف محمد الثالث . وكان اسباني الأصل . وبعد موت السلطان أخفَى الأموال التي كان أودعها عنده وبعضها أخفاه بمراكش والصحراء ، وقسم منها كان قد أودعه باسم السلطان وفي حياته لدَى الاسبان ، فأمر مولاي اليزيد بقطع يديه ثم بقتله في السجن بعد أن أصر على الإنكار[32] . وسجلت على هذا الوزير تلاعبات في عمليات وسق الحبوب بالدار البيضاء مع كل من عاملها ابن عبد الملك وقنصل إسبانيا[33] . كذلك فقد ابن عثمان ثقة مولاي اليزيد أثناء المفاوضات التي كان يجريها الوزير المغربي مع حكومة كارلوس الرابع عاهل إسبانيا[34] . على أن ابن عثمان استعاد مقامه في عهد مولاي سليمان[35] .

---

(29) *Arnaud, Op.Cit, pp.77 - 78*
(30) أكنسوس، جيش، ص 169. ناصري، استقصا، 7، 65، 100.
(31) ابن منصور، وثائق، 1، 416.
(32) الضعيف، تاريخ، ص 238 ــ 240.
(33) *Palau, Cartas arabes de Marruecos, p.120*
(34) *Op. Cit. pp.124, 126*
(35) راجع عن ابن عثمان : محمد الفاسي، مجلة تطوان 1960م. المراكشي، إعلام، 6، 145.

وتفعل الوشايات والدسائس فعلها في حاشية العاهل حتى ليؤثر ذلك على وضع الوزراء ما لم ينسحبوا قبل فوات الأوان . وكان الوزير السوسي محمد أكنسوس قد أسند إليه هذا المنصب في أواخر عهد مولاي سليمان ، فلما توفي وخلفه مولاي عبد الرحمن وجد الوزير نفسه في جو من الحقد والدسائس جعله ينسحب بسرعة بعد إلحاح لدى العاهل الجديد[36] الذي عين مكانه الفقيه الأديب محمد بن ادريس وكان صديقا لأكنسوس ولكنه تغير عليه بعد وفاة مولاي سليمان . وقد امتحن ابن ادريس أيام مولاي عبد الرحمن ثم أعيد إلى منصبه .

وكما هو الشأن في عصرنا هذا كان منصب وزير الشؤون الخارجية ، أو الأمور البرانية كما كان يسمى في الغالب أخطر المناصب شأنا . وحسب ما تثبته الوثائق الملكية المتوفرة ، فقد أحدث هذا المنصب (مستقلا عن الشؤون البحرية التي فقدت أهميتها) منذ عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن لا من أيام خلفه مولاي الحسن[37] .

واستطاع عدد من ضباط الجيش وأسره أن ينالوا مناصب عالية في الحكومة . ومنهم وزير الحرب عبد الله بن أحمد البخاري في عهد مولاي الحسن ، وأحمد بن موسى البخاري المعروف بباحماد والذي كان أعضاء الحكومة يتصاغرون بجانبه ، وكذلك أتيح للمنبهي الذي كان مجرد عون بسيط (مخزني) ثم قائدا للمنابهة أن يقفز وزيرا للحربية في عهد مولاي عبد العزيز ، وكان أمياً من صنائع باحماد ، ولكنه كان مثله شديد الذكاء مطلعا على دخائل المخزن[38] .

وتضم الحكومة في كثير من الأحيان عناصر ترتبط برباط الصهر أو القرابة مع الأسرة المالكة كأسرة الجامعي ، وبينها محمد بن العربي الجامعي[39] وزير الحرب في عهد محمد بن عبد الرحمان ، وجده المختار الجامعي وزير مولاي عبد الرحمن . وعرفت هذه الأسرة باستقامتها وأخذها بنصيب من الثقافة والمعرفة .

---

(36) مراكشي، إعلام، 7، 8 — 17.

(37) محمد داود، تاريخ تطوان 6، 147. ابن منصور، وثائق، 4، 323.

(38) *Arnaud, Op.Cit. p.129*

(39) مراكشي، إعلام، 7، 214.

والواقع أن دور الوزراء في الميدان السياسي يبرز أكثر فأكثر منذ عهد مولاي عبد الرحمن بعد أن اتسع ارتباط المغرب بالأحداث الخارجية وبدأ الاحتلال الأجنبي يضغط بثقله على المغرب شمالا وشرقا. وكان لعدد من الوزراء دور بالغ الأهمية في الأحداث الداخلية أيضا خلال هذه الفترة وإلى إقرار الحمايتين الفرنسية والإسبانية. ولابد أن نشير هنا إلى دور المدني الكلاوي الذي ساند مولاي عبد الحفيظ ضد أخيه مولاي عبد العزيز، وعمل على إخضاع جهات تمتد من الشاوية إلى توات بعد أن أصبح وزيرا للحربية كما تولى منصب الصدر الأعظم. وقاد حركة تصفية ثورة بوحمارة[40].

ومن الوظائف الرئيسية في الدولة منصب أمين الأمناء الذي يأتي الحديث عنه في موضوع النظام المالي، ومنصب قاضي القضاة الذي يعالجه موضوع النظام القضائي. كما أن هناك موظفين خاصين بالبلاط الملكي دون الحاجب؛ ومنهم قائد المشور الذي هو ضابط الحرس الخاص بالقصر والمنظم للمواكب الملكية[41] وشؤون القصر ويساعده عدد من الاعوان لكل مجموعة منهم اختصاصات معينة واسم خاص[42].

وتكشف المراسلات الملكية عن معلومات دقيقة حول مصاريف القصر لاسيما المراسلات الموجهة إلى بعض العمال المكلفين بتنفيذ هذه المصاريف أو اقتطاعها من حسابات معينة، ونقل بنشنهو[43] بيانا باللائحة المدنية للقصر الملكي في عهد مولاي الحسن؛ ويذهب قسم كبير منها لمخصصات الأشراف بالإضافة إلى موظفي البلاط والحكومة وصيانة القصور ومخصصات العاهل وأسرته.

وباستثناء الجيش الذي كانت تتوقف عنه الرواتب في حالة عجز مالي في بيت المال، فإن عدداً كبيرا من أصناف الموظفين ليست لهم رواتب بالمرة. وعلى سبيل المثال لم يكن لقواد البوادي رواتب، ولذلك يفرضون رسوما معينة على القبائل

---

(40) ن.م. ص 236 — 248.

(41) بنشنهو، البيان المطرب، ص 21.

(42) م.س. ص 21.

(43) م.س. ص 25.

تضاف إلى الضرائب الرسمية وتجبى معها[44]. ومن ثم كانت الرشوة طريقا طبيعياً للحصول على ما يعادل الراتب ، بل ما يفتح السبيل إلى ثراء حقيقي ، وفي النهاية أصبحت الرشوة من الأمور المألوفة حتّى إن مؤلفاً متأخراً يلتفت بصورة خاصة وهو يترجم لمحمد بن العربي الطريس نائب السلطان بطنجة إلى أن هذا الموظف السامي كان «عفيفاً عن أخذ الرشوة عاقلا ، وقوراً ، حسن السمت ، لم يثبت عنه أنه ارتشَى في قضية»[45].

وقال هذا المؤلف أيضا عن الصدر الأعظم أحمد بن مبارك في حكومة مولاي سليمان والذي ظل في مهمة الوزراء ثلاثين سنة «أنه خرج من الدنيا ولم يخلف قليلا ولا كثيرا إلا كسوته التي على ظهره»[46] غير أن هذه لم تكن صفة المنبهي والمدني الكلاوي وعدد من الولاة الذين أثروا بشكل يفوق التصور كالقائد المتوكي وأشعاش عامل تطوان وابن عبد الصادق الريفي وكثيرين غيرهم . وساعد على ذلك عدم ضبط الميزانية وانعدام جهاز يعنى بشؤون الموظفين ورواتبهم وترقياتهم ومراقبة نشاطهم وحساباتهم . فقد كان الموظفون طيلة عصور متوالية يعيشون على هامش اهتمامات الدولة ما لم تنلهم رعاية الملوك أنفسهم أو بعض كبار الدولة ، وفيما عدا المحظوظين الذين يبرزون عن طريق براعتهم في التحرير أو في التحبب إلى الرؤساء أو في استنزاف أموال المواطنين ، وأحيانا في إتقان أعمالهم وضبط اختصاصاتهم ، فإن الآخرين لا يحظون باهتمام يذكر ، بينما يستطيع الحرفيون أن ينتظموا في حناطيهم وينتخبوا أمناءهم ويرفعوا أصواتهم لدَى السلطة . وحتّى الخماسون والرعاة يمكنهم اللجوء إلى القضاء ، وليس ذلك مما اعتاده الموظفون البؤساء ولا مما جرت به أعراف الماضي .

ومهما يكن من أمر ، فإن الجهاز الحكومي كان في القمة يقترب شكلا من النظام الرئاسي وفي القاعدة يعتمد على علاقات اجتماعية معينة تأخذ منها العلاقات العائلية والشخصية بأوفر نصيب ، ولا يمكن أن نتحدث عن تخطيطات للعمل الحكومي على نطاق عام ، فالتدابير ذات الصبغة الوطنية من اختصاص العاهل

---

(44) *Arnaud, Op.Cit. p.216*

(45) عباس المراكشي، إعلام 7، 151.

(46) ن.م.ج 2، 404.

نفسه . ثم إنه من السابق لأوانه أن توضع قضية التخطيط الحكومي في الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا المتقدمة لاتزال هي نفسها بعيدة عن القيام بتدابير خطط لها على نطاق واسع في الزمان والمكان والمال والأيدي المنفذة . كان النظام الحكومى متخلفاً وفي نفس الوقت أسير الازمات الداخلية والمصطنعة في الخارج .



الفصل الثاني
النظام العسكري والحربي

بدأ تنظيم الجيش في وقت مبكر ، أي ابتداء من أيام المولَى مَحمد بن الشريف الذي أسس فيما يبدو أول ديوان للجيش المغربي في هذا العهد. وعلى هذا الديوان اعتمد أخوه وخلفه مولاي رشيد الذي يقول عنه الناصري[1] : «وكتب من كان مع أخيه من ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح».

وقد أدخل مولاي رشيد عناصر مغربية وأخرى كانت تعيش غرب الجزائر في ظل السلطة العثمانية كأشجع وبني عامر وسنوس وشراقة ومديونة وهوارة[2] . أما التحاق هذه العناصر بالجيش المغربي فلأنها رفضت حكم الأتراك.

وقام مولاي إسماعيل بإدخال تغييرات جذرية على الجيش انطلاقا من سنة 1088 / 1667[3] حيث أعاد تنظيمه وتطعيمه بعناصر جديدة. وقد أدرك ضرورة هذا التنظيم بعد أن هددت ثورات الأمراء عرش المغرب الذي لم يكن قد أتم استقراره. ولما كانت التدابير الأساسية التي تهم الدولة والأمة ، مما يستشار فيه القضاة والفقهاء ، فقد استشار السلطان مولاي إسماعيل القاضي النوازلي محمد بن العياشي بشأن إعادة تنظيم الجيش ، فأشار عليه بتجميع أعقاب جيش السودان الذي كان في عهد السعديين ، فتم تجنيد خمسة آلاف منهم تطوعا ، وبينهم عناصر مغربية غير سودانية الأصل. وأسند السلطان مهمة التجنيد إلى الباشا عليلش. وسمي هذا الفوج بعبيد الزنقة. ثم تولى عليلش عملية التجنيد الإجباري لمختلف العناصر التي يقع عليها اختياره ، وأساء التصرف في ذلك حتّى اتخذ التجنيد مطيّة

---

(1) الناصري، استقصا، 7، 32، وينقل عن الكردودي، در منضد، و138.

(2) كردودي، ن.م. ناصري، 7، 41.

(3) كردودي، و171 — 174.

لنهب الأموال[4] . وتولى القاضي ابن العياشي الفصل في نوازل الجيش ؛ وسمي الفوج الثاني المجند إجباريا بعبيد البخاري أي الذين أقسموا على الإخلاص للدولة أمام صحيح البخاري ؛ وهو تقليد اتخذه السعديون من قبل . وهكذا فلم يكن في جيش مولاي اسماعيل عناصر سودانية فحسب، بل كان فيه أيضا، عناصر وطنية من الشاوية ودكالة ويمور وغيرها[5] . وتمت عملية الحصول على العنصر السوداني شراء ، بما في ذلك العنصر النسوي الذي ضم كذلك حرطانيات ، وكان القصد من تجميع النساء تزويجهن من العزاب لتقارب الطباع . ثم وجه المجندون إلى معسكر مشرع الرمل حيث وزع عليهم السلاح من مخازن تطوان على يد القائد ابن عبد الله الريفي . غير أن عبيد دكالة أنزلوا بقصبة إدخسان التي بناها مولاي إسماعيل ؛ وعبيد الشاوية بزاوية الدلاء[6] . وكانت فرقة آيت يمور تضم ألف فارس[7] .

وفي 1089هـ تعزز الجيش بحوالي ألفين من الحراطين جلبهم مولاي إسماعيل من موريطانيا والجهات المجاورة أثناء حملة قام بها هناك . واستقدم هؤلاء الحراطين أسرهم[8] . وبعد أن تم تجميع أربعة عشر ألفاً تناسل هذا العدد حتَّى أصبح مائة وخمسين ألفا عند وفاة مولاي إسماعيل سنة 1139 / 1726 . ذلك أنه عمل على تربية أطفال الجيش بنين وبنات ؛ فكان البنات يتلقين تربية منزلية ونسوية بإشراف عريفات ، والأولاد يلقنون تدريبا مهنيا وعسكرياً يتدرج لمدة خمس سنوات الأولى في البناء والنجارة وركوب الحمير ؛ والثانية للتدرب على نقل مواد البناء بواسطة البغال ؛ والثالثة يقضونها في خدمة مواد البناء نفسها ، والرابعة في الخدمة العسكرية ؛ والخامسة في الفروسية الحربية . ثم يزوجهم من البنات المذكورات مع تعويضات مادية وعينية[9] . وكان ثمانون ألفا من عبيد الديوان موزعين على القلاع لحمايتها وحراسة الطرق ، وسبعون ألفا يلازمون ثكناتهم بمشرع الرمل (أو الرملة) .

---

(4) عباس المراكشي، إعلام، 6، 35 — 36، زياني، بستان، ص 31 — 32.
(5) المشرفي، الحلل البهية، ص 120، أكنسوس، جيش، ص 68 — 69.
(6) أكنسوس، ن.م. وص.
(7) استقصا، 7، 81.
(8) استقصا، 7، 58.
(9) ن.م. ص 71. زياني، بستان، ص 36.

لقد هدف مولاي إسماعيل إلى خلق جيش نظامي مخلص للعمل الوطني وبعيد عن النزعات القبلية ، حيث كانت كل العناصر الوطنية ممثلة فيه ، إلى جانب عبيد الديوان من السود ، الذين تم تجنيدهم بالذات مراعاة لعنصر الإخلاص والالتزام بالعمل العسكري الذي شغل جزءا كبيرا من اهتمامات الدولة ، وقام مولاي إسماعيل بتجريد القبائل من السلاح الذي احتفظ به مجاهدو سبتة فقط[10] . وقد كان لعدد من علماء فاس وجهة نظر مخالفة لما أشار به عليلش على مولاي إسماعيل ، حتَّى أدَّى ذلك إلى نكبة بعضهم . لأن معارضتهم لم تقدم حلا بديلا لإحداث جيش نظامي ولاكتفائهم بالنص على عدم شرعية تجنيد الحراطين اجباريا[11] . والجدير بالذكر أن شباب فاس كانوا ينخرطون عادة في صفوف المتطوعة حيث كانت استماتتهم في المقاومة حول سبتة ومليلية تثير الانتباه .

وكان عنصر الأودايا من أهم فرق الجيش المسجلة في الديوان والتي اعتمد عليها مولاي إسماعيل لخؤلته فيها وبالتالي لولائها ، وهي من أقدم الفرق التي انخرطت في جيشه ، وكانت تتكون من ثلاث مجموعات أو أرحية : رحَى سوس ، رحَى الأودايا ، ورحَى المغافرة ، ويطلق على الجميع اسم الاودايا ، وهم كلهم عرب من معقل[12] .

كذلك تعزز الجيش بوجود عنصر الاعلاج الذين كانوا كثيرين في القرنين 17 و18م ، وهم مسيحيون أصلا يعتنقون الإسلام ويعملون في الجيش كمرتزقة . ولكن أغلبية غير المسلمين هم من الأسرَى الذين يقعون في قبضة مجاهدي البحر . ويسلمهم هؤلاء إلى السلطة المركزية ، وهم نصارَى على العموم يعملون في شؤون البناء والتقنيات العسكرية ، لاسيما المدفعية .

غير أن المجهود الضخم الذي بذله مولاي اسماعيل تعطل تقريبا بعد وفاته إلى حين ارتقاء العرش من لدن حفيده محمد الثالث (سيدي محمد بن عبد الله) وقد تحدث أسير فرنسي بيير تيرَّال عن افتقار الجيش المغربي إلى التنظيم في هذه الفترة ، وأن الفرسان والمشاة يحاربون على طريق الكر والفر ، وزعم أنهم لا يحسنون استعمال

---

(10) استقصا، 7، 81. كردودي، در منضد، و162.

(11) استقصا، 7، 94.

(12) م.س. ص 50. أكنسوس، جيش، ص 67.

البندقية[14] ! وفي انتقاداته لا يتفق مع ما تذكره تقارير أجنبية أخرى.

ونقل السلطان محمد الثالث مزيدا من حراطين الصحراء إلى ديوان الجيش. والذين كانوا بالرتب وتافيلالت، على إثر تمرد قاده عمه المولى حسن[15]. كما جمع قبائل الحوز سنة 1179 / 1765 على يد القائد عبد النبي المنبهي، فاستوفى منهم أربعة آلاف وخمسمائة، ولكنهم عادوا فيما بعد إلى قبائلهم[16]. وفي 1182هـ تم تجميع عبيد المخزن الموجودين بسوس وموريطانيا، فكانوا أربعة آلاف ألفوا حامية مراكش حيث أقاموا بظاهرها[17] وبوجه عام كانت الأهمية بالدرجة الأولى في عهد سيدي محمد بن عبد الله للحراطين وعنصر الأودايا، كما كان الاهتمام منصباً على حماية الموانئ البحرية. وقد ذكر أكنسوس[18] تفصيلات دقيقة عن توزيع حامياتها التي كانت تضم على الخصوص قوات بحرية وفرق مدفعية، وبلغ جند هذه الحاميات 16 ألفا وخمسمائة.

واستدعى هذا السلطان ذو الروح التنظيمية الأتراك والأعلاج لتطوير المدفعية وتدريب الإطارات الوطنية، وعلى سبيل المثال تولى أحد الأتراك المستقدمين خصيصا من القسطنطينية تدريب الإطارات الشابة بالرباط وسلا حيث تولت عمليات الجهاد البحري[19]، وكان في فتح البريجة علجان مسلمان أحدهما «بابا سليمان الدريزي» والآخر «بابا إسماعيل الدريزي» وقد أخلصا في مهمتهما[20]، وفي عهد مولاي عبد الرحمان بن هشام هاجر إلى المغرب عدد كبير من ضباط وجنود البحرية والمدفعية أتراكاً وعرباً. وقد حفظت أسماؤهم في وثائق الخزانة الملكية

---

(13) زياني، م.س. ص 54 — 55. *Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 251*

(14) *Caillé, Op.Cit. 2, 27* وانظر توزيع الجيش في عهد م.إسماعيل، بما فيه الانكشارية، أكنسوس، جيش. ص 152.

(15) استقصا، 8، 12.

(16) ن.م. ص 28.

(17) ن.م. ص 35. وذكر أكنسوس أن اسم هذا الجند الحوزي هو الكيشارية (كاف معقودة)، وقد سرحوا بعد حوادث اعتداء على الأموال والقبائل.

(18) أكنسوس، ص 172.

(19) *Champion, Le Maroc et ses villes d'art, 2, 47*

(20) الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 172.

بالرباط[21] . بينما كان شأن عبيد البخاري قد ضعف . كما قل عددهم ، حيث ستعمد الدولة إلى تسليح بعض القبائل وتكوين إطارات جديدة . بعد أن أصبح الاحتلال الفرنسي بالجزائر يهدد المغرب كما يهدد القطر التونسي ، وهكذا سمح للقبائل التابعة لعمالة تطوان أن تحصل على السلاح بيعا من الدولة[22] ، وذلك سنة 1256 / 1840 . وفي عام 1258 / 1842 بدأت حركة استعداد حقيقية للجهاد ، حيث يوجه السلطان أمرا إلى عماله المعنيين يقول فيه : «... فينبغي لكل مومن أن يجعل الجهاد أهم أموره ، ويصرف إلى أخذ الأهبة له وجه عنايته» . كما يوجه تعليماته إلى نائبه بطنجة بشأن استنفار جميع السكان بالمنطقة ، وإظهار كل وسائل القوة والاستعداد الممكنة ، حذرا من هجوم فرنسي خطير[23] ، وكانت تطوان في هذه الفترة مركزا هاما للصناعات العسكرية وتدريب تقني المدفعية[24] الذين حرص مولاي عبد الرحمن على الاستكثار منهم وتخويلهم تعويضات وإنعامات مادية متميزة[25] . وكان تكوينهم يتم في عدة موانئ بحرية كسلا والرباط وتطوان .

وأورد فرنسي معاصر[26] معلومات دقيقة عن تنظيم الجيش في عهد مولاي عبد الرحمن ، ولكنه لا يقدم مصادره التي يغلب على الظن أنها مستقاة من تقارير القناصل ، وربما من أفواه بعض الضباط الذين كانت بينهم بعض العناصر الوطنية . وحسب هذا المصدر لم يكن هناك جيش قار كبير ، بل حرس ملكي يقدر بخمسة آلاف من عبيد البخاري ، والباقون من عنصر الاوداية والجميع موزع بين المراكز الرئيسية : 4000 بمراكش ، و2400 بطنجة ، و1200 بفاس ، والباقي موزع بين آسفي وسلا والرباط . ومجموع الجيش النظامي لهذا العهد حسب نفس المصدر هو 11 ألفاً . ويذكر أن الاهتمام بجيش المشاة كان ضعيفا وأن أسلحتهم فردية ورديئة . وهم يمارسون الحرب بكيفية فوضوية . وتعطَى الأولوية لجيش الفرسان سواء في

---

(21) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 202 — 206.

(22) ن.م. ص 333.

(23) ن.م. ص 363 و369. وانظر صفحات 371، 375، 414.

(24) ن.م. ص 333.

(25) استقصا، 9، 70.

(26) *Ferd Hœfer, Empire du Maroc, pp.276 - 279*

الميدان أو من حيث الامتيازات. وكل فارس يحصل من المخزن على قطعة أرض زراعية، يستغلها مقابل التزامه بالعمل العسكري وتموين فرسه وتجهيزه. وبعد أن يشير الكاتب إلى ضعف تسليح الجيش وطريقته في الحرب يلاحظ أن هناك تحسينات تتأكد يوما عن يوم بفضل الصناعة الانجليزية التي كانت متفوقة في هذه المرحلة عسكريا ومدنيا.

ويظهر أن أهم جوانب الضعف في الستراتيجية العسكرية المغربية، كان عدم الاستمرار في التنظيمات الايجابية. وعلى سبيل المثال نرى أن عملية تجميع الخلط وإلحاقهم بالديوان على يد السلطان محمد بن عبد الرحمن حين كان خليفة لوالده بمراكش لم تؤت أكلها أكثر من سنتين أو ثلاث حيث تم حشدهم بزكوطة (كاف معقودة) ووادي مكس[27] لمراقبة الطرق المؤدية إلى مكناس. ثم عادوا إلى أماكنهم الأصلية.

ومما يلفت النظر أن حالة الجيش التونسي في أواسط القرن 19م. لم تكن بأحسن منها في المغرب. بل كانت تثير الأسى فعلا، حتى ساعدت على قيام ثورة شعبية عارمة سنة 1864، فقد بقي الجيش بدون راتب مدة سنة، ولم يستطع الباي أن يزود عمال الأقاليم بحراسة لتحصيل الجباية، ولم تكن للدولة خيل ولا إبل للقيام بحملة عسكرية[28].

وكانت فرق الجيش التي تدعى لردع القبائل الثائرة تتألف من ثلاثة أصناف: 1) الجيش النظامي وهو يؤلف الجند العامل في خدمة الدولة بصفة دائمة. 2) المسخرون وهم لا يحملون السلاح إلا برفقة العاهل. 3) الجند الاحتياطي المؤلف من القبائل الموالية، ويساهم في العمليات إذا دعي لذلك خاصة[29].

ويدرب الجيش النظامي باستمرار ويسكن في قصبات حيث يتلقى رواتبه بانتظام يختلف حسب الظروف. وكان هذا الجيش يتألف في عهد مولاي الحسن من عناصر البخاري والأوديا وشراقة وشراردة. ويستقر قسم من الأوديا على ضفاف وادي

---

(27) استقصا، 9، 70.

(28) *B. Slama, L'insurrection de 1864, pp.32 - 33*

(29) *Louis Arnaud, Au temps... p.4*

مكس من روافد سبو . وقسم بقصبة الرباط ، وثالث بحوز مراكش ورابع قرب صفرو . أما الشراقة القادمون من تخوم المغرب الشرقية فأهم مجموعاتهم أولاد جامع بشمال فاس ، وهم من العرب . كما يتألف الشراردة من قبائل عربية كأولاد دليم والشبانات .

لكن ضآلة رواتب الجند النظامي تضطر عددا منهم إلى الفرار وبيع أسلحتهم والبحث عن عمل ، ومع ذلك يعودون إلى فرقهم بمجرد الإعلان عن تحرك الجيش وهم مسلحون دون أن يعرف كيف حصلوا على السلاح[30] .

أما المسخرون فهم على العموم فرسان ويحملون نفس السلاح الذي يحمله الجيش النظامي ، وهم من قبائل معينة ، ويتوارثون الجندية أبا عن جد . وفي الحملات ينضمون حسب انتمائهم القبلي إلى أحد قواد الرحى . وفي زمن السلم يعملون في خدمة القصر في الاصطبلات والعناية بالدواب والخيام والسلاح وما يقوم بحاجات القصر من ماء وشاي ولبن . ويكونون حرس السلطان الخاص في تنقلاته حيث ينصبون خيامهم في شكل دائري حول «افراك» السلطان أي فسطاطه . ويقومون بخدمات مشابهة في القصور الملكية خارج العاصمة ، وسكناهم نوايل أي بيوت من القش والقصب والطين . ويقوم الإناث من أسرهم بمهام منزلية بهذه القصور أيضا . وتناقص عدد المسخرين في عهد محمد الرابع إلى حوالي ألف قارٍّين ومثلهم في حالة تنقل . ولذلك أدمج مزيدا من القبائل التي كلف كل أسرة منها بانتداب أحد شبابها لخدمة الجيش خلال العمليات ، وسمي هذا النظام بالنائبة ، والعناصر العاملة فيه بالنوايب ، وهم يعملون إلى جانب المسخرين حول «أفراك» العاهل وبينهم عبدة ودكالة والمنابهة والرحامنة ، غير أن النواب كانوا يعتبرون عند المسخرين في مرتبة أدنَى ، لأن أغلبية المسخرين كانوا قواد قبائل ومنهم يختار كبار موظفي البلاط كالحاجب وقائد المشور ، ومع ذلك قام النوايب بدور كبير في العمليات وحماية الأمن خاصة بالجنوب[31] .

وفي نفس الفترة بلغ أفراد طابور المدفعية أربعمائة ويدعَى طابور «الطبجية» أو طابور المهندسين الذين يتكلفون بالإشراف على عشر بطاريات أو ثمان تصْحب

(30) *Op. Cit. p.8*

(31) *Op. Cit. pp.8 - 10*

المحلة . والمدافع من نماذج مختلفة تحملها الإبل ، وهناك مدافع جبلية أصغر حجما ويستخدمها علوج من إسبانيا . ويبلغ عدد المهندسين التقنيين ثلاثين وهم أدلاء الطرق ، ويتعرفون على المسالك والمعابر والمخاضات ونقط الماء وأماكن التخييم . وتتحرك المحلة حسب أوقات معينة يحددها «مؤقت» مكلف بذلك . ويعرف المهندسون خرائط الجهات التي يجتازونها . وهم لا يشاركون في العمليات وإن كانوا مسلحين . وفي عهد مولاي الحسن كان يصحب الجيش بعض الأطباء الأجانب وخبير طبي مغربي من المهندسين أصلا[32] .

العمليات والحملات العسكرية

استعملت الأسلحة المعاصرة على اختلافها لمجابهة حركات التمرد أو لرد العدوان الخارجي . إن ثورة الأطلس المتوسط التي كانت امتداداً للنزعة الدلائية التي نجحت فكريا وفشلت سياسياً . تطلب الأمر استعمال السلاح الثقيل لانهائها في عهد مولاي إسماعيل الذي «استنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار»[33] ، وتَمَّ تطويق المناطق المقصودة من جميع الجهات القريبة من بسيط آدخسان (خنيفرة) . حيث احتشدت قوات كبيرة ضمنها خمسة وعشرون ألفا من الرماة ، وأطلقت نيران المدفعية في وقت واحد في حركة دائرية أدت إلى إحداث رعب عظيم في وسط الثوار الذين انتهَى الأمر باستسلام مَن نجا منهم .

وفي سنة 1231 / 1815 وضعت قبائل صحراوية بالجنوب يدها على بعض القصور المخزنية . فاستخدمت الوسائل المذكورة لحملها على الطاعة . مما اضطر آيت عطا إلى التشفع لدَى السلطان (مولاي سليمان) بنسائهم وأولادهم . فأعطاهم الأمان على أنفسهم دون أملاكهم ، نظرا للخسائرِ التي ألحقوها بأموال الدولة . لما تكبدته الحملة من نفقات . وقد وصف أكنسوس هذه الحملة بدقة[34] .

ولما قامت عناصر الشراردة بثورة ضد المخزن . بزعامة المهدي الذي كان من العتاة الطموحين إلى السلطة . واستولت على أسلحة ثقيلة من الجيش الملكي .

---

(32) *Op. Cit. pp. 10 - 12*

(33) استقصا، 7، 80. وانظر عن استعمال المدفعية بفاس، ج 9، 137.

(34) اكنسوس، جيش، ص 204 — 205. وعنه ينقل الاستقصا، 8، 131 — 132.

قوبلت بحملة قوية ضد زاويتها بضواحي مراكش . حيث تم تدميرها بالمدفعية سنة 1244 / 1828 . وتولى محمد ملاح عبد الله السلاوي . وهو ضابط مدفعية كبير . تدبير هذه العملية التي تطلبت مائتين وثمانين قنبلة في يوم واحد[35] . ويبدو أن هذه الثورة لم تكن تكتسي أي طابع وطني أو ديني حسبما يستقى من روايات المؤرخين كالناصري وأكنسوس . بل كانت تدخل ضمن سلسلة مشاغبات تذكيها زعامات انتهازية . بينما كانت الأوضاع بالأطلس المتوسط هي التي تثير قلقاً حقيقياً .

وفي ظروف حرب تطوان استعمل المغاربة طريقة الكر والفر[36] أمام عدو يتحاشى الاشتباك الجماعي الذي طمع فيه المغاربة ، وعمد إلى التستر وراء أكياس الرمل حتى يتلقى أقل قدر من الطلقات المضادة ، ولذلك كان ضحايا المقاتلين المغاربة أكثر بكثير من قتلى الاسبان .

وإذا كان الاستعداد العسكري للدولة قد شهد أمجاده من أول تأسيسها إلى نهاية العهد الإسماعيلي ثم في عهد محمد الثالث . فإن المغرب قد افتقر إلى الكفاءات التقنية والعسكرية منذ أن انتهى الحكم التركي وحل محله احتلال فرنسي . بالإضافة إلى الوجود الإسباني شمالا ، وكلاهما سهل عملية تهريب الأسلحة إلى الداخل . وشجع إقرار نظام إقطاعي يمارسه رؤساء قبائل وقواد في الوقت الذي افتقرت فيه الدولة إلى إطارات سياسية في مستوى العصر والظروف. وهكذا نرى الناصري بغيرته وانفتاحه على التطور المعاصر يتألم للانهيار الذي شاهد عليه الجيش في احداث الأطلس وثورة الشراردة (قبل القضاء عليها) . ووقعة إيسلي . لأن الجنود في هذه المعركة «قاوموا العدو ، وفرقوا صفوفه غير ما مرة ، لكنهم أتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطه. فعدم ملاقاتهم العدو في الكيفية القتالية ، هو الذي أضر بهم . وأوجب لعدوهم الظهور عليهم ، إذ الشيء كما علمت ، إنما يقاوم بمثله . والشر إنما يدفع بضده»[37] .

ولإضعاف قوة الطرف المعادي وردعه ، يقوم الجيش بالاستيلاء على مواده

---

(35) استقصا، 8، 17 — 19 و160 — 163.

(36) *Hœfer, Empire du Maroc, p,278*، وأورد تفاصيل دقيقة حول طريقة الكر والفر لدى الفرسان.

(37) استقصا، 9، 97.

الغذائية وتخريب أرضه ومزارعه وقطع أشجاره والاستيلاء على أمواله وأثاثه[38] .

ولما كانت القبائل الموالية للدولة ، هي في ذات الوقت مزود أساسي للجيش ، بشريا وماديا ، فإنها تتكفل عند الاقتضاء ، بطلب من السلطة المركزية ، بإقرار الأمن وردع العناصر والجماعات التي تتمرد ضد النظام بشكل أو بآخر ، وهي في هذه الحال ، تقوم بنفس العمليات التأديبية التي يقوم بها الجيش النظامي ، وهكذا نرى إدراسن وكروان تقوم بهذه العمليات في منطقة زمور[39] سنة 1178 / 1764 ، وفي ظروف عدم الاستقرار ، قد تعمد القبائل إلى نهب بعضها بعضا ، أو يتطاول جزء منها على الجيش ، أو تقوم بمهاجمة المراكز الحضرية[40] ، وهذه الحالة قد شهدتها مناطق الشمال الإفريقي في ظروف مماثلة عبر القرون والأجيال .

وسجلت حالات تمرد كثيرة بسبب عسف عدد من الولاة الذين يرفض السكان في نهاية الأمر ، التعاون معهم ، فيتعرضون بذلك إلى عملية ردع من الجيش ، وفي الغالب تعمد السلطة المركزية إلى عزل هؤلاء الولاة أو نقلهم . وكثيرا ما يلزم تدخل الجيش وقيامه بالهجوم على الجهات التي ترفض أداء الجباية لسبب أو لآخر ، وجل حركات مولاي الحسن كانت تصحبها عملية استخلاص الجباية المتخلفة وردع القبائل التي ترفض أداءها .

وبعد انتصار الجيش في عملية عسكرية يتعين على الجهة المغلوبة أداء غرامة إلى جانب الضرائب التي تخلدت بذمتها[41] . ولما كان قطع الطريق على القوافل مما تعاقب عليه الشريعة الإسلامية بشدة ، فإن التعليمات السلطانية قد تنتهي إلى حد تنفيذ حكم الإعدام في الجناة ، كما كان الشأن ، على سبيل المثال ، في معاقبة عناصر من كروان كانت تقطع الطريق بناحية زيز حول سجلماسة[42] ، في عهد مولاي إسماعيل الذي كان صارما في مثل هذه المواقف ، خصوصا وقد عاش المغرب حوالي ثلاثة أرباع قرن من الفوضى والانقسام والاستبداد المحلي قبل أن

---

(38) م.س. ج 7، 168 — 169، وج 8، 39، 51، 62، 96، 107، 113 — 114، وج 9، 65.

(39) زياني، بستان، ص 116.

(40) استقصا، 8، 115، 117، 127، 131، 142، 143، 165. *Arnaud, Op,Cit. pp. 70-73*

(41) *Arnaud, p.120*

(42) زياني، بستان، ص 41.

يستعيد وحدته . ومع ذلك فإن حالات كثيرة من العفو الملكي وإعلان الأمان على نفوس وأموال الجهات المتهمة والجانية . تتكرر تقديرا للظروف أو لاعتبارات إنسانية .

أما بالنسبة للعمليات الكبرى التي وجهت ضد أطراف الاحتلال ، فكثير منها كانت له نتائج ايجابية حاسمة ، كما هو الشأن في استعادة طنجة من يد الانجليز والمهدية والبريجة (الجديدة) من يد البرتغال ، وساهمت المقاومة الشعبية بحماس ، إلى جانب القوات النظامية في استعادة الثغور ، حيث سيتجلى مدى المحاولات الجدية التي قام بها عدد من ملوك الدولة العلوية ، خصوصاً محمد الثالث ، لإعادة تنظيم الأسطول والعناية بالثغور البحرية .

وفي عدد من المواجهات المنظمة وفقا للطريقة التقليدية كان الجيش يقسم إلى ميمنة وميسرة وساقة وقلب[43] ، وقد يحتل السلطان القلب كما كان يفعل مولاي عبد الله أو مولاي سليمان ، وفي العمليات التي يقوم بها جيش غير منظم . يتم اللجوء إلى طريقة الكر والفر كما سبق .

وعند احراز انتصار أو ردع حركة تمرد يحرر منشور باسم العاهل ، ويتضمن تقريراً عن العمليات ونتائجها ، ويوزع على الولاة ومن يهمهم الأمر كطريقة إعلامية رسمية تصل إلى ممثلي السكان في الأقاليم ومن هؤلاء إلى الأسر في المدن والبوادي وتقرأ المناشير الملكية بحضور الجماهير في المساجد ، ولكي يكون الإعلام أكثر إبلاغا وأقوى عبرة فهو يذكر عدد الذين نفذ فيهم حكم الإعدام والعقوبات الزجرية التي قام بها الجيش ضد الطرف المتمرد ، وقد تشمل إحراق المزارع ونهب الأموال وتغريم المتمردين مبالغ باهظة واعتقال عدد كبير منهم وإعادة النظر في تنظيماتهم الإدارية مثلما فعل مولاي عبد الرحمان في تعيين عدة ولاة بمنطقة زعير والزيايدة حيث وقع تمرد سنة 1255 تضامن فيه عناصر من الفريقين ، وفي تعيين ثلاثة عمال على قبيلة زمور سنة 1259[44] / 1843 . ومن نماذج المنشورات التقريرية ، منشور وجهه السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى الأمة عن طريق الولاة كالمعتاد ، بشأن سحق

---

(43) ضعيف، تاريخ، ص 118، ناصري، استقصا، 8، 172.

(44) محمد داود تاريخ تطوان، 8، 232، 234، 321، 410 (نصوص مناشير ملكية).

حركة الجيلاني الروكي (كاف معقودة) وإعدامه في سنة 1278 / 1861 ، وقد جاء فيه[45] :

«وبعد ، فإن فتاناً من سفيان مرق من الدين ، وفتن بأمور شيطنته ، من اغتر به من المسلمين ، وجمع عليه أوباشاً من أمثاله وأضرابه وأشكاله ، وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة ، فقتلوه ، ثم تقدم بهم للشراردة ، فقاتلوه ، ثم تقدم بهم لزاوية مولانا إدريس ، فقاتله أهلها قتالا يرضي الله ورسوله ، ولم يحصل لهم من قتاله ضجر ، ثم قبضوا عليه وقتلوه ، وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر ، وأغلقوا الأبواب بعد ذلك على من دخل معه من أتباعه وأنصاره وأشياعه ، فقبضوا عليهم ، وجعلوهم في السلاسل والأغلال ، ونحن على نية إقامة الحد عليهم إن شاء الله ، جزاء وفاقاً على ما ارتكبوه من الفساد وقبيح الأعمال ، ومن كان منهم حينئذ خارجاً عن الباب تخطفته الأيدي ، وجنوا ثمار ما سعوا فيه من البغي والتعدي ، وقطع دابر جميعهم ، فالحمد لله حق حمده ، وما كل نعمة إلا من عنده . وأعلمناكم لتكونوا على بصيرة ، إذ ربما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام

في ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف» .

ومتى وجدت جماعة متمردة نفسها في حالة عجز عن مواصلة مقاومتها للجيش ، فقد تلجأ إلى انتداب نسائها وأطفالها يضرعون إلى العاهل أو ممثله حتى يكف الجيش عن تقتيل الجهة المتهمة بالتمرد وتدمير مساكنها ونهب أموالها ، وقد تقوم بدور الشفاعة شخصيات مرموقة في البلاط . وكذلك يقوم المتمردون بذبح رؤوس من الضأن أو الإبل على عتبات الجهات المطلوب شفاعتها ، وورد في منشور ملكي عن سيدي محمد بن عبد الرحمن في إخضاعه لثورة الرحامنة على أبواب مراكش أواخر 1278 / 1861 قوله يصف انهيار معنوية الرحامنة وجنوحهم إلى الخضوع بالطريقة المذكورة[46] .

«... ومن المعلوم أن من سل سيف البغي يعود إلى نحره ، ومن ركب متن

(45) استقصا، 9، 109.

(46) استقصا، 9، 111.

الشقاق يغرق في بحره . وأن الفتنة نار تحرق من أوقدها . والمخالفة صفقة تعود بالخسارة على من عقدها ؛ ولما أردنا معاودتهم لقطع دابرهم وتشتيت ما بقي من رماد أثرهم تعلقوا بالمرابطين (الصلحاء) من ذوي الوجاهات ، وأكثروا من الذبائح على المحال . وتوجيه العارات (الشفاعات) وقاموا بواجب السمع والطاعة في كل ما أمرناهم به جهد الاستطاعة ...»[47] .

واعتاد مولاي الحسن أن يوجه تقارير مفصلة عن حركاته (جولاته) إلى الجماهير ، وهي حركات تهدف إلى استيفاء الجباية ومواجهة الجهات التي ترفض أداءها بالقوة[48] .

ومن أهم الأعمال المساعدة على حماية الأمن في المناطق الداخلية بناء عدد من الأبراج والقلاع والحصون ، وترميم الموانئ وتجهيزها بالمدفعية . على أن العناية بالموانئ آتت أكلها بالنسبة للسفن التجارية ، بقدر ما ساعدت على صد بعض الهجمات الخارجية أو حراسة الشواطئ على الأقل ، ومن أهم الحصون الدفاعية . سبعون حصنا شادها مولاي إسماعيل خصوصا في مناطق الأطلس . وأنشأ محمد الثالث بسلا برجا متيناً . كما جدد التصميم الدفاعي لميناء العرائش ، وأنشأ به جملة من الأبراج ، وهو الذي بنَى مرسًى فضالة (المحمدية الآن) ، والذي ابتدأ تشييده سنة 1174 / 1760[49] .

وشاد مولاي رشيد ثكنة كبيرة بجانب قصبة الأودايا التي لاتزال معالمها قائمة[50] ، وله كملوك آخرين من الدولة العلوية منشآت دفاعية عديدة .

صناعة الأسلحة

يعد المغرب من أقدم بلاد العالم استعمالا للسلاح الثقيل ، فقد استعمل المدفع

---

(47) راجع تقريرين آخرين لمولاي الحسن، أحدهما عن ثورة الأمير عبد الكبير بن عبد الرحمن بن سليمان. وثورة جماعة من بني حسن، بدار ابن العامري 1290 هـ (استقصا، 9، 134 — 135) والآخر عن ثورة الدباغين بفاس (ن.م. ص 138).

(48) استقصا، 9، 202، نموذج تقرير عن حركة مولاي الحسن وهو حول الصحراء الجنوبية، 1311/1893.

(49) ضعيف، تاريخ، ص 169، وانظر بشأن منشآت م.بن عبد الله، ن.م. ص 165، والزياني، بستان، ص 157.

(50) *Champion, Le Maroc et ses villes d'art, 1, 48*

لأول مرة في القرن 15م . وصنع المغرب مدافعه الأولى في أواخر القرن 16م . ويتحدث تقرير إنجليزي عن إيرلندي كان يدير مصهرا للمدافع سنة 1727م أي في عهد مولاي أحمد الذهبي(51) . وبالطبع ، لم يكن هذا المصنع إلا استمراراً لجهود سلفه مولاي إسماعيل في نفس الاتجاه . ويظهر أن جل الذين قاموا بصنع المدافع والقنابل حتَّى بداية عهد محمد الثالث كانوا عناصر مسيحية أو مرتزقة أو علوجاً . وقد عقد هذا السلطان علاقات متينة مع العثمانيين ، فأوفد سنة 1180 / 1766 قاضيه محمد طاهر بناني مع الحاج الخياط عديل إلى القسطنطينية حيث عادا برفقة ستة عشر تقنياً في صنع المدافع والقنابل والسفن . وقضَى هؤلاء التقنيون مدة في كل من فاس وتطوان وسلا والرباط . ثم عادوا بعد سنوات ، وقد استكملوا مهمتهم ، ونقل عباس بن ابراهيم المراكشي عن مؤلف «الأزهار الندية» قوله بهذا الصدد : «فكان أهل اصطمبول أحكم صنعة من أهل المغرب . وأهل المغرب أحكم تفصيلا في صناعة السفن»(52) .

وعندما شيد حصن دفاعي جديد بسلا في عهد مولاي عبد الرحمن تولى المجاهد محمد فنيش عقد صفقة باسم المخزن مع مصانع لندرة التي زودت المغرب بسبعة عشر مدفعا ، ومهراسين ، وأعتدة أخرى لتجهيز الحصن المذكور(53) . وكان ذلك سنة 1275 / 1858 ، وهكذا كان على المغرب أن يلجأ إلى المصانع الأجنبية لتجهيز جيشه بالأسلحة التي أصبحت تتطلب تقنيات جديدة ؛ ومع ذلك نجد أن مدينة تطوان على الأخص ظلت تصنع لفترة طويلة بنادق بينت التجربة تفوقها على بعض البنادق الأوروبية ، حسبما تبينه إحدَى الوثائق الرسمية(54) . ويبدو أن المصانع الوطنية مع قلتها لم تكن تلبي إلا جزءا محدوداً من حاجيات الجيش والفرق المتطوعة . ومن ثم كان اللجوء إلى بنادق وأسلحة خفيفة من مختلف الأحجام . وهناك أيضا بنادق محلية رديئة الصنع تحشى بارودا عند كل طلقة ولا تصلح للخراطيش(55) .

---

(51) *Caillé, La petite histoire, 2, 15 - 24.*

(52) عباس المراكشي، إعلام، 3، 264 — 265.

(53) استقصا، 9، 76.

(54) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 53.

(55) *Hœfer, Empire du Maroc, p. 277*

وآخر الجهود الإيجابية في التصنيع الحربي تمت في عهد السلطان الحسن الأول الذي تميز بمقدرته الدبلوماسية وروحه النضالية العميقة . في وقت واجه فيه تحديات كتلة أوروبية شرهة . وهكذا فإن مصنع الأسلحة الذي أنشئ في عهده بفاس . والذي كان يحمل اسم الماكينة . تولى إدارته الإيطالي كامبيني Campini [56] . وكان المصنع ينتج المدافع الخفيفة والبنادق ، ويسك النقود الوطنية . ومع استغراق طاقته الكاملة فإنه كان بعيداً عن تلبية الحاجة الملحة للجيش الموزع في مناطق المغرب الشاسعة .

التدريب الحديث

بصرف النظر عن جهود السلطان محمد الثالث في إعادة تنظيم الجيش والاعتماد بصورة خاصة على خبراء عسكريين أتراك لهذا الغرض . فإن الاهتمام بتكوين بعثات بالخارج بدأ من أيام محمد الرابع المتوفَّى سنة 1296 / 1878 . وكان لحرب تطوان بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر تأثير في هذا الاهتمام ، ويقول المشرفي[57] إن هذا الملك كان متشوفا لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة ، وأنه جدد معاهد العسكر وأسسها . ووجه لتعلم الهندسة وفنون الحرب عددا من الطلبة إلى البلاد الأوروبية .

ومما يلفت النظر أن تياراً من الدعوة إلى إصلاح الجيش والأوضاع التنظيمية بوجه عام . انطلق على يد اليوسي ، المفكر القدير ، ثم أسهم فيه آخرون من المثقفين ذوي الغيرة الوطنية ، خصوصاً بعد فاجعة تطوان . ومهما يكن من أمر . فإن السلطان مولاي الحسن صرف جزءا كبيرا من اهتمامه إلى تكوين الإطارات العسكرية والتقنية . سواء داخل البلاد أو خارجها ، ولتمييز جهوده المباشرة في هذا المجال . ينبغي التذكير بأن المغرب ومصر وتركيا اختصت وحدها تقريبا بين أقطار العالم الإسلامي في مجال تكوين الإطارات على النمط الحديث ، وتوجيه البعثات الطلابية إلى الخارج ، خلال النصف الثاني من القرن 19م . غير أن عدة مؤثرات داخلية وخارجية عرقلت تحقيق نتائج بعيدة المدَى ، وإن كان المغرب قد تجنب كوارث محققة بفضل الدبلوماسية التي سلكها المخزن بقيادة العاهل مولاي الحسن .

---

(56) *Louis Arnaud, Au temps des mehalla, p.68*

(57) المشرفي، الحلل البهية، ص 221.

وإذا كانت عدة بعثات قد وجهت إلى أقطار أوروبية . كإيطاليا وفرنسا وأنجلترا ، فنشير منها هنا على الخصوص إلى البعثة التي وجهت إلى جبل طارق ، بناء على اقتراح من المفوض البريطاني بطنجة ، جون هاي سنة 1875م[58] . وبدأت هذه البعثة تمارس نشاطها بقيادة الضابط الإنجليزي ماك لين سنة 1878م وتولت بدورها تدريب فرقة منظمة صارت فيما بعد حرسا خاصا للملك . وفي نفس السنة ، وصلت بعثة عسكرية فرنسية ، بناء على طلب مولاي الحسن ، الذي كان قد عبر عنه حين توقفه بوجدة سنة 1893 / 1876 ، حيث استقبل جنرالا فرنسيا باسم حكام الجزائر ، في زيارة لباقة[59] . وقد أشار على الملك بعد ذلك مستشاروه بالتخلي عن استقدام الخبراء الفرنسيين ، اكتفاء بالبعثة الطلابية التي كانت السلطات المغربية تنتظر عودتها من جبل طارق[60] ، ولكن العرض الذي كان قد تقدم به مولاي الحسن ، كان قد أخذ مجراه ، فلم يسعه إلا تأخير تنفيذه مدة تناهز سنتين ، مع التعبير عن ندمه على استقدامهم . ويمكن أن يكون للدبلوماسية البريطانية ضلع في تحذير العاهل من الاستعانة بالخبرة العسكرية الفرنسية . ولذلك فبعد قدوم الخبراء الفرنسيين اتخذت احتياطات خاصة لإبعادهم عن مصادر الاسرار العسكرية . وكانت مهمتهم تدريب إطارات المدفعية التي كانت موضع اهتمام مولاي الحسن[61] ، إذ كان هو نفسه ذا خبرة بشؤون المدفعية[62] .

وعمل الأجانب من جهتهم ، على إقصاء العناصر الإسلامية التي كان يستقدمها المغرب من تركيا أو مصر[63] . وبالمقابل ، فرضت معاهدة الجزيرة الخضراء على المغرب ، الاعتماد على ضباط فرنسيين وإسبان لتدريب فرق محدودة من الجيش ، مهمتها قبل كل شيء المحافظة على أمن الأجانب (!) . وهكذا أحدثت معسكرات تدريب وتكوين في الصويرة وآسفي والجديدة والشاوية والدار البيضاء والرباط وفاس وطنجة ، واختص الاسبان بالإشراف على مركزي العرائش وتطوان .

---

(58) *Arnaud, Op. Cit. p.53*

(59) مشرفي، م.س. ص 255.

(60) *Arnaud, Op. Cit, pp.53 - 54*

(61) *Op. Cit, p.59*

(62) استقصا، 9، 149 — 150.

(63) الوثائق، 3، 410 — 411.

واشتركوا مع الفرنسيين في مركزي طنجة والبيضاء . وأحدثت هذه المعسكرات سنة 1910م . ومن بين الذين أسند إليهم التأطير :

1 — ماسونيي بالصويرة
2 — مانجان بفاس
3 — داماد بالشاوية ، حيث تكلف بتكوين الكوم (كاف معقودة) .

ويعلق الجنرال كورو الذي يقدم هذه المعلومات ، على تكوين الشرطة والجيش بقوله [64] :

«... فيما يخص طوابير الشرطة والفرق العسكرية بفاس ، والتي نتولى تدريبها . فإن في ذلك سلاحا ذا حدين : إذا بقينا أقوياء ، وإذا اشتد نفوذنا بالمغرب وفرض على السلطان أكثر فأكثر ، فإن هذه القوة ستظل في خدمتنا ، وسيكون عليها منطقيا ، أن تقوم يوماً ما ، بتكوين نواة لفيالق مغربية يتم إنشاؤها ، كما هو الشأن بالنسبة للجزائريين لدينا . لكن ، إذا حدث العكس ، وأفلت السلطان من بين أيدينا ، وتقلص نفوذنا لأسباب خارجية ، فإن هذه القوة التي نكوّنها ستنقلب ضدنا» ! .

وخوّلت هذه الفرق المنظمة أحسن تنظيم ، امتيازات لم تحظ بها الفرق الأخرى . ومع وجود الإطارات الأجنبية التي عملت على إحصاء الأنفاس في الموانئ ، لم يمنع ذلك من نشاط حركة تهريب الأسلحة التي استخدمتها عناصر تعمل لحساب الأجنبي ، كبوحمارة مع الاسبان ، أو عناصر المقاومة الشعبية التي نشطت بشكل غير منظم في هذه الفترة التي أصبحت فيها السلطة الرسمية للبلاد مقهورة أمام التكالب الدولي القائم عسكريا وسياسيا في عين المكان .

والواقع أن مولاي عبد الحفيظ حاول أن يتخلى عن الخبراء الأجانب الذين انسحبوا مؤقتا ، واستدعَى من تركيا أحد عشر ضابطاً ، ولكن قواد الرحَى المغاربة لم يتعاونوا معهم ، ومن ثَمّ فشلت مهمتهم في المساعدة على إقرار الأمن والانضباط في صفوف الجيش [65] . وهكذا لم تؤد هذه المحاولة المتواضعة إلى تحقيق نتيجة

---

(64) *Général Gouraud, Mauritanie Adrar, pp.309 - 310*

(65) *Arnaud, Op. Cit. p.288*

تذكر . وفضلا عن ذلك ، فإن البعثات الكثيفة التي سبق تكوينها في أوروبا في أيام مولاي الحسن لم تقع تعبئتها كلها في الميادين التي أهلت لها ، ولم يصبح إلا قليل منها مسؤولا عن تكوين الأطر الوطنية . وقد تعاونت عدة قوَى رجعية على إبعاد هذه العناصر ، وأتمّ الخبراء الأجانب بنفوذهم ، إقصاءها بصفة نهائية .

وانتهَى الجيش النظامي قُبيل الحماية مباشرة إلى حوالي 3250 منها 650 من جيش البخاري ، وأربعة طوابير من المشاة ، وفرقة هندسة عسكرية من 200 رجل ، وثلاثة طوابير من الخيالة(66) . وهذا العدد الضئيل لا يمكن أن يحمي حتَّى العاصمة في حالة هجوم قوي . وقد ساعد على تنظيم هذا الجيش الصغير ، المدني الكلاوي ، حينما كان صدراً أعظم ، أيام مولاي عبد الحفيظ(67) .

ونشطت حركة التجنيد الإجباري في عهد مولاي إسماعيل وبعده لاسيما في القرن 19م ، حيث لم تعد تشمل سكان البوادي وحدهم ، بل عمت أنحاء البلاد بمختلف فآتها ، لاسيما في عهد الحسن الأول . غير أن عددا من المكلفين المخزنيين أساءوا التصرف في عمليات التجنيد(68) .

ولما كانتَ التقنيات العسكرية تتطلب تكوينا متخصصا ، فإن تكوين البعثات بالخارج كان الهدف منه تأطير المجندين ، لكن أحداث التدخل الأجنبي كانت تسير بسرعة تتجاوز نشاط المغرب في تنظيم نفسه ، كما أن الدولة ظلت عاجزة من الوجهة المالية ، عن تنظيم عسكري واسع النطاق .

وقد تناقص عدد قوات الجيش النظامي بصورة مدهشة فيما بين ولاية مولاي إسماعيل ونهاية السلطة المخزنية قبل الحماية . وسبقت الإشارة إلى أن عدد عسكر البخاري كان 150 ألفا ، منها ثمانون ألفا وزعت على القلاع والحصون و70 ألفاً على المعسكرات(69) . وبلغ عسكر البخاري المستقرين بالرملة في أيام مولاي عبد الله 60 ألفاً ، وكان عسكر الثغور يبلغ في مجموعه 16500 أيام محمد الثالث(70) .

---

(66) *Op. Cit. p.290*

(67) *ibid.*

(68) داود، تاريخ تطوان، 6، 166، استقصا، 9، 148.

(69) زياني، بستان، ص 37.

(70) استقصا، 8، 61.

ومع ذلك فعهد هذا الملك ذهبي من حيث المنجزات التي تحققت فيه ، وكان من الحاميات التي تركها مولاي إسماعيل ، حامية بأقصى جنوب موريطانيا انصهر أعقابها في السكان المحليين[71] .

وواجه المخزن الحسني ثورة جبالة بحوالي 15 ألف مقاتل بما فيها الجيش النظامي . غير أن هناك جيوشاً من فرسان القبائل تعمل في خدمة الدولة عند الحاجة . فكان القائد الشعبي موحا وحمو الزياني يقود 15 ألف رجل في مواجهة ضد آيت شخمان . ومثلها في مواجهة ضد الرحامنة أيام مولاي عبد العزيز[72] . لكن العناصر القبلية والجيش النظامي مجتمعين لم يتمكنوا في هذا العهد نفسه ، مع عددهم البالغ 40 ألفاً ثم 50 ألفا من سحق ثورة بوحمارة[73] التي لم يتم القضاء عليها إلا بعد ذلك .

وقد حفظت بعض الوثائق المتأخرة زمنا ، والتي تضم أسماء ضباط وجنود حاميات بكاملها . كما هو الشأن في حامية تطوان سنة 1294 / 1877 . والسجل يحتوي على أسماء القواد والجنود ، مع أوصافهم البدنية الخاصة ، حسب طريقة الموثقين ، والسلاح الذي حازه كل منهم ، مع قيمته النقدية[74] .

كذلك نعرف تفاصيل أكثر دقة ، عن حامية طنجة التي استقرت تقريبا على نفس التنظيم والعدد بعد فتحها سنة 1684م حتّى أوائل العهد الحسني[75] . وكانت هذه الحامية كبيرة العدد نسبياً . حيث بلغ مجموعها 3600 ، أي ما يزيد عن مجموع الجيش النظامي ليلة إقرار الحماية ! وضمن هذا العدد كان هناك 2400 بين فارس وراجل وخمسمائة مدفعي وسبعمائة بحري . وقُسم الفرسان والمشاة إلى وحدات مئوية ، على رأس كل منها قائد المائة ، وخصصت ثلاث وحدات للمسخرين ، أي المخازنية الذين يعملون في خدمة الإدارة ، ويقطنون مساكن صغيرة بالقصبة ، وإذا بلغ عدد الجند عدة مآت كون ما يسمى بالرحى وعلى رأسه

(71) محمد الامام بن ماء العينين، الجاش الربيط، ص 19.

(72) *Arnaud, op. Cit. pp.73 et 115*

(73) *Op. Cit. pp. 171 et 186*

(74) محمد داود، م.س. ص 168 — 170.

(75) *Mission Scientifique, Résidence Générale, Villes et tribus, Vol. VII, 375*

قائد الرحَى . كما يتولى فرقة المدفعية قائد الطبجية ، وفرقة البحرية رايس البحر .

وفيما بين عهد محمد الرابع ومولاي الحسن ، لم يتغير عدد أفراد الجيش تقريباً . وإن تطور نوعا ، وهكذا جند محمد الرابع منذ كان وليا للعهد 26 ألفاً ، منها ألف من المشاة والباقي فرسان . وكان عدد الجيش أيام الحسن الأول ، حوالي 25 ألفا من النظاميين ، ولكن كانوا أحسن تدريبا[76] .

التـمـويـن

كان العلاف ، الذي هو بمثابة وزير الدفاع والقائد العام ، يتولى إلى جانب دوره في التنسيق إدارة الشؤون المادية للجيش ، من مؤونة وكسوة وراتب[77] . لكن المؤونة لم تكن مكفولة بانتظام ولا مضمونة . وفي حالات إحكام التنظيم المركزي كانت حاميات القصبات والقلاع وعدد من المدن تقطع أراضي لفلاحتها والتعيش منها مع ضمان رواتبها بانتظام في نفس الظروف . وتسوء أوضاع الجيش أثناء العمليات التي تلزمه بالتنقل إلى جهات بعيدة أحيانا . وعلى القبائل نفسها أن تتولى تموين الجيش إذا مر بأرضها . وإذا كانت قبائل معادية فإن الجيش ينقض على حظائرها ومطاميرها (خزائن زرعها) لضمان تموينه . ولابد أن نتصور مدَى تضرر القبائل حتَّى المسالمة ، فإن الجيش قد يمر بأرضها أكثر من مرة في السنة ، فهي إلى جانب قيامها بتموينه تزوده بعدد معين من شبابها ، وهي إلى ذلك مطالبة بأداء التزاماتها الضرائبية . وكان هذا من أسباب تمرد عدة قبائل تتكرر ثوراتها عبر السنين[78] .

وبلغت مشكلة تموين الجيش منتهَى خطورتها في السنوات الأخيرة قبل الحماية حتَّى إن أفراد حامية تطوان في عهد مولاي عبد العزيز التجأوا إلى القناصل الأجانب حتَّى يسدوا رمقهم[79].

---

(76) بنشنهو، البيان المطرب، ص 40.

(77) ن.م. وص.

(78) *Arnaud, Op. Cit. pp.16 et 17*

(79) محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، ص 223.

الرواتب والإنعامات

استقر راتب الجندي النظامي بصفة عامة، ولفترة طويلة، على مبلغ مثقال شهري (10 أواق)[80] وصار هذا المبلغ غير كاف في عهد مولاي سليمان. علما بأن الجندي كان يتكفل بتموين فرسه، وأن راتب جندي المشاة لا يتجاوز ثلثي المبلغ. بل لا يبلغه. لكن الجنود النظاميين. كانوا كما سبق، يتوفرون على أرض خاصة لاستغلالها. مما يعوضهم عن نقص الراتب، وقد يحصل الجيش على إنعامات خاصة عند اعتلاء العرش من لدن ملك جديد، فقد وزع مولاي أحمد الذهبي. نجل مولاي إسماعيل مبلغ مائتي ألف مثقال، وكان هذا المبلغ سخيا، مع كونه عملة ذهبية، حتَّى أطلق على مولاي أحمد لقب الذهبي الذي لزمه مثل سلفه القديم أحمد المنصور الذهبي.

أما الزي فيختلف أمره حسب الظروف، فإذا كان مضمونا في فترات التنظيم وثراء الخزينة، فليس كذلك عند افتقار الخزينة وسوء التنظيم أو انعدامه. وكان الزي الرسمي الغالب والذي يسلمه المخزن إلى الجند يتكون من معطف أحمر وسراويل زرق، وقد يكون المعطف أخضر أو أزرق أو من لون آخر. وهو عادة من الملف. وأصحاب الرتب هم الذين يحظون بالحصول على الزي باستمرار. وكان لباس الرجل «بلغة» ولكن جل الجيش يتحرك حافي القدمين أو منتعلا نعله الخاص[81].

ويظهر أن الجيش شهد أعز أيامه من حيث الرواتب والإنعامات في عهد السلطان محمد الثالث ثم في عهد مولاي عبد الرحمان وخلفَيْه. وهكذا ففي عهد محمد الثالث توفر بيت المال على تنظيم محكم واحتياطي جيد، حتَّى إنه في سنة 1200 زود بيت المال بالمراسي بمبلغ يعادل رواتب الجيش بهذه المراكز لمدة خمس عشرة سنة، ويتقاضَى الجند رواتبهم عند نهاية كل ثلاثة أشهر، وهي ثلاثة مثاقيل لا يخصم منها لغياب أو رخصة ضمانا لمعاش أسرهم. عدا علاوات عن المشاركة في العمليات خارج المراسي وإنعامات في عاشوراء وهبات مختلفة[82].

---

(80) ناصري، استقصا، 8، 61. 376 *Villes et tribus, VII,* وانظر تقريراً فرنسيا يتناول خصوصا وضعية الجيش في عهد مولاي سليمان في كتاب *Caillé, La petite histoire, 2, 147*

(81) *Arnaud, Op. Cit. p.7*

(82) اكنسوس، جيش، ص 172.

وفي عهد محمد الرابع ارتفعت الرواتب ست مرات عما كانت عليه حتّى أيام مولاي سليمان ، فأصبحت ستة مثاقيل شهرياً للفارس ، ونصفها للراجل[83] . على أن محمد الرابع سلك في ذلك سياسة سلفه مولاي عبد الرحمن الذي أغدق الإنعامات والمكافآت على الجيش ، خصوصاً في الثغور الرئيسية[84] ، حتّى إذا تولى مولاي الحسن أظهر عناية متميزة بالجيش ، في غمرة الأوضاع الدقيقة التي كانت تعيشها البلاد . ويقدم الناصري معاصره ، وصفاً طيباً عن الشمائل الإنسانية التي أظهرها هذا العاهل أثناء عودته من جولته الطويلة التي قادته إلى شرق المغرب حيث يقول[85] :

«... وقفل أعزه الله راجعا ، فأدركه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي ، فاشتد البرد وقلت الأقوات ، وهلك بسبب ذلك عدد كبير من الجند . ولحق الناس مشقة فادحة ، وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبرور ما تناقله الناس وتحدثوا به ، فإنه كان يسير سير الضعيف ، ويقف على المرضَى حتَّى يصلح من شأنهم ، ويأمر بدفن من يدفن ، وحمل من يحمل ، وإذا سقط لأحد دابته أو رحله وقف عليه بنفسه حتَّى يعان عليه ، وهكذا إلى أن دخل حضرة فاس ، بحيث أدرك به عيد الأضحَى من السنة ، فعيد بها ، وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقوم عليه بنفسه ، ويعرضه على عينه ، ويتصفح قوائم مؤنه ورواتبه ، فاطلع أيده الله ، على ما كان يدلسه القائمون على ذلك ، من الزيادة الباطلة ، فعزل من عزل ، وأدب من يستحق التأديب» .

وتوضح الفقرة الأخيرة من كلام الناصري دور العناصر الإدارية والقيادية الرديئة في تأزيم الوضع وتسهيل مهمة الأطراف الاستعمارية .

وأخيرا ارتفع راتب الراكب في العهد العزيزي إلى نصف ريال ، والراجل إلى ربع ريال ، ولكن تجهيز الجيش والنفقات الحربية في المواجهات الداخلية أفرغ الخزينة من الأموال[86] ، بالرغم من التراجع الكبير في عدد أفراد الجيش النظامي .

---

(83) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 29.

(84) م.س. ج 8، 64، 67، 76، 306.

(85) ناصري، استقصا، 9، 144.

(86) *Arnaud, Op. Cit. p.181*

قــواد الجيــش

سبقت الإشارة إلى أن القائد العام يحمل اسم العلاف ، وهو بمثابة وزير الدفاع . وهو أو الميلالاي يتولى قيادة الحملات الكبرى إذا لم تسند لولي العهد أو غيره من الأمراء[87] . والميلالاي مصطلح عسكري تركي . ومعلوم أن المصطلحات التركية قد استخدمت في الإدارة والجيش من عهد الوطاسيين[88] . والواقع أن قيادة الجيش العليا ظلت من اختصاص العاهل ، بينما يقوم العلاف عادة بالتنسيق المركزي ، وقد يتولى هذا التنسيق وزير غير العلاف ، يحظى بثقة الملك ، حتى ولو كانت مؤهلاته أو وظيفته الرسمية الأساسية غير عسكرية . وقد يتولى العاهل قيادة الحملات بنفسه .

والفرق العسكرية تحتفظ بانسجامها الاجتماعي الخاص ، ومن ثم فكل مجموعة معينة ، يتولى القيادة الخاصة بها ضابط منها . فالمجاهدون الريفيون الذين تولوا فتح المهدية كان عليهم عمر بن حدو البطوئي الريفي ، ثم أخوه أحمد[89] . وجيش البخاري تولى قيادته عناصر منه ، كعبد الله الحمري[90] ، وسعيد بن العياشي ، والباشا الزياني[91] ، والحاج إبراهيم بن رزوق قائد جيش الخيل[92] (الفرسان) . وكذلك تولى قيادة الأودايا ضابط أو قواد من نفس العنصر ، كقدور بن الخضر في عهد سيدي محمد بن عبد الله[93] وعياد بن أبي شفرة في عهد مولاي سليمان[94] ، والطاهر بن مسعود المغفري الحساني ، والحاج محمد بن فرحون الجراري ، وكلاهما في عهد مولاي سليمان أيضا[95] ، ومن قواد الجيش السوسي إبراهيم بن سعيد الجراري في عهد محمد الرابع ، والحاج منو في عهد الحسن الأول[96] . وممن تولى

---

(87) بنشنهو، البيان المطرب، ص 40.

(88) انظر مصطلحات تركية أخرى، تاريخ تطوان لمحمد داود، 6، 168 — 170.

(89) استقصا، 7، 64.

(90) ن.م. ص 135.

(91) ن.م. ص 197.

(92) ن.م. ج 8، 157.

(93) زياني، بستان، ص 101، استقصا، 8، 15.

(94) استقصا، 8، 105.

(95) ن.م. ج 9، 32.

(96) ن.م. ص 144. *Arnaud, Op. Cit. pp. 36 et 157*

القيادة العامة مولاي الطيب العلوي ومولاي العباس العلوي ، والأول حضر فتح البريجة والثاني قاد الجيش الملكي في حرب تطوان ومحمد الشرقي من عهد محمد الرابع .

وعدد غير قليل من هؤلاء القواد وغيرهم ، قاموا بحركات تمرد ، أو ساهموا في تدبير مؤامرات ظلت في جل الأحوال لصالح هذا الأمير أو ذاك من الأسرة المالكة ، كما خضع غير واحد منهم للعزل أو النقل وربما لعقوبة السجن أو الإعدام .

ومن أواخر قواد الجيش النظامي في عهد مولاي عبد الحفيظ ، إدريس ولد منو ، ومبارك السوسي ، والقائد بوهو ، وكان المنبهي أيام مولاي عبد العزيز وزيرا للحربية ، وكان عامياً أو شبه عامي ، ولكنه يتميز بحدة الذكاء مع تمرسه بفنون الدس والوقيعة في العناصر ذات الكفاءة .

وكان لمجاهدي البحر حتَّى نهاية حركة الجهاد البحري التي تعاونت فيها السلطة والعناصر الشعبية ، قواد أبرزهم على الإطلاق ابن عائشة الذي تولى إمارة البحر رسميا في عهد مولاي إسماعيل ، تقديرا لنضاله وكفاءته . كذلك احتفظت حركة الجهاد الشعبي المحلي حول سبتة ومليلية بزعامتها الخاصة ، مع تشجيع مستمر من المخزن ، إلى ما بعد حرب تطوان ، فضلا عن الجهود التي بذلت على نطاق الجيش الوطني غير ما مرة لتحرير المدينتين ، وهكذا الشأن في الدفاع عن منطقة الصحراء الغربية وموريطانيا ، والتي تعاون فيها الزعماء المحليون مع السلطة الرسمية ، حتَّى فجر الحماية .

وكان العمال والولاة الإداريون في ذات الوقت مسؤولين عسكريين إما في مناطقهم ، أو يتولون تسيير العمليات مؤقتا في جهات أخرى ، وقد يمنع على الولاة التدخل في الشؤون العسكرية حسب الظروف ، وحيث تخضع الحامية لتوجيهات مركزية .

الأسـطـول

إذا كانت حركة الجهاد البحري قد انتعشت في العهد الإسماعيلي ، أو استمرت على الأقل في ممارسة نشاطها من غير عائق ، فإن إعادة تنظيم البحرية الوطنية على

نطاق الدولة . قد تم بشكل مشرف في عهد السلطان محمد الثالث . ففي هذه المرحلة كانت بعض الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا قد بلغت شأوا بعيدا في تطوير قوتها البحرية بفضل تقدمها الميكانيكي . وهكذا تابع المغرب في حدود إمكانياته هذا التطور ، في وقت كان يخطط لاسترجاع ما تبقّى من ثغوره المغتصبة . وحصل المغرب في هذه الفترة على سفن من بريطانيا وتركيا والسويد[97] . وبدأ اهتمام سيدي محمد بن عبد الله بتنظيم الأسطول الوطني ، بما في ذلك الاتصال بالتجار الأوروبيين المقيمين بآسفي لتزويد المغرب بتجهيزات الأسطول[98] . وحينما أهدَى السلطان مصطفَى العثماني هدايا ثمينة ، عاد الوفد المغربي بهدية من هذا السلطان ، هي عبارة عن سفينة مجهزة بالآلات الحربية مع ثلاثين خبيرا في المدفعية ، فأنزلهم العاهل المغربي بالعرائش[99] سنة 1181 / 1767 ، وفي إنزالهم بهذا المركز المتقدم رمز إلى الأهمية البالغة التي كانت تشغلها المنطقة الشمالية في بوتقة السياسة المغربية .

وانتهج المغرب سياسة واسعة النطاق في ميدان تكوين إطارات البحرية ، حيث نجد أن ستمائة من آيت عطا وأربعمائة من البواخر يتم تدريبهم سنة 1202 / 1787 على شؤون البحرية العسكرية ، في سواحل طنجة ، ووزعوا على عشرين باخرة ، ثم قاموا بمناورات بحرية لمدة شهرين[100] . وهذا عدا موانئ أخرى كانت تكون بها الإطارات أيضا .

وبلغ عسكر البحرية في عهد محمد الثالث ، ألفاً من المشارقة ، وجلهم أتراك ، وثلاثة آلاف من المغاربة ، وألفين من الطبجية أي رماة المدفعية[101] . ومن مراكز التكوين تطوان وطنجة وسلا والرباط والعرائش . وبلغ عدد السفن عشرين وعدد الغلايط والفراكط ثلاثين ، وكان رؤساء البحرية ستين[102] ، وإذا كان ابن عائشة

(97) *Caillé, La petite histoire, 2, 45*

(98) زياني، بستان، ص 100.

(99) ن.م. ص 107.

(100) زياني، بستان، ص 154.

(101) ن.م. ص 157.

(102) ن.م. وص. استقصا، 8، 70 *Hœfer, Empire du Maroc, p.279.*

قد تولى قيادة الأسطول المغربي في عهد مولاي اسماعيل ، مثلما قام برئاسة بعثات دبلوماسية إلى أوروبا . فإن قيادة الأسطول في عهد محمد الثالث أسندت إلى الأمير مولاي اليزيد الذي تميز بروح نضالية عالية ؛ حتّى إن المصادر الأجنبية خاصة تتهمه بكراهية الأجانب . وقد ضم إليه والده السلطان محمد الثالث قيادة المدفعية أيضا[103] . وكانت أكبر سفن المغرب لهذا العهد تحمل اسم المعونة[104] .

وقام مولاي اليزيد من جهته ، بتدريب مآت من البحرية والطبجية ورماة القذائف ، من سلا والرباط والدار البيضاء ، على رمي الأنفاظ ، بإدارة عامل الشاوية القائد الحطاب ، وقيادة الضابط الرباطي محمد بن عسيلا[105] .

على أن القوة البحرية الوطنية قد بدأت تضعف بصورة ملموسة بعد محمد الثالث . ذلك أن المغرب أصبح أمام أساطيل قوية من فرنسا وإسبانيا وأنجلترا . وكلها جاثمة بموانئه أو بجواره ، وكلها أغنتها الكشوف الاستعمارية وخيرات المستعمرات . وموارد المغرب ، مع وجود حصار فرنسي شرقا ، وإسباني شمالا ، لم تعد كافية لسد النقص الخطير الذي عرفه المغرب في الميدان الحربي . وهكذا لم يعد المغرب في عهد مولاي عبد الرحمن يتوفر على أكثر من سبع بواخر حربية ، منها اثنتان في حالة عطب[106] . ولجأ هذا العاهل إلى محاولة بعث الحركة الجهادية البحرية ، حيث كلف الربانين عبد الرحمن بركاش وعبد الرحمن بريطل باعتراض السفن التي تقترب من المياه الإقليمية . إلا أن حادث اعتراض بعض السفن النمساوية ، أدَّى إلى هجوم الأسطول النمساوي على العرائش سنة 1245 / 1829 ، مما جعل المغرب يوقف إلى حين عمليات الجهاد البحري ، بالرغم من أن المهاجمين تم طردهم بفضل شجاعة السكان المحليين[107] . على أن هذه العمليات لم تنقطع إلا مع نهاية القرن 19م . ومن جهة أخرى ، فإن الإطارات البحرية ظلت تؤدي تداريبها وتتقاضَى رواتبها وعلاواتها ولائحة فرقة البحرية ورماة المدفعية بتطوان .

(103) بستان، ص 159.

(104) الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 171.

(105) ن.م. ص 235.

(106) *Hœfer, Op. Cit.*

(107) استقصا، 9، 24 — 25.

لسنة 1246/ 1830، والتي تبلغ نحو مائتي اسم[108]، دليل على أن المخزن لم يفقد الأمل في استغلال ما بقي لديه من إمكانيات بل يمكن القول أن مغرب العصر الحديث عرف لأول مرة تنظيم أسطول خفر السواحل ، حيث نرَى أنه يوصي بصناعة خمسة مراكب ، تخصص لمراقبة المياه الإقليمية حول الرباط[109] سنة 1244 / 1828 . كما تم تحويل سفينة تجارية سنة 1841 إلى سفينة لخفر شاطئ الريف ، حيث يكتب العاهل إلى عامله بتطوان يخبره ويأمره قائلا : «... وبعد ، فقد عينا المركب الجهادي المعروف بالاسكونة ، التي رئيسها الحاج أحمد والحاج للتقرصين (الجهاد البحري) بكوشطة الريف (أي بساحل الريف) . على من لم يسق من مراسيه شيئاً سرقه ، إذ ذاك كله على وجه الكونطرابانض .. فزدها أربعة طبجية وثمانية بحرية بمكاحلهم ، من العرائش وأصيلا وطنجة ، يصير ما فيها واحد وعشرون بالرايس ...»[110] .

ولما كانت شواطئ الريف تشهد تحركات مريبة للسفن الأجنبية ، فقد وجه السلطان محمد الرابع تعليمات مشددة ، إلى عامله بتطوان ، عبد القادر أشعاش ، بتزيد الاحتياط وتشديد الحراسة على الشواطئ ، بوصفه مسؤولا إدارياً وقائدا عسكريا[111] . ومن الطريف أن السلطان العثماني مصطفى بن عبد الحميد ، رغب إلى العاهل مولاي سليمان سنة 1222 / 1807 ، في العمل على إقامة حراسة بحرية حول مضيق جبل طارق ، منعا للسفن الأوروبية أن تجتاز منه ، حتّى لا تهاجم الجزر التابعة للأمبراطورية العثمانية في البحر المتوسط. وكانت تركيا في حالة حرب مع الروس في هذه الفترة[112] . وقد استجاب المغرب لنداء الأتراك ، ولكن يظهر أن الروس لم يفكروا في المرور عبر جبل طارق ، وعمليا ، لم يكن المغرب يتوفر على قوة بحرية كافية لمجابهة الأسطول الروسي ، فلم تكن لديه سوَى خمس بواخر حربية ، وعشرة زوارق بالمجاذيف[113] .

---

(108) محمد داود، تاريخ تطوان 8 ص 211 و252.

(109) ن.م. ص 179 و181.

(110) ن.م. ص 348.

(111) ن.م. ج 6، 40.

(112) ناصري، استقصا، 2، 113.

(113) *Caillé, La petite histoire du Maroc, 2, 154*

وتبعا للتقاليد المغربية القديمة . والتي لها نظائر في مجتمعات أوروبية وإسلامية وغيرها . فقد توارثت أسر بكاملها . الميل إلى العمل في سلك البحرية . كأسرة بريطل وبركاش من الرباط . وأسرة عواودة وفنانشة بسلا . غير أن هذه الأسر . شأنها كشأن سائر قوات البحرية . وجدت نفسها عاطلة ومكتوفة الأيدي عن أداء مهمتها . على إثر المعاهدات الدولية التي حددت شروطا قاسية لمراقبة السفن واستخدامها في عرض البحر .

وعلى الرغم من الاهتمام بتجهيز الموانئ ومراقبتها في العهد الحسني . فإن العمل بتجديد الأسطول لم يتقدم بشيء يذكر . حتَّى إن الباخرة «الحسني» تم بيعها والاستغناء عن ملاحيها الاسبان بعد وفاة مولاي الحسن . وانتهَى الأسطول إلى باخرة صغيرة باسم «البشير» في عهد مولاي عبد العزيز . لكن ذكريات الأمجاد العسكرية الماضية لم تمت .



الفصل الثالث
النظام الإداري الإقليمي

ولاة السلطـة :

ينبغي التمييز قبل كل شيء بين ألقاب السلطة الآتي ذكرها :

1 — الخليفة السلطاني هو الممثل الأول للعاهل في جهة معينة من المملكة قد تضم عدة أقاليم . وهو عادة أحد أمراء الأسرة المالكة ، وفي الغالب من أنجال السلطان . وأهم المناطق التي كان بها خلفاء إما بصفة دائمة أو مؤقتة : فاس . مراكش ، تارودانت ، الدار البيضاء ، تافيلالت ، واختصت طنجة بتعيين نائب سلطاني بها يعين غالبا من الفئة الارستوقراطية التطوانية والتي تتميز بمقدرتها الدبلوماسية ، حيث إن طنجة مقر القناصل العامين وهم أعلى الممثلين المقيمين بين الهيئة الدبلوماسية .

2 — العامل ، وهو والي الإقليم الذي يضم قسما مهما من الجهة التابعة للخليفة . وهذا الأخير يتولى التنسيق بين العمال والإشراف على الأمن .

3 — الباشا ، ويعين في بعض المدن الكبرى خاصة ، وهو بهذه الصفة تابع للعامل . وعلى سبيل المثال إذا عين بالرباط عامل ، فإن سلا يعين عليها باشا ، وبالعكس ، غير إنه خلافاً للعصور الماضية أصبحت الرباط أكثر أهمية في العصر الذي تعالجه هذه الدراسة .

4 — القائد ، ويعين بالمدن الصغرى أو على مجموعة من القبائل في البوادي أو على قبيلة كبيرة ، وقد تقتضي السياسة المركزية تعيين عدة قواد موزعين بين نفس القبيلة الكبيرة . ورجل السلطة قد يكون من أهل المنطقة التي هو مسؤول عنها ،

لكن ذلك ليس عاما ولا غالباً. أما على مستوى السكان أنفسهم فإن ممثليهم يتكونون من عدة فآت على رأسهم العلماء (علماء الشريعة) وبعض الشخصيات الدينية (شيوخ طرق، وأرباب زوايا، الخ ...) والتجار وعدد من الشخصيات التي لها مكانة بين السكان أو تحظى بثقتهم، وصلة الوصل بين رجل السلطة والسكان أوممثليهم هو المقدم. أي مقدم الحومة في المدن. ومقدم الدوار في البوادي. ولكن البادية تتميز بوجود منسق أعلى بين المقدمين الذين يشتغلون بنفس القبيلة. وهو الشيخ الذي هو الصلة المباشرة بينهم وبين رجل السلطة، وحيث إن عدداً كبيرا من القبائل قد ترك أمر إدارتها إلى الشيوخ أنفسهم حيث لم يعين بها قواد. فقد كان الشيوخ هم الصلة المباشرة بين السكان والعامل أو ممثل المخزن الذي يقوم بجولة تفقدية أو بالسهر على استخلاص الجباية.

ومنذ العهد الوطاسي، وبتأثير من الأنظمة الإدارية التركية بالجزائر، صار رجل السلطة يتوفر على اختصاصات تتسع يوما عن يوم، حتَّى إن العمال انتهوا إلى ترشيح القضاة وتولوا قيادة الجيوش، وتقلصت سلطة القاضي منذ العهد المذكور حتَّى انحصرت في المسائل الدينية غير أن اختصاصاته الباقية ظلت مع ذلك مهمة ومحترمة الجانب. لكن العامل في إقليمه يراقب تصرفات المسؤولين الآخرين ويوجه بشأنها تقارير إلى المخزن.

وكان أول توزيع إداري على نطاق واسع بين أنجال الملوك هو الذي تم في عهد مولاي اسماعيل على الشكل التالي:

1 — مولاي أحمد الذهبي بتادلا ومقره قصبة تادلا، ومعه ثلاثة آلاف من الجيش.

2 — مولاي عبد الملك بمنطقة درعة مع ألف فارس.

3 — محمد العالم بسوس والأقاليم الملحقة بها شرقا وجنوباً. مع ثلاثة آلاف فارس.

4 — مولاي المامون (الكبير) بتافيلالت ومعه 500 فارس. ثم عين بعده مولاي يوسف بن اسماعيل لوفاة مولاي المامون بعد سنتين من ولايته. وكان مقره تيزيمي.

5 — مولاي زيدان بالمناطق الشرقية ، ولكنه خرق صلحاً كان قد انعقد بين مولاي إسماعيل وولاة الجزائر فهاجم التراب الجزائري وانتهى إلى معسكر حتى نهب قصر والِيها عثمان باي وأدّى ذلك إلى نشوب الحرب بين البلدين ، ولذلك عزل وعين مكانه ولد السلطان . الأمير مولاي حفيد[1] .

وكانت التعيينات الأولى لهؤلاء الأمراء سنة 1111 / 1700 . ولكن مولاي اسماعيل ما لبث أن عزل أنجاله عن الأقاليم ماعدا مولاي أحمد الذي أقر بتادلا . وكان مرشحا في البداية لولاية العهد ، وعبد الملك الذي عين بمراكش والسوس بعد القضاء على ثورة محمد العالم بإقليم سوس[2] .

وكان الإقليم أو منطقة السلطة يسمى إيالة . وهكذا كانت فاس مثلا تحتوي على عدة إيالات في الواقع لأن بها عدة عمال تابعين للخليفة . وقد تكون منطقة جبالة وغمارة تابعة لفاس[3] . وكيفما كان الأمر فهاته المنطقة ذات حساسية بالنسبة للوضع السياسي للبلاد ، حيث تجاور الوجود الإسباني ، كذلك يطلق على مجموع التراب الوطني : الإيالة الشريفة ، والسكان الأصليون رعايا ، وهم مسلمون أو يهود . أما الأوروبيون وسائر المسيحيين فهم نصارَى ، ونادرا ما تستعمل نسبة المغربي أو المغربية لأن القومية الضيقة أبعد ما تكون عن الاعتبار الأشمل الذي هو الدين ، ما لم تتطلب ذلك إجراءات سياسية ، خصوصا في الوثائق الرسمية مع الخارج .

وممن تولى منصب الخليفة بمراكش ، الأمير محمد بن عبد الله قبل توليته ملكا . وكانت سوس تحظَى باعتبار مماثل فيعين بها خلفاء من أبرز أمراء الأسرة المالكة . وبها تولى محمد العالم في عهد مولاي إسماعيل كما سلف ، ومولاي عبد السلام في عهد محمد بن عبد الله ، وقد أصبح هذا الأمير مستشاراً خاصاً فيما بعد ، لأخيه مولاي سليمان .

وكثيرا ما يميل سكان بعض الأقاليم إلى اختيار ولاة معينين من بينهم .

---

(1) من المراجع حول التعيينات المذكورة : أكنسوس، جيش، ص 84 و88، كردودي، در، و166 — 168 الناصري، 7، 89. *Ismaïl Hamet, Bulletin d'enseignement, n°27/1921*

(2) زياني، بستان، ص 44.

(3) استقصا، 8، 17.

ويستجيب المخزن لرغبتهم ما لم تمل الظروف السياسية اختياراً من أعلى، وتحظى المراكز السكنية الكبرى بعمال يكونون في الغالب على حظ من التكوين الثقافي التقليدي، ومن بينهم على سبيل المثال، أحمد بن الشيكر السباعي بناحية مراكش في عهد مولاي عبد الرحمن. وكان كما قال عباس المراكشي «عالماً عابداً صدوقاً» وقد أكره على الولاية على إثر أحداث الصويرة سنة 1260هـ، وأحمد بن الطاهر الأزموري بمراكش في العهد المتأخر قبل الحماية. وكان فقيها متضلعاً، وأحمد بن عمر بن أبي ستة بمراكش أيضا في عهد مولاي عبد الرحمن، وله إجازة من عدة شيوخ. وعمل على نشر دلائل الخيرات في مختلف جهات المغرب، وكانت وفاته سنة 1292/ 1875[4].

ويتلقى رجل السلطة ظهيرا بتعيينه أو نقله. والعادة أن يبرر التعيين أو النقل بمقتضيات المصلحة العامة[5]، كما يتلقى ظهيراً آخر يوجه إلى سكان دائرة نفوذه ويتلوه القاضي الرئيسي في اجتماع بالمسجد العتيق. ونص هذا الظهير غاية في الإيجاز أحيانا ويدعو السكان إلى الامتثال لتعليمات الوالي الجديد[6]. وفيما عدا المراكز الحضرية الرئيسية فإن أغلبية الولاة يعينون على قبائل بأسمائها وليس على مناطق إدارية. وقد يحدث أن تكون منطقة النفوذ صغيرة جدا كما يمكن أن تشمل مناطق جغرافية متعددة ومختلفة من حيث طبيعتها الاقتصادية والاجتماعية. فكان ابن أحمد الدكالي مثلا، عاملا على مجموع دكالة وتادلا والسراغنة في عهد محمد بن عبد الله، ثم اختص بدكالة وحدها[7].

وعندما يتوصل العامل أو رجل السلطة بظهير تعيينه يتسلم أيضاً معه خاتماً باسمه ليستعمله في ختم مكاتباته الرسمية[8]، وقد يشمل ظهير التعيين توجيهات معينة تختلف حسب ظروف المنطقة وظروف التعيين، فعامل تطوان الذي لقب بالقائد في ظهير توليته[9] (1241 / 1825) دعي إلى أخذ الظالمين بالشدة، مع عدم الحقد

---

(4) عباس المراكشي، إعلام، 2 ــ 416 ــ 419.

(5) استقصا، 9، 150.

(6) مجموعة الوثائق، 2، 383، 396، 409.

(7) جيش، ص 152.

(8) *Arnaud, Au temps des mehalla, p.109*

(9) داود، تاريخ تطوان 8، 79.

على الناس والأخذ بالعفو اقتداء بسنة النبي ﷺ . أي أن العامل كان عليه أن يسلك الصرامة مع المستحقين . وأن يأخذ باللين من خفت إساءته. وقد أحيط عامل تطوان بكثير من مظاهر التقدير ، وأعطي كبعض العمال الآخرين سلطات واسعة . فله حق تعيين الأشياخ على القبائل ليكونوا صلة بين السكان والسلطة الإقليمية(10) . بل هو يعين حتّى القاضي والمحتسب ، ويكتفي بإخبار السلطة المركزية التي تسجل إجراءاته على أنها صارت ببال العاهل(11) . بل بلغ من نفوذ العامل عبد الله الريفي الذي لقب بالباشا أن فوض إليه حق تعيين وتأديب جميع الموظفين والمسؤولين في دائرة نفوذه بالشمال(12) . وهنا نتصور مدَى الضعف الذي آلت إليه السلطة القضائية على الأخص والتي كانت عمليا تحت رحمة العامل أو القائد . على الرغم من التعليمات المركزية باحترامها المطلق .

ومتَى أظهر رجل السلطة حزماً في ضبط منطقته أو أثبت مقدرته في وضع حد لثورة خطيرة . كوفئ عند الاقتضاء بتوسيع دائرة نفوذه فكان من حظ القائد عيسَى ابن عمر مثلا أن كوفئ على مساهمته الفعلية في إنهاء ثورة الجنوب والرحامنة أيام مولاي عبد العزيز بتوليته على منطقة شاسعة تشمل عبدة ودكالة والشياظمة(13).

وقد تقتضي المصلحة أن يكون الوالي عربياً على منطقة أغلبها بربر أو العكس . وهناك عناصر كثيرة من ضباط جيش البخاري تولت عمالات أو ولايات إدارية . وقد يولى شخص حديث عهد بالإسلام . فقد كان من عمال سلا فرنسي يدعى بيلي ، اعتنق الإسلام وتعرف إلى مولاي إسماعيل حتّى صار مقربا لديه وحظي منه بمال وافر ثم عينه عاملا على سلا . وكان سيء المعاملة للأسرَى الأوروبيين ، ومع ذلك لقي حتفه فيما بعد على يد مولاي أحمد الذهبي(14) . وفي جل الأحيان اختصت كل من سلا والرباط بعامل كما كان لشالة باشاها الخاص(15) .

---

(10) ن.م. ص 99.

(11) ن.م. ج6، 25.

(12) داود، مختصر، ص 68.

(13) *Arnaud, Op. Cit. p.121*

(14) مخطوط عن سلا، لأحد ولاتها الفرنسيين في عهد الحماية/تعريب عشاش بلقاسم.

(15) ضعيف، م.س. ص 341.

ولقيت الأقاليم الصحراوية عناية خاصة بوصفها تخوماً نائية من المملكة ونحاجة إلى مرونة إدارية وسياسية أكثر، ومن بين هذه الأقاليم منطقة توات والساورة وكلتاهما ألحقت بالجزائر بعد استقلالها وكانتا من مشمولات السلطة المغربية في وقت مبكر من الحكم العلوي. وقد اشتكى أهل توات من جور العمال والولاة عليهم في عهد مولاي سليمان. فعزلهم جميعا واكتفى بأن أسند أمورهم إلى شيوخهم باختيارهم، وتوجيه عامل الجباية مرة كل سنة لاستخلاص الزكوات المشروعة. وعلل مولاي سليمان ذلك بأن «الولاة في هذا الوقت كلهم أو جلهم يظلمون ويتسلطون على المستضعفين الذين لا ناصر لهم إلا الله، ولا يفرقون بين الحلال والحرام. خصوصا في البلاد البعيدة ...»[16].

ولم تكن المظالم مقصورة على الولاة وحدهم. فقد كانت الأقاليم النائية في الجنوب الشرقي يعتدي بعضها على بعض حتّى أثار ذلك قلق السلطة المركزية وجعلها تضاعف من اهتمامها بتعيين متفقدين وشيوخ من عين المكان تختارهم لصلاحهم وحرمتهم لدَى السكان. وكانت العناصر الموسومة بالزيغ والعدوان تؤذي القبائل الداخلة في منطقة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، مما كان يثير إحراج السلطة المغربية[17].

وقد راجع السلطان الحسن الأول سياسة سلفه مولاي سليمان فعين بتوات عمالا جددا[18] بعد أن اشتكى الكثير من أعيان المنطقة، خوف الطريق واعتداءات اللصوص وعناصر الشغب. ووجهت التهمة إلى قبائل بعينها كأولاد حمزة والغنانمة[19]. وأكثر من ذلك فقد اتهمت بعض القبائل بالتنازل عن أراض زراعية للفرنسيين مقابل إغراءات مالية[20]. وتولى موظف سام بالبلاط، وهو العربي المنيعي المنسوب إلى منطقة بشار القيام ببحث دقيق في عين المكان[21]، وفي 26 جمادى الأولى 1309 أمر العاهل بتوجيه فرق من الجيش لحماية الأمن، على أن

---

(16) عبد الوهاب بنمنصور تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات، ص 12.

(17) م.س. ص 13 — 18، و35 — 36.

(18) تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات، ص 67.

(19) ن.م. ص 70، 71، 72، 77.

(20) ن.م. ص 76، 78.

(21) ن.م. ص 20.

تتكفل الإدارة المركزية بتموينه[22] . وفي جل التعيينات الخاصة بالولاة كان الاختيار يقع على عناصر من أهل المنطقة نفسها.

ورعيا للحساسيات الاجتماعية ، وتحديدا لمسؤولية كل قبيلة فإن التوجيهات الملكية مهما كان من تشابه موضوعها ومقصدها تخاطب بها كل قبيلة على حدة وباسمها[23]. وقد يفضل العاهل الاستماع لممثلي القبائل مباشرة ويستقدمهم إلى العاصمة لهذا الغرض[24].

وكثير من الأقاليم ثارت ضد جور الولاة ، غير أن بعض الجهات بدل أن تعمل على إقناع السلطة المركزية بتعويضهم بعناصر أفضل ، ترفض سلطتهم وتناهضهم. وقد استبيحت قبائل تامسنا سنة 1230 / 1814 بعد أن تحدت عاملها كريران الحريزي ورفضت أداء الجباية ، ثم عزل عامل الحوز محمد بن عبد الصادق بعد أن تبين جوره ورفضه سكان الإقليم ، غير أنه نقل إلى مراكش ثم إلى فاس عاملا[25] .

وفي 1235 / 1819 ثارت فاس ضد عاملها محمد الصفار ، وتعصب له بعض أنصاره بها ، ووقعت لذلك حرب أهلية محلية استخدم فيها الرصاص ونهبت المتاجر. وكان السكان يأخذون على العامل انحلاله الأخلاقي[26] .

وتأتي الثورة أيضا من بعض ولاة الأقاليم ضد العاهل القائم كما حدث في ثورة عدد من الولاة في عهد مولاي عبد الله ، وبينهم عامل سلا عبد الحق فنيش ، ولما تولى محمد الثالث بقي هذا العامل مناهضا له ، فاعتقل وأعدم بمكناس بمحضر عائلة أحد أعيان سلا السابقين ، وكان العامل قد قتله ظلما[27] . وقد يتم إعدام وال على يد خلفه بعد أن تبثت عليه الجريمة ، ويقع ذلك بإذن العاهل أو بأمره[28] .

---

(22) ن.م. ص 47.

(23) ن.م. ص 19 ــ 33.

(24) ن.م. ص 47 ــ 54.

(25) استقصا، 8، 129، 133.

(26) م.س. ص 139.

(27) م.س. ص 29.

(28) م.س. ص 95.

وفي ظروف الاضطراب قد تعمد بعض الجهات إلى عزل واليها إذا عجز أو انحرف ، وتعين مكانه والياً جديداً . ففي أوائل القرن 13 / 19 كان بسلا عامل يدعَى بوجميعة ، وكان عاجزاً عن التدبير لا نفوذ له ؛ حتَّى إنه عجز عن ردع قبيلة عامر التي نهبت بعض القوافل التجارية القاصدة إلى المدينة ، مماجعل السكان يلتفون حول أحد أعيانهم أحمد زنيبر الذي قاد ثلاثمائة منهم وعمد إلى الاقتصاص من عامر بنهب خيامها ، ثم عينه السكان مكان العامل المذكور[29] .

على أن السلطة المركزية نفسها قد تكل إلى أعيان السكان وشيوخهم عملية ردع المشاغبين والمتهمين بالجرائم[30] . وقد تتغاضى السلطة عن موقف السكان تجاه الوالي إذا عزلوه لسبب من الأسباب ، ولكن الوالي الذي يفرضونه قد يتعرض مع أنصاره لعقاب يأتي بعد ذلك[31] . وبالمقابل يحظَى الوالي المستقيم برضا المخزن والسكان على السواء . أما إذا استشعرت السلطة المركزية قوتها فإنها تلجأ إلى اتخاذ أشد العقوبات ضد العناصر الثائرة ضد الولاة ؛ ففي عهد محمد الرابع أعدم خمسون شخصاً بتادلا على إثر تمرد ضد العامل الغزواني بن زيدوح ، ولم يقبل العاهل تشكيات أهل مراكش من عاملهم أحمد بن داود ، وكانت المعلومات عن تصرفات العامل تصل مغلوطة إلى العاهل[32] . وفي هذه الفترة بالذات كان تقسيم العمالات على الشكل التالي[33] : 1) الأقاليم المرتبطة بفاس : فاس ، الريف ، الغرب ، بني حسن ، تامسنا ، الشاوية ، تادلا . 2) الأقاليم المرتبطة بمراكش أي بخليفتها : مراكش ، دكالة ، الشياظمة ، حاحا ، الرحامنة . 3) الأقاليم الجنوبية المرتبطة بخليفة سوس : سوس ، درعة . 4) المغرب الشرقي : تافيلالت .

انحرافات الولاة وتدابير المخزن ضدهم

تتخذ انحرافات الولاة أشكالا مختلفة، ففيها ما هو سياسي كالتمرد على السلطة المركزية أو ممالأة مطالب بالعرش من الأسرة المالكة أو التنافس على النفوذ، وما هو

---

(29) مخطوط عن سلا (غير مرقم).

(30) م.غ.م. تقييد ما اشتمل عليه، إقليم توات، ص 35 — 41.

(31) استقصا، 9، 54.

(32) ن.م. ص 123.

(33) Hœfer, *Empire du Maroc*, p. 296

أخلاقي كمعاملة السكان بالجور وغصب أموالهم وما هو اجتماعي كالنزاعات القبلية التي يسهم فيها الولاة بنصيب، ولما كان الولاة في أغلبهم لا رواتب قارة لهم فإنهم يلجأون إلى الكسب غير المشروع ، ويحملون السكان من الضرائب ما لا طاقة لهم به . وهناك مجموعة من الولاة تتوارث السلطة أحيانا أبا عن جد ضمانا لولائها للمخزن . ولكن ذلك يؤدي غالباً إلى استبداد هذه الفئة من الولاة وتراكم ثرواتها غير المشروعة وميلها إلى توسيع نفوذها .

وكان من الانحرافات الأولى في سلك الولاة ما حدث بالشمال حيث استبد عمر الوقاش بتطوان وهاجمه قائد طنجة وملحقاتها أحمد الريفي في عهد مولاي أحمد الذهبي فرده أنصار الوقاش ، ثم أعاد الهجوم على تطوان في عهد المستضيء واقتحمها ونهب بيوتها ومتاجرها وهدم سورها[34] وكان أهل الشمال في عامتهم مناهضين للمستضيء الذي كان أحمد الريفي من أنصاره . ولذلك عمد هذا القائد إلى الغارة على ضواحي القصر الكبير ونهب أموال السكان . ولما تولى مولاي عبد الله كان مناهضا له وتآمر مع عبيد الرملة على خلعه وتولية أخيه زين العابدين بن اسماعيل الذي ما لبث أن انسحب من الملك ثم هاجم الريفي فاساً لحملها على خلع مولاي عبد الله ومبايعة المستضيء ، وكان ذلك في 1156 / 1743 وحاول أن يعيد الهجوم في نفس السنة مناصرا للمستضيء ، بعد فشل هجومه الأول ، غير أن مولاي عبد الله تداركه عند أحواز القصر الكبير قبل أن يلحق بفاس ، وهناك سحق جيش الريفي وقتل هو أيضا[35] .

وكان القائد الهاشمي السفياني قائداً في عهد محمد بن عبد الله على سفيان وبني مالك بناحية وزان ، واتهمته السلطة المركزية بالفساد والتشجيع على الفساد حيث كان سفيان وبنو مالك لا يصومون ، فأمر العاهل بإحراق زروعهم ، وقتل قائدهم الذي قيل إن متروكه اشتمل على 12 ألف من الغنم ومثلها من البقر وألفين من الإبل و11 قنطارا من الذهب وغير ذلك . ويذكر الضعيف أن السلطان تصدق بالأموال المصادرة على البقاع المقدسة وأنعم على عدد من علماء المشرق كالمرتضى

---

(34) استقصا، 7، 77، 116، 150.

(35) استقصا، 7، 160، 165.

صاحب القاموس وشيخ الحنفية بمصر. والدردير شيخ المالكية بها[36].

وفي منطقة الغرب. قبض سنة 1181 / 1767 على القائد الحبيب الذي اتهم أيضا بالانحراف الديني والأخلاقي مع أنه كان مجاهداً يحظَى بشعبية كبيرة. وذكر الضعيف أنه كان له ثمان عشرة امرأة من غير صداق وكان له «دوار» ليس فيه إلا النساء ولا يدخله إلا هو (!) وبعد اعتقاله أضرب عن الطعام حتَّى هلك[37].

وذكر الناصري[38] عن الأمير محمد بن الطيب بن محمد بن عبد الله أنه كان شديد البطش بالجناة وقد تولى على التوالي إدارة فاس ثم تامسنا ودكالة ثم وجدة. وكان يذبح بيده بعض العصاة «فتسامعت القبائل بسطوته فذعروا واقشعرت جلودهم لهيبته»[39] وقال أيضا إن تصرفاته جعلت العامة يبغضونه[40]. وتواطأ مع الأودايا على بيعته في عهد مولاي عبد الرحمن، ولكن العاهل عفا عنه وعنهم بعد التوبة من جانبهم[41].

وفي عهد الحسن الأول تقرر إرسال وفد لجباية الضرائب والزكوات بالمغرب الشرقي. وكان على رأس الوفد الأمير مولاي علي أخوه. ومعه عبد الرحمن بن الشليح الزراري عامل تازا. إلا أن عامل وجدة، ولد البشير بن مسعود أنف من أن يكون في الوفد الملكي زميل له إلى أن عين ابن الشليح عاملا على وجدة مع تكليفه بجباية المنطقة وشؤونها المالية، غير أن ولد البشير رد العامل الجديد بالقوة وعمدت يزناسن وعرب أنجاد إلى نهب الجيش الذي كان على رأسه الأمير مولاي علي. إلى أن تم اعتقال العامل الثائر ونقل إلى فاس سنة 1293 / 1876[42].

وكان من بين الولاة خونة للقضايا الوطنية. ومن بينهم قائد طنجة عبد الله بن ملوك الذي أخذ رشوة من بعض الأجانب لإفساد أربعة مدافع وردت هدية إلى

---

(36) الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 190 ــ 194.

(37) ن.م. ص 171 ــ 172.

(38) استقصا، 9، 12.

(39) ن.م. ن.ص.

(40) ن.م. ص 36.

(41) ن.م. ص 36 ــ 37.

(42) ن.م. ص 145 و 159.

مولاي سليمان من إسبانيا ، وتم القبض على القائد الخائن وصودرت أمواله[43].

لقد كانت لائحة الانحرافات والمنحرفين في وسط الولاة طويلة بالنظر لعدة عوامل ، منها ما يعود إلى ضعف مراقبة الإدارة المركزية ، وما يرجع إلى عدم تحديد اختصاصات العمال التي تشمل كل ميادين النشاط والنفوذ في الغالب ماعدا الشؤون الجبائية ، كما أن عدم تأجير الولاة من بيت المال في جل الأحوال واطلاق أيديهم في فرض معاشهم وامتيازاتهم على السكان ولو بطرق غير مباشرة ، وسوء اختيار العناصر الصالحة للمسؤولية وعدم تأهيلها مقدما في أسلاك الوظائف المخزنية ذات التسلسل ، كل ذلك ساعد على انحراف الولاة وتفاحش خطرهم لا على السكان فحسب بل وعلى الدولة أيضا .

غير أن الدولة كانت تتخذ عند تفاقم الخطر ، وفي الغالب بعد فوات الأوان التدابير الزجرية الملائمة وإن كانت لا تخضع لمحاكمة مسطرية ، ومن أبسط التدابير النقل إلى جهة أخرى ، وأحياناً إلى الإدارة المركزية ، والعزل الذي قد يصحب بالنفي أيضاً[44] . وسبق الحديث عن قيام مولاي إسماعيل بعزل انجاله كلهم تقريبا عن الولاية . وفي حالات معينة يقوم العاهل الجديد بعزل الولاة الذين عملوا في عهد سلفه ، وربما يقتص من بعضهم قتلا كما فعل مولاي أحمد الذهبي مع بعض الولاة الذين تركهم مولاي إسماعيل[45] وكانوا ذوي مقدرة سياسية .

وفي إطار تصفية أسرة أحمد الريفي قام سيدي محمد بن عبد الله بعزل عبد الصادق بن أحمد الريفي وسجنه مع مائة من قرابته ، وصودر بيته ونقل هؤلاء إلى المهدية سنة 1180 / 1766[46] . وبعد مقتل عبد الحق فنيش عامل سلا صودرت عقاراته وعقارات أسرته وكانت أكثر من مائة ، ونقلت أسرته إلى بني حسن . ثم نفي قسم منهم إلى العرائش وقسم إلى الصويرة ، وأخيرا عفا عنهم وقربهم حيث اشتغلوا ضباطاً ورماة للمدفعية وأغدق عليهم من الأموال ما أثراهم[47] . وعندما

(43) ضعيف، ص 415 — 416.

(44) مجموعة الوثائق، 3، 329.

(45) استقصا، 7، 114، 115، 117.

(46) استقصا، 8، 28.

(47) ن.م. ص 29 — 30.

عزل محمد الخطيب عن نيابة السلطان بطنجة في ذي القعدة 1278 / 1861 دعي إلى وضع نفسه تحت تصرف موظف سام هو الأمين محمد بركاش ، ليواجه دائنيه عند الاقتضاء ، في مأمن من شماتة خصومه بطنجة[48] .

وكانت ولاية تطوان موردا خصبا للثروة السريعة بالنسبة للولاة الذين تنقصهم النزاهة ، لأن ميناءها يدر دخلا كبيراً على الجمارك ، كما أنه ذو أهمية تجارية كبيرة حتّى أواخر القرن التاسع عشر . وعندما عزل أحد عمالها أشعاش سنة 1223 / 1808 سجن وغرم أموالا باهظة[49] .

ولما تولى القائد الغنيمي على قبيلة الأخماس بغمارة عمد إلى تعذيب سلفه قاسم الصريدي حتّى يقر بمجموع ثرواته ، وهلك تحت العذاب ، مما أدّى إلى وقوع ثورة عارمة بالمنطقة قادها شخص يدعَى زيطان الخمسي[50] .

وكان من عمال تطوان العربي بن يوسف الذي كان مناهضا لمولاي سليمان ثم نكب في عهد مولاي عبد الرحمن وصودرت أمواله وألقي القبض على زوجته ونجله عبد الله سنة 1241 / 1825 (وكل هذا بعد أن كان قد نال عفو مولاي سليمان الذي أقره في ولايته) . ثم وقع تتبُّع أملاكه وأملاك أسرته ومن كان له به صلة حتّى لم يعد يظهر من أمواله شيء ، ونقل القائد وأسرته إلى الصويرة للسكنَى بها . وقد أحصيت الأموال فنافت عن سبعة وعشرين ألف مثقال ، ثم سرحت زوجه ونجله في نفس السنة ، وسرح هو أيضا ، ونقل إلى خدمة البلاط ، ولكن أدركته الوفاة في السنة التالية[51] .

وهكذا كانت مصادرة أموال الولاة والمسؤولين بعد الحصول عليها من طريق غير مشروع ، توازي تعويضا عن بعض خسائر الدولة . ولكن الأموال المغتصبة من السكان لا تعوض مطلقاً ، أو تعوض جزئياً .

---

(48) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 20.
(49) محمد داود، مختصر، ص 114.
(50) استقصاء، 8، 95.
(51) تاريخ تطوان، 8، 80، 84 ـــ 95. 104، 116.

إن الشخصية الأولى في النظام البلدي هي شخصية المحتسب ، وهو نظرياً ومسطرياً تحت نظر القاضي . وعملياً يتوفر على سلطة تكاد تكون مطلقة في كل ما يتعلق بالشؤون البلدية . وهو مسؤول عن الأسواق والحناطي . أي مجموعات الحرف على اختلافها ، ولكل حنطة أمين هو صلة الوصل بين أرباب المهنة والمحتسب . كما أن الأمين يَبُتُّ في النزاعات بين الزبناء وأرباب مهنته . ويتخذ المحتسب العقوبات الزجرية مباشرة ، وعند الاقتضاء يؤدب أهل الغش تأديبا بدنيا . وربما على مرأى من زملائه وعملائه ، ولاسيا إذا تناول الغش مواد الاستهلاك الأساسية ، وأجرة المحتسب يتقاضاها من الأحباس التي يشرف عليها ناظر بنفس الإقليم[52] . وقد يتعرض المحتسب للنكبة شأن ولاة السلطة . وعلى سبيل المثال تحدث الضعيف عن محتسب مراكش سنة 1201 / 1786 فوصفه بالجد وصدق الفراسة ، ولكن القاضي عزوز بن حمزة قرر عزله لسبب ما . غير أن السكان ساندوا المحتسب بما فيهم النساء والصبيان فضلا عن أهل الصنائع والفآت الفقيرة . وأخيرا تم عزله ونقل إلى سجن مكناس ، وأثار ذلك انتقاد السكان[53] .

وتمتعت مراكش بكونها كسائر مراكز الأقاليم الرئيسية مقرا للخليفة السلطاني بالمنطقة ، بل إن مراكش في ظل الحكم العلوي وازت فاس أهمية ، حتَّى إن عددا من المرشحين للملك يجتازون بها مرحلة «الخلافة» كسيدي محمد بن عبد الله ومولاي الحسن . ويوجد بعده القائد أو العامل الذي هو المسؤول الإداري . والمقدمون على الأحياء هم صلة الوصل بين السكان والقائد ، وهم يتوفرون على أدق المعلومات عن سكان الحي ، لاسيا الأسر المعروفة . غير أن شؤون الأمن ترتبط بالمحتسب الذي هو مسؤول عن القضاء التجاري والمهني والاخلاقي . أما مسؤولية الجيش فيتولاها عامل القصبة الذي لا يتدخل في مسؤولياته القائد الإداري . وقد يطلق على هذا العامل العسكري لقب باشا ، وهو يرتبط مباشرة بالخليفة السلطاني . كما يتولى أيضاً مراقبة الحي اليهودي الذي هو الملاح . أما المرافق ذات المنفعة العمومية كقنوات السقي والفضلات والمقابر وشؤون البر والمساجد والكتاتيب فيتم الإنفاق عليها من

---

(52) ن.م. ص 41

(53) ضعيف، ص 200 — 201.

الأحباس ، في الوقت الذي تذهب فيه موارد الأسواق والأمكاس إلى بيت المال الذي يكون تحت إشراف أمين مستقل عن السلطات الإدارية ويخضع غالبا لإشراف الخليفة»[54] .

ويتم نقل الأشخاص والأمتعة والمواد بالدواب على صعيد المملكة وداخل المدن والبوادي. والحمار أكثر استعمالا يليه البغل والفرس ثم الجمل في المناطق الصحراوية والمجاورة لها وحتّى في الداخل.

أما مشكل تنظيف المدينة فيختلف حله حسب الظروف . فهو مبدئياً تحت مسؤولية المحتسب ، ولكن السكان قد يلجأون إلى تكليف منظفين يؤجرونهم لهذا الغرض دوريا أو على استمرار . وقد خصص مستفاد المجازر في عهد مولاي الحسن للتنظيف ، وأسندت مسؤوليته إلى إداري بإشراف المحتسب[55] .

وكان حظ المدن المينائية من عناية المسؤولين أكبر من حظ المراكز الأخرى لوجود الأوروبيين بها وكانوا كثيري التشكي من قلة التنظيف ونقص مراقبة الأمن . لكن مثل هذه القضايا تحل بسبب وجود موارد من أعشار الجمارك في عين المكان . فيقتطع منها مبلغ لهذا الغرض حسب تعليمات المخزن . كما يصرف منها على الإصلاحات[56] .

وتقدم طنجة نموذجا لباقي المدن المغربية من حيث إدارتها قبل الحماية . على الرغم من أنها اختصت بكونها مقرا لنائب السلطان الذي يمارس اختصاصات وزير الخارجية من غير أن يتدخل في الإدارة المحلية ما لم يتعلق الأمر بشؤون تهم الممثلين الدبلوماسيين والجالية الأوروبية . وقد كانت طنجة مقرا للقناصل العامين الذين يقومون مقام السفراء الدائمين .

أما بالنسبة للإدارة المحلية فالعامل والقاضي وأمناء المال يكونون أهم عناصر السلطة ، لكن الأمناء هنا تابعون كليا للعامل وإن كان يعينهم السلطان ، وفي الغالب كان إقليم طنجة يشمل الريف وجبالة وأنجرة ، ويتقاضى العامل أجره من

---

(54) *Deverdun, Marrakech, pp.594 - 596*

(55) تاريخ تطوان، 6، 177.

(56) بنشنهو، البيان المطرب، ص 36.

بيت المال عشرة ريالات (دورو) يوميا بالإضافة إلى ما يتقاضاه من ذعائر السجناء. وقائد الحامية (قائد الرحَى) يتلقى تعليماته من المخزن، وهو يتوفر على قوات لحماية الأمن.

ويحمل العامل أحيانا لقب القائد أو الباشا. أما القاضي فيقترح العامل مرشحا على قاضي الجماعة بفاس. أو يتولى قاضي الجماعة ترشيحه. وللعامل أن يستبد بالنظر في قضايا مدنية كانت أصلا من اختصاص القاضي؛ غير أنه كثيرا ما يحيل على القاضي قضايا السرقة والجروح وحتَّى القتل. وهناك مسطرة خاصة بشؤون الأوروبيين حيث ينظر فيها العامل باتفاق مع الممثل القنصلي إذا كان أحد الطرفين مغربياً، وعلى عكس فاس ومراكش، فالعامل بطنجة مسؤول مباشرة عن الأمن. وهو على أي حال يرتبط بالقصر من غير واسطة الوزراء.

ويعين ناظر للأوقاف يدعَى ناظر الأحباس، من القصر الملكي باقتراح القاضي، وهو يحرص على أداء رواتب ومخصصات الموظفين الدينيين على أن إدارته غير منظمة بشكل يحدد الموارد بانتظام سيما وأن الأحباس تنتقل بين الخواص كما لو كانت أملاكا خاصة.

ويعين السلطان بالمدن أيضاً، أمين المستفاد، وهو المشرف على الأملاك المخزنية، أي أملاك الدولة فيحصل أكريتها كما يحصل المكس على الأبواب وفي الأسواق والمجزرة. وقد سبق ذكر أن مستفاد المجزرة خصص لنفقات التنظيف.

وتمثل التجارة الداخلية بطنجة وضعا شبيها بما هي عليه في سائر المدن تقريباً. غير أنها في طنجة تعتمد على عملاء محليين هم الحامية المؤلفة من عبيد سوس والشلوح، وكذا أهل الفحص. ومن المواد: الزرابي من البيضاء والرباط، والفخار والمطرزات من فاس، والأسلحة من مكناس وسوس. كما أن الصناع التقليديين وإن كانوا غير مرتبين في حناطي فلكل حرفة أمينها، والحرفيون محليون بينهم يهود ومسلمون وإذا كثر عدد اليهود في حرفة كان منهم أمين إلى جانب الأمين المسلم. وكانت طنجة تتوفر على ثلاثة فنادق رئيسية لايواء المسافرين وتأمين بضائعهم ودوابهم، وبكل فندق مقهَى صغير، لكن الغرف غير مفروشة وهي كسائر غرف الفنادق الأهلية.

ويشرف المحتسب على السوق المركزي الذي هو تحت حماية المخازنية ، وعددهم أربعة ملازمون ويتكفلون بحمل عينات من معروضات السوق إلى المحتسب ليفحصها إذا لم يتوجه إلى السوق بنفسه . وهو يحدد الثمن الذي يتعين إعلانه في لوح معروض على العموم ، ولا ضرائب على أرباح التجار ، لكن يوجد مكانها ضرائب على الواردات والصادرات من السوق .

هذه بوجه عام ، أهم التنظيمات البلدية التي تمثلها طنجة كنموذج محدد ، وهي لا تختلف إلا نادرا عن تنظيمات المدن الأخرى . غير أن طنجة بوصفها أهم مقر للدبلوماسيين الأجانب وللجالية الأجنبية ، تميزت بوجود مجالس وإصلاحات حديثة أدخلت عليها في السنوات الأخيرة السابقة للحماية بموجب عقد الجزيرة الخضراء[57] .

الأمن وحمايته

اختلفت أحوال الأمن تبعا للظروف السياسية والاقتصادية ، وحسب الإجراءات المتخذة محليا أو على الصعيد الوطني ، وتسوء الأوضاع عندما ينشأ نزاع على العرش ويتوزع الأنصار بين المطالبين به . وينتهز المشاغبون الفرص لنهب الدور والمزارع وسبي النساء والأطفال . ويحدث ما يشبه هذا في حالات التمرد وقيام الثورات المحلية . ونقل الناصري عن البستان للزياني[58] ان مولاي محمد بن عربية عمد أثناء نزاعه مع مولاي عبد الله إلى قطع رؤوس عدد من المستضعفين بالقرى ليوهم أنها من رؤوس خصومه . وفي هذه الفترة (سنة 1150 / 1737) وقعت مصادرة أموال الأثرياء بفاس ومكناس وأهل الزوايا ، ونهبت أهراء الزرع وانقطعت السبل ووقعت مجاعة شديدة هلك منها عدد كبير قدر في مارستان فاس بثمانين ألفا . كما خلت دور كثيرة من أهلها بهذا البلد وكثر الهدم في الدور لأخذ أخشابها .

وفي 1155 / 1742 هجم عبيد الرملة على سفيان ومالك ، ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم . وكانوا يشقون على بطون النساء الحاملات ويأخذون الجنين ثم

---

(57) راجع أوضاع طنجة بعد طرد الانجليز منها، في *Villes et tribus, Tanger, PP.85-113, 212-219, 233-241*

وانظر أيضا : *G. Salmon, Archives marocaines, 1/1904*

(58) استقصا، 7، 144 ــ 147، ضعيف، ص 108.

يضربونه بالسيف[59] . وأعلن المخزن سنة 1193 / 1779 أن من جاز لمراكش من طريق تامسنا فلا يلومن إلا نفسه «لأن من جاز عليهم أكلوه ونهبوه» . والأكل بمعنى التسلط والنهب . وبلغ الأمر إلى حد أن الذهاب إلى مراكش أو الصويرة أو سوس كان في هذه الظروف يتم بحرا[60] .

وعندما هاجم مولاي اليزيد مراكش بعد بيعة مولاي هشام بها سنة 1206 / 1791 قامت المحلة بنهب المدينة وقتلت عددا كبيرا من السكان واستولت من اليهود على 400 ألف مثقال دون السلع والذهب والجواهر والحلي وهتكت الأعراض وقتلت عدة شخصيات من بينها القاضي عبد العزيز بن حمزة المطاعي[61] .

وكثيرا ما كانت القوافل تتعرض للنهب على يد بعض القبائل وهي في طريقها إلى المدن . ومن بينها قوافل عائدة من الحج . وعلى سبيل المثال قام عرب أنجاد سنة 1206 بنهب قافلة للحجاج كانت متجهة إلى فاس من طريق وجدة[62] .

وفي 1243 / 1827 كانت قافلة للحجاج في طريقها إلى سوس فلما توسطت الشياظمة وهشتوكة نهبها هؤلاء حتى أتوا على كل ما بيدهم . غير أن السلطان تحرك بنفسه لردع البغاة وعمد الجيش إلى نهب أموالهم ومواشيهم[63] . وفي السنة التي سبقت هذا الحدث عمدت قبيلة الشراردة إلى نهب قافلة لأهل تطوان كانت متجهة إلى فاس . وقد عوضها المخزن عما ضاع منها حسب رسالة ملكية[64] . وكانت عامر بضواحي سلا وزعير بضواحي الرباط والحياينة بضواحي فاس تقوم بالغارة على مزارع وممتلكات أهل هذه المدن .

ومن وسائل ردع اللصوص والعناصر المشاغبة تغريمهم ذعائر باهظة كما حدث في اعتداء قبيلة الأخماس على جيرانهم من أولاد البقال . حيث غرموا عشرة آلاف

---

(59) ضعيف، ص 122.

(60) ن.م. ص 186.

(61) م.س.

(62) استقصا، 8، 93.

(63) استقصا، 9، 18.

(64) تاريخ تطوان 8، 106.

مثقال بأمر ملكي سنة 1256 / 1840[65] كما أن المخزن يكلف قبيلة بتأديب جارتها إذا اتهمها المخزن بإخلال الأمن أو بالاعتداء أو التمرد.

واستقبل المغرب أعدادا من الجواسيس في صورة تجار ومبعوثين رسميين ورجال دين وغيرهم من الحيثيات. كما ساهم عدد من الأسرى الأوروبيين في كشف عورات الدولة بما بعثوا حول أوضاعها من تقارير. فضلا عن إسهامهم في تخريب البلاد وإحداث التشويش في أوساط السكان وكل ذلك ساعد عليه قلة التيقظ بالرغم من أن الشعب كان ينظر إلى العناصر الأوروبية بشيء من الريبة وتدخلها باد للعيان في الأوساط القنصلية وحتى في الميدان العسكري حيث الاحتلال جاثم شرقا وشمالا.

في أواخر عهد مولاي إسماعيل كان على سلا عامل من الأعلاج اسمه عابد الحاج وكان اسمه الأصلي بيلي *Pillet* وقام بدور الوسيط بين الأوساط الدينية المسيحية والسلطة المغربية في عمليات فداء الأسرى. وكان في الواقع جاسوسا لانجلترا. ولذلك تم إعدامه بعد انكشافه[66]. ويأخذ تهديد الأمن الخارجي أشكالا أشد خطورة منذ أواخر القرن 18م. في 1777م ورد على المغرب ضابط بحرية فرنسي متقاعد هو إتيان روتيي المعروف بيارون دوسانطو فاتصل بدوشيني القائم بأعمال بلاده. ثم استقر بالصويرة يتعلم العربية. وهناك اتصل بأحد رؤساء بعض قبائل سوس وعرض عليه أن يدرب فرقه تدريبا حديثا. ثم توصل إلى معلومات دقيقة عن الجيش الملكي واقتصاديات البلاد وأوضاع سكانها. وهيأ بذلك مذكرة إلى وزير البحرية الفرنسي واقترح عليه أن يزوده بباخرة مدججة بالمدافع والبنادق مع تحديد مقاديرها حسب اقتراحه. ليقوم بتدريب القبيلة التي تعرف على رئيسها. وعندما يتم التدريب تشرع في عملها بالاستيلاء على المناطق في الوقت الذي يحط فيه الجيش الفرنسي بميناء طنجة ليستكمل عمليات الاحتلال[66] (!).

والواقع أن هذا التقرير لم يكن الأول ولا الأخير في نشاط الجاسوسية الأوروبية. وهناك شخص آخر قام بأدوار أقرب ما تكون إلى الأساطير. وهو

---

(65) م.س. ص 334.

(66) *Champion, La Maroc et ses villes d'art, 2, 47*

«دومينكو باديا إي لبليش» *Domingo Badia y Leblich* وهو إسباني من كطلونيا حل بطنجة سنة 1218 / 1803 وانتحل اسم علي باي العباسي مدعيا انتماءه إلى سوريا وأنه ولد بحلب . وتلقى هذا الإسباني في حداثته ثقافة واسعة شملت الرياضيات والفلك والفيزياء والتاريخ الطبيعي . وكان مع هذا يتقن عدة لغات بما فيها العربية والإيطالية والفرنسية والانجليزية وفي 1801 عرض على البلاط الإسباني تصميما لرحلة طويلة عبر إفريقيا . غير أن كودوي (كاف معقودة) رئيس الحكومة طلب منه أن يقوم بمهمة محددة بالمغرب ، وهي إقناع مولاي سليمان بقبول تنازلات لصالح إسبانيا في الميدان التجاري بالإضافة إلى تنازل المغرب عن مينائين وزود علي باي بأموال كثيرة لينفق بسخاء خلال قيامه بمهمته بالمغرب على أساس أنه سيدخل سائحا ورجل علم . ثم زود بهدايا ثمينة ليقدمها بصفة شخصية إلى العاهل المغربي الذي استقبله أثناء مقامه بطنجة وأعجب به . وكان علي باي يقدم نفسه على أنه من أعقاب أسرة الخلفاء العباسيين ولذلك لقب نفسه بالعباسي كسباً لمحبة العاهل وشعبه ، ورحب العاهل بمقدمه وأعجب بسعة معارفه وواسع اطلاعه وادعى علي باي أنه قام مؤخرا بجولة في بلاد الكفار وهو الآن عائد إلى أرض الإسلام ليختم بها حياته ، وزار علي باي فاس ومكناس ومراكش ، وحسبه قنصل أنجلترا من علماء البعثة التي رافقت نابليون إلى مصر ، ووردت تطمينات من طاليران إلى القنصل الفرنسي بوضع ثقته في الشخصية الزائرة .

وتردد علي باي مرارا على السلطان مولاي سليمان بمراكش ، وأثناء ذلك كان يعرض عليه فكرة التعاون مع إسبانيا وإقامة حلف معها . غير أن مولاي سليمان خيب ظنه . بل دعاه إلى الذهاب على رأس جيش مغربي لمهاجمة الأسبان بسبتة في محاولة لاستردادها ! وبلغ من إكرام العاهل له أن وهبه بستانا كبيرا خارج مراكش وبعض الدور داخلها . وفي أبريل 1804 اتصل في الصويرة ببعض المناهضين لمولاي سليمان وحاول أن يهيئ معه مؤامرة للإطاحة به . لكن شارل الرابع ملك إسبانيا رفض هذه المغامرة . وبدلاً من ذلك طلب «كودوي» إلى علي باي أن يدبر ثورة مع بني يزناسن . وتوجه لهذا الغرض إلى وجدة في غشت 1805م . وعندئذ بدأت شكوك البلاط المغربي تحوم حول هذا الشخص . فوجه

(67) *J. Caillé, La petite histoire, du Maroc, 2, 100-104*

مولاي سليمان فرقة من الجيش إلى المنطقة . وكلفت بإلقاء القبض عليه وطرده من المغرب . وهكذا حمل إلى العرائش . ثم أركب باخرة كانت متوجهة إلى طرابلس الغرب .

وقد ترك علي باي مؤلفا من ثلاثة أجزاء عن أسفاره في إفريقيا وآسيا من 1803 -- 1807 .

وفي نطاق اهتمام الدول الأوروبية في أوائل القرن التاسع م . بجر المغرب إلى أحلاف سياسية وعسكرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك في العرض السياسي . وجه نابليون الأول سنة 1223 / 1808 خطابا إلى السلطان مولاي سليمان على يد ضابط في الهندسة العسكرية كانت مهمته الدبلوماسية العمل لدى البلاط المغربي على وضع حد للنفوذ الانجليزي بالمغرب . كما كلف بدراسة دقيقة للوضع العسكري والاجتماعي بالمغرب . كان هذا الضابط هو أنطوان بوريل *Antoine Burel* . وكان عليه أن يتصل بالقنصل العام الفرنسي أورنانو بطنجة لتسهيل مهمته . وفعلا استقبله مولاي سليمان في ثامن عشر غشت من السنة في قصره بأبي الجنود بفاس . وكان الاستقبال تشريفيا فحسب . ثم أحيل المبعوثان على الأمير مولاي عبد السلام مستشار مولاي سليمان أخيه . وقد عبر رسول نابليون عن تخوف فرنسا من احتلال الإنجليز للجزيرة الصغيرة بيرخيل *Peregil* بجوار سبتة . وكانت فرنسا حتى ذلك الوقت تضع يدها على إسبانيا . ولكن كان البلاط المغربي على علم بأن عاهلها الفرنسي جوزيف قد غادر عاصمتها مدريد . ولم يحصل بوريل على طائل من مفاوضاته كما أن السلطان لم يستقبله مرة أخرى . وإذا كان الجواب المغربي عن رسالة نابليون قد سلم كتابة إلى الوفد الفرنسي في 13 شتنبر 1808 . فإن الحصار الذي ضربه الانجليز على مضيق جبل طارق وسواحل المغرب الشمالية . جعل المبعوث الفرنسي يمدد مقامه بالمغرب لفترة طويلة أتيح له خلالها أن يدرس الأوضاع الداخلية والعسكرية بدقة ويدون عنها مذكرة مركزة في نحو سبعين صفحة . وتناولت المذكرة أوضاع الجيش ورواتبه وعناصره وأسلحته وتموينه وغير ذلك مما استفادت منه هذه الدراسة بطريق غير مباشر في موضوع الجيش . ومع أن مقام «بوريل» امتد إلى 1810 فإن أحدا لم يهتد إلى خطورة العمل الذي كان يقوم به ولم يخضع فيما يبدو لأية مراقبة خاصة خلال تنقلاته على الرغم من أن المغاربة حتى مع

ترحيبهم بالأجانب كانوا يضعون تنقلات الأوروبيين خاصة . موضع ريبة . وهو موقف كان له أكثر من مبرر تجاه سياسة الاستعمار الدولية(68) .

وكان الإشراف على الأمن تحت مسؤولية العامل عن طريق أعوان «مخازنية» وتقوم الحامية بقيادة قائد الرحَى بمساعدة سلطات البلد أو الإقليم على إقرار الأمن . وتستقر الحامية بالقصبة وهي في الواقع العمود الفقري للأمن ، ومهمتها عسكرية أيضا، ولا تخضع لإشراف العامل بل هي تابعة للخليفة ثم للإدارة المركزية بإشراف العلاف . وإذا كانت الحامية لا تتدخل إلا في حالة فوضى عامة أو تهديد جماعي للأمن فإن مقدمي الحومات في المدن هم عيون للسلطة على السكان يطلعونها على تحركاتهم وحفلاتهم وما يجري من أحوالهم الظاهرة . ويعتمد المخزن مع هذا على عناصر من جبالة كمخازنية لحماية المدينة مباشرة . وهم ماهرون في الرماية ذوو شجاعة . كما أن أرباب الأراضي الزراعية يعتمدون على جبالة في حماية أراضيهم . وهناك حراسة ليلية تدعَى بـ «الدوارة» أي الذين يدورون أو يطوفون بالليل . وعليهم أن يتدخلوا في حالة سرقة أو شرب خمر أو فضيحة . وينقلوا الجناة إلى السجن . وقواد الدور هم المسؤولون عن حراسة الحومات ليلا ، وأعوانهم الدوارة ويتكونون في كل حومة من اثني عشر شخصا موزعين إلى ثلاث فرق كل منها رباعة ، وواحدها الرباع . وهناك بياتة خاصون لحراسة الأسواق وأجرتهم على التجار . كما يوجد البوابة أي حراس الأبواب الذين يغلقونها ليلا ولا تفتح إلا عند الصباح . وحراسة الملاح تابعة لقائد الدور . وللسجون حراس خاصون هم الحباسة ، وللنساء سجنهن الخاص بإشراف عريفة ، وتقوم بدور مقدم الحومة بالنسبة للنساء فتخبر القاضي والسلطة بما تراه من أحوال النساء وتقوم بالتحقيق في خصوصياتهن القضائية بأمر من القاضي(69) .

واعتمدت الدولة في حماية الأمن بالبوادي لاسيما المناطق الوعرة على شبكة الحصون والقلاع والأبراج التي أقامتها أو وجدتها قائمة واستصلحتها ؛ وقد ذكر الضعيف أنه كان على الجبل المطل على وريكة وأغمات بضواحي مراكش فقط أكثر

---

(68) *Op. Cit. pp.142-146. Villes et tribus, (Tanger), p, 113*

(69) بنشهو، بيان، ص 34 — 35 *L. Mercier, Arch, marocaines, 7/1906*

من سبعين حصنا[70] .

وفي عهد مولاي إسماعيل ، وخصوصا منذ 1090 / 1679 بدأ بناء شبكة كبيرة من القلاع انطلاقا من وجدة حيث بنو يزناسن الذين كانوا تحت رحمة الأتراك وموضع إغراء من جانبهم ضد السلطة المغربية . وهكذا شيدت قلعة رقادة قرب وجدة وأخرى بالعيون وثالثة بطرف المنطقة اليزناسنية على ملوية . ثم جدد قلعة تاوريرت التي بناها يوسف المريني ، وفي 1095 / 1683 بنى قلعة عين اللوح وأنشأ قلعة جديدة بآزرو . ثم تواصل بناء القلاع عبر الأطلس المتوسط ومن بينها قلعة آدخسان مكان قلعة يوسف بن تاشفين . وبلغ عدد قلاع مولاي إسماعيل 76 وزع عليها وعلى سائر القلاع من الجيش 80 ألفا تكفلت بحراسة المسالك والطرق[71] . وخصص لكل قلعة فندقاً لمبيت القوافل . وقد تأثر مولاي إسماعيل بالأنظمة الأمنية التي عرفها في الصحراء الجنوبية والتي كان قطب رحاها «القصور» أو التجمعات السكنية المحصنة والمجهزة بالأسلحة الدفاعية .

ومن قصبات العهد المتأخر قبل الحماية . قصبة تزنيت وقصبة آيت باعمران في عهد مولاي الحسن سنة 1299 ـ 1200 (1881 ـ 1882)[72] وكانت سوس قد بدأت تشهد حركة مريبة للتجار والصيادين الأسبان والتجار الإنجليز . مما جعل العاهل المغربي يأمر أيضا بإنشاء ميناء أساكا لتركيز مراقبة الصادرات والواردات بالمنطقة .

وقد تحدث دوشيني عن إحكام الأمن بالبوادي في عهد محمد الثالث ، حيث كانت الدواوير . أي الأحياء القروية المتجمعة في الخيام مسؤولة عن تغريم السرقات التي تحدث نهاراً ، وقال إن شرطة الطرق كانت تؤدي عملها بدقة تتفق مع الطبيعة المغربية وطرائق حياة المغاربة[73] .

وتنزل القوافل بفنادق محمية تدعَى «النزالات» وواحدها «نزالة» أي مكان

---

(70) ضعيف، تاريخ، ص 53.

(71) أكنسوس، جيش، ص 71 : ناصري، استقصا، 7، 61 ــ 72، زياني، بستان، ص 34 ــ 35.

(72) *Arnaud, Au temps des mehalla, p.63*

(73) *Caillé, Op. Cit. p.61*

النزول ، وكان على التجار أن يؤدوا رسما معيناً لتأمين نزولهم وأمتعتهم وأموالهم . وكان الرسم يجري على سائر النازلين من المسافرين[74] .

وتتكفل الدولة نفسها ببناء هذه الفنادق أو «النزالات» . وقد وردت وثيقة في «تاريخ تطوان»[75] لمحمد داود حول بناء نزالة في عهد عبد الرحمن بن هشام بالعين الجديدة بين طنجة وتطوان ، والتي أدت مهمتها نحو قرن حتَّى اتخذ منها الاسبان مركزا عسكريا ، ثم هدمت بعد الاستقلال .

وبالإضافة إلى شبكة الأمن العمومية كان بعض الملوك يتخذون لهم عيوناً يختصون بهم لإطلاعهم على أحوال البلاد ومواقف الخواص والرأي العام . ويذكر أكنسوس[76] بهذا الصدد أن سيدي محمد بن عبد الله كان له «عيون في كل مدينة ، رتب لهم الخراج والرواتب الكثيرة ، يخبرونه ويكتبون له بكل ما سمعوه من خير وشر ، وصدق وكذب ، من كل ما يدور في الناس» . وذكر الناصري بأسلوبه[77] عن السلطان محمد بن عبد الرحمن أنه كان له «في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فما دونهم ، فكانت الرعية كأنها في كف يده ، وكان يختار أولئك العيون من العوام ، فكانوا يكتبون له بالغث والسمين ، فيسمع ذلك كله ، فينتقي منه الصحيح ، ويطرح السقيم» .

وبدأت أحوال الأمن تسوء أكثر فأكثر منذ أواخر القرن 13 / 19م لأسباب منها عجز هياكل المخزن عن إعادة النظر في تنظيم الأمن شرطة وقضاء ، وتفاحش الامتيازات الأجنبية واستظلال مآت الأشخاص بظلها وغضب السكان من مواقف هؤلاء فضلا عن حماتهم الأجانب ، وانتشار المجاعة حتَّى إن تعليمات صريحة من السلطان الحسن الأول إلى عماله سنة 1299 / 1881 توصي هؤلاء بالتدخل لدَى القناصل حتَّى يحترسوا من تنقلات رعاياهم دون حماية من المخزن «لكون الناس

---

(74) مجموعة الوثائق، 4، 378 ـــ 379.
(75) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 324.
(76) أكنسوس، جيش، ص 143.
(77) ناصري، استقصا، 9، 124.

لحقتهم الخصاصة والحاجة في هذا الوقت ؛ ولا يبالون بارتكاب الأمور الذميمة»[78] .

وقد تذرع الأوروبيون بمثل هذه الأسباب فيما بعد حتّى فرض عقد الجزيرة الخضراء على الدولة أن تنظم شرطة حديثة يتولى تدريبها إسبان وفرنسيون وتخضع صورياً لإشراف الدولة وقد تناولت هذه الدراسة موضوع هذه الشرطة التي كانت لها أيضا صبغة عسكرية ؛ وكان ذلك قبيل عقد الحماية سنة 1910م[79] .

---

(78) داود، تاريخ، 6، 179.

(79) انظر الفصل الخاص، بالنظام العسكري والحربي من هذا الجزء، وانظر ايضا *Villes et tribus, (Tanger) pp 234 - 236*

الفصل الرابع
النظام القضائي

درج المغرب على النظام القضائي الإسلامي في خطوطه ومبادئه العامة مع خضوعه بين الفينة والأخرى للتطورات السياسية الطارئة مثلما هو الشأن في مناطق إسلامية أخرى تتأثر بالنزعات المذهبية للحكام. على أن هذه الدراسة لا تتناول إلا فترة تناهز قرنين ونصفا قبل الحماية ؛ وهي تعادل نشأة الدولة العلوية بالمغرب إلى إقرار نظام الحماية المشار إليه. والذي قلص من اختصاصات القضاة المغاربة وأحدث أنظمة جديدة.

وقد ظلت السلطة القضائية العليا مبدئيا من اختصاص العاهل. بوصفه أمير المومنين. غير أن العاهل نادرا ما يتدخل في غير الجنايات الكبرَى والجرائم السياسية ؛ ومعنَى هذا أن السلطة القضَائية احتفظت باستقلال كبير عن السلطة السياسية العليا بوجه عام. مع تأرجحها بين التبعية والاستقلال من الوجهة الإدارية بالنسبة لولاة الأقاليم.

ويوجد في أعلى السلم القضائي قاضي القضاة الذي يعينه العاهل بظهير ويستقر بالعاصمة. ويتولى في الظروف الطبيعية تعيين سائر القضاة أو الموافقة على ترشيحهم. ومن الذين تولوا هذا المنصب السامي أبو مدين المكناسي بمكناس في عهد مولاي إسماعيل. وقد وُصف بأنه كان «أخطب أهل زمانه»[1] ؛ ومحمد بن العياشي الذي قيل إنه «يبحث في الفتوَى فيجيب بالعجب العجيب. يحكم القياس. ويحفظ النصوص ؛ وله عقل راجح. سريع الحركة في الرأي والجسم»[2] ؛ وكان أيضا في عهد مولاي إسماعيل. وتولى نفس المنصب بمراكش ·

---

(1) الكردودي، الدر المنضد الفاخر، و193.

(2) مراكشي، إعلام، 6، 35.

عبد العزيز البوعبدلي في عهد السلطان محمد الثالث[3].

وقد يطلق على القاضي الرئيسي بالعاصمة لقب قاضي الجماعة، وحينئذ يقوم مقام قاضي القضاة ويعين أو يعزل القضاة الآخرين[4] الذين يرتبطون جهوياً بالعاصمة. وفي الواقع، كان للمغرب في هذه الفترة ثلاث عواصم هي فاس ومكناس ومراكش، يختار العاهل المقام بإحداها أو يتنقل فيما بينها. ومن ثم فإن لكل منها قاضي جماعة[5].

وإذا كان قاضي القضاة أو الجماعة يرشح للتعيين من دونه من القضاة، فإن هؤلاء أيضا يعينون بظهير. ولفظ الظهير الذي يعادله اليوم في بلاد أخرى المرسوم أو القرار، استعمل خصوصا بالأندلس وانتشر منها بالمغرب الكبير وظل اللفظ حتّى يومنا هذا مستعملا بالنسبة لكل القرارات الشخصية والتنظيمية التي تصدر عن القصر الملكي.

وحظي القضاء بأول محاولة تنظيمية في عهد السلطان محمد الثالث، فقد أصدر سلسلة من الظهائر والمنشورات تحدد الاتجاه المسطري لتطبيق المذهب المالكي والتشريعات المرتكزة عليه، وجاء في أول منشور يتعلق بالترجيح بين أقوال المذهب وموقف القاضي[6]:

«... فكل قضية وصلت إلينا فإننا ننظر في الحكم الذي حكم به القاضي. فإن وجدناه حكم بالمتفق عليه فعلى بركة الله، وإن وجدناه حكم بأحد القولين المتساويين وأثبت حق المسكين وألغى الطرف الآخر، فكذلك، وإن وجدناه حكم بالقول الآخر الذي يلغي فيه حق المسكين فلا يلومن إلا نفسه، وكذلك إذا حكم بالقول الشاذ، فإنه يجب على السلطان نزعه وعقوبته».

وتؤكد الظهائر الملكية على حقوق الفئة الضعيفة التي تكون الأغلبية الساحقة من المجتمع، كما تؤكد على حقوق المرأة مثلما هو الشأن في مختلف فتاوي الفقهاء المالكية

---

(3) ن.م. ج 8، 444.

(4) *Michaux Bellaire, Archives marocaines, Vol 20, pp.157-158*

(5) الناصري، الاستقصا، 8، 3.

(6) مراكشي، إعلام، 6، 123.

بالمغرب والتي تحذر من انتهاك الزوج لحقوق زوجته ، وقد ورد في منشور آخر عن السلطان محمد الثالث قوله[7] :

«... إن المرأة لا توكل زوجها لاستخراج حقوقها وإنما توكل قريبا من أقاربها أو أجنبيا . وما يقبضه لها من حقوقها يدفع بيدها وتبرئه منه ولا يدفعه لزوجها فإن دفعه له فلا براءة له منه ، إلا أن يكون زوجها ابن عمها وأحبت أن توكله فلا بأس» .

ونفس المنشور يلح على قضايا أخرى تثير النزاع وتعقد سير الحياة العامة لاسيما ما يتعلق بانتقال الملكية العقارية . وقد ألزم القضاة طبقا لهذا المنشور بالتثبت بأنفسهم من الرسوم والحجج والاستماع إلى الاعتراضات المحتملة وعدم إمضاء البيع إلا بحضورهم الشخصي وموافقتهم المباشرة وإلغاء العمل باللجوء إلى العدول شهادة أو كتابة[8] .

وتمتزج شخصية الفقهاء بشخصية القضاة في الشؤون السياسية ، فهم يدعون بهذه الصفة أو تلك ، أو يتحملون مسؤوليتهم المباشرة في اتخاذ موقف محدد من بعض القضايا وفاقا للشريعة ، ونجد مولاي إسماعيل يحتكم إلى رأي قاضي مكناس أبي مدين بشأن فتح العرائش هل تم صلحا أو عنوة حتَّى يبت في أمر أسراها الذين أثاروا المشكل وادعوا أنهم أمنوا على أنفسهم . لكن فتوَى القاضي التي عمل بها السلطان ارتكزت على حجج وأقوال شرعية انتهت إلى الحكم بأسر الرعايا الأسبان[9] .

وقام قاضي فاس في عهد مولاي الحسن ، بدور كبير في تهدئة الفتنة الأهلية بفاس سنة 1290 / 1873 ، والتي أثارها الدباغون مطالبين بإلغاء المكوس على الأبواب خصوصا مكس الجلود[10] . وقال القضاة والفقهاء كلمتهم في زراعة الأعشاب المخدرة ووجوب تحريمها مطلقا .

---

(7) ن.م. وص.

(8) ن.م. ص 125.

(9) استقصا، 7، 74.

(10) عبد الوهاب بن منصور، الوثائق، 3، 280 — 286.

وعلى العموم . ظل مركز القاضي بعيدا عن تدخل المخزن من حيث سلطاته . إلا ما كان من توسع سلطات العمال والقواد على حساب القاضي نفسه .

ويتضح من نص الظهير الملكي الذي يعين القاضي مدى الاستقلال الشخصي للقاضي في اتخاذ الأحكام طبقا للشريعة . وهكذا فهو «يطالع الرسوم ويفاصل الخصوم ويحكم في القضايا الشرعية بما أراه الله فيها»[11] . ومع هذا فعليه بالتحري والتزام المشهور من مذهب مالك[12] ، وتحث التعليمات العليا باستمرار على ضرورة الالتزام بالشرع تجاه المسلمين وغيرهم على السواء[13] . وعلى العامل أن يسهل مهمة القاضي وأن يحترم قراراته[14] .

ويتحدث أحد الأسرى الفرنسيين عن ممارسة السلطان محمد الثالث للمظالم سنة 1765م فينتقد طريقته في معالجتها مع عدم توفره على الوقت الكافي لذلك[15] ومن الواضح أن شهادة أسير فرنسي في هذه الظروف لا يمكن الالتزام بها ضرورة . ولكن يعترف قنصل فرنسي معاصر ، بأن المسطرة القضائية لم تكن تكلف مصاريف ذات شأن ، وقد كان من حق المتقاضيين أن يوكلا عنهما وكيلين ، وفي جميع الأحوال يلتزم القاضي بنصوص الشريعة ، وقد يلجأ إلى العرف . وبالمقابل ، يتوفر الولاة الإداريون على حق النظر في الجنايات والجنح المتعلقة بالأمن العام سواء في المدن أو البوادي أو الطرق ، وبالنسبة للسرقات والنزاعات التي لا تدخل في القضاء الشرعي ، وأعمال العنف ، حتى إن القنصل المشار إليه انتقد شدة هؤلاء الولاة الذين كانوا كما قال يوزعون ضربات السوط عن حق أو باطل ، بين المذنب والبريء على سواء ، وأن بقاء المتهم بالسجن يمكن إنهاؤه بأداء غرامة مالية تقوم بظروف المتهم المادية لا بظروف التهمة نفسها . ومن ثم فقلما يعاقب الأثرياء عقاباً صارما . ويعترف هذا الملاحظ بأن طبقة الأثرياء تنعم بنفس الامتياز في أي بلد آخر[16] .

---

(11) مجموعة الوثائق، 2، 409 — 410.

(12) ن.م. وص

(13) ن.م. ص 449. محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 85.

(14) محمد داود. ن.م.

(15) *J. Caillé, La petite histoire, 2, 56-60* ويقارن بما جاء في تقديم الفتوحات الالهية، لرشيد ملين.

(16) ن.م. وص

وإذا كان الحكم بالأعراف في بعض العادات والتقاليد التي لا تتعارض مع أصول الشريعة أمرا جائزا . فإن ما يتناقض مع هذه الأصول من الأحكام قد اعتبره بعض الفقهاء باطلا وحراما سواء أحكم به قاض أو عامل أو جماعة . فقد كان من أعراف عدد من قبائل البربر عدم توريث الزوجة والبنت . وإلحاق الولد لغير أبيه وعقد بعض الأنكحة الفاسدة وغير ذلك ، وجاء في فتوَى أحد القضاة أن ترك الأحكام الشرعية واستنباط قوانين وضوابط تخالف الشرع المحمدي كفر صراح[17] .

ويستقر القضاة في المدن بالمحكمة المحادية للمسجد ، والعدول بدكاكينهم قربها . وهذا تقليد مغربي وإسلامي قديم . وفي البوادي يباشر القضاة مهامهم في منازلهم . وكذا الموثقون (العدول) ، وقد اعتاد بعض السكان أن يستغنوا عن شهادة الموثقين ، مكتفين بشهادة السماع بحضور الجماعة . وقد ألغت الحماية هذه الطريقة[18] .

وتقتضي المسطرة القضائية أن يقيد الخصم صاحب الدعوَى مقالاً (عرضحال) لدَى القاضي، وعلى المدعى عليه أن يجيب بالإقرار أو الإنكار وفي الحالة الأخيرة يسلم المدعَى عليه نسخة المقال ويدلي بحججه أو يحضر شهوده ، فيصدر القاضي حكما ابتدائيا ، ثم تقيد الدعوَى من جديد بحجج جديدة ، فإذا انتهت إلى عجز أحد المتقاضين أصدر القاضي حكما نهائيا[19] .

وفي الواقع لا تختلف المسطرة الحديثة في مبادئها عن المسطرة المذكورة ، على أن الشهود الرسميين (المأذونين أو الموثقين) ، كثيرا ما يكون لهم دور في تغيير مجرَى الدعوَى من حيث تسجيل شهادات مضادة أو مزورة . وقد كان من حق القضاة النظر في أمر الشهود قبولا وعزلا ، حتَّى إن أحد قضاة فاس عزل جميع الشهود عند توليته[20] ، ومن جهة أخرى ، فإن المتقاضيين قد يلجآن إلى فتوَى أحد المختصين ، كما يمكن أن يسترشد بالمفتي شخص ما بصفة تلقائية . عرضت له نازلة

---

(17) مراكشي، إعلام، 5، 346.

(18) *Michaux Bellaire. Op. Cit. pp.161 163*

(19) بنشنهو، البيان المطرب، ص 28 ــ 29.

(20) الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة، ص 77 ــ 78.

معينة . وأخيرا فإن القاضي قد يسترشد بفتوَى المفتي الذي يدون عادة ، مختلف الأقوال في نطاق المذهب المالكي أساسا ، وغالباً ما لا يغلّب رأيا أو يدلي برأي حاسم ، حيث يبقَى الاختيار للقاضي أو المستفتي .

وتعد الفتوَى وظيفاً رسمياً ، والمفروض أن صاحبها يتوفر على إطلاع فقهي واسع يشمل الأصول والفروع ، كما أن عليه أن يكون على اطلاع بالأعراف والتقاليد المحلية . ويمكن جمع وظيف الفتيا مع الإمامة أو الخطبة أو أي وظيف ديني لا يتعارض معها[21] . وقد يكثر المفتون في المِصر الواحد ، وترَى الدولة أن في ذلك صيانة وإشاعة للمعرفة الفقهية والأحكام الشرعية التي يتوخاها السكان[22] ، والقاضي هو الذي يرشح الراغبين أو الصالحين لشغل منصب الإفتاء ، لدَى الدوائر العليا . وهكذا فهو من حيث السلم الإداري تابع للقاضي ، بينما هو يعمل مستشاراً له غير مباشر ، بل إن المفتي كثيرا ما يكون أوسع فقها من القاضي ، ويتقاضَى المفتي أجره من الأوقاف ، بالإضافة إلى ما يتقاضاه من المستفتين عن كل فتوَى ، وليس له مبلغ محدد[23] . وقد شهدت الفترة التي تعالجها هذه الدراسة عددا غير قليل من المفتين البارزين والذين أسهم بعضهم في تدوين النوازل المحلية . كما أن بينهم من جمع بين القضاء والفتوَى ، وعلى سبيل المثال كان أبو مدين المكناسي مفتيا وقاضيا للجماعة بمكناس في عهد مولاي إسماعيل ، وقد استفتاه العاهل بشأن الاسبان الذين استسلموا للجيش المغربي في العرائش عند افتتاحها وهي حينئذ من أهم الثغور المغربية ، فأفتَى بإجراء حكم الأسر عليهم ، وعمل السلطان بفتواه[24] . ومن كبار المفتين محمد بن ابراهيم الكيكي المتوفى سنة 1185 / 1771 وكان كبير مفتي دمنات ونواحيها وهي من المراكز القريبة من مراكش ، وقد وضع مؤلفا في نوازل البلاد السائبة والجبال[25] .

كذلك يعد من أعلام المفتين محمد بن ابراهيم السباعي (ت 1332 / 1913)

---

(21) م.س. ص 63. محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 35.

(22) محمد داود، ن.م.ص 57 — 58.

(23) *Mercier, Archives marocaines, 7/1906, pp.398-399*

(24) الناصري، الاستقصا، 7، 74.

(25) مراكشي، إعلام، 6، 80 — 81.

وقد تولى أيضا رئاسة الفتوَى بمراكش ، وكان يراجع فتاوي معاصريه ويفضح تحريفات من يراه مخالفا للشريعة في فتواه ، وكان شديد النقد للسلطة المخزنية التنفيذية ولما «هم عليه من سوء السيرة ونهب أموال الرعية ، منبها على سوء أفعالهم ونصحهم ، مخافة أن تتخرب الدولة بأعمالهم»[26] . وقد لقي من هؤلاء أذى كثيرا وتعرض للسجن غير ما مرة بسبب صراحته وجرأته ضد الانحراف . وفي الواقع كان بين المفتين والفقهاء وأشخاص غير نزهاء[27] ، ولكنهم لا يحظون بالثقة الشعبية التي يحظَى بها النزهاء .

وقد نشأ بالمغرب ما يسمَى بنظام الحماية القنصلية منذ عهد السلطان محمد الثالث بناء على معاهدات عقدت مع دول أجنبية ابتداء من 1763 إلى 1880 حيث عقد مؤتمر مدريد . وبموجب هذه المعاهدات تمتع الوكلاء التجاريون والمتعاملون مع القناصل من بين المغاربة بحق الإعفاء من الضرائب والمغارم ، والتقاضي إلى محاكم تتألف من القناصل أو ممثليهم ، والقضاة المغاربة إذا كان الأمر يتعلق بنزاع بين أجانب ومغاربة ، وحتَّى بين مغاربة «محميين» وغير محميين[28] . على أن مؤتمر مدريد لم يضع حداً نهائيا للحماية الأجنبية على رعايا الدولة المغربية بل قصرها على المحمي وأسرته المباشرة ومن عنده من المحاجر ، كما نصت معاهدة مدريد على عدم وراثة الحماية في أسرة الهالك[29] .

وقد أدت الإعفاءات الضرائبية وتكاثر أعداد المستفيدين من نظام الحماية القنصلية إلى تضاؤل موارد الخزينة الوطنية وانهيار السلطة القضائية والإدارية ، حيث إن العقوبات قلما يمكن تطبيقها على الرعايا المشمولين بالحماية القنصلية ، كما أن العمال والولاة صاروا يتلقون تهديدات وقحة من القناصل . ومن الطريف أن النزاع بين التجار الأجانب ووكلائهم المغاربة قد أحدث ارتباكا بسبب وجود وكلاء بين العمال وشيوخ القبائل ، مما أدَّى إلى إنشاء محكمة مختلطة خاصة بأزمور ثم نقلت إلى

---

(26) عباس بن ابراهيم، إعلام، 7، 190 — 210.

(27) ن.م. ص 135. ج6، 309.

(28) بالاضافة الى الدراسات الأوروبية العديدة، هناك دراسة قيمة حول الموضوع للاستاذ عبد الوهاب بنمنصور صدرت مستقلة (عن المطبعة الملكية بالرباط) وضمن المجموعة 4 من الوثائق، عن نفس المطبعة.

(29) بنشنهو، بيان، ص 43 — 44.

ضجة بطلب من البعثات الدبلوماسية الأوروبية[30] سنة 1288 / 1871 .

لقد حرص المخزن على احترام سلطة القضاء المغربي في غمرة هذه التدخلات الأجنبية الشاذة . وظل المواطنون المتمسكون بالروح الإسلامية يعتبرون هذا القضاء وسيلة لرد حقوقهم وضبط أوضاعهم المدنية . وقد كان اللجوء إلى تدخل السلطان حاسما في حمل القضاة على المبادرة بالنظر فيما أغفلوه من قضايا ولو أدّى ذلك إلى تعيين لجنة بحث من كبار الفقهاء كما فعل السلطان مولاي عبد الرحمن بشأن نازلة بتطوان[31] سنة 1243 / 1730 ، وقد تدخل أكثر من مرة لدَى العمال للسهر على تنفيذ أحكام القضاة ومراعاة حدود الشروع وحرمة القاضي[32] . وحرص مولاي الحسن على انصاف المواطنين وعدم عقاب أي شخص حتَّى تثبت التهمة عليه[33] . وقام جماعة من سكان الرباط بمقاضاة السلطان محمد الرابع ، فانتدب وكيلا عنه واستنابوا وكيلهم لدَى قاضي سلا ، ثم وقع التراضي على تعويض الطرف المدعي ، وكان ذلك بشأن أراض رغب الملك في إقامة قصره بها في الرباط . ووصف الناصري هذا العاهل بأنه كان «متقيا لله تعالى ، بانيا أمره على الشرع لا يشذ عنه طرفة عين»[34] .

وإلى جانب هذه الوجوه المشرفة من القضاء المغربي ، كانت هناك تجاوزات عديدة وخروق جائرة للحق ، خصوصاً بين رجالات المخزن ومن لدن عدد من الولاة والشيوخ ويحدث ذلك كلما اضطرب الوضع السياسي أو ساد الإدارة ودواليبها عناصر وصولية وقد يساهم بعض القضاة في أعمال الجور والتصرفات البعيدة عن النزاهة ، فقد ترامَى عدد كبير من الأوروبيين على أراض مغربية بعد مأساة حرب تطوان سنة 1860 وإلى إقرار الحماية الفرنسية وخلالها ، لأن القضاة ملكوهم إياها من غير توثق بشأن وضعيتها[35] . وكان بعض القضاة يستغلون أموال المحاجير

---

(30) الوثائق، 4، 390 — 394.

(31) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 152.

(32) م.س. ص 178، 194، 244.

(33) الوثائق، 3، 453. *Coufourier, Archives marocaines, 8/1906, p.356*

(34) استقصا، 9، 125.

(35) *Michaux Bellaire, Archives maroc. 20/1913, p.158*

لمصلحتهم[36] . ومنع أحد القضاة المتأخرين بمراكش مفتيا كبيراً من ممارسة مهمته لأنه كان يعترض على بعض أحكامه حتَّى أدَّى ذلك إلى تدخل العاهل لإعادته إلى مهمته[37] . وكان كثير من القضاة يقبلون شهادة اللفيف زوراً بشأن متروك المنقطعين . مما اضطر المخزن إلى منع شهادة اللفيف في هذا الباب مدة مديدة[38] . وثبت أن القاضي المهدي مرينو كان يأكل أحباس المساجد فعزله السلطان محمد الثالث وغرمه مالا عظيما[39] . وكان قاضي الصويرة أحمد زروق يشهد الزور فنقل من منصبه[40] . وهو غير أحمد زروق الصوفي المعروف والذي عاش في القرن 9/ 15م .

على أن تعيين القضاة وعزلهم كثيرا ما كان يتم في ظروف سياسية محددة ؛ إما بسبب الموافقة أو الرفض لتولية عاهل دون آخر أو لاتخاذ القضاة والفقهاء موقفاً معارضاً لسياسة المخزن في ميدان معين[41] . ولكن هذه حالات ظرفية محدودة . ومن الطريف أن السلطان مولاي إسماعيل أمر سنة 1094هـ بإلقاء القبض على عدد كبير من القضاة ثم حبسهم داخل القصر بمكناس حتَّى يعيدوا تسليكهم في التكوين القضائي ، وإثر ذلك عزل بعضهم وأقر الآخرين[42] !

وعمد السلطان مولاي عبد الله إلى عزل جميع القضاة والخطباء الذين خطبوا باسم سلفه المستضيء[43] .

ويظل طابع الورع والتحري في العدل ورد الحقوق لأهلها سمة غالبة على الرغم من الحالات الانفرادية والظرفية التي سبقت الإشارة إليها ؛ بل كثيرا ما سجلت حالات متكررة من الورع قد تؤدي بأصحابها إلى اعتزال القضاء أو رفض المناصب القضائية كليا ؛ فقد تولى القضاء بالرباط أيام السلطان الحسن الأول عبد الرحمن

---

(36) عباس بن إبراهيم، إعلام، 7، 20.

(37) ن.م. ج6، 297.

(38) وثائق 3، 423.

(39) الضعيف، ص 174.

(40) ن.م. ص 187.

(41) ناصري، استقصا، 7، 35، 38، 54.

(42) أكنسوس، الجيش العرموم، ص 73، 83. الناصري، م.س، ص 66.

(43) زياني، بستان، ص 69.

البريبري لمدة عشرين سنة ، ثم اعتزل القضاء تلقائيا ولزم بيته ثم لم يغادره حتّى وفاته[44] . ورفض القاضي محمد المدني كنون منصب القضاء بمراكش سنة 1274 / 1857 بعد ثمانية أشهر من توليته لأنه لم يجد شهودا صالحين[45] . وثبت للسلطان مولاي سليمان ما عليه شيخ زاوية الشياظمة عبد الله السكياطي من ضلاعة في الفقه وصرامة في الحق فدعاه إلى شغل منصب القضاء فامتنع ، فهدده بالحبس والضرب ، فقبل ثم غادر منصبه على الفور مستعفياً[46] .

أما السجون فقلما كانت مخصصة أصلا لإيواء السجناء ، فقد تكون دوراً أو دهاليز أو مطامير أو أبراجاً أو غير ذلك . وعلى سبيل المثال فقد استخدم جزء من خرائب قصر البديع بمراكش في عهد متأخر لإيواء الثوار[47] ، وشاد مولاي إسماعيل سجنا كبيرا بمكناس ، ألحق بمرافق القصر ، واستخدمت المباني الموجودة بالجزيرة المحادية لمدينة الصويرة سجنا للولاة والثوار والسجناء السياسيين ، وفي جميع الحالات يخصص للنساء سجن خاص بإشراف امرأة تدعَى عريفة . والسجناء يتلقون طعامهم في جل الحالات من أسرهم ، وقد تتكفل بهم الدولة ، وقد كان عدد السجناء من أهل الدعارة والجرائم الجنائية في عهد مولاي إسماعيل حوالي ثلاثين ألفا ، يعايشون الأسرَى الأوروبيين في الدهاليز والسجون ، وعدد هؤلاء حوالي خمسة وعشرين ألفا[48] .

وفي حالات التمرد الجماعي قد يعمد المخزن إلى الاحتيال في اعتقال المتمردين وأنصارهم وذلك إما بالسكوت مؤقتا عن تصرفاتهم أو باستدعائهم للمساهمة في حفلات رسمية يتم فيها إلقاء القبض عليهم وإعدامهم فوراً عند الاقتضاء[49] . وإذا تم القبض على ثائر خطير بعد جهود مضنية يطاف به في أسواق بعض المدن الكبرَى

---

(44) الاستقصا، 9، 160 ـــ 161.

(45) إعلام، 7، 55.

(46) ن.م. ج 8، 334. وانظر نماذج أخرى من ورع القضاة ونزاهتهم في ن.م. ج 7، 20، 39، 66 وج 2 402، و5، 347، و6، 221، 161.

(47) *Champion, Le Maroc et ses villes d'art, 2, 96*

(48) بستاني، م.س. ص 45.

(49) ناصري، استقصا، 9، 10، 148.

كما حصل في القبض على الهبري في عهد مولاي الحسن وبوحمارة في عهد المولى عبد الحفيظ.

ولمعاقبة الجناة صور مختلفة. وإذا كانت جل العقوبات القضائية إما سجنا أو جلداً. فإن العقوبات الجنائية على يد السلطة الإدارية والمخزنية تختلف من الجلد أو الحبس إلى الاعدام حسب الجريمة المنسوبة[50]. وبالرغم من خطورة الجنايات والجرائم التي تستوجب عقوبة الإعدام فإن التمثيل بالجثت قد يكتسي طابع الفظاعة أحيانا[51]. وقد تطبق العقوبات الشرعية بكيفية طبيعية بقطع اليد والرجل بالنسبة للثوار والعتاة من ولاة وغيرهم[52]، وعند الاقتضاء بالإعدام الذي كان يتم في الغالب بقطع الرأس تبعا للطريقة التقليدية لدَى عدة شعوب. وفي حالات تمرد جماعي يؤدي إلى مواجهة الجيش الوطني فإن الانتصار قد ينتهي بإعدام بضع مآت وربما أكثر من ذلك حسب امتداد التمرد جغرافيا[53]. ومن أنواع الإعدام القتل خنقاً، وربما اختيرت هذه الطريقة لأنها أرفق بالقتيل[54]. وهناك طرق أخرى[55]، ضمنها إطلاق الرصاص وقد انتشر خصوصا في العهد المتأخر قبل الحماية.

وعند قطع رأس الجاني يتم تمليحه على يد بعض اليهود[56]. ولهذا السبب أطلق على حارة اليهود بمدن المغرب منذ قرون اسم الملّاح. ثم يعلق الرأس بأحد الأبواب الرئيسية للمدينة ليكون عبرة للآخرين. وقد تعلق عشرات الرؤوس على الباب الواحد خصوصا بعد إخضاع حركة تمرد ضد المخزن. وعندما قتل الباشا أحمد الريفي في عهد المولى عبد الله، علق رأسه إلى أن قدم وفد من الجزائر، فتشفع لدَى السلطان في انزاله وتسليمه، وقد أورد الضعيف نص وثيقة تشهد بإذن

---

(50) انظر 276 — 275. Ferd Hœfer, Empire du Maroc, pp.

(51) ناصري، استقصا، 9، 41. Arnaud, Au temps des Mehalla, p. 282

(52) ضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 365. Hœfer, Op. Cit,

(53) استقصا، 7، 53، 81، 87، 96.

(54) كردودي، الدر المنضد، ص 161و. زياني، بستان، ص 51.

(55) ضعيف م.س. ص 173 — 174.

(56) Arnaud, Op. Cit. p.112

السلطان بإنزال الرأس[57] . وإذا تعددت الرؤوس بكثرة وزعت على عدة مدن .

ولما كان المغاربة كسائر المجتمعات ذات التقاليد الدينية يحترمون أضرحة الصلحاء وعلماء الدين ، فإن لجوء أحد الجناة إلى بعض الأضرحة الرئيسية بالبلاد كضريح عبد السلام بن مشيش وإدريس الأكبر أو الأصغر بمثابة لجوء سياسي إلى تراب دولة أخرى في عصرنا هذا . وطالما ظل الجاني مقيما بالضريح ينتظر عفوا ملكيا ، فلا أحد يزعجه . ولكن قد يتم خرق هذه الحرمة إذا كانت تهم اللاجئ من الخطورة بحيث تستوجب القبض عليه حتّى داخل الضريح ، مثلما كان الشأن في القبض على الثائر بوحمارة الذي لجأ إلى زاوية كان يطلق منها النار على الجيش الملكي وأنصار المخزن .

ولكي يحصل المتهم على أمان ملكي فإنه يتوصل بعلامات أو مراسلة تؤكد ذلك ، ومن ذلك أن السلطان اليزيد أرسل إلى أحد الولاة الثائرين نسخة من دليل الخيرات ، وشالهُ الأخضر الذي يتعمم به وقد حج به أربع مرات ، كما بعث إليه بعكازه ، فأمن الثائر على نفسه بهذه العلامات التي يعرف السلطان بها[58] .

وقد يكون العفو الملكي في أقصَى حدود الكرم حيث يحط عن القبيلة أو الطرف المعفو عنه ما عليه من تكاليف مالية لمدة طويلة قد تبلغ السنين .

---

(57) ضعيف، م.س. ص 131 — 132.

(58) ن.م. ص 225.

الفصل الخامس
النظـام المالـي

ارتكز النظام المالي على إدارة مركزية ترتبط بالقصر مباشرة ، ويمثلها الأمناء والجباة وشيوخ القبائل في الأقاليم . وتأرجحت السياسة المالية بين الاقتصار على الضرائب الشرعية وإضافة ضرائب تختلف شرعيتها حسب النصوص الفقهية ومواقف الفقهاء . وكانت هناك عدة محاولات إصلاحية انتهت في آخر مرحلة إلى إحداث بنك للدولة . ويستعرض هذا الفصل بشيء من التفصيل مختلف التطورات التي حصلت في السياسة المالية :

السـكـة

انتظرت السلطة العلوية مدة طويلة قبل أن تعمل على إنشاء نقد جديد ، وهكذا استمر تداول العملات المحلية العديدة ، وبخاصة النقود الاشقوبية التي ضربت في العهد الدلائي سنة 1068 / 1657 إلى أن تم إنشاء سكة علوية في عهد مولاي رشيد بين أواخر 1079 و أوائل 1080 . وكانت السكة الدلائية فيما مضى فضية تحتوي على عشرين في المائة من النحاس ، فأمر الرشيد بتصفيتها وكتب عليها : الله ربنا . الرشيد إمامنا . وكانت تضرب ليلا بحضور عدلين تجنبا لإفسادها .

وفي 1081 حسب الناصري والزياني والكردودي أو 1082 حسب أكنسوس تم ضرب فلوس النحاس المستديرة بعد أن كانت الإشقوبية مربعة ، كما جعل قيمة الموزونة 24 فلسا بعد أن كانت 48 في السكة الاشقوبية[1] . وحسب الكردودي فقد قلت السيولة النقدية في عهد مولاي إسماعيل ، ولكن تركت السكة على ما هي

(1) حول السكة الرشيدية. راجع : الكردودي، الدر المنضد، ص 147. الزياني، بستان، ص 27، الضعيف، ص 53. الناصري، 7، 39 و41 : أكنسوس، جيش، ص 61.

عليه من الصفاء، ونقص وزنها، وكتب عليها : لا إله إلا الله، حق، ناصر الحق[2] . بينما يذكر ميشو بيلير[3] أن مثقال الذهب في أوائل الدولة العلوية كان لا يساوي أكثر من ثلاثة غرامات، وكان «الدورو» أو الريال يساوي سبع أواق ونصفاً، أي ثلاثة أرباع مثقال.

وفي عهد مولاي سليمان ضربت فلوس من النحاس ممزوجة بالرصاص بمعدل أوقيتين في كل رطل نحاس. وكان ضرب هذه الفلوس بتطوان في 1227 / 1812 . وأثناء ذلك كان الدورو قد أصبح يساوي مثقالا أي عشر أواق[4] .

وأمر مولاي عبد الرحمن بضرب فلوس بفاس سنة 1247 / 1831 ، غير أنه تشدد في منع تهريب العملة إلى الخارج، وبخاصة الريال الذي كان يهربه التجار إلى أوروبا حيث يبيعونه بنسبة أعلى من قيمته الوطنية. وفي 1256 / 1840 أمر بضرب مزيد من الدراهم الفضية وشراء ما يلزم من الفضة بعد أن كادت هذه المادة تنعدم في سنوات الغلاء. وحددت وحدات العملة كما كانت من قبل : 1) المثقال = 10 أواق . 2) الأوقية = 10 موزونات . 3) الموزونة = 24 فلسا . ويحتوي المثقال على 960 فلسا، كما بعث السلطان سنة 1259 / 1843 بخمسين ألف مثقال من الضبلون الذهبي إلى القنصل المغربي بجبل طارق ليتولى صرفها فضة أي بالريال الإسباني الذي تم تحويله دراهم فضية مغربية بإسبانيا ثم إرسالها إلى المغرب.

وحاول السلطان مولاي عبد الرحمن أن يعيد توازن العملة الذهبية المسماة بالبندقية والتي عرفت من عهد السلطان محمد بن عبد الله، وهكذا فعلى إثر معركة إيسلي تزعزع استقرار العملة المغربية بشكل ملحوظ، فحدد مولاي عبد الرحمن سعر البندقي من جديد بثلاثين أوقية، وريال بومدفع أو الدورو الإسباني بـ16 أوقية والايكو الفرنسي بـ15 أوقية والدرهم الصغير بـ4 موزونات، والكبير بـ6 موزونات، إلا أن العملة استمرت في الهبوط.

وفي سنة 1268 / 1852 حدد سعر البندقي بـ 40 أوقية، وريال بومدفع بـ20

---

(2) كردودي، م.س. ص 148.

(3) *Michaux Bellaire, Revue du monde musulman, T.38/1920, p.46*

(4) *Op. Cit* محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 28، 31.

أوقية ، وحسب هوفر ، فإن الريال الذهبي كان يساوي 10 فرنكات فرنسية . والمثقال وهو عملة فضية يساوي ثلاثة فرنكات . والموزونة وهي عملة نحاسية تساوي 10 سنتيات ، كما لاحظ هوفر تقلب أسعار العملة المغربية في عهد مولاي عبد الرحمن . وعزا أحمد الناصري هبوط السكة المغربية إلى انفتاح أبواب المغرب على مصاريعها للتجار الأجانب بعد معركة إيسلي وروجان العملات الأوروبية الذي طغى على روجان العملة الوطنية مع اكتساح السلع الأجنبية للبلاد[5] .

وفي 1285 / 1868 حاول السلطان محمد الرابع أن يوقف هذا التطور ليرجع بالعملة إلى ما كانت عليه قبل قرن ، فأنشأ الدرهم المحمدي من الفضة ، وعملة برونزية لكن لم تكن لها قيمة تذكر ، حيث اختلفت قيمة العملة من جهة إلى أخرى داخل المغرب ، على الرغم من المنشور الذي صدر بشأن تحديد السكة وجعل المثقال عشرة دراهم كما كان في عهد أسلافه ، لكن الأمر تعقد بجعل الدورو يساوي 32،50 أوقية أو ثلاثة مثاقيل وربع ، في الوقت الذي أمر فيه السلطان بتخفيض أثمان السلع إلى النصف لإقرار توازن بين الأثمان المطلوبة والقيمة الحقيقية للسلع . وهكذا تدهورت قيمة المثقال وعوضت العملة الفرنسية عملة المغرب الفضية . وصارت عملة المغرب عبارة عن فلوس نحاسية ممزوجة بالرصاص والقصدير[6] .

وفي 1294 / 1877 حدث تقلقل كبير في العملة داخل الأسواق لاسيما بفاس ومراكش . ويتحدث الناصري عن قلة فلوس النحاس الرائجة بمراكش وأحوازها وغلاء الريال الافرنجي هناك ورخصه بفاس ، وأنه كان يصرف بمراكش بثلاث وستين أوقية مقابل 53 بفاس ، وهكذا بدأ التجار يسحبون فلوس النحاس من مراكش ليصرفوها بفاس حيث يربحون في كل ريال نحو مثقال ، وأدّى ذلك إلى تضرر الفآت الضعيفة ، ثم صدرت تعليمات ملكية بتحديد قيمة الريال بثلاثة مثاقيل وربع ، فرخصت قيمته ووقع الإقبال على الفلوس فتضرر التجار بهبوط قيمة الريال إلى النصف وأمسك التجار عن ترويج السلع التي خفضت قيمتها إلى النصف .

---

(5) فيما يتعلق بالسكة في عهد مولاي عبد الرحمن : محمد داود. م.س. ص 330 و332 و 364 — 369 و418. الناصري، استقصا، 9، 54، 64.

Hœfer, Empire du Maroc, p.280 Michaux Bellaire, Op. Cit.

(6) استقصا، 9، 120 — 121 *Bellaire, Op. Cit. pp.46-47*

اضطربت الوضعية المالية وتدهورت الأحوال الاقتصادية ، حتّى كانت سنة 1299 / 1881 فقرر مولاي الحسن أن يسك عملة من الفضة في باريز ، ويعطيها مظهرا مماثلا للعملة الأوروبية ، مع احتفاظها بالإطار الديني ، فكان الدورو الحسني يزن 29،16غ عوض 25غ .

لكن لأسباب تقديرية عامل السكان هذه العملة دون قيمتها الحقيقية ، فبينما هدف الحسن الأول إلى جعل الدورو يوازي مثقالا ، كان المواطنون الذين اعتادوا أن يعطوا للدورو قيمة معينة من الدراهم أو الأوقيات يخفضون عن غير قصد . تخفيضا كبيرا من الدورو الحسني . ومع ذلك ، فقلة الكمية المضروبة الرائجة ، جعلت لهذا النقد قيمة مهمة في ظروف لاحقة ، خصوصا في بيع الصوف والحبوب . وأدّى عدم الوضوح في قيمة الريال (الدورو) الحسني إلى سحب المضروب منه فيما بين 1891 – 1895م[7] .

وقام مولاي عبد العزيز بضرب عملة سنة 1314 / 1876 ، فأصبح الدورو يساوي 16،29غ ، وكتب عليه : وزن 10 دراهم ، ولكن لم ينص على الدرهم الشرعي ، ثم ضربت أجزاء من الدورو بباريز أيضا وبرلين ، وحول اسم الدرهم إلى الريال ، فقيل : ريال عزيزي ، أو نصف ريال عزيزي ، أو عُشر ريال عزيزي . وصار الريال يساوي 25غ ، لكن سكان جبالة المتشبثين بتعاليم الإسلام ، رفضوا لمدة طويلة ، التعامل بالعملة العزيزية .

وفي سنة 1329 / 1911 قام مولاي عبد الحفيظ بسك عملة حدد فيها الريال بعشرة دراهم وظل الريال يساوي 25غ ، وجرَى مولاي يوسف على نفس التحديد سنة 1331 / 1912 ، وبذلك كما يقول «بيلير» عمل مولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف على الرجوع إلى الدرهم كأصل للعملة[8] .

بنك الدولة

نص عقد الجزيرة الخضراء في الفصل 3 ، (بنود : 31 – 58) على إنشاء بنك للدولة وتحديد اختصاصاته وامتيازاته ، ويمثل دور الخزينة والمؤجر العمومي للدولة ،

---

(7) استقصا، 9، 163 — 164 *Bellaire, Op. Cit. pp.47-49*

(8) *Bellaire, Op. Cit. pp.49-51*

وأعطي الصلاحيات المطلقة لضرب العملة ومراجعتها ؛ وتراقب حكومة المخزن هذا البنك عن طريق مندوب سام يراقب إصدار النقد ويختم عليه . والبنك عبارة عن شركة دولية تساهم فيها على الخصوص دول تتعامل بنقد يحمل اسم الفرنك كفرنسا وبلجيكا وسويسرا وحتّى إيطاليا ، وموظفوه أساسا من هذه الدول . ونص عقد الجزيرة الملحق على أن المندوب السامي المغربي لا يحق له التدخل في إدارة البنك التي يشرف عليها مدير عام فرنسي ومدير إسباني ، ويتألف المجلس الإداري من عدد من الأعضاء يحددون بحسب المساهمة في رأسمال المؤسسة . وللبنك محكمة خاصة لفض نزاعاته تتألف من ثلاثة أعضاء قنصليين وعضوين مستشارين ؛ وكل استئناف لحكم هذه المحكمة من اختصاص المحكمة الفيدرالية بلوزان (سويسرا) . وجعل المركز الاجتماعي للبنك بطنجة والمركز الاداري بباريز[٩] .

الضرائب والموارد

أوجز بنشنهو مجموع الضرائب والايرادات المخزنية فيما يلي[١٠] :

1 — الأعشار ، وهي حقوق الجمرك على الواردات والصادرات .

2 — الصك وهو ما يؤدى من حقوق بأبواب المدن على السلع الواردة إليها من داخل البلاد .

3 — المكس ، ويضرب على السلع المعروضة بالأسواق والبهائم المبيعة .

4 — الصاكة على التبغ

5 — الذعائر المحكوم بها على الجناة

6 — مستفاد كراء الأملاك المخزنية

وعلى إثر مؤتمر مدريد أنشئت ضريبة فلاحية على الحرث والماشية ألزم بها السكان مواطنين وأجانب ، وهي تقارب ضريبة العشر التي أقرها أتراك الجزائر على الحاصلات علما بأن الجزائر العثمانية كانت تتوفر على تنظيم ضرائبي جيد في مجمله وإن كانت العملة تخضع أحيانا لتخفيض قيمتها[١١] .

---

(9) *Villes et tribus du Maroc, Tanger, pp.229-230. Allal El-Fassi, Livre rouge, pp.222-224.*

(10) بنشنهو، بيان، ص 26 — 27.

(11) *A. Temimi, Revue d'histoire maghrébina, n°1 pp,93-94* وانظر : سعيدوني، مجلة تاريخية، 1975/3.

وهناك ضرائب وموارد أخرى كالجزية وغيرها مما لم يورده «بنشنهو»[12]. على أن السياسة الضرائبية للدولة تأرجحت بين إجراءات متنوعة وأحيانا متناقضة أو مرتجلة. وهكذا نرى مولاي الذهبي يعمد إلى إسقاط مختلف المكوس والضرائب غير الشرعية مما أحدث ابتهاجا في الأوساط الشعبية، ولكن استخلاص الموارد الشرعية نفسها أعطى الفرصة للولاة حتَّى يبتزوا الجبايات بطرق جائرة ويستولوا على شطر منها[13]. وبالمقابل، فإن فراغ الخزينة الذي ترتب عن الحروب الأهلية في عهد مولاي عبد الله أدّى إلى استصدار السلطان محمد بن عبد الله فتوى من الفقهاء سنة 1176 / 1762 بإحداث مكوس كثيرة، وشملت حتَّى الزريعة «وضاق الأمر بالناس غاية الغاية» حسب تعبير الضعيف[14]. وبيع مكس فاس كله لعامل فاس محمد الصفار بـ12 ألف مثقال[15] سنة 1174.

وكان المغرب في هذا العهد يبحث عن تقوية موارده لتنظيم قوته العسكرية ووضعيته الاقتصادية. وهكذا نجد السلطان يتوجه بنفسه سنة 1197 / 1782 إلى تافيلالت حيث حصل من قصورها على عشرات القناطير من الأموال، وكانوا بعيدي عهد بأداء التزاماتهم[16].

وكانت إدارة الجمارك أو «الديوانة» تخضع لإدارة أمناء المراسي الذين يسمون أمناء الديوانة أيضا، ويرأسهم جميعا أمين الأمناء. ومع كل أمين عدلان (موثقان) لتحرير عقود البيع وتلقي شهادات التجار. وفي بعض الأحيان يخول الأمين حق استخلاص المكوس بما فيها مكس المجزرة، وله حق احتجاز البضائع المهربة وبيعها بالسمسرة، وظلت الديوانة مستقلة، حتَّى فرضت المصالح الأجنبية على المغرب سنة 1909م حق مراقبة موارد الجمرك لاستخلاص الديون المترتبة على المغرب ثم خرج الجمرك نهائيا من يد السلطة المغربية سنة 1910 ليخضع للمراقبة الأجنبية وتحكمها المباشر[17].

---

(12) *Voir, Michaux Bellaire, Les impôts marocains, Archives Maroc, 1/1904*

(13) *Caillé, La petite histoire, T 2*

(14) استقصا، 8، 7. ضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، هامش ص 168.

(15) استقصا، 8، 16 و17. زياني، بستان، ص 102 — 103.

(16) ضعيف، ص 192.

(17) بنشهو، بيان ص 37، ويراجع عن حقوق الجمرك أيضا:
Le Cureul Xavier, Histoire des douanes au Maroc, Archives maroc, 15/1908

على أن السلطات المحلية بالمراسي كانت تساهم في كثير من الأحيان في إضعاف الموارد أو تشويه سمعة المخزن والأمة. وقد تأكد مولاي إسماعيل بنفسه من التلاعب بجمرك الرباط عن طريق القنصل الفرنسي إسطيل[18]. ويقوم المخزن من ناحية أخرى بتحديد استيراد بعض المواد في منطقة أو مناطق معينة، وعلى سبيل المثال. في سنة 1304هـ اقتصر استيراد التبغ على طنجة وحدها[19] وكانت حقوق الجمرك 10 في المائة، علما بأن مولاي الحسن بذل جهدا ملحوظا في الاقتصار على الزكوات الشرعية[20].

ويمكن أن نأخذ فكرة مجملة عن دخل بعض المراسي في عهد مولاي الحسن:

1 — العرائش (لفترة من 1290 / 1873) : 25495 مثقالا
2 — تطوان (ستة أشهر، نفس السنة) : 10727 مثقال
3 — فاس (فترة غير معينة من نفس السنة) : 5441 ريال
4 — طنجة : 28582 مثقال (نفس السنة)
5 — الصويرة (يوليوز 1874 / 1291) : 31687 مثقال
6 — الصويرة (فترة غير محددة من السنة المذكورة) : 37123 مثقال[21].

وإذا كان السلطان محمد بن عبد الله قد أحدث مكوسا كثيرة كما تقدم، فإن مولاي سليمان بعد توليته أسقطها جملة وكان هو الذي يتولى تنسيق استخلاصها وصرفها أيام والده، حيث كانت موظفة على حواضر البلاد في الأسواق والأبواب وعلى السلع والغلال وعشبة الدخان والجلد، وذلك خمسمائة ألف مثقال تعادل دخل المراسي. ومن هذا المكس كانت نفقات التسليح والجيش ورواتبه ومؤونته ونفقات القصور والإدارة الملكية[22]، إلا أن الاستغناء عن هذا المكس أمكن تغطيته بالزكوات الشرعية نفسها وباعشار المراسي وجزية أهل الذمة.

---

(18) *Caillé, Op. Cit*
(19) *Villes et tribus, Tanger, p.114*
(20) المشرفي، حلل، ص 241.
(21) مديرية الوثائق الملكية، مجموعة الوثائق، 3، 392، 394، 398، 400، 412، 418
(22) زياني، بستان، ص 185، ناصري، استقصا، 8، 169.

وفي 1266 / 1849 عاد المغرب إلى إقرار المكس تدريجيا فبدأ بالجلد ثم البهائم إلى أن اتسع نطاقه في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن[23] . ويظهر أن خزينة الدولة تمتعت بموارد هامة في عهد مولاي سليمان ولشطر كبير من عهد خلفه . وقدرت الموارد السنوية بما يعادل 20 إلى 25 مليون فرنك فرنسي لهذا العهد . وقدرت مدخرات الخزينة بما يزيد على 200 مليون فرنك وهذا مبلغ ضخم بالنسبة للمغرب في هذه الحقبة[24] . وبديهي أن هذه النشوة المالية قد تبخرت مع حرب تطوان التي فرضت على المغرب مائة مليون بسيطة . وقد قدر دخل الخزينة سنة 1258 / 1842 بما يزيد على مليونين وثمانمائة ألف مثقال شملت الجزية والجمرك واحتكار تغذية الدواب وبعض الديون على دول أجنبية ؛ وقد تجاوزت هذه الايرادات بكثير ما عرف في عهد محمد بن عبد الله ومولاي سليمان[25] .

على أن حرب تطوان لم تؤد إلى فرض تعويضات جائرة على المغرب فحسب . بل فتحت مجالا لرفض المحميين والأجانب أداء التزاماتهم ؛ وقد دعا السلطان وزير خارجيته محمد بركاش إلى إثارة انتباه ممثلي الدول الأوروبية إلى هذه الوضعية وعزم المغرب على وضع حد لهذا الحيف . وجاء في الأمر الملكي الصادر في 22 رمضان 1283 / 1866[26] قوله :

«... وبعد ، فاعلم أن نفقة الأبواب كانت تباع بمال له بال ، والفرض أن أهل الحماية لا يعطون فيها شيئا ، ثم إن أمرها صار يضعف بالتدريج حتى صارت لا يقبض فيها إلا ما لا بال له ، وذلك بسبب إفساد أهل الحمايات لها ، فإنهم لم يقتصروا على تجويز ما هو لهم فقط . بل كل من أراد الامتناع من الدفع من الرعية يذهب إلى واحد منهم فيعطيه بطاقة مضمنها أن تلك الاحمال له ، وهو في باطن الأمر بخلاف ذلك ...»[27] .

---

(23) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 122، استقصا، 9، 61. وراجع المصدر الاخير، ص 101 وفيه المنشور الملكي الصادر في رجب 1860/1277 بشأن المكس.

(24) *Hœfer, Empire du Maroc, p.280*

(25) محمد داود، م.س. ص 381 — 383.

(26) م.و.م. مجموعة الوثائق، 4، 353.

(27) انظر أيضا، م.س. ص : 307 — 309، 388، 396، 428، 485.

وكانت النقود تتعرض بين الفينة والأخرى إلى التزييف فيزيد ذلك من إضعاف المالية الوطنية . وهكذا نلاحظ على سبيل المثال إثبات وجود نقود مزيفة سنة 1259 / 1843 مما ورد على بيت مال الدولة من الأمين الحاج أحمد الرزيني[28] ؛ وفي محرم 1285 / 1868 ضبط بمراكش إسباني يزور العملة الوطنية فضلا عن بيعه الخمر للرعايا المسلمين ؛ وعندما صدر الأمر باعتقاله اختفَى فجأة[29] .

وكان اليهود والنصارَى مطالبين بدفع جزية يؤديها الأخيرون بطريقة خاصة . وكمثال عن جزية يهود تطوان وشفشاون نراها تستقر تقريبا من حيث المبلغ فيما بين 1285 و1297 . ففي 1285هـ بلغت 1100 مثقال ، وفي 1289 : مبلغ 275 مثقال ، وفي 1293 مبلغ 1100 مثقال وفي 1297 مبلغ 1100 مثقال أيضا . ولا يعرف على وجه التحديد سبب هبوط الجزية إلى الربع سنة 1289 / 1872[30] .

أما الأوروبيون فيؤدون الجزية حسب دولهم على شكل نقود أو هدايا أو هما معاً . وعلى سبيل المثال كانت انجلترا تؤدي إلى سنة 1814م أزيد من 16 ألف جنيه استرليني مع ذخائر حربية وبحرية ، بالإضافة إلى مبلغ 400 جنيه كهدايا لسلطات الجزائر . ولم تكن فرنسا تؤدي جزية محددة ، ولكن تؤدي هدايا تعادل قيمتها أزيد من 10 آلاف طاليري . أي 60 ألف فرنك بحساب القرن 18م بينما بلغت جزية الدانمارك ضعفين ونصفاً بالنسبة لهذا المبلغ، والسويد مبلغ 120 ألف فرنك (20.000) طاليري . وكانت هدايا إسبانيا تبلغ أو تتجاوز ألف طاليري . وهدايا الولايات المتحدة تبلغ 1200 قرش ، وأعفيت الدول الأوروبية تباعا من الجزية على إثر حرب إيسلي سنة 1844م ثم حرب تطوان 1860م[31] .

وكانت الجزائر تتقاضَى أيضا جزية من الدول الأوروبية وهي على العموم أقل قيمة مما كانت تؤديه للمغرب ، ومثال ذلك : أنجلترا : 600 جنيه استرليني . وفرنسا : هدايا عند تغير القنصل . والدانمارك : 4 آلاف ريال مع هدايا حربية

---

(28) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 398.

(29) وثائق، 4، 371.

(30) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 181 — 184.

(31) *Villes et tribus, (Tanger),* 119 — 121

وغيرها ، الخ[32] ...

وهناك هدايا محلية يؤديها بالتضامن سكان البوادي والحواضر في الأعياد الرئيسية : الأضحَى وعيد الفطر وعيد المولد ، وحددت الهدية من عهد قديم بألف مثقال . وهكذا كان الخلط والطليق يؤدون سنويا ما يعادل 6000 بسيطة بما فيها السخرة . غير أن رجال السلطة يضيفون مبالغ لصالحهم ، كما تفرض «النائبة» وهي ضريبة عن استغلال الأرض ، والغرامة : للتعويض عن الأضرار ، والذعيرة : ضريبة جماعية . أما السخرة فللمخازنية والرقاصة ، ثم النزالة : مكان يعينه المخزن لنزول القوافل والمسافرين لحمايتهم ليلا حيث يؤدون مبلغا عن كل دابة ويحمي النزالة سكان الدوار مع مقدمهم الذي يجمع المبالغ ويقسمها بين سكان الدوار ، لكن المغاربة من مستوَى اجتماعي أرقَى ، وكذا الأوروبيين، ينزلون خارج النزالة لعدم نظافتها ، ويستفيد السكان من المبالغ التي يؤديها هؤلاء عن حمايتهم[33] .

وعلى إثر معاهدة مدريد 1880م التي عقدت للحد من طغيان الحمايات الأجنبية تقرر إحداث ضريبة على الفلاحة حتَّى بالنسبة للأوروبيين ، وسميت بالترتيب ، لكن خشية المخزن من تدخل دولي في مراقبة الترتيب واستخلاصه أدت إلى حذفه والعودة إلى نظام النائبة . وعادت الدولة سنة 1319 / 1901 إلى نظام الترتيب من جديد بموافقة ممثلي الدول بطنجة ، وقيل إن هذا الترتيب الجديد كان من إيحاء الإنجليز ، وشمل كل ما تنتجه الأرض كالدواب والضأن والأشجار مثمرة وغير مثمرة ، وقدرت المبالغ مقدما دون انتظار الإنتاج وكميته ونوعه ، وفرض الترتيب على جميع الأشخاص وألغيت بمقتضاه الزكاة والعشور والنائبة دفعة واحدة ، وحتَّى القواد وهم بدون راتب فرض عليهم الترتيب فضلا عن عشرات الزوايا والصلحاء والشرفاء وجل هؤلاء كانوا معفين من الضرائب سابقا ، ومن ثم استوَى في التذمر من الضريبة الجديدة جماهير الشعب والمحظوظون السابقون ، فتوقف عن الدفع أغلب السكان ، ولجأت الدولة عندئذ إلى الاقتراض أي إلى رهن

---

(32) محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة، 1، 81.

(33) *Michaux Bellaire, Le Gharb, in Archives marocaines, Vol. 20/1913 Dr Arnaud, Au temps des mehallas, p. 215.*

المستقبل الاقتصادي للوطن في الوقت الذي كان الاقتراض يساوي رقابة مباشرة من الدول الأجنبية على موارد الدولة[34] .

وفي آخر المطاف يوجد نظام الوقف الذي يشرف عليه ناظر الأحباس ، وهو موظف جهوي يعين بظهير ملكي وله استقلال شبه تام في عمله وإشرافه ، بعد أن كان في الماضي تحت نظر القاضي . والمفروض أن تتوفر في الناظر شروط النزاهة والاستقامة ، ولكن أملاك الأوقاف صارت موضع تفويت من السلطة والمستغلين معا . ومواردها وإن كانت لا تدخل بيت المال فهي معدة للتنمية والانتفاع فيما حبست له ، وبذلك فهي من حيث المبدأ ، مساعد مهم وغير مباشر للدولة في الرواج الاقتصادي، علماً بأن ضمن الأوقاف أراضي زراعية وغلالاً ودورا ومعامل وما إلى ذلك ، لكن هذا لم يمنع من وجود فترات احترمت فيها سلامة نظام الوقف ، حتّى إن السلطان محمد بن عبد الرحمن رفض استعمال خشب في إصلاح مساجد تطوان وقد تخلى عنه الاسبان بميناء تطوان قائلا : إن الوقف لا يدخله إلا الطيب[35] .

الجبايـــة

ولم يكن مسموحا للسكان بإخراج الزكوات بصفة تلقائية أو مباشرة ، إذ هي من أهم موارد الدولة في سنوات الخصب خاصة ، وهكذا يخرج الأمناء والخراصون أي القائمون بعملية الخرص وهي عملية إحصاء الزكوات وتحديد مقاديرها بالنسبة لكل قبيلة أو دوار ، واقتضى نظر السلطان سنة 1282 / 1865 أن تقبض زكاة الماشية مالا وأعشار الحبوب عينا مع عدم إعفاء أي كان ممن استحقت عليه . وقد توزع على الفقراء في عين المكان خلال سنوات الجدب[36] . والعادة أن يتم تجميع الزكوات نقدا وعينا ببيت مال الحواضر القريبة ، ولكن قد يتم تجميعها ببيت المال المركزي حيث يقدم بها العمال والولاة في مناسبة رسمية[37] ، وقد يتولى الولاة

(34) *Michaux Bellaire et G. Salmon, Les tribus arabes de la vallée de Lekkous, in Archives marocaines, 4/1905, pp.140 - 145*

(35) محمد داود، تاريخ تطوان 6، 36.

(36) مديرية الوثائق، مجموعة 2، 438 — 440، 404. ضعيف، تاريخ، ص 387.

(37) استقصا، 8، 142.

الإداريون أنفسهم في الغالب قبض الزكوات والأعشار[38] ، لكن الولاة قد يجدون صعوبة في بعض الفترات ، في حمل السكان على الوفاء بالتزاماتهم الضريبية ، فيتولى العاهل نفسه قيادة حملة جبائية قد تشمل رقعة شاسعة من المملكة ، ويمكن أن يواجه السكان الجيش بمقاومة حقيقية . والواقع أن شطرا كبيرا من اهتمامات السلطة العليا قد انصب على الحملات الجبائية[39] لأن السكان يرهقهم الولاة بالاكتتابات والهدايا والضرائب الإضافية التي لا يصل إلى بيت المال منها شيء ، حتّى إذا حل وقت الضرائب الوطنية كان السكان في وضع غير مريح ، لاسيما في سنوات القحط .

وفي الواقع كان للجباة دور سلبي في الغالب ، من حيث تجاوب المجتمع مع السلطة الإدارية . ولقد وجد مولاي اسماعيل وأسلافه وضعاً ماليا سيئاً وتحكما من الجباة في رقاب الأمة لم يعبر عنه في جرأة وعطف نزيه على الدولة والمحكومين سوَى الشيخ اليوسي في مذكرته الشهيرة إلى مولاي اسماعيل والتي يقول في بعض فقراتها[40] : «... فلينظر سيدنا ، فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية ، فأكلوا اللحم ، وشربوا الدم ، وامتشوا العظم ، وامتصوا المخ ، ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا ، أما الدنيا فقد أخذوها ، وأما الدين فقد فتنوهم عنه ، وهذا شيء شهدناه ، لا شيء ظنناه ، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ، ولم تصل إليهم حقوقهم ، فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ، ويكف أيديهم عن الظلم ، ولا يغتر بكل من يزين له الوقت ، فإن كثيرا من الدائرين به طلاب دنيا لا يتقون الله تعالى ...» . ولقد أثمرت مذكرة اليوسي في اتجاه طيب ، حيث نجد الناصري يتحدث عن العقد الأخير من عهد مولاي إسماعيل فيقول في الميدان الجبائي[41] : «... والعمال تجبي الأموال ، والرعايا تدفع بلا كلفة ، وصار أهل المغرب كفلاحي مصر ، يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة ...» ومع هذا فإن ضغط الجباة لم يتوقف ، ولكن خيانتهم قلت عن ذي قبل .

---

(38) ضعيف، تاريخ، ص 318.

(39) أكنسوس، جيش، ص 189 ــ 190، 198، 206. ناصري استقصا، 8، 109، 112 ــ 113.

(40) ناصري، 7، 83.

(41) ن.م. ص 97.

وكان بعض الولاة يستغلون ظروف النزاعات الداخلية على العرش ، فيستبدون بالجباية والسلطة مثل عبد الرحمن بن ناصر عامل آسفي الذي كان مواليا لهشام ضد مولاي سليمان ، وفي هذه الظروف بالذات رفض ولاة الغرب وبني حسن دفع الزكوات والأعشار وطردوا جباة العاهل (مولاي سليمان)[42] .

أما امتناع القبائل عن أداء الزكوات فحالاته أكثر من أن تحصَى ، وقد تسهم في ذلك بعض المدن أو مهن معينة بها .

وهكذا في 1246 / 1830 رفض الزيايدة أداء الزكوات واتهمتهم مذكرة ملكية برفض أداء الزكوات كل سنة . وبعد محاولات إقناعهم بالمفاوضة تدخل الجيش لقمع المتمردين واستاق كل مواشيهم[43] . ومن الصدف أن فترة الستينات كانت من أصعب الفترات في الميدان المالي بالمغرب وتونس معا ، ففي المغرب عانَى بيت المال من قلة الموارد بسبب جبروت المحميين وحُماتهم . وفي تونس حدثت ثورة ابن غداهم الشهيرة وأنصاره سنة 1281 / 1864 وتم قمعها بعد جهد جهيد لأن القبائل رفضت بزعامة ابن غداهم أداء التزاماتها[44] .

وامتنع أحد الدواوير ببني مالك بالغرب ، عن أداء الجباية مدة لمجرد أن سفير انجلترا مر بأرضهم وأوصَى بهم خيراً . واشتكَى قائد القبيلة في مذكرة رسمية سنة 1296 / 1879 من هذا التصرف[45] .

وحركات مولاي الحسن بقصد استيفاء الجباية من القبائل التي ترفضها باستمرار أو لمدة سنوات معروفة في حياة هذا العاهل ، بل تكون شطرا بارزا من اهتماماته . وهكذا كان على مولاي الحسن أن يتولى غزو بني مطير كل سنة تقريباً لحملهم على أداء الجباية ، وواضح أن تمرد بني مطير يكتسي طابعا سياسيا منذ الخطأ الذي ارتكب في عهد مولاي عبد الله ، في التضريب بين جيش البخاري وسكان الأطلس المتوسط . وفي السنوات الأخيرة التي سبقت الحماية ظهر بنو مطير كقوة

---

(42) ناصري، 8، 143.

(43) تاريخ تطوان، 8، 197.

(44) يراجع بشأن هذه الثورة : جان غانياج، ثورة علي بن غداهم. *Slama, Insurrection de 1864*

(45) الوثائق، 4، 471.

سياسية شديدة الشكيمة بجانب الحركة الكتانية التي تعاطفوا معها بشكل خاص. إلا أن التمرد ضد المخزن في هذه السنوات شمل الميدانين الضرائبي والإداري معا بسبب تغلغل النفوذ الأجنبي وتضعضع السلطة المركزية، وهذا ما يفسر تعاون العديد من القبائل الشمالية مع بوحمارة لفترة قبل أن يفتضح نشاطه في التعاون مع الاسبان كما يفسر لجوء الدولة إلى الاقتراض من الدول الأجنبية سنتي 1904 و1910، وهو أمر لم يكن مألوفا لدى المغرب، وبخاصة في الظروف المهينة التي استسلمت فيها الحكومة للرقابة الأجنبية المباشرة من أجل هذا القرض[47] وتحت ضغط الحاجة.

وكانت عمليات المصادرة تمارس إثر إعلان الغضب على متهم ذي مال أو عند حبسه أو وقوعه في يد الجيش. وهكذا فبعد أن علم مولاي إسماعيل بتآمر بعض قادة الجيش سنة 1086 / 1675 مع الأمير ابن محرز أعدمهم واستصفى أموالهم[47]. وفي 1098 / 1686 صادر أموال أهل فاس «وشرعوا في دفع المال حتى لم يعرف له عدد ولم يسلم من الغرامة أحد»[48]، وحاول مولاي المستضيء أن يستخلص من أهل فاس أموالا وظفها عليهم فلم يطيقوها. وعندئذ أوعز إلى عامله باستصفاء أموال الأشراف بها، وقام الباشا أحمد بن علي الريفي باقتحام تطوان وقتل مآت من أعيانها وصادر قسما كبيرا من أموالهم.

وفيما بين 1143 إلى 1145 / 1730 — 1732 وظف على أهل فاس مآت الألوف من المثاقيل وساهم في الاكتتاب التجار والحرفيون والملاك وسائر السكان واضطر عدد منهم إلى اللجوء إلى البوادي والجبال وهاجر آخرون إلى السودان وتونس ومصر والشام واستمر استخلاص المال من السكان مدة ثلاثة عشر شهرا[49].

ثم صودرت أموال القائد الريفي وكانت شيئا كثيرا[50]. وعلى إثر عجز بيت

---

(46) *Allal Al-Fassi, Livre rouge, p.112*

(47) ناصري، 7، 50.

(48) ن.م. ص 98.

(49) ن.م. ص 135.

(50) ن.م. ص 105. ضعيف، ص 129.

المال عن أداء أرزاق الجيش سنة 1150 / 1737 صودرت الحبوب والأقوات من الدور والمطامير بمكناس وأطلقت يد الجيش ليقوم بعمليات النهب ؛ وصودرت أموال السكان بكل من مكناس وفاس وانتشرت اللصوصية . وفي 1175 / 1761 نهبت أموال قبائل الشاوية والحياينة وبني سادن[51] . وفي 1183 / 1769 نهبت أموال تادلا واستصفيت حتّى أفقر السكان . وفي السنة الموالية نهبت أموال جروان ولجأ مآت منهم إلى مكناس وفاس يتسولون[52] .

وعلى إثر ثورة ضد عامل الرحامنة سنة 1292 / 1875 غرم أولاد أبي السباع ستين ألف ريال وباعوا من أجلها مواشيهم بأبخس الأثمان . وكذلك ضربت الغرامة على زمور الشلح في السنة التالية ؛ وكانت هذه القبيلة من أقل قبائل الأطلس المتوسط استقراراً منذ بدأت الاضطرابات في عهد مولاي عبد الله .

ويبدو بالنسبة للحواضر أن أخطر اضطراب حدث بها كان هو ثورة الدباغين سنة 1290 / 1873 بفاس عند إعادة إقرار المكس بأبواب فاس . وذلك أن سكان هذه المدينة لاسيما الدباغين كانوا قد اشترطوا في بيعتهم لمولاي الحسن إسقاط المكوس وبخاصة المكس الموظف على الجلد داخل البَلَد ؛ وفعلا ألغي هذا المكس كغيره . لكن أمين الأمناء ابن المدني بنيس أعاد إقراره بضغط من أحد الأشراف المستفيدين منه ودون مفاوضة القصر الملكي بذلك ؛ فحدث هيجان شديد بفاس أدّى إلى حضور العاهل شخصيا إلى فاس ودراسته للمشكل في عين المكان . وانتهَى البحث إلى ضرورة إقرار المكوس السابقة بسبب افتقار الخزينة وضرورة مساهمة الجميع في حدود الإمكان . في تنمية بيت المال . وقاوم الدباغون وأنصارهم هذا الإجراء بالقوة ؛ فأعطيت الأوامر لتدخل الجيش ؛ وانتهَى الأمر بتوظيف المكوس من جديد[53] .

ولم يكن التذمر الضرائبي في أوساط السكان بسبب ضغط السلطة وعمليات الإكراه البدني لا غير ؛ فقد كان وراء التمرد الجماعي قواد وشيوخ قبائل أو زعماء طموحون إلى السلطة مع تأرجح السياسة الجبائية والمالية التي تراوحت بين إحداث

---

(51) ناصري، 8، 16.

(52) ن.م. ص 39.

(53) ن.م. ج 9. 129، 136. بنمنصور، وثائق، 3، 280 — 316.

المزيد من المكوس وبين إسقاطها بالمرة . وكذلك بين تخفيض العملة والأسعار ثم العودة بها إلى ما كانت عليه قبل سنة أو جيل كامل . ثم إن السلطة لم تكن لها سياسة شاملة على الدوام . كما أنها كانت تلجأ في ظروف وحالات كثيرة إلى الاعفاء الكلي أو الجزئي من الضرائب ، فإذا صرف النظر عن الاشراف والزوايا وعدد من الصلحاء والعلماء والخواص ، وكل هؤلاء كانوا يتمتعون غالباً بإعفاءات ضرائبية وظهائر توقير واحترام . ثم المحميين الذين تضخمت أعدادهم بعد الحرب المغربية الإسبانية . فإن هناك إعفاءات تمس قبائل أو جهات بأسرها لفترة قد تقصر أو تطول . ولظروف اقتصادية أو سياسية . كما حدث في إعفاء آيت يدراسن من الضرائب بعد تجريدهم من السلاح في عهد مولاي اسماعيل وانتدابهم إلى ممارسة تربية المواشي واستنتاجها .

وأعفيت البوادي بأسرها من الضرائب عن سبع سنين ابتداء من 1190 إلى 1196 (1796 — 1781) إذ في هذه المدة الطويلة أجدبت الأرض وانحبس المطر وحدثت مجاعة متواصلة[54] .

وقد تشمل الإعفاءات الضرائبية التجار أو فئة منهم أو مجرد أفراد ، ومن ذلك إعفاء المدني بنيس سنة 1247 / 1831 من أداء الجمرك عن وسق مائة قنطار شمع من ميناء تطوان . وأعفي تجار تطوان بفاس من التكاليف المالية سنة 1258 / 1842 . وصدر الأمر في السنة التالية بتخفيف صاكة الصوف عن سائر تجاره بالمملكة لأن «التجار تشكّوْا من الكساد الواقع في السلع وارتفاع الصاكة»[55] .

نظام الأمناء

عرف لفظ الأمين بمفهومه المالي من عهد الرسول ﷺ إذ كان لبيت المال أمين هو الصحابي أبو عبيدة الجراح . وانتشر اللفظ بهذا المدلول في عموم أنحاء العالم الإسلامي ، وهناك أيضا أمناء الحرف في الأنظمة المغربية والأندلسية ، وكان لكل حرفة أمينها الذي ينتخبه زملاؤه ويتولى فض النزاعات بينهم وبين الزبناء . كما يمثلهم لدَى المحتسب ، وعرف المغرب مصطلح «الأمين» بمدلولات متعددة[56] .

---

(54) ناصري، 8، 49.

(55) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 274، 376، 414.

(56) عبد العزيز بعبد الله، الموسوعة المغربية، مادة أمين.

1 ـــ أمين بيت المال (سبق)

2 ـــ أمين الحرفة (سبق)

3 ـــ أمين الخرج . لما يخرج من نفقات معينة من بيت المال .

4 ـــ أمين الدخل ويسجل دخل بيت المال الذي يتسلمه القائم عليه أسبوعياً .

5 ـــ أمين الصائر . ويتكلف بنفقات القصور والأمراء وصرف التنفيذات أي الأمر بالدفع من العاهل أو الصدر الأعظم وأداء رواتب الجيش والموظفين بعد تأشير أمين الأمناء .

6 ـــ أمين الشكارة أو أمين العتبة يشرف على نفقات القصر خلال مقام الملك به ويراقب حسابات أمناء الصائر وكشوف النفقات قبل أن يقدمها الأمناء للعاهل ويشرف على الصناديق الملكية ومحتواها .

7 ـــ أمين العسكر . للإنفاق على الجند بإشراف العلاف

8 ـــ أمين الخرص لتقدير الزكوات والأعشار بالأراضي الزراعية

ولكن الأمناء الذين كان لهم أكبر دور على النطاق الإقليمي والوطني هم :

1 ـــ أمين الديوان ، لقبض الرسوم الجمركية بحدود البلاد ومراسيها ، وقد يطلق عليه أمين المرسَى .

2 ـــ أمين المرس لحيازة الاعشار والزكوات الفلاحية ، ومهمته تتمم عمل أمين الخرص

3 ـــ أمين الأمناء ويتولى الإشراف على الجبايات ومستفاد المراسي ونفقاتها على الصعيد الوطني .

4 ـــ أمين الحسابات . يقوم بالإشراف المركزي على سجلات أمناء المراسي والنظار ووكلاء الغياب وموارد الأعشار بالبوادي ومواشي المخزن .

ويطلع العاهل نفسه على سجلات الأمناء بما تتضمنه من دخل وخرج ويختم عليها ثم يخبر السلطة الإقليمية المعنية[57] . ويسند اختيار الأمناء عادة إلى عمال أقاليم معينة فيقترحون من فاس وتطوان والرباط وسلا وطنجة في جل الأحوال[58] . وقد

---

(57) تاريخ تطوان، 8، 266.

(58) ن.م. ص 305، 311، 326، 407. ج6، 131.

يتم اختيار بعضهم من جهات أخرى . وإذا أدّى أحدهم مهمته على ما يرام فقد يكافأ بسخاء من السلطة العليا[59] .

ويظهر أن قسما كبيرا من الأمناء كانوا يختارون بالدرجة الأولى من تطوان ، وفي كثير من الأحيان يكون الأمين (أمين المرسَى) ذا ثقافة جيدة ومستوَى فقهي ممتاز كما هو الشأن في الحاج لوقاش أمين مرسَى تطوان في عهد مولاي الذهبي[60] ؛ ومحمد بن العربي معنينو بالعرائش في عهد محمد الرابع وعبد النبي مزور من فاس وهو أمين مرسَى تطوان في نفس العهد[61] .

على أن وظيفة الأمين بالرغم من أهميته السياسية والإدارية قد يرفضه بعض المرشحين لما فيه من مسؤولية مالية جسيمة[62] . وعندما يقبل المرشح مهمة الأمانة (أمانة أحد الموانئ) يحدد مرسوم تعيينه سلطاته بشيء من الدقة ، ويومر عامل المرسَى بتقديم كل المساعدات الضرورية للأمين الجديد كما أن مهمة أمين الأمناء يحددها مرسوم تعيينه[63] .

ويوجد في المستوَى المحلي بالمرسَى أكثر من أمين واحد للديوانة ؛ ويعين على رأس الجميع أمين أمناء المرسَى[64] .

وهكذا كان الهيكل التنظيمي للشؤون المالية يرتبط بتقاليد خاصة ؛ وهو مع ذلك يعتمد على كفاءة الأشخاص ومدَى استقامتهم ؛ أكثر مما يرتكز على تنظيمات قانونية مكتوبة . وفي جميع الأحوال تبرز فيه الشخصية الذاتية للمخزن . ولو كانت هناك رقابة مستمرة ونزيهة على الإيرادات والنفقات في المستوَى الإقليمي لنظام الأمناء ، مع مساواة الجميع في الحقوق والواجبات المالية لما وصلت الأزمة الاقتصادية والسياسية إلى ما انتهت إليه من إقرار الاستعمار في إطار الحماية .

---

(59) تاريخ تطوان، 8، 312.

(60) *Caillé, La petite histoire, p.16*

(61) تاريخ تطوان، 6، 132 — 133.

(62) ن.م. ج 8، 377.

(63) مجموعة الوثائق، 3، 337، تاريخ تطوان، 8، 61. استقصا، 9، 166.

(64) تاريخ تطوان، 8، 359.

القسم الثالث

○ ○

المجتمع والحياة الاجتماعية

الفصل الأول
المجتمع

السكان :

لا يمكن الاطمئنان إلى أي تقدير لعدد سكان المغرب في مجموعهم بناء على معظم التقارير الأجنبية . وبالطبع ، فلا يوجد إحصاء وطني بالنسبة للفترة التي تتناولها هذه الدراسة . وتقديرات الأجانب من دبلوماسيين وجواسيس وغيرهم هي مجرد تخمينات ، ولكن يمكن الأخذ بها فيما يخص بعض المدن على الأقل ، ونسبة المجموعة الأوروبية واليهودية على الأخص ، وقد قدر القبطان بوريل عدد سكان المغرب سنة 1223 / 1224 (1808 / 1809) بعشرة ملايين وثمانمائة ألف . وهذا العدد أكبر من الحقيقة آنذاك[1] . وقدرهم الإنجليزي جيمس كري بما يناهز 15 مليونا في نفس الفترة تقريباً ، بينما يرى «هوفر» أن عددهم يتراوح بين 5 و8 ملايين في منتصف القرن 19م[2] ، ولذلك يمكن اعتبار هذا التقدير أقرب ما يكون إلى الواقع لأن مجموع السكان لم يبلغ ضعفي هذا التقدير في أقصاه بعد قرن كامل ومع الوسائل الصحية التي اتخذتها الحماية .

وقدر بوريل سكان طنجة في التاريخ المذكور (1808م) بخمسة آلاف بينهم 800 يهودي و150 أوروبيا ، وسكان فاس 80 ألفا ضمنها 5 آلاف يهودي ، ومكناس 40 ألفا ، والقصر الكبير 10 آلاف[3] .

---

(1) *Caillé, Op. Cit. pp.147-154*

(2) *Hœfer, Empire du Maroc, p.259*

(3) *Caillé, Op. Cit.*

وقدر علي باي سكان مراكش سنة 1804م بثمانين إلى مائة ألف . ولكن يظهر أن هذا العدد مبالغ فيه حيث إن دوفردان يتوصل حسب استنتاجاته إلى أن سكان مراكش كانوا حوالي 25 ألفاً في نهاية 11 / 17م وانتهوا إلى حوالي 75 ألفا في بداية القرن 14 / 20م[4] .

وفي إحصاء للحماية في آسفي كان عدد سكان هذه المدينة سنة 1918 يبلغ 21 ألفاً منهم 17 ألف مسلم[5] . وإذاً ففي سنة إقرار الحماية يمكن تقدير سكان آسفي بـ 19 إلى 20 ألفاً .

ولا يوجد بين أيدينا من الوثائق الرسمية توضيحات عن سكان البوادي الذين كانوا يؤلفون ما لا يقل عن 85 أو 90 في المائة . يعتبر قسم هام منهم رحلاً . كما أن عدداً كبيرا من القبائل يتم ترحيلها من منطقة إلى أخرى لأسباب أمنية وسياسية[6] .

أما عناصر السكان فلم تتغير نوعاً عن ذي قبل ، ولكن يلاحظ تزايد في أعداد الأوروبيين الذين انبثوا في مختلف المدن وبعض بواديها المجاورة ، لاسيما بعد حرب تطوان ، وهؤلاء تعالجهم هذه الدراسة على حدة كما هو الشأن في المجموعة اليهودية أيضا .

المـــدن :

بعض المدن التي نعرفها اليوم ذات حركة عمرانية واقتصادية جيدة كوجدة والجديدة كانت قليلة الأهمية لأسباب سياسية في الغالب ، وعلى سبيل المثال . فوجدة بالذات شهدت باستمرار هجومات الأتراك مدة قبل أن تتحول إلى مركز مراقبة على الحدود بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر . والجديدة عانت من احتلال البرتغال قبل أن يتخلوا عنها ويحطموا مبانيها فتضعف أهميتها إلى حين إقرار الحماية التي جعلت منها مركزا لاستقرار المعمرين بمنطقة دكالة .

---

(4) *Deverdun, Marrakech p,597*

(5) الصبيحي، باكورة الزبدة، ص 6.

(6) *Hœfer, Op. Cit. Quedenfeldt, Division et répartition de la population Berbère au Maroc (Alger, 1904)*

ويبدو أن مكناس التي ظلت مدة طويلة عاصمة للدولة لم تحظ بعمران واسع النطاق على غرار مراكش وفاس ، وقد قدر سكانها في منتصف القرن الماضي بـ 15 ألفاً . مما يدل على تراجعها الحضاري[7] . ولم تكن في هذه الحقبة تتوفر على مساجد كثيرة ، والمساجد من دلائل تقدير السكان في الماضي . وتحدث الزوار الأجانب باستمرار عن خصب ناحيتها ومآثر وليلي بضواحي زرهون شمالا بقرب مكناس[8] .

غير أن مراكش ذات الأهمية السياسية الكبيرة أيضا عانت منذ القرن 11 / 17م محنا كثيرة بسبب الفتن والاضطرابات حتَّى لم تعد سوَى ظل للماضي في كتابات الزوار الأجانب ، حيث أقفرت أحياء بكاملها من السكان وتهدمت مبان سكنية كثيرة بها ونبت العشب على أنقاضها ، ولاحظ بعض الانجليز وغيرهم قذارتها وحطام المباني بها[9] ، وقد ظلت حتَّى عهد الحسن الوزان مدينة عظيمة راقية . لكن الأوبئة والحروب الأهلية دهورت من وضعيتها وتناقص بذلك سكانها وعمرانها ، ولاحظ «هوفر» أن محيط سورها يبلغ ثلاثة فراسخ داخلها جله بساتين أو أنقاض والباقي عمران . وعدد أبوابها تسعة . والقصر الملكي خارجها من جهة الجنوب الشرقي ويشبه بسعته وكثرة مرافقه مدينة ثانية . والضريح الرئيسي بالبلد هو ضريح «سيدي بلعباس» الذي هو ملجأ المضطهدين أو المعادين للسلطة . وقدر اليهود بها في منتصف القرن 19م بحوالي ألفين ، وكان يمنع عليهم الدخول إلى المدينة إلا حفاة فيما زعمه «هوفر»[10] وحتَّى نظام الري بالضواحي وشبكة قنوات المياه الداخلية تعرضت للإهمال والتعطيل فترة طويلة .

وظلت فاس أوفر حظاً من حيث المحافظة على هيكلها المعماري كما عرف وتطور منذ تأسيسها غير أنها أخذت حظها هي أيضا من التراجع في نشاطها العمراني وبقيت أزقتها موحلة في الشتاء مغبرة في الصيف شأن مدن المغرب الأخرى . ويحظَى ضريح مولاي إدريس الأصغر بها . بتبجيل يفوق الوصف . وهو أيضا ملجأ

---

(7) *Hœfer, Op. Cit. p.312*

(8) *ibid*

(9) *Deverdun, Marrakech, p. 599*

(10) *Hœfer, Op. Cit. p.308*

الفارين والمغضوب عليهم والجناة والسياسيين بمن فيهم بعض الأمراء ؛ وكان يوجد بجوار باب أبي الجنود بستان عمومي سمي فيما بعد بـ «جنان السبيل» كما يدعَى حتَّى الآن . ويستعين حراس الحناطي والقيساريات بكلاب شرسة ربيت لهذا الغرض . ولم يتغير شكل الفنادق ولا طريق خدمتها للنزلاء كما عرفت قبل عدة قرون . الا أن المدينة تتوفر على كل حاجياتها من التموين وتستهلك مقادير كبيرة من اللحم ؛ وهناك معامل نشيطة للنسيج وصناعة الزرابي والأواني النحاسية وغيرها . وهناك مستشفَى للمصابين بالأمراض العصبية والعقلية ؛ وبه وقف لدفن اللقالق والغرانيق . وظل التعليم نشيطا بالمدينة على الرغم من تدهور الأوضاع السياسية بين الفترة والأخرى[11] .

أما عن شبكة المياه فقد وضع عنها وصفاً دقيقاً رائعاً ، الفقيه محمد العربي بن عبد السلام الدكالي في رجب 1127 / 1715 . وهذا الوصف كما قال ناشره الأستاذ عبد القادر زمامة[12] كان رسماً عدلياً يستعمل في فض النزاعات الراجعة إلى مياه فاس ، ولم يسبق قط أن عرف شيء عن شبكة مياه فاس بهذا التفصيل الوافي الذي تقدمه الوثيقة في ثماني صفحات .

وإذا كانت فاس تتغذى من مياه وادي الجواهر فإن مراكش كانت تعتمد على شبكة القنوات الممتدة من العيون المنحدرة من الجبال المجاورة بالإضافة إلى الآبار الأرتوازية (الخطارات) ومياه تانسيفت .

وتميزت طنجة بكونها أحظَى المدن المغربية بمعرفة الزوار الأوروبيين[13] ، وهي إلى ذلك مقر القنصليات ، ولا شيء يميزها عن المدن المغربية الأخرى من حيث هيكلها الإداري وطبيعة سكانها المحافظة وتوفر المدينة على نفس الطابع الهندسي الرئيسي المعروف في سائر المدن الاسلامية : مركز يشمل سوقا ومسجدا أعظم وساحة عمومية وفي الكثير من الأحيان مدرسة أو مدارس وحمامات ومرافق أخرَى .

وكانت طنجة مثل سائر الموانئ : تطوان ، العرائش ، سلا ، الرباط ،

(11) *Op. Cit. p.303*

(12) عبد القادر زمامة، مجلة البحث العلمي/الرباط 1980.

(13) *Op. Cit. p.308* وانظر عن طنجة أيضا : *Villes et tribus (Tanger) pp.125-193*

البيضاء ، آسفي ـ الصويرة ـ أكادير ثم أسا تقوم بدور أساسي في تنشيط التبادل التجاري مع الخارج . كما أن مراكش ومكناس وفاس من أهم الحواضر الداخلية التي ترتبط بمحاور إفريقيا الغربية والصحراء الكبرى والجزائر ؛ وهكذا كان ميناء العرائش مثلا يقوم بتصدير الجلود والصوف والفلين والفلفل والحبوب مقابل الحديد والملف والمنسوجات القطنية والسكر والشاي والثياب الحريرية .

وإلى 1770 كانت تطوان مقرا للقناصل ؛ ولكن على إثر حادثة قتل قنصل لمواطن مغربي نقل مقر القناصل إلى طنجة . وتطوان كانت تتوفر على صناعات متعددة بما فيها صناعة الأسلحة وضرب النقود التي كانت تساهم فيها مدن أخرى كالرباط وفاس ومراكش .

وتقوم إدارة المدينة على عاتق الباشا أو القائد ؛ وعند الاقتضاء على عاتق العامل إذا كانت المدينة مركز إقليمه . ثم هناك المحتسب وبعض الأمناء (أمناء الديوانة) والقاضي وناظر الأحباس . ويظهر أن قصبة الاوداية ومدينة سلا تمتعتا بشيء من الاستقلال الذاتي الذي يذكر بنظام جمهورية أبي رقراق المعروف في العصر السعدي . وهكذا فإلى سنة 1197 / 1782 كان هناك مجلس ينتخب من السكان لمدة سنة . ويرأسه عاملا المركزين وهما من بين أعضاء المجلس المنتخبين . ويشتغل هذا المجلس بالشؤون البلدية دون المسائل المرتبطة بالدولة(14) . ثم ارتبط المركزان بعد ذلك بالنظام الوطني .

وعاصر مثقف مغربي بارز أوضاع المدن المغربية وكتب عن بعضها وصفا يبين عن مدى التدهور الذي وصلت إليه قبيل الحماية (سنة 1910م) ، ولاحظ بقاء المدن بالمغرب «على حالتها القديمة في القرون السابقة من اعوجاج طرقها وانخفاض سقف أزقتها ولاسيما مدن «الداخلية» (أي التي بداخل المغرب) ، حتى إنه لا يمكن للراكب أن يمر فيها وإن كانت الحالة الحربية في القرون السابقة تدعو إلى ذلك . أما التنوير والتنظيف ، فشيء لا يذكر إلا في بعض المدن البحرية ، لوجود الأجانب فيها ...»(15) .

---

(14) *Hœfer, Op. Cit. pp.313-314*

(15) عبد الحفيظ الفاسي (قاض سابق) : مجلة الثقافة المغربية، شتنبر 1941/الرباط. ومن المراجع عن المدن ■

البـــوادي :

سجل «لامبريير» ارتسامات فيها الكثير مما هو إيجابي عن النشاط الزراعي والرعوي للبلاد ، وان كانت انطباعاته سلبية بالنسبة للإرهاق الضرائبي الذي سجله في العقود الأخيرة من القرن 12 / 18م . كما أن منطقة الدار البيضاء . كانت مجرد أرض غير مزروعة ، وكانت الصويرة ميناء تجاريا نشيطا . على أنه اندهش لتخلف المغرب في الميدان الطبي والصحي .

وكانت منطقة الريف حسب «هوفر» تطلق على الجهة الممتدة بين تطوان ومليلية وهي غنية بمواشيها وبعض منتجاتها الزراعية كالحبوب والعنب والبطيخ والحامض .

أما منطقة الغرب فقد تعربت كليا على وجه التقريب قبل العصر العلوي . وسكانها تفرغوا للزراعة وأغلبهم يعيش في خيام متواضعة ويتعرضون باستمرار لجور الولاة ، وكانت سهول الغرب تضم أيضا خليطا من قبائل البربر ، وبينهم الشاوية الذين يتكونون من فروع عديدة كزعير وبني مطير . على أن قبائل الشاوية مالبثت أن تعربت في أغلبيتها الساحقة منذ النصف الثاني من القرن 19م . والسكان العرب من بني هلال وبينهم الخلط والطليق حول وادي اللكوس ، والمنطقة تكتنفها المرجات (المستنقعات) بكثرة ، ولكن سكانها كثيرون ، وهي خصبة كثيرة البساتين مع بعض غابات الفلين خاصة .

والسكنَى بالغرب في خيمة أو نوالة (بناء من قش وطين) أو قابوسة . وقد يتم الجمع بينها ويتوسطها مراح (صحن) . وهكذا تخصص الخيمة للنساء . وهناك أيضا بيوت مبنية بالحجر مسقوفة بالقش في بعض القرَى كزهجوكة . أما القابوسة فخيمة مستديرة أو نوالة على الطراز السوداني وتصنع من القصب ، وتتميز بأنها باردة صيفا ، دافئة شتاء ، وبها يقيم رب البيت وينام ويستقبل ضيوفه ، وتفرش بحنبل ووسائد وقد تضم كتباً وسرج حصان رب البيت وبندقيته . وإذا كان موسراً فقد

= المغربية : آسفي وما إليه للكانوني. الوجيز في اتحاف العدوتين لابن علي الدكاني. الشموس المنيرة، في اخبار الصويرة للرجراجي، مقدمة الفتح لبوجندار. إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لابن زيدان. تاريخ تطوان لمحمد داود.

Fès avant le Protectorat (Le tourneau). Marrakech (Deverdun). Les Européens à Casablanca (L.Miège). Collection. Villes et tribus du Maroc (Mission Scientifique, Résidence Générale).

C. Barrouquere - Claret, Settat, centre historique de la Chaouïa, Paris, Larose, 1919

يزين القابوسة بـ «حائطي» أي غطاء مزخرف على شكل عقود يغطي جدار القابوسة .

ويصف «سلمون» أوضاع قبيلة الفحص . على مشارف منطقة الغرب شمالا . وهي على العموم تتقارب مع أوضاع قبائل مغربية أخرى خلال فترات ضعف السلطة المركزية ، ومما يذكره أن قبيلة الفحص تتركب من عدة دشور (كسائر القبائل) وعلى رأس كل دشر مقدم هو الواسطة بين مجموعة من الدشور والباشا . ويؤلف حكماء المجموعة وسائر القادرين على حمل السلاح جماعة هي التي تنتخب المقدم . ولكن أقوَى الأصوات هي أصوات ذوي الثراء ، ويتولى المقدم النظر في بعض الأحكام الخفيفة بمحضر الجماعة ، وإذا وقعت سرقة بحد السلاح عمدت الجماعة إلى إصدار حكم فوري ينفذ حالا . وبفضل الأمن الذي يسهر عليه المقدم والحامية القريبة ، فإن المنطقة تعيش في ازدهار وتكاد تكون المزود الوحيد بالمواد الضرورية لطنجة . وببعض دشور الفحص دكاكين قليلة جدا لبيع بعض الضروريات كالشمع والزيت وحتَّى التبغ . ومن مواد المنطقة الدواب والملح والمنتجات الزراعية .

وتمثل فاس ومكناس أكبر الأسواق التجارية بالنسبة لشمال المغرب وبربر الأطلس . وقد ارتبطت فاس بعلاقات وطيدة مع البربر حتَّى إن «بيلير» يرَى أن هذه العلاقات تكوّن الحياة المغربية في مجموعها ، ولا ريب أن مقام الأشراف والصلحاء بها وضريح مولاي إدريس كان يعتبر ثالوثا مبجلاً يحظَى بالاحترام من قبائل البربر . ويتوفر تجار فاس على مساعدين يوفدون إلى الأسواق الأسبوعية محملين ببضائع على متن الدواب ويتنقلون بين أسواق الناحية حسب أيامها والتي يقصدها أهل جبالة والريف وأولاد جامع وفشتالة والحياينة وبني سادن وصنهاجة وغيرها . وللفاسيين وكلاء يتجهون إلى المدن المغربية كتازا وصفرو وآزرو وخنيفرة وبهذه الناحية يحصل بعض الفاسيين على كميات من الأغنام يتم تعهدها ببسيط سايس . كما يحصل الفاسيون من بربر الأطلس على الخشب والجلود والفحم . وكانت فاس تحصل على الكثير من بضائعها كالسكر والشاي والملف والثياب القطنية والحريرية عن طريق مليلية حيث تخف رقابة الجمرك من وقت لآخر ، لاسيما إذا كان

الجمركيون من فاس نفسها . بل إن الفترة التي سبقت الحماية كان يوجد خلالها عدد من تجار فاس بمليلية ، وأهم الصفقات التجارية بالموانئ والمدن الكبرى كانت من نصيب الفاسيين الذين يوجدون أيضا كتجار مقيمين بالجزائر وتونس وإفريقيا الغربية ومصر وفرنسا وإيطاليا ومانشيستير.

وفي المناطق الجنوبية غرباً نجد سكان حاحا ، وأهم إنتاج لديهم هو زيت الهركان أو الزيتون . والشمع والعسل وبعض الفواكه . ويقطن الحاحيون منازل مبنية بالحجر على خلاف بوادي المغرب الأخرى التي يقطن أهلها الخيام . وقد استفاد السكان من بناء الصويرة التي سهلت تسويق المنتجات المحلية ومكنت من تشغيل اليد العاملة بالمنطقة .

أما سوس فإن القسم الغربي منها حتَّى حدود هشتوكة يتميز بخصوبته وسهوله وشعابه المزروعة خصوصا بالزيتون الذي تنتج المنطقة كميات كبيرة منه ، وهذه الناحية وحدها تؤدي ما قيمته مائتا ألف مثقال ضرائب إلى جانب كميات من الدواب . وكانت منطقة تارودانت كما هي اليوم غنية بنخيلها وبواكيرها . وبجنوبي سوس يكثر اللوز والعنب والتين ، وكلها تباع معاينة من غير وزن . وبمنطقة ماسة تكثر الحبوب والزيتون والفواكه .

وكانت إفران مأهولة بعناصر زنجية ، ويقدر سكانها بحوالي عشرين ألفا قبل الحماية ويحكمها مجلس «آيت الأربعين» كما أن بها سكانا من اليهود وهم حوالي ألفين . وتنتج خضرا كثيرة وبطيخا وتمرا وحبوبا ، فضلا عن دوابها وقطعانها ، ويتزود منها سكان الصحراء الذين كانوا يتقايضون معها بالتبر والخزفان ، وبقربها تمنارت وهي غير تمنارت شمال أكادير ، وسكان هذه القرية سود أيضا ، وأهم منتجاتها التمر والنيلة .

ويتوفر أهل درعة على تكوين زراعي جيد ويعتمدون في الري على المطر . ولكل قطعة زراعية بئر ماؤها قريب ببضعة أمتار . وزراعتهم الأساسية هي الشعير والتمر لكن الحطب قليل ، وكذا الخشب ، لذلك يستعملون جذوع النخيل الميتة في تسقيف بيوتهم وجريده مكان الحطب . والبيوت من بناء متواضع بالحجر .

وتعيش منطقة تافيلالت بما يقرب من الاكتفاء الذاتي ، وتعتمد على التمر الذي

تنتجه بكثرة . وكل قطعة زراعية يحيط بها سور وخندق لحمايتها ، والتربة غنية تنتج بوفرة أيضاً ، القمح ومختلف الخضر والفواكه ، ومن الطريف أن تافيلالت أصبحت تصدر إلى إفريقيا الغربية مادة التبغ بعد أن كان السودانيون قد دخلوا بالتبغ لأول مرة إلى المغرب في أيام أحمد المنصور السعدي ، بل إن تافيلالت كانت تقوم بدور الوسيط في تصدير البضائع الأوروبية إلى هذه البلاد ، وتتلقى منها الذهب والعاج والصمغ وريش النعام والمصنوعات المحلية والرقيق . وتنتج تافيلالت الجلد المدبوغ الذي اشتهر حتَّى الآن بجودته .

وتكوّن تافيلالت مجتمعاً طبقيا يأتي في أدناه المزارعون المياومون وطبقة الرقيق التي كان الزواج منها لفترة طويلة ينظر إليه بشيء من الازدراء . ويدعى اليهود إلى السير حفاة إذا مروا بمسجد أو بباب أحد الأشراف الذين يتبوأون أرفع مكانة في المجتمع الفيلالي . واليهود قذرون ملبسا ومظهرا . ويشتغلون ببعض الحرف خاصة «المتنقلة» كما يتعاملون بالربا مع التجار الذين لهم نشاط تجاري مع السودان . ومركز الإقليم هو الريصاني التي تخلت لها سجلماسة عن مكانها .

وبمنطقة وادي نون غرباً من جهة السوس جنوبا ، كان يوجد في عهد مولاي سليمان شيخ يستقل بالحكم في ظروف الفتن الأهلية بالأطلس وغيره من مناطق المغرب ، وهو الشيخ بيروك الذي حاول أن يرتبط بعلاقات سياسية مع دول أوروبية وكان له تعاطف في آن واحد مع الإنجليز والفرنسيين وكان تحت إدارته حوالي 25 ألفا من السكان و40 قرية . وعند وادي نون كانت توجد قرية تحمل نفس الاسم ، وكانت تدعَى قديما تكَّاوست ، ثم دعيت لاحقا بالقصابي ، وهي على نحو 15 كلم من أكلميم ، وكانت وادي نون على أي حال ممراً تجاريا يتجه شمالا إلى مراكش وجنوبا إلى تومبوكتو عبر الصحراء الغربية ، وقد لاحظ الفرنسي «كوشلي» حياة الصحراويين بالمنطقة واندهش لقناعتهم وصبرهم على الجوع والعطش في شهر رمضان خاصة ، وكانت القصابي نفسها سوقا تجاريا مهما لهؤلاء السكان ، حيث يبلغ زبناؤها أسبوعيا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ، مع أن سكانها لا يتجاوزون الثمانمائة . وتقوم السوق ببيع وشراء الشعير واللحم وأنواع الثياب .

وهكذا كانت حياة البوادي متشابهة رتيبة من حيث نمطها العام ، ولكن لكل

منطقة مميزاتها الزراعية والاجتماعية . كما أن حاجياتها تختلف من جهة إلى أخرى . فتتكامل فيما بينها عن طريق الأسواق والمراكز الحضرية ذات الاستقطاب الاقتصادي[16] .

ترحيل السكان :

إن ظاهرة ترحيل السكان من جهة إلى أخرى داخل المملكة معروفة في أنحاء المغرب الكبير منذ قرون متطاولة ، ولكن هذه الظاهرة اتسع نطاقها ابتداء من الموحدين ثم ازدادت فشوا منذ العصر المريني على إثر تحركات قبائل بني هلال وبني معقل ونزاعاتها مع بعض القبائل المجاورة أو على إثر ظهور ضعف الدولة والسلطة حيث تتحرك بعض القبائل العربية بمحض اختيارها من منطقة إلى أخرى . وهناك في الواقع عمليات ترحيل وعمليات ارتحال ، والأولى تأتي على إثر تمرد خطير أو متواصل يقتضي نقل قبيلة إلى جهة أبعد . وكذلك بسبب تخريب بعض المدن والمراكز العمرانية على يد البرتغال فتعمد السلطة (وهذا شيء تكرر في العهد الوطاسي) إلى نقل السكان إلى مدن أبعد عن خطر هؤلاء ، وربما يرتحل بعض السكان تلقائيا لنفس السبب ، أو لأسباب اقتصادية أو سياسية .

ومن عمليات الترحيل الأولى في العصر العلوي نقل الشراقة إلى فاس ثم إلى ضواحيها ، وهم قبائل عربية وبربرية كانت تحت النفوذ التركي كأشجع وبني عامر ومديونة وهوارة وبني سنوس ، ومناطقهم حول تلمسان وغرب الجزائر فلجأوا إلى المغرب ونقلهم مولاي رشيد سنة 1081 / 1670 إلى أحواز فاس ثم بَنَى لهم قصبة بفاس وقصبة الخميس بها أيضا ونقلهم إلى المدينة ، وعاد بعد ذلك إلى ترحيلهم إلى مناطق فشتالة وصدينة حيث اندمج عربهم وبربرهم مع الأيام[17] .

وقام مولاي إسماعيل بترحيل الشبانات وزرارة من مراكش إلى فاس ثم إلى وجدة ، وأحل محلهم عرب الأودايا بفاس ، وذلك سنة 1090 / 1679 . وقد

---

(16) بعض المراجع عن البوادري : محمد بن عمر بن سودة، قبيلة زعير ج 1. خصوصا ص 98 — 100.
G. Salmon, Une tribus marocaine : La Fahciya, in Archives maroc. 1/1904.
M. Bellaire, Bulletin d'enseignement, n°37/1922. M. Bellaire et G. Salmon. Les tribus arabes de la vallé de Loukkous, in Archives maroc. 4/1905
Hœfer, Empire du Maroc, pp.282 - 303 et 397 - 403. Francisco Dettrrestarazu, Viajes por Marruecos (Madrid). Caillé, Op. Cit : pp.155-166

(17) استقصا، 7، 41.

اتهموا بالظلم والفساد في حوز مراكش . ثم جندوا إجباريا وسجلوا كجند نظامي في الديوان بقيادة العياشي بن الزويعر الزراري[18] . وأسكن عدد من جيش السوس بالمهدية بعد افتتاحها وظل بها أعقابهم حتّى يومنا هذا . على أن جيش البخاري كان موضع ترحيلات كثيرة تشمل معظمه أو قسما منه ، وعسكر الأودايا تركوا بصماتهم في أنحاء كثيرة من المغرب كالرباط وفاس ومراكش والصحراء ومكناس .

وعنصر الروافة (القادمون من منطقة الريف) تم توزيع عائلات كثيرة منهم بعدة جهات ، وبالأخص في العهد الإسماعيلي حيث أسكن عددا منهم بتارودانت بعد أن اجتاحها جيشه وكانت قد شهدت أهوال حرب أهلية ضارية . وعندما انجلَى الاسبان عن العرائش اسكنها مولاي إسماعيل أعدادا من أهل الريف كما كان الشأن في طنجة وأصيلا أيضا .

وأجريت عمليات ترحيل عديدة في عهد السلطان محمد بن عبد الله ، منها نقل مجموعات من الحراطين بالرتب وتافيلالت إلى مكناس بعد تعاونهم مع عمه مولاي الحسن على محاربة الشرفاء[19] . كما نقل بربر جروان سنة 1184 / 1770 من الأطلس إلى الغرب وسط القبائل العربية ، وكانوا أنصاراً لمولاي يزيد نجله الذي كان يطمح إلى اعتلاء العرش[20] ، وأخيراً أعاد نقلهم إلى الأطلس .

وفي سنة 1197 / 1782 رحل أولاد أبي السباع من حوز مراكش إلى السوس ومنها إلى الساقية الحمراء وموريطانيا ، وهي مواطنهم الأصلية ، وكانت السلطة قد اتهمتهم بالاعتداء على جيرانهم من قبائل الحوز (ناحية مراكش) . ونقل عدد من عناصر معقل وغيرها والقاطنة بشيشاوة إلى فاس الجديد وأنحائها[21] وهم المعروفون بالشراردة وبينهم مجموعات من الشبانات وزرارة . غير أن قسما كبيرا من الشراردة بقوا قريباً من مراكش غربيها حيث بنَى أحد أشياخهم محمد بن أبي العباس الشرادي زاوية متأثرة بالزاوية الناصرية كما أنشأ بعض العاطفين عليه بفاس زاوية له بعدوة الأندلس إلى أن خالفه نجله المعروف بالمهدي فتحولت دعوته إلى مناهضة

---

(18) ن.م. ص 61، أكنسوس، جيش، ص 66، 70.

(19) زياني، بستان، ص 100.

(20) استقصا، 8، 39.

(21) زياني، بستان، ص 113، أكنسوس، جيش، ص 155.

سياسية للسلطة في عهد مولاي سليمان إلى أن قام خلفه مولاي عبد الرحمن بتخريب زاوية ناحية مراكش سنة 1244 / 1828 ونقل الشراردة إلى منطقة الغرب[22] (أزغار) وتعد مدينة سيدي قاسم الآن مركزا رئيسيا للشراردة.

واضطرت الظروف الاقتصادية خلال منتصف القرن 19م ؛ وعلى العموم خلال النصف الثاني من هذا القرن إلى الرحيل من جهة إلى أخرى ؛ وهكذا ففي سنة 1266 / 1849 اضطرت المجاعة عددا من بني مسكين وعبدة ودكالة إلى الهجرة إلى الغرب والفحص. ومنهم من استقر حول سوق جمعة للا ميمونة. وهاجرت قبائل من الجزائر إلى منطقة الغرب. وبينما عناصر من بني عودة المجاورين لتاهرت. وبعض أفرادها تولوا مناصب السلطة في عهد مولاي عبد الرحمن[23].

وخلال المرحلة المذكورة توافدت على منطقة زرهون أفواج من الريف ومرنيسة وجبالة وبربر الأطلس الكبير المستقرين بوادي العبيد والمجاورين لآيت شخمان وآيت حديدو. واشتغل (الروافة) بالمغارسة أي بالتعاقد على غرس الأشجار مع مشاركة في ملكية الأرض بعد فترة محددة. بينما اشتغل الآخرون كعمال زراعيين. وحافظت هذه المجموعات عبر الأجيال على الكثير من تقاليدها وعاداتها في المسكن والملبس والمطعم ؛ وأدخلت بعض الظواهر الحضارية كصناعة الخزف الريفي. كما حافظ الأعقاب على لهجات مناطقهم الأصلية إضافة إلى اللغة العربية[24]. ويبدو مع هذا أن منطقة زرهون ظلت تستقطب الوافدين على التوالي عبر التاريخ كما ترحل عناصر منها إلى مناطق أخرى[25].

المرأة والأسرة :

ليس هناك بون بعيد بين المرأة في هذا العصر وأختها في القرون السالفة. فهي على العموم متخلفة عن الرجل من الوجهة الثقافية. وحياة المرأة في الحواضر وأكثر

---

(22) استقصا، 9، 17، 21.

(23) *Michaux Bellaire, Le Gharb, in Archives marocaines, 20/1913*

(24) *Berthier, Essai sur l'histoire du Massif de M.driss, pp.142-145*

(25) *Op. Cit. p.148*. ويراجع أيضا :

الضعيف، تاريخ، ص 107. *F. Carette, Recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale, Paris, 1853*

البوادي محاطة بالأسرار بل إن هذه الحياة ملك لرب البيت وحده إلا فيما ندر. وأسمَى مثل للمرأة هو تلك السيدة الصالحة المتبتلة التي قد تصل إلى مرحلة المكاشفة. وهي في كل حال موضع تبجيل وتبرك من الفآت الاجتماعية على اختلافها. وقد نجد بين هذا الصنف من النساء مثقفات تلقين المعارف على شيوخ بارزين، وهذه الفئة محدودة العدد بالقياس إلى الذكور. بل لا يوجد مجال لموازنة متقاربة. وصوت المرأة غير منعدم في بعض المجالات السياسية. ولكنه يظل صوت العاطفة أو النفوذ الشخصي الذي يستظل بحماية الرجل القوي. وتجدر الإشارة قبل كل شيء. وبصورة موجزة إلى بعض السيدات البارزات في ميدان الصلاح والتصوف، وهو ميدان يشغل سلباً وإيجاباً. قافلة من الأحداث الموازية لحياة المجتمع والدولة، ومن بينهن آمنة الغمارية (ت 1260) وفاطمة هدوز السوسية وعائشة الأكمارية السوسية (ت 1336) ورقية بنت محمد بن عبد الله معن الأندلسي (ت 1087)، وكل هؤلاء ممن اغترفن من المعارف الدينية. ويذكر اسم الأميرة خناثة بنت بكار المغافرية ابنة شيخ إحدَى القبائل الكبرَى من البراكنة بشنقيط كإحدَى العالمات الصالحات. تزوج بها مولاي إسماعيل سنة 1087 / 1676. وحجت سنة 1143 / 1730 وقال أكنسوس: «رأيت خطها على هامش نسخة من الإصابة لابن حجر». وهي والدة السلطان مولاي عبد الله. قبض عليها علي ابن إسماعيل بعد توليته سنة 1148 وأخذ منها مالا كثيرا وهي مسنة، وضيق عليها في السجن حتَّى طلبت تدخل الفقهاء للفصل في نزاعها مع علي بن إسماعيل. ونهبت دارها بإيعاز من الباشا سالم الدكالي، وكانت وفاتها سنة 1155 / 1742 [26].

وبرز دور سيدات البلاط في محاولة حل أزمات العرش أو تعقيدها حسب نفوذهن ومدَى بعد نظرهن، وقد كان لهن دور مباشر في تنحية مولاي الذهبي الذي وصفته بعض الروايات بأنه كان بعيدا عن مثالية أسلافه في التشبث بتعاليم الإسلام وأن قسوته على سيدات البلاط أدت بهن إلى التدخل لدَى القضاة والعلماء والمفتين لتنحيته ونجحن في ذلك [27].

---

(26) استقصا، 7، 58، 131، 138، 158، تاريخ الضعيف. محمد الامام، الجأش الربيط، ص 20

(27) *Caillé, La petite histoire, pp. 10-14*

وشاطرت سيدات القصر في عهد سيدي محمد بن عبد الله حياة هذا العاهل التي هي أقرب ما تكون إلى التقشف ، وكان لهن نفوذ يتغاضى العاهل عن استعماله في بعض القضايا المحدودة . وكانت زوجته «للا الكبيرة» ذات ذكاء عظيم وبصر ثاقب[28] . وقد كان للأوروبيين ـ دبلوماسيين وأطباء وغيرهم فرصة التعرف أحيانا على حياة القصر العائلية وتسجيل معلومات عنها تختلف بين الحقيقة والدس .

وكانت «للا فاطمة» ذات شخصية قوية النفوذ بين نساء محمد الثالث ، ونشر ماريانو أريباس يالاو[29] خطاباً منها إلى الأميرة ماريا لويسا التي صارت فيما بعد زوجة كارلوس الرابع الإسباني كجواب على طلب هذه الأخيرة بشأن الأسيرات المسيحيات . وسجل بعض المؤرخين زيارات «للا فاطمة» لأضرحة كبار الأولياء وضريح مولاي إدريس بفاس وصدقاتها السخية على فقراء المناطق التي كانت تحل بها[30] .

وكان تعدد الزوجات ظاهرة فاشية في الأوساط القروية . كما كانت التقاليد تقضي بتفضيل المرشحات للزواج من بين أكثرهن سمنة[31] ، وذلك جرياً على الذوق العربي القديم الذي يحبذ النساء ذوات الأعجاز الضخمة مع خصر نحيف .

ولما كانت الشريعة تسمح للمرأة المتزوجة أن تدير أموالها الخاصة بحرية فقد كان الزوج لا يتدخل إلا إذا كانت تريد التصرف فيما تجاوز الثلث حتّى ولو كان لأعمال البر .

وتتعدد الزوجات في أوساط الرحل بنسبة عالية في شمالي إفريقيا . وقد أجري إحصاء في أوائل القرن 20م بالجزائر ، كشف عن 9 في المائة من حالات التعدد في الأوساط الحضرية و50 في المائة بين الأوساط التي تعيش على الترحل ؛ ومع ذلك فلم تكن توجد مشكلات أطفال ولا نزاعات أمام المحاكم بسبب التعدد[32] ، بل

---

(28) *Op. Cit. pp.52 - 55*

(29) مجلة تطوان، 1957م.

(30) استقصا، 8، 25.

(31) *Caillé, Op. Cit, p.81*

(32) *Ismaïl Hamet. Les Musulmans de l'Afrique du Nord, Revue du monde musulman . 22/1913*

سجلت ظاهرة الزواج بالاجنبيات في المغرب قبيل الحماية بعد أن فشت بالجزائر وتونس[33] .

إن قضية زواج الشبان والفتيات والأرامل مما كان يعد عملا شرعياً ينظر إليه على أنه عمل مبرور أيضاً . ولذلك اهتم مولاي إسماعيل بتزويج جند البخاري وبناتهم بعد تربيتهن وبلوغهن ، ويحظَى الأشراف بعناية خاصة في هذا المجال . وقد زوج السلطان محمد بن عبد الله عندما ذهب إلى تافيلالت سنة 1201 / 1786 من وجد بها من أرامل وعزاب[34] . وسجلت حالات البغاء ورواج الخمر بالمنطقة في النصف الثاني من القرن 13 / 19[35] .

وتطلب شفاعة المرأة في أحرج الظروف إما بعد متابعة شخص يوشك أن يتعرض لأشد العقوبات أو على إثر تمرد جماعي أو ثورة أمير أو غير ذلك . ويسهم النساء والأطفال جماعياً في التشفع لدَى العاهل إذا انتصر على حركة تمرد يلقى فيها القبض على المتمردين فيقوم النساء والأطفال عندئذ بالتضرع إلى السلطان باكين مسترحمين ، وفي غالب الأحيان يوخذ هذا الجانب الإنساني بعين الاعتبار فيما يتخذ من تدابير زجرية .

ونحن في هذه المرحلة بعيدون عن نداءات تحرير المرأة في المجتمع المغربي لأن الانحطاط الفكري كمّاً على الأخصّ ، ونوعاً بصفة عامة . شمل الرجل والمرأة على حد سواء ، ولقد كانت المرأة في المجتمع التركي وفي مصر ثم تونس خلال النصف الثاني من القرن 12 / 19م[36] موضع اهتمام يتزايد بشيء من السرعة ، في بوتقة التيارات السياسية والفكرية الي تجاذبت السياسيين والمثقفين عامة . غير أن المرأة تجد في الشريعة عند الاقتضاء ، ما يساعدها على استرداد حقوقها لكن فقط في ظل القضاء العادل والمتوفر ، وأيضاً في ظل الاستقرار السياسي .

---

(33) *ibid*

(34) ضعيف، ص 201.

(35) عباس المراكشي، إعلام، 7، 52.

(36) *Béchir Tlili, Etude d'histoire sociale tunisienne du 19e siècle, pp.107, 119*

العادات والتقاليد :

تناول كاتب إنجليزي[37] مجهول في آخر القرن 17م ، وكان أسيراً في يد السلطة المغربية . شيئاً من أخلاق المغاربة وتقاليدهم فوصفهم بالإفراط في الغيرة على النساء والتقاعس عن العمل إلى حد كرهه . ويفضل المغربي حسب وجهة نظر هذا الكاتب أن يعيش فقيرا من خدمة حقل واحد على أن يترفه بخدمة حقلين ، ويصف مولاي إسماعيل بالقسوة والجبروت والبطش بالأسرَى إذا تهاونوا في العمل ، ولكنه يؤكد أن لا وجود للسراق في طرق المغرب . وبعد قرن ونصف من التاريخ المذكور يتحدث ملاحظون أجانب آخرون بدقة أكثر عن أحوال المغاربة الخاصة والاجتماعية . ويرَى «شارل ديدبي»[38] أن المغاربة المنحدرين من الفينيقيين (ولا يمكن علمياً عزل هذا الصنف عن باقي المغاربة) جبناء ، متواضعون مع القوي . وقحون نحو الضعيف ويبدأ وقت نشاطهم عند الفجر حيث يتوضأون ويصلون ويتناولون فطورا من قهوة ولاعوق فواكه مجففة . وقد يدخنون «الكيف» . ثم يركضون بخيلهم ساعة أو ساعتين لتناول الغذاء بعد ذلك وهو من لحم متبَّل أو كسكس ، وفي المساء يتعشون ثم ينصرفون إلى المقهَى أو المسجد ليعودوا إلى عشاء ثان من حريرة أو غيرها ثم يضطجعون للنوم ، ولاحظ «هوفر»[39] أن عرب بني هلال يحافظون على التقاليد الرعوية والحربية المعروفة لدَى عرب اليمن ، وعدهم مجتمعا بدائياً سيان عنده الاحتفال بطفل أو فرخ دجاج (!) وهم يخصصون خيمة في مداشرهم للمسافرين من أجل استضافتهم .

ووصف «ديدبي»[40] جمال المرأة اليهودية بأنه رائع جذاب وذكر أن اليهود يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم وتقاليدهم ويمزجون تعاليم الدين بالأساطير ويتكلمون جميعا الإسبانية ، وهم محتالون إلى درجة تجعلهم يحتكرون التجارة ويتفوقون على المغاربة المسلمين ، واليهودي كما يقول هذا الكاتب لا يتكلم ولكن يُسِرّ في الآذان كسجين يخشَى أن يوقظ جلاديه النائمين (كذا). وسماجته تجعل ناظره يتقزز منه لأول وهلة.

---

(37) *Le Bel, Hespéris, 4/1929*

(38) *Hœfer, Op. Cit. p.262*

(39) *Op. Cit. p.264*

(40) *Op. Cit. pp.264 - 266*

وتختلف هذه الصورة البغيضة التي رسمها الكاتب المذكور عن الحقيقة في معظم أنحاء المغرب ـ فيما يخص اليهود ـ وعلى سبيل المثال كانت ترد الأوامر من السلطة العليا إلى العمال بالرفق باليهود في التكاليف المالية وغيرها ، وبهذا الشأن يتحدث خطاب ملكي عن وضعية اليهود بتطوان[41] : «... وحيث حصل لهم الضعف ولم يبق فيهم تجار كبار يعينونهم على الجزية كعادتهم ـ طلبوا الرفق بهم لما تيقنوا من إيصائنا بهم خيراً ، فاعلم أنا لا نكلفهم إلا بما يطيقونه ، وعليه ـ فاقبض منهم الجزية بقدر حالهم الآن ـ والسلام»[42] .

وتأخذ مساعدة المحتاجين والفآت الضعيفة شطرا كبيرا من اهتمامات السلطة العليا فضلا عن كونها تعتبر فرضاً تضامنيا على المجتمع الذي يتبرع الموسرون والمتوسطون منه تلقائيا في سبيل أعمال البر ـ وتوجه التعليمات إلى العمال بعد استيفاء الزكوات بتوزيع مبالغ معينة على ذوي الحاجة من السكان والذين تأبى كرامتهم أن يمتهنوا التسول فتسجل لائحة بعناوين بيوتهم والمبالغ التي يتقاضونها لتزويد السلطة المركزية بها[43] . والاهتمام بأوضاع السكان يختلف من المساعدات المالية إلى العينية أو يتخذ صورة تسهيلات معينة[44] . وهناك عملية إعذار أطفال الأسر الفقيرة التي تجري في مناسبات دينية على نطاق وطني مع بعض المساعدات المادية .

والتقاليد والعادات الشعبية تتفق من بعض الوجوه وتختلف في أخرى حسب المناطق وطرائق العيش بها ومدَى تأثر بعضها بالبعض الآخر ، وهناك مثلا عادات معينة خاصة بالزواج أو الاحتفال بمولد طفل أو وشم شخص ، والاختلاف فيها يشمل المدن والبوادي معا[45] .

وإلى عهد متأخر نسبياً من الحماية كانت السلطة تسمح إما مجاراة لبعض الطوائف أو رغبة من الحماية في تأكيد تخلف المجتمع المغربي بقبول ممارسات من

---

(41) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 68.

(42) انظر أيضا، م.س. ج 8، 63، 68، 72، 154، 272.

(43) ن.م. ص 347، 350.

(44) م.س. ج 6، 34، 38، 39، 42.

(45) يراجع : ابن سودة، قبيلة زعير. الصبيحي، باكورة الزبدة (م.خ.ع. الرباط)، ومجموعات :
Archives marocaines, Archives Berbères. Revue Africaine, Hespéris.

طرائق دينية ليست من عقائد الإسلام في شيء . وهكذا ففي بعض المدن يخصص رابع عيد المولد النبوي للعيساويين الذين يفترسون اللحم نيئا بدمائه ؛ وتتبعهم في ذلك طائفة اكناوة . وفي سابع العيد يقوم الحمدوشيون بشخد رؤوسهم بالحديد فتسيل دماؤهم ويمرون كالعيساويين . هكذا في موكب في أزقة المدينة على مشهد من السكان[46] .

وفي النطاق الرسمي تجري حفلات المولد بشكل بهيج حيث تخصص ليلة المولد للأمداح النبوية بالمساجد ؛ ويستمع العاهل بأحدها إلى قصائد شعرية تلائم المناسبة . ويقوم العاهل بتوزيع عطايا مالية ونقدية تشمل الجيش والموظفين والعلماء وغيرهم[47] .

ويساهم التجار والحرفيون في المدن ؛ وكذا سكان البوادي في تخصيص هدايا نقدية أو عينية تقدم إلى العاهل في كل من الأعياد الثلاثة : الفطر والأضحَى والمولد ؛ ويتولى تقديمها في حفل استقبال رسمي بمحضر العاهل وفود الأقاليم برئاسة ولاتها . وتقديم الهدايا عادة قديمة يمكن إرجاعها إلى العهد المريني على الأقل . وعرفت في العصر العلوي ابتداء من عهد مولاي رشيد[48] ؛ ويبدو أن أكثر الولاة كانوا يقومون بعمليات ابتزاز حقيقية من السكان خصوصا بالأرياف لتحصيل أكثر ما يكون من المبالغ التي يقتطعون منها ما يحلو لهم اقتطاعه .

وقد يدعى السكان إلى إقامة حفلات عامة أو حضورها على إثر إبلال العاهل من مرض خطير[49] أو لسبب آخر يقتضي ذلك . كما أن المجتمع الذي يعيش في أغلبيته الساحقة على البؤس أو الكفاف يبحث عن الترفيه كلما واتته الفرصة ؛ وكان إهداء فيل من بلاط انجلترا إلى العاهل المغربي سنة 1309 / 1891 مناسبة لاستقبال شعبي كبير بفاس أسهم فيه حتَّى النساء والأطفال ؛ وكان الفيل من الهند يرافقه مروضه الهندي أيضا[50] .

---

(46) صبيحي، باكورة، ص 12.

(47) استقصا، 7، 184، و9، 149.

(48) زياني، بستان، ص 22.

(49) استقصا، 9، 118.

(50) *Coufournier, Chronique de la vie de Moulay El-Hassan, in Arch, maroc. 8/1909*

على أن للشعب حفلاته الخاصة التي لا شك أن «التبوريد» أي إطلاق الرصاص جماعيا بينما يركب الرجال خيولهم وهي تركض ركضا، أهم مظهر اجتماعي لها. ويكون «التبوريد» في حفلات الاستقبال وفي الأعراس والختان و«الحدقة» أي عندما يحفظ طفل أو مجموعة أطفال حداً معيناً من سور القرآن الكريم[51]. لكن المواسم التي هي احتفالات سنوية بذكرى شخصية من بين الأولياء على الأخص تعد تظاهرات شعبية كبرى تسهم فيها وفود القبائل المجاورة للولي المحتفل به وكذا سكان بعض المدن ؛ وربما توافدت الوفود من مختلف جهات البلاد كما هو الشأن في الاحتفال بموسم مولاي عبد السلام بن مشيش ؛ وقد ترد حتّى من خارج المغرب[52]. وتسهم هذه المواسم في رواج المواد الغذائية والاقتصادية عموما كما أنها وسيلة اتصال اجتماعي وربما ساعدت كالأسواق على إعداد مخططات سياسية أو جلبت مزيداً من الاتباع للطائفة المنظمة للموسم.

وفيما يرجع إلى الثياب والملابس المستعملة فهي غير موحدة ولا قارة ؛ ولكن هناك بعض أصناف اللباس لم تتغير من العهد السعدي كالقفطان والفرجية. كما أن المضمة عرفها المغرب من عهد بني مرين ؛ والبرنس أو السلهام له وجود عريق من العهد الفينيقي. وقبل عدة قرون من العصر العلوي عرف المغرب الملف بمختلف ألوانه عن طريق إسبانيا ثم بعد ذلك عن طريق انجلترا. ومن مصطلحات الألوان الرائجة: «العكْري ؛ والكبريتي ؛ والسكري والشبي. الخ...»[53].

وقد لاحظ «دوشيني» في القرن 18م أن سكان البوادي يلبسون ثياباً صوفية من صنعهم ولا يرتدون قيصاً ولا تباناً. وحسناوات نسائهم يتلثمن. أما أهل المدن فيعرفون استعمال القميص والتبان كما يتمنطقون بمضمة فوق القفطان (أو البرنس). وحتّى نهاية القرن 19م لم يكن يسمح لليهود بارتداء غير السواد[54]. غير أن نسائهم يرتدين الثياب الرائعة المزخرفة بخيوط الذهب والتي تتناقض مع لباس الرجال القاتم[55].

---

(51) تفاصيل بعض الحفلات الشعبية في قبيلة زعير لابن سودة، ص 88 ــ 100 و 102.

(52) انظر عن موسم درقاوة ببني زروال مثلا : محمد البشير الفاسي، قبيلة بني زروال، ص 23 ــ 24.

(53) ضعيف، تاريخ، ص 226 ــ 227.

(54) *Caillé, La petite histoire, 2, 60 - 82*

(55) *Hœfer, Empire, p.266*

وذكر ملاحظ فرنسي[56] في منتصف القرن 19م أن لباس البربر يتكون من سراويل قصيرة وقميص فضفاض من القماش الأبيض مع حزام فوقه. لكن شيوخ القبائل يرتدون إلى ذلك قفطانا من القماش أو الحرير أو الملف. أما لباس الرأس فعمامة تحيط بطاقية حمراء. ويرتدي النساء إزاراً أبيض ويتمنطقن فوقه ويستعملن الاقراط والأساور والخلخال.

وحتّى مطلع القرن العشرين وأول الحماية نجد الأزياء لا تتغير كثيراً. فسكان الغرب مثلا كما وصفهم بيلير وسلمون[57] ، وبالأخص عرب الخلط والطليق يرتدون القشابة وهي قميص من قطن لا أكمام له ولا حزام عليه. لكن عمال المزارع قد يتمنطقون بحزام أحمر أو بشريط من الدوم، وقد يتخذون الحايك الذي يصنع بالقصر الكبير ويلبس الموسرون التشامير مكان القشابة. وهو قميص له أكمام طويلة وعريضة، وكثيرا ما يستعاض عن الحايك بالجلابة، وقلما يستعمل الخلط أو الطليق السراويل إلا في الحفلات أو عند الركوب. ويضع الشباب على رؤوسهم منديلا من القطن ملونا أو مطرزاً، ويصنع بألمانيا ويباع في القصر. أما «الشكارة» فيستعملها الموسرون وحدهم. والسلهام يكون فوق الحايك. وهو من الصوف أو الملف، ولونه أزرق مفتوح، وهو مخيط من الأمام.

ولباس المرأة عند الخلط والطليق بسيط، وهو إزار من قطن أبيض من 16 ذراع تنشطر إلى شقين متساويين نخاطان. وتشد المرأة الإزار على صدرها بمشبكين من الفضة أو النحاس يدعيان «كتْفية» وتتمنطق بحزام شبيه بلباس الرأس أو غيره، وقد ترتدي تشاميرا تحت الإزار، وظل نساء البادية حتّى الفترة المذكورة لا سراويل لهن ويسرن على العموم حافيات. لكن يلبسن شرابيل حمرا في الحفلات تدعَى «أرحية».

وكان الزي التركي المركب من معطف وصديري كلاهما بأزرار وسراويل فضفاضة لباس شباب عدد من المدن كفاس وتطوان والرباط وسلا. بينما ظل الزي السعدي المركب من القفطان والفرجية أو المنصورية لباس المسنين وبخاصة الفقهاء. لكن المنصورية اختص بها النساء.

---

(56) *Venture de Paradi, Cité par Op. Cit. p.397*

(57) *Michaux Bellaire et G. Salmon, In, Archives marocaines, 4/1905, pp.80-88*

وبقيت الأكلة الوطنية المفضلة في كل الأوساط هي الكسكس . ولكن بالنظر لتكاليفها النسبية فهي ليست في متناول الأسر الفقيرة إلا في أحوال معينة . وعلى العموم فإن تناول اللحم يكاد يقتصر على الأوساط الغنية والمتوسطة الحال سواء في المدن أو البوادي . وهذه الأخيرة لا تكاد تستهلك الخضر ، وهناك جهات لا تتناول خبز القمح بل أساس غذائها الذرة أو الشعير . ومن الذرة يصنع كسكس يتناول مع اللبن ، ويدعى حينئذ بالحلحول ، ولا يؤكل اللحم في الأوساط الفقيرة إلا نادراً وبالأخص في الحفلات ، وحتّى الشاي مازال وقفاً على الفآت الغنية والمتوسطة ! [58] .

ومن الطريف أن الشاي كان موضع منظومات وتآليف ومساهمات أدبية . وبخاصة منذ بداية القرن 13/ 19 . وكان هناك من الفقهاء من ينظر إليه نظرة معادية لأنه «شراب فاسد !» [59] . وإذا كان للخمر وجود قديم بالمغرب كما في أقطار إسلامية وغيرها فإن مؤسسات الحكم في أوج قوتها وتدخل الفقهاء وممثلي الأمة كان يكفي لإغلاق الخمارات التي يشرف عليها اليهود عادة . ولحساب مواطنيهم اليهود أصلا . لكن الأمور اختلفت وتعقدت بعد حرب تطوان . حيث أول الاسبان على الأخص . الاتفاقيات التجارية بحرية بيع ما شاؤوا حتّى ولو حرمته قوانين البلاد وشريعة الإسلام . وهكذا عمد الاسبان من الخواص إلى فتح حانات في كل المدن تقريباً . كالرباط وآسفي ومراكش [60] وما كانت تجدي تدخلات الحكومة لدَى الممثلين القنصليين بطنجة ، وهي تدخلات أصبحت تكتسي مع الأيام طابع لفت الانظار ورفع التقارير مع استعطاف لا يؤدي إلى نتيجة في الغالب ، ولأجل ذلك حاولت السلطة العليا سنة 1283 / 1866 أن تعمل على إغلاق مقاهي الموانئ التي كان جلها يديرها أوروبيون ، وكان بعضها يستعمل أيضاً لإيواء المسافرين . وبالأخص الرقاصة (سعاة البريد) بالإضافة إلى فتح أبوابها للمخمرين واستعمالها كدور بغاء أحياناً . ولكن القناصل وقفوا إلى جانب رعايا

---

(58) *Bellaire et Salmon, Op. Cit.pp. 119 - 120*. ووردت أثمان بعض المواد الغذائية سنة 1825/1241 عند *Caillé, Op.Cit. p.176*

(59) عبد العزيز بنعبد الله الموسوعة المغربية للاعلام البشرية، مادة أتاي.

(60) مجموعة الوثائق 41، 296 — 297، و 371 — 374 و410.

بلادهم كما لو كانوا هم حكام المغرب . وهكذا توقف أمر إغلاقها مدة قبل أن تتخذ السلطة موقفا حازما[61] . وكان بين أرباب المقاهي بعض الايطاليين والبرتغال فضلا عن الاسبان ، وبينهم عناصر يهودية ، وللمقاهي أيضا وجود قديم بالمغرب حيث كانت معروفة بالرباط في عهد حركة الجهاد البحري (قرن 11 / 17م) .

الأوضـاع الصحيـة :

تميزت القرون الثلاثة الأخيرة قبل الحماية بانتشار الأوبئة على فترات متقاربة أو متباعدة . وكثيرا ما يستمر الوباء سنتين أو أكثر . وفي الغالب يشمل أنحاء البلاد وقد يشمل أقطارا مجاورة إذا لم يحمله مسافرون منها . كما أن المجاعات المتواصلة تؤثر بدورها في الأوضاع الصحية مع التقهقر الذي حصل في بناء المارستانات وكانت قبل هذا العصر تقتصر على قليل من المدن فتوقف نشاط بعضها وتضاءلت موارد الباقي مع تقهقر في وسائل العلاج ونقص الأطباء . وهذه لائحة بأخطر الأوبئة وأشهرها :

1 — وباء استمر من 1087 إلى 1090 / 1676 — 1679 ، وكان ظهوره بتطوان وضواحيها . وقد أشار إلى وفاة الفقيه عبد الله الرثوث بتطوان سنة 1087 من الطاعون،مؤلف معاصر[62] . وفي السنة التالية انتشر الموت بالسكتة القلبية مع الطاعون بهذه الناحية . كما انتشر السعال بفاس وبرد الجو صيفاً بعد أن كان دفيئاً في الشتاء . كما نزل المطر في الصيف أيضا ، وفي 1089 انتشر الوباء بعامة المغرب وشمالي إفريقيا إلى 1090 «فكان العبيد يتعرضون بسبو على الطرقات يردون الناس عن مكناسة . وكذلك كانوا يتعرضون بسايس ، وكل من يأتي من فاس يقتلونه . فانقطعت السبل»[63] . وحسب الضعيف . فإن الطاعون قد استمر إلى 1096 / 1684 .

2 — وباء 1154 — 1155 / 1741 — 1742 . قال الضعيف بشأنه إنه كاد

---

(61) ن.م. ص 358 — 365.

(62) محمد داود، تاريخ تطوان 1، 345.

(63) ناصري، استقصا، 7، 60 — 61. أكنسوس، جيش، ص 70. زناتي، بستان ص 33. ضعيف تاريخ، ص 62 الى 70. *Hœfer, Empire du Maroc, p.360*

يفني عبيد الرملة (جيش البخاري بالغرب) وكانوا 60 ألفاً فبدأوا يضعفون من هذه السنة . كما أفنَى عددا من المدن كمكناس وفاس وزرهون ، ومات بالقصر الكبير 14 ألفا .

3 — وباء 1163 / 1749 حدث وباء عام بالمغرب مع توقف المطر وحدوث الجفاف[64] .

4 — وباء 1166 / 1752 حدث بعموم الشمال الإفريقي عن طريق حجاج البواخر القادمة من القسطنطينية[65] .

5 — وباء 1212 / 1797 اجتاح حواضر المغرب وبواديه واستمر إلى 1215 . وكان انتشاره فيها سنة 1213 خصوصا بمكناس وفاس حيث أفنَى أسراً بكاملها . وكان ممن توفوا بالوباء سنة 1212 عدد من الأمراء البارزين والكاتب الوزير محمد بن عثمان ، ويظهر أن الوباء بلغ منتهَى خطورته سنتي 1214 — 1215 (1799 — 1800) حيث ارتفع معدل الوفيات بتطوان يوميا إلى 130 أو 150 . وكان بين ضحاياه علماء بارزون كالمفتي محمد الجنوي ، وبلغ مجموع الوفيات فيما قيل 50 ألفا بمراكش و65 ألفا بفاس و5 آلاف بآسفي و4500 بالصويرة . وحمل هذا الوباء من طريق الحجاج القادمين من مكة[66] .

6 — وباء 1234 / 1818 ، وقع أيضا على إثر دخول الحجاج القادمين من مكة حيث نقلتهم سفينة بريطانية تدعَى التاج . من ميناء الإسكندرية إلى طنجة . وكان ذلك في مايو من السنة المذكورة وتلتها باخرة في مطلع يونيو من الإسكندرية أيضا . واجتاح الوباء البلاد في بضعة أشهر بعد أن رفضت السلطات الحجر الصحي الذي طالب به القناصل بطنجة ، وفقدت طنجة وحدها أزيد من خمس سكانها البالغ عددهم أزيد من 10 آلاف ، وكان من ضحاياه الشيخ العربي بن المعطي بن صالح الشرقاوي دفين أبي الجعد . وقدر عدد الوفيات بتطوان يوميا بثمانين .

---

(64) ضعيف، ص 120 — 123. ناصري، 8، 84.

(65) سلفاتوربونو، مجلة الأصالة، ع 1972/1392/7. *Hœfer, Op. Cit, p.367*

(66) زياني، بستان، ص 178. ناصري، 8، 106. داود، مختصر، ص 111. *Hœfer.p. 372*

وتعطلت حركة المواصلات البحرية مدة طويلة عن طريق طنجة التي كانت جل البواخر ترفض الرسو بها ولزم أكثر الأوروبيين بيوتهم بهذه المدينة مدة سنة ، وكان هذا الوباء على إثر مجاعة سببها اجتياح الجراد فيما بين 1810 ـ 1816م . ولكن الوباء كان عن طريق نقله من الحجاج كما تقدم[67] .

7 ـ وباء 1271 ـ 1272 (1854 ـ 1855) وهو وباء كوليرا شأن معظم الأوبئة التي اجتاحت المغرب ، وتوفي منه بالرباط حوالي 6 آلاف معظمهم يهود وبتطوان حوالي ثلاثة آلاف[68] .

8 ـ وباء 1285 / 1868 وهو أيضا وباء كوليرا وكان عاما[69] .

9 ـ مرض الجذري الذي سجلت حالات كثيرة منه بالرباط 1290 / 1873 حيث أفنَى عددا كبيرا من الأطفال[70] .

10 ـ وباء 1295 ـ 1296 (1878) وكان أيضا «كوليرا» عامة بالمغرب مصحوباً بمجاعة شديدة خصوصا بالبوادي حيث تدخلت الدولة لمساعدة السكان بالمواد الضرورية . ثم حدث وباء الحمَى الذي هلك منه الصدر الأعظم موسَى بن أحمد كما تسلط على الفآت الموسرة . ويحتمل أن يكون تسمما من مواد معينة[71] .

11 ـ وباء 1313 ـ 1314 (1895 ـ 1896) وهو وباء كوليرا ، ويسميه المغاربة «بوكليب» (بكاف معقودة) وحل أيضا عن طريق الحجاج الذين نزلوا بطنجة واجتاح البلاد حتَّى أطرافها جنوباً وتسلط على الجيش أثناء توجهه إلى الرحامنة . فهلك منه كثير[72] .

كانت السلطات عاجزة عن وضع حد لهذا الوباء المدمر لعدم اكتشاف التعقيم

---

(67) مختصر تاريخ تطوان، ص 116. Hœfer, Op. Cit. p.376.Miège, Le Maroc et l'Europe, p.22
الناصري 8، 133 ـ 134 Caillé, La petite histoire, 2, 166

(68) مختصر تاريخ تطوان، ص 123. عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة، 4، 163.

(69) موسوعة 4، 164. ناصري، 9، 119.

(70) مجموعة الوثائق، 3، 311.

(71) عباس المراكشي، أعلام، 8، 165. ناصري، 8، 106. 9، 164 ـ 165. داود، مختصر، ص 111. الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة، ص 400 Hœfer, p.372

(72) داود، مختصر، ص 217. Arnaud, Au temps des mehallas, p.116

ضده من جهة . ولرفضها الحجر الصحي على المسافرين بحراً من جهة ثانية . وكانت هناك حالات تثير الشفقة من غير أن تجد علاجاً ناجعا . ومن ذلك أن الأفاعي فتكت بأعداد كبيرة من الجيش بسوس سنة 1882م حيث كانت الوفيات يومياً من 10 إلى 20 وكذا الشأن في الدواب أيضا[73] وتوفي أحد الوزراء بعد أن تمزقت متانته سنة 1286 . وبمراكش تم عزل المجذمين خارج المدينة حيث مساكنهم ومسجدهم وسوقهم وحتَّى سجنهم ويشتغلون بالأعمال الفلاحية. وبحارة المجذمين هذه خصص لليهود منهم ملاح وبيعة ، وكان عدد المجذمين يُقدر بمائتين إلى ثلاثة مع أسرهم[74] .

ولم يكن المغرب يتوفر على أطباء على الطراز الحديث ، ولكن كان يوجد بعض الأطباء التقليديين الذين اكتسبوا الطب بالتجربة والممارسة وأحيانا بالدراسة العتيقة أيضا . وقد روَى الضعيف حالة فذة وغريبة حقا في بابها وإبانها ، حيث ذكر أن امرأة بمكناس كانت جسيمة ، فرضت ، وشق طبيب بطنها سنة 1102 / 1690 وأخرج منها علة بلغت 35 رطلا ، وشفيت المرأة بعد ذلك وعاشت سنين أخرى[75] . إن ممارسة الجراحة بالمغرب في هذا الوقت مع بدائية الوسائل شيء يثير الاهتمام .

وفي عهد مولاي رشيد عزل القاضي المزوار عن فاس فمرض مرضا شديدا . ثم جس الطبيب نبضه وشخص مرضه . فلما خرج من عنده قال : إن هذا الرجل لا دواء له إلا الرجوع للقضاء وإلا هلك قريباً . فلم يعد للقضاء وتوفي بعد قليل[76] .

ومن أبرز الأطباء محمد بن سعيد المرغيثي وهو شخصية مخضرمة عاصرت العهدين السعدي والعلوي . وينسب إلى مرغيثة من سوس . ومولده بمراكش . وكان يشخص الأمراض عن طريق تحليل بول المريض ، ومارس العلاج مدة ، وهو مؤلف «المقنع» في التوقيت . توفي سنة 1089 / 1678[77] .

---

(73) *Arnaud, Op. Cit. p.62*

(74) *Deverdun, Marrakech, pp.589 - 590*

(75) ضعيف، ص 74.

(76) عباس المراكشي، إعلام 5، 304.

(77) الكردودي، الدر المنضد، وص 147.

وإبراهيم بن علي من أطباء البلاط الاسماعيلي ، ومارس الطب في عيادة له بمكناس حيث كان يبيع الدواء أيضا على طريقة الأطباء من عهود قديمة . وهو أستاذ عبد القادر بن شقرون الطبيب المكناسي[78] .

وعبد الوهاب بن أحمد أدراق طبيب البلاط الاسماعيلي ومن علماء الطب في زمنه . وكانت عيادته بفاس أمام مولاي إدريس . حظي بتشجيعات مادية كبيرة من العاهل ، وتوفي سنة 1159 / 1746[79] .

وأحمد أدراق وهو طبيب السلطان محمد الثالث ومن أسرة عبد الوهاب أدراق الفاسية[80] .

وقد حل بالمغرب عدد من الأطباء الأوروبيين وبالأخص الفرنسيين ولاحظوا تخلف الأوضاع الصحية والطبية بوجه عام وجلهم استدعي لعلاج ملوك وأمراء وسيدات البلاط ، وبعضهم دعوا للإسهام في علاج المرضى من وباء عام[81] . غير أن مساهمتهم ضعيفة جدا بالنسبة للمجتمع المغربي لقلتهم ولأن استقرار بعضهم نهائياً بالبلاد لم يبدأ يأخذ طابعا هاماً إلا منذ أواخر القرن 19 وذلك إلى جانب دور الرهبان الذين كان لهم دور مشابه بالجزائر وغيرها[82] .

اليهود والأوروبيون :

احتل اليهود كما كانوا في العهود الماضية مقام الصدارة في الميدان التجاري . وكان لعدد منهم دور بارز في الميدان الدبلوماسي أيضا . وكان مَيْمَران مستشارا مسموعاً لدَى مولاي إسماعيل . كما تولى بن عطار باسم المغرب عقد معاهدة 1134 / 1721 مع انجلترا . وفي 1750 قام يهودي بسفارة إلى الدانمارك . وآخر وهو يعقوب بن ابراهام بمهمة مماثلة إلى انجلترا سنة 1177 / 1763 . وكان إيلي ليفي موظفا ساميا بطنجة .

---

(78) عباس المراكشي، م.س.ج 1، 188.

(79) ن.م.ج 8، 541.

(80) ن.م. ج 2، 370.

(81) مجموعة الوثائق، 3، 478 — 486. بنعبد الله موسوعة 4، 164، 212 *Le Bel, in Hespéris 4/1929. Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 459 et 468 - 471*

(82) *Y. Turin, in Revue d'histoire maghrébine, 1/1974 Tunis*

وحينما طلب رولاند فريجوس سنة 1082 / 1671 باسم فرنسا أن يحتكر مواطنوه التجارة الخارجية بالمغرب رفض مولاي رشيد متعللا بأنه لا يريد إلحاق ضرر برعاياه اليهود[83].

ولحماية المجموعات اليهودية بعدد من المدن والمراكز التي يكثر بها اليهود قامت السلطة المغربية كما كان الشأن منذ العصر المريني ببناء مزيد من الأحياء اليهودية المستقلة تدريجياً وهكذا أنشئ ملاح (حي يهودي) بريمة خارج مكناس وأسكن بالحي اليهودي القديم بها أهل تافيلالت الذين استقدمهم مولاي إسماعيل[84].

وبنى مولاي سليمان ملاح الرباط الحالي سنة 1225 / 1810[85]. كما قام مولاي الحسن بنقل يهود دمنات إلى حيهم الجديد بجوارها وحسب مذكرة ملكية تنص على تخيير اليهود بين عدد من الأماكن. فقد شيد الملاح على نفقة اليهود أنفسهم سنة 1304 / 1886[86].

وخلال أحداث الثورة الفرنسية سنة 1789 ظهرت حركة قوية مؤيدة لتحسين أوضاع اليهود في العالم. وأثناء ذلك كان مولاي اليزيد قد اعتلى عرش المغرب. وتتفق الروايات العربية والأجنبية على أنه كان يواجه اليهود وحتى الأوروبيين بالعداء. وهكذا فإن «الحزان» دَبيلا وهو الشيخ الديني للطائفة اليهودية بالرباط كان مقربا من السلطان محمد بن عبد الله. ولأجل ذلك يقول الضعيف[87] أمر اليزيد بنهب داره وجلده هو وأولاده وأخذ منه أربعة آلاف مثقال. وقام الأعوان بنهب يهود الرباط ومكناس والقصر والعرائش وتطوان وفتكوا بأبكارهم «حتى لم يبق لليهود بكر من بناتهم».

وفي 1280 / 1863 صدر ظهير يحفظ لليهود حقوقهم وينص على تفادي كل عدوان عليهم وعزز بتعليمات إلى ولاة الأقاليم. ولكن هذا لم يمنع السلطة من إجراء

---

(83) *Y. D. Sémach, Le Judaïsme marocain, in Bulletin d'enseignement, Mars 1936*

(84) استقصا، 7، 64.

(85) *P. de Cenival, in Hespéris, 1/1928, Rabat*

(86) *P. Flamand, Un mallah en pays berbère : Demnat, p.160*

(87) ضعيف، تاريخ، ص 225 — 226.

مسطرة المصادرة في حق اليهود المتهمين بمخالفات مالية[88]. ومن جهة أخرى أعطيت تعليمات صارمة إلى ولاة السلطة حتّى يحموا حق اليهود في عطلة يوم السبت وأعيادهم الخاصة وأن لا يكلفوا بالعمل من أية سلطة كانت في هذه الأيام[89]. كذلك فإن النزاعات الخاصة باليهود فيما بينهم يحكم فيها أحبارهم لا غير[90].

ووقف المغرب إلى جانب يهود الصويرة خلال سنة 1296 / 1879 عندما قام المبعوثون الدينيون الإنجليز بهذه المدينة، بمحاولة تنصير أبناء الطائفة اليهودية. ولزم تدخل السلطة المركزية دبلوماسياً لحسم المشكل[91].

وفي هذه الفترة بالذات كتب الرحالة الألماني لينس *Lenz* عن رحلته إلى تومبوكتو عبر الصحراء يؤكد أن يهود الجهات الأخرى من الشمال الإفريقي يكاد يقتصر نشاطهم الاقتصادي على التجارة وحدها. وأن قسما كبيرا من يهود المغرب يمارسون الصناعة التقليدية[92].

ولاحظ شارل دوفوكو سنة 1301 / 1883 تحفظ اليهود بالمغرب وحصر أسرارهم داخل الملاح الذي يضمهم. ومع ذلك فقد أصبحوا أكثر استعداداً من ذي قبل لتزويده بكل ما يريد من معلومات[93]. وقد كانت مهمة دوفوكو استعلامية لصالح الجيش الفرنسي والسياسة الاستعمارية.

وقدم «هوفر» عرضا قائما عن وضعية اليهود في القرن 19م وبالأخص في النصف الأول منه[94] وهو الذي سبق التحركات الواسعة التي قام بها يهود أوروبا وأنصارهم لتتبع أوضاع اليهود شرقاً وغرباً. بل إن هذه التحركات بدأ تنظيمها بكل من فرنسا وانجلترا خلال القرن 12 / 18م. وجاء في كلمة مدهشة في إبانها المبكر، للكونت دوكليرمون طونير: «يجب أن يرفض كل شيء لليهود كقومية وأن يعطى كل

---

(88) محمد داود، تاريخ تطوان 8، 157، 160.

(89) ن.م. ص 154.

(90) م.س. ص 271.

(91) مجموعة الوثائق، 4، 457، 467.

(92) *Sémach, Op. Cit. p.110*

(93) *Ibid*

(94) *Hœfer, Empire, pp.264 - 266*

شيء لليهود كأفراد» وكان هذا الدفاع سنة 1789 وآزره أو سبقه دفاع ميرابو والراهب جرجير *Grégoire* وآخرين . وبعد سبعة عقود من الثورة الفرنسية تأسس الاتحاد الإسرائيلي بباريز سنة 1277 / 1860 والذي تبنى على نطاق عالمي فكرة تحرير اليهود ونشر التعليم بين أطفالهم[95] وقامت فرنسا بفضل دعمها بدور كبير في تحريك يهود المغرب وتونس ضد السلطات الوطنية . وكان من المؤشرات التي تلفت النظر . أن أول من أخبر المخزن المغربي باحتلال فرنسا لمدينة الجزائر كان هو اليهودي ابن عليل قنصل المغرب بجبل طارق[96] وليست سلطة الحدود المغربية ولا عيون المغرب بالجزائر . وفي جميع الأحوال لم يكن المغرب يتوفر على وسائل الاتصال السريعة .

وتأكد المخزن من تطلع اليهود بعد انتصاب الاحتلال الفرنسي بالجزائر إلى دعم أقوى من الجهات الفرنسية ، حتّى إن فيهم من رفض سنة 1258 / 1842 دفع التزاماته المالية توقعاً لتدخل فرنسي بالمغرب[97] . وفي 1271 / 1854 حل بالمغرب اليهودي السير موزيس مونطيفيور من بريطانيا ومن المقربين للملكة فيكتوريا فتدخل لدَى السلطان من أجل العناية بأوضاع اليهود خصوصا في دمنات التي كانت تشكو باشاها . ثم عضدت الحكومة البريطانية مطلب اليهود وتضامن الممثلون الدبلوماسيون بالمغرب . فحصلوا على عزل الباشا[98] .

وفي 1272 / 1862 حصل الاتحاد الإسرائيلي ومقره بفرنسا على حق إنشاء مدارس يهودية بالمغرب . والواقع أن الأمور تمت بسرعة وبكيفية تكاد تكون فورية بعد إنشاء مكتب الاتحاد قبيل سنتين فحسب من هذا التاريخ ، وهكذا انشئت أول مدرسة للأطفال بتطوان ، ويرَى «سماش» أن الاتحاد ساند بكيفية فعالة الدول الاوروبية في «توغلها السلمي» . بل يرَى أكثر من ذلك أن الاتحاد الإسرائيلي قام بعمل حاسم في مسيرة الحضارة شرق وجنوب حوض البحر المتوسط وأنه من عوامل

---

(95) *Sémach, L'Abbé Grégoire et l'emancipation des Juifs, in Bul. de l'enseignement, n°116/1931 Rabat, pp.438, 441, 445*

(96) محمد داود، م.س. ص 196.

(97) م.س. ص 373.

(98) *Flamand, Un mellah en pays berbère, p.18*

إشعاع الفكر الإنساني(99) .

وأنشأ اليهود جمعيات قدماء التلاميذ ، وأولاها بطنجة سنة 1311 / 1893 فساهمت في العناية بالأطفال صحياً وغذائيا وساهم غيرهم من المحسنين رجالاً ونساء من اليهود في بناء شبكة صحية من المستشفيات بعدد من مدن البلاد كفاس ومراكش والدار البيضاء والصويرة(100) والواقع أن انفتاح المغرب على حرية التعليم بالنسبة للطائفة اليهودية والطوائف الأجنبية شجع زعماء اليهود في الداخل والخارج على مواصلة جهودهم بعد سنة 1862 من أجل الحصول على المزيد من الحقوق والامتيازات ، ولم يعد اليهود رعايا كإخوانهم المسلمين . بل تتولى الدول والمنظمات الأجنبية الكلام باسمهم لدَى السلطة المغربية التي عاش في ظلها أسلافهم منذ بضعة آلاف سنة .

وهكذا في سنة 1280 / 1863 وقعت حادثة قتل ذهب ضحيتها موظف إسباني واعتقل قتلته اليهود وهم من آسفي ، واسم القتيل مانطيا *Mantilla* ، وصدر الحكم بإعدام اثنين من المتهمين الأربعة . وحدثت لذلك ضجة بين يهود المغرب أدت إلى تواطئهم مع الصحافة الأجنبية وبعض الدول على التنديد بالمغرب وحكومته ، وأخيرا أوعزت حكومة بريطانيا إلى السر مونطيفيور أن يدرس أوضاع يهود المغرب عن كثب ويتدخل لدَى الحكومة المغربية من أجلهم . وفعلا توصل إلى استصدار ظهير من السلطان محمد بن عبد الرحمن في 26 شعبان 1280 / 5 يبراير 1864(101) وهو في الحقيقة لا يعدو التنصيص على معاملة اليهود بالعدل ومنع الإضرار بحقوقهم . ومثل هذا الظهير صدر غير ما مرة على شكل تعليمات أو خطابات ملكية من قبل . غير أن الطائفة اليهودية فهمت الظهير فهما متجاوزا فحتواه واعتبرته تمتعا بحقوق زائدة تخصهم لاسيما في الشؤون القضائية والادارية وبالنسبة ليهود المراسي حيث يوجد قناصل ، ومن ثم بدأوا يتطاولون على السلطة الوطنية فكان أن وقع توضيح إضافي لمضمون الظهير دفعا لكل التباس(102) . ومن ذيول

---

(99) *Sémach Op. Cit. p.113*

(100) *Op. Cit. p.115*

(101) مجموعة الوثائق، 4، 261 — 295، ناصري، استقصا، 9، 112 - *Deverdun, Marrakech, 1, 560-561*

(102) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 64 — 65.

التحديات اليهودية أن قام أحد المواطنين بتطوان واسمه عيسَى الريفي بقتل عدد من اليهود خارج أسوارها وتدخل القناصل مرة أخرى لأجل ذلك[103].

وبالرغم من إذلال الحكومة المغربية بتدخلات الأجانب لصالح الطائفة اليهودية المغربية وما حققته هذه الطائفة من امتيازات تتزايد مع الأيام. فقد ظل بعض الملاحظين الأجانب يرثون لحال اليهود وحدهم دون أن يلتفتوا إلى تدهور أحوال المجتمع المغربي كله بعد حرب تطوان.

وقد انتدب ساسة فرنسا وقادتها العسكريون دوفوكو سنة 1301 / 1883 لزيارة المغرب والاطلاع بدقة على أحواله. ودخل في صفة حبر يهودي. واتصل باليهود حيثما تنقل من أقصَى المغرب شمالا إلى أقصاه جنوباً. وكان ضيفهم حيثما حل. وتعرف منهم على الشيء الكثير عن أحوال البلاد وأحوال اليهود خاصة بالإضافة إلى الأوضاع السياسية للمغرب. وعاد دوفوكو إلى الجزائر حيث استقبل بلالا مغنية من لدن ضابط الشؤون الأهلية وخصصوا له حفلاً تكريميا[104]. وكتب تقريرا إضافياً عن «رحلته».

وأثار تهور أحد قواد دمنات وسوء معاملته لليهود تدخل الدول الأجنبية مرة أخرى وتم عزل القائد بشكل مهين وبني ملاح جديد لليهود يحميهم من مخالطة المسلمين[105]. وكانت هذه الأحداث فيما بين 1301 ــ 1312 (1884 ــ 1894). كما اشتكَى يهود مراكش إلى الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين سنة 1316 / 1898 ما يلقونه من سوء معاملة من باشا مراكش. فدعاهم العاهل إلى احترام القانون الوطني وسيادة البلاد بإطلاع السلطة الوطنية وحدها على ما يشكونه من مظالم[106]. ومع هذا فإن طيبوبة الأغلبية المسلمة مكنت يهود مراكش أن يؤسسوا في مطلع القرن العشرين م. أول مدرسة للاتحاد الاسرائيلي بها وأن تتجاوز

---

(103) م. داود، مختصر، ص 206، وانظر عن تطاول اليهود وتدخل الدول الأجنبية بشأنهم خصوصاً انجلترا، الوثائق 4، 313، 321، 328، 342 ــ 343، 377 ــ 380 : 462، 483، 487 ــ 508، 511.

(104) *Sémach, Bul d'enseignement, n°23/1936*

(105) *Flamand, Op. Cit, pp.18 - 20*

(106) *Deverdun, Op. Cit. p.562*

بيعهم في هذا الوقت بالذات ثلاثين بيعة[107] . وهذا التوسع الفكري والعقائدي الذي تلمسه اليد وتشاهده العين أقوى حجة على حسن التعايش المغربي وتطور تسامح المغاربة .

وشغلت العلاقة مع الأوروبيين ومبعوثيهم الرسميين شطرا كبيرا من اهتمام الدولة . وانشغل المبعوثون كما كان الشأن في العهد السعدي بقضية الأسرَى حتَّى السنوات الأولى من القرن 19م . بل إن عمليات الجهاد البحري على النطاق الشعبي استمرت فعلا إلى وقت متأخر من هذا القرن .

وكان الأسرَى الأوروبيون كباقي أسرَى العالم يباعون ويشترون في الموانئ التي تحل بها السفن التي اقتادتهم أو ينقلون إلى المدن الداخلية ، ومن المراكز التي كانت تستقبل الأسرَى ، الرباط وتطوان وسلا ومكناس ، وهم يعملون إما عند خواص بعد شرائهم . أو لدَى السلطات في أعمال مختلفة كشؤون المنزل أو البناء أو أعمال تقنية متنوعة ، وتتم مفاداة الأسرَى بنظرائهم من المغاربة أو من المسلمين غيرهم كالأتراك والجزائريين . كما تتم بالمال من هذا الطرف أو ذاك . والأسرَى الأوروبيون في أغلبهم فرنسيون وإسبان وبرتغال ، وبينهم جنسيات أخرى كالإنجليز والهولنديين . وكثير من الأسرَى كتبوا أو نشروا بعد تحريرهم تقارير إضافية عن أوضاع الأسرَى كما كتبوا عن أحوال المجتمع المغربي وأوضاعه السياسية ، وحفلت وثائق دوكاستري بمعلومات كثيرة عن الأسرَى ومفاداتهم[108] .

وكان للدول الأوروبية باستمرار ممثلون دبلوماسيون يستقرون ببعض الموانئ . وهذا التمثيل الدائم كان بدرجة قنصلية عامة أو قنصلية أو نيابة قنصلية . وقد دعي القناصل العامون منذ أواخر القرن 18م إلى الاستقرار بطنجة حيث عين فيما بعد نائب عن السلطان كان هو وزير الخارجية الذي يتفاوض مع هؤلاء الممثلين باسم العاهل والمملكة المغربية . ومن المراكز القنصلية العرائش والرباط والصويرة . والبلاد ذات التمثيل الدبلوماسي هي أنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة والبرتغال

(107) *Op. Cit, pp. 563 - 564*

(108) *De Castries, Sources (Alaouites). Ch. Penz, Les captifs français du Maroc, Rabat, 1944. Kœhler, in Hespéris, 2ᵉtrim 1928. Roland Le bel, in Hespéris, 4/1929. Caillé, Petite histoire du Maroc.*

واسبانيا والسويد والدانمارك وألمانيا[109] . ولم يكن للمغرب ممثلون قنصليون أو وكلاء إلا بجبل طارق وإيطاليا وتونس ومصر.

وتضطرب الروايات الأوروبية بشأن كثافة الأوروبيين بالمغرب خلال القرون الثلاثة التي سبقت الحماية ، وذلك لأن السياسة المغربية بشأنهم ، ارتبطت بسلوك الأوروبيين داخل المغرب ، وبمواقف الدول الأوروبية ونوع ارتباطاتها بالمغرب . لكن الوجود الأوروبي في أبرز حالاته كان فيه ما هو اضطراري وما هو اختياري حتَّى نهاية عهد السلطان محمد بن عبد الله ، والاضطراري يمثله الأسرى ، واللاجئون السياسيون الذين كانوا يتوافدون بالأخص على طنجة خلال الثورات والانتفاضات التي تحدث بأوروبا[110] . وتعد طنجة أقدم مدينة احتضنت المهاجرين الأوروبيين عبر القرون بالمغرب . أما الوجود الاختياري فيشمل المغامرين والتجار والمبعوثين الرسميين والعلوج الذين تحولوا عن المسيحية إلى الإسلام .

وبعد وفاة السلطان محمد الثالث وإلى وفاة مولاي سليمان 1822م أي لمدة تناهز ثلاثين سنة حدثت تطورات في العالم الأوروبي وفي علاقاته بالمجموعة الإسلامية والعربية . فقد وقعت الثورة الفرنسية وخرجت بفكرة تحرير الشعوب أي الاستيلاء الاستعماري عليها وتزعمت فرنسا وانجلترا قيادة الحملات ضد العثمانيين ، وهؤلاء طلبوا مساندة المغرب بما لديه من وسائل محدودة ثم جاءت الأحلاف الأوروبية تقرر الوقوف صفا واحدا ضد حركة الجهاد البحري وهذا ما سيؤدي إلى احتلال الجزائر وضرب الموانئ المغربية . وفي غمرة التكاثف الأوروبي ضد العالم الإسلامي لم يسع المغرب إلا أن يتحفظ مدة في سياسة الانفتاح التي انعم بها على أوروبا من غير مقابل يذكر قبل وفاة سيدي محمد بن عبد الله . ولأجل ذلك عمل مولاي اليزيد على طرد الرهبان أواخر 1204 / 1789[111] وقرر الجهاد ضد الاسبان بسبتة وناهض اليهود حتَّى ارتكب أعوانه اعتداءات عليهم مفرطة . فقد كانت الثورة الفرنسية كما سبق ذكره أول ما ظهر من استغلال اليهود بفرنسا للموقف وبالتالي لتهييء العالم لفكرة تقبل قومية يهودية بشكل متدرج .

---

(109) *Miège, Le Maroc et l'Europe, pp.23-24.*

(110) *Op. Cit. p.26*

(111) ضعيف، تاريخ، ص 242.

إن المغرب لم يغلق بابه في وجه الأوروبيين بالشكل الذي تصوره الكتابات الأوروبية فإن عهد مولاي اليزيد انتهى بسرعة ، وكل ما فعله مولاي سليمان أنه خفظ في سياسة التصدير وتقديم مزيد من التنازلات للأوروبيين . وبالمقابل فقد سجل الضعيف وجود أعداد تتزايد بسرعة بين الأوروبيين بالرباط سنة 1211 / 1796 ولاحظ أنهم كانوا يسيرون في أزقتها بالعشرين ، والثلاثين والأربعين ، وأنهم يصعدون السور والأبراج ويدخلون شالة راكبين ، وأنهم يرتكبون أعمالا غير أخلاقية . وسجل أن الموسرين من أهل الرباط صارت لهم صداقات مع الجالية الأوروبية وأنهم تأثروا بالنموذج الأوروبي في أبواب دورهم . كما أنهم يكرمون الأوروبيين «والمسكين ضائع» كما قال[112] .

وبالدار البيضاء التي ليس للوجود الأوروبي فيها تاريخ مضبوط منذ كانت «آنفا» كان يلاحظ نشاط اقتصادي تقوم به بعض الشركات الإسبانية كما سبقت الإشارة إلى ذلك في القسم السياسي خلال أحداث 1204 / 1790 وهذا بالإضافة إلى وجود تمثيل قنصلي لإسبانيا وانجلترا . ومنذ الثلاثينات من القرن 19م أصبحت هذه المدينة تستقبل المزيد من الأوروبيين من مختلف الجنسيات . ثم حدثت فترة ركود في أواسط هذا القرن بسبب الحرب المغربية الإسبانية ثم لوحظ تدفق الإنجليز والألمان بعد الفرنسيين ولم يحل مطلع القرن العشرين حتّى كانت الدار البيضاء قد أصبحت تضم أوروبيين من معظم الجنسيات الأوروبية . بل كان القناصل يتدخلون في الشؤون الداخلية للإقليم الذي تضاءلت سلطة ولاته منذ الثمانينات من القرن 19 . وحل محلها سلطة مزدوجة بسبب وجود ضابط فرنسي يشرف على تدريب الحامية مع ممثل أوروبي منتدب عن المجلس الصحي لطنجة[113] .

وكان للأوروبيين نشاط تجاري ببعض المدن الداخلية ، وهكذا كان بمراكش كثير من التجار والصناع الأوروبيين بمراكش في عهد السلطان محمد الثالث . ولكن الأحداث التي وقعت بالمنطقة بعده أدت إلى تقلص أعدادهم حتّى انحصرت في أفراد قلائل مدة طويلة إلى فجر الحماية[114] وبصفة عامة فإن المرحلة الممتدة بين

---

(112) ن.م. ص 334.

(113) *Miège, Les Européens à Casablanca, p.105*

(114) *Deverdun, Op. Cit. pp.533-555*

1261 و1284 (1845 و1867) شهدت تطورات حاسمة في تاريخ الاستيطان الأوروبي بالمغرب[115] . وهذا يعني بوضوح أن المستفيد الأول والأخير من حربي إيسلي وتطوان كان هو العنصر الأوروبي .

وكان لحركة التبشير وجود عريق بالمغرب ، وهي تبدأ بحركة الفرانسيسكان التي تأسست بفرنسا سنة 605 / 1208 ثم كان لها وجود بالشمال الإفريقي بعد سنوات في ظل التسامح الديني بأقطاره وبالأخص المغرب ، ولذلك رأينا المجندين المسيحيين تشاد لهم كنيسة بمراكش في عهد الموحدين . ويستقر بكل من فاس ومراكش وسبتة مبعوثون دينيون برتبة أساقفة ، وفي أواخر القرن 12 / 18م تركز المبشرون بموانئ البلاد . وبعد التطورات السياسية التي وقعت بأوروبا في أوائل القرن 13 / 19 تقلص نشاطهم بالنظر لرد الفعل من الشعب والسلطة العليا . وكان الأسبان في طليعة الآباء الفرانسيسكان من حيث النشاط والامتداد، وبعد حرب تطوان بسنوات قليلة اتسع نشاط هذا التنظيم المسيحي الذي لم يكن يحصل على نتائج تذكر بين المسلمين، بينما قام البروتستانت باجتذاب عدد كبير من اليهود إلى المسيحية وخاصة اليهوديات المتزوجات بمسيحيين كما أن جهود التبشير في الوسط اليهودي كان لها تأثير كبير بالصويرة خاصة على يد البروتستانت ، وهؤلاء كانوا تابعين لمؤسسة تبشيرية بدأ نشاطها بالمغرب بشكل قوي في السبعينات من القرن 19م . وقامت بعثة تبشيرية أخرى مركزها بالجزائر بإنشاء فرع لها بطنجة سنة 1302 / 1884 ومالبث أن أصبح مركزاً للبروتستانية بالمغرب وأنشأ مستشفَى بطنجة كما قام الفرانسيسكان بعمل مماثل فأنشأوا بطنجة مستشفًى سنة 1306 / 1888 ثم امتد النشاط الصحي إلى جانب بناء الكنائس وأعمال التبشير عبر عدد من المدن والمراكز كالدار البيضاء ومراكش فضلا عن الصويرة وفاس[116] الخ ..

وكانت سياسة التبشير تعتبر المستعمرات الإفريقية والجهات التي يؤمل استعمارها كالمغرب أرضا مفتوحة لا للاستعمار السياسي فحسب بل وللتنصير في أوسع نطاقه . وعبر هنري بوردو عن غضبه من وجود مسجد بداكار وخلو هذه المدينة من

---

(115) *Miège, Le Maroc et l'Europe, pp.473-500*

(116) *Villes et tribus, Tanger, pp.346-353. Miège, Op. Cit. Deverdun, Op. Cit. pp.559-560*
عبد العزيز بنعبد الله الموسوعة المغربية (بروتستانت)

كاتدرائية . وقال حفيد ارنست رينان . وهو إرنست بسكاري معلقاً على ذلك هو يضا : «... إنه لانْحطاطٌ حقيقي لجنسنا»[117] .

وانتقد مثقف أوروبي[118] سياسة الكاثوليك بتونس بعد احتلالها حيث لاحظ أن قادتهم ومبشريهم كانوا يستوردون من أوروبا وأن الذين ولدوا ونشأوا على الأرض التونسية يعيشون في عزلة عن الوسط الاسلامي وقال إن الكنيسة ظلت تحمل طابعا أوروبيا واستعمارياً إلى حين زوال الاستعمار عن المنطقة[119] ، ومن جهة أخرى سجل أن بين البروتستانت الفرنسيين عددا كبيرا من رجال الأعمال والمعمرين وكبار المسؤولين .

وامتزج الدم الأوروبي بشكل أو بآخر بالدم الوطني لفترة هامة ، وهناك على الأخص فئة العلوج التي هي عناصر أوروبية دخلت الإسلام بعد أن لجأت إلى المغرب لأسباب عائلية أو شخصية أو لاعتناق دين كان هو دين أسلافها كما هو الشأن في عدد من العلوج الأسبان ، وفيهم من يقع أسير حرب أو في عملية جهاد بحري[120] .

وأكد «كولير»[121] أن العودة إلى سجل العلوج الذين يعودون إلى دين النصرانية لا يذكر إلا حالات نادرة تثبت أن أغلبيتهم تظل بالمغرب وتعقب به . كما أن عدداً من العائلات المسيحية كانت تظل بسجون مكناس وبينها عدة أطفال . يلحق البنات منهم بالقصر ، ويوكل الأولاد إلى الفقيه لتعليمهم وتأديبهم .

وحيث أن الاوروبيين قد انفتحت لهم أبواب المغرب على مصراعيها بعد كارثة تطوان فقد شهدت بعض المدن ظهور طبقة جديدة من الموسرين والمترفين تعاملوا مع الأوروبيين واقتبسوا عنهم بعض المظاهر الحضارية «وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام

---

(117) *Gouraud, Mauritanie Adrar, pp. 323-325*

(118) *Pierre Soumille, Une thèse récente sur les Européens de Tunisie, in Revue d'histoire maghrébine, p.58/n°3/1975, Tunis*

(119) *Op. Cit, p.59*

(120) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 137.

(121) *Henry Kœhler, Quelques points d'histoire sur les captifs chrétiens de Méknès, in Hespéris, pp. 177-187, 2e trim, 1928, Rabat*

والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح . ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية»[122] .

وهكذا يبدو أن الوافدين الجدد من أوروبا خلال النصف الثاني من القرن 13 / 19م بدأوا يهيئون تدريجيا وبكيفية غير مباشرة . طبقة الأعيان التي تجنح إلى السلم ولا تتردد عند الاقتضاء في تقديم تنازلات أو تسهيلها للحصول على حماية مكاسبها الخاصة بفضل النفوذ الأجنبي .

---

(122) ناصري، استقصا، 9، 124.

الفصل الثاني
الحياة الاقتصادية

تميز الاقتصاد الدولي منذ القرن 11 / 17م بظواهر وتطورات جديدة :

1 — قيام عدد من الدول الاوروبية تباعاً بإنشاء شركات تجارية كبرَى . وبخاصة فرنسا وأنجلترا وهولندا مع تنافس شديد بينها شرقاً وغرباً ومحاولة من فرنسا لفرض هيمنتها على اقتصاديات البحر المتوسط ، لكن حركة الجهاد البحري عرقلت أساطيل الدول الأوروبية .

2 — ظهور أفكار اقتصادية علمية جديدة من أهمها على صعيد بعض دول الغرب تركيز أن المال يأتي عن طريق أقل ما يمكن من الاستيراد وأكثر ما يمكن من التصدير أو الصادرات ، وهذا أدّى إلى رفع الضرائب الجمركية ، بينما قامت في انجلترا على الأخص حركة موازية تدعو إلى التصنيع والزراعة قصد ضمان الرفاهية .

3 — في القرن 12 / 18م برزت الصناعة الكثيفة التي أخذت الصناعة التقليدية تترك لها المجال تدريجياً في الوقت الذي لم تتقدم الزراعة بنفس النمو . واستمرت المستعمرات تقدم المزيد من المواد الخام وموارد الثراء للدول الأوروبية وأنشئت العديد من المصارف بهذه الدول وانتشرت فكرة حرية التبادل التي برزت بانجلترا في القرن 17م والتي ظهر بها آدم سميث مقدما أفكارا اقتصادية جديدة كمحاربة ضغط الدولة اقتصاديا واعتبار العمال طبقة على حدة تجاه الملاكين والرأسماليين وإعطاء الأولوية للفلاحة .

4 — في القرن 13 / 19 تقدمت الزراعة الكثيفة بفضل الآلات والتصنيع الزراعي وتكوين الأطر الزراعية والتعاونيات ، وأخذت الاختراعات الكبرَى مكانا واسعا في التقدم الحضاري كالقطارات والهاتف والتلغراف اللاسلكي ، لكن حرية

التبادل حل محلها حماية الصناعات والمنتجات الوطنية واستمر انتشار المصارف وصناديق الادخار واتسع نطاق الملاحة البحرية[1].

وفي غمرة هذه الطفرات الحضارية كان المغرب يواصل فترة الركود والاستقرار في وسائله الاقتصادية البدائية كسائر القارة الإفريقية تقريباً ، مع مميزات لصالح مصر وتونس ابتداء من القرن 13 / 19م . غير أن ثروات المغرب وإمكانياته الطبيعية أغرت الأوروبيين بشكل مُلح وجعلتهم يسجلون تقارير كثيرة وبشتّى اللغات حتّى يحصلوا على تحرك عسكري من حكومات بلادهم للاستحواذ على ثروات المغرب واستغلالها وليضعوا حدا للقرصنة كما يقول كايي .

الفــلاحــــة :

أشار بيير ترال ، وهو أسير فرنسي عمل في البناء بمكناس حوالي سبع سنوات حتّى 1700م في تقريره عن أوضاع المغرب إلى خصوبة الأرض المغربية التي هي ذات قابلية لإنتاج أجود الحاصلات خصوصا القمح الذي يوجد بكثرة فضلا عن التبغ والملح والشمع والحيوانات من مختلف الأصناف ، كالإبل والبقر والغنم والوعول والخنازير الغابوية والحجل والنعام والحيوانات المفترسة كالأسد والنمر والضبع والثعلب والقرد[2] . وبعد ثلاثة أرباع قرون من هذا التاريخ سجل البارون سانطو تقريرا مشابها ، وتحدث عن غزارة القمح و«القهوة ؟» والسكر والصوف والشمع والصمغ وريش النعام والعاج والتبر وحتّى «الرقيق»[3] ...

وهكذا يبدو أنه بالرغم من الكوارث الاقتصادية التي كانت تحل بالبلاد على فترات متقاربة أحياناً ، ومع اندلاع حروب أهلية على الصعيد الوطني أو المحلي فإن الاهتمام باستغلال الأرض رغم بدائية الوسائل كان الشغل الشاغل لأغلبية السكان الذين تضمهم البادية ، وإذا كانت سهول الحوز والغرب وسوس وأحواض الأنهار وسفوح الجبال تساهم في ضمان إنتاج زراعي غير متكافئ ولكنه وفير في الغالب . فإن سهول الشاوية ودكالة قد بدأت تحتل مكاناً مرموقاً في الإنتاج الزراعي بعد

---

(1) *De l'Andelyn, Histoire universelle, pp.395, 433, 561*

(2) *Caillé, Op. Cit, 2, 25*

(3) *Ibid, pp. 100 - 104*

تحرير الجديدة ومنذ عهد السلطان محمد الثالث . وخلال القرن 13 / 19 صارت الشاوية مركزا عظيما لتزويد ميناء آنفا بصادرات الحبوب والمواشي على الرغم من السياسة الصارمة التي اتخذتها السلطات الحكومية غير ما مرة بشأن التصدير ، وهكذا أصبح مزارعو الشاوية موضع فخار رواد الاحتلال الفرنسي في أوائل القرن العشرين وقبيل الاحتلال . فوصفهم الجنرال كورو بكونهم شديدي التشبث بالأرض ذوي مخادعة فائقة غير متعصبين ، وقد اعتادوا على الاستقلال في ظل الفوضى التي خيمت على المغرب»[4] . وقد أعجب هذا الجنرال أيضا بمزارع الكتان التي تحيط بأزمور[5] . وشهد القرن 19م . أيضاً توسعاً هاما في زراعة القطن بدكالة ، حيث تم تصدير 600 قنطار سنتي 1864 ــ 1865 بأثمان مرتفعة نسبياً . وهذه الكمية ليست شيئاً بالقياس إلى مبيعات الولايات المتحدة سنة 1861 والتي بلغت أربعة ملايين ونصف مليون كيس . وقد جلب المغرب بعض الآلات من بريطانيا لحلج القطن ، ثم ما لبثت زراعة القطن أن بدأت في التراجع منذ 1283 / 1866 بالنظر للمزاحمة الأمريكية . كما أن المخزن رفض التنازل عن أي أرض زراعية للأجانب قصد زرع القطن ، لكن الزراعة الوطنية قاومت المنافسة إلى حد حتى إقرار الحماية . خصوصاً بالريف[6] .

والواقع أن النصف الثاني من القرن 13 / 19م قد شهد اهتماماً متزايداً بنشاط الري والزراعة ، وبالأخص على يد السلطان محمد الرابع ، وقد برز اهتمامه هذا منذ كان خليفة بمراكش فأحيى عدداً من العيون حولها كعين المنارة وعين أبي عكاز وأمر بإجراء قناة من وادي نفيس خلفت نهرا قديما،وإجراء قناة أخرى سميت بنهر فيطوط وجلبت من تاستاوت إلى البسيط الممتد بين زمران والرحامنة والسراغنة «فصار ذلك كله رياضاً مخضرة وبساتين ذات أزهار مفترة»[7] ، وهذه الروح الزراعية والإصلاحية هي التي أملت الاهتمام بزراعة القطن بإقليم دكالة كما أملت أيضا بعض المحاولات الإصلاحية في ميادين أخرى .

---

(4) *Gouraud, Mauritanie, p.307*

(5) *Op. Cit. p.312*

(6) *Miège, Le coton au Maroc au 19e siècle, in Bulletin d'enseignement, n°219/1952*

(7) ناصري، 9، 126.

وترتبط الزراعة بداهةً . بقضايا الأرض التي يعد القسم الأكبر منها ملكاً للجماعات أو للدولة ، ثم يأتي الخواص والأملاك الحبسية . وفي نطاق أملاك الدولة كانت تتم عملية إقطاع الأراضي الزراعية إما لقبائل تم توطينها أو ترحيلها أو لمجموعة من الجيش قد تكون جندا نظاميا وقد تكون هي نفسها قبيلة تقطع أرضا مقابل حماية المنطقة ووضع نفسها رهن إشارة الدولة عند الاقتضاء . وقد كانت عمليات الترحيل الجماعية تصحب كلها تقريبا بإقطاع يكون اختيار مكانه إجبارياً من الدولة . وسبقت الإشارة إلى هذه العمليات في الحديث عن البوادي من الفصل السابق . على أن هناك ما يسمى بالتنفيذات التي تخصص لافراد أو عائلات أو زوايا إما بمقابل أو بدونه . وعلى العموم فإن الإقطاعات عرضة للنقص أو الزيادة أو التغيير من مكان لآخر أو من شكل لآخر غير الأرض ، وقد تتعرض للإلغاء أو المراجعة كلياً[8] . ومن الإقطاعات غير العقارية . الإقطاعات الضرائبية كإقطاع مكس أو جمرك معين يستفيد منه شخص معين ، والإقطاعات التجارية الاحتكارية . كإقطاع مادة غذائية يستوردها شخص معين على نطاق محلي أو وطني وستأتي في عرض الحديث عن التجارة .

ومن البديهي أن كثيرا من الأراضي كانت موضع نزاع بين جماعات أو قبائل ، فضلا عن نزاعات الخواص ، وهكذا نجد أرض الفنيدق على البحر المتوسط قرب سبتة تخصص في عهد مولاي سليمان لقبيلة الحوز التي كانت تنازعها ملكية الأرض قبيلة أنجرة والتي تحولت إليها الملكية مرة أخرى فيما بعد وحتّى الآن[9] .

أما بيع الأراضي فكان يتم حسب مسحها بطريقة معينة ، وهو تقدير عدد «الزوجات» من الدواب التي يمكن أن تحرثها ، والزوجات جمع زوجة ، وهي عملية الحرث بدابتين . ويقع التراضي على الشفعة عند الاقتضاء ، ثم تحدد القسمة بعد البيع بشكل «مضبوط» بواسطة حبل وعلى طريقة عرفية محددة . وتقرأ الفاتحة بعد ذلك ثم تعلم القسمة الجديدة بحجر كبير .

---

(8) خصص الأستاذ عبد السلام غرميني دراسة عن تطبيقات الاقطاع بالمغرب بعد عرض عن النظريات الفقهية (دبلوم دراسات دار الحديث الحسنية، الرباط).

(9) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 15 — 16.

ويلاحظ تغير في مزروعات عدة جهات بعد إقرار الحماية . فقد اختفى من جل سهول المحيط شجر الزيتون الذي كان يغطي مساحات مهمة على الساحل كما كان له وجود أوسع بمنطقة الريف أيضا. ومناطق الأطلسي تميزت بجودة حنطتها وشعيرها وكثرة كرومها ، والخضراوات لا تزرع غالبا إلا حول المدن . وكانت فواكه الساحل الأطلسي رديئة في جملتها ، وعلى عكس ذلك فواكه بسيط سايس . وكان لزيت شجر الهرجان مقام كبير في الإنتاج والاستهلاك حيث يكثر جنوب الأطلس .

ومن بين الفواكه . البرتقال واللوز والجوز والتين والصبار الذي جلبت أظلافه من أمريكا . وكذلك كانت تجلب البطاطيس من أوروبا . ومن النباتات . الحناء والكتان والحشيش والترفس الذي تحدث عنه ليون الإفريقي . كما أن الغابات احتفظت بوضعها السابق فشملت أشجار البلوط (المعمورة) والأرز (الأطلس) والهرجان (جنوب الأطلس) وأنواعا أخرى أقل امتداداً كالصفصاف والعرعر والصنوبر[10] .

وبالإضافة إلى المواشي فقد لوحظ وجود حلاليف بدأ بعض الأوروبيين يعنون بتربيتها ورعيها على مشهد من السلطات والسكان المحافظين خصوصا منذ السبعينات من القرن 19م[11] . ولم تنجح التدخلات الدبلوماسية لسحبها أو ذبحها .

إن الثروات الزراعية والغابوية والحيوانية كانت تمنع نموها وتطورها عوامل متعددة منها : 1) الهياكل التنظيمية للبلاد والتي لا تهتم على وجه العموم بالإشراف على تنظيم استغلال الأرض والانتفاع منها للمالك والمزارع وللدولة والمستهلك إلا في أحوال محدودة . 2) الأزمات السياسية والنزاعات المحلية والحروب الأهلية . 3) ظروف القحط والمجاعة التي اكتست طابعاً خطيراً خلال القرنين 12 و13 (18 و19م) وفيما يلي أخطر المجاعات التي سجلت خلال ثلاثة قرون :

1 — مجاعة 1071 — 1074 (1660 — 1663) . سجل الضعيف فيما يخص 1071 ظاهرة غريبة حيث نزل ثلج عظيم مع سمك دقيق ، لكن المطر توقف عن النزول وقته مدة شهرين واستسقى السكان ولجأوا إلى قراءة القرآن وصحيح البخاري ، وتضررت ناحية فاس التي انتهب من ضواحيها قمح كثير وبدأ القحط من

(10) *Hœfer, Empire du Maroc*

(11) من مجموعة الوثائق، 4، 415.

هذه السنة. وأورد عبد الله العياشي مؤلف «الإحياء والانتعاش» مراسلة كتبها محمد ابن عبد الجبار العياشي وتصف المجاعة والفتن والحروب التي عرفتها سنة 1072 / 1661 وقد وجهها في حوالي 17 صفحة إلى شيخه أبي سالم أثناء مقامه بالحرمين. وأشار فيها إلى ما نال المدارس والبلاد من خراب، وما كان فيها من نهب القوافل. ولجوء كثيرين إلى الصحراء. من سكان المناطق الممتدة من زاوية الدلاء إلى ناحية أزمور، وأشار الكاتب الذي حرر هذه المذكرة بأسلوب رائع إلى أن المطر عاد ليسقي الزرع ويبل الأرض ثم ذكر عددا من القصور التي خربت بالصحراء. والوفيات التي حدثت خصوصا بفاس حيث تسلط على الفآت الموسرة داء في حلوقهم لا يسيغون معه طعاما ولا شرابا حتى يهلكوا جوعا، وقد ارتفعت هذه السنة أسعار المواد الغذائية بشكل غير معهود وذكر الكردودي أنه كفن بمارستان فاس 84 ألفا دون وفيات الأزقة، وأكل آدمي ميتاً جهارا قرب القرويين.

واستمرت هذه الأزمة الاقتصادية خلال 1073 وسنة 1074 حيث خلت حومات من سكانها وتهدمت مساجدها[12].

2 — مجاعة 1090 / 1679 هذه المجاعة يحددها الضعيف بالسنة التي بعدها، ولكن يظهر أن الناصري أكثر دقة بشأنها، وقد بدأت بعض علائمها سنة 1088 حيث عجز كثيرون عن شراء أضحية العيد لارتفاع أثمان الماشية بشكل لم يعهد قط. ثم ظهر طاعون استمر حسب الضعيف عدة سنوات حتى 1096 / 1684. وقد انحبس المطر سنة 1088 حتى اضطر الناس إلى أن يؤدوا صلاة الاستسقاء تسع مرات[13].

3 — مجاعة 1149 — 1150 (1736 — 1737) : ارتبطت بالحروب الأهلية مع شُحّ الأمطار. فارتفعت لذلك الأسعار وهلك عدد كبير من الناس جوعا وانقطع اللحم من الأسواق وبلغ ثمن القمح ثمان موزونات كما ذكر الضعيف. وهذا مع شدة الخوف وانعدام الأمن لكثرة الثوار بمختلف جهات البلاد، وازداد ارتفاع الأسعار سنة 1150 وكان اللصوص يهجمون على الديار ويقتلون دون مغيث

---

(12) العياشي : الاحياء والانتعاش، ص 247 — 263. ضعيف، ص 25 — 26. كردودي، در، و135 زياني، بستان، ص 23. ناصري، استقصا، 7، 104.

(13) ضعيف، ص 63 — 70، استقصا، 7، 104.

وأخلى عدد من سكان فاس دورهم فهدمت وأخذت أخشابها . واستغل الأسبان الفرصة لشحن كميات من المواد الغذائية إلى تطوان دون أن تتوفر أسباب الأمن لنقلها إلى فاس وقال الناصري بشأن هذه المجاعة : «وهلك من الجوع عدد لا حصر له ، حتّى لقد أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا سوَى من كفنه أهله ، هذا بفاس ، وليقس عليها غيرها»[14] .

4 — مجاعة 1155 / 1742 : يذكر الضعيف أن جل أهل فاس القديمة باعوا ديارهم من شدة الجوع المفرط وخرجوا إلى القصر ووزان والعرائش وتطوان وطنجة يتكففون بعيالهم[15] . وتعتبر المجاعة بالنسبة لفاس صورة قصوَى للأضرار الاقتصادية التي حلت بجهات أخرى لاسيما البوادي .

5 — مجاعة 1163 / 1749 : انحبس المطر مدة أخرى وحلت أزمة اقتصادية[16] .

6 — مجاعة 1190 — 1196 (1776 — 1781) كانت كل هذه السنوات فترة قحط حتّى أكل السكان الميتة والآدمي والخنزير ، وفي عام 1093 عم الجراد وَ ـت بعض أنواع الماشية كالبقر تنقرض . وفي 1195 خلت الأسواق من المواد الغذائية وقحطت البوادي واستمرت الأزمة إلى 1196 ، وبذلت سلطات المخزن جهوداً غير معتادة في التخفيف من الأزمة بمبادرة السلطان محمد الثالث الذي قدم هبات مالية ضخمة إلى سكان البوادي وضمن الخبز للضعفاء في مختلف الجهات كما أقرض تجار المدن أموالاً طائلة وبذلك كانت الأزمة أخف ضررا لطول مدتها[17] .

7 — مجاعة 1225 — 1234 (1810 — 1818) وخلال هذه الفترة الطويلة جدا كانت الأمطار تنحبس طوراً وتنزل بقلة طوراً آخر . ولذلك ارتفعت أسعار المواد بشكل غير معتاد وهلك من الجوع أعداد كبيرة وتوالَى زحف الجراد وعمت المجاعة أنحاء البلاد وقالت التقارير القنصلية بطنجة إن نصف سكان هذه المدينة

---

(14) ضعيف، ص 103 — 108. استقصا، 8، 83. مراكشي، إعلام، 8، 313.

(15) ضعيف، ص 123.

(16) أكنسوس، جيش، ص 124. زياني، بستان، ص 81.

(17) ضعيف، ص 185 — 188. أكنسوس، جيش، ص 155. ناصري، 8، 49.

كانوا يقتاتون من الحشائش ثم تلت سني المجاعة هاته سنة وباء الكوليرا[18] .

8 — مجاعة 1264 - 1268 (1847 — 1851) . جاءت في الواقع بعد فترة سابقة من التأزم الاقتصادي الذي لم تعره الكتابات المغربية اهتماماً يذكر والتي ابتدأت من 1241 (1825) كما يقول مييج بندرة المواد الغذائية وانتهت بمجاعة . غير أن الدولة لجأت إلى استيراد الحبوب من الخارج[19] . في الوقت الذي بدأت تخف فيه أزمة الحاصلات في السنوات الأخيرة . لكن سنة 1267 / 1850 كانت كارثة بالنسبة لمجموع الشمال الافريقي . فقد ضاع نصف المواشي وتضاعفت أثمان الحبوب عدة مرات . وحدثت أزمة خطيرة في النقل الداخلي بسبب موت الدواب التي نفقت جوعا . وفي غمرة انخفاض الأسعار بأوروبا سنة 1851م كان المغرب يؤدي ثمن الحبوب المستوردة في عين المكان ويشحن أصوافه ومنتجاته من الجلد ليبيعها بأبخس الأثمان بسبب قلة الطلب وكثرة العرض واحتياج البلاد إلى المال لشراء الحبوب . ووصف الناصري أزمة 1267 / 1850 وصفاً مؤثرا[20] .

9 — مجاعة 1283 — 1284 (1866 — 1867) وكانت فترة قحط وارتفاع أثمان الحبوب حتَّى بلغ رُبُع ثُمن المد بسلا والرباط ستين أوقية كما قال الناصري واضطر الناس إلى بيع أثاثهم بثمن بخس وتضرر أهل الريف كثيرا ولجأ العديد منهم إلى تطوان ووقع النهب في مواشي اليهود والأوروبيين بها ، وكل هذا بعد أن التهم الجراد سنة 1283 كل نبات أخضر وشمل القرَى والمدن[21] .

10 — مجاعة 1295 / 1878 وكانت أيضا سنة وباء ومات منها العديد جوعا أو بهذا الوباء الذي هو الكوليرا . وارتفعت الأسعار بسبب تدهور أحوال العملة[22] .

وكانت تحدث أزمات اقتصادية محلية خارج الأزمات العامة ، وكانت مناطق الجنوب أكثر تضررا بسبب انحباس المطر لسنوات متلاحقة أو لندرتها ، وهكذا فإن

---

(18) *Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 22*

(19) *Op. Cit. p.39*

(20) *Op. Cit. pp. 220 - 224*

(21) محمد داود، تاريخ تطوان، 6، 107، ناصري، 9، 119.

(22) ناصري، 9، 164. *D^r Arnaud, Au temps des mehellas, p.58*

سنة 1267 / 1850 كانت من أشد السنوات على المناطق الصحراوية والمجاورة ذ فضلا عن كونها كانت كذلك بعموم الشمال الإفريقي . وفي 1300 / 1882 وقف السلطان مولاي الحسن بنفسه على الأحوال التي كانت تمر بها منطقة آيت باعمران خلال سنتين متواليتين . كما وقف على مجموع المناطق السوسية المعروفة بخصب انتاجها فوجد آثار الجدب بها وعمل على جلب الحبوب إليها لتموين سكانها على حساب بيت المال ، وكلف النقل بحرا من ميناني البيضاء والجديدة مبلغاً باهظاً أدّى بالسلطان إلى شراء باخرة نقل أطلق عليها اسم «الحَسَني»[23] .

الصناعة :

أثبت تقرير «تيرّال»[24] كما أثبت غيره وجود ثروات معدنية ذات أهمية كبيرة . وبينها الحديد والرصاص والذهب والفضة والقصدير والنحاس . وجل هذه المعادن تتوزع بين منطقة الريف ومناطق الجنوب . خصوصا درعة وسوس . وكانت تستغل جزئيا وبوسائل بدائية . كما أن الصناعات التي تعتمد عليها هي على العموم صناعات يدوية تتركز في عدد من المدن ، لكن كانت توجد بعض الصناعات الكثيفة نسبياً كما في تطوان وفاس .

وظلت مدينة فاس أكبر مدينة للصناعات اليدوية ، وكانت تنتج حوائك (ج حائك) الصوف وهي ثياب من قطعة واحدة تغطي كل ملابس المرأة وجسدها . وكان في الرجال من يلتف بالحائك أيضاً ، وكانت تنتج السبنيات وهي أغطية الرأس وتصنع من الحرير . كما تنتج الطرابيش التي اشتهرت لدَى الأوروبيين باسم «فاس» ودخلت معاجمهم . وكذا ثياب الكتان والبلاغي والسروج والأواني النحاسية والحلي والمصوغات من الذهب والفضة والمضيات والأسلحة والزرابي . وهذه كانت من أروع منتجات فاس[25] .

وبالرغم من وجود عدد من المواد الخام في عين المكان فبعضها كان يستورد من أوروبا كالحديد الذي كان يأتي عن طريق العرائش أو تطوان . وكانت العرائش

---

(23) *Arnaud, Op. Cit. p.61*

(24) *Caillé, La petite histoire, 2, pp.25*

(25) *Hœfer, Op. Cit. p.306*

تصدر الصوف والجلود إلى جانب المواد الزراعية[26] .

وبدأت تطوان تحتل مقاما مرموقا في الصناعات الكثيفة واليدوية منذ القرن 12 / 18م وبلغت أوجها في هذا المجال خلال القرن 13 / 19م . وكانت عندئذ تمون الجيش والمخزن بحاجياته من الخيام وثوب «الكرية» الذي تصنع منه أيضا ملابس الجيش . كما تصنع أو تخيط أنواعا متعددة من الثياب كالكمخة والجيم . وتنتج الآلات الحديدية والمصنوعات الحديدية كصفائح الخيل والمسامير التي كانت تزود بها مراكز المغرب الأخرى بما فيها فاس .

وكانت تطوان مع هذا تزود المخزن بكميات كبيرة من الدخائر والسلاح الذي يصنع محلياً كالقنابل والمكاحل (البنادق) والكبريت[27] . وزودت مراكش بمصنع حديث لتزديج البارود في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن الذي أنشأ بها أيضا مصنعا لتكرير السكر بآجدال أنفقت عليه أموال باهظة وجلب له الخبراء من مصر من غير أن ينطلق للإنتاج قط . وبأجدال أنشئت أيضا مطحنة مائية لطحن القهوة لفائدة عموم المستهلكين[28] . كذلك أنشأ مولاي الحسن مصنعا للبنادق والمدافع الخفيفة بفاس ، وقد مر الحديث عنه في موضوع النظام العسكري .

وكل هذه الجهود التصنيعية المكثفة اقتصرت أو كادت على المنسوجات والأسلحة والذخائر ، ومع ذلك لم تكن تلبي الحاجيات الوطنية إلا جزئياً . حيث تظل البلاد عالة على المستوردات في هذا الجانب فضلا عن غيره . وكان من أهم المصنوعات التقليدية التي تصدر إلى الخارج . البلغة التي كانت معاملها الصغيرة مبثوثة بفاس ومراكش وتارودانت وعدة مدن أخرى . وكان بسلا والرباط وحدهما حوالي مائة وخمسين معملاً ، وعدها بعضهم بأكثر من ضعفي هذا العدد في القرن 13/ 19م، وكانت البلغة تصدر إلى مصر عن طريق أنجلترا[29].

ويقدم موضوع التجارة فيما يلي بيانات أوفى عن صادرات المغرب ووارداته

---

(26) *Op. Cit. p.310*

(27) تاريخ تطوان، 8، 141، 142، 148، 230، 243، 253، 282، 289، 295، 403، 405.

(28) ناصري، 9، 127. *Deverdun, Marrakech, pp.535-536*

(29) عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، مادة «بلغة».

سواء منها الصناعية أو الزراعية وكذا دور عدد من المراكز الداخلية والشاطئية في مجال التبادل .

التـجـــارة :

يتمحور هذا القطاع أساساً حول خمسة أشياء :

1 — المنتجات
2 — الأسواق الأسبوعية بالبوادي
3 — الأسواق اليومية بالمدن
4 — التبادل عن طريق البحر والقوافل
5 — سياسة المخزن بشأن التصدير والاستيراد . والمكوس والجمارك .

وكان أكبر خط تجاري داخلي هو الممتد من تطوان إلى فاس ثم إلى تافيلالت . وكان الاتجاه من تطوان إلى فاس يتم عبر طريق سبو مروراً بحوض ورغة ثم الشاون فتطوان . ومن فاس عن طريق صفرو ثم القصابي . فميدلت فتافيلالت . وتحمل القوافل مصنوعات تطوان وفاس بما في ذلك المنسوجات والأواني والبلاغي ثم تعود بريش النعام والتبر والعاج والصمغ وقد تتابع طريقها أو يتجه بعضها مع قوافل من تافيلالت إلى السودان عبر الساورة .

وكان للطائفة اليهودية دور كبير في تجارة تطوان والمغرب بوجه عام . وهي في جلها ذات أصول أوروبية وتتحدث بالإسبانية كما أنها تحافظ على أصولها القديمة بقوة . وهذا شيء كان في صالح التبادل الأوروبي مع المغرب[30] . وكانت تطوان كميناء تصدر حوالي 15 إلى 20 في المائة من مجموع صادرات المغرب كما تمثل وارداتها من 30 إلى 35 في المائة وأحيانا وصلت النسبة إلى 50 في المائة .

ويوجد طريق آخر ذو أهمية كبيرة أيضا وهو الرابط بين سوس والحوز والشياظمة وحاحا . وأحد فروعه يمتد من جهة الأطلس مارا بأمزميز وتينمل ثم سوس . وآخر يمتد إلى إيمين تانوت ويمر عبر معاشو وبيلباوان ، ومنه تشحن الفضة والنحاس لضرب العملة المغربية . كما تمر منه منتجات الواحات والسودان . أما مدينة الصويرة

---

(30) *Miège, Op. Cit. p.140*. وقد تناول بتفصيل الخطوط التجارية (ص 137 — 189).

فقد أوقفت تقريبا نشاط مينائي ماسة وأكادير بعد إنشائها . ومنها كان يتحرك اليهود مع القوافل شمالا وجنوبا وباتجاه الموانئ الأجنبية للاستيراد والتصدير . وخصوصا نحو الموانئ الفرنسية والإنجليزية . وبلغت نسبة الصادرات من ميناء الصويرة سنة 1246 / 1830 حوالي 50 في المائة من مجموع صادرات المغرب من الصوف . وفي الوقت الذي كانت الصويرة وحاحا تجد خصاصا من القمح . كان هذا الميناء يشحن قمح البلاد إلى جبل طارق أو قادس أو جنوة . وقد مرت الصويرة بفترة كانت خلالها أهم موانئ المغرب من حيث التبادل التجاري من الخارج[31] . ولكنها بدأت تضعف في آخر القرن 13 أي في عهد مولاي الحسن بسبب تحول النشاط إلى الدار البيضاء والجديدة كما أن مولاي الحسن أنشأ ميناء أسا بسوس .

ومن أهم الظواهر التي تميزت بها التجارة الداخلية على الأخص احتكار بعض المواد لفترة محددة وغالبا في جهة أو ميناء معين ولصالح شخص بعينه ، وهذا الاحتكار ينبغي أن نعتبره نوعا من الاقطاع مثلما كانت تقطع أرض تستغل أو مكس يختص به شخص يحظَى بعطف المخزن لسبب ما ، ولاحظ «مييج»[32] أن الاحتكارات اتخذت امتداداً واسعا في أواسط القرن 19م . وهكذا منح السلطان مولاي عبد الرحمن سنة 1267 / 1850 حق بيع السكر والبن لتجار معينين . وتعرض الشاي لقرار مشابه ، وأتاح ذلك رفع الأسعار تباعاً بالنسبة لهذه المواد حتَّى وصل البن الذي كان بـ 40 فرنكا للقنطار إلى 105 ف سنة 1853م . وارتفعت أثمان المواد المستوردة على العموم من 150 إلى 300 في المائة[33] . واحتكر السلطان حق تصدير الجلود سنة 1850 . وأعطي الدباغون البالغ عددهم 3600 مهلة ستة أشهر لوضع كل مدخراتهم من الجلود تحت تصرف أعوان المخزن[34] الذي احتكر تجارة مواد أخرى من حيث الاستيراد كالسكر والشاي والتبغ والقصدير والرصاص والبارود .

---

(31) *Op. Cit. pp.142 - 146*

(32) *Op. Cit. p.234*

(33) *Op. Cit. pp. 234 - 235*

(34) *Ibid. p.235*

وقد يلجأ المخزن إلى بيع حق التصدير أو حق الاحتكار بالنسبة لمادة أو مواد معينة . بالمزاد ويلاحظ أن الكيف (الحشيش) كان يدر بهذه الطريقة مبلغا كبيرا في كل من طنجة وتطوان والعرائش والقصر الكبير ومكناس والرباط والدار البيضاء والجديدة[35] . ولما كان حق تصدير المواد قد أصبح احتكاراً وأن المبيعات قد ارتفعت أثمانها فإن التجار الأوروبيين المتعاملين مع المغرب قد أصبحوا أقل تحمسا لشراء البضائع المغربية . ومن ثم تدهورت الأثمان أي أثمان السلع المغربية سواء بالموانئ أو بالداخل لكن بعض «الحناطي» بدأت تتضامن لتوحيد أثمانها ومن ثم لإرغام السوق الخارجية على التعامل معها . وبالمقابل . فإن سوق الاستهلاك الداخلي التي وجهت أثمان بعض المنتجات التي كانت لاتزال ترفيهية كالسكر والشاي تناقص إقبالها على هذه المواد فاضطرت الأوروبيين إلى تخفيض أرباحهم وبالتالي إلى تخفيض أسعارهم .

ومن نماذج الاحتكارات الداخلية لصالح الخواص :

1 — امتياز بيع الثيران ووسقها من العرائش وطنجة وتطوان لمدة سنة واحدة مقابل 8 آلاف مثقال لصالح محمد بن الحاج المسعودي . والحاج قاسم حصار السلوي والحاج بوعبيد الحصيني الرباطي[36] .

2 — امتياز بيع الغاسول وشرائه ووسقه من كل الموانئ المغربية لمدة أربعة أعوام تبتدئ من 1277 / 1860 . لصالح محمد بن المدني بنيس[37] .

3 — امتياز بيع الجلود ووسقها مقابل 60 ألف مثقال لبيت المال لمدة سنتين ابتداء من 1269 / 1852 وقد اشترى الامتياز مصطفى الدكالي والمكي القباج[38] .

وبالنسبة للتجارة مع افريقيا الغربية هناك طريقان يتصلان معا بتومبوكتو أحدهما من تافيلالت والآخر من وادي نون مروراً بالصحراء الغربية[39] :

---

(35) *Op. Cit. pp.236 - 237*

(36) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 316.

(37) مجموعة الوثائق، 2، 385.

(38) *Miège, Op. Cit. p.237*

(39) *Hœfer, Afrique Australe, pp.397, 403*

1 –– طريق تافيلالت تومبوكتو . ويمر عبر دادس التي تمتد بها حقول القمح والشعير والفواكه وكذا مراعي الدواب الكثيرة بها . ثم يتجه الطريق نحو ارزازات ؛ وبكل هذه المناطق تكثر القرى والمداشر . ومركز وارزازات هو تغرم (بكسر ثم سكون) . ثم إلى تازناخت مركز صنهاجة، ثم سكتانة الغنية بحقولها والممتدة على نحو أربعين فرسخا ومنها إلى رأس الواد غرب سوس، فتارودانت التي تحيط بها كتافيلالت واحات غنية بالتمر، فتوقريب التي تشتمل على حوالي مائة وخمسين مدشراً أو قرية . وبها غابات من اللوز والجوز كما تنتج العسل والشمع . ثم من توقريبت إلى آيت إبراهيم التي تحتوي على مركز وثلاثين مدشراً وهذه المنطقة تنتج الزيت إلى جانب المواد السابق ذكرها . ثم منها إلى هشتوكة باتجاه آيت سملال من جهة الجنوب الغربي وهو آخر منطقة جبلية بسوس من هذه الجهة . ثم يتجه خط القوافل هكذا : آيت حامد –– ميراللفت –– تاغزوت –– تيهالا –– آيت صواب –– تيزاغالت وهي مدينة تجارية كبيرة ويحكمها مجلس آيت الأربعين وهو يستغل معادن النحاس الأربعة المجاورة ويسك العملة الوطنية –– إيليغ –– أساكا –– إيدا وباعقيل –– اغرم –– إفران ويقطنها السود ولها حكم بلدي ومنطقتها غنية بالمنتجات الزراعية –– تمانرت –– أقا –– إيدا وبلال (عرب) –– تيجاكنت وهم عرب متشبثون بالروح الإسلامية ويشتغلون بالتجارة ؛ وتنتهي منطقتهم الشاسعة إلى تومبوكتو .

2 –– طريق وادي نون –– تومبوكتو ؛ وهي تمتد أولا عبر سوس إلى وادي نون ومنها إلى الساقية الحمراء خلال سبعة أيام ثم إلى الداخلة أو الوادي الذي يصب باتجاهها . وبكل هذه المنطقة الصحراوية تسود المجموعة العربية المعروفة بالأودايا ومن وادي الداخلة إلى وادان بعد مسيرة أسبوع ؛ وبها أيضا عرب معقل ويستغلون الملح الموجود بها . ويفصلها عن تومبوكتو أربعون يوما من السير . والطريق من وادي نون إلى تومبوكتو مطروق جدا تجتازه قوافل التجار باستمرار[40] . لكن التوغل في الصحراء لا يخلو من أخطار . وإن كانت القافلة الواحدة قد تضم في المتوسط ما بين ألف وألف وخمسمائة من الإبل وقد تصبح عدة آلاف . فبعض القوافل يحدث أن تتعرض للهلاك من العطش مع وجود قطاع طرق . وفي الطريقين الصحراويين معا . يتحرك سنويا ما لا يقل عن عشرين ألف جمل . وأهم

---

(40) *Op. Cit. p.402*

الصادرات المغربية . الملح والتبغ والجلود والتمر والمنسوجات ، وتصحبها صادرات أوروبا التي تمر عبر الطرق الإفريقية الداخلية . ويؤدي السودانيون أثمان البضائع تبر أو سبائك ذهبية أو رقيقا أو ثيابا قطنية زرقاء . وضمن القوافل يوجد عدد من تجار فاس وسوس وغيرهم . كما يقيم بتومبوكتو فاسيون ويهود قدموا من المغرب .

وواصلت أكادير حتَّى بناء الصويرة نشاطها كملتقًى تجاري مهم بين عرب الصحراء وأهل السودان[41] . وما من شك في أن أكادير كانت تشكل نقطة رئيسية على الطريق الذاهب إلى السودان مرورا بتارودانت أو بالساحل من جهة وادي نون . غير أن إنشاء الصويرة ودعوة التجار السوسيين إلى الجلاء عن أكادير والاستقرار بالمدينة الميناثية الجديدة حوَّل أكادير إلى مركز مهجور لعدة عقود من السنين[42] .

وتحلبَتْ أفواه الأوروبيين لخيرات الصحراء خصوصاً منذ القرن 19م حيث حاول إسبان جزر الخالدات أن يكتسحوا أسواق وادي نون وما حولها ببضائع رديئة سرعان ما أعرض عنها السكان[43] . ثم شرع المهندس البريطاني ماكنزي *(Mackenzie)* منذ 1289 / 1872 في التهييء لتأسيس شركة بريطانية اتخذت لها مقرا على صخرة حول طرفاية بعد سنوات . وكان مصير هذا المركز أن أخلي بأمر من السلطان مولاي الحسن .

ولاحظ الامريكي فيليكس ماثيوس[44] وجود قصب السكر بكثرة بين وادي نون وسوس مع جهل السكان لاستغلاله خلافاً لما كانوا عليه في الماضي . ويعد ريش النعام من أهم المواد الصحراوية التي تصدر إلى أوروبا ، وتأتي سفن الولايات المتحدة إلى الصويرة لتحمل منتجات الصحراء إلى غرب الهند[45] . وفي الثمانينات من القرن 19م تلاحظ وجود مواد تصدر عن طريق المغرب إلى تومبوكتو وهي

---

(41) فيليكس ماثيوس : ساحل إفريقيا الغربي، تعريب د. عبد الهادي التازي مجلة البحث العلمي، ع 1400/31 (1980)، ص 94.

(42) ن.م. وص.

(43) ن.م. ص 90.

(44) ن.م. ص 97.

(45) ن.م. ص 100.

مجلوبة من أقطار الشرق الأقصى إلى جانب البضائع الأوروبية والمغربية والامريكية ، وهكذا يوجد بينها أنواع من القطن والكتان والسكر والشاي والكؤوس والمرجان وعقد الكهرمان والجوهر والمحار ومسامير النحاس والصوف والقطن المصنوع بفاس وجوز الطيب والقرنفل والفصر والزنجبيل والودع الأصفر وهو عملة عدد من الشعوب الافريقية والكيف والملح والتبغ(46) . بينما يصدر إلى المغرب أو عن طريقه : التبر والمصنوعات الذهبية والفضية وريش النعام والصمغ المغربي والسينغالي والبخور وبطانيات السودان والرقيق(47) ، وتصل القيمة الإجمالية للصادرات المشحونة إلى السودان بـ 650 ألف دولار . 75 في المائة منها لتجار سوس ، وتفرعت المسالك في هذه الحقبة إلى أربعة . من سوس إلى تومبوكتو(47) .

وللمغرب بالشرق علاقات موغلة في القدم ، وتشمل الهجرات الكثيفة من المشرق إلى المغرب . والتبادل الثقافي والتعاون العقائدي والنشاط الاقتصادي ، وإذا كانت سجلماسة مقصداً للمشارقة خلال القرون الإسلامية الأولى على الأخص فإن كلا من مراكش وفاس استقطبتا وجوه التبادل ، وبخاصة فاس منذ العهد المريني . لكن كثيرا من البواخر بدأت تنطلق من تطوان تجاه المشرق قبل العصر العلوي وخلاله ، وانضمت إليها الصويرة أيضا ، وظلت فاس مع هذا محور الرواج الاقتصادي مع المشرق بالدرجة الأولى في العصر الذي تعالجه هذه الدراسة ، فمن فاس تنطلق القوافل محملة بالبلاغي وجلود تافيلالت وتبر السودان وعاجه وريش النعام الصحراوي . وتباع هذه السلع بكل من الجزائر وتونس(48) ، في الوقت الذي أسندت فيه عملية التصدير إلى بواخر بريطانية أو وطنية .

وكان للمغاربة دور كبير في أسواق الجزائر سواء في العهد التركي أو في عهد الاحتلال الفرنسي الذي سهل دخول البضائع المغربية وحتَّى الأوروبية غير الفرنسية والتي تحملها القوافل من فاس إلى الجزائر مع عدم فرض رقابة جمركية عليها لفترة طويلة ، وحتَّى في عهد خضوع تلمسان لسلطة الأمير عبد القادر استمر التبادل قائما على أوسع نطاق ولصالح التجار الفاسيين والمغاربة المقيمين بتلمسان . وبواسطة

---

(46) ن.م. ص 100 — 101.

(47) ن.م. وص

(48) *Miège, Op. Cit. p.157*

الوكيل المخزني بنونة تم سنة 1256 / 1840 وسق حمولة ثلاثة آلاف جمل حبوباً إلى معسكر الأمير بالإضافة إلى 200 جمل محملة بالثياب والسلع المختلفة(50) .
ويرَى «مييج» أن علاقات المخزن مع الأمير عبد القادر لم يكن وراءها دافع التبعية أو الرابطة الدينية فحسب ، بل كذلك المصلحة الاقتصادية لفاس وحالة الرأي العام(50) ، وبالنسبة لاعتبار الموقف الشعبي فهذا صحيح ، ولكن الوثائق الرسمية تؤكد بصفة واضحة ، وكما تم ذلك في عرض ثورة الأمير عبد القادر بهذا الكتاب ، أن المخزن بالرغم من وسائله الضعيفة أخذ على عاتقه باستمرار وتلقائيا ولمدة تناهز ربع قرن على الأقل مساعدة المهاجرين الجزائريين إلى المغرب والذين تقاطروا بالآلاف على أرض أشقائهم ، وبالمنظار الاقتصادي لتلك الظروف بالذات فإن المغرب كان يبذل كل شيء لأن كل المهاجرين تقريباً كانوا بحاجة إلى معونة أو امتيازات وكان هذا واجباً دينياً في نظر الأمة والمخزن .

وفي جميع الأحوال ، لا يعني هذا النشاط الاقتصادي وجود مستفيدٍ أو وسيط واحد ، فقد كان للجزائر العثمانية وكلاؤها التجاريون أيضا بالمغرب فضلا عن جهات كمصر وطرابلس وتونس ومرسيليا(51) .

وكان بمصر سوق عرف بسوق المغاربة ، أي مغاربة الشمال الإفريقي كله ، غير أن أهم المعاملات به كانت تجري على يد أهل المغرب الأقصَى الذين يعرضون به بضائع البلاد كما يستوردون حرير حلب ومنسوجات الهند وعطور اليمن وبُنَّها بالإضافة إلى مجموعة من رقيق الحبشة حيث كان عنصره النسوي مطلوبا بالمغرب(52) .

وفي أوروبا كان الإقبال شديداً على الأصواف والجلود المستوردة من المغرب ، وحازت سلا وتطوان خلال العهد الإسماعيلي قصب السبق في استقبال البضائع الأوروبية قبل أن يعاد فتح الموانئ الأخرى أو ترميمها أو استغلالها على نطاق

---

(49) *Op. Cit. p.162*

(50) *Ibid*

(51) *A. Temimi, Inventaire sommaire des fonds arabes et turcs d'Afrique.in Revue d'histoire maghrébine, 1/1974*

(52) *Miège, Op. Cit. p.157*

وسع . وكانت التجارة الخارجية في الواقع بيد اليهود والأوروبيين وحتّى القناصل الذين كان بعضهم من اليهود .

ونالت فرنسا مقاما مفضلا خلال القرن 11 / 17 بالرغم من الغيوم التي خيمت زمنا على العلاقات بين البلدين ؛ وفي هذه الفترة بالذات كانت عملية مفاداة الأسرى لاتزال مورداً اقتصادياً ذا أهمية للمغرب ولكنه سيفقد هذه الأهمية تدريجياً بعد ذلك . وكانت قادس مستودعاً للبضائع الانجليزية والهولندية والمغربية التي يتم نقلها بعد ذلك بواسطة السفن البرتغالية .

وتمتعت بريطانيا أيضا بصفة الدولة المفضلة . بل إن فرنسا تخلت لها عن مكان المنافسة خلال القرن 12 / 18م وإلى حين احتلالها للجزائر . فإلى جانب تفوق الأسطول البريطاني تقنياً كان لاستيلاء الإنجليز على جبل طارق سنة 1116 / 1704 تأثير مطلق على هيمنة الصادرات البريطانية أو المجلوبة على يد السفن البريطانية إلى المغرب . وبلغ إذلال البريطانيين للمغرب منتهاه بمعاهدة 1273 / 1856 التي فضلا عن شروطها السياسية لصالح بريطانيا ورعاياها ومحمييها فقد فرضت على الدولة المغربية حقوقا جمركية ثابتة وحتّى الذعائر المستخلصة من المهربين البريطانيين حددتها الجهة البريطانية . ولذلك اتخذت حركة المقاومة البحرية موقفا مناهضاً للسفن الإنجليزية في الوقت الذي كان المخزن يثق في التعامل مع البريطانيين الذين تقوم بواخرهم بنقل حجاجه وتجاره وبضائعه[53] .

ومرت العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة قبل نشوب الحرب الأهلية بفترة طيبة منذ 1207 / 1792 . حيث صارت الصويرة محطاً لسفن الولايات المتحدة التي تنقل منتجات الصحراء والسودان المودعة بميناء الصويرة ثم تبحر إلى غرب الهند حاملة منتجات أمريكية . على أن الولايات المتحدة قد ارتبطت بمعاهدة تجارية مع المغرب منذ 1201 / 1786 وتم تجديدها سنة 1252 / 1836 .

وتدخلت الدولة غير ما مرة لوقف تصدير بعض المنتجات الأساسية ومحاربة تهريبها إما بالمصادرة أو بفرض غرامات معينة ؛ وكان القمح أهم مادة غذائية

---

(53) كان هذا بعد أن بدأت توضع العراقيل بموانىء أوروبا في وجه القطع المغربية التي كان عدد منها يقوم بنقل المنتجات من تطوان الى مرسيليا. ومن أسماء هذه القطع : مسعودة، الغربية، زايدة، سعيد، الموانئ، المربوحة *(Miège, Le Maroc et l'Europe, 2, 21)*

أساسية يحصل منها فائض مهم في سني الخصب . وقد منع تصدير القمح مدة في عهد السلطان محمد بن عبد الله . ثم سمح بوسقه سنة 1180 / 1766 وذلك ليبيئ الدول الأوروبية إلى نقل قنصلياتها إلى الصويرة التي بنيت أساساً لتضع حداً للتهريب الذي كانت سوس من أهم مراكزه ، ومع هذا أعطَى تسهيلات خاصة للاسبان كما فصل ذلك (بالاو *Palau*) . وبعد افتتاح الصويرة كميناء جديد تشدد السلطان في حمل الأوروبيين على التصدير منها ومالبث أن فتح مرة أخرى للاسبان مينائي تطوان وطنجة وحتَّى العرائش كما فعل مولاي اليزيد لمواد معينة وفترة محددة .

وبلغ تهريب القمح وحتَّى المواشي من موانئ الشمال في عهد مولاي سليمان حداً جعله يجرد حملة عسكرية قامت بمصادرة أمراس سكان المنطقة التي نهبها الجيش . كما عهد إلى ضباط البحرية أن يحتجزوا كل سفينة أوروبية بالمياه الإقليمية للريف . وكان ذلك سنة 1228 / 1813 بعد أن كان الوسق إلى الخارج يتطلب إذن القصر السلطاني حتَّى ولو كان كما ورد في إذن ملكي عبارة عن 48 دجاجة و4 شياه وثور لكل مركب أجنبي .

وفي 1246 / 1830 عاد المغرب بعد فترة قصيرة من تسريح الوسق إلى منعه ماعدا ميناء العرائش الذي فتح للتصدير . وكان المغرب يتوفر بصفة أكيدة على فائض من القمح في الوقت الذي أفسدت الأمطار الطوفانية زروع أوروبا . وسجلت إدارة المخزن في نفس الوقت خروج الذهب من المغرب مع منعه أيضا من التصدير ، وخشي المخزن أن يفقد كل ذهبه لكثرة ما هرب منه التجار إلى أوروبا . وبعد الإجراءات الزجرية التي اتخذت بشأن الذهب والتي آتت أكلها ظهر أن الفضة قلت من الأسواق المغربية في الوقت الذي عاد الذهب إلى الرواج . وهكذا منع على المسافرين بحراً الخروج بالبسيطة أو الدرهم أو الريال ، وكلها نقود فضية . وأبيح إخراج البندقي والضبلون وهما عملتان ذهبيتان . وكان هذا الاجراء في آخر شهر من 1247 / 1831 . ثم منع مرة أخرى إخراج الذهب إلى جانب الفضة مسكوكات وغير مسكوكات .

ولاحظ «جودار» وجود ملايين كثيرة من الماشية في أواخر عهد مولاي عبد الرحمن ، حتَّى قدر عدد الغنم وحدها بـ 48 مليون وهو تقدير في منتهَى المبالغة ولكنه يدل على ثروة من الشياه ذات أهمية .

والواقع أن مولاي عبد الرحمن دشن عهده بسياسة متحررة تجاه أوروبا . وهكذا جدد مع بريطانيا سنة 1240 / 1824 معاهدة 1216 / 1801 وحصلت فرنسا من جديد على وضعية الدولة المفضلة في معاهدة 1241 / 1825 . غير أن الأوروبيين سرعان ما فوجئوا في نفس السنة باستئناف حركة الجهاد البحري على نطاق أضيق من فترة ازدهاره ، وما لبثت حرب إيسلي والجزائر ثم حرب تطوان أن ثبتت أقدام الدول الأوروبية اقتصاديا وسياسياً بالبلاد . ذلك أن المخزن حاول أن يتشبث بسيادته فيما يخص امتيازات الوسق ولكنه جوبه بعناد من الدول التي لا تحظَى بحقوق مساوية لغيرها وهكذا ففي 1279 / 1862 سمح المخزن بواسطة النائب السلطاني بطنجة بوسق الحبوب والقطاني للإنجليز والفرنسيين والايطاليين (الصاردو) . واحتج الممثل الإسباني ضد هذا الاجراء الذي حرم إسبانيا من نفس الحق وجعلها تراود المغرب طيلة سنوات لمراجعة سياسته التي اتخذها لتفضيل عدوتين لها . وبينما كانت إسبانيا لاتزال تواصل احتجاجاتها شارك المغرب سنة 1285 / 1868 في المعرض الدولي بباريز والذي استمر ثلاثة أشهر . وذلك بما «اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة ومناطق مزخرفة ، وقطائف منمقة ... حتّى الزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون صنعه في محاله ...» كما ذكر الناصري .

ويسر وجود مجموعة من التجار الفرنسيين بقادس تنظيم علاقات تجارية وطيدة مع المغرب خلال الثلاثينات من القرن 19م كما أن مجموعة أخرى من تجار البرتغال أقاموا جسرا اقتصاديا بين لشبونة وقادس وموانئ المغرب وبالأخص طنجة والعرائش .

غير أن طنجة تأثر وضعها كثيرا منذ جلاء الإنجليز عنها ، ولم تستعد عمليا نشاطها الاقتصادي بشكل عادي وتدريجي إلا منذ عهد السلطان محمد بن عبد الله ، ولم تصبح ذات أهمية مشابهة لأهميتها قبل التحرير إلا بعد منتصف القرن 19 . غير أن قناصل انجلترا وإسبانيا وفرنسا والبرتغال والصاردو *(Sardes)* اتخذوا لأنفسهم بواخر تقوم بربط الاتصال مع طريف باسم القيام بإرساليات دبلوماسية . ولكنهم كانوا يستغلون مهماتهم في الميدان التجاري والتنقل بين إسبانيا وموانئ المغرب للقيام بأعمال تجارية ، وكان التبادل الداخلي عن طريق طنجة ضعيفا بينما وصلت صادراتها حسب السنوات إلى 10 في المائة وقد تنتهي إلى 18 في المائة وتشمل على

الخصوص الصوف والشمع والحبوب . كما تستورد من الداخل كميات من البضائع لاستهلاكها الداخلي .

وكانت العرائش ذات أهمية منذ القرن 12 / 18م وصادراتها على الخصوص من الجهات القريبة . ومن ذلك الأرز الذي كان ينمو بالغرب وحوض اللكوس ويرسل إلى مرسيليا كما ذكر «مييج» وهذا بالإضافة إلى الجلود والخشب والصوف وغيرها ، وبلغ معدل الصادرات من الخشب 1200 قنطار في السنة . ثم منع تصديره خشية تعرية الغابات من الأشجار . ومن الواردات السكر والزجاج والقهوة وقطع الحديد والمسامير .

غير أن الرباط وسلا احتلتا مقاما ملحوظا في التصدير الذي شمل على الخصوص الصوف والجلود والشمع والفلين بالإضافة الى بعض حاصلات الجنوب . وكانت أهم العمليات التجارية تنجز على يد تجار اليهود الذين بلغت طائفتهم أكثر من خمسة آلاف .

وظلت الدار البيضاء لفترة طويلة من العهد العلوي ميناء صغيرا اشتهر باسم أنفا قبل قرون متطاولة ، ولكن اسم الدار البيضاء شاع استعماله في النصف الثاني من القرن 12 / 18 حيث يحتل مكانا في الوثائق الرسمية التي أشار إليها يالاو في دراسة يحيل عليها التعليق الآتي . وكان الاسم معروفا في أصله البرتغالي منذ القرن 10 / 16م . وتحكمت قبائل الشاوية ذات البأس والشكيمة في هذا المرفأ الصغير بفضل توفرها على مجال زراعي شاسع يتجاوز حاجات المنطقة بمستوَى عال من الانتاج الغني ، وتزايدت أهمية الشاوية من الناحية الزراعية خاصة منذ القرن 12 / 18م . واهتم سيدي محمد بن عبد الله بتجديد ميناء الدار البيضاء . بل بنَى أول مدينة وطنية حوله والتي لاتزال عدد من أسوارها ومنشآتها قائمة ، وأعطَى كل من مولاي عبد الرحمن ونجله محمد الرابع تسهيلات لاستقرار التجار بها وفتح مراكز تجارية للشركات الأوروبية . وهكذا ظلت السفن الواردة من الخارج ترسو بالرباط حيث تؤدي الرسوم الجمركية قبل أن تنزل بضائعها بالدار البيضاء . وذلك إلى سنوات الثلاثينات من القرن 19م حيث استعاد الميناء نشاطه القديم تدريجياً ، وفي هذه الفترة بالذات لم يكن سكان الدار البيضاء يتجاوزون ألف نسمة . بالرغم من العناية التي بذلها من أجل إنعاشها السلطان محمد بن عبد الله .

وتبرز الوثائق الأوروبية فضلا عن المغربية التطور الإيجابي الذي بدأ يشهده ميناء الدار البيضاء في مجال التصدير لاسيما تصدير القطاني منذ السبعينات من القرن 19م . وقبل ذلك شهدت الشاوية فترات من التوتر ضد تصدير الحبوب تارة وضد المضاربات التي يديرها تجار أوروبيون أو يهود تارة أخرى ، كما شهدت غير ما مرة غارات زعير وأخيراً وقبل سنوات قليلة من الحماية انتفاضة عارمة ضد الهيمنة الأوروبية الاقتصادية .

وبرز مقام الجديدة كبيرا في ميدان التصدير ، لأنها تقع أيضا حول منطقة دكالة الشاسعة الأطراف والغنية بمزارعها ومواشيها كما أنها تجاور منطقة الشاوية الجنوبية وتادلا . وكان للقمح الصلب الذي تنتجه دكالة شهرة لدَى المستهلكين بأوروبا ، ولم تشهد الجديدة تقدما حقيقيا في نشاطها كميناء إلا خلال القرن 13 / 19 حيث تقاطر عليها التجار والمحترفون الأوروبيون حتَّى بلغ عدد المؤسسات التجارية الأوروبية بها سنة 1263 / 1846 ثمان فروع لشركات إنجليزية وغيرها . وبلغت صادرات الجديدة في هذه الفترة نسبة 20 في المائة من مجموع الصادرات الوطنية ، ونجحت زراعة القطن بدكالة حيث أمكن تصدير أربعمائة قنطار سنة 1282 / 1865 من ميناء الجديدة .

أما آسفي التي كانت ولاتزال الميناء المباشر جغرافياً من جهة المحيط جنوباً فقد كانت أهم ميناء على شاطئ الأطلسي في ظل الحكم السعدي وبقطع النظر عن الرباط وسلا واللذين كان لهما وضع خاص ، وكان لآسفي أهمية كبيرة في عمليات التبادل والتسويق خلال القرن 12 / 18 بالرغم من استبداد أحد العمال بها لفترة بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الله . وبعد بناء ميناء الصويرة تدهورت آسفي تدريجيا لأن مراكز الجمرك والقناصل وعمليات الشراء أصبحت تتم بالصويرة التي بدأ بناؤها سنة 1179 / 1765 واستغرق بضع سنوات . وتقاطر عليها اليهود من أنحاء المغرب فتركزت بأيديهم دواليب الحركة التجارية بها إلى جانب المؤسسات الأوروبية . وأعطيت تسهيلات خاصة بما في ذلك تخفيضات جمركية هامة وصلت إلى خمس المبالغ المؤداة في موانئ المغرب الأخرى. ومثلت صادراتها من حيث الحمولة في بعض السنين نسبة 40 إلى خمسين في المائة. وأعطيت في الثلاثينات

من القرن 19م امتياز تصدير الصوف وحدها ، وبلغت صادرات الحبوب سنة 1260 / 1844 مقدار 7500 طن . وقبل سنة واحدة من فرض الحماية أي عام 1911 رست بها 462 باخرة ، وهو عدد لا تحظَى به موانئ أكبر منها في الوقت الراهن ؛ ونجد آسفي تنتعش خلال منتصف القرن 19م بل وتاخذ مواردها الجمركية نسبة الثلثين من موارد الجديدة كما أن أكادير والمعمورة (القنيطرة حاليا) وأصيلا تمثل أضعف نسبة من حيث هذه العوائد وفيما يلي . المبلغ الاجمالي لعوائد الجمرك كما سجلها مصدر ألماني سنة 1260 / 1844 نقلا عن «هوفر» وذكرت المبالغ بالبسيطة ، وكانت تساوي 5 فرنكات فرنسية بسعر ذلك الوقت :

1) تطوان	32000 :	7) الدار البيضاء	20000 :
2) طنجة	40000 :	8) الجديدة	15000 :
3) أصيلا	3000 :	9) آسفي	10000 :
4) العرائش	6000 :	10) الصويرة	90000 :
5) المعمورة	4000 :	11) أكادير	3000 :
6) سلا والرباط	70000 :		

وإذا كانت هناك مراقبة تتفاوت بين الشدة والتهاون على الصادرات نوعا ومردوداً ، فإن سياسة الاستيراد كانت أكثر تحرراً ، حيث أن الثياب الأوروبية قد غزت بشكل ضار بالاقتصاد كل أنحاء البلاد ، وهذا فضلا عن مختلف الكماليات والتوابل والسكر والشاي والبن . ومع وجود إبادة حقيقية لمدخرات المغرب من الذهب عملة وتبراً وسبائك . بتهريبها إلى الخارج فقد كانت دوائر المخزن لا تخلو من وعي بأخطار تحطيم الاقتصاد الوطني من الداخل والخارج . ولكن . بدلاً من اتخاذ سياسة عامة وطويلة الأمد كانت بعض الأطراف من أفراد وجماعات دينية ووسطاء يحصلون على امتيازات خاصة فيسهل ذلك انحدار الوعي الوطني في جزء هام من القاعدة الشعبية كما كان الشأن في عمليات التهريب بالريف ، أو تفجر هذا الوعي

في جهة أخرى كما هو شأن الشاوية . واختلال التوازن الاقتصادي بين الجهتين يعكس رد فعلها المختلف[54] .

---

(54) يراجع بشأن العلاقات التجارية مع الخارج : مجموعة الوثائق ج2 و3 و4. ناصري استقصا. أكنسوس، ص 203. ضعيف ص 171 (هامش). محمد داود، تاريخ تطوان، ج 6 و8. عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية. ج4. مجلة البحث العلمي، ع. 1980/31 (دراسة عربها د. عبد الهادي التازي).

Terrasse, Histoire du Maroc, 2, pp.298-300. Résidence Générale (M.S), Villes et tribus (Tanger)- Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 2, pp. 233-236 Hœfer, Empire du Maroc, pp.280-290. Mariano Arribas Palau, Datos sobre el comercio, entre Espana y Marruecos de Mulày al-yazïd, in Hespéris, 1972, Rabat. P. Masson, Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique barbaresque, 1903, De Castries, Sources inédites. Mièges, Le Maroc et l'Europe, T2. Les Européens à Casablanca au 19e siècle.

الفصل الثالث
العُمْران وهندسة البِناء

الطابع العـام :

تركزت أهم المنجزات العمرانية وأكثرها في عهد مولاي رشيد ومولاي إسماعيل ومحمد الثالث والحسن الأول. وتأخذ هذه المنجزات طابعاً تعميرياً وسياسياً واقتصاديا كما هو الشأن في المدن المحدثة على انقاض مدن عتيقة ؛ أو استراتيجياً وأمْنياً كما في القلاع التي تراقب الأطلس ، أو دينياً كما في المساجد والمدارس والأضرحة ، وقد تشترك كل هذه المميزات في مشروع واحد ؛ وهناك المنجزات المرتبطة بالحياة الخاصة كالقصور والبساتين الملكية .

ويميل الفن المعماري في بناء المدن والأسوار والأبواب إلى الاعتماد أكثر فأكثر على مادة الحجر ، وهناك التأثير الموريسكي والبرتغالي في هندسة عدد من المدن أو البوابات وعلى العموم يزحف التأثير الأوروبي بحذر وفي أفق محدود كلما اتسع نطاق التعايش الأوروبي الإسلامي الذي يصبح حراً بعد حوالي ستين عاماً من التعايش مع الأسرَى الأوروبيين .

الـمــــدن :

جل المدن بنيت بجوار أو مكان مدن سابقة . وهناك مدن أو مراكز اكتفي ببعض التغييرات أو الإضافات إليها أو أعيد ترميمها جزءاً أو كلا :

1 - مـكـنــاس

تحولت مكناس من مدشر قبل المرابطين إلى حصن حصين في عهدهم فمعسكر في عهد الموحدين ثم إلى مدينة تأخذ بالطابع الوطني والأندلسي في عهد بني مرين .

وحيث أن كلا من فاس ومراكش لم يستجب لمتطلبات النظام الجديد فقد كان لابد من إنشاء عاصمة جديدة . فالفاسيون كانوا يتحكمون عملياً في اقتصاديات تافيلالت بوصفهم وسطاء وزبناء معاً ، وهؤلاء الذين قدموا من تافيلالت وأصبحوا جهازاً حاكما بفاس نفسها نُظر إليهم على أنهم قوة ضغط تحرم الفاسيين حرية التصرف والسيطرة الاقتصادية ، ثم إن الأيام برهنت على تآزر متين بين الفاسيين والأطلس المتوسط ، ومن ثم فقد استخْدمت مكناس لمراقبة تحركات الطرفين معاً . أما مراكش فبعيدة عن فاس وتافيلالت والأطلس المتوسط ، ولذلك لم يكن لها حظ في أن تكون عاصمة ، وبالمقابل ، كان جهازها الحاكم يختار غالبا من مستوَى عال ، لأهميتها كمحط كبير وسط الطريق بين سوس والعاصمة .

وقد كان مولاي إسماعيل معجباً بمكناس ومنطقتها قبل أن يتخذها عاصمة ، واستقر بها قبل أن يشرع في بناء مدينته الجديدة بها ؛ وقد أكدت ثورة فاس التي امتدت أربعة عشر شهراً قبل انتهائها سنة 1084 / 1673 أن مقام الجهاز المركزي بفاس وبالأخص العاهل وحاشيته لن يكون سهلا في جو المؤامرات والقلاقل التي تتعرض لها ، وهكذا بدأ بناء المدينة الملكية مباشرة بعد هذا التاريخ في الوقت الذي أدخلت فيه تغييرات جوهرية على المدينة القائمة ، فهدمت مجموعة من منازلها ومنشآتها وأقيمت مكانها ساحة الهديم والقصور المجاورة لها . ونقل سكان هذه الجهة إلى شمال وغرب المدينة كما يقول «طيراس» وأقيمت أسوار جديدة على أنقاض الأسوار القديمة وأنشئ ملاح لليهود . وتقع مكناس الاسماعيلية جنوب القديمة . وبلغ محيط سورها 25 كلم وهو يعادل ثلاث مرات ونصفاً محيط سور تارودانت . اما الملاح فقد اختط غرب المدينة الإسلامية بعيداً عن القصور الملكية ولكنه مجاور لحي الرياض المخصص للشخصيات السامية وكبار الموظفين والذي بقي منه بعد ذلك باب الخميس . وشاد مولاي إسماعيل مجموعة من المساجد كمسجد البردعيين والجامع الأخضر بالقصبة التي فتح لها عشرين باباً ضخماً يعلو كلا منها مبنًى للمدافع . وخصصت القصبة للجيش . وهي شاسعة المساحة . ومن الملحقات الأخرى الصهريج الكبير الذي يضم زوارق للرياضة والفرجة ، ثم مجموعة الاصطبلات المخصصة لنحو عشرة آلاف فرس والتي اتفقت رواية أكنسوس ورواية Busnot حسب جوليان على أنها تقترب من فرسخ طولاً . وقد تناول أكنسوس

وصف هذا الاصطبل أو الاصطبلات بدقة ، وكان يعنى بخيلها سواس من جند البخاري والأسرَى . وعلى مقربة من آثاره الباقية يوجد قصر الدار البيضاء الذي حول إلى أكاديمية عسكرية من عهد الحماية ، ويقع بجنان أكدال التي تضم مراعي الدواب كما كانت تستخدم للاستعراضات العسكرية .

ويرَى «طيراس» أن المدينة الملكية عبارة عن حصن قوي تأثر مؤسسه بطابع القصور الصحراوية التي اعتادها في تافيلالت . ويرَى أنه حاول أن يضاهي به «فرساي». ثم هو يلاحظ أنه يستمدُّ من مؤثرات الفن الأندلسي الموريسكي ، غير أن هذه الطبخة من التناقضات الأثرية التي لا تنسجم فنياً ولا معماريا يوخذ منها مأخذ الحقيقة إلى حد كبير ، الجانب الأخير فحسب ؛ والتحصينات القوية التي اختصت بها مكناس بعيدة تماماً عن المؤثرات الصحراوية طبيعة ومادة وفناً . فالقصور الصحراوية ترتكز على الطين مادة ، وبيئتها الواحات ، وفنها بسيط بساطة أهل الصحراء ، وقصور مكناس تختلف شكلا وموقعاً ، ومادتها الحجر والرخام والقرميد والفسيفساء ، وفنها أندلسي قديم وموريسكي حديث . والمبادرة إلى بناء مكناس الجديدة مباشرة بعد القضاء على ثورة فاس يبدد الشكوك في الضرورة الستراتيجية التي أملت هذا الاختيار . وكانت «فرساي» نفسها في طور التجديد والتوسيع في الوقت الذي بدأ فيه بناء مكناس . ولم يستقر بها لويس الرابع عشر نهائيا إلا منذ 1094 / 1682 ، وأخيراً فإن المباني السكنية لمولاي إسماعيل تكون مجموعة كبيرة من القصور الرئيسية والصغيرة ؛ وقصر فرساي الرئيسي واحد لا أكثر . ولكن يبدو أن ما صرف عليه من أموال الأمة يفوق ما خصص لقصور مكناس التي كانت اليد العاملة فيها من الأسرَى أكثر من غيرهم . ومع هذا فإن بناء مكناس في مجموعها وبما تطلبته أسوارها وبواباتها الضخمة وأبراجها لا شك ذهبت فيه أموال طائلة لا يعرف لها حصر . وقد انتقد الملاحظون والأثريون الأجانب تنافر الذوق في المباني الملكية من حيث أسوارها الشاهقة والمزدوجة أو المثلثة قصد ضمان حماية أكثر ، وبإجمال فهي تشمل : 1) القصور ، وبالأخص «الدار الكبيرة» التي أقيمت مكان القصبة المرينية ويحيط بها سوران متباعدان . 2) البساتين المسورة ، وهي البحراوية والسواني والشطرنجية . وخصصت قصبات هدراش وتيزيمي وسيدي سعيد للجيش . وتضم جنان أكدال المذكورة صهريجا ضخما مساحته 40 ألف متر مربع .

ومن المآثر التي تبقت من مكناس (الجديدة) قصر الدار البيضاء الذي شاده محمد الثالث . وباب منصور العلج الذي بدأه مولاي إسماعيل وأكمله مولاي عبد الله ، ويمثل عملا فنيا يجمع بين الروعة والضخامة ، وجانبٌ كبيرٌ من السجن الذي كان يضم الأسرَى على الخصوص ، وباب منصور العلج يضم جملة من العناصر الفنية المستحدثة في البوابات خاصة . فهو يجمع بين العقد المنكسر وحذوة الفرس مع أشكال متشابكة من منحني الأضلاع تبرز على أرض من الفسيفساء المخضرة اللون تزينها نقوش كتابية جميلة كما لاحظ ذلك ريكار .

غير أن أعمال البناء والترميم التي استغرقت كل حياة مولاي إسماعيل كملك نالتها يد الخراب تدريجياً منذ 1143 / 1730 على إثر شغب أحدثه جيش الأودايا . وهكذا هدم مولاي عبد الله حي الرياض الذي كان يشتمل على مباني كبار المسؤولين فضلا عن عدد من القصور الملكية ؛ وكان لبعض هؤلاء المسؤولين مجموعة من الدور يجمعها سور واحد . وتم نقل الأودايا إلى فاس الجديد . وقال أكنسوس : «ومن يوم مات المولى اسماعيل والملوك من أولاده وحفدته يخربون تلك القصور على قدر جهدهم ، ويبنون بأنقاضها القصور من الرخام والزليج والخشب . وبنيت بأنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب . وما أكملوا نصفها هذه مدة نحو مائة سنة»[1] . وتنسب مكناسة إلى إحدَى قبائل زناتة .

2 – الصويـرة :

هذه المدينة التي هي الآن مقر إقليم كانت تعرف في القرن 5 / 11م بمرسَى أمجدول حسبما عند البكري ، وأورد دوكاستري في دراسة له بـ «هسبريس» أن لفظ «أمجدول» اسم لأحد الصلحاء من أولاد أبي السباع الذي يعرف ضريحه منذ زمن بـ «سيدي مجدول ... ولايزال الضريح قائما ومعروفا حول المدينة الواقعة على ساحل الأطلسي ، وقد حرف الأوروبيون الاسم فقالوا «موكادور» بكاف معقودة . وفي

---

(1) انظر حول بناء مكناس : إتحاف أعلام الناس لعبد الرحمن بن زيدان. البستان للزياني ص 29 — 31. الجيش لاكنسوس، ص 63، 67، 102. الكردودي، الدرالمنضد، و180 — 183.

Champion, Le Maroc et ses villes d'art. Terrasse, Histoire, 2, 264-269 Julien, Histoire, 2, 236-240. Koehler, Qulques points d'histoire sur les captifs, in Hespéris, 1928

1178 / 1765 شرع السلطان محمد بن عبد الله في إنشاء مدينة حديثة بالمنطقة التي تتميز بهدوء مرساها . وكان موقعها لا يحتوي سوَى على قصر ملكي في القرن 11 / 17م تقيم به حامية من 80 جندياً ، وبنيت الصويرة حسب تخطيط هندسي دقيق شامل ، وحيث إن تصميمها اعتبر كصورة مصغرة ، فقد سميت المدينة بالصويرة . وقيل أيضا دعيت بالسويرة وهي تصغير «سور» . وتمييزاً للقصبة السعدية التي كانت على مسافة 7 كلم منها ، عن المدينة الجديدة ، سميت القصبة بالصويرة القديمة . وحولها كان السعديون قد غرسوا قصب السكر . وحسب الرجراجي ، فإن امرامر الواقعة بالشياظمة كان بها من قديم مكان يدعَى صويرة امرامر .

وأنشئت الصويرة لعاملين أساسيين ، اقتصادي وتقني ، والأول يتجلَّى في رغبة المؤسس في وضع حد لحركة التهريب التي كانت تتم عن طريق ميناء أكادير . وتعويض هذا بالصويرة . ولذلك بادر السلطان إلى حمل تجار أكادير على الانتقال إلى الصويرة بمجرد تخطيطها ، كما أنه رأَى من المصلحة تشجيع الأوروبيين على خلق رواج اقتصادي أقوَى مع المغرب ، فسخر لهم من الامتيازات ما لم تحظ به موانئ أخرى . أما العامل الثاني فهو صلاحية الميناء لرسو السفن طيلة السنة وهذا لم يكن ميسراً لجل الموانئ الأخرى . وفي جميع الأحوال فقد ثبت أن عمليات تهريب السلع وحرمان الخزينة من موارد جمركية في منطقة سوس الساحلية جرت قبل هذا التاريخ وبعده أيضا وإلى قيام الحسن الأول بإنشاء ميناء إضافي هو ميناء أساكا على ساحل سوس .

ووضع تصميم الصويرة وأشرف على بنائها المهندس الفرنسي *Cornut* الذي هو من أفينيون ، وقد اشتغل مدة بأنجلترا ثم بجبل طارق ، ومن هناك انتدب لتخطيط الصويرة التي بنَى حولها مشورا أو منشآت حكومية كما أنشأ ملاحاً ووضع تصميم التجزئة السكنية حيث خصص للأوروبيين دورا تلائم حياتهم الخاصة ، وبنى القصر الملكي بالديابات على مقربة من المدينة . وبالرغم من ضيق الأزقة الداخلية بالمدينة فإن تصميمها متقن وبعيد عن الارتجال والتكدس العشوائي بالنسبة للمدن القديمة وإلى جانب المدينة قصبتها التي ضمت في وقت متأخر سكنَى أغلب الأوروبيين .

وسكن الصويرة عدد كبير من أهل سوس أمازيغ وعرباً من معقل ويهوداً وجبالة والعلوج وعناصر البخاري.ويرَى الرجراجي أن تأثير العلوج واضح في الصور المنقوشة على بعض المنشآت كرسوم مدافع وحراب ورايات أوروبية بالسقالة ، ورسم مهْراسين على باب المرسَى.

ويظهر أن تخطيط الصويرة وإنجازها تطلب عدة سنوات ، وأن هناك مشرفين على انجاز المباني غير كورنو الفرنسي الذي نسب إليه تخطيط لاحق سنة 1183 / 1769 مع أن التخطيط الأول بدأ قبل ذلك بأربع سنوات . وهكذا فبعد هذا التاريخ توبع إنجاز التصميم العام الذي وضعه كورنو ؛ حيث نرَى اسم أحمد العلج منقوشاً على باب البحر كما لاحظ ذلك طيراس.وأحمد العلج هذا قد يكون هو باني التحصينات الموجودة بالميناء والتي لا توجد في تصميم كورنو الذي وضع على أية حال مجموعة المخطط الخارجي . ويُسمي الشعبيون أحمد هذا ، بأحمد اللنكليز إذ هو إنجليزي الأصل ؛ وهو نفسه الذي ساهم في تخطيط خمسة مساجد إلى جانب مهندس آخر اسمه «بيرن» وذلك بمدينة الرباط .

أما مشكل الماء فقد حل مؤقتا بإنشاء المطافئ والآبار أو بالسقي من الوادي الذي يصب بالمحيط قرب «الديابات» . ولما استخلف مولاي عبد الرحمن بالصويرة في عهد عمه مولاي سليمان سنة 1230 / 1814 قام بمد قنوات الماء من الوادي المذكور إلى المدينة بمباشرة خبير مراكشي اسمه محمد المزوضي وسميت الساقية المجراة باسمه .

وقد أنشئ بمدينة الصويرة عدد من المساجد وخمس مدارس فقدت أهميتها بعد الحماية . وحول الصويرة حدثت معارك طاحنة بين قبائل حاحا بقيادة عبد الرحمن انفلوس سنة 1330 / 1911 والجيش الفرنسي .

ولا تخلو التحصينات والبوابات من الطابع الإيبيري الموريسكي مع تجنب بعض الأخطاء الهندسية في تحريف هذه المنشآت كما لاحظنا في الفن الموريسكي الذي انتقل إلى الرباط قبل العلويين . والبناء متقن جداً ويدخل الحجر المنحوت فيه على نطاق واسع . وهناك اختصار في المباني وتجنب الضخامة والارتفاع الشاهق .

والبوابات حذوية في جملتها[2] .

3 – فضالة :

بدأ بناؤها حسب الضعيف انطلاقاً من الميناء سنة 1186 / 1772 – 1773 . وفضالة مرسَى قديم على شاطئ الأطلسي شمال الدار البيضاء ؛ سماها البكري جزيرة فضالة وساحل بلد تامسنا ، بلد برغواطة كما قال . وكانت المنطقة مأهولة بزناتة الذين نقلوا عند الشروع في بنائها إلى منطقة الشياظمة قرب أزمور ؛ ولايزال اسم زناتة حتَّى يومنا هذا يطلق على منطقة شاطئية بين البيضاء وفضالة التي تحمل الآن اسم المحمدية إطلاقاً على اسم مؤسسها سيدي محمد بن عبد الله . وشجع العاهل الأوروبيين على الاستقرار بها ، كما استقر بها عدد كبير من اليهود الذين كان أمناؤهم يتداولون جمرك المرسَى مع أمناء سلا والرباط المسلمين ؛ وبنَى قصبة فضالة ومسجدها ومدرستها مثلما بنى قصبتي الدار البيضاء والمنصورية لتستقر بكل منها حامية من الجيش ؛ وكانت قبيلة زعير قد بدأت غاراتها على منطقة الشاوية . ولاتزال قصبة فضالة ومسجدها المذكور قائمين كما لا يزال السور سليما في مجموعه . وهكذا كان الهدف من بناء فضالة عسكريا اقتصادياً[3] .

4 – الدار البيضاء :

قيل إن البرتغال هم الذين أطلقوا اسم الدار البيضاء على موقعها الذي كان يحمل اسم أنفا من عهد الفينيقيين على ما يظهر ؛ وأنفا مرسَى قديم يظهر أنه هجر مدة طويلة بعد الإسلام ؛ ويذكر البكري اسم «البيضاء» قبل (جزيرة فضالة) ولكنه يقول : وهو رأس جبل داخل في البحر ، ولذلك فهو يعني الرأس الأبيض ؛ وليس الدار البيضاء . وبذل في المباني الجديدة جهد لا يقل عن الجهد الذي بذل في الصويرة ؛ فقد بني بالدار البيضاء مدينة حملت اسم أنفا القديم وقصبة لأغراض عسكرية إدارية ، ومنشآت مينائية . ولذلك يقول أكنسوس في هذا العمل الذي

---

(2) الرجراجي، الشموس المنيرة. أكنسوس، جيش، ص 154، 175. الكانوني العبدي آسفي وما إليه، ص 54. *Hœfer, Empire, p. 314. Terrasse, Histoire, p.298 De Castries, Le Danemark et le Maroc, in Hespéris, 4e trim, 1926.*

(3) ضعيف، تاريخ، ص 174. 175. أكنسوس، ص 175. بكري، مسالك، ص 87. *Hœfer, Op. Cit. p.368.*

قام به أيضا السلطان محمد بن عبد الله أنه شمل مدينة أنفا ومساجدها ومدارسها وحمامها وسقاياها وأبراجها ، وقال أيضا بعد ذلك ، وقصبة الدار البيضاء . ومسجدها . وقد بقيت جملة من هذه المنشآت كالجزء المطل على الميناء وقطعة ممتدة من السور داخل المدينة القديمة وبعض المساجد التي جددت بأكملها . ولا يوجد أثر فيما نعلم ، للمدارس التي تحدث عنها أكنسوس ، وما بقي من منشآت الميناء القديم أو الجزء المشرف عليه ، لا يختلف في شيء عن الهندسة الأوروبية المطعمة بالتأثير الموريسكي والتي عرفناها في الصويرة .

وعندما حل البرتغال سنة 873 / 1468 بأنفا بصورة مفاجئة وفي أسطول من خمسين باخرة مدججة بالمدافع هاجر سكانها إلى سلا والرباط وكانوا يشتغلون بعمليات الجهاد البحري في شواطئ إسبانيا وبالأخص على ساحل قادس والبرتغال . وكانت أنفا حينئذ ، وحسب الوزان ، كبيرة المساحة تشتمل على قصور فخمة وعدد كبير من المساجد والدكاكين الرائعة والبساتين والكروم ، وضمت عدداً من ذوي الثقافة المتينة ، وشاهد الحسن الوزان في أوائل القرن 10 / 16 بقايا المدينة التي خربها البرتغال فتأكد من أنها كانت ذات أهمية[4] .

5 - أساكا :

ميناء أنشئ سنة 1299 / 1882 على إثر إنشاء كل من الاسبان والانجليز مركزا تجاريا على الشاطئ الأطلسي للمغرب جنوباً ، وكان تأسيس ميناء أساكا على مصب وادي أساكا بأمر من السلطان الحسن الأول أثناء إحدى حركاته إلى الجنوب. وكان الهدف هو تحويل وسق البضائع المحلية من المركزين الاستعماريين إلى الميناء الوطني مع العمل على تدمير المركز الانجليزي الذي لم يكن مرخصا له من الدولة . وعمل السلطان على تنصيب إدارة كاملة بالميناء الجديد[5] .

6 - تزنيت :

شرع في تأسيس هذا المركز الداخلي جنوب أكادير في صيف سنة 1299 /

---

(4) البكري، مسالك، ص 87. أكنسوس، ص 175 *Léon, Description, p. 160*
De Castries, Sources, (Saâdiens), V.1,2,3

(5) عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة، ج 4. 65. 62 *Dr Arnaud, Au temps des mehallas, pp.* ناصري، 9، 174 — 177.

1882 على إثر مرور السلطان الحسن الأول بمنطقة آيت باعمران . وكانت تلك أول حركة له إلى سوس ، ولم يكن إنشاء قصبة تزنيت في الحركة الثانية (1303 / 1886) كما ذكر الكانوني . وكانت تزنيت حسب هذا المؤلف نفسه مدشرا كبيرا غير مسور فأمر مولاي الحسن بتسويرها وفتحت بها ستة أبواب وحصنت بأبراج كما خصص موقع للجيش وأنشئت مرافق إدارية ودينية ، ومالبثت أن أصبحت عاصمة لمنطقة سوس يستقر بها خليفة السلطان الذي أنشئ قصره بها . وتأخذ تزنيت بطابع القصور الصحراوية والهندسة المحلية السوسية . وكان الغرض من إنشائها أو تحصينها هو جعلها مركزا عسكريا وسياسيا لمراقبة مباشرة لسوس وبخاصة آيت باعمران . وكان لشريف تازروالت نفوذ بالغ هناك حيث تقع زاويته الفخمة على مقربة من تزنيت وتطل عليها من الجبال المجاورة . وهذا الشريف هو محمد وهاشم من سلالة أبي حسون الملقب ببودميعة[6] . والواقع أن تزنيت نفسها تحولت إلى مدينة حقيقية بعد قليل من إنشائها بالنظر لنشاطها التجاري وموقعها كمحط بين إيفني وأكادير ولاتجاهها نحو الصحراء الغربية .

7 – السمارة :

هي آخر مركز حضري تم بناؤه في العصر العلوي قبل الحماية . وللسمارة (أو الصمارة) مميزات خاصة بها . فهي في قلب الصحراء الغربية بمنطقة الساقية الحمراء . وبناؤها كان بمبادرة من مؤسسها الشيخ ماء العينين وليس من السلطة الرسمية ؛ لكن إنجازها تم بفضل المعونة الكبيرة والمتواصلة التي تلقاها الشيخ ماء العينين من مصالح المخزن العزيزي ، وبأمر من السلطان نفسه . وهذا إلى جانب المساعدات البشرية والمادية التي تلقاها المؤسس من مريديه وأنصار حركته الجهادية والثقافية . وينبغي التمييز هنا بين مؤسسي أسرة ماء العينين ، وجدهم هو محمد الفاضل الذي أسس الطريقة الفاضلية السنية وهو تلميذ المختار الكنتي ، وأبرز أنجاله العديدين هو مصطفَى محمد المعروف بالشيخ ماء العينين . وهو مؤسس السمارة والمولود سنة 1254 / 1838 كما طور الطريقة الفاضلية أو أنشأ منها فرعاً جديداً هو طريقة أهل بركة الله واتصل بمولاي عبد الرحمن سنة 1271 / 1854 ثم بأعقابه وورثاء عرشه

---

(6) الكانوني، م.س. ص 57. *Arnaud, Op.Cit. pp.61-65*

إلى وفاته 1328 / 1910 ونجله هو أحمد الهيبة الذي استولى على مراكش وحاول أن ينشئ حكما مستقلا لمواجهة سلطات الاحتلال الفرنسي التي فرضت ضغطها على مولاي عبد الحفيظ .

وأنشئت السمارة لعدة أسباب : 1) لتكون رباطاً فكرياً روحياً تنشر منه وفيه المعارف الدينية واللغوية . 2) لتكون رباطا حربيا يتحرك للجهاد ضد الاحتلال الأجنبي لموريطانيا . 3) لتكون حلقة اتصال بين موريطانيا وحزام الاستيطان بالمغرب والملامس للصحراء المغربية . ولم تكن السمارة خالية من السكان قبل بنائها فقد كانت على شكل تجمع أو مدشر من الخيام ثم بدأ بناؤها على شكل قصبة ابتداء من 1316 / 1898 . ولم تستقر المدينة بمرافقها وشكلها العام إلا سنة 1322 / 1904 وهي مدة معقولة بالنظر لاستقدام مواد البناء من مدن المغرب بما فيها طنجة وتطوان إلى طرفاية حيث تنقل هذه المواد بحراً بالسفينة العصرية الوحيدة لدى المغرب ، (التركي) كما ينقل الباقي من جزر الخالدات بالمراكب والسفن الصغيرة ، ومن طرفاية تنقل المواد بالقوافل إلى السمارة . وضمت المدينة 18 قصراً على شكل القصور الصحراوية يتوسطها قصر الشيخ ماء العينين الذي ألحق به هري لخزن الحبوب كما أنشئ خزان لتجميع المياه وتوزيعها على السكان ، وهناك سجن لتنفيذ العقوبات المخصص لها . وكانت الساحة العمومية محاطة بأروقة من جوانبها على شكل أغلب المدن الصحراوية. وأهم شيء إلى جانب الحركة الاقتصادية الكبيرة التي عرفتها السمارة بفضل تجارة القوافل ، هو بدون شك المدرسة العلمية التي أنشأها الشيخ ماء العينين وأنجبت أعدادا كبيرة من التلاميذ منهم من ينتمي إلى أسرته ومنهم موريتانيون ومغاربة من الشمال وسكان الأقطار المجاورة ، ثم هناك الخزانة التي خصصت لاستفادة الطلاب والشيوخ ، بالإضافة إلى الثروة العلمية التي تركها هو نفسه ويوجد الكثير منها موزعا بين أسرته والخزانة العامة بالرباط .

وفي 1324 / 1906 دخلت السمارة تحت الإدارة المركزية بشكل مباشر أي بتعيين خليفة سلطاني بها وهو الأمير مولاي إدريس الذي حضر على رأس كتيبة من الجيش مع القواد الذين عينهم السلطان بالمناطق الصحراوية ، وحضر حفل استقبال هذه الشخصيات مبعوثون كثيرون من مختلف قبائل الصحراء الغربية وموريطانيا . وكانت الزاوية التي أنشأها وهي في نفس الوقت مؤسسة تعليمية منطلقاً للنضال

المسلح ضد الغزو الاسباني والفرنسي[7].

القصبات والتحصينات

أنشأت الدولة مجموعة من القصبات والقلاع والأسوار والأبراج وتميز مولاي إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله بجهود خاصة في هذا المجال. وكان من القصبات الأولى اثنتان بفاس إحداهما بباب الخميس لشراقة والأخرى بعرصة ابن صالح، وكان بناؤهما سنتي 1081 ــ 1082هـ ؛ والقصبتان معا لسكنى الجند النظامي، وأنشأ مولاي إسماعيل مجموعة كبيرة من القصبات والقلاع بلغت ستاً وسبعين موزعة بين بني يزناسن والأطلس وبعض المدن. وكانت قصبات الأطلس بمثابة محطات للمسافرين، وكثير من القلاع والقصبات التي أقامها مولاي إسماعيل كانت ترميماً لمنشآت سابقة أو بنيت على أنقاض هذه المنشآت، ومنها قلعة أزرو الزناتية ثم المرابطية وقصبة بو الأعوان قرب الجديدة وهي من المنشآت الأولى في عهد الموحدين وهي لمراقبة منطقة دكالة ؛ ومن القصبات الجديدة قصبة تادلا وقصبة أكناو بسلا، وأكوراي قرب مكناس جنوبا، وقصبة الشاون.

ومن القصبات التي بنيت في عهد سيدي محمد بن عبد الله قصبة المنصورية وأنفا وفضالة، كما أنشأ مولاي عبد الرحمن قصبتي الصخيرات وبوزنيقة.

وتشتمل القصبات أو جلها على أبراج دفاعية وأهراء ومخازن ؛ فضلا عن المسجد والحمام وسائر المرافق الضرورية، وتحتوي قصبات المدن على مقر العاهل أو قائد الحامية، وبكلمة مجملة فدور القصبة الأساسية عسكري أمني بالدرجة الأولى.

أما الصقائل والأبراج فمنها ما أنشئ بالصويرة وطنجة والعرائش وأنفا وكلها من عهد السلطان محمد بن عبد الله، وفي عهد مولاي عبد الرحمن أنشئ حصن بسلا عرف بالبستيون أو الصقالة وجهز بالمدافع على غرار الحصنين اللذين شيدا من قبل على يد العياشي الذي تولى زعامة المقاومة انطلاقا من سلا. ويتميز البستيون عادة بأنه يحتل زاوية يبرز فيها كتقوية لتحصينات موجودة. وانتشرت البستيونات فيما بين القرنين 10 و13 (16 ــ 19م).

---

(7) أمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط. محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، ج1. عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، معلمة الصحراء ملحق 1

Le Chatelier, L'Islam dans l'Afrique Occidentale, Paris, 1899. Gillier, Pénétration en Mauritanie, Paris, 1926.

وشيدت شبكة من الأبراج لأغراض دفاعية أو للمراقبة . والأبراج قد تلحق بالقصبات والقصور الصحراوية وزوايا الأسوار أو تنفرد حول التجمعات السكنية أو حول طرق القوافل . والبرج بناء عال لا يسع إلا عدداً محدوداً من الناس يقوم غالبا على قاعدة مربعة أو مستديرة . ومن بين الأبراج . برج مارتيل الذي أنشأه حول تطوان مولاي إسماعيل وجدده محمد بن عبد الله . وكان البناء الأول على يد القائد أحمد بن علي الريفي .

وأنشأ محمد بن عبد الله جملة من الأبراج بالدار البيضاء والرباط والعرائش وطنجة وغيرها وساهم في هذا العمل بعده مولاي سليمان . وبنَى محمد بن عبد الرحمن أبراجاً بالجديدة وبرج الفنار على ساحل طنجة لتهتدي به السفن وهو لازال قائما ، ومن بين منشآت نجله وخلفه الحسن الأول ثلاثة أبراج بهذه المدينة وحصن بقرب الحياينة بضواحي فاس . كما أنشأ مولاي عبد العزيز برجاً بجي المحيط بالرباط على يد بعض المهندسين الألمان وجهز بمدفعين من مدافع كروب .

بذلت جهود لإنشاء عدد من القناطر لعبور الجيش والقوافل . ومن ثم فهي تتمم مجموعة التحصينات المذكورة كما تساهم في تأمين التبادل الاقتصادي والتواصل البشري . ومن القناطر الرئيسية قنطرة وادي سبو قرب فاس من طريق مكناس وهي ذات أقواس أربع وكان الشروع في بنائها سنة 1079 / 1668 حسب الناصري ، وسنة 1080 حسب أكنسوس . ويبدو أن أهم شبكة للقناطر تم تشييدها أو تجديدها أو ترميمها في عهد مولاي سليمان ومنها قنطرة الرصيف بفاس والتي أعيد بناؤها مرتين ، والقناطر بين فاس ومكناس التي تمَّ ترميمها . كما بنيت قنطرة وادي حصار بتامسنا وأعيد بناء قنطرة وادي تانسيفت بمراكش بعد سقوطها . وشيد جسر على وادي مكس بسفح جبل زرهون في عهد محمد الرابع .

ونحن لا نملك مع الأسف معلومات مضبوطة عن التحصينات التي أنشأها الخواص وبينهم ثوار شعبيون وإقطاعيون . ولكن لابد من الإشارة إلى عدد من قصبات الجنوب التي هي من هذا القبيل أو ذاك . كقصبة الجندافي وقصبة الجلولي بتمنار كما نشير إلى منشآت بوحمارة بتازا وبالأخص إلى مشوره ، وإلى قصبة تازروت ببني عروس بالشمال ، والتي أنشأها مولاي أحمد الريسوني[8] .

---

(8) ضعيف، تاريخ، ص 53 — 55. أكنسوس، ص 61، 71، 73، 75، 138، 175. ناصري، 7: ...

المنشآت الدينية والاجتماعية :

يدخل في هذه المجموعة المساجد والمدارس والرباطات والزوايا والأضرحة . وبينها ما أحدث أو جدد أو رمم أو وسع ، وعلى العموم فإن هذه المنشآت لا تمثل أي تطوير يذكر بالنسبة للعهود السالفة وهي تتأثر كلياً بمؤثرات العهد المريني من حيث الشكل ومواد البناء والنقوش والزخارف ، لكن الزخارف الهندسية التي تسودها الأصباغ والتذهيب نالت اهتماماً خاصاً بالنسبة للسقوف الخشبية والأبواب وقد شملت حتَّى القصور والدور الفخمة ، وهناك أيضا مؤثرات سعدية تأخذ هي نفسها بشيء من الطابع العثماني .

1 – المساجد :

يعد في طليعتها مجموعة المساجد التي أنشئت بمكناس كمسجد الزيتونة الذي أصبح معهداً دينياً كذلك . ومسجد سيدي سعيد وباب البردعيين والجامع الأخضر بالقصبة ، وكلها من العهد الإسماعيلي. ويرَى طيراس أن منارات هذه المساجد التي زخرفت بعمدان صغيرة تتأثر بمساجد السعديين بمراكش . وأنشأ مولاي عبد الله بفاس الجامع التعليمي الذي اتخذ أيضا ضريحاً للشرفاء تشابه قبته قبة ضريح مولاي إدريس الذي أعاد إنشاءه مولاي إسماعيل . ودفن مولاي عبد الله بالجامع الذي أحدثه .

وفي أواخر الثمانينات من القرن 12 / 18م عمل سيدي محمد بن عبد الله على إحداث أحياء جديدة بالرباط جهزت بخمسة مساجد: مسجد أهل السنة . ومسجد أهل فاس ، ومسجد أهل مراكش ومسجد أهل سوس ، ومسجد الأودايا وساهم في تخطيط هذه المجموعة المهندس بيرن والخبير أحمد اللنكليز العلج ، وفي نفس الوقت أحدث قصر الرباط على يد منصور العلج مهندس باب منصور العلج بمكناس ، وقد جددت مساجد سيدي محمد بن عبد الله كلياً ، وفي إطار إحياء

- 40، 41، 8، 68، 172. 9، 12. مشرفي، حلل، ص 195 ــ 196. زياني، بستان، ص 29. كردودي، درمنضد، و183 ــ 184. عبد الرحمن بن زيدان، اتحاف أعلام الناس. محمد داود، مختصر تاريخ تطوان، ص 69. عباس المراكشي، إعلام، 6، 128، 132. الصديق بن العربي، المغرب.

Terrasse, Histoire, 2, 258, 300. Deverdun, Marrakech, p.479
Coufourief, Arch. Maroc. 8/1906. G.Marçais, Manuel d'art musulman. P. Ricard, Pour comprendre l'art musulman. Champion, Le Maroc et ses villes d'art.

السنة وحركة البعث الاسلامي الموازي لمثيله في جزيرة العرب أنشأ هذا السلطان مجموعة كبيرة من المساجد موزعة بين مراكش والصويرة وآسفي وتيط القصبة. والدار البيضاء (المسجد العتيق) وآسفي وقصبة الدار البيضاء، وتازا والريصاني التي أحدثها مولاي اسماعيل وفضالة والمنصورية ومكناس (الجامع الأزهر) وجامع البردعيين (المجدد) بمكناس أيضا. وكذا العرائش وغيرها.

غير أن مراكش نالت حصة الأسد من هذه المجموعة. وكان محمد الثالث خليفة عن والده بمراكش قبل أن يعتلي العرش. ولذلك تعرف عن كثب على المدينة وكل المنطقة الشاسعة التي كانت تحت مسؤوليته كخليفة، ومن ثم فقد نال شعبية حقيقية بمراكش نظراً لاهتماماته الدينية وعنايته الخاصة بالأضرحة الرئيسية من غير أن يتعارض في ذلك مع عملية إحياء السنة لأن الأضرحة الرئيسية نفسها حولها إلى مراكز لتنشيط الحركة الثقافية السنية.

وتناول «دوفردان» عددا من المساجد التي أنشأها محمد الثالث بشيء من التحقيق الأثري، ونذكر منها جامع «برِّيمة» بمراكش والذي هو مسجد ملحق بالقصر الملكي، ويشتمل بيت الصلاة على قبتين إحداهما تمتد طولا أكثر من الأخرى وتمثل ردهة بين الفناء وبيت الصلاة وتفصل أيضا بين قاعتين إحداهما للعاهل والأخرى لحاشيته، ولاحظ دوفردان الأخطاء الذوقية والهندسية في أساطين الردهة الخارجية التي تختلف كليا عن أعمدتها الداخلية. ويشغل بيت الصلاة 13 × 25م والفناء مربع: 35 × 35م. كذلك انتقد دوفردان بساطة المنارة من الداخل بمرقاتها البدائية ومن الخارج لفقرها الفني. وكان حول المسجد مدرستان إحداهما كُتاب قرآني، وملحقات أخرى خربت من وقت بعيد، ويظهر أن المسجد نالته يد التغيير بعد مؤسسه الذي قال أكنسوس إنه «أسسه على هيئة عجيبة بديعة الشكل متقنة الوضع تحيّر من تأملها وتروي من أبصرها».

وأنشأ مولاي سليمان بدوره عددا كبيرا من المساجد، وكان يسير في اتجاه سلفه ووالده محمد الثالث وذكر الزياني وأكنسوس وغيرهما لائحة هذه المساجد، ومنها الجامع الكبير بتطوان والذي أنشئ سنة 1223هـ على أنقاض مسجد صغير مع توسيعه. ومسجد أبي الجعد، ومسجد السويقة بالرباط، وجامع الرصيف وجامع الديوان وأبي الحسن بن غالب ومسجد مدرسة الوادي وكلها بفاس، وأعاد بناء

جامع علي بن يوسف ومنارته بمراكش ، وبنَى جامع صفرو ومسجد الجزارين بسلا وجامع وجدة وجامع وازان ومسجد المنزل بين فاس وتازا .

وفي عهد مولاي عبد الرحمن أعيد بناء جامع المنصور بمراكش (القصبة) . كما جدد جامع الكتبيين وأعاد بناء جامع الوسطَى وأحدث جامع القنارية وجامع أبي حسون وكلها بمراكش وهذا بالإضافة إلى توسعة مساجد أخرى وإعادة جزئية لبعض مبانيها كالمنارات وغيرها .

ومن منشآت السلطان محمد بن عبد الرحمن جامع السوق بالدار البيضاء ؛ وقد شمل بالإصلاح مسجد السنة ومسجد أهل فاس بالرباط . وزخرف سقوف هذا الجامع الذي يقع بالمشور . كما وسع مسجد أحمد الشاوي بفاس ، وذلك سنة 1282 / 1865 . ويذكر المشرفي في «الحلل البهية» أن أعمال الحفر في هذا المسجد كشفت عن وجود مقابر في طبقات أربع (ويذكرنا هذا بمقابر شالة) وبأسفلها وجدت بقايا هياكل بشرية مفرطة في الطول والغلظ . مباينة بكثير ، لاجرام إنسان العصر الحديث .

2 – الأضرحة والزوايا

تخصص الأضرحة للأولياء والزهاد والعلماء والملوك والأمراء . والضريح قد ينفرد به دفينه الذي خصص له ، وقد يكون بجانبه دفين آخر أو أكثر ، وهناك أضرحة تقام حولها مقابر للعموم أو مقابر يخصص ركن منها لضريح ؛ وقد تشمل عدة أضرحة ، وإذا حظي الضريح بمقام شعبي أكبر حول إلى جامع أو مسجد . خصوصاً إذا كان دفينه صاحب طريقة أو ترك تأثيرا دينيا كبيرا . ويعد ضريح مولاي إدريس الأكبر بزرهون ، وضريح مولاي إدريس الأصغر بفاس ؛ وأضرحة السبعة رجال بمراكش في قمة الأضرحة المقدسة . وهناك أضرحة أخرى لها مقام مواز أو مقارب كضريح عبد السلام بن مشيش بجبل العلم شمالا ، وضريح أبي شعيب الصنهاجي بأزمور .

وجل الأضرحة من بناء الخواص ، يقيمها أهل الراحلين أو عاطفون عليهم أو أتباعهم في الطريق ، وبعض الأضرحة ذات المكانة لدَى الشعب يهتم بها الملوك فيزينونها أو يوسعون منشآتها أو يعيدون بناءها . أما شكل الضريح فإن الغالب أن

ترتفع فوق أضلاعه الأربعة قبة هي في ذات الوقت دليل للقادم من بعيد وشكل هندسي يسمح بامتصاص أقل قدر من أشعة الشمس ويقي من الحرارة في الداخل ويعطي للمكان جلالاً بفضل الفضاء الداخلي.

وكان ضريح مولاي ادريس الأكبر بزرهون من بين الأضرحة الرئيسية التي أخذت باهتمام الدولة بالنظر لكونه كان مكان عبادة أيضا ، وكانت تعلوه قبة فهدمت وأعيد بناؤها من سنة 1132 إلى 1134 (1719 – 1721) وغطي سطحها بالقرميد الأخضر ، ويرى «بيرتيي» أن هذا هو التاريخ الذي صارت زرهون بعده تجمعا سكنيا يكتظ شيئا فشيئا حول الضريح . وأن الزاوية هنا خرجت من الظل لأول مرة لترتب بين أعظم الأضرحة قداسة لدى الشعب المغربي المسلم.

ولقي ضريح مولاي إدريس الأصغر بفاس عناية مماثلة من مولاي عبد الرحمن الذي اشترى منزلا بجوار الضريح وأضافه إليه لأن الضريح هو في ذات الوقت مسجد وقد توسع بفضل هذه الزيادة التي قام عليها مقاول هو الهاشمي بن ملوك البلغيثي ، وأحاط الشعبيون المكان بقداسة خاصة منذ أجيال فجعلوا له «حرماً» يصبح اللاجئ في مأمن من المتابعة بمجرد دخوله ، وبجواره دار قيطون التي يأوي إليها النساء.

وفي مراكش عني محمد الثالث بأضرحة الرجال السبعة التي شيدت على شكل مساجد أو معها ، وتميز ضريح أبي العباس السبتي بوجود مدرسة إلى جانبه مما شيد مع المسجد أيضا ولهذا الضريح حرم على غرار الحرم الإدريسي مع فارق في الشكل ، ويعد أيضاً زاوية تتوفر على غرف استقبال ومرافق مختلفة للوافدين.

وشاد محمد الثالث مسجد شاكر على أنقاض رباط شاكر بين الصويرة ومراكش بعد الانعطاف إليه يميناً على مسافة 56 كلم بين الصويرة ومراكش.

وشاكر هذا لم يضبط نسبه فهو عند البعض شاكر بن يعلى بن واصل الرجراجي ، وعند آخرين شاكر بن عبد الله الأزدي . قيل دخل مع عقبة بن نافع الذي تركه لنشر الإسلام بين المصامدة ، وكان له جهاد في رجراجة ، وأن رباطه اندثر في المائة الثالثة للهجرة ثم أحياه سيدي محمد بن عبد الله سنة 1187 / 1773 .

وفي إطار المجموعة الدينية والاجتماعية قام مولاي عبد الرحمن 1263 / 1846 بإنشاء جناح لذوي الأمراض العصبية سيدي بن عاشر بسلا. وكان للسلطان محمد ابن عبد الله عناية بمارستان فاس ومراكش اللذين أضاف إليهما أوقافا خاصة. لكن هذه المنشآت الصحية كانت تعتمد بالدرجة الأولى على الروحانيات والتماس بركة الأولياء، وقد عرفنا سابقاً مدَى تخلف المجتمع المغربي في الميدان الصحي.

3 - المدارس :

قامت حركة كبيرة على الصعيد الشعبي لإنشاء المدارس أو لاتخاذ الزوايا والمساجد مراكز للتعليم والتثقيف. وقد اهتمت الدراسات الإقليمية والمحلية بتعداد هذه المؤسسات وأحيانا قليلة ببعض محتوياتها كالكانوني عن آسفي ومحمد داود عن تطوان ومحمد المختار السوسي عن سوس وعباس بن ابراهيم عن مراكش وسلسلة مدن المغرب وقبائله بالفرنسية والتي وضعتها الإقامة العامة في فجر الحماية؛ وكتاب «كايي» عن الرباط؛ الخ.. وستحظى المدارس والمؤسسات التعليمية الخاصة بما تستحقه من عناية في دراسة على حدة[9]؛ أما من الوجهة الفنية فغالبها يمثل بساطة الحياة والمحيط الذي أنشئت به. كما أن جل المدارس التي أنشئت من إيرادات بيت المال أو الأوقاف قد تهدمت أو امحى أثرها أو غيرت معالمها؛ وبينها كتاتيب أو مدارس للطلبة؛ كمدرسة أبي العباس السبتي الملحقة بضريحه ومدرسة مسجد الريصاني؛ ومدرسة مسجد العرائش والمدارس الملحق كل منها بضريح الشيخ التباع ومسجد بريمة بمراكش ومدارس قصبة مراكش وهي ست والمدرسة الملحقة بمسجد فضالة؛ ومدرسة الصهريج ومدرسة قصر الدار البيضاء وكلتاهما بمكناس؛ ومدرسة مسجد تازا؛ ومدرسة المسجد الأزهر بمكناس ومدارس الصويرة التي تحدث عنها باقتضاب الرجراجي صاحب «الشموس المنيرة». وكل هذه السلسلة من المدارس أنشئت في عهد سيدي محمد بن عبد الله. وتوزيعها يدل على الجهات التي انصب عليها اهتمام الدولة؛ كما يدل على وجود نشاط مواز على الصعيد الشعبي في معظم الجهات التي لم تحظ باهتمامها كسوس ودكالة والريف الخ...

---

(9) دراسة عامة عن التيارات السياسة والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية أشير إليها في مكان آخر من هذا الكتاب.

ونشير هنا إلى مؤسستين اثنتين بفاس ، وهما مدرسة الشراطين ومدرسة باب الجيسة (تحريف لعجيسة . من أمراء زناتة) .

وقد شيدت مدرسة الشراطين في عهد مولاي رشيد الذي سبق أن تلقَى دراسته بالقرويين ، وقد أقيمت على أنقاض مدرسة الشماعين التي هدمت بعد أن تأكد مولاي رشيد من سوء التصرفات الأخلاقية للطلبة بالمدرسة القديمة فهدمها ، وتحتوي الشراطين على مائة غرفة ، وكان يؤمها على الخصوص طلبة من تافيلالت وتازا والمناطق الشرقية وشرق الجزائر ، وسكنها عدد ممن نالوا مكانة فيما بعد ، ومنهم الفقيه محمد السكندراني الذي أسس زاوية بالاسكندرية وعاش إلى فجر الحماية .

أما مدرسة باب الجيسة فقد بناها السلطان محمد بن عبد الله ، كما بنَى المسجد المحاور لها ، وهي سفلية لا طابق لها ، وتحتوي على عشرين غرفة . وكان يقصدها على الخصوص طلبة جبالة[10] .

4 – القصور والبساتين :

ما يهم من هذه المنشآت هو الجانب المعماري والفني وتطوره بالنسبة للعصور السابقة . وإذا كان مولاي إسماعيل قد شاد مجموعة من القصور واختط عدة بساتين بمكناس ، فإن مدنا أخرى قد شهدت نصيبها من هذه المنشآت في عهد أعقابه . كفاس التي أنشأ بها محمد بن عبد الله قصر دار دبيبغ سنة 1153 ، ومراكش التي بنَى بها قصر المنشية في عهده أيضا ، والرباط التي بني بها مولاي عبد الرحمن قصر أكدال .

وهكذا تم إنشاء قصر المنشية خلال فترة طويلة استغرقت ما لا يقل عن عشرين سنة ابتداء من 1160 / 1747 نصفها في خلافة محمد بن عبد الله بمراكش والباقي أثناء ملكه ، والحقيقة أن «المنشية» مجموعة من القصور والقباب ، حيث يوجد شمال المجموعة القصر الأخضر المعروف بالمنصور أيضا ثم بستان النيل الذي كان له أربعة أبواب كل منها في زاوية من البستان الذي يتصل من طرفه الآخر بالدار الكبرَى .

---

(10) تراجع المصادر والمراجع السابقة، بالاضافة الى : الكانوني، آسفي وما إليه. عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة مغربية، معلمة الصحراء ملحق 1، ص 106.

P. Berthier, Essai sur l'histoire du massif de Moulay Idriss, pp107-112.
A. Peretié, Les médersas de Fès, Archives Maroc. Vol. 28/1912.

ويضم القصر الأخضر مجموعة من المساكن العائلية إلى جانب دار الحاجب والمطابخ والمستودعات وغير ذلك. وتقع الدار الكبرى جنوبا وتشمل أيضا مجموعة من المساكن والأجنحة التي يعلو بعضها القباب وكل هذا المجمّع كان مخططاً بدقة وموزعاً في الأصل بشكل متوازن. وقد تم بناؤه على يد بعض المهندسين المغاربة والعلوج والتقنيين المستقدمين من إسبانيا. وكان البستان المذكور يشرف عليه أيضا ولمدة طويلة تقنيون أوروبيون. وحسب المشرفي في «الحلل» فإن تجديدات دخلت على القصور الملكية بكل من مراكش وفاس ابتداء من مولاي سليمان. واختط سيدي محمد بن عبد الله بستانا من ثلاثة عشر هكتارا غرست زيتونا في مواجهة سور القصبة جنوب المقبرة اليهودية، وهو يمثل الجزء الأخير من جنان «الصالحة» الذي نسب إلى المرابطين والموحدين؛ وهو جنان أكدال الشهير. كما عني هذا السلطان بروض المسرة الذي يتوسطه صهريج المنارة والذي هو من اختطاط السعديين.

وعمل مولاي عبد الرحمن على إحياء جنان أكدال بمراكش. كما أتم نجله السلطان محمد بن عبد الرحمن هذا العمل؛ وأحيَى بستان المسرة وعين المنارة وصهريجها. كما أنشأ قصر أكدال بالرباط وسوره. وقد تحدث الناصري عن هذا القصر الذي دخل إليه مع كبار الزوار بعد تدشينه وأبدَى إعجابه به. وكانت صهاريج أجدال بمراكش قد امتدت إليها يد الإهمال وعطلتها السيول ثم تراكم بها الطين حتَّى جف، وعمد بعض الناس إلى إنشاء قرية بكاملها داخل الصهريج الأكبر. فوقع إزالة ذلك كله، وعادت الصهاريج إلى اختزان الماء وتوزيعه على «أجدال» (أي المرعَى) والذي أصبح بستانا شاسعاً يحتوي على غابات الزيتون والفواكه.

وتحدث «شامبيون» عن أجدال مراكش الذي غرسه مولاي عبد الرحمن فيما بين 1240 ــ 1250 (1824 ــ 1834) فذكر أنه عبارة عن مجموعة من البساتين ينفصل بعضها عن بعض، وتنتج الليمون والبرتقال والزيتون والشعير. وكانت خزانات الماء تتلقى المياه من مسفيوة وقد ضمت هذه المجموعة قصراً لمولاي الحسن ومعامل البارود التي أنشئت في عهده. ويضم القصر فناء كبيرا وصهريجين مستطيلين حوِّلا فيما بعد إلى بساتين، وأربع قاعات كبرَى ومجموعة من الغرف المزخرفة تقابلها من جهة الشرق غرف الخدم.

ويبدو قصر الباهية الذي أنشأه الصدر الأعظم باحماد بمراكش في مستوى أجمل القصور الملكية . وأشرف على هذا العمل المعماري والفني الرائع : المهندس الحاج محمد المكي . والقصر عبارة عن إضافة جديدة فخمة ضمت إلى قصر والد باحماد وهو موسى البخاري . ويشمل روضا ممراته من الرخام ، وفسقياته من إيطاليا . وقام بالتزليج وتوزيع الفسيفساء صناع من فاس ، وحظيت القاعات الرئيسية بعناية فائقة : فسقوفها الخشبية وجدرانها تغطيها الزخارف والكتابات الرائعة على الرغم من أن القاعات ينقصها الضوء والهواء بكيفية خاصة ، والزخارف نباتية وهندسية وكتابية .

وقد أنشئ القصر بناء على تصميم دقيق وضعه الحاج محمد المكي وانتقده دوفردان بشدة ورأى أن الانسجام يعوزه . وأن المالك قد وضع يده على عدد كبير من الدور المجاورة والأزقة فهدمها أو أدخلها في قصره الذي ظل يقبع وسط مبان متواضعة ومتنافرة . وتوفي باحماد سنة 1318 / 1900 . وقد كان شيئاً عجيباً أن يتفرغ هذا الشخص في أخريات حياته لبناء قصره ملازماً له أكثر وقته ، بينما كانت مهمته كوصي على العرش ومسير حقيقي للدولة تقتضي منه أن يلتفت إلى الأخطار المحدقة بالبلاد ، خصوصاً التوغل الاستعماري . وأنشأ أخوه سعيد قصراً يحمل حتى الآن اسم دار سي سعيد (بمراكش) وهو أقل روعة[11] .

(11) ضعيف، تاريخ، ص 119، أكنسوس، جيش، 131، 175. مشرفي، حلل بهية، ص 191، 195 — 196. 236. ناصري، استقصا، 7، 195 — 196. 9، 15، 18، 79. 115، 127،

Champion, Le Maroc et ses villes d'art, pp.130 - 135. Terrasse, Histoire, 2, 266-268. Deverdun, Marrakech, pp,480, 491, 536, 542-546

الفصل الرابع
الحياة الدينية

امتزج الدين امتزاجا وثيقا بمختلف مظاهر الحياة ؛ وفي الواقع يرتبط الدين بالحياة اليومية لكل الأتقياء ثم تتدنى ممارسته تدريجياً بحسب الوسائل المتوفرة لاحترام تعاليمه . وليس هناك فاصل يحسم نهائياً بين هذا العصر وما قبله . وهكذا يمكن أن نضع نهاية العصر الموحدي بداية لعصر جديد يتنافس فيه الصلحاء وأرباب الزوايا والفقهاء في التوجيه الروحي للأمة ؛ ويستمر هذا العصر حتّى فجر الحماية ؛ ولكن العصر الموحدي نفسه هو بداية واسعة للانكباب على السنة والحديث إلى جانب القرآن الكريم تعقبها فترة من الاستغراق في المذهب المالكي ثم استئناف في العصر الذي تعالجه هذه الدراسة للاهتمام على نطاق واسع بالحديث النبوي . وفي هذا العصر العلوي أيضا نأخذ ظاهرة التبرك بالاشراف وليسمح القارئ باعطائها لفظاً آخر هو الاستشراف الذي نقصد به الانتماء إلى الأشراف تبركاً أو ادعاء ، أوسع مدَى وصلته . وبجانب هذا كله فإن التدجيل والشعوذة وجدا ميدانا خصباً في الأوساط الاجتماعية ذات المستوَى الفكري المحدود ، كلما ظهر فراغ سياسي أو تضاءلت لدَى الأوساط الشعبية آمال الخير في هذا المسؤول أو ذاك .

السلطة والتوجيه الديني

حرصت السلطة العليا على الإمساك بزمام القيادة الدينية وتوجيه الأمة في نطاق الإسلام حسب مفهومها الذي قد يختلف شكلا وجوهراً من ظروف إلى أخرى . غير أن شخص العاهل وسلوكه واهتماماته الدينية ، كل ذلك يمثل دوراً رئيسياً في هذا التوجيه الذي ارتكز على المسجد كأداة تبليغ وتكييف . وعلى سبيل المثال ، نرَى مولاي إسماعيل يقيم حفلا تكريميا للعلماء عند ختم التفسير ويشرع حديث الإنصات

يوم الجمعة قبل الأذان ابتداء من 1120 / 1708 . أما مولاي سليمان فيحيي ليالي رمضان ويحضر التراويح ويقيم مجالس للاستماع إلى الحديث النبوي ومناقشته مع الأساتذة ويقدم صلات للمدرسين والطلبة تشجيعاً لهم على الدراسة . وبلغ من اهتمامه بالحديث أن وزع مجموعة الأربعين حديثاً النووية على العلماء دون أن يفرط في دراسة متن خليل الذي ألزم به الطلبة وأمر باختبارهم في حفظه ووصلهم بصلات جزيلة كما يؤكد الضعيف.

وفي إطار التوجيه الديني يظل صحيح البخاري كتابا في منتهَى التكريم ، ووصل إلى هذا المقام خصوصا في عهد السلطان محمد الثالث الذي يروي الضعيف أنه فرق سنة 1201 / 1786 حوالي خمسمائة طالب لقراءة صحيح البخاري في مساجد مراكش . وأشرف مولاي الحسن سنة 1290 / 1873 على ختم البخاري في عيد الفطر مستمعا إلى درس الفقيه المهدي بن سودة . ووزع الصلات على الحاضرين والقراء والمدرسين بالعدوتين والموظفين الدينيين وفرق المدفعية والبحرية . وكل هذه الأنشطة الدينية تساير الاتجاه الشعبي في أعمق مشاعره الدينية ، وبالخصوص إذا أطرها مسؤولون وأساتذة ملتزمون للخط الإسلامي السليم .

وقد أثرت العناية المغربية بتدريس البخاري في الوسط الجزائري المعاصر لعهد السلطان محمد الثالث[1] وهو وسط متشبث بالمذهب المالكي السني على الرغم من أن العثمانيين يأخذون بالمذهب الحنفي الذي هو مذهب الرأي أكثر منه مذهب النص .

وأخذت شؤون الحج والبقاع المقدسة باهتمام المغاربة بشكل عميق ، وبدا واضحا في أوساط هذا المجتمع الذي اندس إليه الدجالون وتجاذبته التيارات السياسية والدينية والسلبية أن مَثَلها الأعلى هو الرحيل إلى هذه البقاع من أجل حج يطهر من الذنوب ويمثل أيضا لجوءاً روحانيا من الشرور والمظالم التي طالما ارتكبها ولاة ومسؤولون في حق الفئات المحرومة والميسورة . ولذلك نجد مغاربة كثيرين يطول مقامهم بهذه الديار وقد يتحول إلى قطيعة نهائية مع وطنهم الأصغر .

ويتوجه أغلب الحجاج في قافلة كبيرة تتجمع بفاس وتنطلق بإدارة شيخ الركب

(1) ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني، ص 458.

الذي يمثل العاهل ويدير شؤون الحج ويبلغ الهبات الملكية إلى الجهات المعنية ويتفقد الأوقاف المغربية بالبقاع المقدسة.

ومن أوائل أشياخ الركب في العهد الإسماعيلي الشيخ الحسيني الذي كلفه السلطان بمهمة لدَى أمير مكة سعد بن زيد. كما أرسل مبعوثا آخر إلى هذا الأمير. وهو وصيفه الحاج أحمد الذي كان على اطلاع واسع بأحوال المشرق الذي قضَى به 18 سنة متنقلا. وكان بين الشريف سعد وبين أمراء الحج أو شيوخ الركب كما كانوا يدعون بالمغرب نزاع أدَّى إلى قلاقل فيما بين 1080 و1081هـ حتَّى كاد هؤلاء يلقون القبض على الشريف وأخيه بمنىً واضطر إلى اللجوء إلى تركيا، وقد وجه مولاي إسماعيل إلى الشريف سعد بخطاب ينصحه فيه بالتزام العدل والرحمة بالضعفاء ومما ورد فيه[2]:

«... وقد أحببنا من الله ومنك يا ولد عمنا، أن تحتزم لهذا الأمر، ولا تأخذك في الحق لومة لائم، وتكون على أهل الباطل فظا غليظا، وعلى المستضعفين والمساكين وأهل الخير شفيقاً ورفيقا، وتراعي الله عز وجل وحرمه، ورسول الله ﷺ في حُرَمه، وأي حرمة كحرمة أمته وأهل شريعته وملته؟ ولا تدع فيه بوجه من الوجوه ملحداً. ناظراً لقوله تعالى وهو أصل القائلين: ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم، وقال رسول الله ﷺ: أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرام، ومتبع في الإسلام سنة الجاهلية، ومتطلب دم امرئ بغير حق، ليهرق دمه ...».

ومن نصائح العاهل في هذا الخطاب:

«... فالعدل حسن من جميع من ولاه الله من أمور أمة رسول الله ﷺ شيئا، وإذا كان من بيت النبوة. وجاء من بيت الطهارة كان أحسن وأحسن. والعدل مطلوب ومستحسن في جميع الأقاليم وبقاع الأرض كلها، وإذا كان في الحرمين الشريفين. كان أشد استحسانا وأكثر غبطة ...».

---

(2) رسالة خطية. خ.ع. رقم 1139/الرباط. وتوفي الأمير سعد سنة 1116/1705. انظر الزركلي، أعلام، ج 3.

وفي 1155 / 1742 توجه ركب للحجاج في عهد مولاي عبد الله ومعه 13 مصحفاً قيل إن بينها مصحفاً نسخه عقبة بن نافع عن المصحف العثماني ولكن بعض المحققين يشكون في نسبته إلى هذا العهد . كما بعث السلطان ألفين وسبعمائة قطعة من الياقوت لتزيين الحجرة النبوية[3] .

وتوجه باسم العاهل محمد الثالث . ركب على رأسه عبد الكريم بن يحيَى الفاسي سنة 1199 / 1784 بإشراف الأمير عبد الملك بن إدريس . وكان على الوفد الرسمي أن يقدم أموالا كثيرة لأشراف المدينة ومكة والحجاز واليمن ثم هدية إلى السلطان العثماني عبد الحميد . غير أن الأمير مولاي اليزيد قام بالاستيلاء على أكثر هذه الأموال حتَّى اضطر والده العاهل إلى التبرؤ من بنوته .

وفي 1211 / 1796 كان أمير ركب الحج قدور بن عبد الواحد اصفير الفاسي . وقد شكاه الحجاج إلى مولاي سليمان لأنه كان يغتصب أموالهم ويظلمهم . فقرر العاهل إرسال شيخ للركب من مكناس سنة 1212هـ ولكن أهل فاس أصروا على أن يكون شيخ الركب منهم[4] .

ولما كانت العادة أن يصحب الموكب أحد الأمراء فنجد الأمير موسَى شقيق مولاي سليمان يرافق موكب 1110هـ ومولاي ابراهيم نجل مولاي سليمان يرافقه سنة 1226 . وكان ضمن هذا الموكب فقهاء منهم العباس بن كيران ومولاي الأمين الرتبي ومحمد العربي الساحلي . وكان الوهابيون حينئذ قد فرضوا وجودهم العقائدي ، وشهد أعضاء الوفد المغربي أنهم لم يروا من ابن سعود «ما يخالفُ ما عرفوه من ظاهر الشريعة وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام ...»[5] . وقد كان الوفد الرسمي يتوجه منذ أواخر القرن 12/ 18 عن طريق البحر إلى المشرق . وعندما عاد الموكب المذكور سنة 1227هـ استقبل بحفاوة كبيرة في فاس وتحدث الحجاج عن الصلات السخية التي قدمها الأمير مولاي إبراهيم إلى الفقراء بالحجاز حتَّى بلغت أخبار ذلك إلى مصر والشام والعراق وإيران عن طريق حجاجها[6] .

---

(3) أكنسوس، ص 114.
(4) ضعيف، ص 341، 384، 397.
(5) ناصري، 8، 121.
(6) ن.م. ص 124.

ونظرا للأحداث التي كان يشهدها البحر الأبيض المتوسط بين العثمانيين وخصومهم الأوروبيين وغيرهم وكذلك للعراقيل التي وضعها هؤلاء في وجه الحركة الملاحية فقد منع المخزن على الحجاج استعمال الطريق البحري ماعدا التجار سنة 1239 / 1823 ، ويظهر أن لهذا المنع أسبابا طبيعية أيضا ، وهي مصادفة موسم الحج لفصل الشتاء وكثرة العواصف حسبما ورد في خطاب ملكي سنة 1243 / 1827 . ثم هناك أيضا . تخوفات من نقل الأوبئة كما حدث فعلا سنة 1234[7] . وقد توفي من الوباء سنة 1282 ألف حاج من بين 1800 حاج على ظهر باخرة مصرية نقلتهم من الإسكندرية إلى طنجة[8] .

وعني مولاي عبد الرحمن أيضا بشؤون الحج ، وكان هو نفسه قد أدّى فريضة الحج في عهد والده وأظهر من الورع والفضل ما رشحه لمنصب الخليفة بالصويرة ثم بفاس . ومن ثم لمنصب العاهل .

وكان الحجاج يتعرضون للأخطار أحياناً في طريقهم من مراكز انطلاقهم الداخلية إلى فاس قبل تحرك الموكب الرسمي منها . وقد انتهبت قافلة للحجاج بأحواز أزمور سنة 1244 فتحرك العاهل بنفسه لتأديب المعتدين ومصادرة ممتلكاتهم . ورعاية للمواطنين القادمين من شنقيط ، فإن العاهل (مولاي عبد الرحمن) كان يصرف على الكثيرين منهم . من ماله الخاص ، وحج على نفقته أيضا نجل الشيخ المختار الكنتي ورفيقه[8] .

وحج عدد كبير من الأمراء في عهد هذا السلطان ، بما فيهم أنجاله وكان حجهم سنة 1274 وصحبتهم أموال ضخمة وموكب لم يسبق مثله كما قال الناصري[9] وعدد من كبار الفقهاء والأمناء «العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم» وقال السلطان للأمين الحاج محمد بن جنان البارودي إن المال الذي عينته للنفقة على الأولاد هو نفقة جمعت من حلال ، بعضها من أصول بتافيلالت وبعضها من غيرها مما هو حلال[10] .

---

(7) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 72، 132. أكنسوس، ص 206.

(8) بنمنصور، وثائق، 2، 69، 126.

(9) ناصري، 9، 71.

(10) ن.م. ص 72.

وقد كان محمد الثالث أكثر سلاطين الدولة إنفاقاً على البقاع المقدسة وفقرائها وأشرافها وعلى سبيل المثال فقد بعث مع الحاج المكي بركاش عن طريق البحر 200 قنطار مالا لتوزيعها على فقراء مكة والقدس والشام سنة 1198[11] . وكان كثير من هذه الأموال تؤديه دول أوروبية كجزية أو هدايا . وهبات المغرب للبقاع المقدسة في عهده تبلغ أحياناً مقادير في منتهَى الأهمية كالذي ذكر بل أكثر[12] .

وكانت القوافل تقوم بدورها في تنشيط الحركة الاقتصادية بيعا وشراء حيثما حلت وفي الواقع كانت هناك قافلتان إحداهما تتجه من تافيلالت عبر الطريق الصحراوي للجزائر ثم تونس حيث تقصد طرابلس ثم برقة ومصر فشبه جزيرة العرب ، أما قافلة فاس وهي أكثر عددا وأوفر مالا فتتجمع بفاس ثم تأخذ طريق تلمسان وتسير في الطريق الساحلي حتَّى مصر يقودها شيخ الركب وعلى رأسها أمير أو أكثر من العائلة الحاكمة . والموكب يتجدد كل سنتين أو ثلاث وربما أكثر . وبعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر أصبح أغلب الحجاج يسافرون إلى الحج عن طريق البحر انطلاقا من الصويرة ثم سلا فطنجة أو تطوان . على بواخر أغلبها أوروبية ويتخلف منها بالقاهرة عدد من التجار يقومون بعمليات التبادل قبل أن يؤدوا فريضة الحج أو يلزموا مكانهم إذا كانوا أدوها من قبل ، في انتظار عودة الباخرة إلى الاسكندرية ، وعملياً فإن الوحدة الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمثلها القوافل قد تصدعت باستعمال البواخر واحتلال الجزائر كما لاحظ ذلك «هوفر»[13] .

الاستشراف :

قامت حركة استشراف واسعة النطاق كما سبقت الإشارة إلى ذلك في مقدمة هذا الفصل ، والواقع أنها بدأت تبرز بشكل قوي في أواخر عهد بني مرين ولكنها أخذت أبعاداً أعمق بموازاة انتشار الزوايا والطرق الصوفية . وأصبح مقبولا لدَى الفآت الشعبية أن أشراف النسب هم أحق من غيرهم بالتكريم . وأن الصلحاء إذا كانوا أشرافاً فهم أولى من غيرهم من الصلحاء بالتبجيل فإن أصبحوا أرباب زوايا

---

(11) ضعيف، ص 194.

(12) مقدمة المدني بلحسني لكتاب الفتوحات الالهية (ألفه محمد الثالث). المشرفي، حلل. ص 165 — 166.

(13) *Hœfer, Empire du Maroc, p,280*

وطرق صار أتباعهم على العموم أكثر من اتباع غيرهم من الطرقيين . وهذا الذي أدَّى بكثيرين إلى انتحال النسب النبوي بطرق مختلفة ، وتجرد عدد من النسابين وغيرهم إلى وضع سلاسل من الكتب عن الأشراف وشجرات نسبهم الصحيح . وذلك لأن أرباب الزوايا كان فيهم من ينتحل الشرف أو يوجد في أسَرهم من يفعل ذلك محاولين أن يحصلوا على امتيازات أو إعفاءات ضرائبية حتَّى استشرَى هذا الداء وتعددت ظهائر التوفير والاحترام بالمآت وافتقرت الخزينة .

ومهما يكن من أمر ، فقد أسهمت الدولة نفسها في تقدير مقام الأشراف وتفريق الأموال عليهم بسخاء ، وكان في الفآت الشعبية من يهدي بناته إلى الأشراف تبركا وليتزوجوهن من غير تكاليف تلزمهم ، وتقوم الدولة من جهتها بتعيين نُقباء الأشراف كالأشراف الوزانيين والأدارسة والصقليين ، وفي عهد الحسن الأول عين نقيب على أشراف الجزائر المقيمين بفاس[14] . ونقابة الأشراف لها وجود قديم بالمغرب لا يمكن ضبطه رسمياً ، وكانت موجودة في عهد بني مرين .

ومن علامات التبرك بالاشراف من لدن الأوساط الشعبية ، تقبيل رؤوسهم وأيديهم . وقد قبل سكان الشمال ركاب السلطان مولاي الحسن عند نزوله بسلوان في أحد تحركاته[15] .

ومن نماذج ظهائر التوقير والاحترام والإعفاءات الضرائبية للشرفاء :

1 — ظهير للطاهر بن محمد الخرشاف الحسني ، ويحسن نقله هنا بنصه لأنه يمثل مدَى النفوذ الذي أصبح يتمتع به الأشراف والامتيازات الواسعة التي خولت لهم .

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

جددنا بحول الله وقوته ، وشامل يمنه وكرمه . لماسكه الشريف الخير ، السيد الطاهر بن محمد الخرشاف الحسني القاطن بمدشر «كر» من قبيلة جبل الحبيب ، على ما بيده من .... رضوان الله عليه ، المتضمن توقيره واحترامه ، وعلى كاهل المبرة حملناه هو وأولاده . وأخرجناهم من زمرة العوام . وأسدلنا عليهم عناية التوقير

(14) بنمنصور، وثائق، 3، 437.

(15) ناصري، 9، 144.

والاحترام، فلا سبيل لمن يخرق عليهم عادة، ولا يحدث في أمرهم نقص ولا زيادة. ولا يكلفون بوظيف من الوظائف السلطانية قلت أو جلت، إنما يلزمهم ما يلزم الشرفاء العلميين.

ونأمر وصيفنا القائد الصريدي أن لا يدع أحدا يترامى عليهم، ولا يقرب ساحتهم والواقف عليهم يعمل به ولا يتعداه. والسلام.

في الثاني عشر من صفر الخير عام 1204
محمد اليزيد بن محمد الحسني، كان الله له، آمين

2 — ظهير مماثل خص به الوزانيون بفاس، وهو مؤرخ بـ 1277، وهو بالإضافة إلى نصه على التوقير والاحترام يسمح لهم بالتصرف مباشرة في زكاتهم وأعشارهم يفرقونها بمحض اختيارهم على المحتاجين من الأقارب وغيرهم[17].

وهناك ما يتعلق بشرفاء ملوية وأولاد العمري دفين سجلماسة وقبيلة مجاط بالساقية الحمراء وغيرهم[18]. والظهائر لا تتضمن كلها إعفاءات ضريبية، فكثير منها ظهائر توقير واحترام فحسب.

تكريم الأضرحة :

أخذ تكريم الأضرحة أبعاداً متناهية في الأوساط الشعبية، لقد كان تكريم الأضرحة معروفا لدى سكان الشمال الإفريقي من أوائل العهد الاسلامي، وكلما تقدمت حركة التصوف والزوايا أصبحت الأضرحة التي تضم رفات مؤسسيها مقصداً للزوار، وتعد رابطة العباد حول تلمسان من الأماكن الأولى التي أصبحت إطارا للعمل الديني والفكري حول ضريح الشخصية التي أنشئت مجموعة من المؤسسات على شرفها.

لكن العصر العلوي قبل الحماية أعطى بعداً واسعا في هذا المجال. لأن حتمية القدر تجاه الأخطار الخارجية لم يعد هناك إلا سبيل ضيق لمواجهتها بحتمية انتصار

---

(16) محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 14.

(17) وثائق، 2، 391.

(18) م.س. ص 377 — 382، 399، 406، 453، 458، ج 3. ص 408، 431، 433، 435، 489.

المومن بالله على الشر. وكان عدد كبير من الناس يفتقدون روح المواطنة الصحيحة، بينما الروح الإقطاعية تستفحل أكثر فأكثر في سلك الولاة، وهناك عدم استقرار في السياسة الضرائبية التي كان كثير من الولاة يمارسون معها ابتزازا متزايداً بين الرعايا المقهورين. ثم ان انعدام الوعي الاجتماعي والفكري أو نقصه لدَى سواد الشعب فسح المجال لكثير من الزوايا والقائمين على الأضرحة في التمويه على الناس بكرامات مصطنعة تتبع الأولياء في أضرحتهم مثلما نسبت إليهم في حياتهم عن حق أو باطل. وأخيرا فلا يوجد إطار اجتماعي حر إلا هذه الأضرحة وما حولها بالنسبة للطبقة البائسة التي تعيش في ضنك الجوع والملبس والمسكن.

ومهما يكن من شيء فليس كل تكريم للأضرحة جهلا ولا سذاجة، فهناك رجال عظام بجهادهم أو علمهم أو زهدهم أو بكل ذلك يستحقون هذا التكريم في كل معتقد وملة، ولقد وضع المغاربة كما أشير إلى ذلك من قبل، ضريح إدريس الأول وضريح إدريس الثاني في المقام الأول بين الأضرحة المقدسة. وهكذا احترم الملوك أنفسهم الأضرحة الكبرَى، وبينهم من كانوا متشددين في السلفية كسيدي محمد بن عبد الله ومولاي سليمان.

ويذكر المشرفي[19] أن مولاي إسماعيل أمر بتجديد مسجد الشرفاء (مدفن مولاي إدريس الأصغر) بفاس وتشييد قبة الضريح سنة 1131 / 1718. وكلف البناء ومرافقه ستة آلاف مثقال. وكان القبر غير ظاهر ولا معروف. لأن ولاة زناتة عندما شردوا الأدارسة وأجلوهم عن فاس أهملوا قبر مولاي إدريس ولم يجيروا من استجار به، بل كانوا إذا ظفروا بمن لجأ إليه بالغوا في إذايته إلى أن خفي القبر ولم يعد يعرف مكانه بالمسجد حتَّى وقع العثور عليه في رجب 841هـ[20]. وبعد إتمام الضريح سنة 1132 أمر مولاي إسماعيل بإقامة الجمعة به. وهو كما يقول المشرفي وغيره أول مسجد بني بفاس.

وفي هذه السنة أيضا إلى 1134 أعيد بناء ضريح إدريس الأول بزرهون بما في ذلك قبته كما وسع من جهاته الأربع. ووقف مولاي إسماعيل قبل ذلك بثلاثين

---

(19) مشرفي، حلل بهية، ص 136.

(20) حسب *Champion, Le Maroc et ses villes. pp.60-61* نقْلا عن روض القرطاس، أعيد بناء هذا الضريح قبل ذلك سنة 1308/1708. وهذا لا يتعارض مع ما ذكره المشرفي.

سنة . موقفاً صارما تجاه أسرة الولي عبد الله الحجام (ت 1001) دفين زرهون والتي أحدثت شغباً بالزاوية الإدريسية ويظهر أن أسبابه مادية على الأرجح ، ومن أجل هذا الشغب وجه إليها إنذار ملكي صريح بتصفيتها جسديا إذا تمادت في الحط من قدر الزاوية الإدريسية لدَى الفآت الشعبية . وفي الوقت الذي يعرب الإنذار عن تقدير متناه «لصاحب ذلك الضريح الشريف» يضع في الاعتبار مكانته لدَى الرأي العام[21] . وفي نفس الاتجاه سار مولاي إسماعيل وهو يأمر ببناء قصبة اكناو ويعيد بناء ضريح سيدي موسَى الدكالي بسلا حول هذه القصبة ، وهذا الولي من أهل القرن 10/ 16م .

وشيدت أضرحة أخرى بقبابها كضريح ابن عاشر سنة 1146 / 1733 بسلا وضريح علي بن حرزهم سنة 1177 / 1763 بفاس ، أي بعد سنوات قليلة من تولية السلطان محمد الثالث الذي اعتنَى أيضا بإعادة بناء أضرحة الرجال السبعة بمراكش ، وهم :

1 – عياض بن موسَى اليحصبي السبتي . (ت 544 / 1149)
2 – يوسف بن علي (ت 593 / 1196)
3 – عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي المالقي (ت 581 / 1186)
4 – أبو العباس أحمد السبتي (ت 601 / 1205)
5 – محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان الجزولي (ت 869 / 1464)
6 – عبد العزيز التباع (ت 914 / 1508)
7 – عبد الله الغزواني (ت 935 / 1528)

وعياض هو القاضي وأحد أركان المذهب المالكي بالمغرب وشهرته واسعة بالمشرق . وهو ليس من الأولياء بالعرف الصوفي . ويوسف بن علي قيل إنه من اليمن وكان مصابا بالجذام عاش حياته بحارة الجذامى خارج مدينة مراكش . والسهيلي مثقف ولغوي وليس من الأولياء . وعرف أحمد السبتي بعطفه على الفقراء والطلبة وجمعه للتبرعات والصدقات وتوزيعها عليهم وعلى سائر المحتاجين . ومحمد الجزولي الذي عرف فقط باسم سليمان الجزولي الذي هو في الحقيقة اسم جده الثاني هو مؤسس الزاوية الجزولية ذات الدور السياسي والديني البارز في تاريخ السعديين .

---

(21) وثائق، 1، 420 *P. Berthier, Essai sur l'histoire du Massif... pp.103-120*

والتباع من تلاميذه وأحد أركان طريقته. أما الغزواني فتلميذ للتباع.

ويرَى دوكاستري، حسب دوفردان[22] أن أبا علي الحسن اليوسي كان أول من أحدث زيارة الرجال السبعة. فهو من جهة، رجل فكر قبل كل شيء. وكان شديد العطف على الزاوية الدلائية التي صفاها مولاي رشيد، ولكن هذا العطف كان بسبب الدور المجيد الذي قامت به الزاوية في الإشعاع الديني والفكري، وهو مدين لها بتكوينه. على أن اختياره لزيارة الرجال السبعة المذكورين لا يرتكز على أولوية محددة، فهم أتقياء جميعا، وهذا هو القاسم المشترك، ولكن لكل منهم أو لأغلبهم اتجاها وتكويناً مختلفاً، ولذلك كان الاختيار جغرافياً بالدرجة الأولى حسب دوكاستري أيضا لأن هؤلاء السبعة يجمعهم التقارب في الخط الجنوبي للمدينة بينما يوجد أولياء وعلماء آخرون بارزون غيرهم لهم أضرحة بالمدينة.

ومن جهة أخرى، فلماذا سبعة رجال بالذات؟ إن رقم «السبعة» الذي يعزوه دوفردان إلى أقدمية عريقة في تاريخ الشعوب، ويعزوه عدد من علماء الاجتماع الديني إلى أساطير هذه الشعوب وخرافاتها له في الأصل جذور فلكية ولاهوتية. فالعهد القديم نص في مدخله على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم (استراح في اليوم السابع). وتردُ الفكرة في القرآن الكريم بهذا اللفظ (خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوَى على العرش).

فالعبرانيون من أسبق الأمم إلى ترسيخ الفكرة دينيا، لأن يوم (الراحة) يتمم سبعة أيام، وذلك أسبوع. ولا نندهش إذا قلنا إن الحرب اليهودية العربية سنة 1967 والتي سماها اليهود بحرب الستة أيام كانت استمداداً من التوراة مقصوداً لأنها كانت في الواقع أقل من ذلك.

وأنشأت شعوب ما بين النهرين انطلاقا من الكلدان والبابليين التقسيم الزمني للأسابيع وأيام السنة، والبابليون منهم إبراهيم الخليل جدُّ أنبياء الديانات الثلاث. فهم أسبق إلى تسبيع الأيام وإلى تسبيع الرقم في الأعياد وغيرها. ونص القرآن على التسبيع: «إن جهنم لها سبعة أبواب» وورد التسبيع عن طبقات الأرض والسماء: «خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن» والتسبيع وارد عدة مرات في القرآن

---

(22) *Deverdun, Marrakech, p573*

الكريم ، وشعوب العالم كلها تحدثت عن عجائب الدنيا السبع مع أنها كانت دائما أكثر من سبع !

وفي اعتقاد صاحب هذه الدراسة أن «التسبيع» قد زاده علم التنجيم تزكية لأن هذا العلم يرَى أن هناك مجموعة من الناس سباعيو الحظ يمثل رقم «7» في حياتهم إذا أحسنوا استغلاله نجاحاً كبيراً ولذلك كان للعبرانيين وقد مالوا أشد ميل إلى التنجيم والسحر أثر بالغ في إشاعة «التسبيع» .

وحتّى أكثر ملوك الدولة تشبثاً بالسلفية يزورون الأضرحة ويموّلونها ويتبعهم الأمراء والأميرات في تكريمها . إن موقف سيدي محمد بن عبد الله من بعض الزوايا لم يمنعه من زيارة رباط شاكر وإعادة بنائه ، كما زار أضرحة صلحاء أغمات سنة 1198 / 1783 . وذكر الزياني أن الأميرة فاطمة بنت مولاي سليمان زارت بفاس ضريح مولاي إدريس وضريح سيدي حرازم وعبد الله التاودي وقدمت من الذبائح مائة ثور[23] ، والذبائح لها شأن كبير في تاريخ الشعوب . وإسماعيل حسب الإسلام ، أو إسحق حسب اليهود كاد يكون قربانا من إبراهيم لربه اختباراً . والقرابين عند اليونان والساميين وغيرهم تدخل في صميم العقيدة الدينية . لكن مجتمع المغرب في عصر تطور في الاختراعات والعلوم تطوراً مهما كان أغلبه يقدم القرابين للأضرحة إما شكراً على نعمة أو لتحقيق أمنية ، وإما رجاء في أن يكون من بركات الولي تحقيق رغبة معينة . وتدخل زيارة الملوك في نطاق التبرك والترحم على الأولياء الكبار ، تأثراً بتكوينهم الديني من جهة ، ورعياً لمقامهم لدَى الفآت الشعبية من جهة أخرى ، وفي هذا النطاق نجد مولاي عبد الرحمن يزور ضريح أحمد بن عاشر وعبد الله بن حسون بسلا ، ويقوم مولاي الحسن بزيارة الضريحين الادريسيّين ، وضريح أبي شعيب الصنهاجي بأزمور وضريح عبد السلام بن مشيش بجبل العلم . وحيثما حل فهو يقدم صلات كبيرة لصندوق الضريح . بل إنه يخصص للضريح المشيشي صلة منتظمة ، ويؤكد أن مقامه عظيم لديه[24] ، وكان هذا الضريح ولايزال يحظَى بزيارة الفآت الشعبية من مختلف جهات المغرب[25] . وبدأ

---

(23) زياني، بستان، ص 105.

(24) بنمنصور، وثائق 3، 270، 270. محمد داود، تاريخ تطوان، 8، 249 — 251. 316

(25) انظر بالنسبة للقرن 19/13م : 271 *Hœfer, Empire, p.271*

الاحتفال بموسم مولاي عبد السلام منذ القرن 10 / 16 [26] وكان الشيخ عبد الله الغزواني أول من سنه .

وكانت الأضرحة الكبرى أيضا تتمتع بمقام سياسي مستقل متفق عليه ضمنيا بين السلطة والمجتمع ، وهذا المقام ينحصر في كون اللجوء إليها من مطاردة الدولة حقاً يتمتع به أي لاجئ وهكذا هرع مولاي أحمد الذهبي إلى الزاوية الحنصالية بتافيلالت ولجأ عبد الملك أخوه إلى ضريح مولاي إدريس بفاس في ظروف النزاع بينهما أو مع خصومهما من الجيش . ولجأ زعماء الأوداية إلى ضريح أحمد الشاوي وزاوية اليوسي وضريح سيدي بوسرغين بصفرو وغيرها في عملية التأديب التي قام بها محمد الثالث سنة 1174 / 1760 ، وحينما تنصل أهل تطوان بعد بيعة محمد الثالث ، من تصرف عاملهم السابق محمد بن عمر لوقاش الذي طمح إلى الملك منذ سنة 1139هـ لجأ بأمواله وأسرته إلى ضريح عبد السلام بن مشيش الذي لجأ إليه آخرون من المناهضين للمخزن أو المطالبين بالعرش كمولاي اليزيد نجل محمد الثالث ومولاي عبد الرحمن بن سليمان بعد وفاة مولاي عبد الرحمن بن هشام .

على أن السلطة تجد الوسائل لحمل اللاجئين على الاستسلام بالتضييق عليهم ومنع تسرب المواد الغذائية إليهم دون أن تخرق حرمة الضريح نفسه . كما أن السلطة قد تلجأ إلى تغريب بعض أرباب الزوايا وقد يتعرض بعضها للتخريب كما حدث بشأن الزاوية الشرادية . وهذا يعني أن الأضرحة والزوايا أو بعضها على الأقل . كانت ذات خطر سياسي حقيقي من حيث كونها ملاجئ سياسية أو مراكز لتكوين أطر سياسية موجهة باسم الدين وحرماته ، أي تتخذ نفس الشعار الذي تتخذه الدولة عندما تريد الحد من نشاطها .

الصلحاء والزوايا

تميز العصر بعدد من الظواهر التي يعود بعضها إلى العصر السعدي وبعضها إلى ما قبله :

1 — تفشي بعض البدع وظهور أخرى

(26) الاستاذان الطاهر اللهيوي والعياشي الزباخ في جريدة «تطوان» عدد 40، رجب 1400/مايو 1980.

2 — تفشي المعتقدات ذات الأصول الوثنية والأجنبية والغريبة عن الاسلام
3 — تفشي ظاهرة الجذب لدَى الفقراء
4 — عودة عدد من الزوايا إلى العمل السياسي وظهور أخرى جديدة أسهمت فيه

فمن البدع التي ظهرت نذكر شدخ الرؤوس بين أتباع «سيدي علي بن حمدوش»، وقد كان معاصراً لمولاي إسماعيل وتوفي حوالي 1135 / 1722 . وعرف عنه أنه كان يلقي على من يضايقه كل ما يقع بين يديه من حجارة أو آنية أو غيرها . غير أنه لا علاقة لهذا التصرف بالطريقة المتوحشة التي كانت الطائفة الحمدوشية تحتفل بها يوم سابع المولد النبوي في كل من ضريح أحمد الدغوغي ومولاي إدريس زرهون وبني راشد وبعد ذلك عمت المغرب . حيث يستمر أتباع علي حمدوش في شدخ رؤوسهم بفؤوس خاصة . مع أن الكتاني في سلوة الأنفاس يتحدث عن شيخ «الطريقة» بأنه كان صوفياً يخالط مجالس الصوفية وينشط للأمداح النبوية . وكان بين أتباعه عدد من الزنوج الذين أسكنهم السلطان بمكناس وضواحيها وقد عزا بعض الملاحظين شدخ الرؤوس إلى هذه الفئة كما رأى فيها بيرتيي وغيره أن لها أصلا شرقياً حيث يعمد الشيعة في ذكرَى الحسين إلى عمل مماثل تماماً كما ذكر ذلك هربر عن شيعة مصر وايران والقوقاز(27) .

وتناول البدع والانحرافات العقائدية عدد من الفقهاء والمثقفين السنيين ومنهم محمد بن أحمد الحضيكي (ت 1189 / 1775) وقد كتب مذكرة في انتقاد شخص اسمه بلة بن عزوز الرحماني ، وكان بمراكش يدعي الولاية ويدعو أتباعه إلى ترك الطقوس كالصلاة والطهارة والاكتفاء بحركة اللسان «فلا يرَى قط واحد منهم يصلي الصلاة المشروعة ولا ذاكراً الله تعالى ولا قارئاً ، فقد تركوا الإسلام ونبذوه بجملته رأساً وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ...»(28) .

واهتم القاضي مَحمد عاشور الرشاي (بشد الراء ضماً ثم فتح الشين) بما شاهده

---

(27) *Berthier, Essai, pp. 131 - 136* وانظر أيضا، *Hœfer, p.272* مع ملاحظة ان بعض الطوائف تختلط لديه تصرفاتها وأسماؤها.

(28) عباس المراكشي، إعلام 3، 74، ولبلة هذا كتاب في الطب منه نسخ خطية بالخزانة الملكية بالرباط (خطابي، فهارس 2).

من بدع في عاشوراء بمراكش . وهو معاصر لمولاي سليمان . وكان أهل البلد يقيمون احتفالات ليلتها كعرض مسرحيات تمثل عوائد أو تصرفات أشخاص من تجار وغيرهم ، ورأى فيها القاضي المذكور بدعة ، وإذاية المتفرجين بالشتم والضرب إذا لم يقدموا إليهم مالا وقد يخلعون لباسه غصبا . واستدرك عليه عباس المراكشي عادة إيقاد النيران وهي ذات أصل مجوسي[29] .

وكتب محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي (ت 1239 / 1823) كتاب «المزايا فيما حدث من البدع بأم الزوايا» ويظهر أنه كان يساير سلفية مولاي سليمان[30] .

واعتبر عدد من الفقهاء الاشتغال بالطرب من البدع التي لا يقبلها الإسلام كما كتب عاشور المذكور في مذكرته والزياني في الترجمانة والذي انتقد تصرفات الفقراء بضريح مولاي إدريس من رقص وتصفيق «وأنواع من البدع يقضي منها العجب» وابتزاز المال من الناس «سرفاً وتبذيراً . ولا ينفقون في طاعة الله نقيرا ولا قطميراً . ويجتمعون بعد العشاء للبيات على لهوهم ، ويتركون صلاة اليوم كله لزهوهم»[31] .

وانتقد السلطان مولاي سليمان بشدة بدع المواسم وزخرفة الأضرحة وابتزاز الأموال من الناس ، وكتب بذلك منشوراً ألقي كخطبة للجمعة بسائر المساجد ومنع الإنشاد والرقص والطرب في حلقات الذكر والمواسم وقال : «... فليس في دين الله ولا فيما شرع نبي الله أن يُتقرب لِلّه بغناء وشطح . والذكر الذي أمر الله به وحث عليه ومدح الذاكرين به هو على الوجه الذي كان يفعله ﷺ . ولم يكن على طريق الجمع ورفع الأصوات على لسان واحد...»[32] .

والدعوة إلى ترك الصلاة من لدن البعض كما سبق . ما هي إلا إحياء لنظرية العكاكزة الذين ظهروا في العصر السعدي وشردهم مولاي إسماعيل قتلا وتنكيلا حتّى بلغ قتلاه منهم حوالي ثلاثة وستين[33] . وقد كتب عنهم اليوسي مذكرة دقيقة التفاصيل .

---

(29) م.س. ج 6، 297.

(30) م.س. ص 195.

(31) زياني «ترجمانة» ص 463.

(32) ن.م. ص 466 — 470.

(33) ضعيف، ص 76.

وكان لبعض رجال التصوف تأثير غريب على المجتمع والدولة . حتّى إن أحدهم وهو الحاج عبد السلام البقالي ارتقى إلى أن أصبح مستشارا لمولاي محمد بن عبد الرحمن فأنعم عليه بالأموال وحظي عند مولاي الحسن أيضا بالعطف والاكرام[34] .

وقام كاتب إنجليزي هو إدوارد ويستيرك ببحث ميداني في عدد كبير من قبائل ومدن المغرب حول معتقدات المجتمع المغربي بشأن الجن و«الأرواح» من المفيد ذكر بعض ما جاء فيه[35] :

يعتقد العوام أن الجن يسكن أماكن الفسحة والنزهة والمغاور ، ويعتقد آيت ميزان أن شمهروش مدفون عندهم . والجن يقوم على حراسة الكنوز والعيون والسقايات . وهناك جن للنار وجن للماء . ويوصَى بتجنب الجلوس على عتبة منزل أو مدخل خيمة ، اتقاء للمرض أو دخول الجن إلى المكان ، ويذهب أهل فاس إلى أن الجن تصير أكثر نشاطا قبل ظهر يومي الخميس والجمعة ، ومساء يوم السبت ، وهكذا لا تنظف البيوت يوم الجمعة أو تغسل الملابس كما لا يليق الخصام . ومن وسائل طرد الجن ايقاد النور ، لأن الجن تخشاه ، والرش بالملح (الذي لا نزال نلمسه عند ذبح الحيوان) .

ويدخل الدم في العلاج وفي التمائم ، وهناك أيضا ماء العيون والمواقع المائية التابعة لبعض الأضرحة المقدسة .

ويعتبر الكاتب أن معتقدات المغاربة حول الجن قد وردت من المشرق ، وهكذا فمن هذه المعتقدات المشتركة أن الجن يسبب كثيرا من الأمراض خصوصاً العصبية والعته وعقم المرأة وحصور الرجل ، ثم إن الجن في كل مكان : في الأرض والفضاء ، وفي الماء والنار ، وفي القفار والأماكن المنعزلة والخرائب ، ولكل مكان جنه الخاص حسب تقليد عربي يرجع إلى عهد الجاهلية .

ومع وجاهة المعلومات التي استقاها الكاتب الإنجليزي والتي دخل معظمها حيز

---

(34) بنمنصور، وثائق 3، 79، و403.

(35) *Westerck (M. Edward), Les croyances aux esprits au Maroc. Traduction française in Revue Le monde musulman. T 44/1921.*

التاريخ فإن الإيمان بالجن ما هو بمشرقي ولا بمغربي . فكتب الروحانيات وممارسة الروحانيات تغزو أوساط أوروبا بشكل جذري في عصر الذرة وزيارة الكواكب . والأشرطة عن الجن التي تسكن القصور المنعزلة وحتّى الأشخاص الأحياء تغرق الأسواق ودور السينما في العالم كله .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت سذاجة السكان تحملهم على تأويل الأحداث والظواهر تأويلا مخالفا لحقيقتها ويستغل المشعوذون هذه السذاجة لابتزاز المال طوراً بحجة حماية السذج من الأخطار ، أو للقيام بحركة سياسية قد يستطير خطرها وقد يكون في تصرفات المسؤولين أو ضعفهم ما يبررها . وكان هناك نوع من الأحداث يكون له عادة تأثير كبير في نفوس السكان حسب مكان هذه الأحداث محلياً أو على الصعيد الوطني وهو الظواهر الطبيعية من زلازل وعواصف وكسوف وخسوف وتناثر نيازك[36] ، وحدوث هذه الظواهر يلجأ فيه إلى الصلاة والدعاء والتبرك بالصلحاء .

---

(36) لابأس بتعداد أهم الكوارث والظواهر الطبيعية التي سجلها عدد من المؤرخين :

- ☐ 1663/1704 زلزلة شديدة تهدمت لها طالعة فاس وتجددت الزلزلة ووقع إعصار شديد (ضعيف، ص 27).
- ☐ 1683/1095 حدث كسوف ثم خسوف وزلزلت الأرض ثلاث مرات متفرقة (ن. م. ص 69).
- ☐ 1693/1105 هبت ريح جنوبية شديدة استرسلت نحو ساعتين واقتلعت الأشجار وأسقطت عدة دور (ن.م. ص 69).
- ☐ 1694/1106) هبت ريح طالت ثلثي الليل ومات منها بالردم أكثر من 13 ألفا، ووقع كسوف من أول النهار إلى الزوال بتوات (ن.م. ص 78).
- ☐ 1706/1118 كسفت الشمس كليا وبدت النجوم زمنا من النهار وصلى الناس صلاة الكسوف بالقرويين (ن.م. ص 80).
- ☐ 1707/1119 وقع زلزال عظيم عند الصبح (ن.م. ص 81).
- ☐ 1738/1151 ظهر بالرباط ثلج عظيم كادت تسقط له السقوف (ن.م. ص 115).
- ☐ 1739/1152 ظهر في السماء كرة من نور من ناحية المشرق الى ناحية المغرب (ن.م. ص 114) (هل تكون صحنا طائرا ؟ أم نيزكا ؟).
- ☐ 1753/1167 زلزلة عظيمة هدمت مكناس وزرهون ومات فيها كثير (زياني، بستان، ص 81) ويتحدث الناصري (8، 84) عن هذا الزلزال في أحداث 1169هـ ونقل عن نشر المثاني ولوبزمارية أن الزلزال استمر ربع ساعة وفاض البحر وهاج ووقف جريان الاودية وسقطت الدور وتجاوز البحر موقعه المعتاد بسلا فأغرق من كان خارج المدينة من جهته بما في ذلك قافلة بكاملها كانت متوجهة الى مراكش وقذف بالقوارب بعيدا جداً عن الوادي وتكسرت السفن. تم تكرر الزلزال بشكل أخطر بعد ثلاثة أسابيع فهدم عدداً كبيراً من مباني مكناس وفاس. وقد هلك بمكناس وحدها عشرة آلاف وتأثرت الجزائر أيضا بهذا الزلزال العنيف كما ورد في دراسة لدومينيك مونيي (مجلة تاريخية، عدد 4 ص 216، تونس).

على أن الصلاة لبعض هذه الظواهر مشروعة في الإسلام.

وظلت ظاهرة المكاشفة والكرامات والتنبؤ فاشية[37] ولكن يبدو أن المنسوبين إليها هم في أغلبيتهم أقل أهمية من أسلافهم في العصر السعدي الذي هو أمجد عصور التصوف بإفريقيا الشمالية والغربية. وفي جميع الأحوال فإن أهل المكاشفات أقل عدداً مما كانوا بالرغم من كثرة الطرق والزوايا. غير أن الدولة كانت بالمرصاد لكل الإشاعات التي يشتم منها تنبؤ يعمل على اضطراب الأمن أو الزيادة في اضطرابه.

أما ظاهرة الجذب التي استشرى داؤها فقد اختلفت أحوال أصحابها، وفيهم من يهذي ويشتم، ومن يتناول الخمر والحشيش ويعد في عداد الفقراء ومن يخبر بالمغيبات، ومن يلجأ إلى الأبراج المهجورة. ونجد شخصيات ذات مكانة مرموقة تتعاطف مع بعض المجاذيب، فالعالم محمد بن الطاهر العلوي (ت 1248 / 1832) والذي كان مفسرا ومحدثا له «محبة في الأولياء والصالحين والمجذوبين والسالكين». وأحمد المجذوب بن عبد الرحمن العلوي البلغيثي كان يدخل على أحد الوزراء من غير إذن فيكرمه ويقدم إليه كل المساعدات. وأبو بكر المراكشي كان بهلولا مجذوبا اصطحبه الخليفة محمد بن عبد الرحمن بمراكش ثم انتقل معه إلى فاس، وكان لهذا المجذوب حظوة لديه لما نُسب إليه من كرامات[38]. وفشت ظاهرة الجذب على

= ☐ 1763/1177 كسوف الشمس.
☐ 1797/1212 ظهر القمر تصحبه غمامة سوداء واشتعلت فيه نار وخرج الدخان منها ثم انجلت عنه فتركته أسود (ضعيف، ص 379).
☐ 1870/1287 خسف القمر خسوفا كليا بعد الغروب إلى نصف الليل (ناصري، استقصا، 9 122).
☐ 1873/1290 وقعت حرائق في الزروع والثمار بكثير من بلاد المغرب (شدة الحر على ما يبدو) ناصري 9، 124.
☐ 1874/1291 وقع تناثر في الكواكب واضطراب، وبعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها على شكل آخر (ن.م. ص 114).
☐ 1876/1293 : خسف القمر خسوفا كليا ولم ير منه شيء لمدة ساعتين، ثم أخذ يتجلى حتى عاد الى اكتماله (ن.م. ص 162 — 163).
☐ 1885/1303 تناثر كبير في الكواكب وانقذف بعضها شرقا وبعضها غربا ودام ذلك من الغروب الى نصف الليل (ن.م. ص 179).

(37) عباس المراكشي، إعلام، 2، 448، 6، 47، 322، 7، 81.

(38) عباس المراكشي، إعلام، 1، 221، 2، 373، 448، 6، 227. 7، 43.

الخصوص في القرن 13 / 19 وهو القرن الذي شهد صراعاً مريراً بين السلطة والمعارضين بشكل خطير وعلى أوسع نطاق ، كما شهد تطاول الدول الأوروبية على سيادة المغرب من أطرافه الأربعة .

وأشهر شخصية بين المجذوبين حظيت بشعبية غريبة منذ القرن المذكور هو هدّي بن عمر الفيلالي والذي عرف بـ «سيدي هدي» وادعَى اتباعه أنه من السلالة الإدريسية . ورد على قبيلة بني عروس بالشمال واتصل بشيخ زاوية تازروت وهو الولي محمد بن علي الريسوني ثم اتخذ لنفسه خلوة أصبحت مدفنه عند موته في 19 محرم 1219 / 1804 وكان في حياته لا يحلق شعر رأسه ولحيته ويدخن النارجيلة . وقد ظل سيدي هدي غريباً لا يبحث عنه أحد من أسرته حيا وميتاً ، ثم حدث أن توارد على خلوته بعد موته عدد من دكالة والشياظمة وعبدة وغيرهم فاستقروا بها ولبسوا المرقعات وتعاطوا التدخين وعاشوا بفضل صلات القرى المجاورة إلى أن أصبحت لهم سلطة وكونوا موارد كبيرة من زوار سيدي هدي وكانوا لا يتزوجون . ومن تزوج غادر سلك الطريقة ؛ ولهم مقدم يسير أمورهم بصرامة . وقد تمت تصفية زاوية سيدي هدي على يد جيش التحرير سنة 1956م .

وكان أصحاب سيدي هدي من الأميين ، ولهم ذكر خاص ويوقدون النيران حول ضريح الشيخ يقرعون الطبول أثناء الذكر . وكانت لهم مراكز تجمع بكل من القصر الكبير والغرب وطنجة[39] .

واتخذ الصلحاء وأرباب الزوايا من العمل السياسي مواقف مختلفة . ولكن يمكن تصنيفهم جميعا في مجموعتين : 1) معتدلون ومحايدون . 2) أصحاب موقف سياسي . والصنف الأول وإن كان يمكن تقسيمه ظاهرياً إلى قسمين فهو في مجمله غير مناهض للدولة ، وإن كان لبعضه موقف مناهض للاستعمار ، والصنف الثاني له موقف سياسي تحدده ظروف أو مبادئ معينة وهذا الموقف الظرفي أو المبدئي هو الذي يجمع بين عناصر هذا الصنف .

ففي الصنف الأول نضع قبل كل شيء الزاوية الناصرية التي كانت من أغنَى زوايا المغرب وأوفرها مالاً وتنبثُّ أملاكها في مختلف جهات البلاد ، وقد كادت

---

(39) الاستاذان الطاهر اللهيوي والعياشي الزباخ، جريدة تطوان. ع 39، 40، 41، سنة 1980/1400،
Villes et tribus (Tanger) p.321

تتعرض للتصفية في مطلع القرن 13هـ . والزاوية الناصرية لم تقم بنشاط سياسي يذكر عبر تاريخها الطويل ، ومؤسسها محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر ، وعرف المؤسس بناصر أي باسم جده ، وتوفي (أي المؤسس) سنة 1085 / 1674 . غير أن السلطة كانت تنظر بشيء من القلق إلى نفوذ هذه الزاوية التي كلما همت باتخاذ موقف ضدها حدث ما يوجب عدولها عنه ، أو أتيح لشيوخها الإفلات من قبضة السلطة ، وهكذا كان الأمر مع أحمد بن محمد بن ناصر المتوفى سنة 1127هـ والذي كاد يتعرض للهلاك حسب مؤلف الاستقصا ثم زاره السلطان بنفسه . وهم السلطان محمد الثالث بتصفية الزاوية كما سبق ثم عدل عن ذلك لانشغالات أخرى ، وأفلت شيخ الزاوية عبد الله بن علي من المحنة في عهد مولاي عبد الرحمن بسبب مال أودعه عنده قائد مغضوب عليه من المخزن . ويبدو أن النفوذ الروحي وثروات الزاوية الطائلة هي أهم أسباب تضايق المخزن من هذه الزاوية التي لا يعرف لها موقف سياسي معين ، وهي في جميع الأحوال تلتزم بتعاليم السنة ، وتلاميذها كثيرون[٤٥] .

والزاوية التيجانية أكثر اعتدالا لظروفها الخاصة ، ولكنها ذات موقف نضالي ضد الاستعمار في إفريقيا الغربية حيث ساعدت على نشر الإسلام وتعميق التعاليم الدينية . ومؤسسها الشيخ أحمد التيجاني أسس طريقته في البداية سنة 1196 / 1781 بعين المهدي جنوب جبل عمور بالجزائر جنوبا ، اضطهده الأتراك كما فعلوا مع درقاوة وغيرهم . فهاجر إلى فاس مع أسرته وبعض تلاميذه سنة 1211 / 1796 وقد رحب به العاهل المغربي مولاي سليمان كلاجئ سياسي وصوفي كبير ، وأسكنه قصراً بفاس ورتب له جراية لنفقته . ووضع الشيخ التيجاني في الاعتبار هذه المعاملة التي لقيها من العاهل ، واحتفظ التيجانيون منذ ذلك الوقت بعلاقة محايدة أو ودية مع السلطة ، بينما وسعوا نشاطهم خارج الجزائر والمغرب ، ويرى مؤلفو سلسلة مدن المغرب وقبائله أن الزاوية التيجانية كانت مقربة من الحكومة ، لأنها تتألف من الموظفين والمثقفين والأثرياء من التجار . والواقع أن مولاي سليمان نفسه تعاطف مع الشيخ التيجاني وكان عونه المادي له ضمانا لتأطير حركته وحصر

---

(40) ناصري، استقصا، 7، 105، 111، 8، 129 — 130، مراكشي، إعلام 6، 317. 8، 324 — 328.

امتدادها بالمغرب داخل العمل الديني حسب تعاليم السنة .وأوراد الشيخ المؤسس . وأوضح أحد تلاميذ الشيخ الكثيرين وهو محمد بن سليمان المناعي التونسي أن طريقة الشيخ توخذ بشرطين : أن لا يترك الأوراد اختياراً ، وأن يترك زيارة الأولياء أحياء وأمواتاً وليس ذلك لسوء اعتقاد فيهم ولكن ليضع نفسه تحت تصرف الشيخ المربي وحده . وأضاف تلميذ الشيخ المذكور شرطا آخر وهو أن لا يجمع بين ورد شيخ وآخر ، ويبدو أن اعتقاد مولاي سليمان بتعاليم أحمد التيجاني انبَنى على أن الشيخ منع التوسل بالأولياء وزيارتهم من أجل جلب منفعة أو دفع مضرة ، وهذا يتفق تماما مع المنهج السليماني في إشهار الحرب على الأضرحة والمواسم المخصصة لها .

ومن بين تلاميذ التيجاني العديدين محمد كنسوس ، ومحمد الحافظ العلوي الشنجيطي وعلي بن الشتيوي وهو من كبار الصلحاء ومحمد بن العربي المدغري وهو أيضا من كبار الصلحاء . وواجه أنصار الطريقة التيجانية كلا من القبائل الوثنية والجيوش الاستعمارية خلال القرن 13 / 19 . وكان للحاج عمر الفوتي السوداني فضل نشر الطريقة التيجانية بالصحراء ومناطق السودان خصوصا السينغال وحوض النيجير . وكانت وفاة الشيخ أحمد التيجاني حسب الاستقصا سنة 1228 / 1813 ، ومدفنه معروف بفاس ، وكان من مذهبه الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ . والزوايا التيجانية تعد بالآلاف منبثة على الخصوص بالمغرب وإفريقيا الغربية [41] .

وكانت الزاوية الفاسية تسير أيضا في اتجاه التعاطف مع الدولة دون أن تتخلى عن نشاطها الديني . وهكذا فقد كان الشيخ عبد القادر الفاسي يحظَى بتقدير السلطان مولاي إسماعيل ، خرج الشيخ سنة 1091 / 1680 للقائه بمكناس فاستقبله بروضة الشيخ عبد الرحمن المجذوب وأنزله بأحد قصوره بالقصبة ، وأمر بتسريح المساجين من أنصاره وتوسيع زاوية القلقليين بفاس التي عمرتها أسرة عبد القادر الفاسي وعبد الرحمن الفاسي ، وللشيخ عبد القادر مكاتبات مع العاهل . ووضع مولاي سليمان تصنيفا عن آل الفاسي [42] .

---

(41) استقصا، 8، 83، 104 ـــ 105. 129 ـــ 130. محمد السيد التيجاني، غاية الأماني. بنعبد الله، موسوعة مغربية، معلمة الصحراء ج 1، 64، 112، 149. *Villes et Tribus Tanger) p.319*

(42) ضعيف، تاريخ، ص 65. *Mohammad al-Fassi, in Hespéris, 1962, Rabat*

ومن بين الصلحاء البارزين : أحمد حجي (ت 1103 / 1691) وقام بدور كبير في تحرير المهدية . ونجله عبد الله حجي الملقب بالجزار (ت 1122) وضريحهما واحد معروف بسلا ، والحاج علي بركة (ت 1120 / 1708) وهو من الشخصيات العلمية . وخصص له الشيخ داود في تاريخ تطوان ترجمة مطولة . وضريحه بتطوان ، وكان يتأثر كثيرا للأحداث المؤلمة التي عرفتها المنطقة الشمالية وبخاصة تطوان[43] .

ويدخل التصوف النسوي في جملته في الصنف المعتدل والمحايد ، وهو تصوف تدعمه الكرامات وتتأثر صاحباته في الغالب بمؤثرات البيئة التي نشأن بها ، ونادراً ما تكون العابدة ابنة غير صوفي . وكثيرا ما تكون ذات تكوين صوفي وشرعي أي تجمع بين الحقيقة والشريعة كما هو تعبير كتاب التراجم ، وهذه درجة ليست بالشيء الهين بالنسبة للمرأة في عصر لا يعترف لها بحقها في الثقافة على تحجرها ، ومن هذا الصنف منانة أو آمنة البستيونية ، وتوفيت سنة 1167 / 1754 وتلقى عنها عدد من الصلحاء كما في نشر المثاني وسلوة الأنفاس[44] ، وفاطمة بنت محمد الهلالي (ت 1207 / 1792) ولها أيضا تلاميذ ، وهناك من نسبن إلى المكاشفة والجذب كعائشة العدوية (ت 1080 / 1669) نقل الكردودي أنها كانت مولهة مستغرقة في محبة الرسول ﷺ ولها كرامات وأتباع ، وضريحها مزار بمكناس ، وزهراء السوسية عاصرت الحسن الأول وتنبأت بموته بمجرد سفره من مراكش سنة 1311 / 1893 وصدرت عنها تصرفات غريبة بهذا الصدد[45] .

وأما الصنف الثاني من الصلحاء والزوايا ذوي المواقف السياسية ممن هم في صف المعارضة أو المهادنة مع الاستعمار أو مواجهته مع التأرجح بين الموالاة للمخزن ومعارضته ، فإن القاسم المشترك بينهم جميعا هو اتخاذ مواقف سياسية واضحة تحددها الظروف بالنسبة للوضع الداخلي أولاً ، والتدخل الأجنبي ثانيا .

وكان من أوائل الذين اتهموا بالمعارضة السياسية الشيخ أحمد بن عبد القادر بن عبد الوهاب بن موسى بن محمد المعروف بالتستاوتي ، اتهم بالمهدوية ، وهي تهمة

(43) محمد داود، تاريخ تطوان، 1، 347 — 383.
(44) أورد القادوري في نشر المثاني، والكتاني في سلوك الأنفاس تراجم العديد من الصالحات والعالمات.
(45) كردودي، در، و،158. مراكشي، إعلام 3، 252، 6، 144.

تعادل محاولة قلب نظام الحكم . ومن أجلها سجن مدة سنتين بفاس الجديد بناء على وشاية من بعض أقاربه ؛ وهذا يدل على أن الرجل لم يكن قد خطا كثيرا في إعداد الرأي العام لتقبل مذهبه . ثم أطلق سراحه وألزم بسكنى مكناس حيث توفي سنة 1129 / 1716 . وله زاوية معروفة بسلا . وضع جملة من المذكرات والقصائد الصوفية وغيرها ؛ وكثير منها تضمَّنته الخزانة العامة بالرباط[46] .

وممن ظهر بعد الشيخ التستاوتي أحد رجالات شنقيط الشيخ محمود الشنقيطي الذي انقطع للعبادة مدة طويلة بالقرويين واجتذب إليه على الخصوص الفآت البورجوازية بفاس . واتفق الزياني وأكنسوس وكلاهما مؤرخ رسمي على أنه كان ينتقد سياسة الدولة ويصف العاهل بالجور وأنه أخذ يكاتب زعماء الأطلس بشأن الثورة . فألقي عليه القبض سنة 1175 / 1761 وكانت هذه المرحلة فترة اضطرابات نتيجة للأوضاع المتردية التي عرفها المغرب خلال ثلاثين سنة بعد موت مولاي إسماعيل ؛ وبقي الشيخ الشنقيطي مسجونا بمراكش ثم نقل إلى مكناس وأعيد مرة أخرى إلى مراكش حيث توفي اختناقاً وجوعاً سنة 1185 / 1771 بعد أن بني عليه جدار . ومما لا شك فيه أن الوشايات والمركبات النفسية لدَى بعض الفقهاء ورجال المخزن لها دور في مصير هذا الشيخ الذي تراجع عباس المراكشي عن اتهامه بالفتنة ووصفه أو نقل وصفا عنه بأنه عارف خامل خلوتي وأن طريقته كانت تلقين أتباعه أسماء الله الحسنَى ولا يتكلم إلا فيما يعني[47] .

أما أهم الزوايا التي لها تأثير مباشر في الأحداث السياسية الداخلية مع تفاوت في أبعاد هذا التأثير ورقعته الجغرافية . فهي الزوايا : الريسونية والوزانية والشرقاوية والدرقاوية والكتانية والفاضلية المتفرعة عن القادرية .

وتبرز كل هذه الزوايا كغيرها في الميدان الديني من طريق الإشعاع الفكري الروحي وتكوين أتباع منْبثّين في عدة مراكز للذكر وتلاوة الأوراد وتطبيق طقوس وتعاليم الزاوية وإطعام الفقراء .

وآل ريسون هم سلالة الشيخ يونس بن أبي بكر أخي «سيدي مشيش» . فهم

(46) إعلام، 2، 353، ابن زيدان إتحاف ج 1. بنعبد الله، موسوعة ج 3.

(47) مراكشي، إعلام، 7، 228.

والوزانيون يجتمعون في قمة الأسرة المشيشية التي يرقد جدها الولي عبد السلام في جبل العلم ، وهم جميعاً من السلالة الإدريسية ، واشتهر آل ريسون منذ معركة وادي المخازن سنة 986 / 1578 حيث كان الشيخ امحمد بن علي بن ريسون من كبار الأولياء الذين قادوا المتطوعة المساهمين إلى جانب الجيش النظامي ، واستقر آل ريسون بتازروت من بني عروس بين تطوان والعرائش ، وكان لجدهم هذا اتصال وثيق في مراكش مع الشيخ عبد الله بن حساين (ت 977 / 1569) وهو مؤسس الزاوية المصلوحية ، وكان على شيء من التشيع وهو الذي أوعز إلى معاصره الشيخ امحمد بن علي بن ريسون ببناء زاوية تازروت. ويلاحظ مدَى تأثر الزاوية بتعاليم ابن حساين حيث تتخذ موسمها ليلة عيد المولد النبوي احتفاء بهذه الذكرَى المجيدة .

واحتفظ آل ريسون على وجه العموم بعلاقات طيبة مع المخزن العلوي منذ إنشائه ، ونالوا بذلك تقديرا متزايداً . غير أن هذا التعاطف لم يمنع من فترات إحراج للبيت الريسوني أو مواقف يوضع فيها المخزن نفسه في حالة إحراج . وهكذا في الوقت الذي اختارت الزاوية الوزانية الوقوف إلى جانب مولاي عبد الملك أعطَى الريسونيون بيعتهم لأخيه مولاي عبد الله ، ونوه القادري في «الأزهار الندية» بشخصية مولاي عبد الملك الذي كان قد قرر وضع حد لدكتاتورية فرق البخاري فسبقوا إلى خلعه ، ورأى الريسونيون أن كفة المولَى عبد الله أرجح فبايعوه ، وهذا بالطبع موقف سياسي وديني معا ، ومن ثم حظي أهل الزاوية بتقدير خاص من مولاي عبد الله الذي أعفاهم من الزكوات والأعشار كما فعل المخزن مع زوايا أخرى .

ومن الشخصيات البارزة في آل ريسون الشيخ علي بن امحمد بن علي المتوفى سنة 1229 / 1813 والذي انتقل من تازروت إلى تطوان حيث مدفنه وزاويته التي كانت ولا تزال مسجداً جامعاً تردد فيه الأوراد والأذكار وتقام به الاحتفالات الدينية .

وحظيت الزاوية بمزيد من العطف في عهد السلطان محمد الثالث ونجله مولاي سليمان الذي كان الشريف محمد بن الصادق الريسوني من شيوخه. ومن دلائل احتضان هذا العاهل للحركة الريسونية مساعدتها مادياً وتحويله فندق لوقاش بتطوان

إلى زاوية لهذه الحركة التي كان لها دور إيجابي في إقرار التقارب بين مولاي مسلمة وأخيه مولاي سليمان الذي يخاطب الشيخ علي بن مُحمد بن ريسون بقوله : «ولا تبخل عنا بصالح دعائك . كما هو لك منا ذلك ...» بل إن هذا الشيخ كان له دور في تنازل مولاي هشام نهائيا عن الملك لمولاي سليمان مع اشتراط ولاية العهد لنجل الأول مولاي عبد الرحمن وقد طبق مولاي سليمان هذا الشرط . وساهمت الزاوية الريسونية بنضال مجيد في حرب تطوان وقيادة غمارة والأخماس في المواجهة ضد الاسبان بالرغم من المكائد التي دبرت لشيخها مولاي عبد السلام ؛ ومع ذلك ظلت تحظَى بمزيد التشجيع والمعونة المادية والمعنوية . فقد كانت واجهة قوية للدفاع عن سلطة المخزن بالشمال وميزان معادلة مع الزاوية الوزانية التي ولت ظهرها للمخزن تدريجياً وفي هدوء ، ولكن الزاوية الريسونية هي أيضا أحَدُ رباطات النضال ضد الاحتلال والجهل ، وهي عامل وحدة في وسط الأمراء المتنازعين على العرش . وفي جميع الأحوال فقد تشبثت بتعاليم السنة بعيداً عن بهلوانية الغلاة ولقد ختم مولاي أحمد آخر زعماء آل ريسون قبل الحماية سلسلة التدخلات السياسية للزاوية بالنسبة لعهد ما قبل الحماية ، وهو وإن واصل نشاطه بعدها ؛ ومهما كانت الأحكام التي أصدرتها الوثائق والكتب فقد كان أول من رفع شعار المعارضة علنياً ضد المخزن العزيزي المتضعضع واستأنف سياسة الإذلال ضد الأوروبيين المتهالكين على السيادة المغربية والتي نشطت فيما مضَى على يد سكان الشمال وحول مياهه الإقليمية[48] .

وغير بعيد من منطقة تازروت نشأت زاوية الشرفاء الوزانيين الذين لقبوا تارة بالطيبيين وتارة بالتهاميين . كما سميت زاويتهم في وزان بدار الضمانة ؛ والحق أن هذا الثالوث من الزوايا : المشيشية والريسونية والوزانية تعاون بشكل غير مباشر على خلق حركة واسعة من الجهاد الروحي والتربية الدينية لهؤلاء الجبليين ذوي البأس والذين فقدوا تماما صلتهم باللهجات البربرية حيثما أخضعوا لحركة تعريب تلقائية غرب غمارة الكبيرة . وقد فرض القرآن نفسه بشموخ وقوة ؛ على هذه المنطقة التي استشعرت الجهاد وتأزرت بالاسلام السني من آماد بعيدة . وقد استقبل مولاي أحمد الوزاني

---

(48) محمد داود، تاريخ تطوان، ج 6، 261. جريدة تطوان، ع 1980/34. استقصا، 7، 104. على الريسوني، رجال ومواقف *Villes et tribus, Tanger, p.333. Dr Arnaud, Au temps des mehalla*

بإكرام في منطقة توات أيام المنصور الذهبي قبل أن تبرز الزاوية الوزانية الى الوجود .

ولد جد الوزانيين مولاي عبد الله الشريف سنة 1006 / 1557 بتازروت مركز الزاويتين المشيشية والريسونية ، وبعد أن تلقى دراسته بتطوان وفاس أنشأ لنفسه خلوة بمنطقة وزان . وسرعان ما هرع إليه السكان المجاورون متبركين. ونشأ حول خلوته تجمع سكني حقيقي صار مدينة وازن. ومولاي عبد الله من السلالة المباشرة لعبد الله ابن مشيش الذي ضمن البركة لذريته بفضل وعد نبوي حسبما رددت ذلك روايات العاطفين والأسرة ، ومن ثم فالزاوية التهامية هي «دار ضمانة» أي تضمن البركة لزوارها ، ولمولاي عبد الله حفيدان هما التهامي والطيب ، وكان لهما فضل إنشاء فروع للزاوية عبر الشمال الإفريقي ، وقد اتخذ مولاي الطيب موقفاً لصالح مولاي عبد الملك بن إسماعيل وهذا يعني عداء لإخوته المنافسين له ، وقد جمعت الزاوية الوزانية ثروات طائلة بفضل هبات وتبرعات أتباعها والعاطفين عليها ، وذلك ما جعل السلطان محمد الثالث يلزم سنة 1195 / 1780 عميدها وخليفته بوجمعة بأن يؤدي كل منهما عشرين قنطاراً من المال ، وكان مولاي الطيب ضد بيعة مولاي عبد الله والد محمد الثالث كما كانت له صلة بثورة الباشا أحمد الريفي . واضطر شيخ الزاوية أن يدفع كل ما لديه بما في ذلك مجوهرات أسرته . وما لبث أن توفي سنة 1196هـ ثم غير المخزن سياسته مع خلفه ونجله مولاي علي بن أحمد بن الطيب ومنحه سلطات واسعة على الأشراف ونفوذا على الباشا نفسه وأن يولي القاضي بنظره ويؤكد له أنه مستعد لتزويد الأشراف بموارد كافية تقوم بالمنطقة .

وبعد أن استتب الأمر أو كاد للاحتلال الفرنسي بالجزائر كان الوزانيون قد ارتبطوا بعلاقات ودية مع فرنسا . واستقبل شيخ الزاوية الحاج العربي سنة 1263 / 1846 سفير فرنسا شاصطو مع رفقته وكان الاستقبال ودياً ، وتسلم الشيخ هدية قيمة لفقراء الزاوية من يد السفير. والظاهر أن رغبة الزاوية في استمرار نشاط فروعها بالجزائر كان أحد أسس هذه العلاقة التي تأكدت بدخول مولاي عبد السلام شيخ الزاوية بعد ذلك تحت مظلة الحماية الفرنسية في وقت كان المخزن والأمة يجابهان صراعا شاقاً ضد التكالب الأجنبي ، وتزوج مولاي عبد السلام من فتاة إنجليزية وتوفي سنة 1310 / 1892 . ومن الواضح أن الأسرة التهامية لم تفقد

مركزها الديني بمهادنة الاحتلال الفرنسي للشمال الافريقي وبالأخص للمغرب ، وهي على أية حال لم تحظ بنفس العطف الذي حظيت به الزاوية التيجانية أو الريسونية من المخزن [49] .

وللزاوية الدرقاوية نصيبها في صف المعارضة ، وهي معارضة في إطار الأسرة الحاكمة ولها ظروف محددة ، وينتمي الدرقاويون إلى النسب الادريسي شأن آل ريسون والتهاميين والكتانيين والحق أن جزولة فتحت المجال لظهور الأشراف حكاما على الصعيد الوطني وكتلا دينية سياسية تبرز أهميتها كلما خيم الظلام تدريجياً على الدولة السعدية . وتصبح لهذه الكتل أهمية فعلية من بداية الدولة العلوية التي تعمل بمرونة على احتضانها وتخويلها أوسع الامتيازات ما لم تزج بنفسها في معامع السياسة أو موالاة الجانب الأضعف .

ونسب الدرقاويون إلى أحد أسلافهم أبي درقة محمد (فتحاً) بن يوسف . ومنذ تأسيس الدولة العلوية حصل أحفاد أبي درقة على امتيازات ضرائبية وحق التصرف المطلق في أوقاف الزوايا التابعة لأسرتهم كزاوية أبي درقة بتامسنا وزاوية بوزرقطون من أسلافهم . وموقعها بالشياظمة . وجددت هذه الامتيازات بظهير إسماعيلي ذكر نصه محمد البشير الفاسي في دراسته عن قبيلة بني زروال . ومن سلالة أبي درقة . العربي بن أحمد دفين بوبريح قرب بني زروال . ومن شيوخه الطيب اليمْلَحي ومحمد بن علي بن ريسون والعربي البقال ، وكل هؤلاء شاذليون كطريقة درقاوة . وأسس زاويته ببوبريح حيث مدفنه ، وتلاميذه يعدون بالآلاف ، ومنهم السلطان مولاي عبد الرحمن وعبد القادر بن الشريف من كبار شخصيات الجزائر . وفروع زاويته في مختلف أنحاء المغرب وبالأخص في المدن ومناطق الشمال والأطلس المتوسط وسوس . وللشيخ العربي الدرقاوي مكاتبات مع السلطان مولاي سليمان تدل على التقدير الظاهري على الأقل ، الذي كان يكنه السلطان للشيخ . بل إن السلطان كان يستعين به في مهمات سياسية بما في ذلك تكليفه بالعمل على وقف ثورة عبد القادر بن الشريف بالجزائر ضد الأتراك . وعبد القادر تولى باسم أستاذه الشيخ

---

(49) ضعيف، تاريخ، ص 195 ــ 199. استقصا، 7، 121 *L. Provençal, Ouazzan, maison de la Garantie in Bulletin d'enseignement, Dec. 1922. Villes et tribus, Tanger, p.320. J. Caillé, La petite histoire du Maroc, 2* ويراجع عن رحالات الزاوية الوزانية : التحفة القادرية لعبد السلام القادري، (ت، 1228 هـ) وهو مخطوط ب خ. ع. الرباط في مجلدين.

العربي الدعوة للحركة الدرقاوية التي نشطت بشكل غير منتظر في أرجاء الجزائر عقائديا وسياسياً . ويُعَدُّ انتشار الحركة الدرقاوية بين الأوساط البربرية بالمغرب وعلى يد زعماء البربر أنفسهم إحياء بشكل ما للزاوية الدلائية والزاوية التازروالتية الحسونية . وكان من دلائل فعالية العمل الدرقاوي . قيام الزاوية بدعاية واسعة النطاق تتغلغل بين مختلف الأوساط الشعبية . وبعض فروع الزوايا كما في طنجة اختصت بتلقين النساء وأخرى بالأطفال ، وذلك يضمن قيام المرأة بتأطير الأسرة والمعارف كما يضمن تكويناً راسخاً ومستمراً للأطفال الذين يصبحون بدورهم إطارات قيادية شابة ومخلصة . وتورط الدرقاويون في قيادة الثورة ضد مولاي سليمان ولصالح الأمير ابراهيم بن اليزيد سنة 1235 / 1819 انطلاقا من الأطلس المتوسط وباتفاق مع زعمائه ، وقد ألقي القبض على مولاي العربي في أوائل السنة التالية إلى أن أطلق سراحه بعد سنتين وأربعة أشهر في السجن بفاس وتوفي بعد حوالي سنة . وذلك عام 1239 / 1823 .

ومن الشخصيات البارزة التي أخذت بالمذهب الدرقاوي قبل الشيخ العربي المذكور ، الصوفي أحمد بن عجيبة الذي درس بتطوان وفاس وله عدد من المؤلفات معظمها في التصوف ، وكان على شيء من الثروة ثم تخلى عنها واتشح برداء التصوف فتعصب ضده الفقهاء بإيعاز من أسرته التي وجدته قد تحول إلى حامل سبحة يتجول بين الأزقة متسولاً ، ثم أدخل السجن بتطوان بعد مناظرة بينه وبين الفقهاء بأمر السلطان ، وقد كتب عنه الأستاذ جان لوي ميشون دراسة جيدة . وتوفي سنة 1224 / 1809 .

كذلك أخذ فقيه آخر من كبار مثقفي عصره وهو الشيخ محمد الحراق (ت 1261 - 1845) بمذهب الشيخ العربي الدرقاوي مباشرة . والشيخ الحراق كان علما من أعلام التصوف بعد أن كان من أعلام الشريعة وكان له إشعاع ثقافي واسع وتقاطر المعجبون بحلقاته من كل أنحاء المغرب بما فيهم رباطيون وفاسيون ووجه إلى مولاي عبد الرحمن مذكرة تتضمن وصايا رقيقة وينصحه باتباع الشريعة والجمع بينها وبين علم الباطن وله مذكرات أخرى إلى الفقراء في مختلف جهات البلاد كما تلقى مراسلات الأمير عبد القادر الجزائري.وقد تأسست فروع عديدة للزاوية الحراقية التي مقرها بتطوان ، ومنها فاس والرباط وطنجة والدار البيضاء (الحي الحبسي) .

وأسلوب الحراق من الأدب الرفيع شعرا ونثرا ، وهو مؤلف لشرح الاجرومية في المذهب الصوفي وهي أيضا تحفة من الفن الأدبي وتوجد مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط .

كذلك ترك شيخه العربي الدرقاوي رسائل صوفية متداولة بلغت قمة الابداع فكراً وأسلوباً وجاذبية . وهي جديرة بأن تأخذ مكاناً رفيعاً بين النصوص الصوفية والأدبية [50] .

وقد تركت الطريقة الدرقاوية مكانها القيادي في الميدان السياسي قبيل الحماية للحركة الكتانية بالنسبة للأطلس المتوسط حيث كانت زمور وبني مطير وبني ملال من أهم المراكز التي استقطبتها الحركة الناشئة وتولت شعار المعارضة ضد الحماية مبدئياً وعسكرياً .

واحتضنت الدولة لفترة كذلك ، حركة الزاوية الشرقاوية التي نشأت في أعقاب القرن 10 / 16 على يد عميدها محمد الشرقي (ت 1010 / 1601) وبلغت أوجها في عهد محمد الثالث قبل أن يأمر هو نفسه بتخريبها بعد أن اتهمت بالفساد وإيواء الظلمة المتوافدين عليها ، وواضح من هذا أنها أصبحت موئلا سياسيا للمعارضين وحتّى الذين تتهمهم الدولة بجرائم معينة . ونقل شيخها العربي بن المعطي الشرقاوي في نفس الفترة (1199 / 1784) إلى مراكش ثم إلى فاس وأعيد إليها في عهد مولاي هشام ونالت الإجراءات العفوية عموم أنصار الشيخ . ولما تولى مولاي سليمان انصبت التهمة من جديد على شيخ الزاوية المذكور ثم سمح له بالعودة إلى مقامه واستئناف نشاطه . ووضع خلفه الشيخ نفسه تحت تصرف المخزن بعد معركة إيسلي . ويظهر أن أحداث الجزائر وبرودة المخزن تجاه الزاوية جعلها توفد إدريس بن عمر بن داود نجل الشيخ إلى الجزائر ليتعرف على نوايا فرنسا تجاه المغرب والزاوية بوجه خاص . وكان المناضل موحا وحمو من أنصار شرقاوة الذين زكوا ترشيحه قائداً لدَى مولاي الحسن الذي استقبله بأبي الجعد نفسها ، وهذا يدل على أن شرقاوة

(50) محمد البشير الفاسي، قبيلة بني زروال، ص 37، 46، 80 ناصري، 8، 150، 9، 6، 9، محمد داود تاريخ تطوان، 6، 289 ــ 396. 213 ــ 258. ابن سحنون، الثغر الجماني، ص 39.
Villes et tribus, Tanger, p,323. Jean - Louis Michon, Le soufi marocain Ibn Ajība, Paris, 1973

حاولوا أن يضمنوا موالاتهم للمخزن بعد فترة تقاطع مستديمة ، وحيث أن الشاوية هم أنصار الزاوية الرئيسيون فإن من عوامل الشحناء مواقف هؤلاء بشأن تسويق منتجات المنطقة والاحتكارات التي تولتها العناصر والمؤسسات الأوروبية بمنطقة الدار البيضاء . وحاول المخزن من جهته اضعاف الزاوية بتشطيرها إلى شطرين ينافس بعضهما بعضا في مطلع القرن العشرين ، وحسب دراسة لإيكيلمان فإن هم شيوخ الزاوية أصبح ليلة الحماية ليس في الوقوف إلى جانب هذا السلطان أو ذاك . لكن في أن تضمن فرنسا متى تولت السلطة إعفاء الزاوية وأتباعها من كل الضرائب . ومهما يكن من شيء فإن هذه الزاوية تشبثت بالطريقة الشاذلية . وقد أنشأت لها فروعا بتادلا والشاوية وعدد من المراكز المغربية الأخرى .

ومما ألف عن جد الزاوية الشرقاوية محمد بن المعطي كتاب «المُرقِّي في بعض مناقب القطب سيدي محمد بن الشرقي» لعبد الخالق العروسي . وتناول في هذا الكتاب حسبما بينه عباس المراكشي ترجمة الشيخ وطريقته وأشياخه وتلاميذه وشيئا من كلامه . وقد عاش المؤلف في النصف الأول من القرن 12 / 18[51] .

وبالصحراء الشرقية نشأت مجموعة كبيرة من الزوايا وفروع الزوايا ولها أيضاً دور سياسي وعقائدي وفي النضال ضد الاستعمار . كالزاوية القندوسية والزاوية الكرزازية ، غير أن ما يتعلق بأحداث الصحراء الشرقية المرتبطة بالمغرب قد أشير إليه في مجال الأحداث السياسية . وقد ضمت هذه الزوايا أو احتضنت مجموعة كبيرة من الأشراف عبر تاريخها الذي ازدهر بالنسبة إلى الكثير منها منذ العصر السعدي . كما أن مقامها في النشاط الثقافي ذو أهمية تتجاوز النطاق المحلي . وميزتها أن اتجاهها كله تلقائي تعتمد فيه على إمكانياتها ومساعدات أتباعها وليس للدولة دور كبير في توجيهها بالنظر لبعد المسافة . والأصح أن الدولة كانت تستعين بها في إقرار النظام بالمنطقة وحمل السكان على ضمان أمن القوافل والبعثات المخزنية الرسمية .

وبالصحراء الغربية نشطت الطريقة القادرية التي ما هي في الواقع إلا تمثيل للطريقة الشادلية عبر أنحاء المغرب وخارجه. وعن القادرية تفرعت زوايا كثيرة بالصحراء وإفريقيا الغربية. ومن أقدم هذه الفروع البكائية التي تنسب إلى الشيخ

---

(51) زياني، بستان، ص 143، ناصري، استقصا، 8، 59، مراكشي، إعلام، 2، 49، *Dale F. Eickelman, in Bul. de la Société d'histoire du Maroc, n°4-5 (1972-73)*

أحمد البكاي الذي ينتمي إلى آل كونتا الذين استقروا بالصحراء الغربية منذ القرن 9/ 15 . وحسب دوبويغودو فقد قدموا أصلا من سبتة وهم يرون أن أصلهم من توات وأنهم من سلالة عقبة بن نافع وينظرون إلى الطوارق بشيء من عدم الرضا باعتبار أنهم ينحدرون من كسيلة . وأنشأ عمر ولد البكاي ورده الخاص بعد أن درس على يد المغيلي بتوات ، وبلغت القادرية الكنتية أوجها على يد الشيخ مختار الكنتي الذي قام بدور ديني كبير خلال النصف الثاني من القرن 12 (1760 ــ 1811م) ويعتقد قسم كبير من مسلمي السينغال وغينيا وساحل العاج وغيرهم من مسلمي إفريقيا الغربية والمنتمين إلى الطريقة القادرية أن لهم ارتباطاً بشكل أو بآخر بالشيخ مختار الكنتي . وبذل الكنتيون عبر الصحراء الشرقية والجنوبية والغربية جهدا كبيرا في مقاومة الاحتلال الفرنسي .

وخلال القرن 13 / 19 تفرعت مجموعة جديدة من الزوايا عن الكنتية البكائية . بما فيها الطريقة الفاضلية نسبة إلى الشيخ محمد فاضل بن مامين (ت 1286 / 1869) وهو تلميذ المختار الكنتي وعَمَّر حوالي تسعين سنة ؛ ونجل محمد فاضل وهو مصطفَى محمد المعروف بالشيخ ماء العينين أنشأ بدوره فرعاً للفاضلية . وهو زاوية أهل بركة الله التي اتخذت «السمارة» مقرا لها بالعيون . وكان نشاط هذه الزاوية منصباً على الجوانب الروحية والفكرية والجهادية . وقدر أحمد بن الأمين الشنقيطي وهو من تلاميذ الشيخ ماء العينين أن أنصار هذا الأخير بالساقية الحمراء كانوا لا يقلون عن عشرة آلاف وهو عدد في منتهَى الأهمية في مطلع القرن 13 / 19 بالنسبة للمنطقة . وسبق الحديث عن الدور السياسي والجهادي لأسرة ماء العينين وزاويتها.ولم تكن زاوية السمارة إلا واجهة للنضال الفكري والسياسي الموجه ضد الاحتلال الأجنبي بالذات في منطقة كانت الإغراءات الأجنبية فيها قبل وأثناء هذا النضال أيضا تجذب بعض الزعامات والأشخاص الطامعين في الثراء السهل والجاه الرخيص . وتنتمي أسرة ماء العينين إلى السلالة الادريسية . وقد انكب بعض أفراد الأسرة على دراسة النضال الجهادي والعقائدي والنشاط الفكري لماء العينين وزاويته[52] .

---

(52) أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط، ص 361، عبد العزيز بنعبد الله، موسوعة مغربية، ملحق الصحراء ج1 *Ed. Burcke*، العلماء المغاربة في 1860 ــ 1912، تعريب محمد بن عبود وعبد العزيز السعود، في =

وإذا كانت فاس قد تميزت بجامع القرويين الذي ندر أن لا يمر من حلقاته الدراسية منشئ طريقة صوفية إما طالباً أو مدرساً . فإنها قلما كانت منطلقاً أصلياً للزوايا والطرق . فهي تضم جماعة كبيرة من صفوة فقهاء البلاد الذين يعدون أنفسهم حماة للشريعة محافظين على أصالتها . وهم بهذه الصفة ينظرون إلى الصوفية وأرباب الزوايا نظرة حذر لا تخلو من شعور بالنقص تجاه الشعبية التي يحظَى بها هؤلاء . ومن ثم فإن منطلق أغلبية الزوايا هو المراكز القروية والمناطق الخالية أحيانا ليبتعدوا عن رقابة السلطة المتشددة ويتحاشوا الاصطدام بالفقهاء الذين لهم اعتبار رسمي لدَى الدولة . غير أن الزاوية الكتانية التي ينتمي مؤسسوها إلى الأسرة الإدريسية اتخذت مقرها بفاس مثلما استقرت الزاوية المركزية التي أنشأها من قبل . الشيخ أحمد التيجاني بفاس أيضا . وكان إنشاء الزاوية الكتانية حوالي 1267 / 1850 على يد الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني الذي أسس حفيده وسميّه محمد بن عبد الكبير الكتاني الطريقة الكتانية سنة 1308 / 1890 . وتلقى الحفيد ثقافة واسعة جدا كان لوالده نصيب كبير من الفضل فيها . لأنه كان من أبرز أساتذة القرويين الذين تلقى عنهم الطالب محمد بن عبد الكبير . ومن أساتذته ابن خاله محمد بن جعفر الكتاني ومحمد التهامي الوزاني وأحمد بن خالد الناصري وعلي المستاري ومحمد الغياثي . وأجازه صفوة من علماء المشرق والمغرب وبينهم الشيخ ماء العينين . ومن زملائه في الدراسة المؤرخ ابن علي الدكالي .

وتنبني الطريقة الكتانية على أربعة أركان هي 1) التوبة التي هي الندم مع الإقلاع عن الذنوب . 2) امتثال الأوامر واجتناب النواهي . 3) التماس المعاذير لكل الناس على اختلاف مذاهبهم وآرائهم . 4) نظرة التعظيم لله في سائر الموجودات مهما صغرت .

وقد ذهب الشيخ محمد بن عبد الكبير بعيدا في تحليقاته الصوفية كتابة وأدعية وأوراداً وأدَّى ذلك إلى تدخل الفقهاء لدَى السلطة من أجل وضع حد لنشاطه الصوفي . ورأت السلطة أن تعقد حلقات بينه وبين الفقهاء المباغضين له من أجل

= مجلة البحث العلمي في 1980. *Le passé maghrébin de la Mauritanie. P. Marty. Revue du monde musulman, 1918 - 1919. Odette de Puigaudeau,* مقال معرب في البحث العلمي 1979 بعنوان : آراء جديدة حول نسب الشيخ ماء العينين، ولد مامين.

مناظرته . وتبين أن الشيخ الكتاني كان واسع الاطلاع في علوم الشريعة متمكنا من الجدل وعلم الكلام ويستحضر نصوص الشريعة أصولا وفروعاً وأنهم كانوا دونه في مستوَى الجدل والبراهين العلمية . وكانت التهمة الموجهة إليه هي إفساده عقول العامة بإغراقاته الصوفية والروحانية وأن ذلك يخالف أصول الشريعة . وأخيراً دعي إلى مناظرته شيخه بالإجازة محمد مصطفَى ماء العينين الذي انتهَى إلى تبرئته من كل تهمة تخالف الشريعة . والواقع أن بين الرجلين تفاهما روحياً وفكريا عميقا ، وكلاهما مدرسة عميقة الأثر في مجال الإثراء الفكري الروحي والشرعي ، وبتبرئته من التهمة دخلت الطريقة الكتانية في مجال الاعتراف الرسمي بأهليتها للعمل الديني والروحي بعد أن خطت خطوات سابقة قبل محنة المناظرة التي انتجت صكاً مكتوباً يقر فيه الشيخ بأنه يتوب عما سلف منه في توجيه العامة توجيها يبتعد عن علم الظاهر ويغرق في علم الباطن .

وتميزت الطريقة الكتانية بأنها استقطبت في زاويتها وحيثما حل مؤسسها المباشر صنفين بارزين أحدهما من الذين سيتولون عبء المقاومة المسلحة ضد الاحتلال . والثاني من نوابغ المثقفين الذين تأثر أكثرهم بفكره الواسع وصلابته في الحق . وآخرون دخلوا في جملتهم للأخذ بأوراده واتباع تعاليمه . ومن بين هؤلاء وأولئك : إبراهيم سليطن أستاذ بجامعة ابن يوسف وأبو بكر بن محمد التطواني السلاوي الذي وصفه الباقر الكتاني بصاعقة العلم والمعرفة ، وأبو بكر بن بناصر حركات الذي وصفه هذا المؤلف أيضا بالعلامة المشارك المبرز في علمي الفرائض والحساب والحسن بن محمد المنوني العالم الفلكي الحيسوبي ومحمد بن أحمد السلمي من أساتذة القرويين ومؤلف عدة كتب في التفسير والحديث ، والجيلاني بن الغازي الزموري . وبنعيسَى بن عبيد الزموري وابن مومن بن العود الزموري وحمادي بن حق الزموري وكل هؤلاء الزموريين ومآت غيرهم من تلاميذه أبطال في الجهاد ضد الاستعمار واستشهدوا في سبيل الوطن . وهناك عدد كبير ممن أجازهم بالمشرق أثناء سفره إلى الحج كما تلقى عنه كثيرون بمصر والحجاز ، وحيث ان الشيخ ابن عبد الكبير الكتاني ارتبط اسمه ونشاطه إلى جانب أنصاره بمواقف ضد سياسة المخزن العزيزي ثم الحفيظي ، ومن ثمَّ ضد التدخل العسكري والسياسي الأجنبي . فإن هذا الجانب قد خصص له حيز في الفصل الأخير من القسم السياسي .

وحيث ان المعارضة الكتانية لسياسة مولاي عبد العزيز أولاً . ثم للملكية غير المقيدة بالشورى ثانيا أدت إلى القبض على الشيخ الكتاني وأسرته والكثير من أنصاره ثم إلى وفاة الشيخ سنة 1327 ، بعد تعذيبه في سجن فاس ، فإن نكبة الزاوية الكتانية توبعت بإغلاقها والقبض على المسؤولين عنها ومصادرة أموال الزعماء الكتانيين إلى أن أعيد فتح الزوايا بأمر من السلطان مولاي يوسف سنة 1330 / 1912 . ومن جهة أخرى فقد واصل الكتانيون بزعامة الشيخ عبد الكبير والد الشيخ الراحل تنشيط المقاومة ضد الاحتلال ، وذلك في مناطق الأطلس وبالاتصالات السرية مع زعمائه .

وترك الشيخ ابن عبد الكبير الكتاني مجموعة كبيرة من المذكرات والرسائل والمؤلفات تتناول التصوف والفقه والتفسير والتعاليم الكتانية ، ومن بينها كتاب الرسائل الكتانية في الهداية والارشاد في عدة أجزاء ، وروح الفصوص في الفلسفة الإسلامية ، وقدر الشيخ محمد الباقر الكتاني كتب ابن عبد الكبير الكتاني إذا تم تجميع بعضها إلى بعض بنحو ثلاثين مجلداً[53] .

(53) محمد الباقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني. عباس المراكشي، إعلام، 7، 131، 144. 154 — 168. 177. واورد محمد الباقر في الكتاب المذكور (ص 5) أسماء بعض المؤلفات عن الشيخ محمد بن ع الكبير، ومنها : جامع كرامات الأولياء ليوسف النبهاني، وأدواح البستان في أخبار العدوتين لابن علي الدكالي. والنبذة اليسيرة لمحمد بن جعفر الكتاني (ت. 1345هـ) وانظر : *Villes et tribus, Tangar, p.318*

المصادر والمراجع [1]

* **ابن زيدان عبد الرحمن** 1365 / 1946 :
– إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس . الرباط 1929م .

* **ابن سحنون أحمد الراشدي** (قرن 12 / 18) :
– الثغر الجماني في أخبار الثغر الوهراني . الجزائر 1973 .

* **ابن سودة محمد بن عمر** :
– قبيلة زعير ، ج 1 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1977 .

* **ابن عبد القادر الجزائري (محمد)** :
– تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر ، المطبعة التجارية ، الإسكندرية ، 1903م .

* **ابن عزوز (محمد حكيم)** :
– الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب ، ج 1 ، مطبعة الساحل ، الرباط ، 1981 .
– موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي ، مطابع الشويخ ، تطوان ، 1401 – 1981 .

* **أبو الفداء** :
– معاهدة الحماية كما يرويها الأجانب ، مجلة السلام ، تطوان ، ع 4/ 1352 / 1933

---

(1) هناك مصادر ومراجع أحيل عليها مرة واحدة فلم تذكر هنا. كما أن كثيرا من المصادر والوثائق أحيل عليها بقصد التوسع أو الرجوع إليها من أجل الاستقصا، اكتفي بذكرها في الهوامش.

* **الأفرني** (انظر لائحة المصادر غير العربية)
* **أكنسوس محمد بن أحمد**

— الجيش العرمرم، طبع حجري، فاس (د. ت).

* **الإمام (محمد) بن الشيخ ماء العينين :**

— الجأش الربيط في الذب عن مغربية شنقيط / جريدة العلم، 1376 / 1957، الرباط

* **إيغيلير اخوسي :**

— وثائق تتعلق بالسفارة المغربية إلى ليون الثالث عشر، مجلة تطوان، 1957.

* **بالاو** (باء مثلثة) **ماريانو أرياس :**

— مبايعة مولاي مسلمة بطنجة، مجلة تطوان، 1960، تطوان.

* **البكري أبو عبيد عبد الله 487 / 1094 :**

— المسالك والممالك (القسم الخاص بالمغرب، نشره دوسلان)، باريز، 1965.

بنشنهو عبد الحميد بن بوزيان :

— البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، مطبعة الأمنية، الرباط، 1370 / 1951.

* **بنعبد الله (عبد العزيز) :**

— الموسوعة المغربية للأعلام البشرية / وزارة الأوقاف، الرباط. 1395 — / 1975 — 1981.

* **بنمنصور عبد الوهاب :**

— مجموعة الوثائق 1 — 4، المطبعة الملكية، الرباط، 1396 — 1397 / 1976 — 1977

— أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1399 / 1977

— مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب. المطبعة الملكية، الرباط، 1397 / 1977

— تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات ... المطبعة الملكية، الرباط، 1381 / 1962

بورك (إدموند)

ـ العلماء المغاربة في 1860 ـ 1912 . تعريب د. أحمد بن عبود وعبد العزيز السعودي . مجلة البحث العلمي ، الرباط . 1400 / 1980

* البوعبدلي (المهدي) :

ـ مقدمة الثغر الجماني (راجع في هذا الفهرس : ابن سحنون) .

* بويغودو (أوديت) :

ـ آراء جديدة حول نسب الشيخ ماء العينين / مجلة البحث العلمي . الرباط . 1399 / 1979 .

* التازي (د.) عبد الهادي :

ـ الثغور المغربية / مجلة البحث العلمي 1397 / 1977 .

* التيجاني محمد السيد :

ـ غاية الأماني ، منشورات مكتبة القاهرة ، القاهرة (د. ت) .

* جان غانياج : .

ـ ثورة علي بن غداهم ، الدار التونسية للنشر . تونس 1965م .

* دحلان أحمد بن زيني :

ـ الفتوحات الإسلامية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، 1354 / 1935 .

* الرجراجي أحمد بن الحاج :

ـ الشموس المنيرة في أخبار مدينة الصويرة ، المطبعة الوطنية ، 1354 / 1935 .

* الريسوني علي (المحامي) :

ـ رجال ومواقف ، تطوان ، 1402 / 1982

ـ ثلاث وثائق بتاريخ جمادى الثانية 1326 و23 جمادى الأولى 1327 و23 جمادى الثانية 1327 .

* الزياني أبو القاسم :

ـ البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف / م.خ.ع. د 1577 . الرباط

- الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم براً وبحراً ، تحقيق ع الكريم الفيلالي . وزارة الأنباء . 1387 / 1967 الرباط .

* **سلفاتور بونو** :
- العلاقات بين الجزائر وإيطاليا خلال العهد التركي . مجلة الأصالة ع 7 . 1392 / 1972 ، الجزائر .

* **السليماني محمد** :
- اللسان المعرب ، مطبعة الأمنية ، الرباط . 1972 .

* **الشنقيطي أحمد بن الأمين** :
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة الخانجي بمصر 1378 / 1958 .

* **الصبيحي أحمد بن محمد** :
- باكورة الزبدة من تاريخ آسفي وعبدة . م.خ.ع. د 1503، الرباط (كتب سنة 1336 / 1918) .

* **الضعيف محمد بن عبد السلام الرباطي** (ازداد سنة 1165هـ)
- تاريخ الدولة السعيدة . م.خ.ع . د 660 الرباط .

* **الطاهر اللهيوي والعياشي الزباخ** :
- هدّي والحقيقة التاريخية ، جريدة تطوان ، ع 40 . رجب 1400 / مايو 1980 . تطوان .

* **عشاش بلقاسم** :
- عائلات سلا / م.خ. الصبيحي بسلا (ترجمه عن الفرنسية ، ومؤلفه مراقب مدني سابق) .

العياشي الزباخ (انظر الطاهر اللهيوي) .

العياشي عبد الله بن عمر بن عبد الكريم :
- الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش . م.خ.ع (مصور) . د 1433 ، الرباط .

الغربي محمد (د.)
- الساقية الحمراء ووادي الذهب ، ج 1 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء (د. ت) .

الفاسي عبد الحفيظ
- خطوات وخطرات ، مجلة الثقافة المغربية ، شتنبر 1941 ، الرباط .

* **الفاسي محمد** :
- الكاتب الوزير محمد بن عثمان . مجلة تطوان 1960 . تطوان .

* **الفاسي محمد البشير** :
- قبيلة بني زروال ، المركز الجامعي للبحث العلمي . الرباط . 1962 .

* **القادري محمد بن الطيب** ، 1187 / 1773 :
- نشر المثاني في أعيان القرن الحادي ، طبع حجري . فاس 1310 / 1892 .

* **الكانوني محمد العبدي**
- آسفي وما إليه قديماً وحديثاً ، م . مصطفى محمد . القاهرة 1353 / 1934 .

* **الكتاني محمد الباقر** :
- ترجمة الشيخ محمد الكتاني . مطبعة الفجر ، الرباط ، 1380 / 1960م .

* **الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس** ، 1323 / 1906 :
- سلوة الأنفاس . طبع حجري ، فاس ، 1335 / 1916م .

* **الكردودي أحمد بن محمد** 1318 / 1900 :
- الدر المنضد الفاخر م.خ.ع ، الرباط ، د 1584 .

* **ماثيوس فيليكس** :
- ساحل إفريقيا الغربي . تعريب د.ع الهادي التازي . مجلة البحث العلمي . الرباط 1400 / 1980 .

* مجلة تاريخ المغرب ، ع 2 ، 1382 / 1402 ، الرباط

مجموعة الوثائق : (انظر بنمنصور) .

* **مجهـول** :

— كناش شروط الأجناس ، م.خ.ع ، الرباط ، د 1694 .

* **محمد داود** :

— تاريخ تطوان ، ج 1 ، 6 ، 8 . الرباط ، من 1379 — 1399 / 1959 — 1979

— مختصر تاريخ تطوان — المطبعة المهدية 1375 / 1955

* **المدني بن الحسني** :

— مقدمة الفتوحات الإلهية للسلطان محمد بن عبد الله م. ملكية ، الرباط . 1400 / 1980 .

* **المراكشي السملالي عباس بن إبراهيم**

— الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام . تحقيق ع الوهاب بنمنصور ، م ملكية ، الرباط . 1974 / 1977 .

* **المراكشي محمد بن أبي القاسم**

— الحلل البهيجة في فتح البريجة . م.خ.ع . الرباط . د 1328 .

* **المشرفي محمد الغريسي** 1324 / 1906

— الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية . م.خ.ع . الرباط . د 1463 .

* **مييج جان لوي**

— المغرب وإسبانيا والمصرف الأوروبي بين 1868 — 1870 ، مجلة تطوان . تطوان 58 — 1959 .

* **الناصري أحمد بن خالد** 1315 / 1897 :

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء . 1954 — 1956 .

الوزاني (التهامي)

— المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب ، تعليق محمد بن عزوز حكيم ، م. الساحل ، الرباط 1980م .

* **Arnaud (Dr Louis) :**
  – Au temps des mehalla, Edit. Atlantides, Casablanca, 1952
* **Berthier (Paul) :**
  – Histoire du Massif de Moulay Idriss, Edit. F. Moncho, Rabat, 1938
* **Boulmogdad :**
  – Lettre de Hassana fils de Maâ El-Aïnayn à Chaykh Sidïa, Revue du monde musulman, T 31/1915-1916, Paris
* **Burke (E) :**
  – Actes du premier Cong. d'histoire du Maghreb. T 2. Tunis, 1979
* **Caillé (Jacques)**
  – Ambassades et missions marocaines en France, in Hespéris, 1960
– Charles Jagerschmidt. I.H.E.M. Lib. Larose Paris, 1951.
  – La petite histoire du Maroc, Casablanca, Chérifienne d'Edition
* **Champion (Pierre) :**
  – Le Maroc et ses villes d'art. Lib. Renouard, Paris, 1927
* **Coufourier (L.) :**
  – Chronique de la vie de Moulay El-Hassan, in Archives marocaines, Vol. 8/1906
* **De Castries (Colonel Henry) :**
  – Sources inédites de l'histoire du Maroc (Les Alaouites)
  – Le Danemark et le Maroc, in Hespéris, 4è trim. 1926
* **De Cenival (Pierre) :**
  – Hespéris Fasc. 1, 1928
* **De Chénier (M.) :**
  – Recherches historiques sur les Maures, T 2, Paris 1787
* **De L'Andelyn (Ch.) :**
  – Histoire universelle, Payot, Paris, 1958
* **Deverdun (Gaston) :**
  – Marrakech des origines à 1912. Edit. Techniques, Rabat, 1959
* **Du Puigaudeau (Odette) :**
  – Le passé maghrébin de la Mauritanie, Rabat, 1962.
* **Eickelman (Dale F.) :**
  – Quelques aspects de l'organisation politique et économique d'une zawiya marocaine au 19è siècle, in Bul. de la S. d'Hist. nº 4-5/1972-73.
* **El-Fassi (Allal) :**
  – Livre rouge. Edit. Marcello Peretti, Tanger (S.D.)
* **El-Fassi Mohammed :**
  Biographie de Moulay Ismaél. Hespéris Tamuda, 1962, Rabat.

* **Emerit (Marcel) :**
  – Alger en 1800 d'après les mémoires inédits de La Maye, in Revue d'Histoire maghrébine, nº /1974, Tunis
* **Figueras (Garcia) :**
  – Del Marruecos Feudad, Madrid, 1930
* **Flamand (Pierre) :**
  – Un mellah en pays berbère : Demnat, (I.H.E.M.) Paris, 1952.
* **Gillier :**
  – Pénétration en Mauritanie, Paris, 1926
* **Gouraud (Gl) :**
  – Mauritanie Adrar, Edit. Plon, Paris, 1954
* **Guillen (P.) :**
  – L'Allemagne et le Maroc de 1870-1905, in Bul. d'Hist. du Maroc, nº 1/1968, Rabat
* **Hamet (Ismaël) :**
  – Un sultan marocain, Bul. de l'enseignement, nº 27/1921 Rabat
  – Les Musulmans de l'Af. du Nord, in Revue du monde mus. T 22/1913
* **Hanon (Rosette-Reynaud) :**
  – Quatre documents inédits, in Hespéris, Fas. III, 1960 Rabat.
* **Hervé Gueneron :**
  – La Libye,Collection Que sais-je nº 1634, Paris
* **Hœfer (M.F.) :**
  – Empire du Maroc, Edit. Firmin – Didot Frères, Paris, 1848
  – Afrique Australe (supplément à l'ouvrage précité)
* **Joli (A.)**
  – Les négociations du Maroc avec l'Espagne à la veille de la guerre de 1859-1860, in Archives marocaines, 8 /1906
* **Julien (Ch. André) :**
  – Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris, 1952
* **Kœhler :**
  – Quelques points d'histoire sur les captifs de Meknès, in Hespéris, 2è trim. 1928.
* **L.B.**
  – Une lettre d'El-Hiba, Revue du Monde musulman, T 26/1914
* **Le Bel (Roland) :**
  – Le Maroc dans les relations des voyages anglais, in Hespéris, 4/1929
  – Les premières relations entre les Etats-Unis et le Maroc, Bul. de l'enseignement, nº 161/1938

* **Le Chatelier :**
  – L'histoire dans l'Afrique Occidentale, Paris, 1899.
* **Le Cureul Xavier :**
  – Histoire des douanes au Maroc, Archives marocaines 15/1908
* **Léon l'Africain :**
  – Description de l'Afrique. Traductions de A. Epaulard, Paris, 1956
* **Marçais (G.) :**
  – Manuel d'art musulman, Edit. Auguste Picard, Paris, 1927
* **Martin (A.G.P.) :**
  – Le Maroc et l'Europe, Paris, 1928
* **Marty (Paul) :**
  – Le Sahara espagnol in Revue du Monde mus. T 46/1921
* **Masson (Paul) :**
  – Histoire des établissements et du commerce français : 1560-1793, Lib. Hachette, Paris, 1903
* **Mercier (L) :**
  – L'administration marocaine à Rabat, in Arch. maroc. Vol 7/1906, Paris
* **Michaux – Bellaire :**
  – Le Gharb. Arch. maroc. Vol. 20, Paris 1913
  – Fès et les tribus berbères en 1906, in Bul. de l'enseignement, n° 37/1922
  – Les crises monétaires au Maroc, in Revue du Monde mus. T 38/1920, Paris.
  – Al-Raïsouni, in Revue du Monde mus. Paris, 1908
  – Les impôts marocains, Arch. Maroc. 1/1904
* **Michaux-Bellaire et G. Salmon :**
  – Les tribus arabes de la vallée de Lekkous, in Arch. Maroc. 4/1905
* **Miège (J.L.) :**
  – Le Coton au Maroc au 19è siècle, in Bul. de l'enseignement, n° 219/1952, Rabat.
  – Les Européens à Casablanca au 19è siècle, I.H.E.M., Lib. Larose, Paris, 1954
  – Le Maroc et l'Europe (1830-1894), T II, Presses Universitaires, Paris, 1961.
* **Mission Scientifique (Résidence Générale, Rabat) :**
  – Villes et tribus du Maroc (Tanger et sa zone), Edit. Ernest Leroux, Paris, 1921
* **al-Oufrani Mohammed :**
  – Nuzhat al-hâdî, trad., Houdas, Edit. Ernest Leroux, Paris, 1889
* **Palau (Mariano Arribas) :**
  – Datos sobre el comercio entre Espana y Marruecos de Mulay al-Yazid, in Hespéris, 1972, Rabat.
  – Cartas arabes de Marruecos en tiempo de Mulay al-Yazid, Edit. Cremades, Tetuan, 1961

* **Penz (Ch.) :**
  – Les captifs français au Maroc, Rabat, 1944.
* **Péretié (A.) :**
  – Les médersa de Fès, in Archives Marocaines, Vol, 28/1912
* **Provençal (L.)**
  – Ouazzan, maison de la garantie, in Bul. de l'enseignement, Dec. 1922.
* **Quedenfeldt :**
  – Division et répartition de la population berbère au Maroc. Alger, 1904.
* **Robert Ricard :**
  – La place de Mazagan au début du 17è siècle. Edit. Paul Geuthner, Paris, 1932
* **Roux (Arsène) :**
  – Quelques documents manuscrits sur la campagne de Moulay Hassan, in Hespéris, lè trim. 1936. Rabat.
* **Salmon (G.) :**
  – Une tribu du Maroc : La Fahciya, in Arch. Maroc. 1/1904.
  – L'administration marocaine à Tanger (idem)
  – Le commerce marocain à Tanger (idem)
* **Salmon (G.) et Michaux Bellaire. (Voir Michaux Bellaire)**
* **Sémach (V.D.) :**
  – Alliance Israïlite Universelle, in Bul. de l'enseignement, n° 83 1927, Rabat.
  – Le Judaïsme marocain, in Bul. de l'enseignement, n° 145/1936
  – Charles de Foucauld chez les Juifs in Bul. de l'ens. n° 147/1936
  – L'Abbé Grégoire et l'émancipation des Juifs. in Bul. de l'Ens. n° 116/1931
* **Slama (B.) :**
  – L'insurrection de 1864 en Tunisie. Maison Tunisienne de l'Edition, Tunis, 1967
* **Temimi (A.) :**
  – Inventaire sommaire des fonds arabes et turcs de l'Afrique, in Revue d'Histoire maghrébine, 1/1974.
* **Terrasse (H.) :**
  – Histoire du Maroc, Edit. Atlantides, Casablanca, 1949
* **Tlili Béchir :**
  – Etude d'histoire sociale tunisienne. Université de Tunis, 1974.
* **Turin (Y.) :**
  – Culture et politique au 19è siècle, in Revue d'Histoire maghrébine, n° 1/1974 Tunis.
* **Westerck (M. Edward) :**
  – Les croyances aux esprits au Maroc, in Revue Le monde musulman, T 44/1921, Paris.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع

الفصل الثالث

هيمنة الجيش واستفحال أزمة العرش 1727 – 1757

الفصل الرابع

الانفتاح وإعادة إقرار الوحدة الوطنية 1757 – 1790

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

التكتلات الإقليمية ومراجعة الموقف المغربي تجاه أوروبا

1790 – 1822

الموضـــوع	الصفحة

الفصل السادس
المغرب في مواجهة الغزو العسكري شرقا وشمالا
1873 - 1822

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع
تدويل القضية المغربية
مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز 1873 - 1907

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن
الاكتساح العسكري الأجنبي وإقرار الحماية

الموضـــوع	الصفحة

القسم الثاني : مؤسسات الحُكْم وأنظمته

الفصل الأول
النظام السياسي

الفصل الثاني
النظام العسكري والحربي

الفصل الثالث
النظام الاداري الإقليمي

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني
الحياة الاقتصادية

الفصل الثالث
العمران وهندسة البناء

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الرابع
الحياة الدينية



دار الرشاد الحديثة
98 شارع فيكتور هيجو
الهاتف : 27.48.17 — 27.32.56
الدار البيضاء